# المُعَلِّم وَمَرغَريتَّا

## ميخائيل بولغاكوف





ميخائيل بولغاكوف

# المعلِّم ومرغريتا

رواية

ترجمة: يوسف حلَّاق

مراجعة: عبد الله حبَّة



## ميخائيل بولغاكوف

# المعلِّم ومرغريتا

الكتاب: المعلّم ومرغريتا
تأليف: ميخائيل بولغاكوف
ترجمة: يوسف حلاق
مراجعة: عبد الله حبة

عدد الصفحات: 448 صفحة

الترقيم الدولي: 978-977-6483-15-6

رقم الإيداع: 2014/23727

الطبعة الأولى: 2015



الناشر:

دار التنوير للطباعة والنشر

مصر: القاهرة-وسط البلد -19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)-الدور 8-شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

# مقدمة الناشر

كتب بولغاكوف رواية المعلِّم ومرغريتا بين عامي 1928 و 1940، وتوفّي قبل أن ينهي مراجعة الرواية بالكامل. وقد نُشرت أول طبعة من الرواية في مجلة موسكو عامي 1966 و1967بعد حذف الكثير من الفقرات لأسباب تتعلق بالرقابة.

ثم ظهرت أول طبعة كاملة من الرواية عام 1973 في الاتحاد السوفياتي، طبعة قامت بإعدادها آنا ساكيانتس، ونشير إليها في الهوامش بـ «نسخة ساكيانتس». وظلّت هذه هي الطبعة الوحيدة حتى ظهرت طبعة أخرى أشرفت على إصدارها الناقدة ليديا يانوفسكايا عام 1989، ونشير إليها في الهوامش بـ «نسخة يانوفسكايا».

وبالطبع، تُرجمت الرواية إلى لغات أخرى عديدة، حتى قيل إنها أكثر الروايات الروسية ترجمة إلى الإنجليزية. فقد ترجمها لاريسا فولوخنسكي وريتشارد بيفيير إلى الإنجليزية. ونُشرت في طبعة ثانية من ترجمة هيو ألبن، وثالثة من ترجمة ديانا بورجن وكاثرين تيرنان أوكونور نُشرت عام 1995، والأخيرة أشهر ترجمة للرواية للإنجليزية، فقد أتت مصحوبة بتعليقات وملاحظات الأكاديمية الأمريكية إلنديا بروفير، المتخصِّصة في أعمال بولغاكوف.

وإننا في دار التنوير إذ نعيد نشر ترجمة يوسف حلاق، فقد قمنا بترجمة ملاحظات وتعليقات إلنديا بروفير المشار إليها أعلاه، ووضعناها في نهاية الكتاب. وهذه الملاحظات لا غنى عنها للقارئ، ففيها تشرح بروفير ما قد يكون غامضًا من إحالات ورموز تحفل بها الرواية.

وبسبب ظروف نشر الرواية بلغتها الأصلية، وتعدد، واختلاف، طبعاتها فقد قمنا بمراجعة نص يوسف حلاق على النص الإنجليزي لديانا بورجن وكاثرين تيرنان أوكونور، ولم نجد أي فقرات محذوفة. فالأستاذ يوسف حلاق اعتمد في الترجمة على نسخة ساكيانتس القديمة الكاملة. ونُشرت الترجمة في دار رادوغا العريقة عام 1990.

وبعدُ، فهذه الرواية، التي تُعدُ من أشهر أعمال الأدب الروسي وأكثرها صدقًا، مليئة بالإشارات إلى أماكن وأحداث حصلت وعاشها الكاتب في مرحلة تميزت بالخوف والاعتقالات والاغتيالات إبّان حكم ستالين، ما دفع بكاتب كبير مثل بولغاكوف لأن يؤجل نشر روايته، ويقوم بإجراء تعديلات عليها لمدة استمرت ما يزيد على عشر سنوات في محاولة للتعبير عن ذلك الخوف وعن حالة الجنون واللامعقول التي سادت تلك المرحلة في الاتحاد السوفييتي، وأيضاً في محاولة للمرور عبر مقص الرقيب.

إن المقاربة التي يقيمها بولغاكوف بين يوم صلب المسيح وماتلاه، وبين ما كان يحصل في موسكو تلك الأيام، والسخرية المبطنة والشخصيات الشيطانية وحالات الوهم والرعب في قالب ينقل أحداث واقعية حصلت إلى مرتبة الهذيان، إنما هو الإبداع الذي يميز هذه الرواية التي يصعب قراءتها كأي رواية كلاسيكية، أو على سبيل التسلية. وهذا ما دعانا في دار التنوير لمقارنة الترجمة التي تمت عن الروسية مع أشهر ترجمة إلى الانكليزية، كما دعانا إلى ترجمة التوضيحات التي تنير الرموز والوقائع التي يستخدمها بولغاكوف والتي تحيل على أحداث وأفكار كبرى.

إن سوداوية الواقع، وانقطاع الأمل، وحياة البؤس التي لا أمل بالخروج منها، وإجبار الناس على الخضوع، كل ذلك يجعلهم ضعفاء وعلى استعداد لتقبّل كل شيء، بما في ذلك الشيطان والسحر. وتصبح شخصيات مثل فولند وبيغموت وكوروفييف، شخصيات مقبولة، بل محبوبة طالما أنها تقدِّم للناس ما يحلمون بالحصول عليه من لباس على الموضة، وعملة أجنبية، ومسكن مقبول، وحب حقيقي، وإبداع بلا خوف، و...حرية.. هكذا تلحق مارغريتا بالشيطان لأنه يحقق حلمها بالعيش مع حبيبها. وبيزدومني، الذي لايؤمن بشيء، يرضخ لفكرة وجود الشيطان...

من فاوست، ومن المسيح في مواجهة بيلاطس، ومن متّى ويهوذا، وكانط، وتولستوي، وغوغول وغيرهم، يستمد بولغاكوف رؤيته في مواجهة تلك الأيام الشديدة الوطأة على الناس في الاتحاد السوفياتي، حيث يغرق الناس في الأوهام، أو يسعون عن طريق التزلّف والخداع لتحسين أوضاعهم.. إنه يواجه بروح هزلية ساخرة تلك الأوضاع السوريالية البائسة.

الناشر

# الجزء الأول

...ومن أنت إذن؟
أنا من تلك القوة التي تريد دائمًا الشر، ولا تفعل دائمًا إلا الخير.
غوته، «فاوست»

# الفصل الأول

## لا تتحدثوا أبدًا إلى أغراب!

في أصيل يوم من أيام الربيع لم يُعْرف لحرِّه مثيلٌ، ظهر في بتريرشيي برودي في موسكو ذات مرة مواطنانِ. كان أحدهما، وهو الذي يرتدي بذلة صيفية رمادية اللون، قصير القامة مكتنز الجسم أصلع يحمل بيده قبعته اللائقة على شكل فطيرةٍ وعلى وجهه المحلوق بعناية استقرت نظارة في إطار قرني أسود ذات مقاس غير عادي. أما الثاني، وهو شاب عريض الكتفين أشعث الشعر لونه ضارب إلى الحمرة، على رأسه قبعة ذات مربعات، مائلة على قذاله، فكان يرتدي قميص كاوبوي وبنطالًا أبيض مكرمشًا وينتعل خفًّا أسود.

لم يكن المواطن الأول سوى ميخائيل ألكسندروفتش برليوز، رئيس مجلس إدارة واحد من أكبر تجمعات موسكو الأدبية المعروفة اختصارًا باسم ماسوليت، ورئيس تحرير مجلة أدبية سميكة. أما رفيقه الشاب فهو الشاعر إيفان نيقولايفتش بونيريف، الذي كان يكتب تحت اسم مستعارٍ هو بيزدومني.

كان أول ما فعله الكاتبان حين بلغا ظلال شجرات الزيزفون التي بدأت الخضرة تكسوها أن اندفعا إلى كشك صُبغ بألوانٍ مختلفةٍ كُتب عليه «بيرة ومياه معدنية».

ويترتب علينا هنا أن نشير أيضًا إلى وجه الغرابة الأول في هذا المساء الفظيع من أمسيات أيّار، إذ لم يكن هناك أحد، ليس قرب الكشك وحسب، بل في كل الممر الموازي لشارع مالايا برونايا، ففي هذه الساعة التي أخذت الشمس فيها تهوى في غلالة من الضباب الجاف وراء سادوفويي كولتسو بعد أن ظلَّت النهار كله تكوي موسكو بلهيب أشعتها ولم يعد، على ما يبدو، بمقدور المرء أن يتنفَّس، لم يأتِ أحد ليستظلّ بشجيرات الزيزفون، ولم يجلس أحد إلى مقعد في الحديقة، وخلا الممر خلوًا تامًا من العابرين.

قال برليوز يطلب ماء معدنيًا من المرأة الجالسة في الكشك: - «أعطني نارزان[1]».
أجابته المرأة وقد لاح على وجهها استياء لم يدرك سببه: - «ليس عندنا نارزان».
قال بيزدومني بصوت أبحَّ مستفسرًا: - «وهل عندك بيرة؟».
- «سيأتون بالبيرة عند المساء».
سأل برليوز: - «وماذا عندك إذن؟».
- «شراب المشمش، ولكنه ليس بارداً».
- «حسنًا، هاته، هاته، هاته!...».

نفث شراب المشمش رغوةً صفراء وافرة فسرت في الهواء رائحةٌ كرائحة دكان حلاقة. وما إن أتى الأديبان على شرابهما حتى أخذا يحزِّقان، فدفعا ما عليهما وجلسا على مقعد: وجهيهما إلى بركة الماء، وظهريهما إلى شارع مالايا برونايا.

وهنا حدثت المفاجأة الغريبة الثانية، وكانت تتعلق هذه المرة ببرليوز وحده. فقد توقَّف عن الحزق فجأة، ودق قلبه دقة وهوى إلى مكان ما لحظة ثم عاد إلى مكانه وقد انغرزت فيه إبرة كليلة. واستولى على برليوز، إلى ذلك، خوف غير مفهوم لكنه من القوة بحيث رغب في أن يعدو حالًا من بتريرشيي بردوي هاربًا لا يلوي على شيء. تلفَّت برليوز حوله بكآبة من دون أن يدرك ما الذي أخافه. كان وجهه ممتقعَ اللونِ. أخذ منديلًا ومسح به جبينه وقال في نفسه: «ما هذا الذي حدث لي؟ لم يحدث لي من قبل أبدًا... قلبي بدأ يوجعني... إنه الإعياء. آن لي كما يبدو أن أترك كل شيء وأرمي به إلى الشيطان وأذهب إلى كيسلوفودسك[2]...».

وهنا تكثَّف الهواء القائظ أمامه، ومن هذا الهواء تشكَّل رجل شفاف ذو منظر غريب جدّاً: تعلو رأسه الصغير قبعة فارس وعليه جاكيتة صغيرة ضيقة ذات مربعات... كان بطول ساجن[3]...، لكنه كان ضيِّق الكتفين ونحيفًا بشكل لا يصدَّق، وكان وجهه، وأرجو أن تلاحظوا ذلك، ينمّ عن السخرية.

ازداد امتقاع وجه برليوز الذي سارت حياته على نحو لم يعتد معه الظواهر الغريبة، وجحظت عيناه، وقال في نفسه وهو في حالة من البلبلة والاضطراب: «هذا غير ممكن، مستحيل!...»

ولكن هذا هو الذي حدث مع الأسف: كان السيد الطويل، الذي يمكن رؤية الأشياء

(1) هو نوع من المياه المعدنية مصدره شمال القفقاس. المترجم.
(2) منتجع في القفقاس مشهور بمياهه المعدينة. المترجم.
(3) الساجن مقياس روسي قديم للطول يساوى مترين وثلاثة عشر سنتيمترا. المترجم.

من خلاله، يتمايل أمام برليوز ذات اليمين وذات الشمال دون أن تمسّ قدماه الأرض.
وتملَّك برليوز رعبٌ جعله يُغمضُ عينيه. وحين فتحهما رأى أن كل شيء انتهى وأن السراب أمام عينيه قد اضمحل والسيد في الجاكيتة ذات المربعات اختفى والإبرة الكليلة انسحبت في الوقت نفسه من قلبه.
هتف رئيس التحرير: - «تفو، يا للشيطان!».
أردف برليوز محاولًا اصطناع ضحكة: - «هل تعلم، يا إيفان، أني كدت أصاب منذ برهة بنوبة بسبب هذا الحرّ! بل أصابني ما يشبه الهلوسة». لكن القلق كان ما زال يغشى عينيه والرعشة تسري في يديه.
لكنه عاد إلى هدوئه شيئًا فشيئًا وروّح وجهه بمنديل: - «أي، إذن...». قالها في شيء من الهمة والنشاط واستأنف الحديث الذي انقطع خلال تناوله شراب المشمش.
كان الحديث، كما عُرف في ما بعد، يتعلق بيسوع المسيح. والقضية هنا هي أن رئيس التحرير كان قد طلب من الشاعر قصيدة طويلة مناوئة للدين من أجل العدد القادم من المجلة.
ولقد كتب إيفان نيقولايفيتش هذه القصيدة، كتبها في فترة وجيزة جدًا، لكنها لم ترضِ رئيس التحرير في قليل أو كثير مع الأسف، لقد رسم بيزدومني الشخص الرئيسيَ في قصيدته، أي يسوع، بألوان جدّ قاتمة، ومع هذا كان عليه، في رأي رئيس التحرير، أن يعيد كتابتها من جديد. وها هو ذا رئيس التحرير يلقي الآن على الشاعر ما يشبه محاضرة عن يسوع ليبيِّن له الخطأ الأساسي الذي وقع فيه. ويصعب علينا القول على وجه الضبط ما الذي جعل إيفان نيقولايفتش يقف هذا الموقف الصعب: أهي قوّة موهبته التصويرية أم جهله الكامل بالموضوع الذي يتهيأ للكتابة فيه؟ لكن يسوع كما صوّره ظهر وكأنه شخص حي تمامًا، وإن لم يكن جذابًا. أما برليوز فكان يريد أن يبرهن للشاعر أن الشيء الرئيسي في الموضوع ليس ما إذا كان يسوع سيئًا أم جيدًا، بل إن يسوع هذا كشخصية لم يوجد إطلاقًا على الأرض، وأن كل ما يُروَى عنه إن هو إلا محض اختلاقٍ، إن هو إلا أسطورةٌ من تلك الأساطير المعروفة والمتداوَلة.
ويجدر التنويه بأن رئيس التحرير كان إنسانًا واسع الاطلاع، وبأنه كان يستشهد في حديثه - ببراعة فائقة - بالمؤرِّخين القدامى مثل فيلون السكندري المشهور، ويوسف فلافيوس صاحب الثقافة الرفيعة اللذين لم يذكرا كلمة واحدة أبدًا عن وجود يسوع. وأشار ميخائيل ألكسندروفتش في معرض حديثه، وهو صاحب المعرفة العميقة والمتعددة الجوانب فعلًا، إلى أن ذلك المقطع في الكتاب الخامس عشر والفصل

الرابع والأربعين من «حوليات» تاسيتوس المشهورة الذي يرد فيه حديث عن صلب يسوع ليس سوى تزوير دُسَّ في وقتٍ لاحق.

الشاعر، الذي كان كل ما يسمعه من رئيس التحرير جديدًا عليه، كان يصغي باهتمام إلى ميخائيل ألكسندروفتش محملقًا فيه بعينيه الخضراوين والأريبتين لا يشغله عنه شاغل سوى الحزق الذي يتنابه بين حينٍ وآخر فيلعن شراب المشمش همسًا ويعود إلى الإصغاء.

وقال برليوز:

- «عمومًا، ليست هناك ديانةٌ من ديانات الشرق لم تلد فيها عذراء، إلهًا. والمسيحيون كغيرهم تمامًا ابتدعوا يسوعهم الذي لم يوجد أبدًا على هذه الأرض في حقيقة الأمر، وهم في ذلك لم يأتوا بجديدٍ. فلا بد من التركيز على هذا بالذات...».

كان صوت برليوز العالي يتردَّد في الممر الخالي، وبقدر ما كان ميخائيل ألكسندروفتش يتوغل في تلك المجاهل التي لا يستطيع التوغل فيها إلا إنسانٌ مثقفٌ جدًا دون خوف من أن تُلوى رقبته. كان الشاعر يتعرَّف على المزيد من الأشياء الشائقة والمفيدة عن أوزيريس المصري إله الخير وابن السماء والأرض، وعن الإله الفينيقي تموز، وعن مردوك وحتى عن إله أقل شهرة هو الإله الرهيب ويتسليبوسلي الذي كان الأزتيك في المكسيك يُجلُّونه أكبر الإجلال.

وفي اللحظة التي كان ميخائيل ألكسندروفتش يروي فيها للشاعر كيف كان الأزتيك يصنعون تمثال ويتسليبوسلي من العجين، في هذه اللحظة بالذات ظهر في الممر أول شخص.

في ما بعد، ولنقلها بصراحة - عندما فات الأوان - قدَّمت هيئات مختلفة إفاداتها التي تتضمَّن أوصافًا لهذا الشخص.

ومقارنة هذه الإفادات لا يمكن إلا أن تدعو إلى العجب. فقد جاء في الإفادة الأولى مثلًا، أن هذا الشخص كان قصير القامة ذا أسنان ذهبية يعرج على رجله اليمنى. وجاء في الإفادة الثانية أنه كان هائل القامة، تيجان أسنانه من البلاتين ويعرج على رجله اليسرى، أما الإفادة الثالثة فتذكر بإيجاز أنه لم تكن في هذا الإنسان علامات فارقة.

ويجدر بنا الاعتراف أن أيًا من هذه الإفادات لا يصلح لشيء.

نقول قبل كل شيء إن هذا الشخص لم يكن يعرج على أي من رجليه، وإنه لم يكن قصير القامة ولا هائلها. بل، بكل بساطة، طويل القامة. أما أسنانه فنصفها الأيسر كان ملبَّسًا بالبلاتين ونصفها الأيمن ملبَّسًا بالذهب. كان يرتدي بذلة رمادية ثمينة وينتعل

حذاءً أجنبيًا من اللون نفسه ويميل قبعته الرمادية على أذنه بفتوّة ويتأبّط عصا ذات مقبض أسود على شكل رأس كلب.

كان منظره يوحي بأنه في الأربعين أو تجاوزها قليلًا، ذو فم ملتوٍ وذقن محلوقة بعناية. أسمر اللون. عينه اليمنى سوداء واليسرى، لأمر ما، خضراء. حاجباه أسودان إنما أحدهما أعلى من الآخر. وباختصار كان أجنبيًا.

نظر الأجنبي شزرًا إلى كل من رئيس التحرير والشاعر حين مر بقرب المقعد الذي كانا يجلسان عليه، وتوقّف وجلس فجأة على المقعد المجاور على بعد خطوتين من الصديقين.

قال برليوز في سره: - «ألماني».

- «إنكليزي»، قال بيزدومني في سره، «عجيب، إنه لا يشعر بالحر مع هذه القفّازات».

تأمّل الأجنبي البيوت العالية المحيطة بالبركة على شكل مربع، وكان واضحًا أنه يرى في هذا المكان ما يثير اهتمامه.

ثم ثبّت نظره على الطبقات العليا التي كان زجاجها يعكس - على نحو يعمي الأبصار - الشمس المائلة والغاربة إلى الأبد عن ميخائيل ألكسندروفتش، ثم حوَّل بصره إلى الأسفل حيث بدأ لون الزجاج يَقْتَمُ مع حلول المساء، وابتسم ابتسامة ساخرة مترفِّعة، وزرَّ عينيه، ووضع يديه على مقبض العصا وأسند ذقنه إلى يديه.

وكان برليوز يتابع حديثه:

- «لقد وصفت يا إيفان بشكل رائع وساخر ميلاد يسوع بن الله، على سبيل المثال. لكن المسألة يا إيفان أنه وُلِدَت قبل يسوع مجموعةٌ كاملةٌ من أبناء الله كأدونيس الفينيقي، وأيتس الفريجي، وميتراس الفارسي[1] مثلًا. ومختصر الكلام أن أيًا من هؤلاء لم يُولَد ولم يُوجَد، بمن فيهم يسوع، وكان من الضروري، بدلًا من ميلاد المسيح ومجيء المجوس مثلًا، أن تصف الشائعات السخيفة حول هذا الميلاد... وإلا تبيَّن من قصتك أنه وُلِد فعلًا!..».

هنا حاول بيزدومني أن يوقف هذا الحزق الذي نغَّص عليه مزاجه، فحبس أنفاسه مما جعله يحزق بصوت أعلى وألم أكبر، وفي هذه اللحظة قطع برليوز حديثه إذ إن الأجنبي نهض فجأة وتوجه إلى الكاتبين.

نظر إليه هذان نظرة دهشةٍ وحيرةٍ.

(1) ثلاث شخصيات تاريخية أسطورية، ولدت من صلب آلهة. الناشر.

- «اعذراني من فضلكما»، قال بلكنة أجنبية دون أن يشوِّه الكلمات مع هذا. «إن كنت سمحت لنفسي دون معرفةٍ سابقةٍ... لكن موضوع حديثكما العلمي أثار اهتمامي بحيث...».

وهنا رفع طاقيته باحترام، فلم يكن أمام الصديقين إلا أن ينهضا وينحنيا مرحّبَين.

قال برليوز في سره: - «لا، الأرجح أنه فرنسي...».

قال بيزدومني في سره: - «بولوني؟».

من الضروري أن نضيف أن الأجنبي أثار من الكلمات الأولى التي نطق بها شعورًا من الاشمئزاز في نفس الشاعر، أما برليوز فكان أقرب إلى الإعجاب به، لا ليس الإعجاب بالضبط بل... كيف أقول هذا... ربما من الأنسب القول إن هذا الأجنبي أثار اهتمامه.

قال لهما بأدب: - «هل تسمحان لي بالجلوس؟»، فما كان من الصديقين إلا أن ابتعد أحدهما عن الآخر كأنما عفويًا ليفسحا له مكانًا بينهما. جلس الأجنبي بينهما برشاقة وانخرط في الحديث فورًا.

سأل الأجنبي برليوز وهو يرفع إليه عينه اليسرى الخضراء: - «إن لم يخنِّي سمعي تفضّلت وقلت إن يسوع لم يُوجد، أليس كذلك؟».

أجاب برليوز بتأدُّب: - «لا، لم تخطئ السمع، هذا ما قتله بالضبط».

هتف الأجنبي: - «آه، ما أمتع ما تقول!».

قال بيزدومني في نفسه وقد قطب جبينه: - «وما دخله في الأمر؟».

قال الغريب مستفسرًا وهو يستدير نحو اليمين باتجاه بيزدومني: - «وأنت موافق على ما يقوله محدِّثك؟».

بيزدومني الذي كان يحب التعبير عن أفكاره بطريقة مزوَّقةٍ أجاب مؤكِّدًا: - «مائة بالمائة بتمامها وكمالها!».

- «بديع!»، هتف محدثهما الطفيلي، ولسبب ما تلفَّت حوله كاللصوص ثم أردف وهو يخفض صوته الجهير: «اغفرا لي لجاجتي، لكني فهمت من بين أشياء أخرى أنكما لا تؤمنان بالله، أليس كذلك؟». وهنا اصطنع عينين مذعورتين وأردف: «أقسم أني لن أقول هذا لأحد».

- «نعم، نحن لا نؤمن بالله»، أجابه برليوز وهو يبتسم ابتسامة طفيفة من الذعر الذي بان في عيني السائح الأجنبي، «إنما يمكننا التحدُّث في هذا الموضوع بحرية تامة».

استلقى الأجنبي على ظهر المقعد وسأل وهو يكاد يزعق من شدة الفضول:
- «أنتما، أنتما ملحدان؟!».

أجابه برليوز وهو يبتسم: - «نعم، نحن ملحدان». أما بيزدومني ففكّر باستياءٍ: - «لقد علقت بنا هذه الإوزّة الأجنبية!».

صرخ الأجنبي العجيب وأدار رأسه يلتفت تارة إلى برليوز وتارة إلى بيزدومني:- «آه... يا للروعة!».

فقال برليوز بأدب دبلوماسي: - «في بلدنا الإلحاد لا يدهش أحدًا، فأغلبية الناس عندنا كفَّت منذ أمد بعيد، وعن وعي، عن تصديق هذه الخرافات حول الله».

وهنا بدر من الأجنبي تصرف غريب جدًا: فقد هبَّ واقفًا وشدَّ على يد رئيس التحرير المبهوت وهو يقول:

- «اسمح لي أن أشكرك من صميم قلبي!».

قال بيزدومني يستفسر وهو يغمز بعينه: - «علامَ تشكره؟».

أجابه هذا الرجل الغريب الأطوار القادم إليهما من وراء الحدود وهو يرفع إصبعه في حركة ذات معنى: - «على هذه المعلومات القيِّمة التي أراها في غاية الأهمية بالنسبة لي كسائح».

والظاهر أن هذه المعلومات القيِّمة أحدثت بالفعل أثرًا عظيمًا في نفس السائح، لأنه أخذ ينقِّل نظره بين البيوت بذعر، كأنه يخشى أن يرى في كل نافذة فيها ملحدًا.

قال برليوز في سره: «لا، إنه ليس إنجليزيًا...».

وقال بيزدومني: «أين تعلَّم الكلام بالروسية على هذا النحو، هذا هو المهم!»، وعبس من جديد.

وأردف الضيف الأجنبي بعد تفكير مشوب بالقلق: - «لكن اسمحا لي بسؤال: ماذا نفعل بتلك البراهين عن وجود الله وعددها خمسة على وجه الضبط كما هو معروف للجميع».

أجابه برليوز بأسف: - «هيهات! إن أيًا من هذه البراهين لا يساوي شيئًا، ولقد أودعتها البشرية الأرشيف منذ أمدٍ بعيد. ولا بد أنك توافقني على أنه، على مستوى العقل، لا يمكن أن يقوم أي برهانٍ على وجود الله».

وهتف الأجنبي: - «برافو، برافو! إنك تكرِّر حرفيًا فكرة الشيخ القلق إيمانويل في

هذه المسألة. لكن الشيء الغريب أنه قوَّض هذه البراهين الخمسة كلها تقويضًا كاملًا، وأقام برهانه الخاص، السادس، كأنما ليسخر من نفسه».

وأجابه رئيس التحرير المثقف معترضًا وهو يتبسم ابتسامة ذكاء: - «برهان كانط غير مقنع هو الآخر. وليس عبثًا ما قاله شيلر من أن أفكار كانط في هذه المسألة لا يمكن أن تُرضي إلا العبيد، أما شتراوس فكان، بكل بساطة، يسخر من هذا البرهان».

كان برليوز يتكلَّم، ويفكر في الوقت نفسه قائلًا في سرِّه: «لكن مع هذا من تراه يكون؟ وكيف يتكلَّم الروسية بهذه الطلاقة؟».

ولم يطِق إيفان صبرًا فانفجر يقول على نحو لم يتوقعه أحد: - «ولماذا لا يأخذون كانط هذا ويلقون به في سولوفكي نحو ثلاث سنوات على براهينه هذه!».

همس برليوز بارتباك: - «إيفان!».

لكن اقتراح إيفان إلقاء كانط في سولوفكي لم يدهِش الأجنبي، بل، على العكس، أثار حماسته، فهتف، ولمعت عينه اليسرى الخضراء المصوبة إلى برليوز: - «بالضبط، بالضبط! إنه المكان الذي يليق به! ولقد قلت له إذَّاك على الفطور: «الأمر أمرك، يا بروفيسور، لكنك أتيت بشيء غير متماسكٍ! قد يكون ما أتيت به شيئًا ذكيًا، لكنه مستغلق على الفهم، وسيسخرون منك».

حملق برليوز وأخذ يفكر: «على الفطور... قال لكانط؟... بماذا يهرف؟».

- «لكن الإلقاء به في سولوفكي غير ممكن»، استطرد الأجنبي موجِّهًا كلامه إلى الشاعر وغير عابئ بدهشة برليوز، «هذا غير ممكن لسبب بسيط وهو أنه كان موجودًا منذ أكثر من مائة عام، في مكان أبعد من سولوفكي كثيرًا ويستحيل إخراجه من هناك بأي شكل كان، أؤكد لك!».

ردَّ الشاعر المشاكس: - «وا أسفاه!».

- «وأنا آسف أيضًا لذلك»، قال الرجل المجهول مؤكدًا وعينه تلمع، ثم أردف: «لكن السؤال الذي يؤرِّقني هو التالي: إذا كان الله غير موجود فإني أتساءل: من ذا الذي يحكم الحياة الإنسانية وبشكل عام يسيّر النظام القائم على الأرض؟».

بادر بيزدومني إلى الإجابة بصرامة عن هذا السؤال الذي يجب الاعتراف أنه لم يكن واضحًا جدًا بالنسبة إليه: - «الإنسان ذاته هو الذي يحكمها».

وردَّ المجهول برقَّة: - «العفو، لكن كي يستطيع الإنسان أن يحكم، يجب أن تكون لديه بشكل أو آخر خطة دقيقة لفترة معقولة إلى حدٍّ ما. فاسمحا لي بتوجيه هذا السؤال: كيف يستطيع الإنسان أن يحكم إذا كان عاجزًا ليس فقط عن وضع خطة، أي خطة،

لفترة وجيزة تافهة، ولنقل لألف سنة قادمة، بل عاجز عن ضمان غده هو؟ »، وهنا استدار المجهول نحو برليوز، «وبالفعل تصوَّر أنك، على سبيل المثال، أخذت تحكم وتتصرف بالآخرين وبنفسك، وأنك أخذت على وجه العموم، تستطيب ذلك وفجأة... كخ... كخ، يتبين أن عندك ورمًا خبيثًا في الرئة...»، هنا أطلق ضحكة في تلذذ كأنما بعث ذكر الورم الخبيث في الرئة الرضا في نفسه، «أجل، ورم خبيث»، قال مردِّدًا هذه العبارة المجلجلة وهو يزرّ عينيه كالقط، «إذّاك ينتهي حكمك، فلا يعود يهمك مصيرٌ سوى مصيرك ذاته، ويأخذ أهلك الأقربون بالكذب عليك. أما أنت، وقد أحسست بأن الأمر ليس على ما يرام، فتندفع تتردَّد على الأطباء أولًا ثم على المشعوذين. ولربما ذهبت إلى البصَّارات، مع أنك تدرك أن هذا كله دون جدوى، وتأتي النهاية المأساوية: ها هو ذا الذي كان إلى فترة وجيزة يحسب أنه يحكم شيئًا ما ويسيّره يرقد الآن فجأة دون حراك في صندوق خشبي، وإذ يدرك المحيطون به أن لا نفع في هذا الراقد أمامهم، يلقون به في المحرقة. وقد يحدث ما هو أسوأ: يتهيَّأ أحدهم للذهاب إلى كيسلوفودسك». وهنا ضيَّق الأجنبي عينيه ناظرًا تجاه برليوز، «إنه أمر تافه كما يبدو، إلا أنه لا يستطيع تحقيق حتى هذا الأمر التافه، لأن قدمه تزلّ به فجأة لسبب لا يدريه فيقع تحت عجلات حافلة كهربائية!! فهل تقول بعد هذا إنه هو الذي حكم نفسه على هذا النحو؟ أليس من الأسلم القول إن شخصًا آخر هو الذي حكمه؟». وهنا أطلق المجهول ضحكة غريبة.

برليوز، وهو يستمع إلى هذا الحديث المزعج عن الورم والحافلة باهتمام عظيم، أحسَّ أن بعض الأفكار المقلقة أخذت تؤرِّق باله: «إنه ليس أجنبيًا!» قال في نفسه: «إنه ليس أجنبيًا!... إنه شخص غريب، غريب جدًا، ولكن من تراه يكون؟».

التفت الرجل المجهول إلى بيزدومني فجأة وقال: - «إنك تريد أن تدخِّن كما أرى، أي السجائر تريد؟».

سأله الشاعر الذي نفدت سجائره بتجهُّم: - «وهل لديك أنواع منها؟».

كرر المجهول سؤاله: - «أيها تفضل؟».

أجابه الشاعر بحقد: - «فلتكن «ناشا ماركا» مثلًا».

أخرج الغريب من جيبه فورًا علبة سجائر وقدَّمها إلى بيزدومني: - «ناشا ماركا».

لم يُبهت رئيس التحرير والشاعر لوجود سجائر «ناشا ماركا» بالذات في العلبة بقدر ما بُهتا للعلبة ذاتها. فقد كانت من الذهب الخالص هائلة الحجم لمع على غطائها حين فتحه مثلثٌ من الماس ذو بريقٍ أزرق وأبيض.

هنا فكَّر كل من الأديبيْن على نحو مختلف، وقال برليوز في نفسه: «لا، إنه أجنبي». وقال بيزدومني: «ليأخذه الشيطان، من تراه يكون؟».

أخذ الشاعر وصاحب العلبة يدخنان في حين امتنع برليوز الذي لم يكن يدخن عن تناول سيجارة، فقد قرَّر في نفسه: «يجب أن أرد عليه هكذا: أجل، الإنسان فانٍ، لا أحد يماري في ذلك. لكن القضية أن...».

ولم يكد ينطق هذه الكلمات في نفسه حتى قال الأجنبي: - «أجل، الإنسان فانٍ، لكن هذه ليست سوى نصف مصيبة، والأسوأ منها أنه يموت أحيانًا ميتة فجائية وهنا سرّ الأمر! فهو، على أي حالٍ، لا يستطيع أن يقول ما الذي سيفعله مساء اليوم».

«يا له من طرح سخيف للمسألة...» فكَّر برليوز في سره وأردف يقول معترضًا: «لا! إنك تبالغ هنا، فأنا أعرف على نحو دقيق إلى حدٍّ ما، ما سأفعله مساء... بطبيعة الحال، إذا لم تسقط على رأسي في شارع برونايا قرميدة...».

لكن الرجل المجهول قاطعه بصوت رزين: - «لم يحدث أبدًا أن سقطت قرميدة على رأس أحد هكذا فجأة، دون سبب. وأريد هنا أن أؤكد لك خاصة أن مثل هذا الخطر لا يتهددك على الإطلاق، فأنت ستموت لسبب آخر».

- «لعلك تعرف نوع الميتة التي سأموتها بالضبط؟». قال برليوز مستفسرًا بسخرية واضحة تمامًا وهو يشعر أنه ينخرط في حديث سخيف بالفعل. - «هلَّا قلت لي؟».

أجابه الرجل الغريب، وأخذ يقيسه بعينيه كأنما يستعد لخياطة بذلة له، وغمغم بين أسنانه شيئًا من هذا القبيل: «بكل سرور، واحد، اثنان... عطارد في البيت الثاني... غاب القمر... ستة، مصيبة... مساء، سبعة...». ثم أعلن بصوت عالٍ ومغتبط: «سيُقطع رأسك!».

حملق بيزدومني في هذا الغريب القليل الحياء بحقد ووحشية، أما برليوز فسأله وهو يصطنع ابتسامة ساخرة: - «من الذي سيقطع رأسي؟ هل هم الأعداء؟ أيادٍ خارجية؟».

أجابه محدثه: - «لا، بل امرأة روسية، كومسومولية».

- «هم...». جمجم برليوز الذي أخذت مزحة هذا الغريب تثيره، «لكن العفو، هذا أمر قليل الاحتمال».

وأجابه الأجنبي: - «وأنا بدوري أطلب منك العفو، لكن هذا ما سيكون. آه، بودِّي أن أسألك عمَّا تنوي أن تفعله مساء اليوم، إذا لم يكن في الأمر سرٌّ».

- «لا يوجد أي سرٍّ. الآن سأعرج على بيتي في سادوفايا، وفي الساعة العاشرة من هذا المساء سيُعقد اجتماع في ماسوليت وسيكون برئاستي».

اعترض الأجنبي جازمًا: - «لا، لا يمكن أن يكون هذا مطلقًا».

- «لماذا؟».

- «لأن...»، أجاب الأجنبي، وتطلّع بعينين مزرورتين إلى السماء حيث كانت الطيور السود تدوِّم بصمت وقد استشعرت برودة المساء، «لأن آنوشكا اشترت زيت عبّاد الشمس، ولم تشترِه وحسب بل أراقته. وعلى هذا لن يُعقد الاجتماع».

وهنا، كما هو مفهوم تمامًا، خيَّم الصمت على الجالسَين تحت شجرات الزيزفون.

أردف برليوز بعد فترة وهو يتطلّع إلى هذا الأجنبي الذي ينطق بهذه السخافات: - «عفوًا ما شأن زيت عباد الشمس هنا... وأي آنوشكا هذه؟».

وقال إيفان فجأة وكأنه قرَّر، في ما يبدو، إعلان الحرب على محدثهما المتطفِّل:

- «إليكم ما شأنه، ألم يصدق، يا حضرة المواطن، أن كنت في مصحة للأمراض النفسية؟».

هتف ميخائيل ألكسندروفتش بصوت خفيض: «إيفان!...».

لم يبدُ على الأجنبي أي ضيق، بل على العكس أطلق ضحكة تفيض بالبهجة والغبطة. هتف، وهو يضحك، إنما دون أن يحول عينه غير الضاحكة عن الشاعر: - «بلى، كنت، وأكثر من مرة! وأي مكان لم أكن فيه! وإن آسف على شيء فعلى أنه لم تُتح لي هناك فرصة سؤال البروفيسور عن الشيزوفرينيا، فهلا سألته عنها يا إيفان نيقولايفتش!».

- «ومن أين عرفت اسمي؟».

- «عفوك، يا إيفان نيقولايفتش، ومن لا يعرفك»، وهنا أخرج الأجنبي عدد الأمس من صحيفة «ليتيراتورنايا غازيتا» من جيبه، فرأى إيفان نيقولايفتش صورته على صفحتها الأولى وتحتها قصيدته. لكن هذه القصيدة التي كانت عنوان مجده وشهرته، والتي ملأت قلبه غبطة بالأمس، لم تبعث في قلبه أي شعور بالغبطة الآن. فقال وقد تجهَّم وجهه: - «أستميحك العذر، ألا تستطيع أن تنتظرنا دقيقة؟ أريد أن أقول كلمتين لرفيقي».

هتف الغريب: - «أوه، بكل سرور، المكان رائع هنا تحت أشجار الزيزفون، وأنا، على أي حال، لست على عجلة من أمري».

همس الشاعر وهو يسحب برليوز جانبًا: - «اسمع ما أقوله لك يا ميشا، إنه ليس سائحًا أجنبيًا بل جاسوس. إنه مهاجر روسي تسلّل إلينا. أطلبْ منه وثائقه وإلا هرب...».

همس برليوز هو الآخر وقد ساوره القلق: - «هل تظن ذلك؟». بينما ردَّد في سره: «لكن إيفان على حق، إنه على حق!».

- «صدِّقني»، وشوش إيفان برليوز في أذنه بصوت أجشّ، «إنه يتظاهر بالغباء لكي يحصل على معلومات. ألم تسمع كيف يتكلَّم الروسية»، أردف إيفان وهو يتطلَّع إلى الغريب بطرف عينه كي لا يفرّ، «هيا بنا نوقفه وإلا هرب...». وأمسك الشاعر بيد برليوز وجذبه نحو المقعد.

لم يكن الغريب يجلس، بل يقف إلى جانب المقعد وهو يمسك بيده كتيِّبًا ذا غلافٍ رماديٍ داكن وظرفًا سميكًا من ورق صقيل وبطاقة زيارة.

- «اعذراني لأنني في غمرة النقاش نسيت أن أقدِّم نفسي، هذه بطاقتي وجواز سفري ودعوة للقدوم إلى موسكو للتشاور».

قال الغريب برَزانة وهو يلقي على الأديبين نظرة ثاقبة.

ارتبك الأديبان، قال برليوز في سره: «يا للشيطان، لقد سمع كل شيء!» بحركة مهذَّبة أفهم الغريب أن لا ضرورة لإبراز وثائقه، لكن الشاعر استطاع، فيما كان الغريب يمد يده بالوثائق إلى برليوز. أن يقرأ كلمة بروفيسور والحرف الأول من كنيته «ف» مكتوبًا مرتين على بطاقة الزيارة بأحرف لاتينية.

غمغم رئيس التحرير وقد بدا عليه الارتباك: - «تشرَّفنا». بينما أخفى الأجنبي الوثائق في جيبه.

وهكذا عادت الأمور بينهم إلى مجاريها فجلسوا على المقعد ثانية.

سأله برليوز: - «أتلقَّيت الدعوة للحضور إلينا بصفة مستشار يا بروفيسور؟».

- «نعم، بهذه الصفة».

سأله بيزدومني مستفسرًا: - «ألماني، أليس كذلك؟».

- «أنا؟...». أعاد البروفيسور السؤال واستغرق في التفكير فجأة ثم أردف: «نعم، ألماني إن شئت...».

أشار بيزدومني: - «إنك تتكلَّم الروسية بشكل رائع».

- «عمومًا أنا عليم باللغات، وأعرف عددًا كبيرًا جدًا منها».

قال برليوز مستفسرًا: - «وما هو اختصاصك؟».

- «أنا اختصاصي بالسحر الشيطاني».

قال ميخائيل ألكسندروفتش في سِرِّه وهو يحس بشيء يدقُّ صدغيه: «غريبة!...»

لكنه أردف يسأله بصوت متلعثم: - «و... و... أنت هل دُعيتَ بسبب اختصاصك هذا؟».

- «نعم، بسببه»، قال البروفيسور مؤكِّدًا وأردف يوضِّح الأمر: «لقد عُثر في المكتبة الوطنية عندكم على المخطوطات الأصلية للاختصاصي في السحر الشيطاني هربرت أفريلاكسكي من القرن العاشر. والمطلوب مني أن أحقِّقها، إذ إني الاختصاصي الوحيد في العالم في هذا المجال».

سأله برليوز بشعور من الارتياح والاحترام: - «آ... آ... أنت مؤرِّخ إذن؟».

- «نعم، مؤرِّخ»، أجابه العالِم مؤكِّدًا، وأردف قائلًا بلا مناسبة: «اليوم مساء ستحدث قصة مثيرة في بتريرشيي برودي!».

وتولَّت رئيس التحرير والشاعر من جديد دهشة عظيمة، لكن البروفيسور أومأ إليهما وهمس يقول لهما وقد مالا نحوه: - «ليكن في علمكما أن يسوع وُجِدَ».

أجابه برليوز وهو يصطنع ابتسامة: - «بطبيعة الحال، يا بروفيسور، نحن نحترم معارفك الواسعة، إنما لنا وجهة نظر أخرى في هذه المسألة».

أجاب البروفيسور الغريب: - «لا داعي لأي وجهات نظر! لقد وُجدَ، ولا شيء أكثر من ذلك».

أخذ برليوز في الاعتراض: - «إنما لا بد من برهان...».

- «لا حاجة إلى أية براهين»، أجابه البروفيسور وأردف يقول بصوت خافت وقد اختفت لكنته لسبب لم يدرياه: «الأمر في غاية البساطة: في بُردةٍ بيضاء...

## الفصل الثاني

# بيلاطس البنطي

في بُردةٍ بيضاء ذات بطانة حمراء بلون الدم، وفي مشية فرسان متثاقلة، خرج حاكم اليهودية بيلاطس البنطي، إلى رواق الأعمدة المسقوف الذي يصل بين جناحَيْ قصر هيرودس العظيم، في الصباح الباكر من يوم الرابع عشر من نيسان.

أشد ما كان الحاكم يكرهه على وجه هذه الأرض هو رائحة عطر الورد، وكان كل شيء ينبئ الآن أن أمامه يومًا سيئًا، ذلك أن هذه الرائحة بدأت تطارده منذ الفجر، كان يبدو له أن أشجار السرْو والنخيل في الحديقة هي التي تنفث هذه الرائحة، وأن هذه الرائحة اللعينة تختلط برائحة الجلد والحرس. ومن البيوت الصغيرة وراء القصر، حيث نزلت الكتيبة الأولى من الفرقة الثانية عشرة المعروفة بالصاعقة التي واكبت الحاكم إلى أورشليم، كان يغمر الرواق دخانٌ ينسَلُّ إليه عبر الباحة العليا للحديقة، وكانت تخالط هذا الدخان المر، الذي ينبئ أن الطبَّاخين في الوحدات أخذوا يعدُّون الغداء، رائحة عطر الورد الدهنية تلك.

أيتها الآلهة، أيتها الآلهة، علام تعاقبينني؟

– «نعم، هذا واضح لا شك فيه! إنه هو، هو نفسه ذلك المرض الفظيع الذي لا شفاء منه، الشقيقة. لقد عاد من جديد. لا علاج له ولا مهرب منه. سأحاول ألا أحرِّك رأسي».

جلس الحاكم على أريكة أُعدت له على أرض الرواق المزينة بالفسيفساء قرب الفسقية. جلس دون أن يلتفت إلى أحد ومدَّ يده جانبًا.

وفي هذه اليد وضع أمين السر قصاصة من ورق الرِّق باحترام. مرَّ الحاكم مرورًا سريعًا بطرف عينه عليها دون أن يستطيع مغالبة تكشيرة الألم الذي ألَمَّ به، وأعاد ورقة الرق إلى أمين سره وقال له بجهد:

- «المتهم الذي من الجليل؟ هل حُوِّلت قضيته إلى حاكم الولاية؟».
- «نعم، أيها الحاكم».
- «وماذا كان رأيه؟».

قال أمين السر يشرح الأمر: - «رفض إعطاء رأي في القضية، ورُفع حكم الموت الذي أصدره المجمع الكبير إليك للمصادقة عليه».

قال الحاكم بصوت خفيض ووجنته تختلج: - «أحضروا المتهم».

وللحال دخل اثنان من الجنود إلى الشرفة، ذات الأعمدة، يقتادان من باحة الحديقة شخصًا في السابعة والعشرين من عمره تقريبًا، ووقفا به أمام أريكة الحاكم. كان هذا الشخص يرتدي ثوبًا يونانيًا[1] أزرق رثًّا ممزَّقًا، معصوب الرأس بعصابة بيضاء ذات سير حول جبينه، يداه موثقتان خلف ظهره، وتحت عينه اليسرى كدمة كبيرة وفي زاوية فمه سحجة تخثَّر دمها. كان المتهم يرنو إلى الحاكم بفضول مشوب بالقلق.

صمت الحاكم قليلًا، ثم سأله بصوت خفيض بالآرامية: - «أنت إذن من كان يحرِّض الشعب على هدم هيكل أورشليم؟».

كان الحاكم يجلس جامدًا كالحجر، لم تتحرَّك فيه وهو ينطق هذه الكلمات سوى شفتيه. ولم يكن على جموده هذا إلا لأنه كان يخاف تحريك رأسه الذي كان يؤلمه ألمًا فظيعًا.

انحنى الرجل الموثق اليدين إلى الأمام قليلًا وشرع يتكلَّم: - «صدِّقني أيها الإنسان الطيِّب...».

لكن الحاكم قاطعه على الفور من دون أن يتحرَّك فيه عضو ومن دون أن يرفع صوته: - «أأنا الذي تدعوه إنسانًا طيِّبًا؟ إنك لمخطئ. الجميع في أورشليم يتهامسون في ما بينهم أني وحش ضارٍ، وهذا صحيح تمامًا»، وأردف باللهجة الرتيبة نفسها: «إليَّ بقائد المائة قاتل الجرذان».

بدا للجميع أن الدنيا أظلمت على الشرفة عندما مَثَل مارك قائد المائة الخاصة الملقَّب «قاتل الجرذان» أمام الحاكم.

كان قاتل الجرذان طويل القامة، أطول كثيرًا من أي جنديٍ آخر من جنود الفرقة، وعريض المنكبين بحيث حجب بجسمه الشمس التي لمَّا تعلُ إلا قليلًا حجبًا تامًا.

وتوجَّه الحاكِم إليه باللاتينية: - «هذا المجرم يدعوني طيِّبًا. أخرجه من هنا دقيقة وافهمه كيف يكلِّمني. إنما إياك وتشويهه».

---

(1) ثوب يلقى على الخصر الأيمن وينعقد على الكتف اليسرى. المترجم.

شيَّع الجميع بأبصارهم مارك قاتل الجرذان الذي أومأ للمعتقل بيده أن يتبعه. أما الحاكم فقد ظل على جموده.

والواقع أن الجميع كانوا يتابعون قاتل الجرذان بأبصارهم حيثما ظهر بسبب طوله، أمَّا الذين يروْنه للمرة الأولى فيتابعونه بسبب وجهه المشوَّه أيضًا: ذلك أن أنفه هُشِّم ذات مرة بضربة من هراوة جرمانية.

اصطكت جزمة مارك الثقيلة على الفسيفساء، وتبعه الرجل الموثق بخطواتٍ خُرس. وران على الرواق صمت كامل لا يجرحه سوى الحمام يسجع في باحة الحديقة الموازية للشرفة، والماء يغنِّي أغنية غامضة لطيفة من الفسقية.

ووَدَّ الحاكم لو ينهض ويضع صدغه تحت التيار المنبجس من الفسقية ويتجمَّد في هذا الوضع، لكنه كان يعرف أن هذا أيضًا لن يفيده في شيء.

قاتل الجرذان، وبعد أن اقتاد المعتقل من الرواق إلى الحديقة، استلَّ سوْطًا من يد الجندي الواقف عند قاعدة تمثال برونزي، ولوَّح به برفق في الهواء، وهوى به على كتفي المعتقل. كانت حركة قائد المائة خفيفة لا مبالية، لكن الرجل الموثق سقط على الأرض فورًا كأنما قُطعت قدماه وقد انقطعت أنفاسه وشحب لون وجهه ودارت عيناه في محجريْهما.

رفعه مارك بيسر في الهواء بيده اليسرى وحدها كأنه كيس فارغ وأوقفه على قدميه وقال له بصوت أخنّ وهو ينطق الكلمات الآرامية بلكنة: - «عليك أن تدعو الحاكم الروماني الوالي وليس أي شيء آخر. عليك أن تقف بخشوع. هل فهمتني أم أضربك ثانية؟».

ترنَّح المعتقل لكنه تمالك نفسه فعاد إليه لونه والتقط أنفاسه وأجاب بصوت متحشرج: - «لقد فهمتك، لا تضربني». وبعد دقيقة عاد إلى وقفته السابقة أمام الحاكم.

وتردَّد صوت باهت، عليل: - «اسمك؟».

ردَّ المعتقل على عجل معبِّرًا بكيانه كله عن استعداده لإعطاء أجوبة واضحة وعدم إثارة المزيد من السخط: - «اسمي؟».

قال الحاكم بصوت خفيض: - «اسمي أنا أعرفه، لا تتظاهر بأنك أغبى مما أنت فعلًا. ما اسمك؟».

أسرع المعتقل يجيب: - «يشوع».

- «هل لك لقب تُعرف به؟».

- «الغانوصري».

- «وأين وُلدت؟».

- «في مدينة جامالا[1]»، أجاب المعتقل وهو يشير بحركة رأسه إلى أنه توجد هناك، في مكان ما بعيد عن يمينه في الشمال مدينة اسمها جامالا.

- «و مَن هما والداك؟».

أجاب المعتقل بحيوية: - «لا أعرف بدقة، إني لا أذكر والديّ، كان يُقال لي إن والدي سوري...».

- «أين محل إقامتك الدائمة؟».

أجاب المعتقل في حياء: - «ليس لي محل إقامة دائمة، إني أتنقَّل من مدينة إلى أخرى».

قال الحاكم: - «ما قلته يمكن التعبير عنه باختصار، بكلمة واحدة: متشرِّد. هل لك أقارب؟».

- «ليس لي أحد. أنا وحيد في هذا العالم».

- «هل تعرف القراءة والكتابة؟».

- «نعم».

- «هل تعرف لغة غير الآرامية».

- «نعم، اليونانية».

ارتفع الجفن المتورِّم قليلًا واستقرَّت عين الحاكم المغطَّاة بقشرة من الألم على المعتقل، بينما ظلَّت عينه الأخرى مغمضة.

وقال بيلاطس باليونانية:

- «أنت إذن الذي يتهيَّأ لهدم الهيكل وكان يدعو الشعب إلى ذلك؟».

وهنا دبَّت الحياة في المعتقل من جديد، ولم تعد عيناه تشيان بالذعر، وأجابه باليونانية:

- «إني أيها الإنسان الطيـ...» وهنا لاح الرعب في عيني المعتقل لكونه كاد يزلّ في الكلام، «إني أيها الوالي لم أسعَ يومًا في حياتي إلى هدم الهيكل، ولم أحرِّض أحدًا على هذا العمل الأخرق».

لاحت الدهشة على وجه أمين السر الذي كان منكبًا على منضدة واطئة يسجِّل شهادته، فرفع رأسه لكنه عاد فورًا يحنيه فوق ورقة الرق.

(1) مدينة يهودية قديمة تقع في هضبة الجولان. الناشر.

وعاد الحاكم يقول بالصوت الرتيب نفسه:

- «يفد إلى هذه المدينة في العيد أناس مختلفون، فيهم السحرة والمنجّمون والعَرَّافون والقتلة، وفيهم أحيانًا الأفَّاكون. أنت، مثلًا، أفَّاك، كذَّاب. لقد سُجِّل عنك بوضوح أنك كنت تحرِّض على هدم الهيكل، وهذا ما يشهد به الناس».

- «هؤلاء الناس الطيبون»، قال المعتقل وأردف على عجل: «أيها الوالي،هؤلاء لم يتعلَّموا شيئًا وشوَّشوا كل ما قلته، وبوجه عام بدأت أخشى أن تستمر هذه البلبلة وقتًا طويلًا جدًا. وذلك كله لأنه لا يُسجِّل ما أقوله بأمانة».

وران الصمت. وكانت العينان المريضتان ترمقان المعتقل بنظرات ثقيلة.

قال بيلاطس بصوت رخوٍ ورتيب: - «أكرِّر ما قلته لك، وللمرة الأخيرة: كفَّ عن التظاهر بالجنون أيها الوغد، ما سُجِّل عنك قليل لكنه كافٍ لشنقك».

قال المعتقل وهو يستجمع كل قواه رغبة في إقناعه: - «لا، لا أيها الوالي، هناك شخص يتبعني ومعه رِقٌ من جلد الماعز يسجِّل عليه دون انقطاع. وذات مرَّة اختلست نظرة إلى هذا الرق فتملَّكني الرعب. يقينًا، ليس في ما سجَّله هناك شيء مما قلته. فأخذت أتوسَّل إليه: احرق رقَّك هذا بحق الله! لكنه انتزع الرق من يدي وهرب».

سأله بيلاطس باشمئزاز ومدَّ يده إلى صدغه: «ومن يكون هذا الشخص؟».

أجاب المعتقل يوضِّح الأمر بطيب خاطر: - «إنه متَّى اللاوي، كان يجمع إتاوة، وقد التقيتُ به لأول مرَّة في طريق في فيفاجيا، هناك حيث يبرز بستان التين في هيئة زاوية، وخضت في حديث معه، عاملني في بادئ الأمر بعداء بل إنه أهانني، يعني أعتقد أنه يهينني بنعته إياي بالكلب»، هنا لاحت ابتسامة ساخرة على وجه المعتقل، «أنا شخصيًا لا أرى أي عيبٍ في هذا الحيوان حتى أغضب من هذه الكلمة...».

توقَّف أمين السر عن التسجيل وألقى خلسة على الحاكم هذه المرة، لا على المعتقل، نظرة دهشة.

قال يشوع متابعًا حديثه: - »...إلا أنه بدأ يلين بعد أن استمع إليَّ، وأخيرًا رمى أمواله على الطريق وقال إنه ذاهب يتجوَّل معي...».

رسم بيلاطس بوجنة واحدة فقط، ابتسامة ساخرة وتمتم وهو يكشِّر عن أسنانه الصفر ويستدير بكامل جذعه إلى أمين سره: - «أي. أورشليم! أي شيء لا تسمعه فيها. هل سمعت: جامع الإتاوة يرمي النقود على قارعة الطريق؟».

لم يدرِ أمين السر بماذا يجيب سيده، فرأى من الواجب أن يكرِّر ابتسامته.

- «إن النقود صارت بغيضة عليه»، قال يشوع شارحاً تصرفات متّى اللاوي الغريبة، وأردف: «ومن تلك اللحظة صار رفيق طريقي...».

ألقى الحاكم، وهو لا يزال مكشّرًا، نظرة على المعتقل ثم على الشمس التي لا تزال ترتفع باطّراد فوق تماثيل الجياد المنتصبة في ميدان السباق الممتد عن يمينه بعيدًا في الأسفل، وفجأة خطر له، وهو لا يزال يعاني من كآبة شديدة، أن أيسر الأمور أن يطرد هذا اللص الغريب من الشرفة بعد أن ينطق كلمة واحدة فقط «اشنقوه!»، وأن يطرد حرسه أيضًا، ويمضي من الرواق إلى داخل القصر فيأمر بتعتيم غرفته ويرتمي على متّكئِه ويطلب ماءً باردًا، وينادي بصوت حزين كلبه بنغا ويشكو له أمر الشقيقة. وفجأة لمعت في رأس الحاكم المريض فكرة مغرية، فكرة تناول السم.

نظر إلى المعتقل بعينين غائمتين ولزم الصمت حينًا وهو يحاول جاهدًا أن يتذكّر سبب وقوف هذا المعتقل بوجهه المشوّه بالضربات بين يديه في هذا القيظ الأورشليمي الصباحي الذي لا يرحم، وما هي الأسئلة التي يجب أن يطرحها عليه أيضًا، هذه الأسئلة التي لا تعني أحدًا ولا تهمّه هو.

سأل المريض بصوت أبَحّ وأغمض عينيه: - «متّى اللاوي؟».

تناهى إليه صوت عالٍ يزيد في عذابه: - «أجل، متّى اللاوي».

- «ومع هذا ألم تكلّم الشعب في السوق عن الهيكل».

بدا لبيلاطس أن صوت محدِّثه يخزه في صدغه وأنه يسبِّب له ألمًا لا يوصف. وكان هذا الصوت يقول له:

- «قلت، أيها الوالي، إن هيكل الإيمان القديم سيسقط وسيقوم هيكل الحقيقة الجديد. وما قلت هذا إلا ليصبح الأمر أكثر وضوحًا للناس وأقرب إلى أفهامهم».

- «ولماذا أثرت البلبلة والاضطراب في نفوس الناس في السوق، أيها المتشرِّد، بكلامك عن الحقيقة التي لا تدركها. ما الحقيقة؟».

وهنا قال الحاكم في سره: «أيتها الآلهة! إني أسأله عن أشياء لا لزوم لها في المحكمة... عقلي لم يعد يسعفني...»، ومرّة أخرى تراءت أمام عينيه الكأس وفيها سائل قاتم. «السم، إليّ بالسم!».

وعاد يسمع الصوت يقول له:

«تتمثّل الحقيقة قبل كل شيء في أن رأسك يؤلمك، وهذا الألم من القوة بحيث أخذت من جبنك تفكر في الموت، وأنت لست عاجزًا عن الكلام معي وحسب، بل إنك لا تستطيع التفكير في أي شيء، وجلّ مُناك أن يحضر كلبك، المخلوق الوحيد

الذي تشعر ببعض التعلُّق نحوه على ما يبدو. لكن آلامك ستزول بعد حين ويفارقك وجع رأسك».

حملق أمين السر في المعتقل ولم يكمل كتابة كلماته.

رفع بيلاطس إلى المعتقل عينين تفيضان بالعذاب فرأى أن الشمس قد ارتفعت في كبد السماء فوق ميدان الخيل وأن شعاعها انسلّ إلى الرواق وأخذ يمتد إلى نعل يشوع البالي، وأن يشوع يحاول تجنُّب الشمس.

وفجأة هبَّ بيلاطس واقفًا عن أريكته وضغط بيديه على رأسه، وقد لاح الرعب على وجهه الحليق الضارب إلى الصُّفرة. لكنه ما لبث أن كبته بجهد إرادي وعاد يتهالك على مقعده.

كان المعتقل في أثناء ذلك يتابع كلامه، لكن أمين السر لم يسجِّل أي شيء مما يقول، بل مدَّ رقبته كالإوزة وكل همِّه ألا يفوِّت أي كلمة من كلمات يشوع.

قال المعتقل وهو ينظر إلى بيلاطس بعين العطف: - «ها قد انتهى كل شيء، وأنا في غاية السرور لذلك. وبودي، أيها الوالي، لو أنصحك بمغادرة القصر لبعض الوقت والتنزه على الأقدام في أي مكان من الضاحية وليكن في البساتين التي على جبل الزيتون. ستهب عاصفة مطرية»، هنا استدار المعتقل وزرّ عينيه وهو يتطلع إلى الشمس، «ولكن ليس الآن، بل في ما بعد، قُبيل المساء، هذه النزهة، في ما أرى، ستعود عليك بنفع عظيم، وبودِّي لو أرافقك فيها، فقد راودتني بعض الأفكار الجديدة التي قد تبدو لك ممتعة، حسب رأيي، والتي أود تبادل الرأي فيها معك، لا سيَّما أنك تبدو لي إنسانًا على قدر كبير من الذكاء».

غشيت صُفْرة الموت وجه أمين السر وسقط الملف من يده على الأرض.

تابع الرجل الموثَق الذي لم يعد أحد يوقفه عن الكلام: - «مصيبتك أيها الوالي، أنك منغلق على نفسك أكثر مما ينبغي، وفقدت الإيمان بالناس تمامًا. ولا بد أن توافقني على أنه لا يجوز أن تقف كل تعلُّقك على كلب. حياتك تافهة أيها الوالي»، وهنا سمح الموثق لنفسه بابتسامة.

لم يعد يشغل فكر أمين السرّ الآن سوى أمر واحد:

أيصدِّق أذنيه أم لا. ولم يكن أمامه إلا أن يصدِّق، إذَّاك حاول أن يتصوَّر ما هو بالضبط الشكل الغريب الذي سيتخذه غضب الحاكم السريع الانفعال بعد سماعه هذه الوقاحة المنقطعة النظير. لكن أمين السر عجز، رغم معرفته الوثيقة بالحاكم، عن تصوُّر هذا الشكل.

عند ذاك سمع صوت الحاكم الأجشّ المحيط يقول باللاتينية:

- «حلُّوا وثاقه».

دقَّ أحد الجنود المرافقين الأرض برمحه وناوله إلى جنديٍ آخر، ثم دنا من المعتقل ونزع الحبل من يديه، أمَّا أمين السر، فرفع الملف عن الأرض وقرَّر ألا يسجل شيئًا وألا يُدهش لشيء إلى حين.

سأله بيلاطس بصوت خافت باليونانية: - «قل لي، هل أنت طبيب عظيم؟».

أجاب المعتقل وهو يفرك بمتعة رسغ يده الأحمر المدعوك والمنتفخ: - «لا، لست طبيبًا، أيها الوالي».

اخترم بيلاطس المعتقل بعينين عابستين، صارمتين وقد زال منهما زوغانهما وتطاير منهما شررهما المعهود.

قال بيلاطس: - «لم أسألك سابقًا، ألا تعرف اللاتينية يا ترى؟».

- «بلى أعرفها».

عاد إلى وجنتي بيلاطس الضاربتين إلى الصُّفرة لونهما فسأله باللاتينية:

- «كيف عرفت أني كنت أنوي مناداة كلبي؟».

أجابه المعتقل باللاتينية: - «هذا أمر في غاية البساطة، بسطت يدك في الهواء (وهنا كرَّر المعتقل حركة بيلاطس) كأنما كنت تريد أن تطبطب، وشفتاك...».

قال بيلاطس: - «أجل».

وصمتا حينًا، ثم سأله بيلاطس باليونانية:

- «إذن أنت طبيب».

أجاب المعتقل سريعًا: - «لا، لا، صدقني، لست طبيبًا».

- «حسن، إذا كنت تريد أن تحتفظ بهذا سرًا فليكن، إذ ليس له علاقة مباشرة بموضوعنا، أنت تؤكد إذن أنك لم تدعُ إلى هدم... أو حرق الهيكل أو تقويضه بأي طريقة كانت؟».

- «أكرِّر القول، أيها الوالي، إني لم أدعُ أحدًا للقيام بأعمال كهذه. أتراني معتوهًا أيها الوالي؟».

- «لا، لا، أنت لا تشبه معتوهًا»، أجاب الحاكم بصوت خفيض وابتسم ابتسامة غريبة مرعبة، - «أقسِم إذن أنه لم يحدث شيء من هذا».

سأل وقد صار محلول اليدين باندفاع: - «بماذا تريد أن أقسِمَ لك».

- «وليكن بحياتك»، أجاب الحاكم، «فهذا هو الوقت المناسب لتقسم بها فهي معلقة بشعرة، وعليك أن تعرف هذا».

- «أتعتقد حقًا، أيها الوالي أنك علّقتها؟ إذا كنت تظن ذلك فأنت على خطأ مبين».

ارتجف بيلاطس وقال له من بين أسنانه:

- «باستطاعتي قطع هذه الشعرة».

- «وفي هذا أيضًا أنت مخطئ». ردَّ عليه المعتقل وهو يشرق بابتسامة، ويستر وجهه من نور الشمس بيده. - «ألا ترى أيها الوالي أنه لا يستطيع قطع الشعرة إلا الذي علّقها؟».

أجاب بيلاطس وهو يبتسم: - «نعم، نعم، لا أشك الآن في أن العاطلين الكسالى في أورشليم تعقّبوك خطوة خطوة. لكني لا أدري من علّق لسانك في حلقك، إنما الذي علّقه علقه جيدًا. وبالمناسبة قل لي، أصحيح أنك أتيت أورشليم من باب سوز راكبًا على حمار تواكب الدهماء التي كانت تطلق الهتافات لك كما لو أنك نبي؟».

وهنا أشار الحاكم إلى المَلَف.

ألقى المعتقل على الحاكم نظرة ذهول وقال:

- «لا أملك حتّى حمارًا أيها الوالي. لقد دخلت أورشليم من باب سوز حقًا، ولكن على قدمَيَّ لا يرافقني إلا متّى اللاوي ولا يهتف لي أحد، لأنه لم يكن أحد في أورشليم يعرفني آنذاك».

وأردف الحاكم بيلاطس يسأله دون أن يحوّل نظره عنه:

- «ألا تعرف أشخاصًا باسم ديسماس، وهيستاس وبرّابان؟».

أجاب المعتقل: «لا أعرف هؤلاء الأشخاص الطيبين».

- «حقًا؟».

- «حقًا».

- «والآن، قل لي: لماذا تستعمل طوال الوقت هذه العبارة «الناس الطيبون». أراك تدعو كل الناس طيبين؟».

- «نعم كلهم، فليس هناك أشرار على هذه الأرض».

قال بيلاطس وهو يبتسم ابتسامة ساخرة: - «لأول مرة أسمع بهذا، ربما لا أعرف الحياة إلا قليلًا!». ثم التفت إلى أمين سره وقال له: «بإمكانك ألا تواصل التسجيل» مع أن أمين سره لم يكن يسجّل شيئًا، ثم استأنف موجهًا كلامه إلى المعتقل: «لعلك قرأت هذا في أحد الكتب اليونانية؟».

- «لا، بل توصَّلتُ إليه بعقلي».
- «وأنت تبشِّر به؟».
- «أجل».
- «إليك قائد المائة مارك على سبيل المثال، لقد لقُّب قاتل الجرذان، فهل هو إنسان طيب؟».

أجاب المعتقل: - «نعم، غير أنه إنسان سيئ الحظ في الحقيقة، لقد أصبح إنسانًا قاسياً جلفًا بعد أن شوَّهه الناس الطيبون، بِودّي لو أعرف من شوَّهه».

رد بيلاطس: - «أستطيع أن أخبرك بطيب خاطر، فقد شهدت ذلك بنفسي، لقد انقضَّ عليه الناس الطيبون كما الكلاب على دب، وأخذ الجرمانيون ينهشونه في رقبته ويديه ورجليه. كانت كتيبة المشاة قد طُوِّقت تمامًا، ولو لم تقتحم كتيبة الخيالة جناح العدو، وكنت أنا الذي يقودها، لما أُتيح لك، أيها الفيلسوف، أن تتحدَّث إلى قاتل الجرذان، ولقد حصل هذا في المعركة التي جرت قرب أديستافيزو، في وادي العذارى».

قال المعتقل فجأة كمن يحلم: - «حبَّذا لو أستطيع التحدث إليه قليلًا، فأنا على يقين أنه سيتغيَّر تغيرًا كبيرًا».

- «أعتقد أن قائد الفرقة لن يسرّ كثيرًا إذا فكَّرت في التحدُّث إلى أيٍّ من ضباطه أو جنوده. وعلى أي حال فإن هذا لن يحدث لحسن حظنا وحظك، وسأكون أنا أول من يهتم بذلك».

في أثناء ذلك اندفعت إلى الرواق سنونوة ودارت دورة تحت السقف المذهَّب، ثم حطت وهي تكاد تلمس بجناحها وجه تمثال نحاسي في المحراب وتوارت خلف تاج أحد الأعمدة، ربما راودتها فكرة بناء عش لها هناك.

وفي أثناء طيران السنونوة كانت قد تشكَّلت في رأس الحاكم، الذي عاد إليه إشراقه وصفاءه، الصيغة التالية: لقد درس الوالي قضية الفيلسوف المتشرِّد يشوع الملقب بالغانوصري ولم يرَ فيها أي ركن من أركان الجريمة، ولم يرَ أي علاقة بين أعمال يشوع والاضطرابات التي قامت في أورشليم من فترة، لقد تبيَّن له أن هذا الفيلسوف المتشرِّد مريض نفسيًا، وبالتالي فهو لا يصادق على حكم الموت الصادر عن المجلس الأصغر.

ولكن نظرًا لأن أقوال الغانوصري الجنونية، الخيالية قد تؤدِّي إلى اضطرابات في أورشليم، يقرِّر الحاكم إبعاد يشوع من أورشليم وسجنه في قيصرية ستراتونافا على البحر الأبيض المتوسط، أي على وجه الضبط هناك حيث محل إقامة الحاكم.

ولم يبقَ له سوى إملاء ما قرَّر على أمين سره.

صفَّقت السنونوة بجناحيها فوق رأس الوالي مباشرة، ومرقت باتجاه حوض الفسقية وانطلقت خارجًا، ورفع الحاكم عينيه إلى المعتقل فأبصر عمود غبار يرتفع بالقرب منه.

سأل بيلاطس أمين سره: - «هذا كل ما يتعلق به؟».

أجابه أمين السر على غير توقُّع: - «لا، مع الأسف». وقدَّم إلى بيلاطس قطعة أخرى من الرق.

تساءل بيلاطس وقطب حاجبيه: - «وماذا هناك أيضًا؟».

وما إن قرأها حتى ازداد لون وجهه تغيرًا: أهو الدم القاتم تدفَّق إلى رقبته ووجهه أم أن شيئًا آخر حدث له، لكن جلده فقد صُفرته ودكن، بينما بدت عيناه وكأنهما غارتا.

ومرة أخرى كان الدم الذي تدفَّق إلى صدغيه وأخذ يدقّهما دقًا هو السبب على الأرجح، إلا أن شيئًا ما ألمَّ ببصره، وهكذا فقد بدا له أن رأس المعتقل سبح إلى مكان ما لم يتبينه وحل محله رأس آخر، وعلى هذا الرأس الأصلع كان إكليل ذهبي قليل الأسنان، وعلى الجبين قرحة مدوَّرة مطلية بالمرهم تغطي الجلد، وكان فمه أدرد، غائرًا، وشفته السفلى متدلية، متقلِّبة. بدا لبيلاطس أن أعمدة الشرفة الوردية وأسطح أورشليم البعيدة، هناك وراء الحديقة، قد اختفت، وأن كل شيء حوله غرق في خضرة حدائق كابريا الكثيفة. وشعر أنه حدث شيء ما غريب لسمعه، كأنما عزفت أبواق في مكان ما بعيد عزفًا خافتًا متوعِّدًا، وسمع بوضوح تام صوتًا أخن يمطّ كلماته بعجرفة: «قانون القدح في الذات الملكية...».

ومرقت في ذهنه الأفكار قصارًا مفكَّكةً، غريبة: «هلكت!». ثم «هلكنا!..». وكانت إحداها، وهي في غاية السخف، تتعلَّق بخلودِ ما لا بد آتٍ (ومع مَنْ)، لكن هذا الخلود بعث فيه لأمر ما كآبةً لا تُحتَمل.

استجمع بيلاطس كل قواه، وطرد الرؤيا، وعاد ببصره إلى الشرفة، فرأى أمامه عيني المعتقل من جديد.

- «اسمع، أيها الغانوصري»، قال الحاكم وهو ينظر إلى يشوع نظرة غريبة: كان وجه الحاكم غاضبًا، لكن القلق كان يساور عينه، «هل قلت شيئًا في وقت من الأوقات في حق قيصر العظيم. أجبني! هل قلت... أم... لم تقل؟».

مط بيلاطس كلمة «لم» أكثر مما يفترض في محكمة، وضمن نظرته إلى يشوع فكرة بدا أنه كان يريد الإيحاء له بها.

أجابه المعتقل: - «قول الحقيقة يسيرٌ وعذب».

أجابه بيلاطس بصوت مخنوق، غاضب: - «لا يهمني أن أعرف إن كنت تطيب نفسًا بقول الحقيقة أو لا تطيب، إنما لا بد لك من قول الحقيقة وستقولها، لكن زِنْ كل كلمة من كلماتك إن كنت لا تريد لنفسك ليس ميتة محتمة وحسب، بل شنيعة أيضًا».

لا أحد يدري ما الذي حدث لحاكم اليهودية، لكنه سمح لنفسه أن يرفع يده كأنما ليتلقَّى أشعة الشمس ويبعث من ورائها، كما من وراء ترس، نظرة موحية:

- «أجبني إذن، هل تعرف شخصًا من قيريافا اسمه يهوذا؟ ماذا قلت له عن قيصر بالضبط، هذا إن قلت له شيئًا؟».

أخذ المعتقل يروي القصة بإقبال: - «حدث هذا على النحو التالي، مساء أمس الأول تعرَّفت قرب الهيكل إلى شاب قال إن اسمه يهوذا وأنه من مدينة قيريافا، وقد دعاني إلى بيته في القسم السفلي من المدينة وضيَّفني...».

سأله بيلاطس وقد لمعت نار جهنمية في عينيه: - «وهل هو إنسان طيب؟».

أجاب المعتقل مؤكدًا: - «طيِّب ومحب للمعرفة جدًا، وقد أبدى اهتمامًا عظيمًا جدًا بأفكاري واستقبلني بترحابٍ بالغ...».

قال بيلاطس بين أسنانه مجاريًا المعتقل بينما كانت عيناه تبرقان: - «وأشعل القناديل...».

تابع يشوع وقد أخذته الدهشة قليلًا لسعة اطلاع الحاكم: - «أجل، لقد طلب إليَّ إبداء رأيي في سلطة الدولة. فقد كانت هذه المسألة تثير بالغ اهتمامه».

سأله بيلاطس: - «وماذا قلت له؟، أم أنك ستجيبني أنك نسيت ما قلته؟». وكان في لهجة بيلاطس وهو يقول جملته الأخيرة هذه ما يوحي بأنه فقد أي أمل.

- «قلت له في ما قلت إن أي سلطة هي قهر يُمارس على الإنسان، وإنه سيأتي يوم لن تكون فيه سلطة لقيصر أو أي سلطة أخرى. إذَّاك ينتقل الإنسان إلى ملكوت الحقيقة والعدل حيث تنعدم الحاجة إلى أي سلطة».

- «وماذا أيضًا!».

قال المعتقل: - «لا شيء، عندها اقتحم أشخاص البيت فأوثقوني وقادوني إلى السجن».

كان أمين السر يرسم ما يسمع بسرعة على الرق محاولًا ألا تفوته كلمة.

وارتفع صوت بيلاطس الواهن والمريض يقول:

- «لم توجد الأرض، ولا توجد، ولن توجد أبدًا، بالنسبة إلى بني البشر سلطة أعظم وأروع من سلطة الإمبراطور تيباريوس!».

ولسبب ما كان الحاكم ينظر إلى أمين سرّه وحَرَسه نظرة حقد.

- «وأنت أيها المجرم المجنون ليس لك أن تتكلَّم في هذا الأمر!» وهنا صرخ بيلاطس: «أخلوا الشرفة من الحرس!» ثم استدار إلى أمين سره وأردف: «اتركني وحدي مع المجرم، فالقضية هنا تمس الدولة».

رفع الحرس رماحهم وخرجوا من الشرفة إلى الحديقة يدقُّون الأرض بنعالهم دقَّات رتيبة. وتبعهم أمين السر.

ورَانَ صمت على الشرفة بعض الوقت لم يقطعه إلا سقسقة الماء في الفسقية. رأى بيلاطس صحن الماء فوق الماسورة ينتفخ وتتكسَّر حوافه وتتساقط خيوطًا خيوطًا.

كان المعتقل أول من تكلَّم:

- «أرى أنه حلَّت مصيبة بسبب حديثي مع هذا الشاب من قيريافا. ولديَّ شعور داخلي، أيها الوالي، بأن مكروهًا سيصيبه، وإني لأرثى له كل الرثاء!».

أجابه الحاكم وهو يطلق ضحكة غريبة: - «أظن أنه يوجد على هذه الأرض من هو أحق برثائك من يهوذا القيريافي، ومن مصيره سيكون أسوأ كثيرًا من مصير يهوذا! ولكن قل لي، هل هذا السفَّاح مارك قاتل الجرذان الذي يقوم بمجازره عن قناعة وببرودة دم، وهل هؤلاء الناس الذين أوسعوك ضربًا على عِظاتك كما أرى»، وهنا أشار الحاكم إلى وجه يشوع المشوَّه، «وهل هذان اللصان ديسماس وهيستاس اللذان قتلا مع شركائهما أربعة من الجنود، وأخيرًا هل هذا الخائن القذر يهوذا، أناس طيبون كلهم؟».

أجابه المعتقل: - «أجل».

- «وهل سيأتي ملكوت الحقيقة؟».

أجابه يشوع بلهجة لا تدع مجالًا للشك: - «سيأتي أيها الوالي».

صرخ بيلاطس فجأة بصوت مرعب جعل يشوع يترنَّح: - «لن يأتي أبدًا!»، مثل هذه الصرخة أطلقها بيلاطس في فرسانه من سنوات بعيدة في وادي العذارى: «قطّعوهم! قطّعوهم! العملاق قاتل الجرذان وقع في أيديهم!». ثم رفع صوته الذي أوهنه إصدار الأوامر ليسمع كلماته من في الحديقة: «مجرم! مجرم! مجرم!».

ثم خفض صوته وسأل:

- «يا يشوع الغانوصري، هل تؤمن بأية آلهة؟».

أجابه يشوع: - «الله واحد، وأنا أؤمن به».

- «ابتهل إليه إذن! ابتهل بحرارة وقوة! وعلى أي حال»، هنا وَهنَ صوت بيلاطس وانخفض، «هذا لن يفيدك»، ثم أردف يسأله بصوت حزين لسبب ما وهو لا يدري ما الذي ينتابه: «هل لك زوجة؟».

- «لا، أنا وحيد».

- «يا للمدينة البغيضة!»، غمغم الحاكم فجأة دونما سبب ظاهر، وهز كتفيه كمن أصابته قشعريرة وفرك يديه كأنه يغسلهما وأردف: «حقًا، كان من الأفضل لو أنهم قتلوك قبل لقائك بيهوذا القيريافي».

قال يشوع يرجوه فجأة وقد تردَّدت في صوته نبرة قلق: - «حبَّذا لو أطلقت سراحي أيها الوالي، فأنا أرى أنهم ينوون قتلي».

تشنَّج وجه بيلاطس، لكنه قال ليشوع وقد صوب إليه عينين أحمرَّ بياضهما من الدم المحتقن في عروقه:

- «هل تعتقد أيها التعس أن بإمكان حاكم روماني إطلاق سراح شخص قال ما قلته؟ أيتها الآلهة! أيتها الآلهة! أم تحسب أني على استعداد للحلول مكانك؟ إني لا أشاطرك أفكارك. واصغِ إليَّ جيدًا: إذا تفوَّهت من هذه الدقيقة بكلمة أو حدَّثت أحدًا، فحذار مني! وأكرِّر: حذَار».

- «أيها الوالي...».

- «اخرس!» صرخ بيلاطس وراح يلاحق السنونوة التي عادت ترفرف في الشرفة بنظرة حانقة، - «إليَّ!». دوَّى صوته من جديد.

وعندما عاد أمين السر والحرس إلى أماكنهم أعلن بيلاطس أنه يصادق على حكم الموت الذي أصدره المجلس الأصغر في اجتماعه بحق يشوع الغانوصري. فسجَّل أمين السر ما قاله بيلاطس.

بعد دقيقة كان مارك قاتل الجرذان يمثل أمام بيلاطس الذي أمره بتسليم المجرم يشوع الغانوصري عن المحكومين الآخرين، والإيعاز إلى أفراد الجهاز بعدم التحدث إلى يشوع في أي أمر كان، وعدم الإجابة عن أي سؤال من أسئلته تحت طائلة العقوبة القصوى.

وبإيماءة من مارك طوَّق الحرس يشوع وقادوه إلى خارج الشرفة.

ثم مثل أمام الحاكم شخص وسيم ممشوق القامة ذو لحية شقراء تلمع على صدره رؤوس أسود، وعلى قمة خوذته ريش نسور، وعلى حَمّالة سيفه أنواط ذهبية، ينتعل

حذاءً بنعلٍ ذي ثلاث طبقات مشدودًا إلى ركبته بأشرطة، ويلقي على كتفه الأيسر بردة أرجوانية. ولم يكن هذا الشخص سوى رئيس الفرقة. فسأله الحاكم عن مكان وجود كتيبة السيبستيانيين الآن. فأبلغه أن السيبستيانيين يطوِّقون الآن الساحة التي أمام ميدان الخيل حيث سيعلن على الشعب الحكم الصادر بحق المجرمين.

إذّاك أمر الحاكم رئيس الفرقة بفرز مائتين من الكتيبة الرومانية؛ أحدهما بإمرة قاتل الجرذان ومهمتها مرافقة المجرمين والعربات التي تقل أدوات التنفيذ والجلادين لدى توجهها إلى الجبل الأقرع. ثم ضرب طوقاً على قمته. أما المائة الثانية فعليها التوجه حالًا إلى الجبل الأقرع والبدء في تطويقه فورًا. ولهذه الغاية، أي لتأمين الحماية على الجبل الأقرع، طلب الحاكم من قائد الفرقة إرسال فوج إسناد من الخيالة هو ألالاي السوري.

عندما غادر رئيس الفرقة الشرفة، أمر الحاكم أمين سره بدعوة رئيس المجمع الكبير واثنين من أعضائه ورئيس حرس هيكل أورشليم إلى قصره، ثم أضاف أنه يطلب ترتيب الأمور بحيث يستطيع التحدث على انفراد مع رئيس المجمع قبل اجتماعه بهؤلاء جميعًا.

تم تنفيذ أوامر الحاكم بسرعة ودَقّة، ولمّا تكد الشمس، التي كانت تكوي هذه الأيام أورشليم بضراوة فائقة، تبلغ السَّمْت، حتى كان الحاكم والقائم بأعمال رئيس المجمع الكبير كاهن يهودية الأعظم يوسف قيافا يلتقيان على باحة الحديقة العليا قرب أسدين أبيضين من المرمر يحرسان الدرج.

كان الهدوء يخيم على الحديقة، لكن الحاكم سمع بأذنه المرهفة، وهو يخرج من الرواق إلى الباحة العليا للحديقة بأشجار نخيلها المنتصبة على جذوعها الهائلة التي تشبه قوائم الفيل، حيث انبسطت أمام ناظريه مدينة أورشليم البغيضة إلى قلبه بجسورها المعلقة وقلاعها - والأهم من هذا - بتلك الكتلة المرمرية ذات الحراشف الذهبية كحراشف الجرذون التي تقوم مقام السطح والتي اسمها هيكل أورشليم. في مكان ما بعيد في الأسفل حيث يفصل جدار حجري المدرجات الدنيا من حديقة القصر عن ساحة المدينة سمع الحاكم همهمة خفيفة تعلو أحيانًا ولا ندري إن كانت أنينًا أو صراخًا واهنًا رقيقًا.

أدرك الحاكم أنه اجتمع هناك في الساحة حشد هائل من سكان أورشليم الذين أثارتهم الاضطرابات الأخيرة، وأن هذا الحشد ينتظر بفارغ الصبر إعلان الحكم، وأن باعة الماء ينادون على مائهم.

استهل الحاكم كلامه بدعوة الكاهن الأعظم على الشرفة للاحتماء بها من هذا القيظ الذي لا يرحم، لكن قيافا اعتذر بأدب موضحًا أنه لا يستطيع ذلك، إذّاك وضع بيلاطس قلنسوته على رأسه الذي أخذ الصلع يدب فيه وبدأ الحديث، وكان حديثه باليونانية.

قال بيلاطس إنه درس قضية يشوع الغانوصري، وصادق على حكم الموت.

وعلى هذا، هناك ثلاثة من اللصوص حكم عليهم بالإعدام الذي يجب أن يُنفَّذ اليوم وهم ديسماس وهيستاس وبرَّابان بالإضافة إلى يشوع الغانوصري هذا. الأولان اللذان حاولا تحريض الشعب على عصيان القيصر قبضت عليهما السلطة الرومانية بعد قتال، ولذا فهما من اختصاص الحاكم وبالتالي لن نبحث أمرهما هنا، أما الآخران، برَّابان والغانوصري، فقد ألقت القبض عليهما السلطة المحلية وحاكمهما المجمع الكبير، وقد نَصَّ القانون كما جرى العرف على وجوب إطلاق سراح أحدهما تكريمًا لعيد الفصح العظيم الذي يحل اليوم.

وعلى هذا يرغب الحاكم في معرفة أي المجرمَيْن ينوي المجمع الكبير إطلاق سراحه: برَّابان أم الغانوصري، خفض قيافا رأسه دليل فهمه السؤال وأجاب:

- «يطلب المجمع الكبير إطلاق سراح برَّابان».

كان الحاكم يعرف جيدًا أن هذا بالضبط سيكون جواب الكاهن الأعظم، لكن مهمته كانت تقوم على إظهار أن مثل هذا الجواب يثير دهشته.

ولقد فعل بيلاطس هذا بمهارة كبيرة، فقد رفع حاجبيه فوق وجهه المتغطرس، وثبت في عيني الكاهن الأعظم عينين تملؤهما الدهشة، وقال بصوت ناعم:

- «أعترف بأن هذا الجواب أذهلني، وأخشى أن يكون هناك سوء فهم».

ثم راح بيلاطس يشرح موقفه بقوله: - «إن السلطة الرومانية لا تحاول على الإطلاق التطاول على حقوق السلطة الدينية المحلية، وهذا أمر يعرفه الكاهن الأعظم حق المعرفة، إلا أنه في هذه الحالة بالذات ثمَّة خطأ واضحًا كل الوضوح. والسلطة الرومانية معنية، وبطبيعة الحال، بتقويم هذا الخطأ».

وبالفعل فإن جرائم برَّابان والغانوصري لا يمكن أن تقارن من حيث خطورتها إطلاقًا. فإذا كان الثاني، وهو إنسان معتوه دون شك، مذنبًا لتفوّهه بكلام سخيف أحدث بلبلة في سكان أورشليم وبعض المناطق الأخرى، إلا أن جرائم الأول أخطر بكثير، فبالإضافة إلى أنه سمح لنفسه بدعوة الشعب صراحةً إلى العصيان، قام بقتل الحارس الذي حاول إلقاء القبض عليه.

وعلى هذا فبرَّابان أشد خطورةً من الغانوصري بكثير.

وبناءً على ما تقدَّم يطلب الحاكم من الكاهن الأعظم إعادة النظر في قراره وإطلاق سراح المجرم الأقل خطورة وهو الغانوصري دون شكٍ. أليس كذلك؟

صوَّب قيافا إلى عيني بيلاطس نظرةً مباشرةً، وقال له بصوت خافت لكنه حازم:

- «إن المجمع الكبير درس القضية بإمعان وإنه يُعلِم الحاكم للمرة الثانية بنِيّة المجمع إطلاق سراح برّابان».

- «ماذا تقول؟ حتى بعد التماسي؟ التماس الرجل الذي تنطق السلطة الرومانية في شخصه؟ أعد على سمعي للمرة الثالثة ما قلته أيها الكاهن الأعظم».

أجاب قيافا بصوت خافت: - «وللمرة الثالثة نعلِمُكَ بأننا سنطلق سراح برّابان».

قضي الأمر، ولم يعد هناك ما يتحدثان فيه، الغانوصري يرحل إلى الأبد، وليس هناك من يداوي آلام الحاكم الرهيبة! لا دواء لها إلا الموت، إنما لم تكن هذه الفكرة هي التي صعقت بيلاطس الآن. فقد كانت تلك الكآبة غير المفهومة التي تولّته على الشرفة هي التي تخترق الآن كيانه كله. حاول على الفور تفسيرها، وكان تفسيره غريبًا: بدا له بشكلٍ غامضٍ أنه لم يقل للغانوصري كل ما كان يريد قوله، ولعله لم يسمع من الغانوصري كل ما قاله.

طرد بيلاطس هذه الفكرة فاختفت في لحظة كما ظهرت. اختفت لكن الكآبة ظلَّت تتملَّكه لا يعرف لها تفسيرًا، ذلك أن الفكرة الأخرى القصيرة التي لمعت في ذهنه كالبرق وانطفأت فورًا، فكرة «الخلود... جاء الخلود...» لم تستطِع هي أيضًا تفسيرها... خلود مَنْ جاء. لم يدرك الحاكم ذلك، لكن فكرة هذا الخلود الملغِز جعلته يقشعرُّ من البرد وهو واقف تحت أشعة الشمس الحارقة.

قال بيلاطس: - «حسنًا، فليكن ما تريد».

وتلفَّت مجيلًا بصره في ما حوله فدهش للتغير الذي حصل: اختفت الشجيرة المُثقَّلة بالورود، واختفت شجرات السرو التي تطوّق الباحة العليا للحديقة وشجرة الرمان والتمثال الأبيض الغارق في الخضرة، وحتى الخضرة ذاتها اختفت، وأخذت تموج مكانها أجمة أرجوانية تهتز فيها الأعشاب المائية وتتحرَّك إلى مكان مجهول وبيلاطس نفسه يتحرَّك معها. كان الآن أشد أنواع الخنق يجرفه وهو يخنقه ويحرقه، حنق العجز.

وتمتم:

- «أكادُ أختنقُ، أكادُ أختنقُ».

وبيده الباردة المبلَّلة بالعرق قطع البكلة التي على ياقة البردة فسقطت على الحصى.

- «الجو خانق اليوم، لا بد وأن تهبّ عاصفة رعدية»، قال قيافا دون أن يرفع عينيه عن وجه الحاكم المحمر، وهو يتنبّأ بكل الآلام القادمة، «ما أفظع شهر نيسان هذا العام!».

- «لا، ليس بسبب الجو الخانق ما شعرتُ به، بل لما دار بيننا يا قيافا»، وأردف وهو يضيّق عينيه ويبتسم: «احرص على نفسك أيها الكاهن الأعظم!».

لمعت عينا الكاهن الأعظم القاتمتان، لكنه اصطنع الدهشة ليس أسوأ مما اصطنعها الحاكم من قبل.

أجابه قيافا بأنفة وهدوء: - «ما الذي أسمعه، أيها الحاكم؟، هل تهدّدني بعد الحكم الذي صدر وصدّقته بنفسك؟ هل هذا معقول؟ لقد اعتدنا أن ينتقي الحاكم الروماني كلماته قبل أن يقول أي شيء. أخشى أن يكون أحد سمعنا أيها الوالي!».

تطلّع بيلاطس إلى الكاهن الأعظم بعينين مُطفأتينن وكشّر عن أسنانه ثم رسم ابتسامة على وجهه:

- «ماذا تقول أيها الكاهن الأعظم؟ من الذي يستطيع أن يسمعنا هذه الساعة هنا؟ أتراني أشبه هذا المجنون الغرّ المتسكّع الذي سيُعدم اليوم؟ أتحسبني ولدًا يا قيافا؟ إني أعرف ما أقوله وأين أقوله. الحديقة محاصرة والقصر محاصر بحيث لا تستطيع فأرة النفاذ من أي شق! وليس الفأرة وحدها هي التي لا تستطيع النفاذ، بل حتى ذاك... ما اسمه؟ ذاك الذي من مدينة قيريافا؟ بالمناسبة هل تعرف هذا الشخص، أيها الكاهن الأعظم؟ أجل... لو استطاع هذا الشخص النفاذ إلى هنا لندم ندمًا مرًا، صدّقني، واعلم، أيها الكاهن الأعظم، أنك لن ترى بعد اليوم راحة أو طمأنينة، لا أنت ولا شعبك»، وأشار بيلاطس إلى مكان ما في البعيد عن يمينه حيث الهيكل يتوهّج بنور الشمس فوق مرتفع، «وأنا، بيلاطس البنطي، الفارس ذو الرمح الذهبي، أقول لك هذا!».

- «أعرف، أعرف!». أجابه قيافا ذو اللحية السوداء بجرأة، وبرقت عيناه، ثم رفع يديه إلى العلاء وأردف: «يعرف شعب يهودية أنك تبغضه أشد البغض وأنك ستسبب له آلامًا كثيرة، لكنك لن تستطيع إهلاكه! الله سيحميه! وقيصر العظيم سيسمع نداءنا ويحمينا من بيلاطس الفاتك!».

- «لا!». صرخ بيلاطس، ومع كل كلمة كان يقولها كانت نفسه تزداد راحة وطمأنينة إذ لم يعد هناك ما يدعوه إلى التظاهر وإلى تخيُّر ألفاظه. «لقد شكَوتني إلى قيصر أكثر مما ينبغي، وقد حانت ساعتي الآن، يا قيافا! سأبعث برسول الآن ليس إلى عامل القيصر في أنطاكية، وليس إلى روما، بل إلى الإمبراطور نفسه في كابريا يُعلمه أنكم في

أورشليم تتستَّرون على مجرمين عريقين ومعروفين وتحمونهم من الموت، إذَّاك لن أسقي أورشليم من ماء بركة سليمان كما كنت أريد لكم ولخيركم! لا، لن أسقيها ماء! تذكر كيف اضطررت بسببكم إلى نزع التروس التي تحمل العلامة الإمبراطورية عن الجدران، وكيف اضطررت إلى تحريك القوات، بل اضطررت إلى المجيء هنا بنفسي لأرى ما يجري! تذكَّر كلامي أيها الكاهن الأعظم. سترى أكثر من كتيبة في أورشليم! نعم ستدق أبواب أورشليم فرقة فولميناتوس بأكملها وفرسان العرب. إذَّاك ستسمع نحيبًا وبكاءً مرَّيْن! وستذكر برَّابان الذي أنقذته من الموت، وتندم على أنك دفعت إلى الموت بفيلسوف يبشِّر بالسلام».

غشيت وجه الكاهن الأعظم بقعٌ حُمرٌ وتلألأت عيناه، لكنه اصطنع ابتسامة كشفت عن أسنانه كما فعل الحاكم من قبل وأجاب:

- «وهل تصدِّق أنت نفسك أيها الحاكم ما تقوله الآن؟ لا، لا تصدقه!، ليس سلامًا ما حمله إلينا في أورشليم مغوي الشعب هذا، وأنت نفسك. أيها الفارس، تدرك هذا تمام الإدراك، إنك لم ترد إطلاق سراحه إلا ليزرع البلبلة والشقاق في الشعب، وينتهك حرمة دينه ويسلِّط سيوف روما على رقابه! لكني أقول لك، أنا كاهن يهودية الأعظم، إني لن أَدَعَ أحدًا يدنِّس إيماننا وسأدافع عن شعبي ما دام فيَّ عِرقٌ ينبض! هل تسمعني يا بيلاطس؟». وهنا رفع قيافا يده في ما يشبه الوعيد وأردف: «اسمع كلامي، أيها الحاكم!».

وصمت قيافا، فبدا للحاكم كأنه يسمع من جديد هدير البحر تتدحرج أمواجه حتى أسوار حديقة هيرودس الكبير. وكأنما كان هذا الهدير يتصاعد من الأسفل حتى يبلغ رِجْلَي الحاكم ووجهه. وسمع بيلاطس خلف ظهره في ما وراء جناحي القصر إشارات إنذار تطلقها الأبواق، ومئات الأرجل تتحرَّك في تثاقلٍ، وصليل حديدٍ، فأدرك على الفور أن فوج المشاة الروماني يتحرَّك، بناءً على أوامره، في طريقه إلى العرض الذي سيقام قبل تنفيذ حكم الإعدام والذي كثيرًا ما أوقع الرعب في قلوب المتمرِّدين واللصوصِ.

- «هل تسمعني يا بيلاطس؟». كرَّر الكاهن الأعظم القول بصوت خفيض، «هل يمكنك حقًا أن تقول إن هذا كله»، وهنا رفع الكاهن الأعظم يديه فسقطت قلنسوته الداكنة عن رأسه، «من صنع هذا اللص المسكين برَّابان؟».

مسح الحاكم بظاهر رسغه جبينه المبلَّل البارد، وأطرق إلى الأرض ثم رفع إلى السماء عينين ضاقت حدقتاهما، فإذا الكرة المتوهّجة صارت فوق رأسه تقريبًا، بينما انكمش ظل قيافا تمامًا قرب ذيل الأسد، وقال بصوت خافت لا مبالٍ:

- «يكاد النهار ينتصف ونحن مأخوذان بالحديث، بينما علينا متابعة ما بدأناه».

وبعبارات اعتذار بالغة التأدُّب دعا بيلاطس رئيس الكهنة إلى الجلوس على مقعد في ظل شجرة المَنوليا والانتظار ريثما يفرغ من استدعاء الأشخاص الآخرين الضروريين لعقد اجتماع أخير قصير، ومن إعطاء أمرٍ آخر يتعلَّق بتنفيذ الحكم.

انحنى قيافا بأدبٍ واضعًا يده على قلبه وبقيَ في الحديقة، بينما عاد بيلاطس إلى الشرفة، وهناك أمر أمين سره، الذي كان في انتظاره، بدعوة رئيس الفرقة وقاضي الكتيبة وكذلك اثنين من أعضاء المجمع الكبير ورئيس حرس الهيكل الذين كانوا ينتظرون الاستدعاء في الاستراحة المستديرة ذات الفسقية التي في المدرج التالي الأسفل للحديقة، وأردف أنه سيخرج إليهم عمَّا قليل وتوجَّه إلى داخل القصر.

وفيما كان أمين السر يُعِدّ لعقد الاجتماع، كان الحاكم، في غرفة ظليلة تحجب عنها نور الشمس ستائرٌ صفيقةٌ، يختلي بشخص تغطِّي نصف وجهه قلنسوةٌ على الرغم من أن أشعة الشمس في هذه الغرفة لا يمكنها أن تضايقه، كان هذا اللقاء قصيرًا للغاية.

قال له الحاكم بضع كلماتٍ بصوتٍ خافتٍ، غادر الشخص بعدها القصر بينما عاد بيلاطس إلى الحديقة عبر الرواق.

وهناك أكد في حضور كل الذين رغب في حضورهم وبصوت مهيب وجافٍ تصديقه على حكم الموت الصادر بحق يشوع الغانوصري واستطلع رسميًا آراء أعضاء المجمع الكبير في المجرم الذي يرون إبقاءه على قيد الحياة، وإذ أتاه الجواب أنه برَّابان قال الحاكم:

- «حسن جدًا»، ثم أمر أمين سره بتدوين ذلك في المحضر، وقبضَ بيده على البكلة التي رفعها أمين سره من على الرمل وأعلن بصوت مهيب: «هيا!».

وعلى الإثر تحرَّك الحاضرون وأخذوا يهبطون الدرج المرمري العريض بين جدارين من الورود العابقة بعطر مخدِّر، حتى سور القصر، فالبوَّابة المؤدِّية إلى ساحة كبيرة مرصوفة ببلاطٍ أملسَ تبدو في آخرها أعمدة ميدان أورشليم للسباق وتماثيله.

ما إن خرجت هذه الجماعة من الحديقة إلى الساحة وارتقت المنصة الحجرية الفسيحة المطلَّة عليها، وألقى بيلاطس حوله نظرة من بين جفونه نصف المغمضة حتى تبيَّن له الموقف الذي هو فيه. كانت المسافة التي قطعها للتو، أي المسافة الممتدة من سور القصر حتى المنصة، خالية، أمَّا الميدان أمامه، فلم يرَ منه بيلاطس شيئًا، كانت الجماهير قد التهمته. ولولا ثلاثة صفوف من الجنود السيبستيانيين عن يسار بيلاطس وثلاثة صفوف من الجنود الأيثوريين عن يمينه لغمرت الجماهير المنصة ذاتها وتلك المساحة الخالية.

وهكذا ارتقى بيلاطس المنصة وهو يضغط بقبضته آليًا على البكلة العديمة النفع ويزرّ عينيه، ولم يكن بيلاطس يزر عينيه لأن الشمس كانت تحرقهما، لا، بل لأنه لم يكن يريد، لسبب لا يدركه، رؤية عصبة المجرمين الذين كان يعرف تمامًا أنهم يحضرون إثره إلى المنصة.

ما إن لاحت البيضاء ذات البطانة الأرجوانية على الكتلة الحجرية العائمة فوق هذا البحر البشري حتى صكت سمع بيلاطس الذي لم يكن يرى شيئًا موجة صوتية «ها ا... » بدأت من مكان ما بعيد قرب ميدان الخيل خافتةً، ضعيفةً ثم اشتدت فصارت كالرعد، ثم عادت إلى الهبوط بعد أن استمرَّت ثوانٍ. قال الحاكم في سره: «لقد رأوني» لكن الموجة الصوتية عادت إلى الاشتداد فجأة، ولمَّا تبلغ أدنى مستوياتها، لتطغى على الموجة الأولى، وكما يعلو الزبد موج البحر، علا الموجة الصوتية الثانية صفير وأنّات نسائية متفرِّقة لكنها واضحة في هذا الرعد. «لقد ساقوهم إلى المنصة...». قال بيلاطس في نفسه، «وما هذه الأنّات إلا لأنه دُعست بعض النسوة عندما اندفع الحشد إلى الأمام».

تريث بعض الوقت لإدراكه أنه ليس بمقدور أي قوةٍ إجبار الجماهير على الصمت إلا بعد أن تُفرِغ كل ما يجيش في داخلها فتصمت من تلقاء نفسها.

وما إن حانت هذه اللحظة حتى رفع الحاكم يده اليمنى فتلاشى آخر صوت.

إذّاك ملأ بيلاطس صدره بقدر ما استطاع من الهواء الساخن وصرخ فانداح صوته المتقطع فوق آلاف الرؤوس:

- «باسم الإمبراطور قيصر!».

وعلى الفور صكّت سمعه عدَّة مرات هتافات حديدية متقطعة، كان الجنود في الكتائب يهتفون بأصوات مخيفة وقد أخذوا يقذفون الحراب والشارات في الهواء:

- «عاش قيصر!».

رفع بيلاطس رأسه ودفنه في قرص الشمس مباشرة فاتقدت تحت جفنيه ناران خضراوان والتهب دماغه وتردَّدت فوق الجماهير كلمات آرامية مبحوحة:

- «هناك أربعة مجرمين اعتقلوا في أورشليم لقيامهم بجرائم قتل وتحريض على العصيان وانتهاكٍ للقانون وإساءة للمعتقدات وحُكم عليهم بالموت المشين، بالصلب على الخشبة! وهذا الحكم سينفَّذ الآن على الجبل الأقرع! وأسماء المجرمين هي ديسماس وهيستاس وبرَّابان والغانوصري. وها هم أولاء أمامكم».

وأشار بيلاطس بيده إلى اليمين لا لأنه يرى المجرمين، بل لأنه يعرف أنهم هناك، حيث يجب أن يكونوا.

ردَّت الجماهير بهمهمة طويلة لا يُعرَف أهي همهمة دهشة أم ارتياح. وأردف بيلاطس بعد أن خبت الهمهمة:

- «لكن لن يُعدم منهم إلا ثلاثة، ذلك أن الإمبراطور قيصر سيد الكرم والشهامة، بناء على القوانين والأعراف، وإكرامًا لعيد الفصح، سيعيد إلى المجرم الرابع الذي يختاره المجلس الأصغر، وتوافق عليه السلطة الرومانية، حياته الحقيرة».

كان بيلاطس يصرخ بهذه الكلمات ويصغي في الوقت نفسه إلى الصمت العظيم يحل محل الهمهمة، لم تعد أي همسة أو حس تتناهى إلى سمعه، بل كانت لحظة بدا فيها لبيلاطس أن كل شيء حوله تلاشى، ماتت المدينة البغيضة إلى قلب بيلاطس وبقي هو وحده منتصبًا تلذعه أشعة الشمس العمودية وهو يشخص إلى السماء. توقف قليلًا ثم راح يصرخ:

- «اسم الذي سيطلق الآن سراحه أمام أعينكم...».

وتوقف مرة أخرى ممسكًا عن ذكر الاسم ليتيقَّن مما إذا كان قد قال كل شيء، لأنه كان يعلم أن المدينة الميتة ستبعث بعد نطقه اسم صاحب الحظ السعيد ولن يكون بالإمكان سماع أي كلمة بعد ذلك.

«هل هذا كل شيء؟» همس بيلاطس بصوت غير مسموع في سرِّه، «نعم، كل شيء. الاسم!».

وهتف مطلقًا حرف الراء فوق المدينة الصامتة كقصف الرعد:

- «برَّابان!».

بدا له أن الشمس رنَّت وانشقَّت فوق رأسه وصبَّت على أذنيه نارًا. وفي هذه النار اصطخب الهدير بالنحيب بالزعيق بالأنين بالقهقهة بالصفير.

استدار بيلاطس وعاد أدراجه إلى درجات السلم وهو لا يتطلَّع إلا إلى المربعات الحجرية المختلفة الألوان تحت قدميه كي لا تزلا. كان يعرف أن قطع النقود البرونزية والتمر تتطاير الآن على المنصة خلف ظهره كالبَرَدِ، وأن الناس في هذا الجمهور العاوي يتدافعون ويتسلَّق الواحد منهم كتفي الآخر ليروا بأعينهم المعجزة: إنسان في قبضة الموت يتملَّص من هذه القبضة! وليروا جنود الفرقة ينزعون الحبل محدِثين له دون قصد ألمًا حارقًا في يديه المخلَّعتين بسبب التحقيق، وكيف كان يبتسم مع هذا ابتسامة بلهاء، مجنونة وهو يقطب جبينه ويتأوَّه.

كان يعرف أن الحرس في هذا الوقت يقودون الثلاثة الآخرين مكبَّلي الأيدي إلى الدرجات الجانبية ليمضوا بهم في الطريق المؤدية إلى ضاحية المدينة الغربية حيث

الجبل الأقرع. ولم يفتح بيلاطس عينيه إلا بعد أن صار خلف المنصة لعلمه أنه أصبح الآن في مأمن، إذ لم يعد باستطاعته رؤية المحكومين من مكانه هذا.

كانت أصوات المنادين الحادة والواضحة الآن تختلط بأنين الجماهير التي بدأت خواطرها تهدأ وهي تردِّد بعضها بالآرامية وبعضها باليونانية كل ما قاله بيلاطس على المنصة. وبالإضافة إلى ذلك تناهى إلى سمعه وقعٌ متقطِّعٌ وسريعٌ لحوافر خيول تقترب، وأصوات بوقٍ قصيرٍ وفرحة يتجاوب معها صفير أطفال ثاقب من سطوح بيوت الشارع المؤدي من السوق إلى ميدان الخيل، وصيحات «احترس!».

ولم يتوقَّف الحاكم وقائد الفرقة وأمين السر والحرس إلا حين لوَّح لهم الجندي الواقف وحيدًا في الرقعة الخالية من الميدان بالشارة التي يحملها بيده.

كان فوج الخيالة ينطلق بخببٍ متسارع إلى الساحة ليقطعها عرضًا إلى الزقاق المحاذي للسور الحجري الذي تتسلقه دوالي الكرمة متحاشيًا الكتل البشرية وسالكًا أقصر الطرق إلى الجبل الأقرع.

عندما حاذى قائد الفوج المنطلق على جواده بيلاطس، وكان سوريًا، صغيرًا كطفل وشديد السمرة كخلاسي، أطلق صرخة حادة واستلّ سيفه من غمده. جفل جواده الأدهم الحرون المتصبِّب عرقًا وشبَّ على قامتيه. أغمد قائد الآلاي سيفه، وعالجه بلسعة سوط على نحره كبحت جماحه، وانطلق به في الزقاق عدْوًا، وانطلق في إثره الفرسان، ثلاثة في كل صف. في سحابة من الغبار ورؤوس حرابهم الخيزرانية الخفيفة تهتز ومرقوا بمحاذاة الحاكم وقد بدت تحت عمائمهم البيضاء وجوههم، بأسنانها اللامعة المكشَّرة بمرح، أشد سمرة.

اندفع الفوج إلى الزقاق مثيرًا وراءه سحابةَ غبارٍ جاوزت السماء. وكان آخر من عبر إلى جانب الحاكم جندي على ظهره بوق يتوهَّج تحت أشعة الشمس.

تابع الحاكم سيره وهو يغطِّي وجهه بيده من الغبار، ويقطِّب حاجبيه في امتعاض، حاثًا الخطو إلى باب حديقة القصر يتبعه قائد الفرقة وأمين السر والحرس.

كانت الساعة تقارب العاشرةَ صباحًا.

## الفصل الثالث

# البرهان السابع

قال البروفيسور: «أجل، كانت الساعة تقارب العاشرة صباحًا، أيها الموقَّر إيفان نيقولايفتش».

مسح الشاعر وجهه بيده كمن يصحو من نومه، فرأى المساء قد أطبق على بتريرشيي برودي.

كان الماء في البركة قد اسودّ، ومن الزورق الخفيف المنزلق على صفحته كانت تُسمعُ ضرباتُ مجدافٍ وضحكات امرأةٍ. وظهر أناسٌ على المقاعد في الممرات. إنما ظهروا، في هذه المرة أيضًا، على جوانب المربَّع الثلاثة الأخرى كلها ما عدا الجانب الذي كان يجلس فيه أصحابنا.

بدت السماء فوق موسكو وقد كَمد لونها وبان القمر في قبتها بدرًا أبيض لمَّا يتشرَّب بصُفرة الذهب. صار الجالسون تحت أشجار الزيزفون يتنفَّسون بيسر أكبر وصارت أصواتهم تتردَّد على نحو أرقّ، برقَّة المساء.

فكَّر بيزدومني: - «كيف لم ألاحظ أنه لفَّق في هذه الأثناء قصة كاملة، فها هو ذا المساء حلّ! أم لعل الرجل لم يروِ شيئًا من هذا، بل أنا الذي غفوت ورأيت هذا كله في الحلم؟».

إنما علينا أن نفترض أن البروفيسور هو الذي روى عليهما ما رُويَ، وإلا كان علينا أن نسلم بأن برليوز أيضًا رأى في الحلم مثل الذي رآه بيزدومني، ذلك أن برليوز قال للبروفيسور وهو يتفرَّس في وجهه:

- «قصتك مشوِّقة جدًا، يا بروفيسور، على الرغم من أنها لا تتطابق إطلاقًا وقصص الأناجيل».

أجاب البروفيسور وهو يبتسم ابتسامة خفيفة مضمحلّة: - «عفوًا، قد يُغفر لغيرك هذا القول، أما أنت فالمفروض أن تعرف أن شيئًا مما جاء في الأناجيل لم يحدث أبدًا. فإذا ما أخذنا بالاعتماد على الأناجيل مصدرًا تاريخيًا...»، وهنا رسم ابتسامة خفيفة أخرى، أما برليوز فشعر بالإحباط، لأن هذا بالضبط ما كان يقوله بالحرف الواحد لبيزدومني وهما في طريقهما من شارع برونايا إلى بتريرشيي برودي.

ولاحظ برليوز:

- «هذا صحيح، لكني أخشى ألا يستطيع أحد أيضًا إثبات صحة ما رويته».

أجابه البروفيسور بلكنة أعجمية أول الأمر، وإنما بثقة بالغة: - «لا! بإمكانه إثبات ذلك!». وفجأة أشار إليهما إشارة غامضة أنْ اقتربا.

واقتربا منه، كل من جانب، فقال لهما وقد اختفت لكنته، والشيطان وحده يعلم لم كانت تختفي حينًا وتظهر حينًا آخر:

- «القضية أنّ...». وهنا تلفَّت البروفيسور حوله في ذعر وقال همسًا: «القضية أني شخصيًا حضرت هذا كله، كنت على الشرفة عند بيلاطس البنطي، وكنت في الحديقة ساعة تحدَّث إلى قيافا، وعلى المنصة وإن خفية، متنكرًا كما يقال. إنما أرجوكم: لا تتفوهوا أمام أحد بكلمة مما قلته، بل حافظوا عليه في سرية تامة!... هسّ!».

ران الصمت. وسأل برليوز وقد تهدَّج صوته وشحب لونه:

- «أنت... منذ متى أنت في موسكو؟».

أجاب البروفيسور بارتباك: - «في هذه الدقيقة فقط وصلت إلى موسكو»، وهنا فقط فطن الصديقان إلى التمعّن في عينيه كما ينبغي، فتيَقّنا أن عينه اليسرى الخضراء بلهاء تمامًا، أما عينه اليمنى ففارغة، سوداء وميتة.

«بالفعل توضَّح كل شيء!». قال برليوز في سرِّه وقد انتابه الارتباك، «إما إنه أتى إلينا ألمانيٌّ مجنون أو أنه فقد عقله هنا في بتريرشيي. يا لها من قصة!».

أجل، لقد توضَّح كل شيء فعلًا: الفطور البالغ الغرابة عند الفيلسوف المرحوم كانط، وهذا الكلام الأخرق عن زيت عبّاد الشمس وآنوشكا وتنبؤاته عن الرأس الذي سيُقطع وما إلى ذلك، كان البروفيسور مجنونًا.

وعلى الفور فطن برليوز إلى ما يجب أن يفعله. فقد ألقى ظهره إلى مسند المقعد الخلفي وغمز بيزدومني من وراء ظهر البروفيسور أن لا يعارضه لكن الشاعر الذي أخذ الذهول منه كل مأخذ لم يفهم هذه الإيماءات.

أردف برليوز في انفعال: - «نعم، نعم، نعم، على أي حال هذا كله ممكن! بل إنه

ممكن.. بيلاطس البنطي هذا، والشرفة وما على ذلك... وأنت هل وصلت بمفردك أو مع عقيلتك؟».

أجابه البروفيسور بمرارة: - «وحدي، وحدي، أنا دائمًا وحدي».

سأله برليوز مستميلًا: - «وأين أغراضك يا بروفيسور؟ في «المتروبول»؟ أين نزلت؟».

أجاب الألماني المعتوه وهو يجيل عينه الخضراء في أرجاء بتريرشيي برودي في كآبة ووحشية: - «أنا؟ لم أنزل في أي مكان».

- «كيف؟ ولكن... أين ستسكن إذن؟».

أجابه المجنون دون تكلُّف فجأة وغمز بعينه: - «في شقتك».

غمغم برليوز: - «بكل... بكل سرور، لكنك حقًا لن تشعر بالراحة في بيتي... بينما في «المتروبول» غرف رائعة... إنه فندق من الدرجة الأولى».

توجَّه المريض فجأة بالسؤال إلى إيفان نيقولايفتش بلهجة مرحة: - «والشيطان أيضًا أهو غير موجود؟».

- «والشيطان أيضًا...».

همس برليوز بصوت كأنه خارج من شفتيه فقط وهو يتهافت على نفسه خلف ظهر البروفيسور ويكشِّر: - «لا تعارضه».

- «لا وجود لأي شيطان!» صرخ إيفان نيقولايفتش يقول غير ما يجب أن يقول وقد ضاق ذرعًا بهذا الهراء، «ما هذا البلاء! هلَّا كففت عن هذه الهلوسة!».

وهنا أطلق المجنون قهقهة طيَّرت العصفور من الزيزفونة التي فوق رأس الجالسين.

- «أوه هذا شيء ممتع بالتأكيد»، أردف البروفيسور وهو لا يزال يهتز من القهقهة، «ما الذي يجري عندكم، ما إن تُسأل عن شيء حتى يُقال لك غير موجود!». وفجأة كفَّ عن القهقهة إذ انتابته بعدها، وهذا مفهوم جدًا في حالته المرضية، حالة قصوى مناقضة، فقد ثارت ثائرته وصرخ بصوت صارم: «إذن أنت تصر على أنه غير موجود؟».

- «هدِّئ من روعك، هدِّئ من روعك يا بروفيسور»، غمغم برليوز خشية إثارة المريض النفسي، «اجلس دقيقة هنا مع الرفيق بيزدومني ريثما أتصل بالهاتف الذي على ناصية الشارع، ثم نصحبك إلى حيث تريد، فأنت لا تعرف المدينة...».

يجب الاعتراف أن خطة برليوز كانت مُحْكَمة: كان يجب عليه أن يُهرع إلى أقرب كشك هاتف ويبلغ مكتب الأجانب أن مستشارًا أجنبيًا يجلس الآن في بتريرشيي برودي

في حالة غير طبيعية بتاتًا، وأنه من الواجب اتخاذ إجراءات كيلا تحدث قصة مزعجة.

- «تتصل بالهاتف؟ كما تريد، اتصل»، قال المريض بصوت حزين موافقًا، وفجأة طلب إليه بحماسة قائلًا: «لكني أتوسَّل إليك، ونحن نفترق، أن تؤمن على الأقل بأن الشيطان موجود! إني لا أطلب منك أكثر من هذا! وليكن في علمك إنه يوجد على وجوده برهان سابع وهو أصدق البراهين وسيظهر لك على الفور».

- «حسنًا، حسنًا»، قال برليوز بودٍّ زائف ثم غمز الشاعر الحائر الذي لم تطب له فكرة حراسة هذا الألماني المجنون، وانطلق إلى المخرج من حديقة بتريرشيي برودي عند تقاطع شارع برونايا وزقاق إيرموليفسكي.

وكأنما تعافى البروفيسور للحال وأشرق وجهه فصاح في إثر برليوز:

- «ميخائيل ألكسندروفتش!».

ارتعد برليوز والتفت ناحيته، لكنه طمأن نفسه بأن البروفيسور لا بد أن يعرف اسمه واسم أبيه من بعض الصحف أيضًا. وأردف البروفيسور يصيح وقد كوَّر كفيه على شكل بوق:

- «هل تريد فآمرُ بإرسال برقية إلى عمِّك في كييف فورًا؟». ومرة أخرى ارتعدت فرائص برليوز. فمن أين لهذا المجنون أن يعرف بوجود عمه في كييف؟ هذا الأمر لم تذكره أي صحيفة بالتأكيد. إيه، أفلا يكون بيزدومني على حق! وإذا كانت وثائقه مزوَّرة؟ آه، يا له من شخص غريب! الهاتف، الهاتف! يجب الاتصال بالهاتف فورًا! ولا بد أن يكشفوا حقيقة أمره بسرعة!

وإذ لم يعد يسمع شيئًا واصل انطلاقه.

وهنا عند المخرج المؤدي إلى برونايا نهض عن المقعد للقاء رئيس التحرير الشخص نفسه الذي تشكَّل أمامه إذَّاك في ضوء الشمس من القيظ المدهن، لكنه لم يكن الآن من الهواء، بل شخصاً عاديًا، من لحم ودم. واستطاع برليوز في نور الغسق تبيّن شاربيه كريش الدجاج وعينيه الصغيرتين الساخرتين نصف الثملتين وبنطاله ذي المربعات المشدود بحيث ظهر جوربان أبيضان متّسخان.

كاد ميخائيل ألكسندروفتش يَنكصُ على عَقِبيه، لكنه عزَّى نفسه بالقول إنها مصادفة لا معنى لها، وأن لا وقت الآن ليشغل فكره بها.

سأله الشخص ذو الرسوم المربعة بصوت مفرقع: - «هل تبحث عن الباب الدوَّار أيها المواطن؟ إلى هنا من فضلك! سر أمامك رأسًا تخرج إلى حيث يجب أن تخرج! هل لك بربع ليتر... إلى مرتِّل سابق يسترد به عافيته لقاء إرشاده!». أردف الشخص وهو ينحني وينزع قبعته عن رأسه بخفة.

لم يعِر برليوز المرتِّل السائل المتصنِّع اهتمامًا بل عَدَا إلى الباب الدوار وأمسك به فأداره وكاد يخطو فوق السكة الحديدية حين لَمَع أمام عينيه ضوء أبيض وأحمر: كانت كلمتان تتوهجان في علبة زجاجية: «احذر الترام!».

وللحال اندفع هذا الترام منعطفًا على خطه الجديد من إيرموليفسكي إلى برونايا. وما إن انعطف ومضى على خطِّه حتى توهَّج مِن داخله بالكهرباء فجأة وعوى وازداد اندفاعه.

وعلى الرغم من وقوع برليوز الحذر في مكان آمن، قرَّر العودة إلى وراء الحاجز. وضع يده على الباب الدوار وتراجع خطوة. لكن يده زلقت وأفلتت، وانسابت إحدى رجليه على البلاطة المنحدرة حتى تتصل بالخط الحديدي، وكأنها تنزلق على جليد، بينما انقذفت رجله الأخرى إلى الأعلى، واندفع برليوز باتجاه السكة الحديدية.

حاول برليوز التشبُّث بأي شيء، لكنه سقط على ظهره وارتطمت قفاه ارتطامًا خفيفًا بالبلاط، وتمكن في هذه الأثناء من أن يرى في قبة السماء، ولكن لم يعد يدري إلى يمينه أم يساره، البدر يلمع ذهبًا. استطاع برليوز أن ينقلب على جنبه وأن يشد في اللحظة نفسها رجليه إلى بطنه بحركة عنيفة. وتبيَّن وهو ينقلب وجه سائقة الترام المبيضّ تمامًا من الرعب يندفع نحوه بقوة لا تقاوم، وعلى رأسها عصابة قانية الحمرة. لم تندّ عن برليوز صرخة، لكن الشارع كله ضج بأصوات نسائية. وشدَّت السائقة المكبح الكهربائي بغتة فكبت الحافلة بمقدمتها على الأرض وارتجَّت لحظة بعنف فتطاير زجاج النوافذ محدثًا قصفًا ودوِيًّا شديدين. وهنا صرخ شخص ما في دماغ برليوز في يأس: «حقًا؟...». ومرة أخرى هي الأخيرة لاح القمر لكنه كان الآن متقصِّفًا كسرًا كسرًا وأطبق الظلام.

وغطَّت الحافلة برليوز، فإذا بشيءٍ قاتم مدوَّر يتطاير إلى البلاطات المنحدرة قرب الحاجز المشبك لممر بتريرشيي، ثم يأخذُ بالتدحرج عليها والقفز على بلاطات شارع بروتانايا.

لم يكن هذا الشيء سوى رأس برليوز المقطوع.

## الفصل الرابع

# المطاردة

خبت صيحات النساء الهستيرية، وصمتت صفَّارات الشرطة، ونقلت سيارتا إسعاف المصابين: الأولى جثة برليوز المقطوعة الرأس مع رأسه المقطوع إلى معرض الجثث، والثانية السائقة الحسناء التي أصابتها شظايا الزجاج المتناثر بجروح، وأزال الكنَّاسون في مراييلهم البيض شظايا الزجاج وطمروا برك الدم بالرمل، أما إيفان نيقولايفتش فقد تسمَّر على المقعد الذي سقط عليه دون أن يبلغ الباب الدوَّار.

حاول النهوض عدَّة مرات، لكن قدميه لم تطاوعاه، فقد أصاب بيزدومني ما يشبه الشلل.

ما إن سمع الشاعر أول صرخة حتى اندفع إلى الباب الدوَّار ورأى رأس برليوز يتدحرج على الرصيف. لقد جن جنونه مما سمع ورأى، حتى إنه وقد هوى على المقعد أخذ يعض يده حتى سال منها الدم. لقد نسيَ أمر الألماني المجنون بطبيعة الحال، ولم يحاول إلا أمرًا واحدًا؛ أن يفهم كيف يمكن لهذا أن يحدث. قبل دقيقة كان يتحدَّث إلى برليوز والآن رأسه...

كان الناس يتراكضون في الممر قرب الشاعر في اضطراب متصايحين بكلمات لم يعِ منها إيفان نيقولايفتش شيئًا.

وفجأة التقت امرأتان عرضًا قرب بيزدومني فصرخت إحداهما، وهي ذات أنف دقيق ورأس مكشوف، تقول للأخرى فوق أذن الشاعر تمامًا:

- «آنوشكا، آنوشكانا التي من شارع سادوفايا! هي فعلتها! اشترت من البقالية ليتراً من زيت عبَّاد الشمس، ثم هناك عند الباب الدوار سقطت منها القنِّينة! لقد لطَّخت كل تنورتها... كم سبَّت وكم شتمت! والآخر، هذا المسكين، زلقت قدمه وراح على السكة...».

من كل ما صرخت به المرأة لم يعلق بدماغ إيفان نيقولايفتش المختل إلا كلمة واحدة: «آنوشكا»...

- «آنوشكا... آنوشكا؟». تمتم الشاعر وهو يتطلّع حوله في قلق، «عفوًا، عفوًا...».

بكلمة «آنوشكا» كانت ترتبط كلمات «زيت عبّاد الشمس» ثم، ولسبب لا يدريه، كلمتا «بيلاطس البنطي». استبعد الشاعر بيلاطس، وأخذ يعقد السلسلة حلقة حلقة بدءًا من كلمة «آنوشكا». وقد انعقدت له حلقاتها بسرعة فائقة وأدَّت في الحال إلى البروفيسور والمجنون.

عفوًا! لكنه هو نفسه الذي قال إن الاجتماع لن يُعقد، لأن آنوشكا أراقت الزيت. وها هو ذا لن ينعقد! وأكثر من هذا: قال بصراحة إن امراة ستقطع رأس برليوز؟! نعم، نعم، نعم! لقد كان سائق الترام امرأة؟! هذا كله ما عساه يكون؟ آ؟

لم تبقَ في رأس الشاعر ذرَّة شك في أن هذا المستشار الغامض كان يعرف على وجه الدقة، ومسبقًا بصورة ما، هذه الميتة الشنيعة التي ماتها برليوز. وهنا اخترقت دماغ الشاعر فكرتان.

الأولى: «إنه ليس مجنونًا على الإطلاق! والتفكير في هذا سخافة!». والثانية: «ألا يكون هو الذي رتَّب هذا كله؟!».

ولكن، عفوًا، كيف كان هذا؟

- «أي... لا! هذا ما سنعرفه!».

وبجهد كبير تحامل إيفان نيقولايفتش على نفسه، فهبَّ ناهضًا من مقعده واندفع عائدًا أدراجه إلى حيث كان يتحدَّث إلى البروفيسور. ولحسن حظه أن البروفيسور لم يبرح مكانه.

لقد أضيئت المصابيح في شارع برونايا، أما بتريرشيي برودي فأنارها البدر الذهبي، وفي ضوء البدر الغامض دائمًا بدا لإيفان نيقولايفتش وكأن البروفيسور يمسك تحت إبطه بسيفٍ لا عصا.

كان المرتِّل الدجّال المتقاعد يجلس في المكان نفسه الذي كان إيفان نيقولايفتش نفسه يجلس فيه من برهة. لكن المرتِّل كان قد وضع الآن نظارة أنفية غير لازمة له إطلاقًا، كما تهيَّأ لإيفان نيقولايفتش بجلاء، فقد كانت إحدى عينيها بزجاجة متشقِّقة والأخرى من دون زجاجة إطلاقًا. وفي هذه الصورة بدأ السيد ذو الرسوم المربَّعة أشد كراهية مما كان حين دلَّ برليوز على الطريق المؤدية إلى السكة الحديدية.

وبقلب دبَّت فيه البرودة دنا إيفان من البروفيسور وتفرَّس في وجهه فتيقَّن أن ليس على هذا الوجه، ولم تكن عليه أبدًا، علامات الجنون.

وسأله بصوت خافت مخنوق:

- «اعترف، من تكون؟».

قطَّب الأجنبي جبينه، وتطلَّع إلى الشاعر كأنما يراه لأول مرة وأجاب بجفاء:

- «لا تفهم... روسي كلام...».

تدخَّل المرتِّل في الحديث من مقعده مع أن أحدًا لم يطلب إليه توضيح ما قاله الأجنبي: - «إنه لا يفهم!».

- «لا تتظاهر بالمسكنة!». قال إيفان متوعِّدًا، وشعر أن البرد يتسلَّل إلى فم معدته، «قبل فترة وجيزة كنت تتكلَّم الروسية بطلاقة متناهية. أنت لست ألمانيًا ولا بروفيسوراً! أنت قاتل وجاسوس! أوراقك! أوراقك!»، صرخ إيفان بغيظ.

عوج البروفيسور الغامض بنفور فمه الأعوج أصلًا وهزَّ كتفيه...

وتدخَّل المرتِّل المقرف ثانية:

- «أيها المواطن، لماذا تزعج السائح على هذا الشكل؟ ستحاسَب حسابًا عسيرًا على هذا!». أمَّا البروفيسور المريب فقد اصطنع وجهًا يفيض بالترفُّع واستدار ومضى مبتعدًا.

شعر إيفان أنه يفقد صوابه. فتوجَّه إلى المرتِّل يقول له ونَفَسه يكاد يتقطَّع:

- «إيه، أيها المواطن، ساعدني في الإمساك بالمجرم! من واجبك أن تفعل هذا».

دبَّت في المرتِّل حيوية فائقةٌ فهبَّ واقفًا وصرخ:

- «من المجرم؟ أين هو؟ المجرم الأجنبي؟». هنا تلالأت عينا المرتِّل ببريق البهجة، «هذا؟ إذا كان مجرمًا فأول ما يجب فعله أن نناديَ؛ وإلا فرَّ منَّا. هيا نصرخ معًا. بصوت واحد!». وهنا فَغَرَ المرتِّل شدقه.

امتثل إيفان الحائر للمرتل الهازل وصرخ: «النجدة»، لكن المرتِّل خدعه فلم يصرخ.

لم تأتِ صرخة إيفان اليتيمة المبحوحة بالنتائج المرجوة. بل إن صبيَّتين كانتا تمران هناك جفلتا، وسمع كلمة «سكران!».

صرخ إيفان وقد تملَّكه الغضب: - «أنت شريكه إذن؟ ما هذا، هل تسخر مني؟ دعني!».

اندفع إيفان إلى اليمين فإذا بالمرتِّل يندفع معه إلى اليمين! فاندفع إلى اليسار فإذا بالسافل يندفع إلى اليسار.

صرخ إيفان كالوحش: - «هل تتعثَّر عند قدمَيَّ عمدًا؟ سأسلِّمك أنت نفسك إلى الشرطة!».

وحاول إيفان إمساك هذا السافل من كمّه لكنه أخطأه فاختفى المرتِّل كأن الأرض انشقت عنه وابتلعته. تأوَّه إيفان وألقى نظرة إلى البعيد فرأى المجهول البغيض. كان عند المخرج المؤدي إلى زقاق بتريرشيي، ولم يكن وحده، فالمرتِّل الأكثر من مريب، تمكَّن من اللحاق به خلال ذلك. ولم يكن هذا كل شيء، بل انضمّ إليهما قط ضخم كالخنزير، أسود كالغراب أو السخام، ذو شاربين هائلين كشوارب الفرسان، لا يدري أحد من أين وكيف ظهر إلى جانبهما. كان الثلاثة يمضون باتجاه زقاق بتريرشيي إلا أن القطّ كان يمشي على قائمتيه الخلفيتين.

وحثَّ إيفان الخطو إثر هؤلاء الأشرار لكنه سرعان ما اقتنع بأنه سيكون من الصعوبة بمكان اللحاق بهم.

وفي غمضة عين عبر الثلاثي الزقاق وصار في شارع سبيريدونوفكا. ومهما حاول إيفان حَثّ الخطى، لم تكن المسافة بينه وبينهم تتقلص مقدار شعره، وما إن ثاب الشاعر إلى نفسه حتى وجد نفسه عند بوَّابة نيكيتسكي. وهنا ساء وضعه إذ بعد زقاق سبيريدونوفكا الهادئ كان الشارع هنا يعج بالناس.

اصطدم إيفان بأحد المارة فأمطره هذا سيلًا من الشتائم، زِد على ذلك أن العصابة قرَّرت هنا اللجوء إلى أسلوب العصابات المفضَّل: التفرّق.

قفز المرتِّل -أثناء ركضه- إلى الباص المنطلق إلى ساحة ربات بخفة عظيمة وتوارى عن الأنظار. وإذ رأى إيفان أنه أضاع أحد الملاحقين ركَّز اهتمامه على القط فرأى هذا القط الغريب يدنو من سلم عربة الترام «أ» ذات المحرك الواقفة في موقفها ويدفع بوقاحة امرأة أخذت تزعق من ذعرها، ويتشبَّث بالدرابزين، بل يحاول دس فكّه في يد الجابية عبر النافذة المفتوحة بسبب الجو الخانق.

صعق تصرف القط إيفان بحيث جمد في مكانه أمام البقالية في زاوية الشارع، لكنه صُعق أكثر من تصرف الجابية، فما إن رأت هذه القط ينسل على الترام حتى أخذت تزعق بغيظ اهتز له جسمها كله:

- «ركوب القطط ممنوع! ممنوع الركوب برفقة القطط! انزل وإلا دعوت الشرطة!».

وللحقيقة نقول إن ما أذهل الجابية والركاب لم يكن جوهر الموضوع: فإن ينسل قط إلى ترام ليس سوى نصف مصيبة، أما أن يتأهب للدفع!

ولقد تبيَّن أن القط ليس قادرًا على الدفع وحسب، بل إنه حيوان منضبط أيضًا. فلدى أول زعقة من الجابية أوقف تقدمه وقفز من السلم وجلس على الموقف وهو يمسح شاربيه بالفكّة. لكن ما إن شدَّت الجابية الحبل وتحرَّك الترام حتى تصرَّف القط كما يتصرَّف أي شخص يُطرد من ترام لا بدّ له من ركوبه، فقد انتظر حتى مرَّت أمامه العربات الثلاث كلها فقفز على القوس الخلفي لآخرها. وتشبَّث بقائمته بأنبوب بارز من جدار العربة ومضى موفرًا، هكذا، الفكّة على نفسه.

ولانشغال إيفان بهذا القط اللعين كاد يضيع أخطر الثلاثة؛ البروفيسور. لكن هذا، لحسن الحظ، لم يتمكن من التواري. فقد لمح إيفان قبعته الرمادية المستديرة في أول شارع بولشايا نيكيتسكايا أو هرتسن. وفي ومضة عين صار إيفان هناك. لكن التوفيق لم يحالفه. حثَّ الشاعر الخطى، بل إنه أخذ يعدو صادمًا المارة، لكنه لم يزدد من البروفيسور قربًا حتى ولو لسنتيمتر واحد.

وبُهت إيفان رغم شدَّة اضطرابه للسرعة الخارقة التي تمَّت بها المطاردة، فلم تكد تمضي عشرون ثانية حتى كان يقطع شارع نيكيتسكايا إلى ساحة أربات التي بهرت عينه بأضوائها. ومضت بضع ثوانٍ أخرى فإذا هو في زقاق عاتم ذي أرصفة ملتوية عثرت قدم إيفان نيقولايفتش عليها فهوى على الأرض ورُضَّت ركبته. ومن ثم وجد نفسه من جديد في شارع عريض مضاء؛ هو شارع كروبوتكينسكايا، ثم في زقاق، ثم في أوستوجينكا فزقاق آخر كئيب، بشع، مضاء بأنوار خافتة. هنا بالضبط أضاع إيفان نيقولايفتش تمامًا من كان في مسيس الحاجة إليه. اختفى البروفيسور.

اختلط الحابل بالنابل في رأس إيفان نيقولايفتش، إنما لفترة قصيرة، ذاك أنه تصوَّر أن البروفيسور لا بد أن يكون بالتأكيد في البناية رقم 13، وفي الشقة 47 حتمًا.

مرق إيفان نيقولايفتش من المدخل الخارجي وطار إلى الطابق الثاني، وجد الشقة المطلوبة على الفور وأخذ يقرع جرس الباب بإلحاح، ولم يطل انتظاره فقد فتحت له فتاة صغيرة في الخامسة من عمرها تقريبًا، ومضت فورًا دون أن تسأل الطارق شيئًا.

في مدخل الشقة الضخم، المهمَل إهمالًا فظيعًا، والمضاء بنور خافت من مصباح كربوني صغير جدًا تحت سقف عالٍ اسودّ من الوسخ، كانت تتدلَّى على الجدار درَّاجة دون إطارات، ويقوم في جانبه صندوق هائل مصفَّح بالحديد، وعلى رف فوق المشجب قبعة شتوية تتدلَّى أذناها الطويلتان إلى أسفل. وخلف أحد الأبواب كان صوت رجالي غاضب يدوِّي من المذياع بأبيات من الشعر.

لم يشعر إيفان نيقولايفتش بأي ارتباك في هذا الوضع الجديد غير المألوف. بل

اندفع على وجهه في الممر وهو يقول لنفسه: «لقد اختبأ في الحمام طبعًا!» كان الممر مظلمًا، إلا أن إيفان نيقولايفتش رأى، وهو يخبط بين الجدران، شريطًا خفيفًا من الضوء تحت أحد الأبواب، فتلمَّس مقبضه وجذبه برفق. سقط الخطّاف فوجد إيفان نفسه في الحمام كما توقَّع بالضبط، وحسب أن الحظ حالفه.

إلا أن الحظ لم يحالفه كما كان يتوقّع! نفح وجه إيفان دفء مشبع بالرطوبة، وعلى نور جمرات الفحم في المسخن استطاع أن يتبيَّن طسوتًا كبيرة معلَّقة على الجدار ومغطسًا ملطخًا كله ببقع سود مخيفة بفعل الميناء المتآكل والمتساقط. وفي هذا المغطس كانت تقف امرأة عارية يغطيها الصابون وتحمل ليفة في يدها. زرَّت المرأة عينيها في نظرة كليلة إلى إيفان المتسلل، لكنها أخطأت تمييزه في هذه الإضاءة البشعة على الأرجح، فقالت بصوت خافت مرح:

- «كيروشكا! لا تحاول! هل جننت... فيدور إيفانيتش عائد حالًا. هيا من هنا فورًا!». ولوَّحت بالليفة صوب إيفان.

كان الإشكال واضحًا، وسببه إيفان نيقولايفتش بطبيعة الحال. لكنه لم يشأ أن يعترف بخطئه، بل هتف في لجهة عتاب: «يا للعاهرة!» ولسبب لم يدركه وجد نفسه في المطبخ. لم يكن في المطبخ أحد، اللهم إلا نحو عشرة وابورات كاز مطفأة تقبع صامتة في نصف الظلمة على الموقد، وضوء القمر ينسل شحيحًا من النافذة المغبَّرة التي لم تُمسح من سنوات لينير زاوية ويبرز وراء قفصها الزجاجي طرفا شمعتين من شموع الأعراس، وأيقونة أخرى أصغر من الورق معلَّقة تحتها.

لا أحد يدري ما الذي دار في رأس إيفان، لكنه، قبل أن ينطلق إلى المدخل الخلفي، أخذ إحدى الشمعتين وكذلك الأيقونة الورقية، وغادر بهما الشقة الغريبة وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة مع شعور بالحيرة مما رآه وعاناه في الحمام ورغبة لا إرادية في كشف سر كيروشكا الوقح هذا، وما إذا لم يكن هو صاحب القبعة المقيتة ذات الأذنين.

وفي الزقاق الكئيب الخالي تلفَّت الشاعر حوله يبحث عن الهارب، لكنه لم يعثر له على أي أثر، إذَّاك قال إيفان في نفسه جازمًا:

- «إنه على نهر الموسكوفا طبعًا! هيا!».

كان يجب أن يُسأل إيفان نيقولايفتش لماذا يفترض وجود البروفيسور على نهر الموسكوفا بالذات وليس في أي مكان آخر.

لكن المصيبة أنه لم يكن هناك من يسأله، فقد كان الزقاق المقيت خاليًا من الناس تمامًا.

وبعد فترة جد وجيزةٍ كان بالإمكان رؤية إيفان نيقولايفتش على درجات رصيف نهر الموسكوفا الغرانيتية.

خلع إيفان ثيابه وعهد بها إلى رجلٍ ملتحٍ لطيف المظهر يدخِّن لفافة قرب قميص طويل أبيض ممزَّق وحذاء بالٍ حُلَّ رباطه. لوَّح بيديه كي يتبرَّد قليلًا ثم قذف بنفسه في الماء. أحس بأنفاسه تنحبس في صدره لشدة برودة الماء، لكنه طفا مع ذلك وأخذ يعوم وهو يلهث وينخر، وقد تكوَّرت عيناه من الرعب، في ماء أسود تفوح فيه رائحة النفط بين التعرجات المتكسِّرة لمصابيح الضفة.

وعندما عاد إيفان المبلَّل يحجل على درجات الملعب إلى حيث ترك لباسه بحراسة الملتحي، تبيَّن له أنهما كليهما، اللباس والملتحي نفسه، اختطفا ولم يبقَ في المكان الذي ترك فيه كومة ثيابه سوى السروال الداخلي المخطَّط والقميص الممزَّق والشمعة والأيقونة الصغيرة وعلبة الثقاب. وبغيظ العاجز لوَّح إيفان بقبضته لشخص ما في البعيد متوعدًا وارتدى ما تُرك له.

وهنا أخذت فكرتان تؤرِّقانه: الأولى اختفاء بطاقة عضويته في الماسوليت التي لم يكن يفترق عنها أبدًا، والثانية، إن كان بإمكانه أن يسير في موسكو على هذه الصورة دون عائق، فهو في السروال الداخلي فقط... ولكن ما شأن الناس به، المهم ألا يحدث أي تعنُّت لا مبرر له أو تأخير.

قطع إيفان السروال الداخلي فوق الكاحل قليلاً، لعله بذلك يشبه بنطالًا صيفيًا، وتناول الأيقونة والشمعة وعلبة الثقاب وانطلق وهو يقول لنفسه:

- «إلى غريبوييدوف! إنه هناك دون شك».

كانت المدينة قد أخذت تعيش حياتها المسائية. وكانت الشاحنات تنطلق في سحابات من الغبار مصلصلة بسلاسلها وعلى ظهرها يستلقي على الأكياس رجال ببطون مشرئبَّة إلى أعلى.

كانت كل النوافذ مشرعة، وفي كل نافذة من هذه النوافذ، ومن كل الأبواب، ومن كل الأطناف، من الأسطح والعلالي، من الأقبية والأفنية، كان ينطلق هدير البولونيز من أوبرا «يفغيني أونيغين»[1] مبحوحًا.

وكان لمخاوف إيفان نيقولايفتش ما يبرِّرها تمامًا: فقد أخذ المارةُ يلتفتون إليه ويشيحون بوجوههم. وعلى هذا فقد قرَّر هجر الشوارع الكبيرة، والتسلُّل في الأزقة الضيقة حيث الناس أقل لجاجة، وحيث احتمالات معاكسة الناس لإنسان حافٍ

(1) أوبرا شهيرة للموسيقي الروسي تشايكوفسكي. الناشر.

ومضايقتهم له بأسئلة عن السروال الداخلي، الذي لم يرغب في إصرار أن يشبه البنطال، أقل.

وكما قرَّر إيفان فَعَل. توغَّل في الشبكة الغامضة من أزقة أربات، وأخذ يتسلَّل بمحاذاة الجدران وهو ينظر حوله بذعر ويتلفَّت كل دقيقة، ويختبئ أحيانًا في المداخل متحاشيًا مفترقات الطرق التي تقوم عليها أضواء المرور والأبواب الأنيقة لدور السفارات.

وعلى طول طريقه الصعب هذا لم يدر لماذا كانت هذه الأوركسترا التي تملأ كل مكان، والتي يرافقها صوت غليظ ثقيل يغنِّي حبه لتاتيانا، تعذِّبه هذا العذاب الذي لا يُوصف.

## الفصل الخامس

# ...وحدث في غريبوييدوف

كان البيت العتيق العاجي اللون يقع بطابقيه الاثنين على البولفار المحلَّق في عمق حديقة ذابلة يفصلها عن رصيف البولفار حاجز من الحديد المشبَّك المنقوش. وكانت الباحة الصغيرة أمام البيت مفروشة بالأسفلت. وكانت هذه الباحة تتحوَّل في الشتاء إلى كثيّب ثلجيٍّ تعلوه مجرفة، وفي الصيف إلى مطعم صيفي رائع تعلوه مظلة من القماش القِنَّبي.

وكان هذا البيت يدعى «بيت غريبوييدوف» على أساس أن عمَّة الكاتب الكسندر سرغييفتش غريبوييدوف كانت تملكه في زمن ما، حسب ما يقال. لكن هل ملكت حقًا هذا البيت أم لا، ذلك أمر لا نعرفه بالضبط. بل يُذكر أيضًا أنه لم تكن لغريبوييدوف أبدًا، على ما يبدو، أي عمَّة صاحبة بيت... إلا أنهم هكذا سمُّوا البيت. زد على ذلك أن أحد كذَّابي موسكو كان يدَّعي أن الكاتب المشهور قرأ لعمته تلك مقاطع من مسرحيته «الشقاء بسبب العقل» وهي مستلقية على الصوفا في القاعة المستديرة ذات الأعمدة التي في الطابق الثاني على وجه الضبط. وعلى أي حال، الشيطان أعلم، لعله قرأ لها بالفعل. لكن ليس هذا هو المهم.

المهم أن الماسوليت الذي كان يقوم على رأسه المسكين ميخائيل ألكسندروفتش برليوز قبل حضوره إلى بتريرشيي برودي هو الذي يملك هذا البيت في الوقت الراهن.

وعلى غرار أعضاء الماسوليت لم يكن أحد يدعو البيت «بيت غريبوييدوف»، بل كان الجميع يقولون ببساطة «غريبوييدوف»؛ «البارحة أمضيت ساعتين عند غريبوييدوف أسعى...»، «وماذا كانت النتيجة؟»، «ظفرت ببطاقة إلى يالطا لمدة شهر»، «برافو!». أو: «أذهب إلى برليوز. إنه يستقبل اليوم في غريبوييدوف من الرابعة حتى الخامسة...». وهكذا دواليك.

استقر الماسوليت في غريبوييدوف على نحو لا أبدع منه ولا أريَح. كان الداخل إلى غريبوييدوف يتعرَّف من غير قصد أول ما يتعرَّف على إعلانات الحلقات الرياضية المختلفة، وعلى صور أعضاء الماسوليت الجماعية والفردية المعلقة على جدران الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني.

وعلى باب الغرفة الأولى في هذا الطابق العلوي كانت تبرز كتابة بخط كبير «مجموعة صيد السمك والاصطياف» وإلى جانبها مباشرة صورة شبُّوط عالق بصنارة.

وعلى باب الغرفة رقم 2 كُتب كلامٌ غير مفهوم تمامًا: «رحلة إبداعية ليوم واحد. المراجعة عند م. ف. بودلوجنايا». وكان الباب التالي يحمل كتابة موجزة، لكنها غير مفهومة على الإطلاق: «بيريليغينو». ثم تأخذ عينا من يزور غريبوييدوف عابرًا تزغلان من الكتابات المبرقشة على أبواب العمَّة المصنوعة من خشب الجوز: «تسجيل الدور للحصول على ورق عند بوكليفكينا»، «الصندوق»، «الحسابات الشخصية لأصحاب السكيتشات».

وإذا ما تيسَّر للمرء شق الصف الطويل جدًا الذي يبدأ من تحت، من غرفة البوَّابين، استطاع أن يرى كتابة على باب يتزاحم الناس عنده كل ثانية «قضايا الشقق». وبعد «قضايا الشقق» كانت تنبسط أمام عيني الزائر يافطة فخمة رُسمت عليها صخرة يعدو على قمتها فارس يضع عباءة ويحمل بندقية على كتفه. وتحته قليلًا أشجار نخيل وشرفة، وعلى الشرفة يجلس شاب تتدلَّى ذؤابة من شعره ويحمل قلمًا بيده ويحدِّق إلى العلى بعينين جسورتين للغاية. ثم كتابة: «إجازات تفرُّغ كامل للإبداع من أسبوعين (للقصة) وحتى عام واحد (للرواية والثلاثية)، يالطا، سووق سو، بوروفويي، تسيخيدزيوي، ماخنجوري، لينينغراد[1] (القصر الشتوي)». وعند هذا الباب أيضًا كان يقف طابور لكنه ليس ضخمًا، نحو مائة وخمسين شخصًا.

تلي ذلك، وبالتساوق مع منعرجات بيت غريبوييدوف العشوائية؛ مرتفعاته ومنحدراته، «إدارة الماسولييت»، «الصناديق رقم 2، 3، 4، 5»، «هيئة التحرير»، «رئيس الماسوليت»، «صالة البليار»، ثم أقسام فرعية مختلفة وأخيرًا تلك القاعة إياها ذات الأعمدة حيث كانت العمة تستمتع بملهاة ابن أخيها العبقري.

وكان كل زائر يجد نفسه في غريبوييدوف يدرك على الفور، هذا إن لم يكن على غباء مطبق، مقدار ما ينعم به هؤلاء المحظوظون أعضاء الماسوليت من رغد وطيب عيش، ويبدأ الحسد الأسود ينخر قلبه للتو، وللتو أيضًا كان يرفع إلى السماء عتابًا مرًا

---

(1) مدن تابعة للاتحاد السوفيتي السابق. الناشر.

على أنها لم تنعم عليه منذ ولادته بموهبة أدبية، إذ من دونها، وهذا طبيعي، من العبث أن يحلم بامتلاك بطاقة عضوية الماسوليت البنية ذات الإطار الذهبي العريض التي تفوح منها رائحة جلد ثمين؛ تلك البطاقة التي تعرفها موسكو كلها.

من ذا الذي بإمكانه قول كلمة دفاع عن الحسد. إنه عاطفة من نوع رديء، لكن علينا، مع هذا، أن نتفهَّم وضع الزائر. فما رآه في الطابق الثاني من بيت العَمّة لم يكن كل شيء، بل أبعد من أن يكون كل شيء. فالطابق السفلي من بيت العمة كان مشغولاً كله بمطعم وأيّ مطعم! اعتُبر، والحق يقال، أحسن مطعم في موسكو. وما ذلك لأن المطعم كان يمتد على قاعتين كبيرتين لهما سقفين مدبَّبين مزخرفين بجياد ليلكية ذات أعراف أشورية، أو لأنه كان على كل طاولة مصباح مغطّى بشال، ولا لأنه لم يكن باستطاعة أياً كان دخوله وحسب، بل لأنه كان بنوعية أطباقه يبزّ أي مطعم في موسكو، ولأن هذه الأطباق كانت تُقدَّم بأنسب الأسعار، أسعار لا تُثقل كاهل زبائنه.

وعلى هذا ليس في هذا الحديث، مثلًا، والذي سمعه ذات مرة كاتب هذه السطور الصادقة كل الصدق قرب الحاجز الحديدي المشبَّك من غريبوييدوف ما يثير الاستغراب:

- «أين تتعشّى اليوم يا أمفروسي؟».

- «ما هذا السؤال، يا عزيزي فوكا، هنا طبعًا! لقد أسرَّ لي اليوم أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش أنه سيقدم طبقاً من سمك الصندر «au naturel»[1]! شيء رائع!».

أجاب فوكا الهزيل المهمل المنظر، المغطى الرقبة بالدمل الكبير، أمفروسي الشاعر العملاق القامة ذا الشفتين الورديتين والشعر الذهبي والخدَّين المنتفخين متنهدًا:

- «تعرف كيف تعيش، يا أمفروسي!».

ردَّ أمفروسي معترضًا: - «ليست هذه شطارة خاصة، بل رغبة طبيعية في العيش عيشة إنسانية. تريد أن تقول إنه يمكن أن نجد سمك الصندر في «الكوليزي» أيضًا. لكن قيمة طبق سمك الصندر هناك ثلاثة عشر روبلاً وخمسة عشر كوبيكاً، بينما هي عندنا هنا بخمسة روبلات وخمسون كوبيكاً! زد على ذلك أن سمك الصندر في «الكوليزي» بائت من ثلاثة أيام، وزد على هذا وذاك أنك لا تستطيع أن تضمن ألا يرمي أول شاب ينسلّ من زقاق تياترالني عنقودًا من العنب في سحنتك. لا، أنا قطعًا ضد الكوليزي»، كان صوت أمفروسي المتألِّق في الأكل والشراب يدوِّي في البولفار كله، «لا تحاول إقناعي يا فوكا».

---

(1) بالفرنسية في الأصل وتعني طبيعي، وعند وصف الطعام فإنها تعني دون أي إضافات كالبهارات وما شابهها. الناشر.

أجابه فوكا بصوت كالصأصأة: - «إني لا أحاول إقناعك يا أمفروسي، بإمكاني أن أتعشَّى في البيت».

أجاب أمفروسي بصوته الداوي نفسه: - «كما تشاء، أتصوَّر زوجتك وهي تحاول وضع طبق من سمك الصندر «au naturel» في طنجرة في المطبخ العمومي! هيء هيء هيء!... إلى اللقاء يا فوكا»، وأسرع وهو يدندن إلى الشرفة تحت المظلة الواقية.

أو أو أو... نعم كان هذا كله وأكثر!... وما أشد ما يذكر القدامى من سكان موسكو غريبويدوف الشهير! فما طبق الصندر المسلوق هذا! إنه ليس سوى تفاهة أيها العزيز أمفروسي! والحفش، الحفش الصغير في الحُلة الفضية. الحفش قِطعًا قِطعًا محشوّة برقاب السرطان النهري والكافيار الطازج؟ والبيض «en cocotte»[1] بعصيدة الفطر في فناجين؟ ولحم الشحرور ألم يعجبك؟ الشحرور بالكمأة؟ والسُماني على الطريقة الجنويّة؟ وكل هذا بعشرة روبلات وخمسين كوبيكاً! والجاز والخدمة المهذّبة! وصحن حساء «printanier»[2] المذهَّب على سماط ناصع على الشرفة في ظل دوالي الكرمة المتشابكة في شهر تموز، حينما تكون أسرتك كلها في الفيللا وأنت في المدينة بسبب شؤون أدبية عاجلة؟ هل تذكر يا أمفروسي؟ ما أسخف هذا السؤال! فأنا أرى من شفتيك أنك تذكر. فما أطباق سمك الصندر واللور! والشنقب والبكاشين ودجاجة الغابة ودجاجة الأرض في أوانها والسمّاني! وماء النارزان يقرقر في الحلق؟! لكن كفاك، يا قارئي، أخذت تشرد! فهيا معي!...

في منتصف الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم الذي قُتل فيه برليوز في بتريرشيي برودي، لم تكن تضيء في الطابق العلوي إلا غرفة واحدة. وفي هذه الغرفة التقى اثنا عشر أديبًا للاجتماع الموعود. كانوا ينتظرون قدوم ميخائيل ألكسندروفتش، وكان الانتظار بدأ يرهقهم.

كانوا يجلسون على الكراسي وعلى الطاولات، بل حتى على وفي النافذتين في مكتب إدارة الماسوليت، وكانوا يعانون معاناة حقيقية من الجو الخانق، فلم تكن أي نسمة منعشة تنفذ إلى الغرفة من النافذتين المشرعتين، بل كانت موسكو تنفث القيظ الذي اختزنته في إسفَلتها طول النهار، وكان واضحًا أن الليل لن يخفِّف من حدَّة هذا الجو الخانق. وكانت رائحة البصل تهب عليهم من قبو بيت العمة حيث يعمل مطبخ المطعم. كانوا جميعهم يريدون أن يبلوا ريقهم. وكانوا كلهم متوتري الأعصاب، ساخطين.

---

(1) بالفرنسية في الأصل وهي طريقة لطهو البيض. الناشر.

(2) بالفرنسية، وهو حساء الربيع. الناشر.

بيسكودنيكوف، وهو كاتب قصص قصيرة رائجة، هادئ، لائق الملبس وذو عينين يقظتين لكنهما في الوقت نفسه لا تستقران على شيء، سحب ساعته. كان العقرب يزحف نحو الحادية عشرة. نقر بيسكودنيكوف على ميناء الساعة بإصبعه وأراه جاره الشاعر دفوبراتسكي الذي كان يجلس على الطاولة ويؤرجح قدميه في حذائهما الأصفر ذي النعل المطاطي من ملله.

جمجم دفوبراتسكي: - «ومع هذا...».

- «لا بد أن الرجل تأخَّر في كلازما»، ردَّت بصوت غليظ نستاسيا لوكينيشنا نيبرينوفا، وهي يتيمة أب من تجار موسكو أصبحت فيما بعد كاتبة تؤلِّف قصصًا عن المعارك البحرية تحت اسم مستعار «الملَّاح جورج».

تدخَّل كاتب الاسكيتشات الشعبية زاغريفوت بجرأة في الحديث: - «العفو!، وأنا أيضًا بودي لو أشرب قدحًا من الشاي على الشرفة بدلًا من أن أجلس هنا وأنسلق. الاجتماع في العاشرة أليس كذلك؟».

- «الجو لطيف الآن في كلازما»، قالت «الملَّاح جورج». التي كانت تعرف تمامًا أن قرية بيريليغنو حيث الفيلات العائدة لماسوليت تقع على ضفة نهر كلازما موضع وجع بالنسبة للجميع، كأنما لتزيد من بَرَم الحاضرين. - «لا بد أن الحساسين تغرِّد الآن هناك. وأنا شخصيًا أقبل على العمل على نحو أفضل في الضاحية ولا سيما في الربيع».

قال الكاتب القصصي إيرونيم بويريخين بسخرية ومرارة: - «للعام الثالث على التوالي وأنا أسدِّد الاشتراك المطلوب كي ما أستطيع إرسال زوجتي المصابة بتضخُّم الغدة الدرقية إلى هذه الجنة، ومع هذا لم تلُح حتى الآن بارقة أمل بين الأمواج».

هدر صوت الناقد أبابكوف من رف النافذة: - «هذا يتوقَّف على صاحب الحظ!...».

تلألأت عينا «الملاح جورج» الصغيرتان بالغبطة، وقالت وهي تحاول تلطيف صوتها الغليظ: - «لا داعي للحسد أيها الرفاق. ليس هناك سوى اثنتين وعشرين فيللا. والآن يجري بناء سبع فقط، بينما نحن ثلاثة آلاف في الماسوليت».

تدخَّل أحدهم من الزاوية مصحِّحًا: - «ثلاثة آلاف ومائة وأحد عشر».

تابعت «الملاح»: - «أرأيت! ما العمل إذن؟ من الطبيعي أن يحصل على الفيلات أكثرنا موهبة...».

زجَّ كاتب السيناريو غلوخاريوف نفسه في خضم المشاحنة زجًا: - «الجنرالات!».

تظاهر بيسكودنيكوف بالتثاؤب وغادر الغرفة.

قال في إثره غلوخاريوف: - «وحده في خمس غرف في بيريليغنو».

صرخ دينيسكين: - «ولافروفيتش وحده في ست غرف، وغرفة الطعام عنده من خشب البلوط!».

هدر أبابكوف: - «أي، ليس هذا موضوعنا الآن، بل إن الثانية عشرة انتصفت».

وتعالى اللغط والصخب فيما بدا نوعًا من التمرُّد والعصيان. واتصلوا بفيلا بيريليغنو البغيضة، فاتضح أنهم اتصلوا بفيلا لافروفيتش بدلًا منها. قيل لهم إنه خرج على ضفة النهر فتعكَّر مزاجهم تمامًا. ودون سبب واضح، اتصلوا بجمعية الأدبِ (على الرقم الإضافي 930) فلم يعثروا هناك على أحد بطبيعة الحال.

صرخ دينيسكين وغلوخاريوف وكفانت: - «كان بوسعه أن يهتف!».

آه، عبثًا كانوا يصرخون: إذ لم يكن بوسع ميخائيل ألكسندروفتش أن يهتف إلى أي مكان كان. فبعيدًا، بعيدًا عن غريبوييدوف، وفي قاعة ضخمة تنيرها مصابيح بقوة ألف شمعة كان يتمدَّد على ثلاث مناضد من الزنك، ما كان إلى وقت قريب ميخائيل ألكسندروفتش.

كانت على المنضدة الأولى جثة برليوز العارية التي تخثَّر الدم عليها ويده المهشَّمة وقفصه الصدري الممزَّق، وعلى الثانية رأسه بأسنانه الأمامية المحطَّمة وعينيه المفتوحتين المتعكِّرتين اللتين لم يخفِهما الضوء الجارح، وعلى الثالثة كومة من الخرق الخشنة.

وكان يقف إلى جانب المقطوع الرأس ممثل الطب الشرعي وهو بروفيسور في الباثولوجيا التشريحية، ومساعده المشرِّح، وممثلو التحقيق، ونائب ميخائيل الكسندروفش برليوز في رئاسة الماسوليت الأديب جيلدييين الذي استُدعيَ بالهاتف من قرب زوجته المريضة.

كانت قد وصلت سيارة إلى بيت جيلدييين فحملته مع ممثلي التحقيق (وكانت الساعة تقارب منتصف الليل) إلى شقة القتيل أولًا حيث تم ختم أوراقه، ثم إلى معرض الجثث.

وكان الواقفون الآن إلى جانب رفات المرحوم يتشاورون في ما يفضَّل فعله: هل يخيطون الرأس المقطوع إلى الرقبة أو يعرضون جثمانه في قاعة غريبوييدوف بعد أن يغطوا القتيل حتى ذقنه تغطية محكمة بغطاء أسود؟

أجل، لم يكن بوسع ميخائيل ألكسندروفتش أن يهتف إلى أي مكان، وعبثًا كان دينيسكين، وغلوخاريوف وكفانت مع بيسكوجنيكوف يتصايحون ويسخطون. ففي منتصف الليل تمامًا غادر الأدباء الاثنا عشر الطابق العلوي ونزلوا إلى المطعم. وهنا

عادوا فذكروا من جديد ميخائيل ألكسندروفتش بالسوء في سرهم، إذ كانت كل الطاولات التي على الشرفة مشغولة بطبيعة الحال، مما اضطرهم إلى الجلوس للعشاء في هاتين القاعتين الجميلتين حقًا، إنما الخانقتين.

وفي الثانية عشرة تمامًا قصف في القاعة الأولى شيء ما وهاج وتناثر وتقافز، وللحال تعالى على إيقاعه صوت رجّالي حاد يصرخ باندفاع: «هلّلويا!» كان هذا الجاز المشهور التابع لبيت غريبوييدوف. بدا كأنّ الوجوه المتصبِّبة بالعرق أشرقت، والجياد المرسومة على السقف دبت فيها الحياة، ونور المصابيح ازداد وهجًا، وفجأة كأنما أفلتت كلتا القاعتين ثم الشرفة من عقالها فأخذت ترقص.

رقص غلوخاريوف مع الشاعرة تمارا بولوميسيتس، ورقص كفنت، ورقص الروائي جوكولوف مع ممثلة سينمائية في فستان أصفر. ورقص دراغونسكي وتشيردكتشي. ودينيسكين الضئيل مع العملاقة «الملاح جورج»، ورقصت المهندسة المعمارية الحسناء سيميكينا - غال وقد تشبَّث بها مجهول في بنطال كتاني أبيض. رقص أعضاء الماسوليت وضيوفهم، موسكوفيين وغير موسكوفيون، الكاتب أيوهان من كرونشتات، وشخص من روستوف يظهر أنه مخرج اسمه فيتيا كوفتيك، على خده وحمة ليليكة كبيرة، رقص أبرز ممثلي جمعية الشعر في ماسوليت أي بافيانوف وبوغروخولسكي وسلادكي، وشبيتشكين وأدويلفينا بوزدياك، وشبان مجهولو العمل يرتدون جاكيتات ذات أكتاف مبطّنة بالقطن، ورقص كهل متقدِّم في السن علقت في لحيته ورقة من البصل الأخضر وكانت تراقصه عانس عجوز في فستان قصير مكرمش من الحرير البرتقالي امتص عافيتها فقر الدم.

وكان النُدُل المتصبِّبون عرقًا يحملون كؤوس البيرة المتعرِّقة فوق رؤوسهم ويصرخون بأصوات مبحوحة تشي بالحقد: «عفوًا، أيها المواطن!». وفي مكان ما كان صوت أحدهم يصدر تعليماته بالبوق: «كباب واحد! قدحان من الزوبروفكا! حساء بولوني باللحم!» ولم يعد الصوت الحاد يغني، بل صار يعوي: «هلّلويا!» وكانت فرقعة الأواني التي كانت الغسالات يدفعنها إلى المطبخ على مستوى مائل تطغى على فرقة الصنوج الذهبية في الجاز. وبكلمة، كان الجحيم.

وفي منتصف الليل كانت في الجحيم رؤيا، فقد خرج إلى الشرفة رجل يرتدي فراكًا، رجل وسيمٌ له عينين سوداوين ولحية تحاكي الخنجر، وأجال في أرجاء مملكته نظرة جليلة. يقول الصوفيون إنه في وقت من الأوقات لم يكن هذا الرجل الوسيم يرتدي فراكًا، بل كان يتمنطق بسير عريض من الجلد تتدلّى منه مقابض مسدسات، وكان شعره

الذي بلون جناح الغراب مشدودًا بمنديل من الحرير الأحمر. وكانت سفينة بصاريتين تمخر البحر الكاريبي تحت إمرته وتحمل علمًا أسود رُسم عليه رأس آدم.

لكن لا، لا، كذب الصوفيون الغاوون، فليس على هذه الأرض شيء اسمه البحر الكاريبي، ولا يمخر عبابه أي قراصنة جسورين ولا تطاردهم فيه أي سفن حربية، ولا ينتشر فوق موجه أي دخان مَدَافع. لا شيء هناك، ولم يوجد شيء! أما هنا، فهاك شجرة الزيزفون الذاوية، وهاك الحاجز الحديدي المشبَّك وبعده البولفار... كلها موجودة... والجليد الذي يذوب في الإناء، وتلكما العينان الشبيهتان بعيني الثور والمحتقنتان بالدم هناك وراء الطاولة المجاورة... شيء مرعب؟، مرعب... أيتها الآلهة، أيتها الآلهة، إليَّ بالسم، بالسم!

وفجأة رفَّت وراء الطاولة كلمة: «برليوز!». وفجأة خار صوت الجاز وسكن، كأنما أحدهم لكمه بقبضته. «ماذا، ماذا، ماذا، ماذا؟!!». «برليوز!!!» وأخذوا يثبون من مقاعدهم وهم يتصايحون...

أجل. طغت موجة من الحزن لدى سماعهم بهذا الخبر المريع عن ميخائيل ألكسندروفتش. أحدهم صار يسعى ويصرخ أنه من الضروري للحال وقبل أن يغادر أي واحدٍ مكانه أن يكتبوا برقية جماعية ويرسلوها على الفور.

لكننا نتساءل: أي برقية هذه وإلى أين؟ ولماذا نرسلها؟ وبالفعل، إلى أين، فمن قفاه المفرطح يُضغط الآن بين يدي المشرِّح المطاطيتين، ومَنْ رقبته يخزها الآن البروفيسور بإبر معقوفة، ما حاجته إلى برقية، أي برقية؟ لقد قُتل، وليست هناك حاجة إلى أي برقية. انتهى كل شيء، فتعالوا لا نثقل على مصلحة البرق.

أجل، قُتل، قُتل... لكننا نحن ما زلنا أحياء!

أجل. طغت موجة من الحزن، وظلت تطغى وتطغى ثم أخذت تنحسر، كان أحدهم قد عاد إلى طاولته، وتناول قليلًا من الفودكا وأكل؛ خلسة أول الأمر ثم على المكشوف. وبالفعل هل نترك أضلاع الدجاج تضيع منا؟ وكيف لنا أن نمد يد العون إلى ميخائيل ألكسندروفتش؟ هل بأن نبيت على الطوَى؟ لكننا أحياء، أحياء ما زلنا!

وبالطبع أقفل البيانو بالمفتاح وتفرَّق أعضاء فرقة الجاز، بينما هُرع بعض الصحفيين إلى صحفهم ليكتبوا مقالات التأبين في برليوز. وسرعان ما عُرف أن جيلدييين وصل من معرض الجثث، وأخذ مكانه في مكتب المرحوم في الطابق العلوي، وللحال سَرَت في الحاضرين همهمة بأنه سيحل محل برليوز. استدعى جيلدييين إلى مكتبه من المطعم أعضاء الإدارة الإثنى عشر كلهم. وباشروا على الفور، وفي مكتب برليوز

إياه، مناقشة الأمور العاجلة، وكانت هذه الأمور تتعلّق بترتيب قاعة غريبوييدوف ذات الأعمدة، وبنقل الجثمان من المشرحة إلى هذه القاعة، وبكيفية إفساح المجال أمام الجمهور لإلقاء نظرة الوداع الأخير عليه، وبأشياء أخرى تتصل بهذا الحدث الأليم.

وعاد المطعم يعيش حياته الليلية المألوفة، وكان بالإمكان أن يعيشها حتى موعد الإغلاق أي حتى الرابعة صباحًا لو لم يحدث شيء خارق تمامًا ذُهل له رواد المطعم أشد مما ذُهلوا لنبأ مصرع برليوز.

كانت الحوذية الساهرون عند بوّابة بيت غريبوييدوف أول من استشعر القلق والاضطراب. وقد أخذ أحدهم ينهض من مقعده ويصرخ:

- «أي! انظروا!».

وعلى الأثر، وأنى تطلّعت، كنت ترى شعلة متّقدة عند الحاجز الحديدي المشبّك. وأخذت الشعلة تدنو من الشرفة، وأخذ الجالسون إلى طاولاتهم ينهضون ويمعنون النظر فيها، فأبصروا شبحًا أبيض يخطو إلى المطعم مع الشعلة. ولما بلغ التعريشة تجمّد الجميع وراء طاولتهم جاحظي العيون وقِطع سمك الحفش عالقة في شُوَكهم. أمّا البوّاب الخارج آنذاك من باب مشجب المطعم ليدخّن، فداس سيجارته بقدمه وتحفّز لملاقاة الشبح بغرض واحد، هو سد الطريق عليه إلى المطعم. لكنه لسبب ما لم يفعل، بل توقّف وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة بلهاء.

جاز الشبح فجوة في التعريشة ودخل الشرفة دون عائق. وهنا أدرك الجميع أن ما رأوه لم يكن شبحًا على الإطلاق بل الشاعر الذائع الصيت إيفان نيقولايفتش بيزدومني.

كان حافي القدمين، في قميص ممزّق ضارب إلى البياض شبكت على صدره بدبوس إنكليزي أيقونة ورقية صغيرة مع صورة مطموسة لقديس مجهول، وسروال تحتاني أبيض مخطّط، وهو يحمل بيده شمعة عرس مشتعلة. كان خد إيفان نيقولايفتش ممزقًا حديثًا. كان يصعب قياس عمق الصمت الذي ساد الشرفة. إنما شوهدت البيرة في يد أحد الندل تنسكب من كأس مائلة على الأرض.

رفع الشاعر الشمعة فوق رأسه وقال بصوت عالٍ:

- «مرحبًا أيها الأصدقاء!».

ثم ألقى نظرة تحت أقرب طاولة إليه وهتف في كآبة:

- «لا، ليس هنا!».

وسُمع صوتان. قال الصوت الغليظ دون رحمة:

- «الأمر واضح. هذيان رعاشي!».

أما الصوت الثاني، النسائي، المذعور فقال:

- «كيف تركته الشرطة يسير في الشوارع على هذا الشكل؟». سمع إيفان نيقولافيتش ما قاله الصوت الثاني فرَدَّ قائلًا:

- «حاولوا إلقاء القبض عليَّ مرتين في سكاتيرني وهنا في برونايا، لكني تسلَّقت السياج وتملَّصت منهم، وها هو ذا قد تجرّح خَدّي. أيها الإخوة في الأدب! (كان صوته المبحوح قد اشتد وأصبح أكثر حدَّة). اسمعوني جميعًا! لقد ظهر! امسكوه على الفور، وإلا سبَّب لنا مصائب لا تُوصف!».

وانطلقت الأصوات من كل جانب:

- «ماذا؟ ماذا؟ ماذا قال؟ من الذي ظهر؟».

أجاب إيفان: - «المستشار! وهذا المستشار هو الذي قتل للتو ميشا[1] برليوز في بتريرشيي برودي».

وعندئذ تدافع الناس من القاعة الداخلية إلى الشرفة وتزاحموا حول شعلة إيفان.

وسُمع فوق أذن إيفان نيقولايفتش صوت هادئ ومؤدَّب:

- «العفو، العفو، قل بالتحديد: كيف قُتل؟ ومن الذي قتله؟».

ردَّ عليه إيفان وهو يتلفَّت حوله: - «مستشار أجنبي، بروفيسور وجاسوس!».

وسمع إيفان همسًا في أذنه: - «وما كُنيته؟».

هتف إيفان في كآبة: - «هنا المشكلة! لو كنت أعرف كنيته! فأنا لم أتبيَّن كنيته على بطاقة الزيارة... لا أذكر منها إلا الحرف الأول ف، كنيته تبدأ بحرف ف! ما عساها تكون؟». وضع إيفان يده على جبينه، ثم غمغم فجأة: «فـ، في، في، في! فا... فو... فاشنر؟ فاغنر؟ فاينر؟ فيغنير؟...». كان شعر إيفان يتموَّج فوق رأسه من شدة التوتر.

صاحت امرأة بصوت حزين: - «فولف؟».

غضب إيفان وصرخ وهو يبحث بعينيه عن تلك المرأة:

- «غبية! وما دخل فولف هنا! فولف ليس له أي علاقة بالموضوع! فو... فو... لا! لا أستطيع بأي شكل أن أتذكَّر! إذن إليكم ما يجب أن نفعله أيها المواطنون: تَلْفِنوا للشرطة على الفور كي ترسل خمس دراجات نارية مع رشاشاتها ليبحثوا عن البروفيسور. ثم لا تنسوا أن تقولوا لهم إن معه اثنين آخرين: شخص طويل القامة في لباس ذي رسوم مربعة... ونظارة أنفية لها عدسة مشقَّقة... وقط أسود، سمين. وأنا في هذه الأثناء سأفتش غريبوييدوف... إني أشعر أنه هنا!».

---

(1) ميشا: تصغير ميخائيل. المترجم.

وتولّى إيفان هَيَجان فدفع من حوله وأخذ يلوّح بالشمعة مريقًا الشمع على نفسه ويتطلّع تحت الطاولات. وهنا سُمِعتْ كلمة: «الدكتور!»، وما لبث أن ظهر وجه باشٌ لحيم، حليق ومكتنز، عليه نظارة قرنية أمام إيفان.

قال له هذا الوجه بصوت هائل: - «هدِّئ روعك، يا رفيق بيزدومني! لقد هزَّك موت ميخائيل ألكسندروفتش.. لا بل ببساطة: ميشا برليوز الذي نحبه جميعًا. وهذا أمر نفهمه جميعًا جيدًا. أنت بحاجة إلى الهدوء... وسيقودك بعض الرفاق إلى السرير، وهناك تغفو قليلًا وترتاح...».

قاطعه إيفان مكشِّرًا: - «أنت، ألا تدرك أنه يجب القبض على البروفيسور بدلًا من هذا الهراء؟ يا لك من غبي!».

- «المعذرة، يا رفيق بيزدومني»، أجابه الوجه، وهو يحمَرّ ويتراجع، نادمًا، فيما يبدو، على أنه خسر نفسه في هذه القضية.

قال إيفان نيقولايفتش بحقد بارد: - «لا، قد أعذر أيًّا كان، لكن ليس أنت».

وتشنَّج وجه إيفان، فنقل الشمعة بسرعة من يده اليمنى إلى اليسرى ولوَّح بملء يمناه وصفع الوجه المتعاطف معه على أذنه.

وهنا فطنوا إلى وجوب الانقضاض على إيفان، وانقضّوا عليه فعلًا. انطفأت الشمعة، وانزلقت نظارته عن وجهه فداستها الأرجل على الفور. ندَّ عن إيفان زعيق قتالي مخيف سمعه الجميع، حتى في البولفار، وراح يدافع عن نفسه. تقصَّفت الأواني التي وقعت على الأرض وزعقت النساء وولولن.

وفيما كان النُدل يشدّون وثاق إيفان بالمناشف، كان الحوار التالي يدور في غرفة المشجب بين قبطان السفينة ذات الصاريتين والبوَّاب.

سأل القرصان ببرود: - «هل رأيت أنه في السروال التحتاني؟».

أجابه البوَّاب وقد تملّكه الخوف: - «لكن كيف لي أن أمنعه من الدخول، يا أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش، وهو عضو الماسوليت؟».

كرَّر القرصان سؤاله: - «هل رأيت أنه في السروال التحتاني؟».

أجابه البوَّاب وقد أحمرَّ وجهه: - «المعذرة، يا أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش، لكن ماذا بيدي أن أفعل؟ أنا أدرك أن هناك سيدات على الشرفة...».

أجاب القرصان وهو يحرق البوَّاب بعينيه: - «السيدات لا شأن لهنَّ بهذا الموضوع. سيان بالنسبة لهن، أما بالنسبة للشرطة فليس الأمر واحدًا! الواحد منَّا لا يمكنه أن يسير في شوارع موسكو بملابسه الداخلية إلا في حالة واحدة؛ إذا كان بمرافقة الشرطة،

وإلا إلى مكان واحد؛ إلى قسم الشرطة! وأنت، إذا كنت بوّابًا حقًا، عليك أن تعرف أن واجبك حين تشاهد شخصًا كهذا أن تأخذ في الصفير فورًا، دون أن تضيّع ثانية واحدة. هل تسمعني؟».

سمع البوّاب الذي كاد يفقد صوابه دوِّيًا وصوت أوانٍ تتكسَّر وصيحات نساء تتناهى إليه من الشرفة.

سأله القرصان: - «ما الذي تريدني أن أفعله بك جزاء فعلتك هذه؟».

أمَّا البوّاب فاتخذ جلد وجهه لون مصاب بالتيفوس وماتت الحياة في عينيه. وتهيَّأ له أن الشعر الأسود، المفروق الآن، غُطِّيَ بحرير أحمر لامع، وأن واقية الصدر والفراك اختفيا وأن مقبض مسدس ظهر خلف النطاق. وتصوَّر البوَّاب نفسه مشنوقًا على الصاري الأمامي. رأى بأم عينيه لسانه المتدلِّي من فمه ورأسه الفاقد الحياة الهاوي على كتفه، بل سمع طبطبة الموج يضرب جوانب السفينة. وتقصَّفت ركبتا البوَّاب. وهنا أشفق القرصان عليه وأطفأ نار عينيه الحارقة.

- «اسمع يا نيقولاي! إنها آخر مرة! نحن لسنا بحاجة إلى بوَّابين أمثالك في المطعم. الأفضل أن تعمل حارس كنيسة»، قال القبطان، ثم أمره قائلًا بدقة ووضوح وسرعة: «استدعِ بنتيلي من البوفيه وشرطيًا ليسجِّل البروتوكول. ثم إلى مصحة الأمراض العقلية بالسيارة». وأردف: «اصْفِر!».

وبعد ربع ساعة رأى الناس ليس في المطعم وحده، بل على البولفار وفي نوافذ البيوت المطلة على حديقة المطعم، وقد استبدَّ بهم الذهول الشديد، رأوا بنتيلي والبوَّاب والشرطي والنادل والشاعر روخين يخرجون من باب غريبوييدوف وهم يحملون شابًا ملفوفًا في قمط كالدمية. كانت عينا الشاب مغرورقتين بالدموع، وكان يبصق جاهدًا أن يقع بصاقه على روخين بالذات، ويصرخ وهو يغصُّ بدمعه:

- «الوغد!».

أدار سائق الشاحنة المحرِّك بوجه ينضح بالشر، وإلى جانبه كان حوذيٌّ يسوط جواده بعنان ليلكي على كفله ويصرخ:

- «على عربة سريعة! نقلتُ أشخاصًا إلى مستشفى المجانين سابقًا!..».

وكان الجمهور المحتشد يهدر حولهم وهو يناقش هذا الحدث الفريد؛ ونقول باختصار: شكَّل هذا الحدث فضيحة شنيعة، شائنة، قذرة، مُضلِّلة، لم تنتهِ فصولها إلا حين ابتعدت الشاحنة عن بوَّابة غريبوييدوف حاملة على متنها إيفان نيقولايفتش المسكين والشرطي وبنتيلي وروخين.

## الفصل السادس

# فصَام، كما قيل

كان الوقت منتصف الثانية بعد منتصف الليل حين دخل قاعة الاستقبال في مستشفى الأمراض العقلية المشهور الذي أُنجز بناؤه منذ وقت قريب على ضفة النهر في ضواحي موسكو رجلٌ ذو لحية مدبَّبة وثوب أبيض. وكان هناك ثلاثة ممرِّضين لا يرفعون عيونهم عن إيفان نيقولايفتش الجالس على الديوان، والشاعر روخين الذي كان في حالة اضطراب شديد، بينما كانت المناشف التي شدَّ بها وثاق إيفان نيقولايفتش متكوِّمة على الديوان نفسه. ويدا إيفان نيقولايفتش ورجلاه طليقة.

حين رأى روخين الداخل شحب لونه وسعل وقال بوجل:

- «مرحبًا دكتور».

انحنى الدكتور يرد التحية لروخين، لكنه لم يكن، وهو ينحني، ينظر إليه، بل إلى إيفان نيقولايفتش.

كان هذا يجلس على الديوان جامدًا مقطّب الحاجبين وقد ارتسمت على وجهه أمارات الغضب بل إنه لم يحرك ساكنًا لدى دخول الطبيب.

- «هاكم، يا دكتور، الشاعر المعروف إيفان بيزدومني... كيف أقول لك... نخشى أن يكونِ أصيب بالهذيان الرعاشي...». قال روخين لسبب ما همسًا كمن يفضي بسرٍّ وهو يتلفَّت إلى إيفان نيقولايفتش في خوف.

سأله الدكتور من بين أسنانه: - «هل شرب كثيرًا؟».

- «لا، لقد شرب لكن ليس بالقدر...».

- «هل صاد أو أمسك صراصيرَ أو جرذانًا أو كلابًا سائبة؟».

- «لا»، أجاب روخين وهو يرتعد، «لقد رأيته البارحة واليوم صباحًا وكان بصحة تامة...».

- «ولماذا لا يلبس سوى ذلك السروال التحتاني؟ هل أخذتموه من سريره؟».
- «لقد أتى إلى المطعم على هذا الشكل يا دكتور...».
قال الدكتور بارتياح عظيم: - «آ، آ، ولماذا هذه الخدوش؟ هل تعارك مع أحد؟».
- «سقط عن السياج، ثم لكم أحدهم في المطعم... ثم آخر...».
- «أيوا، أيوا، أيوا»، قال الدكتور، ثم التفت إلى إيفان وأردف: «مرحبًا!».
أجابه إيفان بصوت عالٍ وغاضب: - «أهلًا أيها الإنسان الضار!».
ارتبك روخين حياء حتى إنه لم يجسر على رفع عينيه إلى الدكتور المهذَّب. لكن هذا لم يشعر بأي استياء، بل خلع نظّارته بحركة سريعة مألوفة وشمَّر طرف سترته وأخفى نظارته في جيب بنطاله الخلفي وسأل إيفان:
- «كم عمرك؟».
- «اذهبوا عني جميعكم إلى الشيطان! صرخ إيفان بفظاظة وأدار وجهه».
- «لماذا غضبت؟ هل قلت لك شيئًا غير مستحَبّ؟».
قال إيفان وهو في حالة من الهياج: - «عمري ثلاث وعشرون سنة، وسأرفع شكوى عليكم جميعًا، وعليك بنوع خاص يا وغد!». كان يخص روخين بكلماته الأخيرة هذه.
- «وعلام تريد أن تشكونا؟».
ردَّ إيفان وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ: - «على أنكم أخذتموني، أنا الإنسان السليم، وزججتم بي عنوة في مستشفى المجانين!».
هنا أنعم روخين النظر في وجه إيفان فشعر بالبرد يسري في أوصاله: لم يكن في عينيه أي عبارة من عبارات الجنون. فقد عادتا إلى سابق عهدهما من الصفاء بعد الكَدَر الذي كان يغشاهما في غريبوييدوف.
قال روخين في سرِّه في ذعر: «يا إلهي! أحقًا أنه سوي؟ ونحن ماذا فعلنا! لماذا جررناه إلى هنا؟ إنه سوي، سويّ، إنما وجهه مخدَّش...».
قال له الطبيب بصوت هادئ وهو يَقْتَعد كرسيًا أبيض ذا قائمة لمَّاعة:
- «إنك لست في مستشفى المجانين، بل في مستوصف، ولن يحجزك أحد إذا لم يكن هناك داعٍ».
نظر إليه إيڤان نيقولايفتش نظرة ارتباك، لكنه غمغم مع ذلك:
- «شكرًا لك يا إلهي! وُجد أخيرًا إنسان سوي بين هؤلاء البلهاء وأولهم ساشكا الغبي العديم الموهبة!».

قال الطبيب مستفسرًا: - «ومن ساشكا العديم الموهبة هذا؟».
أجاب إيفان وهو يشير بإصبعه الوسخة باتجاه روخين: - «ها هو ذا، روخين».
تفجَّر روخين من السخط وفكَّر في مرارة:
- «وهذا بدلًا من أن يشكرني لأني تعاطفت معه وأشفقت عليه! إنسان دنيء فعلًا!»
- «له عقلية الكولاك[1] نفسها»، قال إيفان نيقولافتش الذي خطر له، على ما يبدو، أن يفضح روخين، «وهو على ذلك كولاك يحاول جاهدًا التستُّر بستار البروليتاري. انظروا إلى سحنته الكئيبة هذه وقارنوها بأبياته الرنَّانة التي نظمها بمناسبة الأول من أيار![2] خي... خِي... خي... «رفرفي!» و«اخفقي!»... ثم انظروا إلى داخله جيدًا، انظروا إلى ما يفكّر به...».

وانفجر إيفان نيقولايفتش في ضحكة لا تنبئ بخير: - «وستفغرون أفواهكم من الدهشة!».

كان روخين يتنفَّس بصعوبة وقد احمرَّ وجهه، ولم يكن يفكِّر إلا في شيء واحد؛ في أنه أدفأ أفعى على صدره، وأنه تعاطف مع شخص تبيَّن بالتجربة أنه عدوّ حقود، والأهم عجزه عن فعل أي شيء: فهل من المعقول أن يتشاتم مع مريض نفسي؟!
سأله الطبيب بعد أن استمع باهتمام إلى اتهامات بيزدومني: - «ولماذا أتوا بك أنت بالذات إلى هنا؟».

- «ليأخذهم الشيطان، هؤلاء البلهاء! أمسكوني وأوثقوني بخرقٍ ثم حملوني في شاحنة!».

- «اسمح لي بسؤال: لماذا أتيت إلى المطعم في ملابسك الداخلية وحدها؟».
أجاب إيفان: - «لا غرابة في الأمر، ذهبتُ أسبح في نهر الموسكوفا وهناك سرقوا ملابسي وأبقوا لي على هذه فقط! ولكن أيعقل أن أسير في موسكو عاريًا؟ لذلك أرتديت ما تركوه لي وأسرعت إلى غريبوييدوف، إلى المطعم».
نظر الطبيب إلى روخين متسائلًا فغمغم هذا متجهمًا: - «هذا اسم المطعم».
قال الطبيب: - «آ، لماذا أسرعت إلى هناك؟ هل كنت على موعد عمل؟».
أجابه إيفان نيقولايفتش وتلفَّت حوله بقلق: - «كنتُ أبحثُ عن المستشار للقبض عليه».

---

(1) طبقة المزارعين الإقطاعيين في الاتحاد السوفيتي، اعتبرهم لينين أعداء للمزارعين الفقراء، وقت كتابة الرواية كان ستالين يقوم بحملة ضخمة لاعتقال الآلاف منهم. الناشر.
(2) المقصود عيد الأول من أيار. المترجم.

- «أي مستشار؟».

سأل إيفان بلهجة ذات معنى: - «برليوز.. هل تعرفه؟».

- «ذاك... الموسيقار؟».

شعر إيفان بخيبة أمل.

- «ما شأن الموسيقار بالموضوع؟ نعم، أقصد لا!... الموسيقار له كنية ميشا برليوز نفسها!».

لم تكن لدى روخين رغبة في أي كلام، ومع هذا اضطر لتوضيح الأمر.

- «اليوم مساء دُهِسَ سكرتير الماسوليت برليوز تحت عجلات الترام في بتريرشيي».

توجَّه إيفان إلى روخين في سخط: - «لا تهرف بما لا تعرف! أنا الذي كان حاضرًا، لا أنت! هو الذي رتَّب عمدًا أمر سقوطه تحت عجلات الترام!».

- «هل دفعه؟».

صاح إيفان مغيظًا من البلادة العامة: - «ما شأن «الدفع» هنا؟، أمثاله لا يحتاجون إلى «دفع» أحد! باستطاعتهم أن يقوموا بأعمال والعياذ بالله! كان يعرف مسبقًا أن برليوز سيسقط تحت عجلات الترام!».

- «وهل رأى هذا المستشار أحد غيرك؟».

- «هنا المشكلة أنا وبرليوز وحدنا اللذان رأياه».

- «حسن. وما هي الإجراءات التي اتخذتها لإلقاء القبض على هذا القاتل؟»، وهنا استدار الطبيب وأومأ بعينه إلى امرأة في سترة بيضاء كانت تجلس إلى طاولة جانبية. سحبت المرأة ورقة وأخذت تملأ المواضع الخالية بين أعمدتها.

- «هذا ما فعلت؛ أخذت شمعة من المطبخ».

- «هذه؟»، سأله الطبيب وهو يشير إلى الشمعة المكسورة الملقية مع الأيقونة على الطاولة أمام المرأة.

- «نعم، هي نفسها، ثم...».

- «ولماذا الأيقونة هي الأخرى؟».

وهنا احمرَّ وجه إيفان: - «الأيـ... الأيقونة... الأيقونة تخفيف أكثر من أي شيء آخر»، وهنا عاد وأومأ بإصبعه في اتجاه روخين، «لكن القضية أنه، المستشار، أنه ولنقلها بصراحة... إنه مشارك... يشارك أرواحًا شريرة... ومن دونها يستحيل القبض عليه».

ولسبب ما وقف الممرِّضون وقفة استعداد ولم يعودوا يحوِّلون أعينهم عن إيفان. وأردف إيفان يقول:

- «نعم... مشارك! إنها حقيقة لا تُدحض. لقد تحدَّث شخصيًا إلى بيلاطس البنطي. لا داعي لأن تنظر إليَّ هكذا! إني أقول الحقيقة! لقد رأى كل شيء، الشرفة وأشجار النخيل. باختصار، كان عند بيلاطس البنطي، وأنا أضمن صحة هذا القول».

- «نعم... نعم...».

- «وهكذا علَّقتُ الأيقونة على صدري وأسرعتُ...».

وهنا دقَّت الساعة فجأة دقَّتين.

- «أوه!»، صاح إيفان وهبَّ عن الديوان، «إنها الثانية وأنا أضيِّع الوقت معكم! عفوًا، أين الهاتف».

أمر الطبيب الممرضين: - «دعوه».

تمسَّك إيفان بسمَّاعة الهاتف، بينما أخذت المرأة تستفسر من روخين بصوت خافت:

- «هل هو متزوج».

أجاب روخين في ذعر: - «لا، أعزب».

- «عضو نقابة؟».

- «أجل».

صرخ إيفان في السمَّاعة: - «الشرطة؟ الشرطة؟ أيها الرفيق المناوب، مُر على الفور أن يرسلوا خمسة من راكبي الدرَّاجات النارية مع رشاشاتهم للقبض على مستشار أجنبي. ماذا؟ مرُّوا عليَّ وأنا أذهب معكم بنفسي... معكم على الخط الشاعر بيزدومني من مستشفى المجانين... ما هو عنوانكم؟»، سأل بيزدومني الطبيب همسًا وهو يغطي السماعة براحته، ثم عاد يصرخ في السماعة من جديد: «هل تسمعني؟ ألو... فضيحة!». زعق إيفان فجأة وقذف له يده وقال بصوت جاف «إلى اللقاء» وهمّ بالخروج.

- «العفو، إلى أين تريد الذهاب الآن؟»، قال له الطبيب وهو يتفرَّس في عينيه، «الوقت متأخِّر وأنت في ملابسك الداخلية... إنك لست على ما يرام... ابقَ عندنا!».

- «دعوني»، قال إيفان للممرِّضين الذين تراصّوا عند الباب. - «هل تدعونني أم لا؟»، صرخ الشاعر بصوت مرعب.

ارتعدت فرائص روخين، أمَّا المرأة فقد ضغطت زرًا في المنضدة فظهرت على سطحها علبة صغيرة لامعة وأنبولة ملحومة.

- «هكذا إذن؟!»، قال إيفان وهو يلقي حوله نظرات حيوان متوحّش وقع في فخ، «حسنًا! الوداع...». وقذف بنفسه من خلال ستارة النافذة ورأسه إلى الأمام. دوَّت ضربة، لكن الزجاج المقاوم للصدمات خلف الستارة تحمَّل الضربة، وما هي إلا لحظة حتى كان إيفان يتخبَّط بين أيدي الممرضين. كان ينخر ويحاول عضّهم ويزعق:

- «أي زجاج عندكم!... دعوني، دعوني، أقول لكم!».

لمعت المحقنة في يدي الطبيب. وبحركة واحدة كانت المرأة قد شقَّت كم القميص البالي وقبضت على يد إيفان بقوة غير نسائية. فاحت رائحة الأثير فخارت قوى إيفان بين أيدي الأشخاص الأربعة. وانتهز الطبيب البارع هذه اللحظة فغرز الإبرة في يد إيفان. سند الأربعة إيفان لثوانٍ ثم مدَّدوه على الديوان.

- «يا قُطَّاع الطرق!» صرخ إيفان ووثب من الديوان لكنهم أعادوه إليه. وما إن أخلوا سبيله حتى حاول النهوض ثانية، لكنه ما لبث أن تهاوى على الديوان من تلقاء نفسه. صمت إيفان وهو يتلفَّت ملقيًا على من حوله نظرات وحشية، ثم تثاءب فجأة ثم ابتسم ابتسامة تشي بالحقد والضغينة.

- «حبستموني مع هذا...». قال إيفان، وتثاءب مرة أخرى ثم تمدَّد فجأة ووضع رأسه على المخدة وقبضته تحت خده كالأطفال ثم غمغم بصوت ناعسٍ، ودون حقد: «أي، حسنًا، حسنًا جدًا... أنتم أنفسكم ستدفعون جزاء هذا كله، لقد حذَّرتُ، والباقي عليكم... كما تريدون! أكثر ما يهمني الآن هو بيلاطس البنطي... بيلاطس...». وهنا أغمض عينيه.

قال الطبيب يصدر تعليماته وهو يضع نظارته: - «حمام، الغرفة المفردة رقم 117 مع حراسة»، وهنا ارتعد روخين مرة أخرى: فقد انفتح باب أبيض دون أن يُسمع له صوت، وظهر وراءه ممرٌّ مضاءٌ بمصابيح ليلية زرق، ودخل من الممر سرير يتحرَّك على عجلات مطاطية صغيرة نقلوا إليه إيفان الذي غشيته سكينة، ثم عاد السرير إلى الممر وانغلق الباب.

وسأل روخين المصعوق همسًا:

- «إذن هو مريض فعلًا، يا دكتور؟».

أجاب الطبيب: - «بالطبع».

سأل روخين بوجل: - «وما الذي حدث له؟».

تطلَّع الطبيب المتعب إلى روخين وأجابه بفتور:

- «تهيُّج حركي وكلامي... تفسيرات وكلام مصدره الهذيان... الحالة معقَّدة كما يبدو... فُصَام على الأرجح. أضف إلى ذلك الإدمان على الشراب...».

لم يفهم روخين من كلمات الدكتور شيئًا سوى أن أحوال إيفان نيقولايفتش سيئة كما يبدو، فتنهَّد وسأل:

- «وما معنى أنه لا يتحدَّث إلا عمَّن يدعوه المستشار؟».

- «لقد رأى على الأرجح شخصًا هزَّ خياله المختل، أو لعله كان يُهَلوِس...».

وبعد عدة دقائق كانت الشاحنة تعود بروخين إلى موسكو. كان ضوء النهار قد بدأ يبزغ فبدا نور المصابيح التي لمَّا تُطفأ في الطريق زائدًا وبشعًا. وكان السائق حانقًا من ليله الذي ضاع، فكان يقود سيارته بأقصى ما يمكن مندفعًا بها في المنعطفات.

ها هي ذي الغابة خلفه، والنهر يغيب في مكان ما إلى جانبه، وأشياء أخرى مختلفة كل الاختلاف تندفع باتجاه الشاحنة: أسوار مع أكشاك حراسة وأكوام حطب، وأعمدة شاهقة وصوارٍ، وعلى الصواري نُظمت بكرات، وأكوام حصى، وأرض شُرِّطت بالأخاديد، وباختصار كان المرء يشعر أن ها هي ذي موسكو، هنا قريبة وراء هذا المنعطف، وسترتمي عليك وتحضنك.

كانت الشاحنة تهزّ روخين هزًّا عنيفًا وتقذفه إلى الأعلى، والقطعة التي جلس عليها تحاول المرة بعد المرة أن تغور تحته، ومناشف المطعم التي ألقاها الشرطي وبنتيلي، اللذان عادا قبله بالتروليباص، في الشاحنة كانت تتطاير في صندوقها. ولقد خطر له أن يجمعها لكنه لسبب ما قال في نفسه مَغِيظًا في ما يشبه الفحيح: «ليأخذها الشيطان! لماذا أتململ كالأحمق فعلًا؟» ثم قذفها بقدمه وحوَّل بصره عنها.

كان روخين في حالة نفسية بشعة. ولقد أخذ يتضح له أن زيارته لبيت الكرب هذا تركت فيه أثرًا شديد الوطأة. لكنه حاول إدراك ما يمزِّق نفسه بالضبط. هل هو الممر بمصابيحه الزرق الذي علق بذاكرته؟ هل هي فكرة أن لا مصيبة على وجه الأرض أسوأ من فقدان العقل؟ نعم، نعم بالطبع، وهذا أيضًا. لكن هذا أمر معروف... لا، هناك شيء آخر... فما هو؟ الإهانة، هذا هو الشيء الآخر... أجل، أجل، الكلمات المهينة التي قذفه بها بيزدومني في وجهه. والمصيبة ليست في أنها مهينة، بل في أنها كلمات حق.

لم يعد الشاعر ينظر في ما حوله، بل حملق في أرض الصندوق الوسخ الذي كان يهتز تحته وأخذ يغمغم ويدمدم ويقرِّع نفسه.

نعم، أشعاره... عمره اثنان وثلاثون عامًا! وماذا بعد ذلك؟ بعد ذلك سيكتب بضع قصائد في العام. حتى الشيخوخة؟ نعم حتى الشيخوخة. وما الذي ستحمل إليه القصائد؟ الشهرة والمجد؟ «ما هذا الهراء! على الأقل لا تخدع نفسك. الشهرة

والمجد لن يكونا أبدًا من نصيب من يكتب شعرًا سيئًا. ولماذا يكون شعري سيئًا؟ لقد قال الحقيقة، نعم الحقيقة!». قال روخين موجهًا الكلام إلى نفسه دون رحمة أو شفقة، «إني لا أؤمن بشيء مما أكتب!..»

وأدركت الشاعر نوبة خوار عصبيٍّ فتمايل ولم تعد الأرض تهتز تحته. ثم رفع روخين رأسه فرأى أنه بلغ موسكو منذ وقت بعيد، بل إن الفجر انبلج فوق موسكو، وأن السحاب مشوب بلون الذهب، وأن الشاحنة تقف وراء طابور من السيارات عند المنعطف المؤدي إلى البولفار، وأن شخصًا معدنيًا ينتصب على قاعدته على مقربة منه حتى رأسه، وأنه ينظر إلى البولفار نظرة لامبالاة.

وتفجّرت في رأس الشاعر المتوعِّك الصِّحَّة أفكارٌ غريبةٌ «هاكم مثال المحظوظ الحقيقي...». وهنا هبَّ روخين واقفًا بملء قامته في صندوق الشاحنة ورفع يده مهدِّدًا لسبب ما الرجل الحديدي الذي لم يكن يتعرَّض لأحد: - «أيًّا كانت الخطوة التي خطاها في حياته، وأيًّا كانت الحوادث التي مرَّت به، فإن كل شيء كان يخدمه، وكل شيء كان يزيد من مجده! لكن ماذا فعل؟ لا أستطيع أن أفهم... هل هناك معنى خاص في هاتين الكلمتين: «العاصفة كالديجور...»؟ لا أفهم!... لقد حالفه الحظ، حالفه الحظ وكفى!». أردف روخين فجأة بحقد مستنتجًا. وأحسَّ أن الشاحنة تحرَّكت تحته، «أطلق... أطلق عليه النار هذا الحارس الأبيض فهشَّم له فخذه وضمن له الخلود...».

وتحرَّك الطابور. وبعد دقيقتين لا أكثر كان الشاعر يدخل شرفة غريبويدوف وقد بدت عليه علامات المرض التام، بل حتى بدا كما لو أنه قد شاخ. كانت الشرفة خالية إلا من مجموعة تنهي ما بين أيديها من مشروب في إحدى الزوايا وفي وسطها يسعى عرِّيف حفلات يعرفه تمامًا يضع طاقية ويحمل بيده كأسًا من «الأبراو»[1].

استقبل أرتشيبالد أرتيبالدوفتش روخين المثقل بالمناشف بترحاب كبير وأراحه على الفور من هذه الخرق الملعونة. ولو لم يكن روخين محطَّمًا مما عاناه في المستشفى وفي الشاحنة، لاستمتع، على وجه التأكيد، برواية ما جرى في المستشفى، ولأضاف على روايته وزوَّقها بتفاصيل من خياله. إنما الآن لم تكن به أي رغبة في ذلك. زد على ذلك أن روخين الآن، بعد العذاب الذي عاناه في الشاحنة، وعلى ضعف ملاحظته، ألقى لأول مرة نظرة حادة متفحصة على وجه القرصان وأدرك أن هذا على الرغم من طرحه الأسئلة عن بيزدومني، بل على الرغم من إطلاقه بين الفينة والفينة صيحات مثل «أي يا ياي»، إنسان لا مبالٍ إطلاقًا بمصير بيزدومني في حقيقة الأمر ولا

---

(1) نوع من النبيذ الروسي، ينسب إلى مدينة تحمل الاسم نفسه. الناشر.

يشعر بذرة إشفاق عليه. «مرحى له! وحسنًا يفعل!»، فكَّر روخين في سره في غيظ وقحٍ مدمر، ثم قطع حديثه عن الفصَام وقال:

- «هل لي بكأس من الفودكا يا أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش...».

اصطنع القرصان وجهًا متفهِّمًا متعاطفًا وهمس:

- «فاهم.. حالًا...». ولوَّح بيده للنادل.

وبعد ربع ساعة كان الشاعر يجلس وحده تمامًا، وقد انحنى فوق طبق السمك يعب القدح تلو القدح وهو على إدراك ويقين بأنه فات الأوان لأن يصلح شيئًا في حياته، وبأن الشيء الوحيد الممكن هو النسيان.

لقد أنفق ليله في حين كان الآخرون يأكلون ويشربون ويلهون. ولقد أدرك الآن أن ليس بمقدوره أن يعيده. كان يكفيه أن يرفع رأسه فوق المصباح باتجاه السماء ليدرك أن الليل قد ضاع دون رجعة. راح الندل ينزعون السُّمط عن الطاولات على عجل والقطط التي تسعى قرب الشرفة لها مظهر صباحي وأخذ النهار يتساقط على الشاعر متدفِّقًا، جارفًا.

## الفصل السابع

# الشقة المشؤومة

لو قيل لستيوبا ليخودييف صبيحة اليوم التالي: «ستيوبا، سيطلقون عليك النار إن لم تنهض في الحال!»، لأجاب ستيوبا بصوت فاتر يكاد لا يُسمع: «أطلقوا عليَّ النار، افعلوا بي ما تشاؤون، لكني لن أنهض».

وليت الأمر أمر النهوض وحسب. فقد بدا له أنه لا يستطيع فتح عينيه، لأنه ما إن يفعل حتى يلمع البرق ويتطاير رأسه شظايا على الفور. كان ناقوس ثقيل يدوِّي في هذا الرأس، وكانت بقع بنية ذات حواشٍ نارية خضر تسبح بين كُرَتَيْ عينيه وجفونه المغمضة، وبالإضافة إلى هذا كله كان يشعر بالغثيان، وأن هذا الغثيان، كما بدا له، مرتبط بأصوات فونوغراف لجوج.

حاول ستيوبا أن يتذكَّر شيئًا ما، لكنه لم يذكر إلا شيئًا واحدًا؛ البارحة، في ما يبدو، وفي مكان لا يعرفه كان يقف حاملًا فوطة بيده ويحاول تقبيل سيدة ما، وأنه وعدها إلى ذلك بأن يوافيها إلى بيتها في اليوم التالي عند الظهر تمامًا، وأن هذه السيدة كانت تمانع قائلة: «لا، لا، لن أكون في البيت!»، بينما كان ستيوبا يصرّ بعناد: «ومع هذا سآتي!».

لكنه لم يكن يعرف بتاتًا من هي هذه السيدة، ولا ما الوقت الآن، ولا ما اليوم، ولا ما هو الشهر، والأسوأ من هذا كله لم يكن بوسعه أن يعرف مكان وجوده. حاول أن يبدأ من النقطة الأخيرة بالذات، وفتح جفنَيْ عينه اليسرى الملتصقتين، فلاح له في نصف العتمة المخيّمة ضوء باهت ينعكس من مكان ما. وأدرك ستيوبا أخيرًا أنها المرآة القائمة وأنه مستلقٍ على ظهره في سريره، أي في سرير زوجة الصائغ سابقًا. وفي غرفة النوم. وهنا أحس بما يشبه ضربة قوية على رأسه فأغمض عينيه وأخذ يئن.

ولنوضِّح الأمر: عندما صحا مدير مسرح «فارييتيه» ستيوبا ليخودييف صباحًا وجد

نفسه في تلك الشقة نفسها التي كان يشغلها مناصفة مع المرحوم برليوز في بناية من ستة طوابق على شكل حرف النون (ن) في شارع سادوفايا.

ويجب القول إن الشقة هذه (رقم 50) كانت تتمتَّع من وقت بعيد بسمعة إن لم نقل سيئة فهي غريبة على أي حال. فمن عامين كانت تملكها أرملة الصائغ دي فوجييري. كانت آنا فرانتسيفنا دي فوجييري، وهي امرأة في الخمسين من العمر محترمة وعملية جدًا، وكانت تؤجِّر ثلاثًا من غرفها الخمس إلى شخصين: أولهما كنيته بيلوموت على ما يبدو، وثانيهما ذو كنية ضائعة.

ومن يومها، من عامين، بدأت في الشقة أمور غامضة: أخذ الناس يختفون دون أثر من هذه الشقة.

ففي أحد أيام العطل حضر ذات مرة إلى الشقة شرطي واستدعى المستأجر الثاني (الذي ضاعت كنيته) وقال له إنه مطلوب إلى المخفر لدقيقة كي يوقِّع على شيء ما. أمر المستأجر أنفيسا خادمة آنا فرانتسيفنا القديمة والأمينة أن تقول لمن قد يطلبه بالهاتف إنه عائد في غضون عشر دقائق، ثم خرج مع الشرطي المتأدِّب الذي كان يضع في يده قفازًا أبيض. لكنه لم يعد في غضون عشر دقائق، بل لم يعد أبدًا. والأغرب من هذا كله أن الشرطي، كما يبدو، اختفى معه.

وقالت أنفيسا التقية، بل لنقلها صراحة (أنفيسا المؤمنة بالخرافات) لآنا فرانتسيفنا المُنهارة إن هذا عمل من أعمال السحر، وإنها تعرف جيدًا من خطف المستأجر والشرطي كليهما، لكنها لا تريد أن تذكر الاسم ليلًا، ولكن ما إن تبدأ أعمال السحر حتى لا يعود هناك ما يوقفها كما هو معروف. لقد اختفى المستأجر الثاني يوم الاثنين كما يذكر الرواة، ويوم الأربعاء اختفى بيلوموت كأنما غار في الأرض، لكنه اختفى في ظروف مختلفة. ففي صباح ذلك اليوم حضرت كالعادة السيارة لتقلّه إلى عمله، وأقلّته، لكنها لم تعد به، وهي نفسها لم تعد أبدًا.

انتاب مدام بليوموت حزن ورعب يعزّان على الوصف. لكن الحزن كالرعب شعور لا يعمِّر طويلًا مع الأسف. ففي تلك الليلة بالذات، وبعد أن عادت آنا فرانتسيفنا مع أنفيسا من الفيلا التي ذهبت إليها لسبب ما على عجل، لم تجد المواطنة بيلوموت في الشقة. وليس هذا كل شيء، بل كان بابا كلتا الغرفتين اللتين يستأجرهما بيلوموت وزوجته مختومين.

ومر يومان بالتي هي أحسن. لكن في اليوم الثالث غادرت آنا فرانتسيفنا، التي ظلَّت

طوال اليومين الماضيين تعاني من الأرق، الشقة مرة أخرى إلى الفيلا على عجل... ترى هل هناك حاجة إلى القول إنها لم تعد!

ذرفت أنفيسا التي أضحت وحيدة دموعًا غزيرة ثم أوّت إلى فراشها في الثانية بعد منتصف الليل. ما الذي حدث لها بعد ذلك؟ أمر لا نعرفه، لكن قاطني الشقق الأخرى رووا فيما بعد، والعهدة عليهم، أنهم سمعوا طوال الليل في الشقة رقم 50 خبطًا ونقرًا وأن النوافذ ظلّت مضاءة بنور الكهرباء حتى الصباح. وفي الصباح تبيَّن أن لا أثر لأنفيسا!

وظل الناس طويلًا يروون عن الذين اختفوا من الشقة، وعن الشقة الملعونة نفسها مختلف الروايات والحكايات الغريبة، من ذلك مثلًا أن أنفيسا النحيلة والتقية هذه كانت تحمل في كيس صغير من جلد الشاموا تضعه على صدرها المتيبِّس خمسًا وعشرين ماسة ضخمة تخص آنا فرانتسيفنا، وأنه انكشفت بحد ذاتها، في عنبر الحطب، في تلك الفيلا التي ذهبت إليها آنا فرانتسيفنا على عجل، كنوز لا تُحصى من نوع تلك الماسات ونقود ذهبية مسكوكة في عهد القيصر... وما إلى ذلك من روايات مماثلة. لكننا لا نأخذ على عاتقنا صحة ما لا نعرف.

ومهما يكن من أمر، لم تبقَ الشقة فارغة ومختومة إلا أسبوعًا، انتقل بعده إليها المرحوم برليوز وزوجته وستيوبا إياه وزوجته. ومن الطبيعي تمامًا أنه ما إن داست أقدامهم الشقة اللعينة حتى بدأت تحدث لهم أشياء، الشيطان أعلم بها. ونقول تحديدًا إن كلتا الزوجتين اختفتا في شهر. لكن هاتين لم تختفيا دون أثر. فقد قيل إن زوجة برليوز شوهدت في خاركوف بصحبة مصمِّم رقصات باليه، وأن زوجة ستيوبا وجدت في بوجيدومكا حيث نجح مدير مسرح «الفاريتيه»، كما تلوك الألسن، في أن يؤمِّن لها من خلال معارفه وعلاقاته الكثيرة غرفة بشرط واحد: ألا تطأ قدمها شارع ساردوفايا على الإطلاق...

وهكذا ندت عن ستيوبا أنّة. أراد أن يستدعي الخادمة غرونيا ويطلب إليها أن تأتيه ببعض البيراميدون، لكنه فطن إلى أن هذا طلب لا معنى له... وأنه لا يمكن أن يوجد لدى غرونيا أي بيراميدون، فحاول أن يستنجد ببرليوز. ارتفع صوته مرتين في ما يشبه الأنين منادياً: «ميشا... ميشا...»، لكنكم تدركون جميعًا أنه لم يتلقَّ أي جواب، كان الصمت التام يطبق على الشقّة.

حرَّك ستيوبا أصابع قدميه فحزر أنه يرقد في جوربيه، فمرّ بيد مرتعشة على فخذه ليتأكّد ما إذا كان يلبس بنطاله أم لا، لكنه لم يستطِع مع هذا التأكّد.

وإذ رأى أخيرًا أن الجميع تخلوا عنه وأنه وحيد وأنه ليس بوسع أحد أن يهب لنجدته، قرَّر النهوض مهما كلفه ذلك من جهد.

فتح ستيوبا جفنيه الملتصقين فرأى أنه ينعكس في المرآة على شكل إنسان ذي شعر منفوش في مختلف الاتجاهات، وسحنة منتفخة مغطّاة بشعر قصير خشن أسود، وعينين متورّمتين، وقميص وسخ ذي ياقة وربطة عنق. وسروال تحتاني وجوارب.

هكذا رأى نفسه في المرآة، لكنه رأى إلى جانبها أيضًا شخصًا غريبًا متسربلًا بالسواد وعلى رأسه قبعة مستديرة سوداء.

تداعى ستيوبا على السرير وحملق بأقصى ما وسعه في الغريب بعينين محتقنتين بالدم.

وكان الغريب هو الذي قطع الصمت حين نطق بصوت خفيض وغليظ تشوبه لكنة أجنبية بالكلمات التالية:

- «صباح الخير يا جزيل اللطف ستيبان بوغدانوفتش!».

أعقب هذه الكلمات توقّف بذل فيه ستيوبا قصارى جهده ليقول:

- «نعم! ماذا تريد؟».

وبُهت ستيوبا نفسه إذ لم يتعرَّف إلى صوته. فقد خرجت كلمة «نعم» صبيانية عالية. و«ماذا» عميقة، أمَّا «تريد» فلم تخرج من بين شفتيه.

ابتسم الغريب بِودّ وأخرج ساعة ذهبية كبيرة رُسم على غطائها مثلث ألماسي ودقها إحدى عشرة دقة وقال:

- «الحادية عشرة! وها أنا ذا أنتظر نهوضك منذ ساعة كاملة، ذلك أنك حدَّدت لي العاشرة كي أحضر إليك. وها أنا ذا!».

تلمَّس ستيوبا البنطال الذي على الكرسي قرب السرير وهمس:

- «عفوًا...». ثم ارتداه بسرعة وبصوت أجشّ سأل: «ما كنيتك من فضلك؟».

كان يشعر بصعوبة في نطق كلماته، ذلك أنه كان يشعر مع كل كلمة ينطقها وكأن إبرة تنغرز في دماغه وتسبب له ألمًا جهنميًا.

قال الغريب وابتسم: - «كيف ذلك؟ وكنيتي أيضًا نسيتها؟».

- «العفو...». أجاب ستيوبا بصوت أبح وهو يشعر أن الخُمار[1] يقدِّم له عرضًا جديدًا؛ فقد بدا له أن أرض الغرفة قرب السرير انشقت وأنه هاوٍ حالًا إلى أعماق الجحيم.

---

(1) الخمار: ما يصيب المخمور من أعراض بعد إفاقته. الناشر.

قال الزائر وهو يبتسم ابتسامة دهاء: - «يا عزيزي ستيبان بوغدانوفتش، لن يساعدك أي بيراميدون. اتبع القاعدة القديمة الحكيمة: كل داء ضده من جنسه... الشيء الوحيد الذي يعيدك إلى الحياة هو قدحان صغيران من الفودكا مع وجبة حارّة».

كان ستيوبا إنسانًا ماكرًا، ولهذا رأى، رغم شدة مرضه أن عليه، وقد ألفوه على هذا المنظر، أن يعترف بكل شيء...

قال وهو يكاد لا يقوَ على تحريك لسانه: - «بصراحة، البارحة شربت قليلًا...».

أجاب الزائر وتنحّى بكرسيه جانبًا: - «لا تزد على ذلك!».

رأى ستيوبا، وقد اتسعت عيناه دهشة، أن على الطاولة الصغيرة صينية عليها خبز مقطّع وكافيار أسود مكبوس في وعاء صغير، وفطر أبيض مخلَّل في صحن صغير، وشيء ما لم يتبينه في طنجرة. وفودكا في دورق زوجة الصائغ الكبير. ومما بهت له ستيوبا بوجه خاص أن الدورق كان يتعرَّق من البرد. وبالمناسبة هذا أمر مفهوم، فالدورق كان موضوعًا في وعاء مملوءٍ بقطع الجليد. ونقول باختصار كانت المائدة مُعَدّة إعدادًا نظيفًا، بارعًا.

ولم يدع الغريب دهشة ستيوبا تبلغ حد المرض فسكب له نصف قدح من الفودكا بحركة حاذقة.

صأى[1] ستيوبا: - «أنت؟».

- «بكل سرور!».

وبيد مرتعشة رفع ستيوبا القدح على شفتيه أما الغريب فابتلع ما في قدحه دفعة واحدة. فقال له ستيوبا، وهو يمضغ قطعة كافيار، وكأنما يعتصر كلماته من حلقه اعتصارًا:

- «وأنت... ألا تتمزّز؟».

أجابه الغريب: - «شكرًا، أنا لا أتمزَّز أبدًا»، وسكب قدحًا ثانيًا، وفُتحت الطنجرة فإذا بمقانق بالبندورة في داخلها.

وهنا ذابت الخضرة الملعونة أمام عيني ستيوبا، وأخذت الكلمات تنطق، والأهم أنه تذكَّر بعض الأمور. وعلى وجه الضبط أن الأمر حدث في سخودنيا[2]، في فيلا مؤلف الاسكتشات خوستوف، وأن خوستوف هذا هو الذي أخذه بسيارة أجرة إلى هناك. بل تذكَّر أيضًا كيف استأجرا السيارة قرب فندق «المتروبول»، وأنه كان معهما أيضًا

(1) صوت الفأر. الناشر.

(2) مدينة في ضواحي موسكو. المترجم.

شخص آخر ربما كان ممثلًا، لم يعد يدري... ومعه فونوغراف في حقيبة، نعم، نعم، نعم، كان هذا في الفيلا! ويذكر أيضًا أن الكلاب أخذت تنبح بسبب هذا الفونوغراف! فقط السيدة التي أراد ستيوبا أن يقبّلها ظلّت لغزًا. الشيطان أعلم من هي... يبدو أنها تعمل في الراديو، ومن الجائز أن لا.

وهكذا أخذ أمسه ينجلي له شيئًا فشيئًا، إلا أن ما كان يشغل بال ستيوبا الآن أكثر بكثير هو يومه هذا، وعلى الأخص ظهور الغريب في مخدعه، زد على ذلك المزّة والفودكا. نعم هذا أمر لا بأس في جلائه!

- «والآن آمل أن تكون ذكرت كنيتي!».

لكن ستيوبا ابتسم خجلًا وظل على حيرته ملوّحا بذراعيه.

- «غريب! أشعر أنك شربت نبيذ «البورتفين» بعد الفودكا عامدًا! هل هذا معقول؟».

قال ستيوبا مداهنًا: - «أريد أن أسألك شيئًا وأريد أن يبقى سرًا بيننا».

- «أو، بالطبع، بالطبع! لكني لا أضمن خوستوف بطبيعة الحال».

- «وهل تعرف خوستوف حقًا؟».

- «البارحة رأيت هذا الشخص عندك في المكتب للحظة، وإنما تكفي المرء نظرة عابرة إلى وجهه لكي يعرف أنه وغد وميّال للمشاحنة وانتهازيّ ومتزلّف».

- «تمامًا!»، قال ستيوبا في سره وقد صُعق من وصفه لخستوف هذا الوصف الصحيح، الدقيق والموجز.

نعم، كان أمسه يتشكّل في ذهنه على شكل قطع صغيرة يلتصق بعضها ببعض، لكن القلق لم يزاول، مع هذا، مدير مسرح «فارييتيه». فقد كان في أمسه هذا خرق واسع جدًا. ثغرة عملاقة سوداء. وهذا الغريب بالذات صاحب القبعة المستديرة، صدِّقوا أو لا تصدِّقوا، لم يره ستيوبا في مكتبه البارحة أبدًا.

- «البروفيسور فولند، أستاذ في السحر الشيطاني»، قال الزائر بوقار وقد شعر بحرج ستيوبا وارتباكه، وروى له كل شيء بالترتيب.

أمس نهارًا وصل إلى موسكو من الخارج، وتوجَّه على الفور إلى ستيوبا، وعرض عليه إقامة حفلاته في مسرح «فارييتيه». اتصل ستيوبا هاتفيًا بلجنة منطقة موسكو للعروض المسرحية والتمثيلية ونسّق الموضوع معها (شحب وجه ستيوبا وأخذ يغمز بعينيه)، ثم وقّع مع البروفيسور فولند عقدًا على سبعة عروض (فغر ستيوبا فاه) واتفقا على أن يحضر فولند إليه اليوم صباحًا في العاشرة للاتفاق على التفاصيل بشكل نهائي... وها هو ذا فولند قد حضر!

وعندما حضر استقبلته الخادمة غرونيا التي أفهمته أنها هي الأخرى وصلت للتو، وأنها ليست خادمة في هذا البيت، وأن برليوز غير موجود، وأن الزائر، إذا كان يرغب في رؤية ستيبان بوغدانوفتش، فما عليه إلا أن يذهب إلى غرفة نومه بنفسه. فستيبان بوغدانوفتش يغطّ في نوم عميق بحيث لا تجد نفسها على استعداد لإيقاظه. وإذ رأى الفنان الحالة التي فيها ستيبان بوغدانوفتش أرسل غرونيا إلى أقرب بقالية لتأتي بفودكا وطعام ثم إلى الصيدلية لتأتي بالجليد...

- «اسمح لي بتسوية حسابي معك»، قال ستيوبا المحطَّم وأخذ يبحث عن محفظة نقوده.

- «ما هذا الهراء!»، صاح الفنان الزائر رافضًا سماع أي شيء بخصوص هذا الموضوع.

وهكذا أصبح موضوع الفودكا والطعام واضحًا، ومع هذا كان منظر ستيوبا يثير الشفقة: فهو يقينًا لا يذكر أي شيء عن العقد، ولم يرَ إطلاقًا فولند هذا البارحة. نعم، خوستوف كان موجودًا، أما فولند فلا.

سأله ستيوبا بصوت خافت: - «اسمح لي بإلقاء نظرة على العقد».

- «تفضل، تفضل...».

نظر ستيوبا إلى الورقة وجمدت نظرته، كان كل شيء سليمًا.

أولًا توقيع ستيوبا اللامبالي بخط يده، ثم حاشية جانبية بخط المدير المالي ريمسكي تجيز إعطاء الفنان فولند عشرة آلاف روبل مقدَّمًا من أصل خمسة وثلاثين ألف روبل أجره عن سبعة عروض. وأكثر من ذلك: كان على الورقة ذاتها تصريح بتوقيع فولند بأنه قبض هذه الآلاف العشر!

«ما هذا؟!». قال ستيوبا المسكين في نفسه وشعر بدوار، تُرى هل أخذت تنتابه أعراض لعينه من ضعف الذاكرة؟! لكن من الطبيعي أن يرى ستيوبا، بعد أن أبرز له فولند العقد، أن الاستمرار في رسم علامات الدهشة على وجهه أمر غير لائق على أقل تقدير. لذلك استأذن ضيفه أن يغيب عنه دقيقة، وبما أنه كان يرتدي جواربه هُرع إلى الهاتف في المدخل. وفي طريقه إلى المدخل نادى باتجاه المطبخ:

- «غرونيا!».

ولم يجبه أحد، وهنا ألقى نظرة على باب مكتب برليوز قرب المدخل، وتجمَّد في مكانه من الذعر كما يُقال. فقد رأى على مقبض الباب ختمًا هائلًا بالشمع الأحمر مربوطًا بحبل. «مرحى! هذا ما كان ينقصنا!». زأر شخص ما في رأس ستيوبا. وهنا

اندفعت أفكار ستيوبا كما لو على خط حديدي لكن هذا الخط، كما يحدث دائمًا في وقت الكوارث، ذو اتجاه واحد الشيطان أعلم ما هو. ويصعب على المرء حتى تصوير هذا الخليط العجيب من الأفكار في رأس ستيوبا. فهنا هذا الشيطان ذو القبعة المستديرة السوداء وفودكاه الباردة وعقده غير المعقول، وهنا أيضًا، إلى هذا كله، الختم على الباب! يعني، إذا قلت لأيٍّ كان إن برليوز أتى فعلة ما، لا والله لن يصدقك، إلا أن الختم... ها هو ذا موجود! إيه...

وهنا تململت في دماغ ستيوبا هواجس جد مزعجة عن مقالة دَسَّها منذ قليل في يدَيْ ميخائيل ألكسندروفتش من أجل نشرها في المجلة، وكأنه فعل ذلك خصيصًا، والمقالة، بصراحة، كانت سخيفة وتافهة، والمكافأة تافهة...

وعقب تذكر المقالة تذكر حديث مريب جرى، كما يذكر، مساء الرابع والعشرين من نيسان هنا، في غرفة الطعام، حين كان ستيوبا يتناول عشاءه مع ميخائيل ألكسندروفتش. بطبيعة الحال، يعني، لا يمكن أن نصف هذا الحديث بأنه كان مريبًا بكل معنى الكلمة (فستيوبا لم يكن ليتورَّط في حديث كهذا)، لكن الحديث كان يدور حول موضوع عقيم. وكان بالإمكان، أيها المواطنون، ألا يباشر هذا الحديث بحرية تامة، فقبل الختم كان يمكن اعتبار هذا الحديث، دون شك، حديثًا جد تافه، أما بعد الختم...

بدأت الأفكار تغلي في رأس ستيوبا: «آه، برليوز! برليوز! لا أستطيع أن أتصوَّر!».

لكن الوقت لم يكن يتسع للحزن والأسف، وأدار رقم الهاتف في مكتب المدير المالي لمسرح «فارييتيه» ريمسكي. كان موقف ستيوبا دقيقًا: فهذا الأجنبي قد يغضب، لأن ستيوبا يحاول التأكد من صحة أقواله بعد أن أبرز له العقد، ثم إن التحدث إلى المدير المالي في هذا الموضوع شائك للغاية. وبالفعل، فأنت لن تسأله هكذا: «قل لي، هل وقّعت أنا البارحة عقدًا بخمسة وثلاثين ألف روبل مع بروفيسور في السحر الشيطاني؟». لا، الاستفسار على هذا النحو لا يجدي!

- «نعم!». دوَّى في السماعة صوت ريمسكي الحاد، المزعج.

قال ستيوبا بصوت خافت: - «مرحبًا غريغوري دانيلوفتش، أنا ليخودييف. هناك أمر... هِمْ، هِمْ... يجلس عندي... هذا... الفنان فولند... أردت أن أسألك: ماذا بشأن أمسية اليوم؟».

ردّ عليه ريمسكي في السمَّاعة: - «آه، الساحر؟ الإعلانات ستكونت جاهزة على الفور».

- «ها، ها»، قال ستيوبا بصوت واهن: - «إلى اللقاء إذن...».

سأل ريمسكي: - «وهل ستأتي قريبًا؟».

- «خلال نصف ساعة»، أجابه ستيوبا وعلَّق السماعة، وضغط رأسه المحموم بيديه. «آه يا لها من قصة بشعة! ما الذي دهى ذاكرتي، أيها المواطنون؟ آ؟».

إلا أنه لم يكن من اللائق أن يتأخَّر ستيوبا في المدخل أكثر مما تأخَّر، فوضع للحال خطته وهي أن يخفي بكل الوسائل نسيانه الذي لا يصدَّق هذا. أما الآن فعليه أن يستفهم من الرجل الأجنبي بالمكر والدهاء عمَّا ينوي عرضه اليوم مساء بالضبط في مسرح «فاريتيه» الذي يقوم ستيوبا على إدارته.

وهنا تحوَّل ستيوبا عن جهاز الهاتف فرأى بجلاء في المرآة الموجودة في المدخل، الذي لم تمسحه الكسولة غرونيا من فترة طويلة، شخصًا غريبًا فارع الطول يضع نظارة أنفية (آه، لو كان إيفان نيقولايفتش هنا لعرف هذا الشخص فورًا!). انعكست صورة ذلك الشخص في المرآة ثم اختفت للحال. ألقى ستيوبا الذي تملّكه الاضطراب نظرة أكثر تمعّنًا على المدخل وارتعشت أوصاله ثانية، فقد رأى في المرآة قطًّا أسود هائل الحجم يعبر ثم يختفي.

انخلع قلب ستيوبا فترنَّح.

فكَّر في نفسه: «ما هذا؟ هل تراني بدأت أُجنُّ؟ من أين هذه الانعكاسات؟». ثم ألقى نظرة عجلى على المدخل وصاح مذعورًا:

- «غرونيا! ما هذا القط الذي يسرح ويمرح عندنا؟ من أين أتى؟ ومن هذا الذي معه؟».

وأجابه صوت لم يكن صوت غرونيا، بل صوت الضيف من غرفة النوم:

- «لا تشغل بالك يا ستيبان بوغدانوفتش، القط قطي. أرجو ألا تُثار أعصابك. أمَّا غرونيا فغير موجودة، لقد أرسلتها إلى أهلها في فورونيج بعد أن شكت من أنك لم تمنحها إجازة من فترة طويلة».

كانت هذه الكلمات مفاجئة وخرقاء بحيث جزم ستيوبا أنه أخطأ السمع فهَرع وقد تملَّكته بلبلة كاملة إلى غرفة النوم وتجمَّد عند العتبة. اهتزت شعرات رأسه ونضح جبينه بحبيبات عرق.

لم يكن الضيف في غرفة النوم وحده. بل في صحبة آخرين. كان يجلس على المقعد الثاني الشخص نفسه الذي تراءى له في المدخل. لكنه كان الآن واضح المعالم تمامًا: شاربان كريشتين. وأحد زجاجي النظّارة يلمع بينما الآخر غير موجود. وتبين ستيوبا في غرفة النوم، بالإضافة إلى هذا، أشياء أسوأ: كان يستلقي على بوف زوجة الصائغ

شخص ثالث في وضع ليس فيه أي تكلُّف. وتحديدًا كان قط أسود هائل الحجم يمسك بإحدى قائمتيه الأماميتين قدح فودكا، وبالثانية شوكة غُرز فيها فطر مخلَّل.

وأخذ النور، الضعيف في غرفة النوم أصلًا، يزداد تضاؤلًا في عيني ستيوبا. «هكذا إذن يبدأ الجنون!»، قال ستيوبا في سرِّه وأمسك بإطار الباب.

- «أرى أنك مندهش قليلًا، أيها العزيز ستيبان بوغدانوفتش؟»، قال فولند لستيوبا، الذي كانت أسنانه تصطك، مستفسرًا، «مع أنه ليس هناك ما يدعو للدهشة. هذه حاشيتي».

وهنا تناول القط بعض الفودكا. فانزلقت يد ستيوبا عن إطار الباب.

وأردف فولند:

- «وهذه الحاشية يلزمها مكان. وعلى هذا فإن أحدنا لا بد أن يكون زائدًا في هذه الشقة. ويبدو لي أن هذا الزائد هو أنت تحديدًا».

- «هِمْ، هِمْ!»، قال الطويل بصوت كصوت الماعز متكلمًا على ستيوبا بصيغة الجمع. - «إنهم يتصرَّفون في الفترة الأخيرة كالخنازير. يسكرون، ويعقدون علاقات مع النساء مستغلين مركزهم، لا يعملون شيئًا. بل ولا يستطيعون أن يعملوا شيئًا، لأنهم لا يفهمون شيئًا في ما عُهِد به إليهم، ثم يذرون الرماد في عيون رؤسائهم!».

شارك القط في الوشاية وهو يلوك الفطر: - «ويستخدم سيارة الخدمة دون سبب!».

هنا حدث الظهور الرابع والأخير في الشقة، عندما كان ستيوبا المتهاوي على أرض الغرفة يخدش بيده الموهنة إطار الباب. فقد خرج من المرآة القائمة مباشرة شخص قصير القامة لكنه عريض الكتفين بشكل غير عادي، ذو قبعة سوداء اللون صلبة القوام على رأسه وناب بارز من فمه زاد وجهه الذي لم يرَ لشناعته أصلًا مثيل، زد على ذلك لونه الأحمر كالنار.

وتدخَّل القادم الجديد في الحديث:

- «لست أفهم كيف أصبح هذا مديرًا»، كانت خنة صوته تزداد، «إنه لا يصلح للإدارة إلا بقدر ما أصلح أنا للأسقفية!».

- «إنك لا تشبه الأسقف، يا أزازيلو». لاحظ القط وهو يضع في صحنه قطعًا من المقانق.

- «هذا الذي أقوله». قال الأحمر بصوته الأخن ثم التفت إلى فولند وأردف يقول باحترام: «هل تسمح لي يا سيدي[1] أن أرميه خارج موسكو، أوإلى الجحيم؟».

---

(1) يستخدم بولجاكوف هنا الكلمة الفرنسية عامدا: messier،

صاح القط فجأة وقد انتصب شعر جلده: - «بسْ. بسْ!!».

وهنا أخذت الغرفة تدور حول ستيوبا، فاصطدم رأسه بإطار الباب. ولمعت في رأسه فكرة وهو يغيب عن وعيه «إني أموت...».

لكنه لم يمت. فتح عينيه قليلًا فرأى أنه يجلس على شيء ما كأنه من الحجر، وحوله يهدر شيء ما. وعندما فتح عينيه كما يجب رأى أن البحر هو الذي يهدر، بل زد على ذلك أن الموج يتأرجح عند قدميه تمامًا، وأنه باختصار. عند طرف حاجز كاسرأمواج، وأن تحت قدميه بحرًا أزرق متلألئًا، ووراءه مدينة جميلة في الجبال.

وإذ لم يكن ستيوبا يعرف كيف يتصرَّف في مثل هذه الحالات، وقف على قدميه المرتعشتين وسار على المكسر باتجاه الشاطئ.

وعلى المكسر كان يقف شخص، يدخِّن ويبصق في البحر. نظر إلى ستيوبا بعينين وحشيَّتين وكفَّ عن البصاق. إذَّاك بدر عن ستيوبا تصرف غريب؛ فقد ركع أمام المدخِّن الغريب وقال له:

- «أتوسَّل إليك أن تقول لي ما هي هذه المدينة!».

أجابه المدخِّن الغليظ القلب: - «ما هذا الكلام!».

- «أنا مريض. حدث لي أمرٌ ما. أنا مريض... أين أنا؟ أي مدينة هذه؟».

- «حسنًا. إنها يالطا...».

أرسل ستيوبا تنهيدة واهنة وخرَّ على جنبه فارتطم رأسه بحجر المكسر الساخن.

## الفصل الثامن

# مبارزة بين البروفيسور والشاعر

في اللحظة نفسها التي غاب فيها ستيوبا عن وعيه في يالطا، أي في نحو الحادية عشرة والنصف ظهرًا، عاد إلى إيفان نيقولايفتش بيزدومني وعيه بعد نوم طويل وعميق. ظلَّ إيفان بعض الوقت يحاول أن يتذكَّر كيف وصل إلى هذه الغرفة الغريبة بجدرانها البيض وبطاولتها الليلية العجيبة المصنوعة من معدن لمَّاع وستارتها البيضاء التي كان يشعر بالشمس المضيئة وراءها.

هزَّ رأسه وتأكَّد أنه لا يؤلمه، فتذكَّر أنه في مصحَّة. واستدعت هذه الفكرة ذكرى مقتل برليوز، لكن هذه الذكرى لم تصدمه بقوة اليوم. وأخذت نفسه تستعيد هدوءها، وذهنه صفاءه بعد أن نال قسطًا وافيًا من النوم. ظل إيفان مستلقيًا بعض الوقت في سريره النظيف الوثير المريح ذي النوابض دون حراك، ثم لمح زر جرس قربه. وعلى مألوف عادته في لمس الأشياء دونما داعٍ أو ضرورة، ضغط على الزر. كان إيفان يتوقَّع بعد ضغطه الزر أن يسمع أو يرى شخصًا، لكن ما حدث كان شيئًا مختلفًا تمامًا، فقد أضاءت في أسفل سرير إيفان اسطوانة ربداء كتب عليها «للشرب»؛ وبعد أن توقَّفت بعض الوقت أخذت تدور حتى ظهرت عليها «ممرضة». من نافل القول إن هذه الاسطوانة الداهية أذهلت إيفان. ثم اختفت كلمة «ممرضة» لتظهر كتابة أخرى «أدعُ الدكتور».

– «هِمْ...»، تمتم إيفان وهو لا يدري ما يفعل بهذه الاسطوانة. وهنا حالفه الحظ مصادفة: فقد ضغط الزر ثانية على كلمة «ممرضة»... أجابت الاسطوانة برنين خافت وتوقَّفت وانطفأت، وللحال دخلت الغرفة امرأة لطيفة ممتلئة القوام في رداء أبيض نظيف وقالت لإيفان:

– «صباح الخير!».

ولـم يردّ إيفان، عادًا التحية - في مثل هذه الظروف - غير مناسبة. بالفعل احتجزوا إنسانًا سليمًا في مصحّة ثم يتظاهرون بأن هذا هو الذي يجب أن يفعلوه!

ودون أن تفقد المرأة بشاشة وجهها، رفعت الستارة بضغطة زر إلى الأعلى، فتدفّق نور الشمس إلى الغرفة من خلال شبكة خفيفة واسعة الفتحات تصل حتى الأرض. وتكشّفت الشبكة عن شرفة من ورائها ضفة نهر متعرّج وعلى ضفته الأخرى حرش صنوبر بهيج المنظر.

قالت المرأة تدعوه: - «تفضّل خذ حمامًا»، وانفتح تحت يديها جدار داخلي بدا من ورائه حمام وكنيف مجهّزان تجهيزًا رائعًا.

وعلى الرغم من أن إيفان قرّر إلا يكلّم المرأة إلا فإنه لم يتمالك نفسه، وقد رأى الماء يتدفّق في الحمام بغزارة من صنبور لامع، فقال في سخرية:

- «ما هذا! كأنما في «المتروبول»!».

أجابته المرأة باعتزاز: - «أوه، لا، بل أفضل كثيرًا. هذه التجهيزات لن ترى مثلها حتى في البلاد الأجنبية. والعلماء والأطباء يأتون إلى هنا خصيصًا ليعاينوا مصحّتنا. وكل يوم لا تخلو من سيّاح».

لدى سماع إيفان كلمة «سائح» تذكّر على الفور مستشار الأمس. فأكفهرّ وجهه ونظر شزرًا وقال:

- «سيّاح... كم تعبدون السيّاح!... مع أن بينهم، بالمناسبة، أناسًا ليسوا كما نظن! البارحة مثلًا تعرّفت إلى واحد منهم لا أحَبّ ولا ألطَف!».

وكاد يخوض في الكلام على بيلاطس البنطي، لكنه أمسك وقد أدرك أن هذا الكلام لا يهم المرأة، وأنها، على أي حال، لن تستطيع تقديم أي مساعدة له.

وللحال قُدِّم لإيفان نيقولافتش المستحم كل ما يحتاجه الرجل بعد الحمام: قميص مكوي وسروال تحتاني وجوربان. بل أكثر من هذا، فقد فتحت المرأة باب خزانة صغيرة وأشارت إلى داخلها وسألته:

- «ماذا تريد أن تلبس: منامة أم روب دي شامبر؟».

كاد إيفان، وقد رأى اسمه يُقيَّد هنا، في هذا المسكن الجديد عنوة، أن يضرب كفًا بكف من وقاحة هذه المرأة، لكنه لم يفعل بل غرز إصبعه صامتًا في منامة من قماش قرمزي ناعم.

واقتيد إيفان بعد هذا في ممر خال ساكن إلى مكتب ذي مقاييس بالغة الضخامة، أطلق عليه إيفان، الذي قرَّر أن يتعامل مع كل ما في هذا البناء المجهَّز تجهيزًا عجيبًا بسخرية، أطلق عليه في سِرّه اسم «المعمل المطبخ».

وكان لهذا الاسم ما يبرِّره. كان في المكتب خزائن خشبية وأخرى زجاجية صغيرة فيها أدوات لمَّاعة مطلية بالنيكل، وكان هناك مقاعد معقدة التركيب بشكل خارق، ومصابيح ذات بطون عليها واقيات لمَّاعة، والعديد من الزجاجات ومشاعل غازية وأسلاك كهربائية وأدوات أخرى غريبة تمامًا.

في المكتب تولَّى ثلاثة أمر إيفان؛ امرأتان ورجل، وكلهم في رداء أبيض. كان أول ما فعلوه أنهم اقتادوا إيفان إلى زاوية خلف طاولة صغيرة بهدف واضح؛ استجوابه. أخذ إيفان يقلِّب النظر في وضعه. كانت أمامه ثلاثة طرق، وكان أولها الذي يغريه أشد الإغراء أن ينقض على هذه المصابيح والأشياء الداهية العجيبة ويحطمها تحطيمًا، وبهذا يعبِّر عن احتجازه سدى. لكن إيفان اليوم، كان يختلف اختلافًا كبيرًا عن إيفان الأمس، ولهذا بدا له الطريق الأول مشكوكًا في جدواه: من يدري فقد تترسَّخ قناعتهم بأنه مجنون هائج، فتخلَّى إيفان عنه. والثاني أن يشرع على الفور في التحدث إليهم عن المستشار وبيلاطس البنطي. لكن تجربة الأمس أثبتت له أنهم لا يصدقون هذه القصة، أو أنهم يفهمونها فهمًا مشوَّهًا. ولهذا استبعد إيفان الطريق الثاني هذا، وقرَّر اختيار الطريق الثالث؛ الاعتصام بصمت الكبرياء.

لكن إيفان لم ينجح إلا جزئيًا فقد وجد نفسه، عن رضا أو غير رضا، يجيب وإن بكلمات موجزة وبوجه عابس على مجموعة كاملة من الأسئلة.

فقد استفسروا من إيفان عن كل ما يتصل بحياته السابقة، بما في ذلك وقت مرضه بالحمى القرمزية منذ نحو خمسة عشر عامًا وملابسات مرضه. وبعد أن مُلئت الصفحة الأولى قُلبَتْ، وكانت المرأة ذات الرداء الأبيض هي التي تولَّت الآن توجيه الأسئلة عن أقرباء إيفان. وبدأ استجواب طويل: من مات ومتى وما سبب الموت، هل كان يشرب، هل كان مصابًا بأمراض زهرية وما إلى ذلك؟ وفي آخر المطاف طلبوا إليه التحدث عن حادثة الأمس في بتريرشيي برودي، لكنهم لم يلحّوا على هذا الموضوع، أما روايته عن بيلاطس البنطي فلم تثِر فيهم أي دهشة.

وأخلت المرأة مكانها لرجل، فتولَّى هذا أمره لكن على نحو آخر ودون أن يوجه إليه أي سؤال. فقد قاس حرارة جسم إيفان ونبضه وحدّق في عينيه بعد أن سلَّط عليهما نور مصباح كهربائي. ثم نهضت المرأة الأخرى لمساعدة الرجل فوخزاه بشيء ما في

ظهره وخزات غير مؤلمة، ورسما بمقبض مطرقة صغيرة إشارات على جلد صدره، ونقرا على ركبتيه بالمطرقة مما جعل قدميه تنتفضان، ووخزا إصبعًا وسحبا منها دمًا، ثم وخزاه في ثنية المرفق، ووضعا في يديه أساور مطاطية.

وكان إيفان في غضون ذلك يضحك في سره بمرارة وهو يفكِّر في سخف وغرابة ما حصل. من كان يظن ذلك! أراد أن يحذِّر الجميع من الخطر الذي يحمله إليهم هذا المستشار الغريب، وعقد العزم على ملاحقته وإلقاء القبض عليه فلم يجن من هذا كله سوى أن وجد نفسه في المكتب الغامض ليتحدَّث بترَّهات لا أول لها ولا آخر عن عمه فيودور الذي أمضى حياته يسكر في فولوغدا. يا له من سخف لا يطاق!

وأخيرًا أعادوه إلى غرفته حيث قُدِّم له فنجان قهوة وبيضتان مسلوقتان وخبز أبيض مع قطعة زبدة.

قرَّر إيفان، بعد أن أكل وشرب ما قُدِّم له، انتظار المسؤول الرئيسي في هذه المؤسسة والظفر منه، هذا المسؤول الرئيسي، بالرعاية والعدل.

ولم يطل انتظاره. فما كاد يفرغ من تناول الفطور، حتى فُتح باب غرفة إيفان فجأة ودخل أشخاص كثيرون في أردية بيض، يتقدمهم شخص في نحو الخامسة والأربعين من العمر محلوق الرأس بعناية على طريقة الممثلين، له عينين لطيفتين إنما جد ثاقبتين وطريقة في التعامل تشي بأدبه الجم. وكانت كل حاشية تبدي له علامات الحفاوة والاحترام، ولهذا بدا دخوله على غرفة إيفان جد مهيب. «كأنه بيلاطس البنطي!»، قال إيفان في سره.

نعم، كان هذا المسؤول الرئيسي دون شك. جلس على منضدة صغيرة دون مسند بينما ظلَّ الآخرون وقوفًا.

قال الجالس يقدِّم نفسه إلى إيفان وهو يلقي عليه نظرة ود: - «الدكتور سترافنسكي».

- «تفضل يا ألكسندر نيقولايفتش!»، قال أحدهم وهو ذو لحية مهندمة بصوت خافت ومد يده إلى المسؤول الرئيسي بصحيفة إيفان المليئة.

«عملوا منها قصة!»، قال إيفان في سره. أما المسؤول الرئيسي فقد مر على الصحيفة بعينين معتادتين وغمغم: «أو هو، أو هو...» وتبادل مع المحيطين به بعض عبارات بلغة قليلة الشهرة.

«ويتكلم باللاتينية مثل بيلاطس...» فكَّر إيفان في حزن. إلا أن إحدى الكلمات جعلته يرتعد. وكانت هذه كلمة «الفصَام»؛ أي وا أسفاه الكلمة التي تفوَّه بها الأجنبي اللعين في بتريرشيي برودي يوم أمس والتي كرَّرها اليوم البروفيسور سترافنسكي هنا.

فكر إيفان في قلق: - «وكان يعرف هذا أيضًا!».

كان المسؤول الرئيسي قد درج، في ما يبدو، على موافقة من يحيط به في كل ما يقوله ويسرّ به وأن يعبِّر عن موافقته وسروره هذين بكلمة » رائع، رائع...».

- «رائع!». قال سترافنسكي وهو يعيد الصحيفة لأحدهم، ثم التفت إلى إيفان يسأله: «أنت الشاعر؟».

أجابه إيفان في تجهُّم: - «نعم، شاعر»، وهو يشعر للمرة الأولى في حياته بكره غامض للشعر، حتى أشعاره التي مرَّت بخاطره في هذه اللحظة بدت له، لسبب ما، كريهة.

وسأل بدوره سترافنسكي وهو مقطب الجبين:

- «أنت البروفيسور؟».

رد عليه سترافنسكي بانحناءة أدب ومجاملة من رأسه. واستطرد إيفان:

- «وأنت المسؤول الأول هنا؟».

حنى سترافنسكي رأسه مرَّة أخرى.

قال إيفان نيقولايفتش بلهجة ذات معنى: - «أنا بحاجة إلى التحدُّث إليك».

رد سترافنسكي: - «ولهذا بالضبط حضرت».

بدأ إيفان كلامه وقد شعر أن ساعته أزفت: - «المسألة أنهم عدُّوني مجنونًا ولا أحد يريد أن يستمع إليَّ!...».

قال له سترافنسكي بصوت رزين مطمئن: - «لا، سنستمع إليك باهتمام شديد، ولن نسمح باعتبارك مجنونًا بأي صورة من الصور».

- «اسمعني إذن: أمس مساء صادفتُ في بتريرشيي برودي شخصًا غامضًا، لا أدري إن كان أجنبيًا أم لا، كان يعرف مسبقًا بموت برليوز، ورأى شخصيًا بيلاطس البنطي».

كانت الحاشية تصغي إلى الشاعر وكأنّ على رأسها الطير كما يُقال.

سأل سترافنسكي إيفان وهو يضيِّق عينيه: - «بيلاطس، بيلاطس؟ ذاك الذي عاش في أيام يسوع المسيح؟».

- «هو نفسه».

قال سترافنسكي: - «آ.. وبرليوز هذا مات تحت عجلات الترام؟».

- «نعم بالضبط، أمس مساء دهسه الترام أمامي في بتريرشيي برودي، زد على ذلك أن هذا المواطن اللغز...».

- «الذي يعرف بيلاطس البنطي؟». سأله سترافنسكي الذي كان يتميَّز، كما هو واضح، بقدرة كبيرة على الفهم.

- «هو بالذات، أجاب إيفان مؤكدًا وهو يتفحَّص وجه سترافنسكي، هذا المواطن، إذن، قال مسبقًا إن آنوشكا سكبت زيت عباد الشمس... وقد زلَّت قدمه في ذلك المكان بالذات! هل أعجبك هذا؟». تساءل إيفان بلهجة ذات معنى على أمل أن يحدث بكلماته هذه تأثيرًا كبيرًا في سترافنسكي.

لكن هذا التأثير لم يحصل، إذ طرح عليه سترافنسكي السؤال التالي ببساطة متناهية:

- «ومن آنوشكا هذه؟».

وأربك هذا السؤال إيفان فتشنَّج وجهه.

- «آنوشكا لا أهمية لها في هذا الموضوع على الإطلاق»، أجاب إيفان وقد أخذت أعصابه تتوتَّر، «الشيطان أعلم من هي. مجرَّد حمقاء من سادوفايا. المهم هنا أنه كان يعرف مسبقًا، هل تفهمني؛ كان يعرف مسبقًا بأمر زيت عباد الشمس. هل تفهمني؟».

- «كل الفهم»، أجابه سترافنسكي بصوت رزين وأردف يقول وهو يمس ركبة الشاعر: «وأنت تابع، لا تقلق».

- «سأتابع»، قال إيفان وهو يجهد لأن يجاري لهجة سترافنسكي وقد أدرك بتجربته المرة أن الهدوء وحده يمكن أن يساعده، «هذا الشخص الفظيع إذن، وهو يكذب حين يدَّعي أنه مستشار، هذا الشخص الفظيع يتمتَّع بقوة خارقة... مثلًا، تطارده فلا تستطيع اللحاق به. ومعه اثنان، هما أيضًا جيدان إنما في جنسهما: رجل طويل بزجاج نظارة متصدِّع، وقط هائل الحجم يركب الترام بمفرده». وتابع إيفان الذي لم يكن يقاطع أحد حديثه بمزيد من الحماسة والقناعة، «زد على ذلك أنه كان شخصيًا على شرفة بيلاطس البنطي، وهذا أمر لا يحتمل الشك. فما معنى هذا؟ آ؟ علينا اعتقاله على الفور وإلا جَرَّ علينا مصائب لا تُوصف».

سأله سترافنسكي: - «أنت إذن تسعى إلى اعتقاله، أليس هذا ما تريد قوله؟».

فكَّر إيفان في سرِّه: «إنه ذكي، يجب الاعتراف أنه يوجد أحيانًا بين المثقفين أيضًا أناس أذكياء جدًا. وعلينا ألا ننكر ذلك!»، وأجاب:

- «تمامًا! وكيف لا أسعى إلى اعتقاله، فكِّر في هذا بنفسك! وبدلًا من ذلك يحتجزونني هنا عنوة ويسلِّطون على عينيّ مصابيحهم، ويحممونني ويطرحون عليَّ أسئلة عن عمي فيودور!... مع أنه فارق الحياة منذ أمد بعيد جدًا! إني لأطلب إطلاق سراحي فورًا».

رد عليه سترافنسكي: - «وماذا في الأمر! رائع!، لقد أتضح كل شيء. وبالفعل ما الحكمة في احتجاز إنسان سليم في المصحّة؟ حسن! سأطلق سراحك على الفور إذا قلت لي إنك إنسان سويٌّ. أريدك أن تقول لي هذا لا أن تبرهن عليه. وعلى هذا، هل أنت إنسان سوي؟».

وهنا أطبق صمت كامل. رفعت المرأة البدينة التي كانت ترعى إيفان في الصباح عينيها إلى البروفيسور في نظرة إكبار، بينما فكّر إيفان في سره ثانية: «ذكي بالتأكيد».

وقع عرضٍ البروفيسور موقعًا حسنًا من نفس إيفان، لكنه فكّر طويلًا طويلًا قبل أن يجيب وقد قطّب جبينه. وقال أخيرًا بصوت جازم:

- «إني إنسان سوي».

صاح سترافنسكي بارتياح: - «تمام، رائع، إذا كان الأمر كذلك فتعال نفكّر معًا بشكل منطقي. لنأخذ يوم أمس»، وهنا التفت فناولوه صحيفة إيفان حالًا، «خلال بحثك البارحة عن الشخص المجهول الذي قدّم إليك نفسه على أنه من معارف بيلاطس البنطي قمت بالأعمال التالية»، وهنا أخذ سترافنسكي يثني أصابعه الطويلة وهو ينظر إلى الصحيفة تارة وإلى إيفان تارة أخرى، «علّقت على صدرك أيقونة. حدث؟».

قال إيفان موافقًا في تجهُّم: - «حدث».

- «سقطت عن السياج وجرحت وجهك. صحيح؟ حضرت إلى المطعم وأنت تحمل شمعة مشتعلة بيدك وأنت في ملابسك الداخلية فقط، وفي المطعم صفعت أحد الحاضرين. أحضروك إلى هنا مقيّدًا. وبعد حضورك اتصلت هاتفيًا بالشرطة وطلبت منهم إرسال رشاشات. ثم حاولت القفز من النافذة. صحيح؟ هنا لا بد أن نتساءل: هل يمكننا بتصرفنا على هذا النحو أن نقبض على شخص ما أو نعتقله؟ إذا كنت إنسانًا سويًا، فلا بد أن تجيب: لا، أبدًا. تريد أن تخرج من هنا؟ تفضّل. إنما اسمح لي أن أسألك: إلى أين؟».

- «إلى الشرطة بالطبع؟»، أجابه إيفان لكن ليس باللهجة الواثقة نفسها كالسابق، وهو يشعر ببعض الارتباك والحيرة من نظرات البروفيسور المسلّطة عليه.

- «من هنا مباشرة؟».

- «نعم».

سأله سترافنسكي بسرعة: - «ألن تعرج في طريقك على شقتك؟».

- «لا وقت لدي! سيختفي بينما أنا أدور على الشقق!».

- «حسن. وما أول شيء ستقوله لهم في قسم الشرطة؟».

أجابه إيفان نيقولايفتش: - «سأخبرهم عن بيلاطس البنطي»، وغشيت عينيه سحابة قاتمة.

- «أوه، رائع!»، هتف سترافنسكي مستسلمًا والتفت إلى الرجل ذي اللحية يأمره قائلًا: - «اكتب للمواطن بيزدومني ورقة خروج من فضلك يا فيودور فاسيليفتش. إنما لا تشغلوا هذه الغرفة، كما بإمكانكم ألا تغيروا بياضات السرير. فالمواطن بيزدومني عائد إلى هنا خلال ساعتين». ثم التفت إلى إيفان قائلًا: - «وماذا في اليد؟ لا أستطيع أن أتمنى لك التوفيق. لأني لا أؤمن بهذا التوفيق مقدار ذرة. إلى اللقاء قريبًا!». ونهض فتحرَّكت حاشتيه حوله.

سأله إيفان بقلق: - «على أي أساس سأعود إلى هنا؟».

وكأن سترافنسكي كان يتوقَّع هذا السؤال فعاد من فوره إلى الجلوس وقال:

- «على أساس أنك ما إن تحضر في سروالك التحتاني إلى الشرطة، وتقول إنك التقيت بشخص عرف شخصيًا بيلاطس البنطي، حتى يعيدوك إلى هنا على الفور لترى نفسك في هذه الغرفة نفسها».

سأله إيفان وهو يتلفَّت حوله في ارتباك شديد: - «وما شأن السروال التحتاني هنا؟».

- «الشأن الأول هو شأن بيلاطس البنطي. لكن السروال التحتاني له دوره أيضًا. فنحن سنخلع عنك ثياب الدولة ونعيد إليك ثيابك. لقد أحضرت إلينا في سروالك التحتاني. ومع هذا لم ترغب في التعريج على شقتك مع أني لمَّحت لك إلى هذا. بعد ذلك انصب الحديث على بيلاطس... وأصبحت المسألة مفهومة!».

وهنا حدث لإيفان نيقولايفتش شيء غريب: كأنما فُلَّت إرادته فشعر أنه ضعيف وأنه يحتاج إلى النصح.

سأل في وجل هذه المرة: - «وما العمل؟».

ردّ سترافنسكي: - «رائع! رائع! هذا سؤال معقول جدًا. سأقول لك الآن ما جرى لك بالضبط. البارحة أحدهم أرعبك وشوَّش أفكارك بقصصه عن بيلاطس وغيره، فانطلقت في المدينة، وأنت متوتِّر الأعصاب مجهدها، تحدِّث الناس عن بيلاطس البنطي. ومن الطبيعي جدًا، في هذه الحالة، أن يعتبروك مجنونًا. إن خلاصك الآن ليس له إلا سبيل واحد؛ الهدوء التام. وبالتالي لا بد من المكوث هنا».

هتف إيفان، إنما بصوت ضارع هذه المرة: - «لكن يجب العثور عليه!».

- «حسن، ولكن لماذا عليك أن تلاحقه بنفسك؟ أعرض على ورقة كل شكوكك حول هذا الشخص وكل اتهاماتك له. وليس هنا ما هو أسهل من توجيه تصريحك

حيث يجب أن يُوجَّه، وإذا كان الأمر أمر مجرم كما تفترضٍ، فما أسرع ما يتَّضح الأمر. إنما هناك شرط واحد: لا تجهد رأسك وحاول أن تفكّر أقل ما يمكن في بيلاطس البنطي. هل ما تلوكه الألسن بالشيء القليل! إنما على الإنسان ألا يصدق كل يسمع!».

أعلن إيفان بحزم: - «فهمت! أرجو إعطائي ورقة وقلمًا».

- «أعطِه ورقة وقلم رصاص قصيرًا»، أمر سترافنسكي المرأة البدينة، بينما قال لإيفان ما يلي: «أنصحك ألا تكتب اليوم شيئًا».

صاح إيفان في قلق: - «لا، لا، بل اليوم، اليوم لا محالة».

- «حسن، إنما لا تجهد دماغك. ما لا تستطيعه اليوم تستطيعه غدًا».

- «لكنه سيهرب!».

اعترض سترافنسكي بثقة: - «لا، لا! لن يهرب وأنا أضمن ذلك. ثم تذكّر أنهم هنا سيقدِّمون لك كل أشكال المساعدة، ومن دونها لن تستطيع شيئًا. هل تسمعني؟»، سأله سترافنسكي فجأة بلهجة ذات معنى وأمسك بيديه ووضعهما بين يديه، وأخذ يردِّد على سمع إيفان وهو ينظر في عينيه طويلًا وبعناد: «سيساعدونك هنا... هل تسمعني؟ سيساعدونك هنا... سيساعدونك هنا... وستجد الراحة والاطمئنان. هنا كل شيء هادئ... سيساعدونك هنا...».

تثاءب إيفان فجأة ولانت تعابير وجهه.

قال بصوت خفيض: - «نعم، نعم».

- «رائع! رائع!»، أنهى سترافنسكي الحديث بهذه الكلمات على عادته، وهب واقفًا، «إلى اللقاء!»، وشد على يد إيفان ثم التفت وهو خارج إلى الرجل ذي الحية الصغيرة وقال له: «على فكرة، أمَّا الأوكسجين فجربوه... والمغاطس».

وفي ثوانٍ اختفى سترافنسكي وحاشيته من أمام إيفان. ولاح وراء شبكة النافذة في شمس الظهيرة حرش الصنوبر الربيعي البهيج على الشاطئ الآخر والنهر يتلألأ أمامه.

## الفصل التاسع

# ملاعيب كوروفييف

كان نيكانور إيفانوفتش بوسوي رئيس الجمعية السكنية للبناية رقم 302 مكرَّر، القائمة في شارع سادوفايا في موسكو، حيث كان يقيم المرحوم برليوز، غارقًا حتى شحمة أذنيه في مشاغل وهموم هائلة من الليلة السابقة، ليلة الأربعاء على الخميس.

ففي منتصف الليل، كما نعرف، حضرت اللجنة، التي كان جيلدييين من أعضائها، واستدعت نيكانور إيفانوفتش وأخبرته بمصرع برليوز، ثم توجهوا معًا إلى الشقة رقم 50.

تم هناك ختم مخطوطات المرحوم وحاجياته. وتبيَّن أنه لم يكن في الشقة آنذاك الخادمة غرونيا ولا هذا الطائش ستيبان بوغدانوفتش. وأعلمت اللجنة نيكانور إيفانوفتش أنها ستأخذ معها مخطوطات المرحوم لفرزها، وأن سكن المرحوم، أي الغرف الثلاث (المكتب وغرفة الاستقبال وغرفة الطعام التي كانت عائدة لزوجة الصائغ) سيوضع تحت تصرُّف الجمعية السكنية. أما حاجيات المرحوم فتحفظ في سكنه حتى الإعلان عن أسماء الورثة.

انتشر خبر مصرع برليوز في البناية كلها بسرعة فائقة، وبدأت الهواتف أولًا تنهال على بوسوي منذ السابعة من صباح الخميس، ثم أخذ الناس يحضرون شخصيًا ومعهم طلبات يدَّعون فيها أحقيتهم في سكن المرحوم. وفي ساعتين استلم نيكانور إيفانوفتش اثنين وثلاثين طلباً منها.

وكانت هذه الطلبات تتضمَّن توسلات وتهديدات ودسًا ووشايات وتعهدات بإصلاح السكن على نفقة مقدِّم الطلب الخاصة، وإشارات إلى ضيق المنزل الذي لا يُحتمل، وإلى استحالة السكن في شقة واحدة مع لصوص. ومما تضمَّنته هذه الطلبات وصف مذهل بقوَّته الفنية لسرقة أحدهم فطائر صغيرة باللحم في الشقة رقم 31، وكيف

دسَّها مباشرة في جيب جاكيتته، ووَعْدَان بالانتحار، واعتراف واحد بحَمْلٍ سِرّي.

وكانوا يستدعون نيكانور إيفانوفتش على مدخل شقته، ويمسكونه من كمه ويهمسون له بشيء ما ويغمزونه ويعدونه بأن يردُّوا له جميله.

واستمر عذاب نيكانور إيفانوفتش هذا حتى بداية الساعة الأولى ظهرًا، إذ هرب، نعم بكل بساطة هرب من شقته إلى مقرِّ الجمعية السكنية القائم قرب الباب الخارجي، لكنه حين رأى هناك أناسًا يترصّدونه أيضًا ظلَّ منطلقًا. وبعد أن استطاع بشكل ما التملُّص من الذين كانوا يتعقبونه في الفناء الواسع المفروش بالأسفلت، اختبأ في المدخل السادس للبناية وصعد إلى الطابق الخامس حيث الشقة النجسة رقم 50 إياها.

التقط نيكانور إيفانوفتش البدين أنفاسه أمام الشقة ثم قرع جرسها، لكن أحدًا لم يفتح له. فقرعه ثانية ثم ثالثة وأخذ يدمدم ويسب ويشتم بصوت خافت. ومع هذا لم يفتح له أحد. إذَّاك نفد صبر نيكانور إيفانوفتش فأخرج من جيبه رزمة من نسخ المفاتيح العائدة لإدارة العمارة السكنية، وبحركة مَنْ بيده الأمر والنهي فتح الباب ودخل.

صاح نيكانور إيفانوفتش وهو في المدخل نصف العاتم: - «أي، أيتها الخادمة، ما اسمك أنت؟ غرونيا، أليس كذلك؟ ألستِ هنا؟».

لم يرد عليه أحد.

إذَّاك نزع نيكانور إيفانوفتش الختم عن باب المكتب، وأخرج من حقيبته مترًا مطويًا وخطا باتجاه المكتب.

صحيح أنه خطا، لكنه توقَّف مذهولًا في الباب، بل إن فرائصه ارتعدت.

فقد كان يجلس إلى طاولة المرحوم مواطن غريب نحيل وطويل يلبس جاكيتة ذات مربعات وقبعة فارس ونظارة أنفية... وبكلمة واحدة، ذلك الشخص إياه.

سأله نيكانور إيفانوفتش: - «من تكون أيها المواطن؟».

- «فرصة سعيدة، يا نيكانور إيفانوفتش»، صرخ المواطن غير المنتظر بصوت عالٍ وحادٍّ ووثب من مقعده يحيي رئيس الجمعية السكنية بالشد على يده بغتة وعنوة، ولم تبعث هذه التحية في نفس نيكانور إيفانوفتش أي شعور بالسرور أو الرضا.

قال نيكانور إيفانوفتش بلهجة ارتياب: - «المعذرة، لكن من تكون؟ هل أنت شخص رسمي؟».

هتف المجهول بود: - «أي، نيكانور إيفانوفتش، ما معنى أن يكون الإنسان شخصًا رسميًا أو غير رسمي؟ هذا كله يتوقَّف على الزاوية التي ننظر منها إلى الأشياء. وهذه كلها. يا نيكانور إيفانوفتش، أشياء شرطية ورجراجة. اليوم قد لا أكون شخصًا رسميًا،

بينما غدًا أكونه. وقد يحدث العكس، يا نيكانور إيفانوفتش، وأمرّ منه، وليتك تعرف كيف يحدث!».

لم يُرضِ هذا القول رئيس مجلسٍ إدارة العمارة بأي شكل من الأشكال مما دفعه إلى الاستنتَاج، وهو الإنسان المتشكّك بطبيعته، أن هذا المواطن المنبسط في الكلام أمامه، إنما هو شخص غير رسمي، وربما كان شخصًا بطّالًا.

- «ومن تكون أخيرًا؟ وما هي كنيتك؟»، كان صوت رئيس مجلس الإدارة يزداد صرامة. بل همَّ بدفع الغريب.

أجابه المواطن الغريب دون أن يشعر بأي حرج من لهجة السؤال الصارمة: - «كنيتي، لنقل كوروفييف. على فكرة ألا تريد بعض المزَّة يا نيكانور إيفانوفتش؟ من دون كلفة! آ؟».

قال نيكانور إيفانوفتش وقد أخذ السخط يتملّكه: - «العفو، أي مزَّة هذه التي تتكلَّم عنها! (ويجب الاعتراف هنا، مع أن هذا ليس بالشيء اللطيف، أن نيكانور إيفانوفتش كان على شيء من الفظاظة بطبعه). ألا تعرف أن الجلوس في مسكن المتوفى ممنوع! ماذا تفعل هنا؟».

- «هلَّا جلست، يا نيكانور إيفانوفتش»، زعق المواطن دون أي ارتباك وأخذ يسعى حوله مقدِّمًا له أريكة.

دفع نيكانور إيفانوفتش الأريكة وصاح وهو يتميَّز غيظًا:

- «ومن تكون أخيرًا؟».

- «إذا أردت أن تعرف فأنا أعمل مترجمًا لدى شخصية أجنبية تقيم في هذه الشقة»، قال الذي يدَّعي أنه كوروفييف مقدمًا نفسه، ونقر بكعب حذائه الأحمر الوسخ.

فغر نيكانور إيفانوفتش فاه. فوجود أجنبي، وبمعية مترجم أيضًا، في هذه الشقة كان مفاجأة كاملة له. وطالب بإيضاحات.

وأوضح المترجم الأمر بطيب خاطر. لقد تلقَّى الفنان الأجنبي السيد فولند دعوة كريمة من مدير مسرح «فاريتيه» ستيبان بوغدانوفتش ليخودييف لينزل إبّان فترة جولته الفنية التي تمتد نحو أسبوع في شقته. ولقد كتب إلى نيكانور إيفانوفتش البارحة في هذا الخصوص طالبًا إليه تسجيل اسم الأجنبي مؤقتًا بين أسماء قاطني البناية، ريثما يعود ليخودييف من يالطا.

قال الرئيس مبهوتًا: - «إنه لم يكتب لي شيئًا».

قال له كوروفييف بعذوبة: - «هلا بحثت في حقيبتك يا نيكانور إيفانوفتش».

فتح نيكانور إيفانوفتش الحقيبة وهو يهز كتفيه، ووجد فيها رسالة ليخوديف.

- «كيف نسيتها؟». غمغم نيكانور إيفانوفتش وهو ينظر إلى الظرف المفضوض ببلادة.

أخذ كوروفييف يثرثر: - «ما أكثر ما تحدث مثل هذه الأمور، ما أكثر ما تحدث، يا نيكانور إيفانوفتش! السهو، السهو، والإرهاق وارتفاع ضغط الدم يا صديقنا العزيز نيكانور إيفانوفتش! أنا شخصيًا كثير السهو وبطريقة فظيعة! لا بد أن أروي لك ونحن نتناول كأسًا بعض وقائع من حياتي وستقهقه ضاحكًا!».

- «ومتى يسافر ليخوديف إلى يالطا؟!».

صرخ المترجم: - «لقد سافر، سافر! إنه منطلق، والشيطان وحده يدري أين هو الآن!»، وهنا لوَّح المترجم بيديه الأشبه بجناحي طاحونة.

وهنا أعلن نيكانور إيفانوفتش عن ضرورة مقابلة الأجنبي شخصيًا، لكنه جُوبه برفض المترجم: - «مستحيل، إنه مشغول، يروِّض القط».

اقترح عليه المترجم: - «يمكنني أن أريك القط إذا شئت».

لكن نيكانور إيفانوفتش رفض بدوره هذا العرض، فاتبعه كوروفييف على الفور بعرض آخر مفاجئ لكنه جِدّ مغرٍ.

بما أن السيد فولند الذي أَلِفَ العيش في دور واسعة لا يرغب بأي شكل من الأشكال النزول في الفندق، ألا تستطيع الجمعية السكنية تأجيره الشقة كلها، أي بما في ذلك غرف المرحوم لمدة أسبوع، أي طول جولة فولند الفنية في موسكو؟ وأردف كوروفييف يهمس بصوت أجشّ:

- «الأمر سيان بالنسبة له، أقصد للمرحوم. ألا توافقني يا نيكانور إيفانوفتش أن هذه الشقة لا تهمه في شيء الآن؟».

اعترض نيكانور إيفانوفتش وقد انتابه بعض الارتباك بالقول أن المفروض في الأجانب أن ينزلوا في فندق «المتروبول» وليس في شقق خاصة...

همس كوروفييف: - «أقول لك إنه صاحب نزوات لا يدري بها الشيطان! فالأمر أنه ليس لا يرغب وحسب! بل إنه لا يحب الفنادق!»، وأردف كوروفييف يشكو بلهجة حميمة وهو يغرز إصبعه في رقبته المعروقة: «أنظر أين يركب هؤلاء السيّاح، لقد أزهقوا روحي! يأتي أحدهم... فإما أن يأخذ بالتجسُّس كأحط ابن كلب، وإما أن يزهق روحك بنزواته: هذا الشيء لا يعجبه وذاك ليس كما يجب!... أما جمعيتكم، يا نيكانور إيفانوفتش، فعرضه يعود عليها بفائدة بالغة ونفع محقَّق. وهو لا يضنّ بأي مبلغ»، وهنا تلفَّت كوروفييف حوله وهمس في أذن رئيس الجمعية: «إنه مليونير!».

كان في عرض المترجم معنى عملي واضح، وكان عرضه في غاية الرصانة، لكن شيئًا ما غير رصين بشكل غريب كانت تشي به طريقة المترجم في الكلام ولباسه ونظارته الأنفية المقيتة هذه التي لا تصلح لشيء. وبالتالي أخذ شيء ما غامض يثقل على نفسه، لكنه قرَّر مع هذا قبول العرض. ذلك أن الجمعية السكنية كانت تعاني، للأسف، من عجز كبير. فقد كان عليهم، في مطلع الخريف، أن يشتروا مازوتًا للتدفئة المركزية ولكن كيف، لا أحد يدري. وبهذا المال الذي يعرضه هؤلاء السيّاح يمكنهم الخروج من المأزق. لكن نيكانور إيفانوفتش العملي والحذِر أعلن أن عليه أولًا أن ينسِّق هذا الأمر مع مكتب السيّاح الأجانب.

صاح كوروفييف: - «أفهم ذلك، يجب التنسيق، التنسيق لا بد منه. ها هو ذا الهاتف يا نيكانور إيفانوفتش، نسِّقه معهم حالًا. وبخصوص المال لا تتحرَّج»، أردف همسًا وهو يسحب رئيس الجمعية باتجاه مدخل الشقة حيث الهاتف، «ممن يمكنك أن تأخذ مالًا إن لم يكن منه! لو رأيت دارته في نيس! إذا سافرت الصيف القادم خارج البلد، تقصَّد المرور عليه لتتأملها؛ سيأخذك العجب!».

ونُسِّق الأمر بالهاتف مع مكتب السيّاح بسرعة فائقة أذهلت رئيس الجمعية. فقد تبيَّن أنهم هناك يعرفون بنِيَّة السيد فولند النزول في شقة ليخوديييف الخاصة، وأنهم لا يعترضون على هذا بتاتًا.

صاح كوروفييف: - «رائع!».

وأعلن رئيس الجمعية الذي صفعته جلبة كوروفييف قليلًا أن الجمعية توافق على تأجير الفنان السيد فولند الشقة رقم 50 لأسبوع بمبلغ... وهنا تلعثم قليلًا ثم أردف:

- «بمبلغ خمسمائة روبل في اليوم الواحد».

وهنا أدهش كوروفييف رئيس الجمعية تمامًا. فقد قال بصوت أجشّ وهو يغمز باتجاه غرفة النوم، حيث كانت تسمع قفزات القط الثقيل الرشيقة:

- «معنى ذلك ثلاثة آلاف ونصف في أسبوع؟».

ظنَّ نيكانور إيفانوفتش أن كوروفييف سيردف إلى ذلك: «يا لشهيتك يا نيكانور إيفانوفتش!». لكن كوروفييف قال شيئًا آخر تمامًا:

- «وهل هذا مبلغ! أطلب خمسة يعطِك».

ابتسم نيكانور ايفانوفتش في ذهول وما لبث أن وجد نفسه، دون أن يدري، قرب مكتب المرحوم حيث كتب كوروفييف بسرعة ومهارة عظيمتين العقد على نسختين وقَّعهما الأجنبي بحروف عريضة. كما وقَّع العقد رئيس الجمعية أيضًا. وهنا طلب كوروفييف إيصالًا بخمسة آلاف...

- «اكتبها أحرفًا يا نيكانور إيفانوفتش!... خمسة آلاف روبل...».

وبكلمات لا تناسب العمل الجاد الذي يقومان به «eins zwei drei»[1] وضع كوروفييف خمس رزم من الأوراق المصرفية الجديدة أمام رئيس الجمعية.

تخلَّل عدّ النقود مداعبات وأمثال كان يطلقها كوروفييف: «المال يحب العد»، «عينك أبصر» وما إلى ذلك.

عد رئيس الجمعية النقود وأخذ من كوروفييف جواز سفر الأجنبي لتسجيل الاسم ووضعه هو والعقد والنقود في حقيبته. ثم التفت إلى كوروفييف، وهو لمَّا يعد يتمالك نفسه، وسأله على استحياء بطاقة دخول مجانية...

صاح كوروفييف: - «تكرم، تكرم! كم بطاقة تريد، يا نيكانور إيفانوفتش، اثنتا عشرة، خمس عشرة؟».

أفهمه رئيس الجمعية المبهوت أنه يحتاج إلى بطاقتين فقط. له ولزوجته ببلاغيا أنطونفنا.

وللحال أخرج كوروفييف مفكرة، وحرَّر لنيكانور إيفانوفتش باندفاع بطاقة مجانية لشخصين في الصف الأمامي، ثم دس بيده اليسرى البطاقة في يد نيكانور إيفانوفتش برشاقة، بينما وضع بيده اليمنى رزمة سميكة مخشخشة في يد رئيس الجمعية الأخرى. ألقى نيكانور إيفانوفتش نظرة خاطفة على الرزمة فاصطبغ وجهه بحمرة شديدة وأخذ يدفعها عنه.

قال مغمغمًا: - «هذا لا يجوز...».

همس كوروفييف في أذنه تمامًا: - «لا تتعب نفسك، لن أصغي إليك، عندنا هذا غير جائز، أما عند الأجانب فجائز. إنك ستزعِّله يا نيكانور إيفانوفتش وهذا محرج. لقد سعيتَ وبذلتَ جهدًا...».

همس الرئيس بصوت خافت وتلفَّت حوله: - «القانون يعاقب بصرامة».

همس كوروفييف في أذنه الأخرى: - «وأين الشهود؟ إني أسألك: أين هم؟ وممَ تخاف؟».

وهنا حدثت معجزة كما أكَّد رئيس الجمعية فيما بعد: فقد أنسلَّت الرزمة بنفسها من يده إلى حقيبته. ثم وجد نفسه، وهو المهدود القوى بل المحطَّم، على السلم. كان تيار من الأفكار يضطرب في رأسه. وكان من بينها تلك الدارة في نيس، والقط المروَّض،

(1) واحد اثنان ثلاثة (بالألمانية). المترجم.

وعدم وجود شهود بالفعل، وسرور بيلاغييا أنطونوفنا لدى رؤيتها البطاقة المجانية. كانت أفكارًا غير مترابطة لكنها لطيفة سارة على وجه العموم. ومع هذا كله كانت هناك في أعماقه إبرة صغيرة تخزه. هذه الإبرة كانت إبرة القلق. وبالإضافة إلى ذلك زلزلت كيان الرئيس وهو لا يزال على درجات السلم فكرة: «كيف استطاع المترجم الدخول إلى المكتب وبابه مختوم؟ أو كيف لم يسأله هو نيكانور إيفانوفتش عن ذلك؟». وقف رئيس الجمعية فترة ينظر ببلاهة الخروف إلى درجات السلم ثم قرَّر تناسي هذا الموضوع وعدم تعذيب نفسه بحل هذه المسألة المعقَّدة...

ما إن غادر رئيس الجمعية الشقة حتى تناهى من غرفة النوم صوت منخفض:

- «نيكانور إيفانوفتش هذا لم يعجبني. إنه غشَّاش ونصَّاب. ألا تستطيع أن تعمل بحيث لا يعود إلى هنا أبدًا؟».

أجابه مِن مكان ما كوروفييف بصوت صافٍ جهوري لا أثر للصرير فيه: - «حسبك أن تأمر يا سيدي!...».

وعلى الفور صار المترجم اللعين في المدخل، حيث أدار رقمًا وأخذ يقول في السماعة بصوت الله أعلم لماذا كان باكيًا:

- «ألو! من واجبي إبلاغكم أن رئيس الجمعية السكنية للبناية رقم 302 مكرَّر في شارع سادوفايا نيكانور إيفانوفتش بوسوي يتاجر بالعملة الأجنبية. وفي الوقت الراهن لديه في شقته رقم 35 في كوَّة التهوية التي في المرحاض أربعمائة دولار ملفوفة بورقة جريدة. معكم على الخط الآن في الشقة رقم 11 من العمارة المذكورة تيموفي كفاستسوف. لكني أستحلفكم أن يظل اسمي سرًا. فأنا أخاف من انتقام رئيس الجمعية المذكور».

وعلَّق السماعة. النذل!

لا نعرف ما حدث في الشقة رقم 50 بعد هذا، لكننا نعرف ما حدث عند نيكانور إيفانوفتش. دخل نيكانور إيفانوفتش المرحاض وقفل الباب خلفه ثم أخرج مِن حقيبته الرزمة التي دسَّها له المترجم عنوة، تأكَّد من وجود أربعمائة روبل فيها. لفَّ نيكانور إيفانوفتش هذه الرزمة في ورقة جريدة ودسَّها في كوَّة التهوية.

وبعد خمس دقائق كان رئيس الجمعية السكنية يجلس إلى المائدة في غرفة الطعام الصغيرة. كانت زوجته قد أحضرت من المطبخ سمكة رنكة مقطَّعة بعناية. ومغطَّاة بطبقة كثيفة من البصل الأخضر. سكب نيكانور إيفانوفتش قدحًا من الفودكا وشربه، ثم سكب ثانيًا وشرب، ورفع بشوكته ثلاث قطع من الرنكة... وفي هذه اللحظة قُرع جرس الباب، بينما كانت بيلاغييا أنطونفنا عائدة من المطبخ وهي تحمل طنجرة يتصاعد منها

دخان خفيف، يستطيع المرء بنظرة واحدة إليها أن يحزر أن في حساء كرنبها الكثيف الساخن ألذ وأشهى ما في الدنيا؛ عظمة النخاع.

ازدرد نيكانور ايفانوفتش ريقه وأخذ يهر كالكلب:

- «غوروا من وجهي! لا يدعون المرء يتناول طعامه. لا تُدخلي أحدًا، فأنا غير موجود، أنا غير موجود. وبخصوص الشقة قولي لهم أن يكفوا عن اللغط. بعد أسبوع عندنا اجتماع...».

هُرعت زوجته إلى المدخل بينما أخرجها نيكانور إيفانوفتش بمغرفته من هذه البحيرة المتلظية؛ أخرج العظمة المتشقِّقة بالطول. وفي هذه اللحظة دخل غرفة الطعام مواطنان ومعهما بيلاغييا أنطونفنا وهي شاحبة الوجه لسبب لم يدركه. لدى رؤية نيكانور إيفانوفتش المواطنين امتقع وجهه هو أيضًا وهبَّ واقفًا.

- «أين المرحاض؟» سأل المواطن الأول الذي كان يرتدي قميصًا أبيض ذا أزرار جانبية بانشغال بال.

سُمعت خبطة على مائدة الطعام (كانت الملعقة قد سقطت من يد نيكانور إيفانوفتش على مشمَّع الطاولة).

ردَّت بيلاغييا أنطونفنا بسرعة: - «هنا، هنا».

واندفع الزائران من فورهما إلى الممر.

- «ما الموضوع؟»، سأل نيكانور إيفانوفتش بصوت خافت وهو يتبع الزائرين، «ليس عندنا في الشقة ما يمكن أن يثير شبهة... هل عندكما وثائقكما... العفو إن...».

أرى أولهما نيكانور إيفانوفتش الوثيقةَ على الماشي، بينما كان الثاني في اللحظة نفسها يقف على مقعد صغير دون مساند في المرحاض ويدس يده في كوَّة التهوية. أظلمت الدنيا في عيني نيكانور إيفانوفتش. ونُزعت الورقة فإذا بالرزمة لا تحتوي على روبلات، بل على نقود غريبة لا تعرف إن كانت زرقاء اللون أم خضراء، عليها صورة شيخ هَرِم. وعلى أي حال فإن نيكانور إيفانوفتش لم يتبيَّن هذا كله بوضوح، إذ كانت تسبح أمام عينيه بقع إثر بقع.

- «دولارات في كوَّة التهوية»، قال الأول في استغراق ثم سأل نيكانور إيفانوفتش بلين وأدب: «هل الرزمة رزمتك؟».

أجابه نيكانور إيفانوفتش بصوت رهيب: - «لا، لقد دسَّها أعداء!».

- «يحدث هذا»، قال الأول موافقًا، وأردف يقول باللطف نفسه: «وما العمل، عليك أن تسلِّم الباقي».

صرخ رئيس الجمعية السكنية بصوت يائس: - «لا شيء عندي! لا شيء، أقسم بالله، لم أمسك بيدي شيئًا من هذا طول حياتي!».

واندفع إلى الدولاب الصغير وسحب درجه بجلبة، وأخرج منه حقيبته وهو يصرخ أثناء ذلك بعبارات غير مترابطة:

- «ها هو ذا العقد... المترجم النذل دس... كوروفييف... النظارة الأنفية!».

فتح الحقيبة وألقى نظرة إلى داخلها ومد يده فازرقَّ وجهه ووقعت الحقيبة من يده في حساء الكرنب. لم يكن في الحقيبة شيء: لا رسالة ستيبان ولا العقد ولا جواز سفر الأجنبي ولا النقود ولا بطاقة الدخول المجانية. وباختصار لا شيء سوى المتر المطوي.

وصرخ رئيس الجمعية في ما يشبه الجنون:

- «أيها الرفاق، اقبضوا عليهم! في بنايتنا قوى شريرة!».

لا أحد يدري ما الذي تراءى لبيلاغيا أنطونفنا، إلا أنها ضربت كفًا بكف وصاحت:

- «اعترف يا نيكانور! سيخفِّفون عنك الحكم!».

وبعينين محتقنتين بالدم رفع نيكانور إيفانوفتش قبضتيه فوق رأس زوجته وقال في ما يشبه النشيج:

- «أوه، أيتها الحمقاء اللعينة!».

وهنا خارت قواه فتهاوى على الكرسي مستسلمًا في ما يبدو لما ليس منه بدّ.

في هذا الوقت كان تيموفي كوندراتيفتش كفاستسوف على بسطة الدرج يلتصق بثقب باب شقة رئيس الجمعية تارة بإذنه وتارة بعينه وهو يتحرَّق فضولًا.

وبعد خمس دقائق رأى سكان العمارة المتواجدون في الفناء رئيس الجمعية يتوجَّه برفقة شخصين آخرين إلى بوَّابة العمارة الخارجية رأسًا. ولقد روى هؤلاء أن وجه نيكانور إيفانوفتش كان ممتقع اللون، وأنه كان يترنَّح كالسكران وهو يغمغم بأشياء غير مفهومة.

وبعد ساعة حضر إلى الشقة رقم 11 مواطن مجهول. حضر بالضبط فيما كان تيموفي كوندراتيفتش يروي لسكان العمارة الآخرين وهو في نشوة السعادة والرضا كيف ألقوا القبض على رئيس الجمعية، واستدعى بإيماءة من إصبعه تيموفي كوندراتيفتش من المطبخ إلى المدخل وأسرَّ له شيئًا ثم اختفيا معًا.

## الفصل العاشر

# أنباء من يَالطا

في الوقت الذي حلَّت بنيكانور إيفانوفتش المصيبة كان يوجد في مكتب المدير المالي لمسرح «فاريبتيه» الواقع في شارع سادوفايا نفسه غير بعيد عن العمارة رقم 302 مكرَّر شخصان: المدير المالي نفسه ريمسكي والمدير الإداري لـ «فاريبتيه» فارينوخا.

كان المكتب الواسع الذي يقع في الطابق الثاني من المسرح يطل باثنتين من نوافذه على شارع ساردوفايا، وبنافذته الثالثة القائمة رأسًا وراء ظهر المدير المالي، الجالس إلى مكتبه على الحديقة الصيفية لـ «فاريبته» حيث البوفيهات المبرَّدة وألعاب التصويب والمسرح المكشوف. وكان أثاث الغرفة يتكوَّن، بالإضافة إلى المكتب، من حزمة من الإعلانات القديمة المتدلِّية على الجدار، ومن طاولة صغيرة عليها دورق ماء، ومن أربعة مقاعد وثيرة وحاملٍ في الزاوية عليه نموذج قديم مغبَّر لأحد الاستعراضات. وبطبيعة الحال كانت توجدُ في غرفة المكتب، إلى جانب هذا كله، وعلى يسار ريمسكي وقرب مكتبه تمامًا ـ خزانة عتيقة متقشِّرة مضادة للحريق ذات مقاييس صغيرة.

كان ريمسكي الجالس الآن وراء مكتبه منحرف المزاج منذ الصباح، أما فارينوخا فكان على العكس متدفِّق الحيوية موفور الهمة وإن كان يشوب همته الآن شيء من القلق إذ لم يكن يتوفَّر لها الآن المجال المناسب.

فقد كان يختبئ الآن في مكتب المدير المالي بسبب طالبي البطاقات المجانية الذين كانوا يفسدون عليه حياته. لا سيما في أيام تغيير البرامج. وهذا اليوم كان، بالضبط، واحدًا من تلك الأيام.

ما إن كان جرس الهاتف يبدأ بالرنين حتى كان فارينوخا يمسك السماعة ويأخذ بالكذب:

- «من؟ تريد فارينوخا؟ غير موجود. غادر المسرح».

قال ريمسكي بحدة: - «اتصل بليخودييف مرة أخرى من فضلك».
- «لكنه غير موجود في بيته. لقد سبق وأرسلت كاربوف. لا أحد في البيت».
فحَّ ريمسكي وهو ينقر على الآلة الحاسبة: - «الشيطان أدرى بما يجري».
فُتح الباب ودخل أحد المستخدمين يحمل حزمة غليظة من الإعلانات الإضافية التي انتهى طبعها للتو. وكان مكتوبًا على أوراقها الخضر بحروف حمر ضخمة ما يلي:

اليوم وكل يوم في مسرح «فارييتيه»
برنامج إضافي:

## البروفيسور فولند
## حفلات سحر شيطاني مع فضحها الكامل

تراجع فارينوخا قليلًا عن الإعلان الذي بسطه على النموذج وتأمَّله بإعجاب ثم أمر المستخدم بإلصاق النسخ كافة على الفور.
قال فارينوخا بعد خروج المستخدم: - «شيء جيد، جذَّاب».
- «أما أنا فلا يعجبني هذا المشروع إطلاقًا»، غمغم ريمسكي وهو يلقي على الإعلان نظرة حانقة من خلال نظارته القرنية، «وإني لأعجب كيف سمحوا له بمثل هذا العرض!».
- «لا، لا تقل هذا يا غريغوري دانيلوفتش. فهذه خطوة ذكية جدًا، ونكهتها، كل نكهتها في عملية الفضح».
- «لا أعرف، لا أعرف، ليس هناك أي نكهة، وبالمناسبة إنه دائمًا يفاجئنا بمثل هذه البدع! ولو أنه أرانا هذا الساحر! هل رأيته أنت؟ الشيطان وحده يعلم من أين «نكشه»!».
وتبيَّن أن فارينوخا كريمسكي لم يشاهد الساحر. لقد هُرع ستيوبا (الذي كان «كالمجنون» حسب تعبير ريمسكي) إلى المدير المالي يوم أمس ومعه مسودة اتفاق مكتوبة وطلب إليه أن يعيد كتابتها ويسلمه المال. أما الساحر فقد اختفى ولم يره أحد سوى ستيوبا نفسه.

أخرج ريمسكي ساعته ورأى أنها تشير إلى الدقيقة الخامسة بعد الثانية فجن جنونه. ما هذا! اتصل ليخودييف في الحادية عشرة تقريبًا وقال إنه سيصل في نصف ساعة، لكنه لم يأتِ، وليس هذا وحسب، بل اختفى من شقته أيضًا!

- «ولكن عندنا أعمالنا!». زمجر ريمسكي وهو يصوِّب إصبعه إلى كومة أوراق غير موقَّعة.

- «ألا يمكن أن يكون سقط كبرليوز تحت عجلات ترام؟». قال فاريتوخا فيما هو ملصِقٌ بأذنه سماعة الهاتف التي كانت تُسمع فيها إشارات غليظة طويلة وعديمة الجدوى بتاتًا.

قال ريمسكي بين أسنانه بصوت يكاد لا يُسمع: - «حبَّذا...».

في تلك اللحظة دخلت المكتب امرأة تلبس جاكيتة رسمية وصدارة وتنورة سوداء وتنتعل خفًّا، وأخرجت من حقيبة صغيرة على خصرها شيئًا مربعًا أبيض صغيرًا ودفترًا وسألت:

- «أين فارييتيه هنا؟ برقية عاجلة جدًا لكم. وقِّعوا».

خط فارينوخا بسرعة بضعة خطوط عوج في الدفتر الذي تحمله المرأة، وما إن انغلق الباب وراءها حتى فضَّ الشيء المربَّع.

قرأ البرقية فرفَّت عيناه وسلَّم البرقية إلى ريمسكي.

وقد جاء في البرقية ما يلي: «يالطا موسكو «فارييتيه» منتصف الثانية عشرة اليوم حضر إلى المباحث الجنائية أصهب في قميص نوم وبنطال دون جزمة مريض نفسي يدَّعي أنه ليخودييف مدير «فارييتيه» أبرقوا إلى مباحث يالطا أين المدير ليخودييف».

«حلوة هذه!». هتف ريمسكي وأردف: «مفاجأة أخرى!».

«الدَّعي!»، قال فارينوخا ثم أمسك السماعة: «البرق؟ على حساب «فارييتيه» برقية عاجلة جدًا... هل تسمعني؟... (يالطا. المباحث الجنائية. المدير ليخودييف في موسكو. المدير المالي ريمسكي)».

على الرغم من أن البرقية عن هذا الدعي اليالطوي، شرع فارينوخا يبحث من جديد بالهاتف عن ستيوبا ليخودييف حيثما اتفق، وبطبيعة الحال لم يجده في أي مكان. وفيما كان فارينوخا ممسكًا بالسماعة يفكر بمن يتصل أيضًا. في هذه اللحظة بالذات دخلت المرأة نفسها التي حملت البرقية الأولى وسلَّمت فارينوخا ظرفًا جديدًا. فضَّ فارينوخا الظرف على عجل وقرأ ما طُبع فيه وصَفَر.

سأله ريمسكي وقد ارتعش بعصبية: - «ماذا أيضًا؟».

ناوله فارينوخا البرقية في صمت، فرأى المدير المالي الكلمات التالية: «أتوسَّل أن تصدقوا أُلقِيتُ في يالطا بتنويم فولند أبرقوا للمباحث بتأكيد شخصيتي ليخودييف».

أعاد ريمسكي وفارينوخا قراءة البرقية ورأسهما متلامسان، وبعد أن أعادا قراءتها حملق أحدهما في الآخر بصمت.

قالت المرأة في سخط فجأة: - «أيها المواطنان! وقِّعا أولًا ثم اصمتا ما طاب لكما الصمت! فلديَّ برقيات عاجلة أخرى أحملها!».

رسم فارينوخا بعض الخطوط العوج على الدفتر دون أن يرفع عينيه عن البرقية واختفت المرأة.

سأله المدير الإداري بذهول: - «ألم تتحدَّث إليه بالهاتف بعد الحادية عشرة؟».

صرخ ريمسكي بصوت حاد: - «شيء مضحك! سواء تحدَّثت إليه أم لم أتحدَّث، إلا أنه يستحيل أن يكون الآن في يالطا! شيء مضحك!».

قال فارينوخا: - «إنه سكران...».

سأل ريمسكي: - «مَنْ السكران؟». وعادا يحملقان أحدهما في الآخر.

أن يكون أحد الأدعياء أو المجانين أبرق من يالطا؛ هذا أمر لا شك فيه. لكن الشيء الغريب هو: من أين لهذا الدعي اليالطوي أن يعرف فولند الذي لم يصل موسكو إلا البارحة؟

ومن أين له أن يعرف بالعلاقة بين ليخودييف وفولند؟

- «بتنويم...»، أخذ فارينوخا يردِّد الكلمة الواردة في البرقية، «من أين له أن يعرف فولند؟». ثم رفَّ بعينيه وصرخ فجأة بصوت جازم: «لا، لا، هراء، هراء!».

سأل ريمسكي: - «وأين نزل فولند هذا، عليه اللعنة؟».

اتصل فارينوخا بمكتب السياحة على الفور، وأعلن لدهشة ريمسكي الكاملة، أن فولند نزل في شقة ليخودييف. ولم يتباطأ فارينوخا، بل أدار رقم شقة ليخودييف، وأصغى طويلًا إلى طنين غليظ متتالٍ يتردَّد في السماعة؟، ووسط هذا الطنين صوت كئيب مزعج آتٍ من مكان ما بعيد يغنِّي:

«...أيتها الصخور، يا ملجئي...» وقرَّر فارينوخا أن الخطوط تداخلت وأن هذا الصوت منْ الإذاعة...

قال فارينوخا وهو يغلق السماعة: - «الشقة لا تجيب، ربما نحاول الاتصال مرة...».

ولم يكمل، فقد ظهرت في الباب تلك المرأة نفسها فهبَّ كلاهما، ريمسكي

وفارينوخا، لملاقاتها، أمَّا هي فلم تخرج من حقيبتها ورقة بيضاء هذه المرة، بل ورقة قاتمة اللون.

- «بات الأمر مثيرًا»، قال فارينوخا من بين أسنانه وهو يشيِّع المرأة الخارجة على عجل بنظراته. كان ريمسكي أول من استولى على الورقة.

وقد برزت على خلفية قاتمة للورقة الفوتوغرافية بوضوح الأسطر السود مكتوبة بخط اليد:

«الدليل خطِّي وتوقيعي. ابرقوا بإثبات شخصيتي. نظِّموا المراقبة السرية على فولند ليخوديف».

رأى فارينوخا في العشرين سنة التي أمضاها يعمل في المسارح المختلفة العجب العجاب. لكنه شعر هنا أن حجابًا صفيقًا يغشى عقله، فلم يستطِع أن ينطق إلا بتلك الجملة المألوفة والخالية من المعنى أصلًا:

- «هذا مستحيل!».

لكن ريمسكي لم يتصرَّف على هذا النحو، بل نهض وفتح الباب وصاح بالساعية الجالسة على مقعد دون مسند:

- «لا تُدخِلي أحدًا سوى سعاة البريد!». وقفل الباب بالمفتاح.

ثم أخرج من درج مكتبه رزمة أوراق وأخذ يقارن بعناية الأحرف الغليظة المائلة إلى اليسار على البرقية الفوتوغرافية بأحرف ستيوبا في قراراته وتواقيعه ذات الاعوجاجات اللولبية، بينما كان فارينوخا الذي انحنى فوق الطاولة ينفث في خد ريمسكي أنفاسه الحارة.

قال أخيرًا المدير المالي بلهجة حاسمة: - «إنه خطه»، فرد عليه فارينوخا كالصدى:
- «خطّه».

وتطلَّع إلى ريمسكي فدهش للتغير الذي طرأ عليه: كأنما ازداد المدير المالي، النحيل أصلًا، نحولًا. بل إنه شاخ، وفقدت عيناه في إطارهما القرني نفاذهما السابق المعهود، ولاح فيهما ليس القلق وحسب بل ما يشبه الحزن.

وفعل فارينوخا ما يفعله أي إنسان في لحظات الدهشة والحيرة العظمى. فقد أخذ يعدو في المكتب جيئة وذهابًا، وبسط يديه مرتين كالمصلوب، وجَرَع كأسًا كاملة من ماء مائل إلى الصفرة من دورق وهو يصيح:

- «لا أفهم! لا! أ - ف - هم!».

أما ريمسكي فكان يتطلَّع من النافذة مُعْمِلًا فكره في تركيز شديد. كان موقفه حرجًا للغاية، وكان عليه أن يجد للحال، دون أن يتحرَّك من مكانه، تفسيرًا عاديًا لظواهر غير عادية.

زرَّ المدير المالي عينيه فتمثَّل ستيوبا في قميص النوم، ودون جزمة، ينسَلّ عند الحادية عشرة والنصف من هذا اليوم إلى طائرة فائقة السرعة بشكل غير معهود، ثم يقف، هو نفسه ستيوبا، عند الحادية عشرة والنصف أيضًا على أرض المطار في يالطا وليس عليه إلا جواربه... الشيطان وحده يعلم ما هذا!

أيمكن ألا يكون ستيوبا هو الذي كلَّمه اليوم من شقته؟ لكن لا، الذي كلمه كان ستيوبا! وهل له هو ألا يعرف صوت ستيوبا! وإذا لم يكن ستيوبا هو الذي تكلَّم معه اليوم، فإن ستيوبا نفسه هو الذي حضر إليه أمس، عند المساء. حضر إليه في مكتبه هذا ومعه هذا العقد السخيف مما أثار عليه سخط المدير المالي لطيشه. وكيف واتته نفسه أن يسافر برًا أو جوًا دون أن يتفوَّه بكلمة عن هذا الموضوع في المسرح؟ وحتى لو ركب طائرة مساء الأمس لما استطاع أن يصل يالطا اليوم ظهرًا. أو لعله كان وصل؟

سأل ريمسكي: - «كم كيلومترًا من هنا إلى يالطا؟».

توقَّف فارينوخا عن عدوه وجأر:

- «هذا الذي انتهيت إليه! ألف وخمسمائة كيلومتر حتى سيفاستوبول بالسكة الحديدية، أضف إليها ثمانين كيلومترًا حتى يالطا. والمسافة جوًا أقل طبعًا».

- «هِمْ... نعم... لا مجال للحديث هنا عن أي قطارات. كيف إذن؟ هل بطائرة مطارِدة؟ لكن من يدع ستيوبا يصعد إلى مطارِدة وهو حافٍ؟ ولأي هدف قد يكون قد خلع جزمته بعد وصوله إلى يالطا؟ ومرة أخرى: ولأي هدف؟ حتى ولو كان ستيوبا يلبس جزمته فإن أحدًا لن يدعه يصعد إلى مطارِدة! المطارِدات لا شأن لها بهذا الموضوع! لقد جاء في البرقية أن ستيوبا حضر إلى قلم المباحث الجنائية في الحادية عشرة والنصف ظهرًا، في حين أنه كلَّمني في موسكو... لحظة... وهنا برز أمام عيني ريمسكي ميناء ساعته، وتذكَّر أين كان عقرباه. فظاعة! كانت الساعة الحادية عشرة وعشرون دقيقة. فما معنى هذا؟ لو افترضنا أن ستيوبا انطلق إلى المطار فور انتهاء حديثه معي وبلغه لنقل في خمس دقائق، وهذا، بالمناسبة، أمر غير معقول أيضًا، فمعنى ذلك أن الطائرة، على فرض أنها أقلعت فورًا، قطعت أكثر من ألف كيلومتر في خمس دقائق. إذن فهي تقطع في الساعة أكثر من اثني عشر ألف كيلومتر!! هذا مستحيل، وبالتالي ستيوبا ليس في يالطا».

- «ما الذي يبقى إذن؟ التنويم المغناطيسي؟ لا يستطيع أي تنويم مغناطيسي على الأرض أن يقذف بشخص ما إلى ما يزيد عن ألف كيلومتر! إذن هل تهيّأ له أنه في يالطا؟! ربما تهيّأ له هو، ولكن هل يتهيّأ للمباحث الجنائية في يالطا مثل ما تهيّأ له؟ لا، أرجوكم، هذا لا يمكن أن يحدث!... ولكن أليست المباحث هي التي تبرق من هناك؟».

كان وجه المدير المالي مرعبًا بالمعنى الحرفي للكلمة. في هذه الأثناء كان أحدهم يدير مقبض الباب من الخارج ويشده، وكان يُسمع صوت الساعية وراء الباب يصرخ صراخ المستميت:

- «ممنوع! لن أدع أحدًا يدخل، ولو قطعتموني! اجتماع!».

تمالك ريمسكي نفسه قدر ما استطاع وأخذ سماعة الهاتف وقال:

- «أريد مكالمة عاجلة مع يالطا».

هتف فارينوخا في سره: «تصرف ذكي!».

لكن المكالمة مع يالطا لم تتم. فوضع ريمسكي السماعة وقال:

- «الخط تعطّل كأنّما نكاية».

كان واضحًا أن تعطُّل الخط سبَّب له لأمرٍ ما كدرًا بالغًا، بل جعله يغرق في تفكير لم يستمر طويلًا. فقد أمسك السماعة من جديدٍ بيد، وأخذ يسجِّل بالأخرى ما كان يقوله في السماعة:

- «تسلَّموا برقية عاجلة جدًا. «فارييتيه». نعم. يالطا. المباحث الجنائية. نعم. (نحو الحادية عشرة والنصف ظهر اليوم تكلَّم معي ليخودييف بالهاتف في موسكو، نقطة. ثم لم يحضر إلى مكتبه ولم نستطِع الاتصال به، نقطة. أؤكد صحة الخط، نقطة. اتُّخِذت الإجراءات لمراقبة الفنان المذكور. المدير المالي ريمسكي)».

- «تصرُّف ذكي جدًا!»، قال فارينوخا في سره، ولكنه لم يكد يتم، حتى برقت في رأسه عبارة: «هذا غباء! لا يمكن أن يكون في يالطا!»

في هذه الأثناء فعل ريمسكي ما يلي: رتَّب كل البرقيات التي استلمها ونسخة من برقيته بعنايةٍ على شكل رزمة ووضع الرزمة في ظرف وصمَّغ الظرف وكتب عليه بضع كلمات وسلَّمه إلى فارينوخا قائلًا:

- «احمل هذا الظرف على الفور بنفسك يا إيفان سافيليفتش. ولينظروا هناك في الأمر».

«الآن هذا تصرُّف ذكي فعلًا!»، قال فارينوخا في نفسه وأخفى الظرف في محفظته.

ثم أدارَ مرة أخرى رقم الهاتف في شقة ستيوبا لعل وعسى يلقاه وأنصت. ثم غمز بعينه غمزه فيها فرح وغموض وافتعل ابتسامة على وجهه. ومطّ ريمسكي رقبته ليستمع.

سأل فارينوخا بصوت يفيض عذوبة ورقة: - «هل بإمكانكم استدعاء الفنان فولند؟».

أجابته السماعة بصوت متهدِّج: - «إنه مشغول، من الذي يطلبه؟».

- «المدير الإداري لـ «فاريتيه»، فارينوخا».

هتفت السماعة فرحة: - «إيفان سافيليفتش؟ إنني في غاية السرور لسماع صوتك! كيف صحتك؟».

أجابه فارينوخا مبهوتًا: - «ميرسي، لكني مع من أتكلَّم؟».

ثرثرت السماعة: - «المساعد، مساعده ومترجمه كوروفييف، أنا في خدمتك أيها الغالي إيفان سافيليفتش! وما عليك إلا أن تأمر. هلَّا أمرت؟».

- «العفو، هل ستيبان بوغدانوفتش ليخوديِيف غائب الآن يا ترى؟».

صرخت السماعة: - «نعم للأسف، نعم! لقد غادر البيت».

- «وإلى أين؟».

- «إلى الضواحي يتفسَّح بالسيارة».

- «...كيف؟ يـ.. يـ... يتفسَّح؟... ومتى يعود؟»

- «قال أنا ذاهب أتنشَّق الهواء العليل قليلًا وأعود!».

قال فارينوخا في ذهول: - «حسن... ميرسي. تلطَّف وبلِّغ مسيو فولند أن عرضه اليوم سيكون في القسم الثالث».

نقرت السماعة نقرات متقطعة: - «سمعًا. طبعًا. من كل بد. فورًا. ضروري سأبلغه».

قال فارينوخا وهو دَهِشٌ مما يسمع: - «تمنياتي لك بكل الخير».

وقالت السماعة:

- «أرجو أن تتقبَّل أفضل تحياتي وتمنياتي وأحرها! بالنجاح! والتوفيق! والصحة وكل شيء!».

أخذ المدير الإداري يصيح بانفعال شديد: - «طبعًا، طبعًا! لقد قلت لك! ليس هناك أي يالطا، كل ما في الأمر أنه ذهب إلى الضواحي!».

قال المدير المالي ووجهه يمتقع حقدًا وغضبًا: - «ما دام الأمر كذلك، ففعلته هذه حقارة لا وصف لها!».

وهنا قفز المدير الإداري وصاح بصوت جعل ريمسكي يرتعد:

- «تذكَّرت! تذكَّرت! في بوشكين افتُتح محل لبيع فطائر اللحم على الطريقة القفقاسية باسم «يالطا»! كل شيء مفهوم! لقد ذهب إلى هناك وشرب حتى سكر وأخذ يبرق من هناك!».

- «لا، هذا زاد على الحدِّ»، أجاب ريمسكي ووجنته ترتجف وعيناه تتوقَّدان بحقد بالغ حقيقي، «لا بأس، ستكلفه نزهته هذه غاليًا»، وهنا استدرك فجأة وأضاف بلهجة المتردِّد:

- «لكن كيف ذلك، فالمباحث الجنائية...».

- «هراء! هذه أيضًا من ملاعيبه»، قاطعه المدير الإداري الذي لم يكن يعرف كيف يداري عواطفه، وأضاف يسأله: «وهل أوصل الرزمة؟».

أجابه ريمسكي: - «حتمًا».

وفُتح الباب من جديد وأطلَّت نفس... «هي!»، لسبب ما قال ريمسكي في سرِّه بشيء من السويداء. وهبَّا كلاهما لملاقاة ساعية البريد.

في هذه المرة جاء في البرقية ما يلي: «شكرًا للإثبات أرسل لي خمسمائة روبل فورًا المباحث الجنائية غدًا أصل موسكو ليخودييف».

- «لقد فقد صوابه...» قال فارينوخا بصوت واهن. أمَّا ريمسكي فخشخش بمفتاح، وأخرج من درج الخزنة غير القابلة للاحتراق نقودًا وعدَّ خمسمائة روبل، وقرع جرسًا وسلَّم ساعي المسرح المال، وبعث به إلى دائرة البرق.

- «العفو يا غريغوري دانيلوفتش»، قال فارينوخا وهو لا يصدِّق عينيه، «في رأيي أنك عبثًا تبعث بهذه النقود».

ردَّ عليه ريمسكي بصوت خافت: - «النقود ستعود إلينا».

- «أما هو فسيدفع غاليًا ثمن نزهته اللطيفة هذه»، ثم أردف وهو يشير إلى حقيبة فارينوخا: «هيا، يا إيفان سافيليفتش، لا تتأخَّر».

وخرج فارينوخا من المكتب عدْوًا وهو يتأبَّط حقيبته.

هبط إلى الطابق السفلي فرأى طابورًا طويلًا جدًا قرب كشك التذاكر، وعرف من بائعة التذاكر أنها تتوقَّع إعلان نفاد البطاقات في ساعة، لأن الجمهور ما إن رأى الإعلان الإضافي حتى أخذ يتدفَّق كالموج. أمر فارينوخا البائعة ألا تبيع أفضل ثلاثين مقعدًا في «اللوجات» والصالة ثم وثب خارجًا من الكشك، وأخذ يتملَّص من طالبي

التذاكر المجانية اللجوجين الذين كانوا يعترضون سبيله، ثم غاص في مكتبه الصغير ليأخذ قبعته. في هذا الوقت قعقع جرس الهاتف.

صاح فارينوخا: - «نعم!».

قالت السماعة بصوت أخن كريه مستفسرة: - «إيفان سافيليفتش؟».

كاد فارينوخا يصرخ: - «إنه غير موجود في المسرح!». لكن السماعة قاطعته على الفور:

- «لا تتباله، يا إيفان سافيليفتش، بل اسمع. هذه البرقيات لا تحملها إلى أي مكان ولا تُرِها لأحد».

دوَّى صوت فارينوخا: - «من الذي يتكلَّم؟ كُفَّ عن ملاعيبك أيها المواطن. لا بد أنهم كاشفون أمرك على الفور! ما رقمك؟».

رد عليه الصوت المقيت نفسه: - «فارينوخا، ألا تفهم اللغة الروسية؟ قلت لك لا تحمل هذه البرقيات إلى أي مكان».

صاح المدير الإداري في غيظ شديد: - «ألن تكف عن هذا الهراء؟ إيَّاك ثم إيَّاك! ستدفع ثمن هذا كله»، وأردف هذا التهديد بتهديد آخر وصمت لأنه شعر أن لا أحد يستمع إليه في السماعة.

بدا أن العتمة أخذت تلف المكتب الصغير بسرعة، فعدا فارينوخا خارجًا وصفق الباب وراءه واندفع من ممر جانبي إلى الحديقة الصيفية.

كان المدير الإداري مثارًا مليئًا بالهمة والنشاط، إذ لم يعد يساوره أي شك بعد هذه المكالمة الوقحة في أن عصابة من الأشقياء تقترف هذه الأفعال الشنيعة، وأن هذه الأفعال مرتبطة باختفاء ليخودييف. كانت رغبة المدير الإداري في كشف هؤلاء الأشرار تكاد تخنقه، ومهما بدا الأمر غريبًا فقد أحسَّ سلفًا بطعم شيء لذيذ مقبل. هذا ما يحدث عادة حين يسعى الإنسان إلى أن يصبح في مركز الاهتمام ويحمل معه خبرًا مثيرًا.

في الحديقة هبَّت في وجهه ريح وملأت عينيه بذرات الرمل، كأنما تسد عليه طريقه، كأنما تحذِّره. وفي الطابق الثاني صُفق إطار نافذة بحيث كاد زجاجه يتطاير، واهتزت رؤوس أشجار القيقب والزيزفون في هلع. اعتمت الدنيا وترطَّب جوها. وفرك المدير الإداري عينيه فرأى غمامة صفراء محمَّلة بالعاصفة تسبح فوق موسكو، وفي البعيد دوَّى صوت الرعد العميق.

ومهما يكن من لهفة فارينوخا وعجلته، إلا أن رغبة لا تقاوم شدَّته إلى التعريج ثانية

واحدة على المرحاض الصيفي ليتأكَّد على الماشي مما إذا كان عامل الكهرباء وضع المصباح في الشبكة.

وجد فارينوخا نفسه، بعد أن عدا قرب لعبة التصويب، في خميلة كثيفة من أشجار الليلك حيث مبنىٍ المرحاض الأزرق. وتبيَّن له أن عامل الكهرباء إنسان دقيق، فقد كان المصباح المعلَّق بسقف القسم الرجالي من المرحاض ملفوفًا بشبكة معدنية، لكن الذي كدَّر على المدير المالي صفاء مزاجه أنه كان بإمكان المرء، حتى في هذه العتمة التي تسبق العاصفة المطرية، أن يتبيَّن أن الجدران صارت مغطَّاة بكتابات بقطع الفحم وأقلام الرصاص.

- «يا لهم من!...». وما كاد المدير المالي ينطق هذه الكلمات حتى سمع فجأة صوتًا يموء خلفه:

- «هذا أنت، يا إيفان سافيليفتش؟».

ارتعد فارينوخا والتفت فرأى وراءه شخصًا بدينًا صغيرًا له وجه قط في ما بدا له.

أجابه فارينوخا بجفاء: - «أي، أنا».

- «تشرَّفنا جدًا، جدًا»، رد عليه البدين الشبيه بالقط بصوت كالصأصأة، ثم انتفض ولكم فارينوخا على أذنه فجأة بحيث طارت قبعته عن رأسه واختفت دون أثر في فوهة المقعد.

وبفعل اللكمة ضاء المرحاض كله لحظة بضوء راعش وتردَّدت في السماء قصفة رعد. ثم برقت الدنيا مرة أخرى فانشقت الأرض فجأة أمام المدير الإداري عن شخص ثانٍ؛ قصير لكنه ذو كتفين كأكتاف الرياضيين، وأحمر كالنار، ذي عين عليها بياض وفَم له ناب. وناوله الثاني، الذي كان أعسر على ما يظهر، لكمة ثانية على أذنه الأخرى. وكأنما تجاوبت مع اللكمة قصفة رعد أخرى في السماء. وانهمر المطر على سطح المرحاض الخشبي.

- «ما هذا يا رفا...». همس المدير الإداري وقد طار نصف صوابه، لكنه أدرك للحال أن كلمة «رفاق» لا تناسب على الإطلاق أشقياء يهاجمون شخصًا في دورة مياه عمومية فقال بصوت أجشّ: - «أيها المواطـ...»، ولم يكمل إذا انتبه إلى أن هذه التسمية أيضًا لا يستحقانها، فإذا به يتلقى لكمة ثالثة فظيعة لم يدرِ من أيهما، بحيث نفر الدم من أنفه على قميصه.

صرخ الذي يشبه القط بصوت حاد: - «ما هذا الذي في حقيبتك أيها الطفيلي؟ البرقيات، آ؟ ألم يحذروك بالهاتف ألّا تحملها إلى أي مكان؟ ألم يحذروك، إني أسألك؟».

أجابه المدير الإداري بأنفاس متقطعة: - «حذَّر... حذَّر... حذَّروني».

- «ومع هذا فأنت تحملها؟ هات الحقيبة أيها الوغد!». صرخ الثاني بالصوت الأخن نفسه الذي سمعه في الهاتف، وانتزع الحقيبة من يدي فارينوخا المرتجفتين.

وأمسك كلاهما المدير الإداري من إبطه وجرَّاه خارج الحديقة وانطلقا به في سادوفايا. كانت العاصفة المطرية تعربد بملء قواها. الماء يهوي في فوهات المجاري بصخب وهدير، والفقَّاعات تغلي وتفور في كل مكان والموجات تنتفخ، والماء يتدفَّق بغزاره من الأسطح قرب القساطل، ومن تحت الأبواب تندفع تيارات مزبدة. اختفى كل ما هو حي في سادوفايا ولم يكن فيه من يستطيع إنقاذ إيفان سافيليفتش، جرَّ الشقيَّان، وهما يقفزان في الأنهر العكرة ويستضيئان بالبروق، المدير الإداري في ثانية حتى البناية رقم 302 مكرَّر وهو بين الحياة والموت، وطارا به إلى تحت الرتاج حيث كانت تلتصق بالجدار امرأتان حافيتان تمسكان جواربهما وخفيهما بأيدهما. ثم اندفعا إلى المدخل السادس للبناية ووجد فارينوخا الذي أشرف على الجنون نفسه محمولًا إلى الطابق الخامس وملقيًا به على أرض المدخل المألوف نصف المعتم لشقة ستيوبا ليخودييف.

وهنا اختفى الشقيَّان وظهرت مكانهما في المدخل فتاة عارية تمامًا. صهباء اللون ذات عينين فسفوريتين متَّقدتين.

أدرك فارينوخا أن هذا إنما هو أفظع ما حدث له. فصعَّد أنَّة وتراجع إلى الجدار. لكن الفتاة اقتربت من المدير الإداري ووضعت راحيتها على كتفيه، فوقف شعر رأس فارينوخا إذ أحس، حتى من فوق قميصه البارد المبلل بالماء، أن هاتين اليدين أبرد، وأنهما باردتان كالجليد.

- «دعني أقبِّلك»، قالت له الفتاة برقَّة وصارت عيناها المتلألئتان أمام عينيه تمامًا. إذَّاك غاب فارينوخا عن الوعي ولم يشعر بالقبلة.

## الفصل الحادي عشر

# إيفان يُصاب بالازدواجية

أعتم حرش الصنوبر المنتصب على ضفة النهر المقابل الذي كانت شمس أيار تنوره إلى ساعة من الزمن، وذاب وغاب.

كان المطر ينهمر شآبيب متصلة وراء النافذة، وبين الحين والحين تومض خيوط وتنشقّ السماء ويغمر غرفة المريض نور راعش مخيف.

كان إيفان يبكي بصوت خافت وهو جالس على سريره ينظر إلى النهر العكِر الذي يفور بالفقاعات. كان يطلق لدى كل قصفة رعد صرخة حزينة شاكية ويغطّي وجهه بيديه. وكانت الأوراق التي كتبها إيفان تتناثر على أرض الغرفة بعد أن بعثرتها الريح التي هبَّت على الغرفة قبل بدء العاصفة.

لقد باءت محاولات الشاعر لكتابة تصريح بخصوص المستشار الرهيب بالإخفاق. فما إن استلم من الممرضة البدينة التي كانوا يناودنها براسكوفيا فيودوروفنا بقية قلم وورقة حتى فرك يديه فِعلَ المقدم على عمل جدِّي. وجلس إلى طاولته على عجل. وسرعان ما كتب المطلع:

«إلى دائرة الشرطة. تصريح من عضو الماسوليت إيفان نيقولايفتش بيزدومني. البارحة مساء ذهبتُ مع المرحوم م. أ. برليوز إلى بتريرشيي برودي...».

وعلى الفور ارتبك الشاعر. ارتبك بصورة رئيسية بسبب كلمة «المرحوم». هذا كلام غير معقول. كيف يمكنه أن يقول: ذهبت مع المرحوم؟ الأموات لا يسيرون! وما أدراك، فقد يعتبرونك مجنونًا بالفعل!

بعد أن طافت برأس إيفان نيقولايفتش الأفكار على هذا النحو أخذ يصحِّح ما كتبه

فكان التالي: «...مع م. ا. برليوز الذي توفي فيما بعد...». لكن هذه الصيغة لم ترضِ كاتبها، فما كان عليه إلا أن يستخدم صيغة ثالثة، فكانت هذه أسوأ من سابقتيها: «... مع برليوز الذي سقط تحت عجلات الترام...»، وهنا جاء اسم الموسيقار النكرة الذي يحمل الكنية نفسها ليلتصق في ذهنه باسم صاحبه مما اضطره إلى إضافة: «... ليس الموسيقار...»

ولمَّا أضناه أمر هذين البرليوزين شطب كل ما كتبه، وقرَّر أن يبدأ من جديد بشيء قويّ جداً يثير اهتمام القارئ على الفور فكتب عن القط الذي استقلَّ الترام، ثم عاد إلى حادثة الرأس المقطوع. وأدى به الرأس المقطوع ونبوءة المستشار إلى موضوع بيلاطس البنطي، فقرَّر إيفان بغية الإقناع الكامل سرد قصة الوالي بيلاطس البنطي، كاملة من اللحظة التي خرج فيها ببردته البيضاء ذات البطانة الحمراء إلى الرواق ذي الأعمدة في قصر هيرودس.

وانكبَّ إيفان على عمله فكان يشطب ما يكتب ويضيف كلمات جديدة، بل إنه حاول رسم بيلاطس البنطي أول الأمر ثم القط الواقف على قائمتيه الخلفيتين. لكن حتى الرسم لم يسعفه في شيء، فما كان تصريحه يزداد إلّا تشوُّشًا وغموضًا.

وأحسَّ إيفان، حين ظهرت الغمامة المرعبة ذات الحواشي الداخنة من بعيد ولفّت الحرش وهبت الريح، بالوهن يتسرَّب إلى أوصاله وبإفلات زمام التصريح من يده، فكف عن لم الأوراق المتطايرة وأخذ يبكي بكاءً مرًا خافتًا.

زارت الممرضة الطيِّبة براسكوفيا فيردوروفنا الشاعر أثناء العاصفة فانتابها القلق لرؤيته يبكي فأسدلت الستار كي لا تخيف البروق المريض ولمّت الأوراق وهرعت تستدعي الطبيب.

وحضر الطبيب، حقنه في ذراعه وأكَّد له أنه لن يعود إلى البكاء، وأن هذا كله عابر سيزول، وأن كل شيء سيتغير وسينسى كل شيء.

وكان الطبيب محقًّا. فما لبث الحرش الذي وراء النهر أن عاد إلى سابق عهده، وبانت أشجاره شجرة شجرة تحت سماء صفت وعادت إليها كل زرقتها، وسكن النهر، وأخذت الكآبة تنجلي عن إيفان بعد الإبرة مباشرة فتمدَّد بهدوء وأخذ يرنو إلى قوس القزح المشلوح في السماء.

واستمرَّت به الحال حتى المساء، حتى إنه لم يلاحظ كيف ذاب قوس القزح وحال لون السماء واكتست غلالة رقيقة من الكآبة واسودّ الحرش.

شرب إيفان حليبًا ساخنًا ثم عاد يتمدَّد على سريره، فأخذته الدهشة من التغيُّر الذي

طرأ على أفكاره. استرجع القط الجهنمي اللعين في ذاكرته، ولم يعد الرأس المقطوع يخيفه. وأخذ إيفان يقول في نفسه، وقد طرح فكرة الرأس المقطوع بعيدًا عنه، إن وجوده في العيادة ليس على هذه الدرجة من السوء في الواقع، وإن سترافنسكي إنسان ذكي جدًا وله شهرته، وإن التعامل معه أمر سارٌ جداً. هذا إلى أن نسيم المساء رقيق وبليل بعد العاصفة.

وأخلد مستشفى المجانين إلى النوم. فأطفئت المصابيح البيض يعلوها الغبار في الممرات الساكنة وأضيئت بدلًا منها، حسب النظام المتَّبع، أنوار ليلية زرق شحيحة النور، وتضاءل أكثر فأكثر خلف الأبواب وقع خطوات الممرضات الحذرة على سجادة الممر المطاطية.

كان إيفان يتمدَّد الآن في استرخاء لذيذ. يتطلَّع تارة إلى المصباح الصغير ذي الغطاء يسكب من السقف نورًا لطيفًا، وتارة إلى القمر الطالع من وراء الحرش الأسود وهو يحدِّث نفسه:

- «حقًا، لماذا جزعتُ واضطربتُ على هذا النحو لوقوع برليوز تحت عجلات الترام؟ ليسقط إذا شاء في المستنقع أيضًا، فما دخلي! ومن أنا بالنسبة له في واقع الأمر، أخوه، قريبه، نسيبه؟ ولو حللنا هذه المسألة جيدًا، فمن الجلي أنني لم أكن أعرف المرحوم تمام المعرفة، وبالفعل ما الذي أعرفه عنه؟ لا شيء سوى أنه كان أصلع وفصيح اللسان بشكل فظيع. ثم تعالوا أيها المواطنون»، هنا أخذ إيفان يوجه كلامه إلى أشخاص ما، «تعالوا نفكر معًا وقولوا لي: لماذا استعرتُ أنا بالذات غيظًا على هذا المستشار الغامض، الساحر، البروفيسور ذي العين الفارغة السوداء؟ لماذا كل مطاردتي السخيفة له هذه وأنا في سروالي الداخلي والشمعة في يدي، ولماذا كل هذا الزياط الوحشي في المطعم؟»».

وسُمع فجأة، وفي مكان ما لا تدري أهو في الداخل أو فوق الأذن، إيفان القديم يقول لإيفان الجديد بصوت صارم: «لا، لا، لا. ألم يكن يعرف مسبقًابم سيُقطع رأس برليوز،ما هذا، فكيف لا يقلق المرء؟»».

قال إيفان الجديد يعترض على إيفان السابق، القديم: - «الأمر واضح جدًا! كَون الأمر مريبًا شيء يدركه حتى الطفل! إنه شخصية خارقة وغامضة مائة بالمائة. وهنا أطرف ما في الموضوع! كان يعرف بيلاطس البنطي شخصيًا فماذا تريد أطرف من ذلك؟ ألم يكن من الأذكى سؤاله بأدب عمَّا حدث لبيلاطس البنطي لاحقًا وهذا الغانوصري المعتقل بدلًا من إثارة هذه الفضيحة الحمقاء في بتريرشيي؟

أما أنا فشُغلت الشيطان يعلم بماذا! وبالفعل يا له من حدث مهم - أن يُدهس رئيس تحرير مجلة! هل سيغلقون أبواب المجلة جرَّاء ذلك؟ ماذا باليد، الإنسان فانٍ، وكما قيل بحق فانٍ على حين غرَّة. أي، رحمة الله عليه! سيأتي رئيس تحرير آخر وربما كان أفصح من سابقه!».

غفا إيفان الجديد قليلًا ثم سأل إيفان القديم بلوم:

- «من أكون في هذه الحالة إذن؟».

- «غبي!». أجابه صوت جهير واضح النبرات لم يكن صوت أحد الإيفانَيْن، بل صوت بالغ الشبه بصوت المستشار.

ولأمر ما لم تغِظ إيفان كلمة «غبي» هذه بل أثارت في نفسه شيئًا من دهشة الرضا، فطافت على محيَّاه ابتسامة وسكن في نصف إغماءة. وما كاد الكرى يتسلَّل إلى جفنيه حتى تراءت له شجرة نخيل بجذعها الأشبه بقائمة الفيل، ثم لمح قطًا يمر قربها، ولم يكن مخيفًا بل لطيف المنظر. وباختصار كاد إيفان يغط في النوم حين انزاحت شبكة الشرفة فجأة بلا صوت وظهر على الشرفة خيال غامض يختبئ من ضوء القمر، وأومأ لإيفان بإصبعه مهدِّدًا.

نهض إيفان قليلًا من سريره دون أي ذعر ورأى في الشرفة رجلًا. ووضع هذا الرجل سبَّابته على شفتيه وهمس:

- «هسّ!».

## الفصل الثاني عشر

# السحر الشيطاني وفضحه

خرج رجل صغير ذو أنف قرمزي على شكل أجاصة ورأس تعلوه قبعة عالية صفراء مخرَّمة ويلبس بنطالًا ذا مربعات وحذاء مصبوغًا إلى خشبة «فارييتيه» على درَّاجة عادية ذات دولابين. دار الرجل الصغير دورة على أنغام الفوكستروت ثم أطلق صرخة ظَفْر شبَّت لها الدراجة على دولابها الخلفي. وبعد أن دار دورة أخرى على دولاب واحد انكفأ واقفًا على يديه، ثم تحايل على الدولاب الأمامي في سيره ففك براغيه ودفع به على الكواليس وتابع دورانه على دولاب واحد يدير دواسته بيديه.

ثم خرجت إلى الخشبة شقراء ممتلئة القوام في كنزة وتنورة قصيرة تنتثر عليها نجوم فضية وقد امتطت مقعدًا في أعلى سارية معدنية تسير بدولاب واحد، وأخذت تدور بها على خشبة المسرح. وكان الرجل يطلق صرخات تحية حين يلتقي بها ويرفع برجله قبعته عن رأسه.

وأخيرًا خرج إلى الخشبة طفل في نحو الثامنة من عمره ذو وجه عليه علامات الشيخوخة وأخذ يسعى بين زميليه الكبيرين على درَّاجة صغيرة ذات دولابين رُكِّب عليها بوق سيارة ضخم.

بعد أن دارت المجموعة الثلاثية بضع دورات، اندفعت كلها على ضربات طبل الأوركسترا المثيرة حتى طرف الخشبة تمامًا.

شهق النظارة في الصفوف الأولى وارتدُّوا إلى الوراء ظنًّا منهم أن الثلاثي سيهوي مع درَّاجاته على الأوركسترا.

لكن الدرَّاجات توقَّفت بالضبط لحظة كانت الدواليب الأمامية توشك أن تنزلق وتهوي على رؤوس الموسيقيين. وقفز راكبوها عن دراجاتهم وهم يطلقون صرخة

عظيمة «أُوب!»، وأخذوا ينحنون محيين فيما كانت الفتاة الشقراء ترسل إلى الجمهور قُبلات في الهواء، أما الطفل فقد أطلق من زموره إشارة مضحكة.

وهزَّ التصفيق بناء المسرح. وتحرَّكت الستارة الزرقاء من الجانبين لتحجب راكبي الدراجات، وأطفئت الأنوار الخضر التي تحمل كلمة «مدخل» عند الأبواب، بينما أضيئت بين الأراجيح التي تشبه بيت العنكبوت تحت القبة بالونات بيض كأنها الشمس. وحانت فترة الاستراحة قبل الفصل الأخير.

الشخص الوحيد الذي لم تثِر اهتمامه أسرة «جولي» بغرائب بهلوانياتها على الدراجات كان غريغوري دانيلوفتش ريمسكي. كان ريمسكي غارقًا في عزلة تامة في مكتبه وهو يعضّ شفتيه الرقيقتين، وعلى وجهه ترتسم بين الحين والآخر علامات التشنُّج فإلى اختفاء ليخودييف الغريب جاء اختفاء المدير الإداري فارينوخا الذي لم يكن يتوقعه بأي شكل من الأشكال.

كان ريمسكي يعرف أين ذهب فارينوخا، لكنه ذهب و... لم يعد! هزّ ريمسكي كتفيه وهمس يقول لنفسه:

- «ولكن لماذا؟!».

والأمر الغريب أنه من أبسط الأمور لإنسان عملي كالمدير المالي هو، بطبيعة الحال، الاتصال هاتفيًا حيث ذهب فارينوخا، والاستفسار عمَّا دهاه، لكنه لم يستطِع، مع هذا، إكراه نفسه على هذا الاتصال حتى الساعة العاشرة مساء.

وفي العاشرة رفع السمَّاعة على كره شديد عن الجهاز، وللحال أتضح له أن هاتفه ميت، لا حياة فيه. وأخطره الساعي أن الهواتف الأخرى في المبنى معطَّلة أيضًا ولأمر ما هزَّ هذا الحدث - غير السار بطبيعة الحال لكن غير الخارق للطبيعة - المدير المالي تمامًا، لكنه في الوقت نفسه أفرحه: فقد انزاحت عن كاهله ضرورة الاتصال.

وفيما ومض المصباح الأحمر الصغير فوق رأس المدير المالي وأخذ يطرق معلنًا بدء الاستراحة، دخل عليه الساعي وأبلغه بوصول الفنان الأجنبي. ولأمر ما أحسَّ المدير المالي بتشنّج، لكنه اتجه إلى خلف الكواليس كالح الوجه لاستقبال الفنان الزائر إذ لم يكن في المسرح سواه لاستقباله.

ومن الممر، حيث كانت الإشارات الصوتية تطقطق، كان الفضوليون يسترقون النظر إلى غرفة الزينة الكبرى بذرائع مختلفة. في الغرفة مشعوذون في أردية زاهية وعمائم ومتزحلق على الجليد في سترة بيضاء محبوكة وعرِّيف حفلات شاحب من أثر المساحيق وماكيير.

صعق الزائر الشهير الجميع بفراكه ذي الطول الخارق والتفصيل البديع وبظهوره وهو يضع نصف قناع أسود. لكن الأغرب من هذا كله كان رفيقا الساحر: شخص طويل يلبس لباسًا ذا مربعات ويضع نظارة أنفية متشقِّقة، وقط سمين أسود دخل غرفة الزينة على قائمتيه الخلفيتين وجلس دون كلفة على الأريكة وهو يتطلَّع إلى المصابيح الصغيرة المكشوفة في غرفة الزينة مضيّقًا عينيه.

جهد ريمسكي أن يرسم على وجهه ابتسامة مما جعل وجهه يكتسي مسحة من الكآبة والشر. ثم حيًا الساحر الصامت الذي كان يجلس على الديوان إلى جوار القط. ولم يتصافح الرجلان، لكن ذا المربعات القليل الحياء تبرَّع بتقديم نفسه على أنه «مساعدهم». وأدهش هذا التفصيل المدير المالي. وكانت دهشته مشوبة بالانزعاج هذه المرة أيضًا: إذ لم يرد في العقد أي ذكر لأي مساعد إطلاقًا.

وبصوت يفيض بالجفاء والقهر استفسر غريغوري دانيلوفتش من ذي المربعات، الذي هبط عليه فجأة، عن مكان وجود عدّة الفنان.

أجابه مساعد الساحر بصوت رفيع حاد: - «يا درَّتنا السماوية، يا سيدنا المدير الغالي، عدتنا معنا دائمًا. ها هي ذي! eins zwei drei!». وأدار أمام عيني ريمسكي أصابعه المتداخلة على شكل عُقد وسحب بغتة من خلف أذن القط ساعة ريمسكي الذهبية مع سلسلتها التي كانت الآن في جيب المدير المالي تحت الجاكيتة المزرَّرة معقودة بسلسلتها إلى عروة.

أمسك ريمسكي بطنه بحركة لا إرادية، وندَّت من أفواه الحاضرين المفغورة آهات الدهشة، أمَّا الماكيير الذي كان يسترق النظر من الباب فتنحنح مستحسنًا.

قال ذو المربعات وهو يبتسم دون كلفة: - «ساعتك؟ أرجو أن تستلمها»، ومدَّ لريمسكي المذهول راحته القذرة بالساعة.

همس عرِّيف الحفلات للماكيير بصوت خافت مرح: - «لا تركب الترام مع شخص كهذا».

لكن القط قدَّم فقرة أدعى للدهشة من فقرة الساعة. فقد نهض عن الديوان بغته، ودنا من المنضدة التي أمام المرآة على قائمتيه الخلفيتين، ونزع سدادة الدورق بقائمته الأمامية، وسكب منه ماء في كأس، وشرب ثم أعاد السدادة إلى موضعها ومسح شاربيه بخرقة ماكياج.

لم تندّ عن أفواه المشاهدين آهات الدهشة هذه المرة، بل فغروا جميعًا أفواههم وحسب. وهمس الماكيير بانبهار:

- «أي، رائع!».

وهنا رنَّت الأجراس للمرة الثالثة رنينًا مقلقًا، فأخذ الجميع يخرُّون متدافعين من غرفة الزينة وهم في غاية الإثارة والتشويق المسبق للفقرات الطريفة.

وبعد دقيقة انطفأت البالونات في الصالة. واشتعلت أضواء الخشبة الأمامية ملقية على أسفل الستارة بصيصًا ضاربًا إلى الحمرة، وانتصب في شق الستارة المُنار أمام الجمهور شخص بدين مرح كالطفل، ذو وجه حليق وفراك مكرمش وقميص غير نظيف. كان هذا جورج بينغالسكي عرِّيف الحفلات المعروف في موسكو كلها.

وقال بينغالسكي وهو يبتسم ابتسامة الطفل الصغير:

- «وهكذا أيها المواطنون، سيقدم لكم الآن...»، وهنا قاطع بينغالسكي نفسه وأردف بنبرة أخرى قائلًا: «أرى أن عدد الجمهور زاد أيضًا مع بداية القسم الثالث من حفلتنا. عندنا الآن نصف المدينة! من أيام معدودة التقيت صديقًا فقلت له: «لماذا لا تأتي إلينا؟ البارحة كان عندنا نصف المدينة». فأجابني: «أنا أسكن في النصف الثاني!». وتوقَّف بينغالسكي بانتظار أن تنفجر الضحكات. ولمَّا لم يضحك أحد تابع يقول: »... وهكذا سيقدِّم لنا الفنان الأجنبي المعروف مسيو فولند حفلة سحر شيطاني! ونحن جميعًا ندرك»، هنا ابتسم بينغالسكي ابتسامة تفيض بالحكمة، «أن السحر الشيطاني لا وجود له على الأرض إطلاقًا، وأنه ليس سوى خرافة، ووَهم. وكل ما في الأمر أن المايسترو فولند يتقن تقنية الخدعة، والشعوذة إلى درجة عالية الأمر الذي سينجلي لكم في أكثر فقرات الحفلة إثارة ألا وهي كشف هذه التقنية وفضحها. وبما أننا جميعًا كالرجل الواحد من أنصار التقنية ومن أنصار كشفها وفضحها فإننا نرجو السيد فولند أن يتفضَّل!».

بعد أن فرغ بينغالسكي من هذا اللغو شبك كفًا بكف ولوح بهما محييًا من شق الستارة التي أخذت تحفّ حفيفًا خافتًا وتنفرج شيئًا فشيئًا.

أثار ظهور الساحر مع مساعده الطويل والقط الماشي على قائمتيه الخلفتين إعجاب الجمهور الشديد.

- «إليَّ بأريكة»، أمر فولند بصوت خفيض، وفي اللحظة نفسها ظهرت على المسرح، لا تدري من أين وكيف، أريكة وثيرة جلس فيها الساحر، «قل لي يا عزيزي فاغوت»، توجَّه فولند بالسؤال إلى المهرِّج ذي المربعات الذي كان يحمل، على ما يظهر، اسمًا آخر غير اسم كوروفييف، «ألا ترى معي أن سكان موسكو تغيروا تغيرًا كبيرًا؟».

وتطلَّع الساحر على الجمهور الساكن، المبهوت بظهور الأريكة من الهواء.

أجابه فاغوت كوروفييف بصوت خافت: - «كما تقول بالضبط يا سيدي».

- «أنت على حق، أهل المدينة تغيروا تغيرًا كبيرًا، أقصد ظاهريًا كما المدينة نفسها بالمناسبة. اللباس؛ هذا شيء مفروغ منه، إنما ظهرت هذه... كيف يسمونها؟... هذه الترامات والسيارات...».

قال فاغوت يسعفه باحترام: - «الباصات».

كان الجمهور يصغي إلى هذا الحديث بكل جوارحه حاسبًا أنه مقدمة لشعوذات الساحر. وكانت الكواليس غاصَّة بالفنانين وبالعاملين في المسرح. وبين الوجوه كان وجه ريمسكي الشاحب، المتوتِّر.

بدأت هيئة بينغالسكي الذي انزوى جانب خشبة المسرح تشي بالحيرة. فرفع حاجبيه قليلًا وقال مستغلًا توقُّف الساحر:

- «يريد الفنان الأجنبي الإعراب عن إعجابه بموسكو التي تطوَّرت من الناحية التقنية وبالمسكوفيين أيضًا»، وهنا ابتسم بينغالسكي ابتسامتين: للصالة أولًا ثم للشرفات.

استدار فولند وفاغوت والقط برؤوسهم نحو مقدِّم البرنامج.

سأل الساحرُ فاغوت: - «هل أعربتُ عن إعجابي حقًا؟».

أجابه فاغوت: - «أبدًا، يا سيدي، إنك لم تعرب عن أي إعجاب».

- «فما الذي يقوله هذا الإنسان إذن؟».

- «بكل بساطة، يكذب!»، قال المساعد ذو المربعات بصوت عالٍ دوَّى في القاعة كلها، ثم التفت إلى بينغالسكي وأضاف: «أهنئك أيها المواطن بمناسبة الكذب».

اهتزت الشرفات بالضحكات، أما بينغالسكي فقد ارتعدت فرائصه وجحظت عيناه.

- «أما أنا فلا تهمني، بطبيعة الحال، الباصات والهواتف وغيرها من...».

- «الأجهزة والمعدات!». قال ذو المربعات مسعفًا

- «بالضبط، شكرًا»، قال الساحر بصوت عميق، ثقيل وبطيء، «بقدر ما تهمني مسالة أخرى أهم: هل تغيَّر أهل المدينة هؤلاء داخليًا؟».

- نعم، هذا هو السؤال الأهم يا سيدي.

أخذ الناس في الكواليس يتبادلون النظرات ويهزّون أكتافهم، بينما اكتسى وجه بينغالسكي بالحمرة وريمسكي بالصُفرة. وكأنما شعر الساحر بالقلق والاضطراب اللذين بدءا يتسرَّبان إلى نفوس المشاهدين فقال:

- «لقد استرسلنا في الحديث يا فاغوت العزيز، وبدأ الجمهور يمل. أرنا كبداية شيئًا ما بسيطًا».

وسَرَت في الحاضرين حركة ارتياح. تفرَّق فاغوت والقط وتوجَّه كل منهما إلى أحد جانبي الأنوار الأمامية ثم فرقع فاغوت أصابعه وصاح بصوت مرنان مرح:

- «ثلاثة، أربعة»، والتقط من الهواء دستة أوراق وخلطها، ودفعها إلى القط على شكل شريط. التقط القط الشريط وأعاده. نخرت الأفعى الملساء وفتح فاغوت فمه كفرخ عصفور وابتلعه كله ورقة ورقة.

بعد هذا خفق القط قائمته الخلفية اليمنى، وانحنى محييًا مما أثار عاصفة هائلة من التصفيق.

وتعالت صيحات الإعجاب من خلف الكواليس:

- «رائع. رائع!».

أما فاغوت فصوَّب إصبعه باتجاه الصالة وأعلن:

- «الدستة الآن. أيها المواطنون المحترمون، في الصف السابع مع المواطن بارتشيفسكي، وبالضبط بين ورقة نقدية من فئة الثلاثة روبلات ورقعة دعوته إلى المحكمة في قضية دفع نفقة للمواطنة زيلكوفا».

تململ النظارة في الصالة وبدأ بعضهم ينهض، وأخيرًا أخرج مواطن محمرّ الوجه من الدهشة اسمه بالضبط بارتشيفسكي الدستة من محفظته ورفعها في الهواء وهو لا يدري ما يفعل بها.

- «دعها معك للذكرى!»، صاح فاغوت، «ليس عبثًا ما قلته البارحة وأنت على العشاء من أنه لولا البوكر لكانت حياتك في موسكو لا تطاق».

وسمع صوت في الشرفة يقول:

- «لعبة قديمة، ذاك الذي في الصالة من الفريق نفسه».

- «أتعتقد ذلك؟»، هدر فاغوت وهو يزر عينيه باتجاه الشرفة، «إذن أنت واحد من عصابتنا لأن الدستة في جيبك!».

حدث في الشرفة لغط واضطراب ثم سمع صوت فرح يقول:

- «صحيح! معه! هنا، هنا... قف! لكنها تشيرفونتسات».[1]

التفت الجالسون في الصالة، فقد وجد رجل في الشرفة تبدو عليه أمارات الارتباك

---

(1) تشيرفونوتس: عملة من فئة العشرة روبلات. المترجم.

الشديد رزمة في جيبه. وكانت الرزمة مربوطة على نحو ما تُربط في المصارف، وقد كُتب على غلافها «ألف روبل فقط».

وتكدَّس جيرانه حوله بينما كان ينقِّب الغلاف بظفره مشدوهًا لعله يتبيَّن ما إذا كانت الأوراق المالية حقيقية أو سحرية.

صاح بعضهم من الشرفة بأصوات جذلى: - «أي والله حقيقية! التشيرفونتسات!».

طلب بدين جالس في منتصف الصالة بصوت مرح: - «العبوا لعبة الورق هذه معي أنا أيضًا».

ردَّ عليه فاغوت: - «Avec plaisir[1]! ولكن لماذا معك وحدك؟ الجميع سيشاركون في اللعبة بحماسة!». وأمر قائلًا: «أرجو أن تنظروا إلى أعلى!... واحد!».

وظهر في يده مسدس. وصاح: - «اثنان!»، فصوَّب المسدس إلى أعلى. ثم دوَّى صوت. وعلى الفور أخذت تتساقط من تحت القبة على الصالة أوراق بيض صغيرة وهي تغوص بين الأراجيح.

كانت الأوراق تدور وتنقلب متناثرة بعضها محمولًا إلى الشرفات وبعضها مرتدًا على الأوركسترا وخشبة المسرح. وفي ثوانٍ بلغ هذا المطر النقدي الذي كان يزداد شدة المقاعد وأخذ المشاهدون يلتقطون الأوراق.

ارتفعت مئات الأيدي وأخذ النظارة يتطلَّعون من خلال الأوراق المتساقطة إلى خشبة المسرح المضاءة ليروا علامات أكيدة وصحيحة، والرائحة أيضًا لم تترك في نفوسهم موضعًا لأي شك: كانت تلك رائحة الأوراق المالية المطبوعة حديثًا، تلك الرائحة التي لا تضاهيها في طيبها أي رائحة. وتملَّكت البهجة فالدهشة المسرح كله. كانت تدوِّي في أرجاء المسرح كلها كلمة «تشيرفونتسات، تشيرفونتسات»، وتنطلق صيحات «آه، آه!» وضحكات مرحة. بل أخذ بعضهم يزحف بين الصفوف باحثًا عن الأوراق تحت المقاعد وبعضهم انتصب على المقاعد يلتقط الأوراق الشديدة الحركة والتقلُّب.

وشيئًا فشيئًا أخذت الحيرة ترتسم على وجوه رجال الشرطة بينما أخذ الفنانون يبرزون من وراء الكواليس دون أي كلفة.

وسُمع في الشرفة صوت يقول: «لماذا تلتقطها! إنها لي! كانت تطير إليَّ!». ويرد عليه آخر: «لا تدفع هكذا! وإلا أريتك!». وسُمع فجأة صوت صفعة. وللحال ظهرت في الشرفة خوذة شرطي وسيق أحدهم خارج الشرفة.

(1) بالفرنسية: بكل سرور. المترجم.

وعلى العموم كان الهيجان يتعاظم، والله أعلم إلى ما كان سينتهي لو لم يُوقف فاغوت هذا المطر النقدي بنفخه مباغته في الهواء.

تبادل شابان نظرة مرحة ذات معنى، ونهضا من مقعديهما واتجها إلى البوفية مباشرة. كان الضجيج يملأ المسرح وكانت عيون النظّارة كلها تلمع من فرط الإثارة. نعم. نعم. لا أحد يعرف كيف كان سينتهي هذا كله لو لم يجد بينغالسكي في نفسه القوة ليتحرَّك. فقد فرك يديه على عادته، وهو يحاول أن يتمالك نفسه أشد ما يمكنه وقال بأقصى ما في صوته من قوة:

- «ها نحن أولاء أيها المواطنون، قد رأينا معًا حالة من حالات ما يسمَّى بالتنويم المغناطيسي الجماعي. وهي تجربة علمية خالصة تقدِّم أفضل برهان على أنه ليس هناك أي أعجوبة أو سحر. فتعالوا نسأل المايسترو فولند كشف سر هذه التجربة. وسترون الآن، أيها المواطنون، كيف ستختفي هذه الأوراق النقدية - كما يُخيل لنا - بغتة كما ظهرت».

ورفع يديه مصفِّقًا، لكنه لم يصفِّق إلا وحده فقط وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة واثقة. لكن عينيه لم تكونا تعكسان هذه الثقة إطلاقًا، بل رجاءً وتوسلًا.

ولم تعجب كلمة بينغالسكي الجمهور فران صمت عميق قطعه بعد حين فاغوت ذو المربعات معلنًا بصوت عال حاد كصوت الجدي:

- «وهذه، مرة أخرى، حالة من حالات ما يسمَّى الكذب. الأوراق حقيقية أيها المواطنون!».

صاح صوت عميق متقطِّع من مكان ما في الأعلى: - «برافو!».

قال فاغوت مشيرًا إلى بينغالسكي: - «وبالمناسبة هذا الشخص، يزعجني. إنه يتململ ويحشر نفسه في ما لا يعنيه، ويفسد حفلتنا بملاحظاته الكاذبة! فماذا نفعل به؟».

قال أحدهم من الشرفة بصوت صارم: - «نقطع رأسه!».

قال فاغوت يرد على هذا الاقتراح البشع: - «ماذا قلت؟ آ؟ نقطع رأسه؟ فكرة! بيغيموت!»، صاح فاغوت بالقط: - «افعل! eins zwei drei!».

وهنا حدث شيء لم يُسمع بمثله. فقد انتصب الشعر على جلد القط الأسود الذي ماء بصوت يمزِّق الآذان، وتجمَّع على نفسه، وانقض كالفهد على صدر بينغالسكي مباشرة، ثم وثب إلى رأسه فتشبَّث بشعر رأسه الخفيف بقوائمه المنتفخة وهو يهر، ثم مال به مرتين مطلقًا عواء وحشيًا ونزع رأسه عن رقبته الممتلئة.

صاح الألفان والخمسمائة شخص الموجودون في المسرح صيحة رجل واحد. فقد تدفّق الدم من الشرايين المقطّعة إلى الأعلى كأنه نافورة وغطى الصدرة والفراك. وتحسَّست قدما الجسد المقطوع الرأس الأرضَ بحركات خرقاء ثم انهار ساقطًا.

وأطلقت النساء في القاعة صيحات هستيرية. وناول القطُّ فاغوتَ الرأسَ، فأمسكه هذا من شعره ورفعه وعرضه على الجمهور. وصاح الرأس بصوت يائس دوّى في أرجاء المسرح كله:

- «الطبيب!».

سأل فاغوت الرأس الباكي بصوت متوعِّد: - «هل ستستمر في هرائك؟».

أجابه الرأس بصوت أجشّ: - «لا، لن أفعل!».

دوّى فجأة من الشرفة صوت نسائي غطّى اللغط في الصالة: - «لا تعذِّبه بحق الله!». والتفت الساحر إلى مصدر الصوت.

قال فاغوت موجهًا سؤاله إلى الصالة: - «ماذا، أيها المواطنون؟ هل نعفو عنه؟».

- «نعفو! نعفو!». تردَّدت في أول الأمر أصوات متفرِّقة معظمها نسائي ثم ذابت كلها في جوقة واحدة مع الأصوات الرجالية.

سأل فاغوت الرجل المقنَّع: - «ماذا تأمر يا سيدي؟».

رد هذا بلهجة الخارج من تفكير عميق: - «ما العمل، بشر كغيرهم. يحبُّون المال، وحب المال كان دائمًا في الناس... الناس يحبُّون المال من أي مادة صُنع سواء كانت جلدًا أو ورقًا أم برونزًا أو ذهبًا. يا لهم من خفاف العقول... لكن ما العمل... حتى الرحمة تطرق أحيانًا أبواب قلوبهم... أناس عاديون... وعلى العموم يذكِّرون بسابقيهم... إلا أن مسألة الشقق أفسدتهم...». ثم أمر بصوت عالٍ: «ركِّبوا الرأس».

تناول القط الرأس وسدَّد إلى الرقبة نظرة متأنية متفحِّصة ووضع الرأس عليها، فاستوى هذا في مكانه تمامًا وكأنه لم يغادره إطلاقًا. والأهم أنه لم يبقَ أي أثر لندبة على الرقبة. ثم نفض القط بقائمتيه فراك بينغالسكي وصدرته فاختفت منها آثار الدم. أما فاغوت فأنهض بينغالسكي الذي كان جالسًا ودسَّ له في جيبه رزمة تشيرفونتسات وشيَّعه إلى خارج الخشبة قائلًا:

- «أغربْ من هنا! الحفلة من دونك أمتع».

مشى بينغالسكي بخطوات ثقيلة وهو يترنَّح ويتلفَّت حوله بنظرات بلهاء حتى مركز الإطفاء فقط. وهناك ساءت حاله فصاح يشكو:

- «رأسي، يا رأسي!».

وكان ريمسكي من بين الذين هرعوا إلى عرِّيف الحفلة الذي كان يبكي ويحاول إمساك شيء ما في الهواء بيديه ويغمغم: - «أعيدوا رأسي! أعيدوا رأسي! خذوا الشقة، خذوا اللوحات، لكن أعيدوا لي رأسي فقط».

وفيما أسرع الساعي يستدعي الطبيب، حاول الآخرون تمديد بينغالسكي على الديوان الذي في غرفة الزينة، لكنه أخذ يمانع ويشاكس وهو في حالة من الهيجان الشديد مما اضطرهم لاستدعاء عربة إسعاف. وعاد ريمسكي مسرعًا إلى الخشبة، بعد أن حملت العربة عرِّيف الحفلة المسكين، فرأى عجائب جديدة تجري عليها، وبالمناسبة، في هذا الوقت بالذات أو قبله بقليل كان الساحر قد اختفى مع مقعده الباهت اللون من خشبة المسرح تمامًا. ويجدر بنا القول أن الجمهور المأخوذ بالخوارق، التي كان يعرضها عليه فاغوت، لم يلاحظ اختفاء الساحر إطلاقًا.

وأعلن فاغوت بعد أن أخلى الخشبة من عرِّيف الحفل المصاب:

- «الآن وبعد أن رحّلنا هذا المزعج الكئيب تعالوا نفتح محلًا نسائيًا!».

وللحال غُطيت خشبة المسرح بسجادات عجمية وانتصبت مرايا ضخمة منارة من جوانبها بقصائب مائلة إلى الخضرة، وبين المرايا واجهات رأى فيها المشاهدون وقد تملّكهم انبهار بهيج فساتين نسائية باريسية من مختلف الألوان والطرازات، ووجهات أخرى ظهرت فيها مئات القبعات النسائية بريش ودون ريش، ببُكلٍ ودون بُكل، مئات من الأحذية؛ سود وبيض وصُفْر، جلدية ومن الحرير الصناعي ومَن الشاموا، بسيور وبحجارة صغيرة. وبين الأحذية بانت علب تلألأت فيها حوافي قوارير من الكريستال. وأكوام من الحقائب النسائية من جلد الظباء والغزلان ومن الحرير وبينها أكداس علب صغيرة مستطيلة مذهَّبة جميلة الصنع من تلك التي يُوضع فيها أحمر الشفاه.

والشيطان أدرى من أين ظهرت على خشبة المسرح فتاة صهباء الشعر في ثوب سهرة أسود. فتاة كل ما فيها جميل لولا تلك الندبة الغريبة الشكل على عنقها، ووقفت قرب الواجهات وهي تبتسم ابتسامة صاحبة محل.

وأعلن فاغوت بابتسامة عذبة أن الشركة تجري، بالمجّان تمامًا، استبدال الأثواب والأحذية النسائية القديمة بموديلات باريسية للأثواب والأحذية. وكذلك الأمر بالنسبة للجزادين والعطور وما إلى ذلك.

أخذ القط يخفق بقائمته الخلفية وبالأمامية ويؤدِّي حركات كتلك التي يقوم بها البوَّابون لدى فتحهم الأبواب.

وصدحت الفتاة تلثغ بصوت عذب وإن يكن مشوبًا ببعض بحة بشيء ما عسير الفهم إلى حدٍّ ما، لكنه مغرٍ كما تجلى على الوجوه النسائية في الصالة:

- «غيرلان، شانيل خمسة، ميتسوكو، ترسيس نوار، أثواب سهرة، أثواب كوكتيل...».

كان فاغوت يميل على جنبيه والقط ينحني والفتاة تفتح الواجهات الزجاجية.

صاح القط: - «تفضَّلوا، تفضلوا دون أي كلفة أو حَرَج!».

كان الجمهور في حالة من الاضطراب والإثارة، لكن أحدًا لمَّا يحزم أمره على الصعود إلى الخشبة. وأخيرًا نهضت امرأة سمراء من الصف العاشر في الصالة وجازت وهي تبتسم ابتسامة من يريد أن يقول للحاضرين أن الأمر بالنسبة إليها سيان وأنها لا تبالي بما يدور حولها، وصعدت على مرقأة جانبية إلى الخشبة.

هتف فاغوت: - «برافو! أحيِّي أولى زائراتنا! أريكة يا بيغيموت! لنبدأ بالحذاء يا مدام».

جلست السمراء على الأريكة، وللحال أفرغ فاغوت على السجادة أمامها كومة كاملة من الأحذية. نزعت السمراء حذاء رجلها اليمنى، وقاست حذاءً ليلكي اللون ودبَّت به على السجادة وتأمَّلت كعبه.

تساءلت في انشغال بال: - «ألن يضايقني؟».

ورد فاغوت على تساؤلها بصيحة استياء:

- «ماذا تقولين، ماذا تقولين!»، بينما ماء القط من الإهانة.

- «سآخذ هذا الزوج يا مسيو»، قالت السمراء بوقار وهي تلبس الحذاء الثاني.

أُلقي حذاء السمراء القديم وراء الستارة حيث مضت برفقة الفتاة الصهباء وفاغوت الذي كان يحمل بعض الموديلات على علَّاقات. وكان القط يسعى بينهم وقد علَّق مترًا على عنقه لاصطناع المزيد من الأهمية.

وبعد دقيقة ظهرت السمراء من خلف الستارة في ثوب ندت له التنهّدات في كل الصالة، ووقفت المرأة الشجاعة التي بلغت في جمالها حدَّ الروعة أمام المرآة، وهزَّت كتفيها المكشوفتين، ومسحت بأصابعها الشعر المنسدل على رقبتها، واستدارت محاولة إلقاء نظرة خلف ظهرها.

- «ترجو الشركة قبول هذه للذكرى»، قال فاغوت وناول السمراء علبة مفتوحة فيها قارورة.

- «ميرسي»، أجابت السمراء بغطرسة ومضت تهبط المرقاة إلى الصالة، وعلى طول طريقها إلى مقعدها كان المشاهدون يهبُّون ويمدون أيديهم للمس العلبة.

وهنا أفلت الزمام، فاندفعت النساء من كل حدب وصوب إلى الخشبة. وسُمع في زحمة الأصوات المثارة والضحكات والتنهدات صوت رجل يقول: «لا أسمح لكِ!». وصوت امرأة يرد: «مستبد، برجوازي متخلِّف، لا تلوِ يدي!». كانت النساء يغبن خلف الستارة ويتركن هناك أثوابهن ثم يعدن في أثواب جديدة. وعلى المقاعد ذات القوائم المذهَّبة جلس صف من السيدات يضربن السجادة بأقدامهن المنتعلة الأحذية الجديدة بحماسة. كان فاغوت واقفًا على ركبتيه يساعد النساء في إدخال أقدامهن في الأحذية الجديدة، والقط يروح ويجيء بتثاقل بين الواجهات والمقاعد وهو يموء تحت أكوام الجزادين والأحذية، أما الفتاة ذات العنق المشوَّه فكانت تظهر تارة وتختفي تارة أخرى وانتهى بها الأمر إلى أن صارت ترطن بالفرنسية وحدها. والغريب أن النساء كلهن حتى اللواتي لا يعرفن كلمة واحدة بالفرنسية كن يفهمنها «على الطاير».

وأثار دهشة الجميع رجل حشر نفسه بين جمهور النساء على خشبة المسرح. فقد أعلن أن زوجته مصابة بالأنفلونزا، ولهذا فهو يرجو أن يعطوه شيئًا ما لها، وأنه على استعداد لإبراز بطاقته العائلية برهانًا على أنه متزوِّج. وقُوبل إعلان الزوج العطوف المهتم بالقهقهة، لكنْ فاغوت صاح بصوت عالٍ أنه يصدِّقه كما يصدِّق نفسه دونما حاجة إلى بطاقة وسلَّمه زوجين من الجوارب الحريرية وتبرَّع القط بقلم من أحمر الشفاه.

كانت النساء المتخلِّفات يندفعن إلى خشبة المسرح، ومن خشبة المشرح كان يتدفَّق سيل المحظوظات وهنَّ في ثياب السهرات الراقصة وفي جاكيتات موشَّاة برسم تنين، وملابس زيارة صارمة اللون وقبّعات مائلة على الحاجب.

إذَّاك أعلن فاغوت أنه نظرًا لتأخُّر الوقت فإن المحلّ سيغلق بعد دقيقة بالضبط حتى مساء اليوم التالي فاستعرت على الخشبة جلبة لا تُصدَّق، فالنساء رحنَ يتخاطفن الأحذية دون قياس. وإحداهن اندفعت كالعاصفة إلى وراء الستارة وخلعت رداءها على عجل وأخذت أول ما وقعت يدها عليه وكان روب دي شامبر حريريًا عليه طاقات كبيرة من الورد. وتمكَّنت، بالإضافة إلى ذلك، من التقاط زجاجتي عطر.

وبعد دقيقة تمامًا دوَّت طلقة مسدس فاختفت المرايا وغارت الواجهات والمقاعد، وذابت السجادة كما الستارة في الهواء. وكان الجبل الشاهق من الألبسة والأحذية القديمة آخر ما اختفى، عادت بعده خشبة المسرح صارمة فارغة وعارية.

وهنا تدخَّل شخص جديد في الأمر.

فقد سُمع من اللوج رقم 2 صوت جهوري لطيف ورخيم يقول بإلحاح:

- «ومع هذا حبَّذا لو كشفت للمشاهدين على الفور تقنية خزعبلاتك، أيها المواطن الفنّان، وعلى الأخص لعبة الأوراق النقدية هذه. وحبَّذا أيضًا لو أعدت عرِّيف الحفلة إلى خشبة المسرح فمصيره يقلق المشاهدين».

ولم يكن الصوت الجهوري سوى صوت ضيف الشرف في أمسية اليوم، رئيس لجنة السمعيات في مسارح موسكو أركادي أبولونوفتش سمبلياروف.

كان يجلس في اللوج مع سيدتين: أولاهما متقدِّمة في السن ترتدي ملابس غالية وثانيهما صبية غضَّة بملابس أكثر تواضعًا، كانت الأولى، كما تبيَّن بعد ذلك لدى تسجيل المحضر، زوجة أركادي أبولونوفتش، والثانية قريبة بعيدة له وفنانة مبتدئة وواعدة قدمت من ساراتوف وتعيش في شقة أركادي أبولونوفتش وزوجته.

أجابه فاغوت: - «Pardon العفو!، ليس هنا ما يحتاج إلى كشف أو فضح، فكل شيء واضح».

- «لا، آسف. الفضح هنا ضروري للغاية، وإلا تركت الفقرات الممتازة التي قدَّمتوها انطباعًا مضنيًا في النفوس. إن جمهور المشاهدين يطالب بالتوضيح».

وقاطع المهرِّج الوقح سبلياروف قائلًا:

- «جمهور المشاهدين لم يعرب، فيما يبدو، عن رغبة من هذا القبيل، أليس كذلك؟ ومع هذا ونزولًا عند رغبتك الكريمة جدًا يا أركادي أبولونوفتش سأقوم بالكشف عن سرها وفضحه، إنما هل تسمح لي قبل هذا بفقرة قصيرة جدًا؟».

أجابه أركادي أبولونوفتش بنبرة رعاية: - «ولم لا، لكن مع فضحها حتمًا!».

- «سمعًا وطاعة، سمعًا وطاعة. وهكذا اسمح لي أن أسألك: أين كنت البارحة مساء يا أركادي أبولونوفتش؟».

لدى سماع أركادي أبولونوفتش هذا السؤال غير اللائق أو، إذا شئت، هذا السؤال الفظّ تغيَّرت ملامح وجهه، بل تغيَّرت تغيرًا شديدًا.

أعلنت زوجة أركادي أبولونوفتش بكثير من الغطرسة: - «البارحة مساء كان أركادي أبولونوفتش في اجتماع لجنة السمعيات، لكني لا أفهم ما علاقة هذا بالسحر».

قال فاغوت مثنيًا على قولها: - «أي، مدام، طبعًا لا تفهمين. بخصوص الاجتماع أنتِ على ضلال. وضلال مبين بعد أن ذهب أركادي أبولونوفتش إلى الاجتماع المذكور الذي لم يُعيَّن البارحة أصلًا إذا أردتِ الحقيقة، صرف سائقه عند مبنى لجنة السمعيات في تشيستبي برودي (وهنا ران على المسرح الصمت والسكون) وذهب بمفرده إلى شارع إيلوخافسكايا لزيارة ميليتسا أندرييفنا بوكوباتكو، الفنانة التي تعمل في المسرح الجوَّال التابع للمنطقة وأمضى عندها نحو أربع ساعات».

- «أوي»، صاح شخص ما بصوت موجوع في الصمت المخيم.

وفجأة انفجرت قريبة أركادي أبولونوفتش الشابة في ضحكة خافتة ومخيفة، وصاحت:

- «كل شيء مفهوم! أنا أيضًا كنت أشك في الأمر من فترة طويلة. الآن أدركت لماذا حصلت هذه المرأة العديمة الموهبة على دور لويزا!».

وبغتة لوَّحت بشمسيتها الليلكية القصيرة والغليظة وهوت بها على رأس أركادي أبولونوفتش.

وصاح السافل فاغوت الذي هو كوروفييف:

- «إليكم، أيها المواطنون المبجَّلون، واحدة من حالات الفضح التي طالما ألح أركادي أبولونوفتش علينا بها!».

- «كيف تجرَّأت، أيتها اللئيمة، على مد يدك إلى أركادي أبولونوفتش؟»، سألتها زوجة أركادي أبولونوفتش غاضبة متوعِّدة وهي تنتصب في اللوج بملء قامتها العملاقة.

وهزَّت موجة ثانية قصيرة من الضحك الجهنمي القريبة الشابة.

أجابت مقهقهة: - «قد لا يجرؤ غيري، أما أنا فأجرؤ!»، وللمرة الثانية ندت عن الشمسية المرتدة عن رأس أركادي أبولونوفتش فرقعة جافة.

- «نادوا الشرطة! ليأخذوها!»، صرخت زوجة سمبلياروف بصوت مخيف تجمَّدت له أوصال الكثيرين.

وزاد القط على ذلك فقفز إلى مقدمة الخشبة وصاح فجأة بصوت إنساني ملأ المسرح:

- «انتهت الحفلة! أيها المايسترو! قَطِّع مارشًا!!».

لوَّح قائد الأوركسترا الذي فقد عقله بعصاه وهو لا يعي ما يفعل. ولم تصدح الأوركسترا، بل لم تدوِ، بل حتى لم تضجّ، إنما قطَّعت بالضبط، على حدِّ تعبير القط الكريه، مارشًا غير معقول، لا يضاهيه شيء في جلافته.

وخُيل للحظة أنه تردَّدت في وقت ما تحت نجوم الجنوب وفي مقهى رخيص كلمات هذا المارش الغامضة نصف العمياء إنما الجريئة:

كان سيادته

يحب الطيور المغرّدة

ويبسط رعايته

على الكواعب المتغنِّجة.

ولعل هذه الكلمات لم تتردَّد أبدًا، بل تردَّدت أخرى باللحن نفسه لكنها غير لائقة بتاتًا. المهم ليس هذا، بل إن ما حدث في «فارييتيه» بعد ذلك كان أشبه ببلبلة بابل. فقد هُرع رجال الشرطة إلى لوج سمبلياروف، وقفز الفضوليون فوق الحاجز وانفجرت ضحكات جهنمية وصيحات مسعورة خفّفت من حدتها رنين صنوج الأوركسترا الذهبي.

ورأى الناس بأم العين أن خشبة المسرح خلت بغتة وأن الغشَّاش فاغوت والقط الوقح بيغميوت ذابا في الهواء واختفيا كما اختفى من قبلهما الساحر مع أريكته ذات الغلاف الباهت اللون.

# الفصل الثالث عشر

## ظهور البطل

وهكذا أومأ المجهول بإصبعه إلى إيفان وهمس: «هس!».

أنزل إيفان قدميه عن السرير وحدَّق في ما حوله، فرأى شخصًا في نحو الثامنة والثلاثين من العمر، حليقًا، أسود الشعر، ذا أنف حاد وعينين قلقتين وخصلة شعر متدلية على جبينه يتطلّع من الشرفة إلى النافذة.

وبعد أن أصاخ الزائر الغامض السمع وتأكَّد من وجود إيفان وحده تجرَّأ ودخل الغرفة. وهنا رأى إيفان أن القادم يرتدي ثياب المستشفى: ملابس داخلية وخفًا دسَّ فيه قدميه الحافيتين وجبَّة داكنه مشلوحة على الكتفين.

غمز القادم إيفان وأخفى رزمة مفاتيح في جيبه وسأل همسًا إن كان بإمكانه الجلوس، وبعد أن تلقَّى إيماءة بالإيجاب جلسٍ على الأريكة.

همس إيفان منصاعًا للسبَّابة اليابسة المحذِّرة: - «كيف أتيت إلى هنا؟، أليست شبكات الشرفات مغلقة بالأقفال؟».

قال الضيف مثنيًا: - «الشرفات مغلقة بالأقفال طبعًا، إن برسكوفات فيودوروفنا إنسانة لطيفة جدًا لكنها كثيرة السهو. من شهر خُطفت منها رزمة مفاتيح، وعلى هذا صار بإمكاني الخروج إلى الشرفة العامة الملتفَّة حول الطابق كله وبالتالي زيارة جيراني أحيانًا».

قال إيفان مستفسرًا: - «بما أنك تستطيع الخروج إلى الشرفة فبإمكانك أن تهرب، أم أن الشرفة مرتفعة؟».

أجابه الضيف بحزم: - «لا، لا أستطيع الهرب، ليس لأن الشرفة مرتفعة، بل لأنه ليس لي مكان أهرب إليه»، وأردف بعد وقفة قصيرة. - «إذن نحن راقدون هنا؟».

- «نعم، راقدون»، أجابه إيفان وهو يتفرّس في عيني القادم البندقيتي اللون المليئتين بالقلق والجزع.

- «لكن...»، وهنا ازداد قلق الضيف فجأة، «لكنك لست من الهائجين كما آمل؟ فأنا، إذا شئت، ممن لا يحبون الضوضاء والجلبة والعنف وما إلى ذلك. وأكره خاصة الصراخ، سواء صراخ الألم أو الغضب أو أي صراخ آخر. طمئني، هل أنت من أولئك؟».

أجابه الشاعر المتغيّر الشخصية برجولة: - «البارحة في المطعم ضربت أحدهم على سحنته»،

سأل بصوت صارم: - «والسبب؟».

أجاب إيفان مرتبكًا: - «إذا شئت الحقيقة، دون أي سبب».

- «هذا شيء شائن»، قال الضيف يدين إيفان، وأردف: «ثم ما هذه الطريقة في التعبير: ضربته على سحنته؟ فنحن لا نعرف بالضبط ما الذي للإنسان: أهو وجه أم سحنة. ومع هذا فالأرجح أنه وجه. ثم القبضات هذه... لا دعك من هذا مرّة وإلى الأبد».

وبعد أن أنّب الضيف الشاعر على هذا النحو سأله مستفسرًا:

- «مهنتك؟».

ولأمر ما أجابه إيفان معترفًا بفتور:

- «شاعر».

تكدّر وجه القادم وصاح:

- «أوه، ما أتعس حظي!»، لكنه استدرك على الفور معتذرًا وسأله: - «كنيتك؟».

- «بيزدومني».

قال الضيف وهو يقطّب حاجبيه: - «إيه، إيه...».

سأله إيفان بفضول: - «ألا تعجبك أشعاري؟».

- «بشكل ما».

- «وأيها قرأت؟».

صاح الزائر بعصبية: - «لم أقرأ بيتًا منها!».

- «وكيف حكمت إذن؟».

أجابه الضيف: - «وما الغريب في الأمر؟، كأني لم أقرأ غيرها؟... لربما معجزة؟ حسنًا. أنا على استعداد لأن أصدّق ما تقوله لي: هل أشعارك جيدة؟».

قال إيفان فجأة بشجاعة وصراحة: - «مريعة!».

توسَّل القادم إليه ضارعًا: - «كفَّ عن الكتابة!».

- «أعدك وأقسم على هذا»، نطق إيفان هذه الكلمات بصوت مهيب.

ووثَّقا القَسَم بمصافحة. وهنا تناهت إليهما من الممر أصوات وخطوات خفيفة.

- «شش»، همس الضيف وقفز إلى الشرفة وأغلق الشبك وراءه.

مدَّت برسكوفيا فيودوروفنا رأسها من الباب، وسألت إيفان عن حاله، وعمَّا إذا كان يرغب في النوم في الظلمة أم في الضوء. طلب إيفان إليها أن تترك النور مضاء، فمضت بعد أن تمنَّت له ليلة هادئة. ولما هدأ كل شيء عاد الضيف إلى إيفان.

وأخبر الضيفُ إيفان همسًا أنهم أتوا إلى الغرفة رقم 119 برجل بدين ذي وجه أحمر يغمغم طوال الوقت بكلام عن عملة أجنبية في كوَّة التهوية ويقسم أنه نزلت شارعهم «سادوفايا» قوى شريرة.

وتابع الضيف وهو يرتعش قلقًا:

- «...وهو يشتم بوشكين بأقذع الشتائم ويصرخ طول الوقت: كوراليسوف، مرة أخرى، مرة أخرى!».

وبعد أن هدأ روْع الضيف، جلس وقال:

- «على كل حال، الله يعينه»، ثم توجَّه إلى إيفان مستأنفًا حديثه: «ما الذي أوصلك إلى هنا إذن؟».

- «بيلاطس البنطي»، أجابه إيفان وهو يطرق إلى الأرض عابسًا.

- «كيف؟»، صرخ الضيف وقد نسيَ الحيطة والحذر، وللحال سدَّ فمه بيده، «توافق مذهل! أتوسَّل إليك، أتضرَّع إليك أن تخبرني!».

ولم يدرِ إيفان ما الذي يدفعه إلى الاطمئنان إلى هذا الرجل المجهول والثقة فيه، فأخذ يرويَ له متلعثمًا ووجلًا أول الأمر، ثم بمزيد من الجرأة روى قصته بالأمس في بتريرشيي برودي. نعم لقد وجد إيفان نيقولايفتش في شخص سارق المفاتيح الغامض هذا مستمعًا شَكوراً! لم يضعه الضيف في مصاف المجانين، بل كان يبدي أعظم الاهتمام بما يرويه له، وبقدر ما كان إيفان يسترسل في روايته كان انفعال الضيف يشتد حتى بلغ أخيرًا حدَّ الحماسة، فأخذ يقاطع إيفان بين الفترة والأخرى بهتافات الدهشة والعجب:

- «أي، أي! تابع، تابع أتوسَّل إليك. لا تغفل شيئًا بحق كل ما هو مقدَّس!».

لكن إيفان لم يكن يغفل شيئًا. فقد كان هو نفسه يشعر بارتياح متزايد كلما أمعن في الحديث، وأخيرًا وصل شيئًا فشيئًا إلى لحظة خروج بيلاطس البنطي إلى الشرفة ببردته البيضاء، ذات البطانة الحمراء القانية.

إذّاك ضم الضيف يديه ضارعًا وهمس:

- «أوه، كما خمَّنتُ! أوه، كل شيء كما خمَّنتُ!».

علَّق المستمع الشكور على وصف موت برليوز المريع بملاحظة ملغزة وعيناه تقدحان شررًا:

- «آسف لشيء واحد؛ إذ لم يكن الناقد لاتونسكي أو الأديب مستيسلاف لافروفتش مكان برليوز هذا»، وصاح وهو في ذروة الحماسة إنما بصوت مبحوح: «تابع!».

طَرِبَ الضيف لحكاية القط الذي دفع ثمن التذكرة للجابية وأغرق في ضحك خافت وهو ينظر إلى إيفان الذي أثاره نجاح قصته فأخذ يقرفص ويقفز قفزات خفيفة مقلِّدًا القط وهو يمسح شاربيه بالفكة.

وبعد أن روى له حادثة غريبوييدوف، أنهى إيفان كلامه قائلًا وقد لاح على وجهه التجهُّم والحزن:

- «وهكذا وجدت نفسي هنا!».

وضع الضيف يده على كتف الشاعر المسكين مشفِقًا وقال له:

- «يا للشاعر العاثر الحظ! لكني أقول لك مع هذا أنك المسؤول عن كل ما حصل يا عزيزي. ما كان عليك أن تعامله بهذا القدر من الجرأة أو حتى الوقاحة. وها أنت ذا دفعت الثمن. وعليك أن «تشكره» لأن الثمن كان بخسًا إلى حدٍّ ما».

سأل إيفان مثارًا وهو يهز قبضتيه: - «ولكن من يكون هذا الشخص أخيرًا؟».

تأمَّل الضيف إيفان مليًا ورد عليه بسؤال:

- «ألن تهتاج؟ نحن كلنا هنا أناس غير مأمونين... استدعاء الطبيب والحقن وغيرها... ألن يكون شيء من ذلك؟».

هتف إيفان: - «لن يكون، لن يكون! قل لي: من يكون؟».

- «حسنًا»، أجابه الضيف وأردف يقول له بصوت رزين مقطِّعًا الكلمات:

- «البارحة التقيتَ في بتريرشيي برودي بإبليس».

وكما وعد إيفان، لم يتهيَّج لكنه صُعق لهذا الجواب بشدة.

- «هذا مستحيل! إنه غير موجود».

- «العفو! قد يحق لغيرك أن يقول هذا، أما أنت فلا، فأنت واحد من أوائل الذين كابدوا بسببه على ما يظهر، إنك ترقد الآن في مستشفى الأمراض النفسية كما ترى، ومع هذا لا تزال تردِّد أنه غير موجود. شيء غريب حقًا».

صمت إيفان حائرًا.

وأردف الضيف يقول:

- «ما إن بدأت تصفه حتى أخذت أحزر الشخص الذي كانت لك سعادة التحدث إليه البارحة. والحقيقة أني أدهش لأمر برليوز! أنت إنسان غرّ طبعًا»، وهنا اعتذر الضيف من جديد، «لكن ذاك، بقدر ما سمعت عنه، لا بد أن يكون قرأ شيئًا! لقد بدَّدت الكلمات الأولى لهذا البروفيسور كل شكوكي. فمن المحال ألا يستطيع إنسان التعرُّف عليه! وعلى أي حال... اعذرني... أعذرني ثانية... أنت بالتأكيد إنسان جاهل أليس كذلك؟».

- «دون شك»، أجابه إيفان الذي تغيَّرت أخلاقه حتى لم يعد يُعرف.

- «أنظر... حتى الوجه الذي رسمته... والعينان المختلفتان والحاجبان! العفو، وبالمناسبة لعلك لم تسمع حتى أوبرا «فاوست»؟».

ولأمر ما بلغ الارتباك بإيفان حدًّا مرعبًا فأخذ يغمغم بوجه محمَرّ كلامًا عن سَفْرَةٍ إلى مصحة في يالطا...

- «هذا ما توقعته، هذا ما توقعته... وهو ليس بالشيء الغريب! أما برليوز فأعود لأقول إن أمره يدهشني! فهو ليس بالإنسان الواسع الإطلاع وحسب، بل إنه ماكر أشد المكر، وإن كان عليَّ أن اعترف دفاعًا عنه أن فولند يستطيع ذرَّ الرماد في عيون من هو أمكر من برليوز».

صاح إيفان بدوره: - «كيف؟!».

- «اخفِض صوتك».

لطم إيفان جبينه براحته وقال بصوت أجشّ:

- «الآن فهمت، الآن فهمت. كان حرف «ف» مكتوبًا على بطاقة الزيارة. أي - يا - يا، هكذا الأمر إذن!»، وصمت قليلًا في ذهول وهو يحدِّق في القمر السابح وراء القضبان ثم قال: «وعلى هذا كان بإمكانه أن يكون عند بيلاطس البنطي فعلًا؟ أو لم يكن مولودًا إذَّاك؟ ومع هذا يقولون إني مجنون!». أضاف إيفان وهو يومئ ساخطًا إلى الباب.

ارتسم على شفتَيْ الضيف تغضُّن يشي بالمرارة.

- «تعال ننظر إلى الحقيقة عارية»، وحوَّل الضيف وجهه إلى الكوكب الليلي الراكض بين الغيوم. - «أنا وأنت مجنونان، ولا حاجة إلى الإنكار! لقد هزَّك لقاؤه هزًّا عنيفًا فاضطرب عقلك لأنه كانت عندك التربة الصالحة كما هو واضح. أنما كل ما تقوله حدث فعلًا دون أي شك، لكنه غير مألوف حتى أن سترافنسكي نفسه، وهو عالم نفساني عبقري، لم يصدقك بطبيعة الحال. هل عاينك؟ (هز إيفان رأسه بالإيجاب). لقد كان محدثك عند بيلاطس البنطي وعلى الفطور عند كانط وها هو ذا الآن يزور موسكو».

- «لكن الشيطان أعلم بما سيقترفه هنا من أعمال شنيعه! ألا يجب القبض عليه بطريقة أو بأخرى؟». مع هذا فإن إيفان القديم، الذي لم يُهزم في إيفان الجديد تمامًا، رفع رأسه وإن لم يكن بثقة تامة.

رد عليه الضيف بسخرية: - «لقد حاولتَ ونالكَ منه ما نالك، ولا أنصح الآخرين بتكرار المحاولة. إنه سيقترف أشياء كثيرة، فلا شك في ذلك! آه، آه، كما ساءني أنك أنت الذي التقيت به لا أنا! ومع أن كل شيء انتهى بالنسبة لي، فإني أقسم لك أني على استعداد لأن أعيد رزمة مفاتيح برسكوفيا فيودوروفنا مقابل هذا اللقاء، إذ لا شيء لديَّ أعطيه سواها، فأنا فقير!».

- «ولماذا أنت بحاجة إليه؟».

غرق الضيف في حزن طويل وهو يرتعش، لكنه قال أخيرًا:

- «إنها قصة غريبة، فأنا هنا للسبب نفسه الذي أتى بك إلى هنا. بالذات بسبب بيلاطس البنطي»، وهنا التفت الضيف حوله بذعر وقال: «ملخَّص الموضوع أني كتبت من عام رواية عن بيلاطس».

سأله الشاعر باهتمام: - «أنت كاتب؟».

اكفهرَّ وجه الضيف ولوَّح لإيفان بقبضته متوعِّدًا ثم قال:

- «أنا المعلِّم»، وهنا قست تعابير وجهه فأخرج من جيب ثوبه طاقية سوداء صغيرة في غاية القذارة طُرِّز عليها حرف «م» بحرير أصفر، ووضعها على رأسه وانتصب أمام إيفان يريه نفسه في وضع جانبي ثم مواجِه ليبرهن له على أنه المعلِّم، ثم أردف كمن يفشي سرًا: «لقد خاطتها لي بيدها».

- «وما كُنيتك؟».

- «لم تعد لي كنية»، أجاب الضيف الغريب باحتقار مشوب بالحزن، «لقد تخلَّيتُ عنها، كما تخلَّيتُ أيضًا عن كل ما في الحياة. فلننسها».

طلب إليه إيفان بلطف: - «لكن هلّا حدَّثتني عن الرواية على الأقل».

- «كما تشاء... قصتي بالفعل غير عادية إلى حدٍّ ما...».

كان اختصاصيًا في التاريخ عمل إلى سنتين خَلَتا في أحد متاحف موسكو كما عمل في الترجمة.

سأله إيفان باهتمام: - «من أي لغة؟».

- «أعرف خمس لغات عدا لغتي الأم: الإنكليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية واليونانية. وأقرأ قليلًا أيضًا بالإيطالية».

همس إيفان في حسد: «عظيم!».

كان المؤرخ يعيش وحيدًا في موسكو، لا أهل له، بل دون معارف تقريبًا. وتصوروا... إذا به يربح ذات مرة مائة ألف روبل.

وهمس الضيف ذو الطاقية السوداء الصغيرة:

- «تصوَّر دهشتي حين دسست يدي في سلة الملابس المتسخة فإذا بي أرى الرقم نفسه الذي في الجريدة!». وأردف موضحًا: «هذا السنَد أعطانيه المتحف».

بعد أن ربح ضيف إيفان الغامض المائة ألف روبل اشترى كتبًا وهجر غرفته في شارع مياسنيتسكايا...

زمجر الضيف: - «يا للجُحر اللعين!».

...واستأجر عند أحد أصحاب حق البناء في زقاق قرب أربات...

- «هل تعرف ما معنى أصحاب حق البناء؟ سأل الضيف إيفان، وأردف يشرح له على الفور: «إنهم جماعة قليلة من النصَّابين لا أدري كيف ظلَّت سليمة ترتع في موسكو وتمرح...».

استأجر إذن عند أحد أصحاب حق البناء غرفتين في قبو منزل صغير يقع وسط حديقة. واعتزل العمل في المتحف. وشرع يكتب رواية عن بيلاطس البنطي.

همس الضيف وقد برقت عيناه: - «آه، كانت فترة ذهبية من عمري، شقة مستقلة تمامًا، لها مدخل ومغسلة يجري فيها الماء (ولأمر ما شدَّد باعتزاز على هذه النقطة) ونوافذ صغيرة ترتفع مباشرة فوق الممشى الممتد من باب الحديقة. وعلى بعد أربع خطوات قبالتي أشجار الليلك والزيزفون والقيقب عند السور. آه، آه، آه في الشتاء لم أكن أرى من النافذة، إلا فيما ندر، أرجلًا سوداء وأسمع خشخشة الثلج تحتها. كانت النار متأجِّجة في موقدي على الدوام! وبغتة أتى الربيع. ورأيت من خلال الزجاج

الداكن شجيرات الليلك العارية أول الأمر، ثم الآخذة بالاكتساء بالخضرة. إنما في ذلك الوقت بالذات، أي في الربيع الفائت حدث لي ما هو أروع من استلام المائة ألف روبل، وهذا مبلغ هائل من المال كما لا بد أن توافقني!».

- «هذا صحيح». اعترف له إيفان الذي كان يصغي إليه باهتمام.

- «فتحتُ النوافذ وكنتُ جالسًا في الغرفة الثانية، الصغيرة جدًا»، وهنا أخذ الضيف يقيس بيديه، «هكذا... هنا ديوان، وهنا قبالته ديوان آخر وبينهما طاولة صغيرة فوقها مصباح رائع، وبالقرب من النافذة كتب، وهنا طاولة صغيرة للكتابة، أما في الغرفة الأولى، الكبيرة، بمساحة أربعة عشر مترًافكتب، كُتب، ومدفأة. آه يا للجو الذي كان يخيِّم على بيتي! كان الليلك ينشر طيبًا غير عادي! وأخذ رأسي يخف من الإرهاق وكان بيلاطس يشرف على النهاية...».

هتف إيفان: - «البردة البيضاء والبطانة الحمراء بلون الدم! فاهم!».

- «بالضبط. كان بيلاطس يشرف على النهاية. النهاية تمامًا وكنت أعرف أن آخر كلمات الرواية ستكون: «...حاكم اليهودية الخامس الفارس بيلاطس البنطي». كنت أخرج للنزهة بطبيعة الحال. فمائة ألف كمية هائلة، وكانت عندي بذلة رمادية رائعة. أو كنت أمضي لتناول الغداء في أحد المطاعم الرخيصة. كان في أربات مطعم رائع لا أدري إن كان قائمًا الآن».

وهنا انفتحت عينا الضيف على اتساعهما، وتابع همسًا وهو يرنو إلى القمر:

- «كانت تحمل بيدها زهورًا صُفرًا بشعة تبعث على القلق. الشيطان يعلم ما اسم هذه الزهور، لكنها هي أول ما يظهر من الزهور في موسكو لسبب ما. وكانت هذه الزهور تبرز بجلاء فوق معطفها الربيعي الأسود. كانت تحمل زهورًا صُفرًا! إنه لون رديء. وانعطفت من شارع تفيرسكايا إلى زقاق والتفتت. ألا تعرف تفيرسكايا؟ في تفيرسكايا يسير آلاف الأشخاص، إنما أؤكد لك أنها رأتني أنا وحدي، ونظرت إليَّ نظرة لا أستطيع القول إنها نظرة قلق فهذا غير دقيق، بل نظرة كأنما تشي بوجع دفين. ولم يهزّني جمالها بقدر ما هزَّتني الوحشة القاتلة، غير الطبيعية التي لم يتسنَّ لأحد أن يراها في عينين! وانعطفتُ أنا أيضًا في أعقابها إلى الزقاق منقادًا إلى هذه العلامة الصفراء. وسرنا في زقاق متعرِّج كئيب صامتَيْن، أنا في جانب وهي في الجانب الآخر. وتصوَّر، لم يكن في الزقاق أحد سوانا، كنت أتعذَّب لأنه تهيَّأ لي أنه من الضروري أن أكلِّمها، وكنت مضطربًا خشية ألا أستطيع فتح فمي بكلمة فتمضي فلا أعود إلى رؤيتها أبدًا..

وتصور، كانت هي التي تكلّمت على حين غرّة أولًا:
«هل تعجبك زهوري؟».
ما زلتُ أذكر جيدًا كيف كان صوتها الخافت إلى حدٍّ ما إنما المتقطِّع، بحيث تهيَّأ لي، مهما بدا ذلك على قدر من الغباء، أن صداه هو الذي دوَّى في الزقاق وارتدَّ عن الحائط الأصفر القذر، عبرتُ إلى جانبها بسرعة وأجبتها وأنا أدنو منها:
«لا».
نظرت إليَّ مندهشة، فأدركتُ فجأة، ودون أي توقّع بتاتًا، أني طول حياتي إنما أحببت هذه المرأة بالذات! أمر غريب أليس كذلك؟ ستقول طبعًا إني مجنون.
- «إني لا أقول شيئًا»، هتف إيفان وأضاف: «تابع أرجوك!».
وتابع الضيف:
- «نعم، نظرت إليَّ مندهشة وسألتني بعد أن تأمّلتني:
«ألا تحب الزهور عمومًا؟».
كان في صوتها عداء كما بدا لي. كنت أسير إلى جنبها وأنا أحاول ألا أتخلّف عنها، لدهشتي لم أكن أشعر بأي حرج.
«بلى، أحبها، ولكن ليس هذه».
«وأيُّها؟».
«أحب الورود».
وأسفتُ على ما قلت، لأنها ابتسمت ابتسامة مذنب ورمت زهورها في أخدود وارتبكت قليلًا لكنني ألتقطت الزهور مع هذا ومددت لها يدي بها لكنها ابتسمت ابتسامة خفيفة ودفعتها عنها فأبقيتها في يدي.
وعلى هذا النحو سرنا صامتَيْن بعض الوقت إلى أن انتزعت الزهور من يدي ورمتها على الرصيف. ثم شبكت يدها بقفازها الأسود المتسع الطرف بيدي وسرنا جنبًا إلى جنب».
قال إيفان: - «تابع، ولا تغفل أي شيء من فضلك».
- «أتابع؟»، كرّر الضيف السؤال، «بوسعك أن تحزر ما حدث بعد ذلك بنفسك».
وهنا مسح دمعة فجأته بكمه الأيمن وتابع: «وطلع علينا الحب كما يطلع عليك من تحت الأرض في زقاق قاتل، وأردانا كِلَيْنا على الفور!
هكذا تردي الصاعقة، هكذا يردي الخنجر!

غير أنها كانت تؤكِّد فيما بعد أن الأمر لم يكن على هذا النحو، وأننا كنا نحب أحدنا الآخر منذ زمن بعيد جدًا بطبيعة الحال، دون أن يعرف أحدنا الآخر ودون أن يراه أبدًا، وأنها كانت تعيش مع إنسان آخر وأني كنت إذَّاك مع هذه... التي اسمها...».

سأل بيزدومني: - «مع من؟».

- «مع هذه... أي... مع هذه... أي...». أجاب الضيف وفرقع بأصابعه.

- «كنت متزوجًا؟».

- «طبعًا، ولهذا أفرقع... مع هذه... مع فارنكا، مانتشكا... لا فارنكا... صاحبة الثوب المخطَّط... المتحف... على أي حال لم أعد أذكر.

وقالت أيضًا إنها خرجت في ذلك اليوم تحمل زهورًا صُفرًا كيما أجدها أخيرًا، وإنه لو لم يحصل هذا، لتناولت السمّ لأن حياتها فارغة.

نعم، لقد أردانا الحب على الفور. ولقد أيقنتُ هذا بعد ساعة من ذلك اليوم نفسه حين وجدنا نفسينا، دون أن نشعر بالمدينة حولنا. على الكورنيش قرب جدار الكرملين.

تحدثنا وكأننا لم نفترق إلا بالأمس، وكأنما يعرف الواحد منَّا الآخر منذ سنين طويلة. وتواعدنا على اللقاء في اليوم التالي هناك أيضًا، على ضفة نهر الموسكوفا والتقينا. كانت شمس أيار تشرق لنا. وفي فترة وجيزة، وجيزة جدًا صارت هذه المرأة زوجتي سرًا.

كانت تأتي إليَّ كل يوم، وكنت في انتظارها منذ الصباح. وكان هذا الانتظار يتجلَّى في أني كنت أعيد ترتيب أشيائي على الطاولة. وقبل عشر دقائق من مجيئها أكون جالسًا إلى النافذة أرهف السمع لعل باب الحديقة المهترئ يدق. والشيء الغريب أنه حتى لقائي بها، نادرًا ما كان أحد يقصد فناءنا الصغير، أو لنقل ببساطة، لم يكن أحد يقصده، أما الآن فقد بدا لي أن المدينة كلها تندفع إليه. يدق باب الحديقة فيدق قلبي. وتصوَّر، كنتُ أرى دائمًا على مستوى وجهي وراء النافذة جزمة قذرة لداخل أو خارج. جلَّاخ. من الذي يحتاج جلّاخًا في بيتنا؟ ما الذي يريد جلخه؟ وأي سكاكين؟

كانت تدخل من باب الحديقة مرَّة واحدة، بينما يكون قلبي يخفق قبل دخولها عشر مرات. إني لا أكذب عليك. وحين كان وقتها يحين، ويشير عقربي الساعة إلى انتصاف النهار، لم يكن قلبي يكف عن الدق إلا عندما كان حذاؤها ذو العقدتين السوداوين من جلد الشاموا، المشدودتين بإبزيمين فولاذيين، يلوح على مستوى النافذة دونما صوت حتى لتحسب أنها تسير بخطوات خرساء.

وكانت تعاتبني أحيانًا، فتتوقَّف عند النافذة الثانية، وتدق الزجاج بمقدمة حذائها،

لكن الحذاء كان يختفي، ويختفي الحرير الأسود الذي كان يحجب الضوء وكنت أسرع إلى الباب أفتحه لها.

لم يدرِ أحد بعلاقتنا، أؤكد لك، مع أن هذا أمر لا يحدث أبدًا. لم يدرِ زوجها ولم يدر أحد من معارفها. وفي البيت العتيق المنفرد، حيث كان لي هذا القبو، عرف بعضهم ورأى أن امرأة تأتي إليَّ، لكنهم لم يعرفوا اسمها».

- «ومن تكون هذه المرأة؟»، سأله إيفان الذي أثارته هذه القصة الغرامية أشد الإثارة.

أتى الضيف بحركة تدل على أنه لن يقول اسمها أبدًا ولأي كان وتابع حديثه.

وعرف إيفان أن المعلِّم والمجهولة أحبَّا أحدهما الآخر حبًّا قويًا جعلهما لا يفترقان أبدًا. وتصوَّر إيفان بوضوح الغرفتين اللتين في قبو الدار واللتين تغشاهما العتمة دائمًا بسبب أشجار الليلك وسياج الحديقة وكذلك الأثاث الأحمر الرث والمكتب وفوقه الساعة التي ترن كل نصف ساعة والكتب. الكُتب التي ترتفع من أرض القبو المصبوغ حتى السقف المسوَدّ من الدخان، والمدفأة.

وعرف إيفان أيضًا أن ضيفه وزوجته السرية أدركا من الأيام الأولى لعلاقتهما أن القدر نفسه هو الذي دفعهما دفعًا إلى الناصية عند شارع تفيرسكايا والزقاق، وأنهما خُلِقا ليكون أحدهما للآخر مدى الدهر.

وعرف إيفان من حديث ضيفه كيف كان العاشقان يُمضيان يومهما. كانت تأتي. ثم تضع مئزرًا وفي المدخل الضيق، حيث المغسلة إياها التي كان المريض المسكين يعتزّ بها لسبب ما، تشعل وابور الغاز على طاولة خشبية وتعدّ الفطور وتضعه على طاولة بيضاوية في الغرفة الأولى. وعندما كانت عواصف أيار المطيرة تهب، وكان الماء ملجأ للعاشقين، كانا يوقدان المدفأة ويشويان فيها البطاطا. كان البخار يتصاعد من قِدر البطاطا وكانت قشارة البطاطا السوداء تلوِّث أصابعهما. كانت الضحكات تتردَّد في القبو الصغير، وكانت أشجار الحديقة تلقي عنها بعد المطر غصيناتها المتكسِّرة وعذوقها البيض. وحين مضت أيام العواصف المطرية وأتى الصيف الخانق، ظهرت في الإصيص الورود التي لشدّ ما أحباها وانتظراها.

كان من يسمي نفسه المعلِّم يعمل، بينما كانت، هي، تعيد قراءة ما يكتبه وهي تدسّ أصابعها النحيلة ذا الأظافر الحادة الأطراف المصقولة بعناية في شعرها، وتعود، بعد أن تُنهي القراءة، إلى خياطة الطاقية المذكورة إياها. وكانت تجلس القرفصاء قرب أرفف الكتب المنخفضة أحيانًا، أو تقف على كرسي قرب الأرفف العليا تمسح الغبار

عن مئات كعوب الكتب. كانت تمنّيه بالمجد والشهرة، وكانت تستحثه وتدفعه، وفي هذا الوقت بالذات سمَّته المعلِّم. كانت تنتظر هذه الكلمات الأخيرة الموعودة عن حاكم اليهودية الخامس، وكانت تردِّد بصوت عالٍ مترنِّمة جملًا متفرِّقة راقتها. وتقول إن حياتها في هذه الرواية.

وأُنجزت الرواية في شهر آب، ودفعت بها إلى ضاربة آلة كاتبة طبعتها في خمس نسخ. وأخيرًا جاءت الساعة التي كان عليَّ فيها هجر ملجئي السري والخروج إلى الحياة.

وخرجتُ على الحياة أحمل كتابي بيميني، وهنا انتهت حياتي»، همس المعلِّم ونكَّس رأسه بينما راحت طاقيته الصغيرة السوداء ذات الحرف «م» تهتز طويلًا. طويلًا. وتابع المعلِّم حديثه، لكن حديثه أضحى على شيء من التفكك، لم يفقه منه إيفان إلا أنه نزلت بضيفه آنذاك كارثة.

- «دخلت عالم الأدب لأول مرة، لكني الآن، وقد انتهى كل شيء بالنسبة إليَّ وصرت على يقين من هلاكي، أذكره برعب!»، همس المعلِّم بمهابة ورفع يده. - «نعم، لقد صعقني، آه لو تعرف كم صعقني!».

- «من؟»، همس إيفان بصوت يكاد لا يسمع خشية مقاطعة محدِّثه الذي تولاه الاضطراب.

- «رئيس التحرير، رئيس التحرير قلت لك. نعم، هو الذي قرأه. رماني بنظرة كأنما خدّي متورِّم من خرّاج ثم نظر شزرًا نحو الرواية، بل ضحك ضحكة محبوسة مرتبكة. ودونما سبب أو ضرورة دعك المخطوطة وتنحنح. وبدت لي الأسئلة التي وجَّهها إليَّ أسئلة مجنون. فقد أخذ يسألني، دون أن يقول أي شيء في صلب الرواية، مَنْ أكون، ومن أين أتيت، وهل أكتب منذ مدة طويلة، ولماذا لم يسمع أحد بي من قبل، بل إنه طرح عليَّ سؤالًا في غاية البلاهة في رأيي: من هذا الذي أوحى لي بكتابة رواية عن موضوع غريب كهذا؟.

وضقتُ أخيرًا به ذرعًا فسألته أن يقول لي بصراحة إن كان سيطبع روايتي أم لا.

وهنا أخذ يحوص ويلوص ويغمغم، وأعلن أخيرًا أنه لا يستطيع شخصيًا اتخاذ قرار في هذه المسألة، وأنه من المفروض أن يُطلع الأعضاء الآخرين في هيئة التحرير وبالذات الناقدان لاتونسكي وأرمان والأديب مستيسلاف لافروفتش على كتابي، وطلب إليَّ الحضور بعد أسبوعين.

وحضرت بعد أسبوعين فاستقبلتني فتاة ذات عينين مائلتين إلى أنفها من شدة كذبها المتواصل».

- «إنها لبشونيكوفا سكرتيرة هيئة التحرير»، قال إيفان، الذي كان يعرف عن كثب العالم الذي يصفه له ضيفه بمثل هذا السخط. وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة ساخرة.

قال الضيف بحدة: - «يمكن، وهكذا أعادت لي الرواية وقد أصابها قدر كبير من التلوث ببقع الدهن والتهرّؤ.

وأبلغتني، وهي تحاول ألا تقع عيناها على عينيّ أن لدى هيئة التحرير من المواد ما يكفي لعامين مقدَّمًا، وعلى هذا فمسألة طبع روايتي غير وارد على حدِّ تعبيرها».

غمغم المعلِّم وهو يحكّ صدغه: - «وما الذي أذكره بعد هذا؟ نعم. هاتان العينان أذكرهما جيدًا».

كان حديث الضيف يزداد تشوُّشًا وتكتُّمًا. قال شيئًا عن خيوط مطر مائلة وعن اليأس في ملجئه في القبو، وعن أنه سعى إلى مكان ما. وهتف في همس أنه لا يلومها، لا، لا يلومها أبدًا تلك التي دفعته إلى الكفاح.

- «أذكر، لا زلتُ أذكر هذا الملحق اللعين في الجريدة»، غمغم الضيف وهو يرسم بإصبعيه ورقة جريدة في الهواء، وحزر إيفان من جُمَلِه المشوَّشة اللاحقة أن رئيس تحرير آخر طبع مقطعًا طويلًا من رواية مَنْ يسمِّي نفسه المعلِّم.

ولم يمر يومان، كما فُهِم من كلامه، حتى ظهرت في جريدة أخرى مقالة للناقد أريمان تحت عنوان «عدو في كنف رئيس التحرير» جاء فيها أن ضيف إيفان حاول عن طريق المَكر والخديعة دَسّ تبجيل يسوع المسيح في الصحافة مستغلًا غفلة رئيس التحرير وجهله».

صاح إيفان: - «آ، أذكر، أذكر هذا! لكني نسيت ما كنيتك!».

- «أقول لك مرة أخرى: دعك من كنيتي، فلم يعد لها وجود»، أجابه الضيف، «المسألة ليست مسألة كنيتي. وبعد يوم ظهرت في جريدة أخرى مقالة جديدة بتوقيع مسيسلاف لافروفتش يقترح صاحبها الضرب، والضرب بقوة على يد البيلاطسية وعلى يد مبجِّل الرب الذي خطر له دسَّها في الصحافة عن طريق المكر والخديعة (ومرة أخرى هذه العبارة اللعينة!).

تجمَّدتُ من كلمة «البيلاطسية» هذه وفتحتُ جريدة أخرى فإذا فيها مقالتان أولاهما بتوقيع لاتونسكي وثانيهما موقَّعة بحرفي ن. أ. وأؤكد لك أنه كان بالإمكان اعتبار مقالتَيْ أريمان ولافروفتش مزحة بالمقارنة مع ما كتبه لاتونسكي. يكفي أن أقول لك أن المقالة بعنوان «المؤمن القديم المجاهد». ولقد أخذت بقراءة المقالة التي

تتحدَّث عنّي حتى لم ألاحظ (وقد نسيت إغلاق الباب) كيف انتصبت أمامي تحمل بيديها شمسيتها المبلَّلة وجرائد مبلَّلة. كانت عيناها تقدحان شررًا ويداها ترتجفان وقد دبَّ فيهما البرد. واندفعت تقبّلني ثم قالت لي بصوت أبح وهي تضرب بيدها على الطاولة إنها ستدسّ السم للاتونسكي».

تأوَّه إيفان في ارتباك، لكنه لم يقل شيئًا.

- «وحلَّت أيام خريفية كئيبة. كانت الرواية قد أنجزت. ولم يكن لدينا ما نفعله فكنا نُمضي وقتنا في الجلوس على السجادة الصغيرة قرب المدفأة لا نفعل شيئاً سوى النظر إلى النار. ولا بد لي من القول أننا صرنا نفترق أكثر من السابق. أخذت تخرج للنزهة، أما أنا فحدث لي شيء طريف من تلك الأشياء التي حدثت لي مرارًا في حياتي... أصبح لي على حين غرَّة صديق. نعم، تصوَّر... إني لا أميل عادة إلى مخالطة الناس، إنسان ذو طبع غريب: لا آلفهم إلا بصعوبة، ولا أثق بهم، وأرتاب فيهم. ومع هذا تصوَّر، لا بد أن يدخل قلبي شخص ما لا أتوقعه ولا أنتظره! والشيطان وحده يعلم ما يشبه مظهره الخارجي. وهذا الشخص هو الذي سيعجبني أكثر من الآخرين كلهم.

وفي هذا الوقت اللعين فُتح باب حديقتنا. وكما أتذكَّر كان النهار لطيفاً، خريفيًا، ولم تكن، هي، في البيت. دخل رجل وجاز إلى صاحب البيت في أمر ما، ثم خرج إلى الحديقة، ولست أدري كيف تم التعارف بيننا بسرعة. قدَّم لي الرجل نفسه على أنه صحفي. ولقد أعجبني، حتى أنني، تصوَّر، لا زلت أذكره أحيانًا وأشتاق إليه إلى الآن. وتواترت زياراته لي مع الأيام. ولقد عرفت منه أنه أعزب، وأنه يسكن قريبًا مني في شقة تشبه شقتي إلى حدٍّ كبير، وأنه يشعر بالضيق هناك وما إلى ذلك. لكنه لأمر ما لم يدعُني مرة إلى بيته. ولم يعجب الرجل زوجتي إطلاقًا. دافعتُ عنه فقالت لي:

«افعل ما تشاء، لكني أقول لك إن هذا الإنسان يثير فيَّ شعورًا بالاشمئزاز».

وانفجرتُ ضاحكًا. لكن ما الذي شدَّني إليه بالضبط؟ المسألة أن الإنسان عامة، إذا لم يكن ينطوي على قدرة الإدهاش، إذا لم تكن فيه مفاجأة لك، ليس بالإنسان المثير للاهتمام. ولقد كانت عند ألويزي (آه، نسيت أن اسم صاحبي الجديد ألوييزي موغاريتش) هذه المفاجأة! وأقول لك تحديدًا أني لم ألتقِ، وواثق بأني لن ألتقي أبدًا، بإنسان بذكاء ألوييزي. فإذا لم أفهم معنى مقالة في جريدة، كان ألوييزي يفسّرها في دقيقة بالمعنى الحرفي للكلمة، وكان واضحًا أن تفسيره هذا لم يكن يكلّفه أي جهد. وقل الشيء نفسه في ظواهر الحياة وقضاياها. زد على ذلك أنه أسرني بحبه للأدب، فلم يهدأ له بال حتى نزلت عند رغبته وقرأتُ له الرواية كلها من ألفها حتى يائها. ولقد

أطرى الرواية إطراءً جمًّا، لكنه ردَّد على مسامعي بدقة صعقتني كل ملاحظات رئيس التحرير المتعلقة بالرواية وكأنه كان حاضرًا وقتها وقد أصاب مائة بالمائة. زد على ذلك أنه شرح لي بدقة متناهية سبب استحالة طبع روايتي وأدركت أنه لا يخطئ في رأيه. وقال لي بصراحة: هذا فصل مثلًا لا يمكن أن يُنشر...

ولم يتوقَّف سيل المقالات. سخرت من أولاها في بادئ الأمر. ولكن بقدر ما كانت تظهر أعداد جديدة منها، كان موقفي منها يزداد تغيرًا. كانت المرحلة الثانية مرحلة الدهشة. وكنت أشعر بشيء زائف وغير واثق إلى حدٍّ خارق في كل سطر من هذه المقالات على الرغم من لهجتها الغاضبة الواثقة. كان يتهيَّأ لي دائمًا، ولم يكن بوسعي التخلِّي عن هذا الإحساس، أن أصحاب هذه المقالات يقولون ما يريدون قوله، وأن هذا بالذات هو سبب حنقهم. ثم، تصوَّر، أعقبتها المرحلة الثالثة؛ مرحلة الخوف. لا، هذا ليس خوفًا من هذه المقالات، افهمني جيدًا، بل الخوف من أشياء أخرى ليس لها أي علاقة بالمقالات أو الرواية. صرت أخاف الظلمة مثلًا. وباختصار دخلت مرحلة المرض النفسي. كان يكفي أن أطفئ المصباح في الغرفة الصغيرة قبل النوم، حتى يتهيَّأ لي أن أخطبوطًا ذا أذرع جد باردة وطويلة يزحف عليَّ من النافذة رغم أنها كانت مغلقة. فاضطررت أن أشعل المصباح وأنام على نوره.

وتغيَّرت محبوبتي تغيُّرًا شديدًا (لم أحدِّثها بأمر الأخطبوط بطبيعة الحال، لكنها رأت أن شيئًا ما سيئًا ينتابني) فهزلت وشحبت واختفت ضحكتها، وصارت تتوسَّل إليَّ أن أغفر لها نصيحتها لي بطبع ذلك المقطع من الرواية. وألحَّت عليَّ أن أترك كل شيء وأذهب إلى شاطئ البحر الأسود في الجنوب وأنفق على هذه الرحلة ما بقيَ لديَّ من المائة ألف روبل.

واشتدت في الإلحاح حتى وعدتنها تحاشيًا للدخول في مشاحنة معها أن أفعل ذلك في غضون أيام (كان شيء ما في داخلي يقول لي إني لن أذهب إلى البحر الأسود). لكنها قالت إنها ستقطع لي تذكرة بنفسها. إذَّاك أخرجت ما تبقَّى لديَّ من نقود، أي نحو عشرة آلاف روبل. وناولتها إياها.

تساءلت مستغربة: - «ولماذا هذه الكمية الكبيرة؟».

قلت لها ما معناه إني أخشى اللصوص، وأرجوها أن تحتفظ بالنقود حتى موعد سفري. أخذت النقود ووضعتها في حقيبتها وأخذت تقبِّلني وتقول لي إن الموت أسهل عليها من تركي وحدي في مثل هذه الحالة، إنما هناك من ينتظرها وإنها تذعن لحكم الضرورة وإنها ستوافيني غدًا. وتوسَّلت إليَّ ألا أخشى شيئًا.

كان هذا عند المغيب. في منتصف تشرين الأول. وخرجتُ. تمدَّدتُ على الديوان وغفوت دون أن أشعل المصباح. وأفقت من إحساس راودني بأن الأخطبوط هنا. تلمَّست في الظلمة طريقي إلى المصباح وأشعلته بجهد بالغ. كانت ساعة الجيب تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. غفوت متوعِّك الصحة وأفقت مريضًا. بدا لي أن ظلام الخريف سيحطِّم الزجاج، ويتدفَّق إلى الغرفة وأني غرقت فيها كما في حبر. وبت إنسانًا لا يملك نفسه. صرخت وراودتني فكرة اللجوء إلى أي شخص ولو كان صاحب البيت القاطن في الطابق العلوي. كنت كالمجنون في صراع داخلي مع نفسي. وواتتني القوة لأن أبلغ الموقد وأشعل فيه حطبًا. وعندما زغرد الحطب وطقطق باب الموقد أحسست ببعض الارتياح... فاندفعتُ إلى المدخل وأشعلت نوره فوجدت هناك قنينة نبيذ أبيض ففتحتها وأخذت أشرب النبيذ من القنينة، وهدأ خوفي قليلًا، على الأقل بحيث لم أهرع إلى صاحب البيت بل عدت إلى الموقد. وفتحتُ باب الموقد فأخذت الحرارة تلفح وجهي ويدي، وهمستُ:

«أتحزرين أن مصيبة حلَّت بي. تعالي. تعالي، تعالي!».

لكن أحدًا لم يأتِ. كانت النار تلتهب في الموقد. والمطر ينقر على النوافذ. وهنا كانت ثالثة الأثافي. أخرجت من درج الطاولة نسخ الرواية الثقيلة ومسوداتها وأخذت أحرقها. كان هذا العمل شاقًا، لأن الورقة المكتوبة لا تحترق في النار جيدًا. كنت أمزِّق الدفاتر وأمزِّق معها أظافري وأضعها عموديًا بين فرمات الحطب وأحرِّك الأوراق بالمحراك. كان الرماد يغلبني على أمري أحيانًا ويخنق اللهب، لكني كنت أقاومه وكانت الرواية تقاوم بعناد، لكنها كانت تهلك. كانت الكلمات الأليفة تبرق بسرعة أمام عيني وكانت الصُّفرة تتسلَّق الصفحات من أسفلها إلى أعلاها بقوة لا تقاوم، لكن الكلمات كانت تبرز حتى فوق الصُّفرة نفسها. ولم تكن الكلمات تتلاشى تمامًا إلا حين كانت الورقة تسودّ تمامًا. وكنت، من جهتي، أمعن في تفتيتها بمحراكي بعنف.

في هذا الوقت أخذ شخص ما ينقر على النافذة نقرًا خفيفًا. قفز قلبي في صدري واندفعت أفتح للطارق بعد أن ألقمت النار بسرعة آخر دفاتري. كانت درجات الآجر تفضي من القبو إلى باب الفناء. هرعت إلى الباب وأنا أتعثَّر وسألت بصوت خفيض:

– «من هناك؟».

وأجابني صوت، صوتها:

– «أنا».

لا أدري كيف تمكّنت من السلسلة والمفتاح. وما إن مرَّت عبر عتبة الباب حتى

ارتمت على صدري مبللة كلها. بوجنتيها الرطبتين وشعرها المحلول، وهي ترتعش. ولم أقوَ إلا على نطق كلمة واحدة:

- «أنتِ... أنتِ؟» وانقطع صوتي ودلفنا إلى أسفل، خلعت معطفها في المدخل ودخلنا الغرفة الأولى بسرعة. ندَّت عنها صرخة خافتة، وبيديها العاريتين انتشلت من الموقد آخر ما تبقى هناك. وكانت حزمة أوراق دبت النار في أسفلها، وألقت بها على الأرض. وغمر الدخان الغرفة على الفور، فأخذت أدوس النار بقدمي، أما هي فقد تهاوت على الديوان وأخذت تنتحب بتشنج.

وقلت لها بعد أن هدأ روْعها:

- «لقد أبغضتُ هذه الرواية، وأنا خائف. إني مريض، أنا مرعوب».

نهضت وقالت:

- «يا إلهي ما أشدَّ مرضك. لماذا هذا كله، لماذا؟ لكني سأنقذك، سأنقذك. ما هذا الذي يجري؟».

رأيت عينيها المنتفختين من الدخان والبكاء، وأحسست بيديها الباردتين تمسحان جبيني.

غمغمت وهي تتشبث بكتفي: - «سأشفيك، سأشفيك، وستعيدها كما كانت. لماذا، لماذا لم أحتفظ بنسخة منها عندي!».

كشَّرت غضبًا وقالت شيئًا لم أتبينه. ثم أخذت تلملم الأوراق المحترقة وتسويها وقد زمَّت شفتيها. وكانت تلك الأوراق فصلًا من وسط الرواية لا أدري أيها. ثم رتبت الصفحات المحروقة بعناية ولفَّتها بورقة وربطتها بشريط. كانت طريقة عملها تدل على أنها ممتلئة عزمًا وتصميمًا، وعلى أنها ملكت نفسها تمامًا. ثم طلبت نبيذًا، وبعد أن رشفته قالت بصوت أكثر هدوءًا:

- «وهكذا على الإنسان أن يدفع ثمن كذبه، وأنا لا أريد أن أستمر في هذا الكذب. كان بودّي أن أبقى معك الليلة. لكني لا أريد أن أفعل ذلك على هذا النحو. لا أريد أن يستقر في ذاكرته أني هربت منه ليلًا. إنه لم يسئ إليَّ في حياتي قط. لقد استدعيَ فجأة لأن حريقًا شبَّ في المصنع. لكنه سيعود بعد حين. سأكاشفه في الموضوع صباح الغد وأقول له إني أحب إنسانًا آخر. وأعود إليك إلى الأبد. أم لعلك لا تريد هذا؟».

قلت لها: - «يا مسكينتي، يا مسكينتي، لن أدعك تفعلين هذا. أشعر أن أيامي الآتية أيام سود ولا أريد أن تهلكي معي».

سألتني وقرَّبت عينيها من عيني: - «هذا هو السبب الوحيد؟».

- «نعم الوحيد».

دبَّت فيها حيوية مرعبة فارتمت على صدري وطوّقت عنقي وقالت:

- «إني مستعدة لكي أهلك معك. غدًا صباحًا سأكون عندك».

وآخر ما أذكره في حياتي شريط من الضوء في مدخل غرفتي وفي هذا الشريط خصلة شعر منسدلة وقبعتها وعيناها المفعمتان حزمًا. وأذكر أيضًا طيفها الأسود على عتبة الباب الخارجية والحزمة البيضاء.

- «كان بودي أن أوصلك، لكن ليست عندي القوة للعودة بمفردي، فأنا خائف».

- «لا تخف. أصبر هذه الساعات القليلة وغدًا صباحًا أكون عندك». كانت هذه آخر كلمات سمعتها منها في حياتي».

وفجأة قطع المريض كلامه ورفع إصبعه:

- «هش! إنها لَيْلة قمراء قلقة هذا اليوم».

وتوارى في الشرفة. وسمع إيفان صوت عجلات صغيرة في الممر وشخصًا ينشج أو يصرخ بصوت خافت.

وعندما خيَّم الهدوء من جديد عاد الضيف وأخبره أن الغرفة رقم 120 استقبلت ضيفًا جديدًا، وأن الوافد الجديد يرجوهم أن يعيدوا إليه رأسه. وصمت المتسامران في قلق، لكنهما عادا، بعد أن أطمأنت نفساهما، إلى وصل ما انقطع من حديثهما. وكاد الضيف يفتح فمه، لكن الليل كان قلقًا بالفعل، فقد كانت أصوات لا تزال تُسمع في الممر، فقرَّب الضيف فمه من أذن إيفان، وأخذ يكلِّمه بصوت خافت بحيث لم يعرف إلا الشاعر ما قاله له باستثناء الجملة الأولى:

- «وبعد أن غادرتني بربع ساعة سمعت طرقًا على النافذة...».

ولا بد أن ما كان الضيف يهمس به في أذن إيفان كان يثير في الضيف أشد الاضطراب، فقد كانت التشنجات تقلِّص قسمات وجهه بين الحين والآخر. وكان الخوف والحنق يسبحان في عينيه ويتحركان سراعًا. وكان يشير بيده إلى مكان ما باتجاه القمر الذي توارى عن الشرفة منذ وقت بعيد. وحين لم تعد تتناهى إلى الغرفة من الخارج، أي أصوات ابتعد الضيف عن إيفان قليلًا وتكلَّم بصوت أعلى.

- «وهكذا إذن كنت أقف في منتصف كانونِ الثاني ليلًا في فناء البيت منكمشًا على نفسي من البرد في معطفي نفسه، إنما كان مقطَّع الأزرار. وورائي كثبان ثلجية تحجب شجيرات الليلك، وأمامي في الأسفل نافذتاي المضاءتان بنور خافت والمسدَلَتا الستائر. انكببت بأذني على أولى النافذتين وأصخت السمع: كان فونوغراف يصدح

في بيتي، هذا كل ما سمعته، ولم أستطِع تبين أي شيء. وقفت قليلًا ثم خرجت من باب الحديقة إلى الزقاق الذي كانت تعصف به زوبعة ثلجية. اندسّ كلب بين قدمي فركبني الذعر وعدوت هاربًا إلى الرصيف المقابل. كان البرد والخوف اللذان أصبحا رفيقيّ الدائمين يوصلانني إلى حافة الجنون. لم يكن لي مكان أذهب إليه، وأبسط ما كان بوسعي فعله بطبيعة الحال هو إلقاء نفسي تحت عجلات الترام الذي يمر في الشارع الذي يفضي إليه زقاقنا. رأيت من بعيد هذه العلب المغطاة بالجليد الذي يتلألأ في داخلها بالأضواء، وسمعت صريرها الكريه في الصقيع. لكن كل ما في الأمر، يا جاري العزيز، أن الخوف كان مستحوذًا على كل خلية من خلايا جسدي. وكنت أخاف الترام أيضًا كما خفت الكلب. نعم، ليس في هذا المبنى مرض أشد من مرضي، أؤكد لك».

قال إيفان مشفقًا على المريض المسكين: - «ولكن كان بإمكانك أن تخطرها، وبالإضافة إلى هذا، أليست نقودك معها؟ لا بد أنها احتفظت لك بها؟».

- «لا مجال لأن تشك في هذا. لقد حفظتها لي بالطبع. لكنك لا تفهمني على ما يبدو؟ أو الأصح أنا الذي فقدت قدرتي على وصف شيء ما. وعلى أي حال لست بآسف جدًا عليها، لأنها لن تُجْدِني نفعًا بعد الآن». وأردف يقول بنبرة احترام عميق وهو يحدِّق في ظلمة الليل: «تصوَّر أمامها رسالة من مستشفى المجانين. هل يمكن حقًا إرسال رسائل تحمل هذا العنوان؟ مريض نفساني؟ أنت تمزح يا صديقي! لا، أأشقيها معي؟ لا، لا أقوى على ذلك».

لم يستطِع إيفان الاعتراض على هذا القول، لكن إيفان الصامت رَقَّ له وأشفق عليه بينما أخذ الضيف يهز رأسه الغارقة في طاقيته السوداء من العذاب الذي بعثته فيه ذكرياته وأردف يقول:

- «امرأة مسكينة. وعلى أي حال آمل أن تكون نسيتني».

ردَّ إيفان بوَجل: - «لكنك قد تشفى...».

أجابه الضيف بهدوء: - «حالتي غير قابلة للشفاء، حين يقول لي سترافنسكي أنه سيعيدني إلى الحياة، لا أصدقه. إنه إنسان لطيف، ولا يبغي بكلامه إلا مواساتي. ولا أنكر مع هذا أن حالتي تحسَّنت كثيرًا الآن. أي، أين وصلنا إذن؟ الصقيع وهذه الحافلات المندفعة. كنت أعلم أنه تم افتتاح هذا المستشفى، فاجتزت المدينة كلها على قدمَيّ إليه. جنون! وفي ظاهر المدينة كنت سأتجمَّد على الأرجح من البرد، لولا أن أنقذتني المصادفة. فقد تعطَّل شيء ما في شاحنة فدنوت من السائق (حدث هذا على بعد نحو أربعة كيلومترات من مدخل المدينة) ولدهشتي أشفق عليَّ. كانت الشاحنة تقصد

المكان نفسه فنقلني معه واقتصر الأمر فقط على أن أصابع قدمي اليسرى تجمَّدت فعولجت. وها أنا ذا للشهر الرابع هنا. وهل تدري، لقد وجدت المكان هنا غير سيئ على الإطلاق، على الإطلاق. لا داعي لأن تشغل نفسك بخطط كبيرة يا جاري العزيز، صدقني! أنا مثلًا كنت أريد أن ألفّ الكرة الأرضية كلها. ولكن لا بأس، هذا غير مقدر لي كما يظهر. فأنا الآن لا أرى سوى جزء يسير من هذه الكرة، وأعتقد أنه ليس أفضل جزء فيها، لكنني أعود فأقول إنه ليس بهذا السوء. ها هو ذا الصيف قادم إلينا، وسيعرِّش اللبلاب على الشرفة كما تعدنا براسكوفيا فيودوروفنا. وزادت المفاتيح من إمكاناتي، القمر سيسطع في ليالي الصيف! آه، لقد غاب! والجو أخذ يبرد. لقد تجاوزت الساعة منتصف الليل. آن لي أن أذهب».

رجاه إيفان: - «قل لي، ما الذي حدث بعد ذلك ليشوع وبيلاطس، قل لي، أتوسَّل إليك، أريد أن أعرف».

أجابه الضيف وقد أخذته هزة مرضية: - «آه، لا، لا، لا أستطيع تذكُّر روايتي دون أن أحس بالقشعريرة. بإمكان صاحبك ذاك الذي من بتريرشيي برودي أن يفعل هذا أفضل مني. شكرًا على هذا الحديث، وإلى اللقاء».

وقبل أن يفيق إيفان من غفلته، كان شبك النافذة ينغلق برنين خفيف والضيف يختفي.

# الفصل الرابع عشر

## المجد للديك

ولم تتحمَّل أعصاب ريمسكي كما يُقال، فهُرع إلى مكتبه دون انتظار الانتهاء من تحرير المحضر، وجلس إلى طاولته وأخذ يحدِّق في التشيرفونتسات السحرية أمامه بعينين حمراوين، وهو عاجز عن التفكير المنطقي. وفي الخارج كان يرتفع هدير متصل رتيب، وسيل من البشر يتدفَّق من مبنى «فارييتيه» إلى الشارع. وفجأة تناهت إلى سمع المدير المالي، الذي رهف رهافة خارقة، زقزقة رجال الشرطة بالغة الوضوح. هذه الزقزقة لم تبشِّر يومًا بشيء لطيف. لكن حين تكرَّرت هذه الزقزقة وهبَّت إلى نجدتها زقزقة أخرى أطول وأحزم ثم تبعتها قهقهات وزعيق عاليان، بل حتى أصوات سخرية، أدرك المدير المالي على الفور أنه حدث شيء ما فاضح وشنيع في الشارع، وأن هذا الذي حدث يتصل، مهما حاول المرء التنصُّل منه، اتصالًا وثيقًا جدًا بالحفلة الفظيعة التي أقامها الساحر الشيطاني ومساعدوه. ولم يخطئ المدير المالي المرهف الحس.

وما إن تطلَّع من النافذة المطلة على سادوفاريا حتى اعوَجَّ وجهه، ولم يهمس بل أزَّ:

- «هذا ما كنت أتوقعه!».

أبصر على ضوء النور الساطع الذي تبعثه مصابيح الشارع القوية جدًا على الرصيف الذي تحته تمامًا سيدة في قميص داخلي وسروال بنفسجي. إنما كانت السيدة تضع، والحق يقال، قبعة وتحمل في يدها شمسية.

وحول هذه السيدة التي كانت في حالة ارتباك كامل والتي كانت تقرفص تارة وتندفع زاكضة إلى مكان ما تارة أخرى، اضطربت جمهرة من الناس وهي تطلق تلك القهقهات التي بعثت الصقيع في ظهر المدير المالي. وكان يندفع إلى جانب السيدة شخص يحاول نزع معطفه الصيفي، لكنه لاضطرابه لم يستطع التخلص من الكم الذي علق بيده. وكانت الصيحات والقهقهات المدوِّية تتناهى إليه من مكان آخر أيضًا،

وبالتحديد من المدخل الشمالي. والتفت غريغوري دانيلوفتش باتجاه الأصوات فرأى سيدة أخرى في ملابس داخلية وردية. قفزت هذه من قارعة الشارع إلى رصيفه محاولة الاختباء في المدخل، لكن الجمهور المتدافع سد عليها الطريق. كانت غاية ما ترجوه السيدة، هذه المسكينة التي راحت ضحية طيشها وولعها بالملابس الجميلة والتي خدعتها شركة فاغوت النجس، أن تنشق الأرض وتبتلعها. وكان أحد رجال الشرطة ينطلق إثر المسكينة ممزقًا الهواء بصفيره وقد تراكض خلفه شبان يعتمرون قبعات في هرج ومرج، هؤلاء الشبان بالذات هم الذين كانوا يطلقون تلك القهقهات والصيحات الساخرة.

وطار حوذيٌّ نحيل. عريض الشاربين إلى السيدة الأولى بعربته وأوقف حصانه الهزيل المنهك بكل قوته. كان وجه الحوذي يبتسم في غبطة.

ضرب ريمسكي على رأسه بقبضته وبصق وتوارى من النافذة.

وجلس إلى طاولته بعض الوقت مصيخًا السمع إلى ما يجري في الشارع. بلغ الزعيق والصفير أوْجهما في نقاط متعدِّدة، ثم أخذ في الخفوت. ولدهشة ريمسكي قُضيَ على الفضيحة بسرعة فائقة لم يتوقعها.

دقَّت ساعة العمل، وكان عليه أن يشرب كأس المسؤولية المرّ. كان قد تم إصلاح الهاتف أثناء الفصل الثالث، وكان عليه أن يتصل بالهاتف ويبلِّغ بما جرى، ويطلب المساعدة ويكذب ويتملَّص من المسؤولية ويضعها كلها على كاهل ليخوديف ويبرِّئ نفسه منها وما إلى ذلك. تبًا للشيطان! وضع المدير المالي المشوَّش الفكر يده على الساعة مرتين، ومرتين رفعها عنها. وفجأة انفلت الهاتف يرن رنينًا متواصلًا في المكتب الذي خيَّم عليه صمت القبور، كأنما يصفع وجه المدير المالي صفعًا، فارتعد وسرت البرودة في أعصابه. «لقد تهافتت أعصابي إلى حدٍّ مريع»، قال ريمسكي في سرِّه ورفع السماعة. وللحال تراجع مذعورًا وامتقع لونه، إذا بلغه صوت نسائي خافت لكنه مخادع ومتهتِّك في الوقت نفسه يهمس في السماعة:

- «لا تهتف إلى أي مكان يا ريمسكي، وإلا الويل لك».

وصمتت السماعة تمامًا. وضع المدير المالي السماعة وهو يحس بالقشعريرة تسري في بدنه، ولأمر ما التفت إلى النافذة التي خلف ظهره، فرأى من خلال أغصان القيقب القليلة، التي لم تغطِها الخضرة إلا قليلًا، القمر سابحًا في غيمة شفافة. ولأمرٍ ما تسمَّر بصره على الأغصان وأخذ يرنو إليها، وبقدر ما كان يتأملها كان الخوف يتملَّكه أكثر فأكثر.

تحامل المدير المالي على نفسه وحوَّل عينيه أخيرًا عن النافذة المقمرة وهبَّ واقفًا فلم يعد هناك مجال لأي اتصال هاتفي. والشيء الوحيد الذي بات يشغل بال المدير المالي الآن هو: كيف يغادر المسرح بأسرع ما يمكن.

أصاخ السمع: كان الصمت يطبق على مبنى المسرح. إذَّاك أدرك أنه لم يبقَ في الطابق الثاني كله من فترة طويلة إلاه.و لحظة برقت هذه الفكرة في رأسه، تملَّكه خوف جارف كالخوف الذي يتملَّك الأطفال. لم يكن بوسعه أن يتصوَّر دون أن تأخذه الرعشة أن عليه الآن أن يسير وحده في الممرات الخالية ويهبط الدرج. وبحركة سريعة محمومة خطف تشيرفونتسات المنوِّم المغناطيسي من على الطاولة وخبأها في حقيبته وسعل كيما يشجِّع نفسه ولو قليلًا، فخرج سعاله مبحوحًا ضعيفًا.

وهنا بدا للمدير المالي أن رطوبة عفنة تسرَّبت فجأه من تحت باب المكتب فاقشعرَّ بدنه. ثم ما لبث أن سمع الساعة تدق فجأة معلنة منتصف الليل. وحتى دقات الساعة بعثت القشعريرة في أوصال المدير المالي. لكن قلبه انخلع تمامًا حين سمع صوت مفتاح إنكليزي يدور في قفل الباب. أحس، وقد تشبَّث بالحقيبة بكلتا يديه الباردتين الناضحتين عرقًا، أن أعصابه لم تعد تتحمَّل. وأنه سيطلق صراخًا حادًا فيما لو استمر الصرير في القفل أكثر من ذلك قليلًا.

وأخيرًا تراجع الباب أمام الجهد المبذول وانفتح ودخل فارينوخا المكتب بخطوات مكتومة. ووجد ريمسكي نفسه يتداعى على الأريكة وقد خذلته رجلاه. لكنه عبَّ الهواء بصدره وابتسم ابتسامة أقرب إلى أن تكون ابتسامة مداهنة وتمتم:

- «يا إلهي، كم أخفتني!».

نعم، كان هذا الظهور المباغت قمينًا بإلقاء الذعر في قلب أي كان، لكنه كان، مع هذا، مبعث سرور عظيم في الوقت نفسه. فقد ظهر على الأقل طرف خيط في هذه القضية المشرنقة.

- «هيا، تكلَّم بسرعة! هيا!». قال ريمسكي بصوت أبح متشبثًا بطرف هذا الخيط، «ما الذي يعنيه هذا كله؟!».

- «المعذرة من فضلك»، ردَّ عليه الداخل بصوت مكبوت وهو يغلق الباب وراءه، «حسبت أنك خرجت!».

ومضى فارينوخا إلى الأريكة دون أن ينزع قبعته، وجلس إلى الجانب الآخر من الطاولة.

وينبغي القول إن جواب فارينوخا انطوى على بعض الغرابة التي وخزت على

الفور المدير المالي، القادر بحساسيته على مضاهاة جهاز تسجيل الاهتزازات في أفضل محطات العالم، وخزته في جنبه على الفور. ما معنى هذا؟ لماذا مضى فارينوخا إلى مكتب المدير المالي ما دام يفترض أنه ليس هناك؟ أليس له مكتبه؟! هذا واحد. والثاني: أيًا كان المدخل الذي سلكه فارينوخا إلى المبنى، كان لا بد له من مصادفة أحد المناوبين الليليين، وهؤلاء جميعًا أبلغوا أن غريغوري دانيلوفتش سيتأخَّر في مكتبه بعض الوقت.

لكن المدير المالي لم يتوقَّف كثيرًا عند هذه النقطة الغريبة، فقد كان هناك ما هو أخطر منها.

- «لماذا لم تتصل هاتفيًا؟ وما معنى هذه المسخرة مع يالطا؟».

أجابه المدير الإداري وهو يتملَّق بلسانه كمن تزعجه سن موجعة: - «كما سبق وقلتُ، عُثر عليه في حانة في بوشكينو».

- «كيف في بوشكينو؟! هذه التي في ضاحية موسكو؟ والبرقيات من يالطا؟!».

- «أية يالطا تلك التي تتكلَّم عنها! لقد أسكر عامل البرق في بوشكينو وأخذا يتشاقيان ويعربدان. ومن بعض ما فعلاه أنهما أخذا يرسلان البرقيات مع إشارة إلى أن مصدرها يالطا».

- «ها... ها... أي... طيب، طيب...». خرج صوت ريمسكي أقرب إلى الغناء منه إلى الكلام، وأشرقت عيناه بنور ضارب إلى الصُفرة، وارتسمت في رأسه لوحة بهيجة عن عزل ستيوبا عزلًا مشينًا من عمله. الخلاص! الخلاص الذي طالما انتظره المدير المالي من هذه المصيبة المتمثِّلة في شخص ليخوديف! ولعل ستيبان بوغدانوفتش ينال ما هو أسوأ من العزل... - «أخبرني بالتفصيل!». قال ريمسكي وهو يدقّ الطاولة بنشَّافة الحبر.

وأخذ فارينوخا يروي له التفاصيل. ما إن حضر إلى حيث أرسله المدير المالي حتى قابلوه على الفور واستمعوا إليه باهتمام بالغ. لم يخطر ببال أحد منهم بطبيعة الحال أن ستيوبا قد يكون في يالطا، ولهذا وافقوا جميعًا على الفور على رأي فارينوخا أن ليخوديف دون شك في «يالطا» التي في بوشكينو.

قاطعه المدير المالي المنفعل: - «وأين هو الآن؟».

أجابه المدير الإداري بابتسامة ساخرة: - «وأين يمكن أن يكون، في قسم الإفاقة من السكر».

- «أي، أي!... شكرًا».

واستأنف فارينوخا روايته. وبقدر ما كان يمضي في روايته، كانت تمر أمام عيني المدير المالي وتتكشَّف بصورة أوضح سلسلة طويلة من نذالات ليخوديف وعربداته، وكل حلقة منها أسوأ من سابقتها. ماذا يمكن للمرء أن يقوله في هذه الرقصة الثملة معانقًا عامل البرق على فسحة أمام مركز البرق في بوشكينو على أنغام هرمونيكا متجوِّلة! أو مطاردة بعض السيدات اللواتي أخذن يزعقن من الرعب! أو محاولة الدخول في عراك مع عامل البوفيه في «يالطا» نفسها! ورمي البصل الأخضر على الأرض في «يالطا» إياها! وتحطيم ثماني زجاجات من نبيذ «أي دانيل» الأبيض! وكسر العدَّاد لسائق التاكسي الذي لم يشأ تسليم سيارته لستيوبا. والتهديد بالقبض على المواطنين الذين حاولوا وضع حد لأعمال ستيوبا الشنيعة. وباختصار شيء مرعب وغامض!

كان ستيوبا شخصًا معروفًا على نطاق واسع في أوساط موسكو المسرحية، وكان الجميع يدركون أن هذا الإنسان ليس نعمة هبطت عليهم من السماء. ومع هذا بدا ما يرويه المدير الإداري مبالغًا فيه حتى بالنسبة لستيوبا. نعم، مبالغ فيه جدًا...

انغرزت عينا ريمسكي الثاقبتان - عبر الطاولة - في وجه المدير الإداري، وبقدر ما كان هذا يسترسل في حديثه، كانت هاتان العينان تزدادان حزنًا. وبقدر ما كانت تلك التفاصيل الشنيعة التي كان المدير الإداري يزيِّن بها روايته تزداد حياة وتلاوين... كان تصديق المدير المالي لما يرويه صاحبه يتضاءل. ولمَّا أخبره فارينوخا أن الاستهتار بلغ بستيوبا حدَّ محاولته مقاومة من أتى لإعادته إلى موسكو، كان المدير المالي قد صار على يقين راسخ بأن كل ما يرويه له المدير الإداري في منتصف الليل كذب! كذب في كذب، من ألفه إلى يائه.

فلا فارينوخا ذهب إلى بوشكينو، ولا ستيوبا نفسه كان أيضًا في بوشكينو. ولم يكن هناك أي عامل برق سكران، ولا أي زجاج محطم في الحانة، ولم يقيِّد أحد ستيوبا بالحبال... لم يكن شيء من هذا كله.

ما إن رسخت في ذهن المدير المالي فكرة أن المدير الإداري يكذب عليه، حتى زحف الخوف في كل بدنه، بدءًا من قدميه. وتهيَّأ له من جديد - مرتين - أن رطوبة الملاريا العفنة امتدت فوق أرض المكتب. ودون أن يحوِّل عينيه لحظة عن المدير الإداري الذي انكمش في أريكته على نحو غريب جاهدًا طول الوقت ألا يخرج من الظل الأزرق الذي يلقيه مصباح الطاولة، والذي كان يحاول طول الوقت حجب وجهه على نحو عجيبٍ بجريدة يدفع بها ضوء المصباح المزعج كما يدَّعي. لم يكن المدير المالي يفكِّر إلاَّ في أمر واحد: ما معنى هذا كله؟ ولماذا المدير الإداري العائد إليه

في مثل هذه الساعة المتأخِّرة يكذب عليه بمثل هذه الصفاقة وفي هذا المبنى الخالي والصامت؟ وأخذ إدراك المدير المالي للخطر - الخطر المجهول إنما الجسيم - يؤرِّق روحه. تظاهر المدير المالي بأنه لا يلاحظ مراوغة فارينوخا ولا شعوذاته بالجريدة، وأخذ يتأمَّل وجه محدثه وهو يكاد لا يستمع إلى حرف مما يهرف به. كان هناك شيء ما بدا للمدير المالي أنه أكثر إلغازًا من هذه القصة المختلفة لأمر ما عن مغامرات ستيوبا في بوشكينو، وكان هذا الشيء التغيُّر في مظهر المدير الإداري وحركاته.

وعلى الرغم مما بذله المدير الإداري من جهد في إنزال حافة قبعته الضيقة على عينيه كيما يظلل بها وجهه، وعلى الرغم من تقليبه الجريدة، فقد تمكَّن المدير المالي من تبيُّن كدمة ضخمة على جانب وجهه الأيمن قرب الأنف بجلاء، زد على ذلك أن شحوبًا أشبه بشحوب المرض قد علا وجه المدير الإداري المورَّد الخدين عادة، ولأمر ما كانت رقبته ملفوفة في هذا الليل الخانق بشال قديم مخطَّط. وإذا أضفنا إلى هذا وذاك طريقة المدير الإداري القبيحة، التي ظهرت أثناء غيابه، في التملُّق بشفتيه ومصمصتها، والتغيُّر الحاد في صوته الذي أضحى أصم وفظًا، والجبن والتلصص في عينه، بات بإمكاننا القول بجرأة إن إيفان سافيليفتش فارينوخا استحال إنسانًا آخر.

وكان شيء ما آخر يؤرِّق بال المدير المالي بقوة أشد، لكنه لم يكن قادرًا على تحديد هذا الشيء بالضبط على الرغم من شحذه دماغه المحموم، وعلى الرغم من إمعانه النظر في فارينوخا. شيء واحد فقط كان بإمكانه تأكيده، وهو أن شيئًا ما غريبًا وغير طبيعي كان في التصاق المدير الإداري بأريكة ألفها جيدًا.

- «وأخيرًا تمكنَّا منه وشحناه بالسيارة»، نفخ فارينوخا وهو يختلس النظر من وراء الجريدة ويغطي الكدمة براحته».

مد ريمسكي يده فجأة وضغط كأنما آليًا زر الجرس الكهربائي براحته، وهو يلعِّب في الوقت نفسه أصابعه على الطاولة. وجمد.

كان من المفروض أن تُسمع في المبنى الخالي إشارة حادة، لكن هذه الإشارة لم تصدر، وغاص الزر في لوحة الطاولة دون حياة. كان الزر ميتًا، والجرس معطلًا.

ولم ينطلِ مكر المدير المالي على فارينوخا الذي سأله في تشنُّج وقد برق في عينيه غضب واضح:

- «لماذا ترن الجرس؟».

- «فعلت ذلك آليًا»، أجابه المدير المالي بصوت أصم ورفع يده عن الزر، وسأله بدوره بصوت متردِّد: - «ما هذا الذي على وجهك؟».

- «انحرفت سيارة عن طريقها فاصطدمتُ بمقبض الباب»، أجابه فارينوخا وهو يحوِّل عنه عينيه.

«كذَّاب!». هتف المدير المالي في سره. وهنا استدارت عيناه فجأة واختبلتا تمامًا، وحملق في مسند الأريكة.

كان ينبسط على أرض المكتب خلف الأريكة ظلان متقاطعان: أحدهما رقيق ورمادي وثانيهما أكثر كثافة وسوادًا. وكان يرى على الأرض بوضوح ظل مسند الأريكة وقوائمها الدقيقة، لكنه لم يكن هناك أي أثر من فوق المسند لظل رأس فارينوخا على الأرض، كما لم يكن تحت القوائم أي أثر لرجلي المدير الإداري.

«إنه لا يلقي ظلًا!»، صرخ ريمسكي في سره في رعب، وهزَّته قشعريرة.

التفت فارينوخا كالمتلصِّص إلى وراء مسند الأريكة متتبعًا نظرة ريمسكي المجنونة وأدرك أنه انكشف.

هبَّ من مقعده واقفًا (كما هبَّ في الوقت نفسه المدير المالي واقفًا) وتراجع عن الطاولة خطوة وهو يحتضن حقيبته بين يديه ويشد عليها.

- «حزرت أيها اللعين! طوال عمرك وأنت ذكي فطن»، قال فارينوخا وهو يبتسم ابتسامة تنضح بالشر في وجه المدير المالي مباشرة. ووثب على حين غرَّة إلى الباب وضغط بسرعة زر القفل الإنكليزي إلى الأسفل. تلفَّت المدير المالي حوله تلفت اليائس وهو يتراجع إلى النافذة المطلة على الحديقة، وفي هذه النافذة المغمورة بضوء القمر رأى المدير المالي وجه فتاة عارية ملتصقًا بالزجاج، ويدها العارية تمتد من كوَّة النافذة العليا وتحاول فتح المزلاج الأسفل. كان المزلاج الأعلى مفتوحًا.

بدا لريمسكي أن الضوء في مصباح الطاولة ينطفئ، وأن الطاولة تميل. أحس ريمسكي كأن أحدهم صب عليه سطل ماء بارد، لكنه، لحسن الحظ، تمالك نفسه ولم يسقط على الأرض. وأسعفه ما بقيَ فيه من قوة لأن يهمس، لا لأن يصرخ:

- «النجدة...».

كان فارينوخا يقف متربِّصًا عند الباب وهو يقفز قربه قفزات صغيرة يعوم خلالها طويلًا في الهواء ويتأرجح فيه، ويلوِّح بأصابعه الملتوية في اتجاه ريمسكي وهو يئز ويتمطق ويغمز الفتاة التي في النافذة.

أخذت الفتاة تعمل بسرعة أكبر: أدخلت رأسها الأصهب من الكوَّة ومدَّت يدها قدر ما استطاعت وأخذت تخدش المزلاج السفلي بأظافرها وتهز إطار النافذة. وأخذت يدها تطول كأنها من مطاط، وتغطَّت بخضرة كخضرة الجثث. وأخيرًا أمسكت أصابع

الميتة الخضر برأس المزلاج وأدارته وأخذ الإطار ينفتح. ندت عن ريمسكي صرخة خافتة، واستند إلى الحائط ورفع حقيبته أمامه كأنها ترس. لقد أدرك أن أجله قد حان.

وانفتح الإطار على مصراعيه، لكنه، بدلًا من طراوة الليل وأريج الزيزفون، انسلت إلى الغرفة رائحة القبو. ولاحت الميتة على حافة النافذة، ورأى ريمسكي بوضوح بقع العفن على صدرها.

في هذا الوقت بالذات علا صياح الديك المفاجئ الفرِح من الحديقة، من ذلك المبنى الواطئ الواقع خلف لعبة التصويب حيث كانت تربَّى الطيور التي تشارك في البرامج. كان الديك المروَّض ذا الصوت الصدَّاح يدوِّي معلنًا أن الفجر قادم إلى موسكو من الشرق.

شوَّه غضب فظيع وجه الفتاة فأطلقت شتيمة مبحوحة، بينما زعق فارينوخا العائم في الهواء قرب الباب وهوى على الأرض.

وتكرَّر صياح الديك، فصرَّت الفتاة أسنانها وانتصب شعرها الأشهب. ومع صياح الديك للمرة الثالثة استدارت وولَّت طائرة إلى الخارج، وتبعها فارينوخا سابحًا على مهل في الهواء فوق الطاولة وقد قفز وبسط جسمه أفقيًا كأنه الكيوبيد الطائر. واندفع نحو الباب شيخ هَرِم أبيض الشعر كالثلج ليس فيه شعرة سوداء واحدة (ولم يكن هذا الشيخ قبل لحظات قليلة إلا ريمسكي نفسه) وفك الزر وفتح الباب واندفع يعدو في الممر المظلم. وعند عطفة الدرج تلمس زر الكهرباء وهو يئن من الخوف، فغمر النور الدرج. وسقط الشيخ الهَرِم المرتجف المرتعد على الدرج إذ بدا له أن فارينوخا حطَّ برفقٍ من علٍ.

ورأى ريمسكي، بعد أن هبط الدرج عدْوًا إلى الأسفل، المناوب غافيًا قرب شباك التذاكر الذي في الردهة. انسل ريمسكي على أطراف أصابعه خارجًا من الباب الرئيسي. وأحس ببعض الراحة حين وجد نفسه خارج المبنى، وعاد إليه وعيه بحيث ضرب على رأسه إذ فطن إلى أن قبعته بقيت في المكتب.

من نافلة القول إن ريمسكي لم يعد أدراجه لأخذ قبعته، بل عبر الشارع العريض ركضًا وهو يلهث إلى الناصية المقابلة التي قرب دار السينما حيث يلوح ضوء أحمر خافت. وفي دقيقة كان قرب الضوء. لم يتمكن من أن يسبقه إلى السيارة الواقفة هناك.

- «قطار لينينغراد السريع، ولك بقشيش»، قال الشيخ الهَرِم وهو يتنفَّس بصعوبة ويضع يده على قلبه.

- «إني ذاهب إلى المرآب»، أجابه السائق بحقد وتحوَّل عنه.

إذَّاك فتح ريمسكي حقيبته وأخرج منها خمسين روبلًا ومد بها يده إلى السائق من النافذة الأمامية المفتوحة.

وفي لحظات كانت العربة المطقطقة تنطلق بسرعة الريح في شارع سادوفايا، وراكبنا يعلو ويهبط داخلها. وهو يتطلّع في قطعة المرآة المعلّقة أمام السائق فيرى تارة عيني السائق المبتهجتين وتارة أخرى عينيه المجنونتين.

قفز ريمسكي من السيارة أمام مبنى المحطة وصاح في أول شخص صادفه يلبس مئزرًا أبيض ويضع الشارة الخاصة:

- «درجة أولى، شخص واحد، أعطيتك ثلاثين»، كان يخرج التشيرفونتسات ويكوّمها بيده، «إذا لم يبق مقعد في الدرجة الأولى ففي الثانية، وإلا ففي الثالثة».

واختطف الرجل ذو الشارة التشيرفونتسات من يد ريمسكي وهو يتطلّع إلى الساعة المضاءة.

وبعد خمس دقائق اختفى القطار السريع من تحت قبة المحطة الزجاجية وابتلعته الظلمة تمامًا، واختفى معه ريمسكي.

## الفصل الخامس عشر

# حلم نيكانور إيفانوفتش

ليس من الصعب على القارئ أن يحزر أن ذا الوجه الأحمر الذي أُدخل الغرفة 119 في المستشفى كان نيكانور إيفانوفتش بوسوي. إلا أن بوسوي لم يجد نفسه في عيادة البروفيسور سترافنسكي مباشرة، بل أدخل قبلها مكانًا آخر مكث فيه بعض الوقت. ولم يبقَ في ذاكرة نيكانور إيفانوفتش من هذا المكان الآخر إلا الشيء القليل: الطاولة والخزانة والأريكة فقط.

هناك تحدَّث بعضهم إلى نيكانور إيفانوفتش الذي غامت الأشياء أمام عينيه من احتقان الدم والهيجان النفسي، لكن الحديث الذي عُقد كان غريبًا مضطربًا، والأصح القول إنه لم يعقد أي حديث.

كان السؤال الأول الذي طُرح على نيكانور إيفانوفتش هو التالي:

- «أنت نيكانور إيفانوفتش بوسوي رئيس الجمعية السكنية في البناية رقم 302 مكرَّر التي في سادوفايا؟».

انفجر نيكانور إيفانوفتش في ضحكة مريعة وأجاب بالحرف الواحد:

- «أنا نيكانور، طبعًا نيكانور! ولكن رئيس؟ أي رئيس أنا بحق الشيطان!».

- «ماذا تقصد؟»، سألوا نيكانور إيفانوفتش وهم يضيِّقون عيونهم.

- «أقصد... أني لو كنت رئيسًا لكان عليَّ أن أحدِّد على الفور أنه قوة شريرة! وإلا ما معنى هذا؟ نظارة أنفيه مصدَّعة... وثيابه كلها مهلهلة... كيف يمكن أن يكون شخص كهذا مترجمًا لدى أجنبي!».

- «على من تتكلَّم؟»، سألوا نيكانور إيفانوفتش.

- «كوروفييف!»، زعق نيكانور إيفانوفتش. - «استقر في الشقة رقم 50 عندنا!

سجِّلوا: كوروفييف. يجب القبض عليه فورًا. سجِّلوا: المدخل الرئيسي السادس. إنه هناك».

سألوه بلطف ورقة: - «ومن أين لك العملة الأجنبية؟».

- «الله الحق، الله الكلي القدرة يرى كل شيء. وأمامه سأمثل في يوم ما. لم أمسك في حياتي قط عملة أجنبية ولا أعرف ما هي! الله يعاقبني على إثمي»، أردف نيكانور إيفانوفتش بانفعال وهو يزرِّر قميصه تارة ويفكه تارة أخرى، ويرسم إشارة الصليب ثالثة، «لقد أخذت نقودًا! لقد أخذت نقودًا، لكني أخذتها بعملتنا السوفيتية! سجَّلتُ بعضهم لقاء مال أحيانًا أنا لا أنكر ذلك. وسكرتيرنا بروليجنيف لم يقصِّر، هو أيضًا لم يقصِّر! وبصراحة جميعهم في الإدارة السكنية لصوص. لكني لم آخذ عملة أجنبية».

وعندما طُلب إليه ألا يتباله، بل أن يروي لهم كيف وُجدت الدولارات في كوَّة التهوية، خرَّ نيكانور إيفانوفتش على قدميه واهتز فاغرًا فمه كأنما يريد ابتلاع قطعة من الباركيه وقال بصوت كالخوار:

- «مستعد، إذا شئتم، أن آكل التراب برهانًا على أني لم آخذ دولارات! أما كوروفييف فشيطان».

لأي صبر حدود، وقد ارتفع صوت بعضهم الجالس إلى المكتب ولمَّح لنيكانور إيفانوفتش أن آن له أن يتكلَّم بلغة بني البشر.

وهنا دوَّى في الغرفة ذات الأريكة إياها زئير وحشي أطلقه نيكانور إيفانوفتش الذي هبَّ واقفًا:

- «ها هو ذا! ها هو ذا خلف الخزانة! ها هو ذا يبتسم ساخرًا! ونظارته الأنفية أيضًا... أمسكوه! رشُّوا البيت بالماء المقدس!».

غار الدم من وجه نيكانور إيفانوفتش وأخذ يرسم إشارة الصليب في الهواء، ويندفع نحو الباب جيئة وذهابًا وهو يرتجف كالورقة، ثم رتَّل صلاة، وأخيرًا أخذ يهلوس.

بات واضحًا تمامًا أن نيكانور إيفانوفتش لم يعد صالحًا لأي حديث، فاقتيد إلى غرفة منفردة حيث هدأ بعض الشيء ولم يعد يصدر عنه إلا الصلاة والتشنُّج.

ذهبوا إلى سادوفايا بطبيعة الحال، ودخلوا الشقة رقم 50، لكنهم لم يجدوا أي شخص باسم كوروفييف هناك، ولا وجدوا في البناية أحدًا عرف أو رأى شخصًا باسم كوروفييف.

كانت الشقة التي يشغلها المرحوم برليوز وليخوديف الذي غادر إلى يالطا خالية تمامًا، وأختام الشمع التي لم يمسّها أحد تتدلّى بسلام من على أبواب خزانات

المكتب. هذا ما خرجوا به من سادوفايا، إلا أنه خرج مع الخارجين سكرتير إدارة الجمعية السكنية بروليجنيف الذاهل والمسحوق.

ومساء ذلك اليوم أُحضر نيكانور إيفانوفتش إلى مستشفى سترافنسكي، لكنه كان في سلوكِه من الهياج والصخب ما اضطرهم إلى إعطائه حقنة بوصفة من سترافنسكي، ولم يغفُ نيكانور إيفانوفتش في الغرفة رقم 119 إلا بعد منتصف الليل وهو يصدر بين الحين والآخر خوارًا ثقيلًا موجعًا.

ومع مرور الوقت صار نومه أيسر وأهنأ. ولما كف عن الدمدمة والأنين وأخذ يتنفَّس بهدوء وانتظام، غادروا الغرفة وتركوه وحده.

إذَّاك ألمَّ بنيكانور إيفانوفتش حلم يقوم في أساسه، دون شك، على ما عاناه في يومه هذا. بدأ الحلم بأن رأى نيكانور إيفانوفتش أشخاصًا يحملون أبواقًا ذهبية في أيديهم يشيعونه وبكل مهابة حتى أبواب كبيرة صقيلة، وعند هذه الأبواب كأنما عزف مرافقوه له سلامًا موسيقيًا، ثم سمع صوتًا عميقًا مدوِّيًا يهبط عليه من السماء ويقول له:

- «أهلًا وسهلًا بك يا نيكانور إيفانوفتش! سلِّم العملة الأجنبية!».

تملَّكت نيكانور إيفانوفتش دهشة عظيمة ورفع عينيه فرأى فوقه مكبِّر صوت أسود.

ثم لم يدرِ كيف وجد نفسه في صالة مسرح يتلألأ تحت سقفها المذهَّب ثريَّات الكريستال وتتدلَّى على جدرانها القناديل. كان كل شيء كما يجب أن يكون في مسرح صغير لكنه بالغ البذخ: خشبة مسرح وستارة مخملية مسدلة تناثرت على خلفيتها ذات اللون الكرزي القاتم كالنجوم الصغيرة صور مكبَّرة لأوراق نقدية ذهبية من فئة العشرة روبلات، ومكان الملقِّن، بل حتى الجمهور.

وأدهش نيكانور إيفانوفتش أن الجمهور كله كان من جنس واحد؛ الذكور، وكله - لأمر ما - كان ملتحيًا. وأدهشه أكثر من ذلك أنه لم تكن في الصالة كراسٍ وأن الجمهور كله كان يجلس على الأرض الممسوحة بشكل رائع والملساء.

شعر نيكانور إيفانوفتش ببعض الحرج وسط هذا الجمهور الجديد والواسع وتردَّد قليلًا، ألا أنه حذا حذوه وتربَّع على الأرض بين ملتحٍ بدين أصهب وآخر شاحب اللون لم يحلق ذقنه منذ فترة طويلة لكن أحدًا من الجالسين لم ينتبه إلى المُشاهد الجديد القادم.

وسُمع رنين جرس ناعم، وانطفأ النور وانفتحت الستارة، فبانت خشبة المسرح المضاءة ذات الخلفية المخملية السوداء تنتصب فوقها أريكة وطاولة صغيرة عليها جرس ذهبي صغير.

وهنا بان من وراء الكواليس فنان شاب في السموكينغ، حليق الذقن، مفروق الشعر بعناية، ذو تقاطيع وجه في غاية اللطف. دبّت الحيوية في الجمهور، واستدار كله ببصره إلى خشبة المسرح، توجّه الفنان إلى مكان الملقّن وفرك يديه.

- «جالسون؟». سألهم بصوت جهوري رقيق وابتسم للصالة.

- «جالسون، جالسون»، أجابوه كجوقة واحدة رددت بين أصوات غليظة وحادة.

- «احم...»، قال الفنان متفكرًا، لا أفهم، كيف لا يدرككم الملل؟ الناس كلهم يتمشّون الآن في الشوارع ويتمتعون بشمس الربيع ودفئه، بينما أنتم تجلسون هنا على الأرض، في هذه الصالة بجوّها الخانق! أيكون البرنامج شيقًا إلى هذا الحد؟ وعلى أي حال لكل ذوقه»، قال الفنان منهيًا كلامه بلهجة فلسفية.

ثم غيّر جرس صوته ونبرته وأعلن بصوت مرح مرنان:

- «وهكذا فالفقرة التالية من برنامجنا هي نيكانور إيفانوفتش بوسوي رئيس اللجنة السكنية ومدير مطعم الحمية. فليتفضل نيكانور ايفانوفتش!».

ردّت القاعة كلها على الفنان بالتصفيق، بينما اتسعت عينا نيكانور إيفانوفتش من الدهشة، أما مقدم البرنامج فقد أخذ يبحث عنه بنظره وسط الجالسين وهو يغطي وجهه بيديه من أنوار مقدّمة المسرح، ولما وجده أومأ إليه إيماءة ودودًا بإصبعه. ولم ينتبه نيكانور إيفانوفتش لنفسه إلا وهو على خشبة المسرح.

ولطم نور المصابيح الملوّنة عينيه من تحته ومن أمامه مما جعل الصالة تغور في الظلام مع جمهورها على الفور.

وقال له الفنان الشاب برقّة:

- «هيا يا نيكانور إيفانوفتش، أرنا نموذجًا، وناولنا عملة أجنبية».

ران على الصالة الصمت، لكن نيكانور إيفانوفتش التقط أنفاسه وقال بصوت خافت:

- «أقسم بالله أني...».

وما كاد ينطق هذه الكلمات حتى ضجّت القاعة بصيحات السخط فارتبك نيكاتور إيفانوفتش وصمت.

- «بقدر ما فهمتك، أردت أن تقسم بالله أن ليس لديك عملة أجنبية؟»، قال مقدم البرنامج وألقى على نيكانور إيفانوفتش نظرة تعاطف.

أجابه نيكانور إيفانوفتش: - «تمامًا، ليس عندي شيء من هذا».

رد الفنان: - «حسن، لكن اغفر لي قلة تواصعي: من أين جاءت الأربعمائة دولار التي وُجدت في مرحاض تلك الشقة التي لا يقطنها إلا أنت وزوجتك؟».

قال أحدهم في الصالة المعتمة بسخرية ظاهرة: «مسحورة!».

- «بالضبط، مسحورة»، أجاب نيكانور إيفانوفتش بِوَجَل موجهًا كلامه لا تدري لمن: للفنان أم للصالة المعتمة، وأردف موضحًا: «قوة شريرة. المترجم ذو المربعات هو الذي تركها عمدًا».

ومن جديد هدرت الصالة ساخطة. وعاد الفنان يقول بعد أن ساد الهدوء من جديد:

- «أي حكايات خرافية من حكايات لافونتين تلك التي عليَّ أن أسمعها هنا! تركوا عن قصد أربعمائة دولار! ها أنتم أولاء هنا كلكم تتعاملون بالعملة الأجنبية! وإني لأتوجه إليكم بوصفكم اختصاصيين: هل هذا معقول؟».

علت في الصالة بعض أصوات مستاءة: - «نحن لا نتعامل بالعملة الأجنبية، لكن هذا الأمر غير معقول».

قال الفنان بصوت حازم: - «أشاطركم الرأي تمامًا، إني لأسألكم: ما الذي يمكن أن يُترك عمدًا؟».

صاح أحدهم من وسط القاعة: - «طفل!».

قال مقدم البرنامج مثنيًا: - «صحيح كل الصحة، طفل، رسالة مغفلة، منشور، آله جهنمية وأشياء أخرى كثيرة، أما أربعمائة دولار فلا أحد يتركها عن قصد إذ لا يوجد مثل هذا الأبله في الطبيعة»، وهنا التفت إلى نيكانور إيفانوفتش وأردف يقول له بنبرة عتاب وحزن: «آه منك يا نيكانور إيفانوفتش! وأنا الذي عقدت عليك الأمل! لقد أخفقت فقرتك».

تعالى في الصالة الصفير موجَّهًا إلى نيكانور إيفانوفتش.

كما تعالى الزعيق:

- «إنه يتعامل بالعملة الأجنبية! بسببه هو وأمثاله نعاني ما نعاني دون ذنب!».

قال مقدم البرنامج بصوت وديع: - «لا تشتموه، إنه نادم»، وأردف وهو يحوِّل إلى نيكانور إيفانوفتش عينين زرقاوين تجول فيهما العبرات: «هيا، يا نيكانور إيفانوفتش، عد إلى مكانك!».

ثم قرع الجرس الصغير وأعلن بصوت عالٍ:

- «استراحة أيها الأوغاد!».

ومرة أخرى، نيكانور إيفانوفتش المبهوت، الذي أسهم على غير توقع منه في برنامج مسرحي، وجد نفسه في مكانه على الأرض. وهنا بدا له أن الصالة غرقت في ظلمة ظلماء وأن كلمتين حمراوين ومتوقّدتين: «سلّم العملة!» تتواثبان على الجدران. ثم فتحت الستارة من جديد وسُمع صوت مقدم البرنامج يعلن:

- «أرجو أن يصعد سيرغي غيراردوفتش دونتشل إلى خشبة المسرح».

كان دونتشل في الخمسين من عمره، لطيف المظهر، محترمه، لكنه مُهْمَله جدًا.

وتوجّه إليه مقدِّم البرنامج بالقول:

- «من شهر ونصف وأنت تجلس هنا، يا سيرغي غيراردوفتش، وتمتنع بعناد عن تسليم ما بقيَ لديك من عملة أجنبية، في حين أن البلد في حاجة إليها، وأنها لا تنفعك في شيء على الإطلاق، ومع هذا فأنت تعاند وتمعن في العناد. أنك إنسان مثقف وتدرك هذا كله تمامًا، ومع هذا لا تريد التجاوب معي».

أجاب دونتشل بصوت هادئ: - «ليس بوسعي فعل شيء مع الأسف، إذ لم يعد لديَّ شيء منها».

سأله الفنان: - «أليس لديك بعض الأحجار الماسية على الأقل؟».

- «وهذه ليس لديَّ منها شيء».

نكَّس الفنان رأسه وفكَّر قليلًا ثم صفَّق بكفيه، فخرجت من وراء الكواليس إلى خشبة المسرح سيدة في منتصف العمر ترتدي ملابس على الموضة، أي معطفًا بلا ياقة وقبعة صغيرة. كان مظهر السيدة يشي بقلقها. ونظر دونتشل إلى السيدة دون أن يهتز له جفن.

سأل مقدم البرنامج دونتشل: - «من هذه السيدة؟».

- «إنها زوجتي»، أجاب دونتشل بوقار وتطلَّع ببعض الاشمئزاز إلى عنق زوجته الطويل.

قال الفنان موجِّهًا كلامه إلى السيدة: - «لقد أزعجناك يا مدام دونتشل، والسبب هو أننا نريد سؤالك إن كانت لا تزال لدى زوجك عملة أجنبية».

أجابت مدام دونتشل في اضطراب: - «لقد سلَّمها كلها إذَّاك».

قال الفنان: - «حسنًا، وهو كذلك، ما دام قد سلَّمها كلها فلا بد لنا أن نفترق على الفور. بإمكانك مغادرة المسرح يا سيرغي غيراردوفتش إذا شئت»، ورفع الفنان يده في حركة ملكية.

استدار دونتشيل برزانة ووقار واتجه إلى الكواليس.

قال مقدم البرنامج يوقفه: - «دقيقة! اسمح لي قبل الوداع أن أريك فقرة أخرى من برنامجنا»، وصفّق براحتيه من جديد.

انفرجت الستارة الخلفية السوداء وخرجت إلى خشبة المسرح كاعِبٌ حسناء في لباس السهرة تحمل بين يديها صينية ذهبية فيها رزمة سميكة مربوطة بشريط، وعقد من الماس يقدح لمعانه الأزرق والأصفر والأحمر في كل اتجاه.

تراجع دونتشيل خطوة وغشيَ وجهه الشحوب وجمدت الصالة.

وأعلن الفنان بصوت مهيب:

- «ثمانية عشر ألف دولار وعقد بأربعين ألف روبل ذهبي كان يحتفظ بها سيرغي غيراردوفتش في مدينة خاركوف في شقة عشيقته أيدا غيركولانوفتا فورس التي يسرّنا أن نراها أمامنا، والتي تلطفت وساعدتنا في العثور على هذه الكنوز التي لا تقدر بثمن إنما العديمة الجدوى في حوزة فرد واحد. شكرًا جزيلًا لك يا أيدا غيركولانوفنا».

ابتسمت الحسناء فلمعت أسنانها واهتزت رموشها الكثيفة. واستطرد الفنان موجهًا كلامه إلى دونتشل:

- «أما أنت فتحت مظهرك المليء بالوقار يختفي عنكبوت نَهِم وخَدّاع وقح وكذاب. لقد أعييتنا جميعًا طوال شهر ونصف بعنادك البليد. أما الآن فهيًّا إلى بيتك ولتكن جهنم التي ستقيمها زوجتك على رأسك وتقعدها جزاءك عمّا فعلت».

ترنح دونتشل، وبدا أنه على وشك أن يسقط على الأرض، لكن أيادي عطوفة، لست تدري أيادي مَنْ، تلقّفته. وهنا سقطت الستارة الأمامية دفعة واحدة وأخفت كل من كان على الخشبة.

هزَّ الصالة تصفيق مسعور حتى بدا لنيكانور إيفانوفتش أن أضواء الثريّات أخذت تقفز. وعندما انسحبت الستارة الأمامية السوداء إلى الأعلى، لم يكن على الخشبة إلا الفنان بمفرده الذي كانت من نصيبه العاصفة الثانية من التصفيق وانحنى محييًا وقال:

- «لقد رأيتم في برنامجنا حمارًا نموذجيًا في شخص دونتشل هذا. لقد كان من دواعي سروري أن أقول لكم البارحة أن إخفاء العملة الأجنبية عمل غير مجدٍ، وكونوا على يقين أن لا أحد يستطيع أن يستخدمها في أي حالة من الحالات. خذوا دونتشل هذا على سبيل المثال. إنه يقبض راتبًا ممتازًا ولا يفتقر إلى شيء. عنده شقة رائعة وله زوجة وعشيقة حسناء. لكنه بدلًا من أن يسلِّم العملة والأحجار الكريمة، التي لديه، ويعيش في هدوء وسلام دون أي منغصّات، تسبَّب هذا الأبله الطماع لنفسه بفضيحة علنية

وطعَّمها بفضيحة عائلية كبيرة. وهكذا من يسلِّم؟ ألا من راغب؟ في هذه الحالة الفقرة التالية في برنامجنا للفنان الدرامي الموهوب والمعروف كوراليسوف سافا بوتابوفتش الذي دعوناه خصيصًا ليؤدِّي مقاطع من «الفارس البخيل» للشاعر بوشكين.

ولم يتأخَّر كوراليسوف الموعود في الظهور على خشبة المسرح، وكان رجلًا حليقًا فارع الطول لحيمًا يضع فراكًا وربطة عنقٍ بيضاء.

ودون أي مقدمات اصطنع وجهًا وقطَّب حاجبيه وأخذ يقول بصوت مفتعل وهو ينظر شزرًا إلى الجرس الذهبي:

- «كفتى طائش ينتظر لقاء مع بغي ماكرة...».

وروى كواليسوف كثيرًا من الأشياء السيئة عن نفسه. وسمع نيكانور إيفانوفتش كوارليسوف يعترف لهم كيف أن أرملة تعسة ركعت أمامه تحت المطر وهي تنوح وتعول لكنها لم تمس شغاف قلبه القاسي. لم يكن نيكانور إيفانوفتش حتى حلمه هذا يعرف على الإطلاق مؤلفات الشاعر بوشكين، لكنه كان يعرف بوشكين نفسه معرفة رائعة. وكانت تخرج من فمه عدة مرات كل يوم جمل من نوع: «هل سيدفع بوشكين أجرة الشقة؟» أو «بوشكين إذن هو الذي فك المصباح على الدرج؟» أو «بوشكين إذن هو الذي سيشتري المازوت؟».

واغتمَّ نيكانور إيفانوفتش الآن بعد أن تعرَّف على أحد مؤلفات بوشكين، وتمثَّلت أمامه المرأة مع أولادها اليتامى جاثية على ركبتيها تحت المطر، وفكَّر على الرغم منه قائلًا: «يا له من سافل كوراليسوف هذا!».

أما هذا، فتابع يبدي ندمه رافعًا صوته باستمرار، وأخيرًا أربك نيكانور إيفانوفتش تمامًا لكنه أخذ فجأة يخاطب شخصًا ما لم يكن موجودًا على خشبة المسرح، ثم يجيب نيابة عن هذا الشخص الغائب، هذا إلى أنه كان يدعو نفسه «سيد» تارة، و«بارون» تارة أخرى، و«والد» ثالثة و«ابنًا» رابعة، وأحيانًا يخاطبه بصيغة الجمع وأحيانًا بصيغة المفرد.

ولم يفهم نيكانور إيفانوفتش من هذا كله إلا أمرًا واحدًا هو أن الفنان مات ميتة شريرة بعد أن صرخ: «المفاتيح! مفاتيحي!» وسقط على الأرض وهو يحشرج ويفك ربطة عنقه بحذر.

وهبَّ كوراليسوف واقفًا بعد أن مات، ونفض الغبار عن بنطال فراكه وانحنى مبتسمًا ابتسامة زائفة، وتوارى مشيَّعًا بتصفيق متفرِّق. أما مقدم البرنامج فقال:

- «استمعنا معًا إلى «الفارس البخيل» في أداء سافا بوتابوفتش الرائع. كان هذا

الفارس يأمل أن تتهافت الحوريات اللعوبات عليه، وأن تحدث أمور كثيرة لطيفة بهذه الروح. لكن شيئًا من هذا لم يحدث، كما رأيتم، فلا الحوريات تهافتن عليه، ولا ربَّات الشعر أدَّين له ما عليهن، ولم يبنِ أي قصور أو مَخادع بل مات غير مأسوف عليه ميتة شنيعة من ضربة على صندوقه الذي خبأ فيه العملة والأحجار الكريمة. وإني لأحذركم أنه سينالكم شيء من هذا القبيل إن لم يكن أسوأ ما لم تسلِّموا ما لديكم من عِملة!».

لا أحد يدري ما السبب، أهو شعر بوشكين الذي أحدث هذا التأثير أم خطاب مقدم البرنامج النثري، إلا أن صوتًا خجولًا سُمع يقول من الصالة:

- «أريد أن أسلِّم ما لديَّ من عملة».

- «أرجو التفضُّل والصعود إلى خشبة المسرح!» قال مقدم البرنامج يدعوه بأدب وهو يحدِّق في الصالة المظلمة.

وظهر على خشبة المسرح مواطن أشقر، قصير القامة، لم يحلق ذقنه من نحو ثلاثة أسابيع إذا ما حكمنا عليه من وجهه.

قال مقدم البرنامج مستفسرًا: «عفوًا! ما كنيتك؟».

أجابه بوجل» - «كانافكين نيكولاي».

- «آ! تشرَّفنا، أيها المواطن كانافكين، ماذا تريد؟».

قال كانافكين بصوت خافت: - «تسليم العملة الأجنبية».

- «ما مقدارها؟».

- «ألف دولار وعشرون قطعة من فئة العشرة روبلات ذهبية».

- «برافو! هذا كل ما لديك؟».

وثبَّت عرِّيف الحفل عينيه في عيني كانافكين حتى بدا لنيكانور إيفانوفتش أنه انبعثت من تينك العينين أشعة اخترقت كانافكين كما تخترق أشعة رونتجن[1] جسم الإنسان. وحبس من في الصالة أنفاسهم.

هتف الفنان أخيرًا وأطفأ نظرته: - «أصدقك! أصدقك! هاتان العينان لا تكذبان. وأنا كم قلت لكم إن خطأكم الأساسي في أنكم لا تقدِّرون قيمة العينين الإنسانيتين حق قدرهما. افهموا أخيرًا أن اللسان قد يستطيع كتم الحقيقة أما العينان فأبدًا! قد تفاجأ بسؤال فلا تأخذك حتى مجرَّد رعشة. بل تضبط نفسك في ثانية وتعرف ما ينبغي عليك قوله حتى تخفي الحقيقة، وتقول ما تقوله بشكل مقنع تمامًا ودون أن تتحرَّك ثنية من

---

(1) الأشعة السينية، أو أشعة إكس. نسبة إلى مكتشفها كونراد رونتجن. الناشر.

ثنايا وجهك. لكن الحقيقة التي أقضَّ مضجعها السؤال تثب في لحظة، مع الأسف، من أعماق النفس إلى العينين وينتهي كل شيء. لقد بانت الحقيقة وأمسكت متلبسًا بالكذب!».

وبعد أن ألقى الفنان هذا الخطاب الشديد الإقناع بحرارة بالغة سأل كانافكين برقَّة:

- «وأين خبَّأتها؟».

- «عند عمتي، بوروخوفنيكوفا، في بريتشيستنكا[1]...».

- «آ! عند... مهلًا... عند كلافديا إيلينشنا، أليس كذلك؟».

- «نعم».

- «آه، أي، أي، أي! الدار الصغيرة المنعزلة؟ وقبالتها أيضًا حديقة صغيرة؟ كيف لا، أعرفها، أعرفها! وأين دسستها هناك؟».

- «في القبو، في علبة فارغة من علب بسكويت «أينيم»...».

ضرب الفنان كفًا بكف وصاح بصوت مغموم:

- «هل رأيتم شيئًا كهذا؟ لكنها هناك ستصدأ وتهترئ من الرطوبة! هل من المعقول، بالله عليكم، أن يؤتمن ناس كهؤلاء على عملة أجنبية؟ آ؟ أطفال والله اطفال!».

كانافكين الذي أدرك أنه أخطأ وفضح أمره، نكَّس رأسه الشبيه بالقبّرة.

وتابع الفنان يقول:

- «النقود يجب أن تُحفظ في مصرف الدولة، في أماكن خاصة جافة ومحروسة جيدًا، وليس في قبو عند عمَّة حيث تستطيع الجرذان إتلافها! أمر مخجل حقًا يا كانافكين! فأنت إنسان راشد!

لم يعد كانافكين يدري أين يخفي وجهه فلم يفعل سوى أن أخذ يفرك بأصابعه طرف جاكتته.

قال الفنان بلهجة أرق: - «حسنًا، لننس الماضي...»، وأضاف فجأة بشكل مباغت:

- «آ، بالمناسبة وكي لا تضطر السيارة إلى الذهاب إلى هناك مرتين... عمَّتك هذه لديها عملة أليس كذلك؟ آ؟».

ارتعد كانافكين الذي لم يكن يتوقَّع إطلاقًا هذا التحوُّل في مجرى الموضوع، وران الصمت على الصالة.

قال له عرِّيف الحفلة بلهجة عتاب رقيق: - «أي كانافكين، وأنا الذي أثنيت عليه!

---

(1) شارع شهير في موسكو. الناشر.

لقد انقطع لسانه فجأة! هذا غير معقول يا كانافكين! فأنا لم أكد أنتهي من كلامي على العينين. الظاهر أن لدى عمتك عملة. هيا. لماذا تعذبنا عبثًا؟».

صاح كانافكين باندفاع: - «نعم لديها!».

صاح عرِّيف الحفلة: - «برافو!».

هدرت الصالة: - «برافو!».

وعندما عاد الهدوء هنَّأ عرِّيف الحفلة كانافكين وشدَّ على يده وعرض عليه أن يعيده إلى بيته بالسيارة، وأمر أحد الموجودين في الكواليس أن يعرِّج معه على عمَّته بالسيارة نفسها ويطلب إليها أن تتفضَّل لحضور البرنامج في المسرح النسائي.

- «على فكرة. أردت أن أسألك: ألم تقل لك عمتك أين تخبِّئ مالها؟»، سأله عرِّيف الحفلة وهو يقدِّم له بلطف وكياسة سيجارة وعود ثقاب مشتعلًا... ابتسم كانافكين ابتسامة حزينة وهو يسحب نفسًا من سيجارته.

قال عرِّيف الحفل متنهدًا: - «أصدقك، أصدقك، هذه الحيزبون البخيلة لن تُسِرَّ بهذا - ليس لابن أخيها فقط - وإنما حتى للشيطان نفسه، ولكن لا بأس، سنحاول إيقاظ المشاعر الإنسانية فيها. قد لا تكون كل الأوتار قد تقيَّحت وتلفت في نفس هذه المرابية. أتمنى لك كل خير يا كانافكين».

وغادر كانافكين خشبة المسرح سعيدًا. ثم سأل الفنان إن كان هناك من يرغب في تسليم ما لديه من عملة أجنبية، لكن الصمت كان هو الجواب.

- «غريبو الأطوار والله!». قال الفنان وهو يهز كتفيه. وحجبته الستارة.

انطفأت المصابيح فساد الظلام بعض الوقت، ومن بعيد في وسط الظلام سُمع صوت عصبي حاد يغني:

«أكوام الذهب هناك وأنا لها الملاك!».

ثم سُمع من مكان ما بعيد تصفيق تردَّد مرتين.

- «في المسرح النسائي إحدى السيدات تسلِّم ما لديها»، قال فجأة جار نيكانور إيفانوفتش الأصهب الملتحي، وأردف متنهدًا: «إيه، على ألا تكون إوزّاتي! عندي يا عزيزي، إوزات مصارعة في ليانوزوفو[1]، وأخشى أن تنفق من دوني. إنها طيور حركة، لطيفة، تتطلب عناية... على ألا تكون أوزاتي! لن تدهشني ببوشكين هذا»، وتنهَّد ثانية.

وهنا أضاءت الصالة بنور ساطع. وأخذ نيكانور إيفانوفتش يرى في حلمه طبّاخين

(1) من أحياء موسكو. الناشر.

في قبعات بيض يحملون مغارف في أيديهم يدخلون من أبواب الصالة زرافات، ومساعدي الطباخين يجرُّون خابية حساء وكثبة خبز أسود مقطع. ودَبَّ النشاط في النظارة وأخذ الطباخون المرحون يسعون بخفَّة وهمَّة بين عشَّاق المسرح ويوزعون عليهم الخبز، ويسكبون لهم الحساء في صحاف، وهم ينادون عليهم:

- «كلوا يا شباب، وسلِّموا ما لديكم من عملة أجنبية!! ما لكم تجلسون هنا سدى؟ هل راقك هذا الحساء الكريه؟ حبَّذا لو ذهبتم إلى بيوتكم وشربتم كما يجب ومززتم».

- «وأنت يا أبتِ مثلًا. علام تجلس في هذا المكان لا تبارحه؟». قال لنيكانور إيفانوفتش مباشرة طباخ بدين أحمر الرقبة وهو يتناول صحيفة حساء تطفو في مائه ورقة كرنب وحيدة.

صرخ نيكانور إيفانوفتش بصوت مريع: - «لا! لا! ليس عندي شيء! هل تفهم. ليس عندي شيء!».

- «ليس عندك شيء؟»، هدر الطباخ بصوت جهوري غاضب، ثم سأل بصوت نسائي رقيق: «ليس عندك شيء؟»، ثم أردف بلهجة تطمين: «ليس عندك شيء؟»، وقد تحوَّل فصار الممرضة براسكوفيا فيودوروفنا.

وهزَّت هذه بلطف نيكانور إيفانوفتش الذي كان يئن في نومه من كتفه. إذَّاك ذاب الطباخون وانهار المسرح وستارته. وتبيَّن نيكانور إيفانوفتش من خلال دموعه غرفته في المصحة واثنين في رداء أبيض، لكنهما لم يكونا من أولئك الطباخين الوقحين الذين يتطفَّلون على الناس بنصائحهم، بل طبيبًا وبرسكوفيا فيودوروفنا إياها التي لم تكن تمسك بيدها صحيفة، بل صحنًا صغيرًا مغطًى بشاش وفيه محقنة.

وأخذ نيكانور إيفانوفتش يردِّد بمرارة وهم يغرزون الإبرة في جنبه:

- «ما معنى هذا كله، قلت لكم: ليس عندي شيء، يعني ليس عندي! فليسلمهم بوشكين ما عنده من عملة! لا شيء عندي!».

قالت برسكوفيا فيودوروفنا الطيبة القلب تهدِّئ روحه: - «لا شيء عندك، لا شيء، ما دام ليس عندك شيء فلا مجال للكلام».

أحس نيكانور إيفانوفتش ببعض الراحة بعد الحقنة فغفا دون أن تراوده أي أحلام.

لكن الهيجان والقلق انتقلا بفضل صيحاته على الغرفة 120 حيث صحا مريضها وأخذ يفتِّش عن رأسه. وإلى الغرفة 118 حيث اهتاج المعلِّم المجهول وأخذ يعصر يديه في سَوْرة من الحزن والكآبة وهو يرنو إلى القمر ويتذكَّر تلك الليلة الخريفية المرَّة التي كانت آخر لياليه وشريط الضوء المتسلِّل من تحت الباب في القبو والشعر المشعث.

وانتقل القلق من الغرفة 118 إلى إيفان فصحا من نومه وأخذ يبكي.

لكن الطبيب هدَّأ بسرعة كل هؤلاء المهتاجين المصابين في عقولهم، فعادوا إلى النوم شيئًا فشيئًا، وكان إيفان آخر من غفا. غفا بعد أن أخذ ضوء النهار ينتشر فوق النهر. عاد إليه هدوءه وغمره، كما الموجة، بعد الدواء الذي روى كل خلاياه. استرخى جسمه وهوّم النعاس في رأسه نسيمًا دافئًا فغفا، وكانت زقزقة العصافير سرعان ما صمتت، والأحلام سرعان ما خفَّت إليه ورأى في حلمه أن الشمس أخذت تهبط فوق الجبل الأقرع وكان الجبل مطوَّقًا بطوقين من الجنود...

## الفصل السادس عشر

# الصلب

أخذت الشمس تهبط فوق الجبل الأقرع، وكان الجبل مطوَّقًا بطوقين من الجنود.

انطلق فوج الخيالة الذي قطع على الحاكم طريقه عند الظهر إلى بوَّابة الخليل خببًا بعد أن أخلى جنود الكتيبة القبادوقية[1] لها الطريق من حشود الناس والبغال والجمال. وبلغ الفوج خببًا وفي أعمدة عالية بيض من الغبار ظهر مفترق يتقاطع فيه الطريق الجنوبي المؤدي على بيت لحم والطريق الشمالي الغربي المؤدي على يافا. واندفع الفوج في الطريق الشمالي الغربي الذي انتشر القبادوقيون إياهم على جانبيه بعد أن طردوا منه كل القوافل القادمة إلى العيد في أورشليم. ووقفت وراءهم جموع الحجّاج التي خرجت من خيامها المؤقتة المخططة التي نصبتها فوق العشب مباشرة. ولم يقطع الفوج نحو كيلومتر واحد حتى لحق بالكتيبة الثانية من فرقة الصاعقة، ولم يقطع الكيلومتر الثاني حتى كان أول من بلغ سفح الجبل الأقرع، حيث ترجَّلوا. ونشر قائد الفوج جنوده فصائل طوَّقت سفح الربوة الصغيرة ولم تترك إلا منفذًا واحدًا يؤدي إليها من طريق يافا.

وبعد قليل من وصول الفوج السوري إلى الربة تبعته الكتيبة الثانية التي ضربت حول الجبل طوقًا أعلى طبقة من طوق الفوج السوري.

وأخيرًا وصلت مائة مارك قاتل الجرذان. كان الجنود المائة يسيرون مشكّلين سلسلتين تمتدان على جانبي الطريق، وبين هاتين السلسلتين وبمرافقة حرس سري، كانت تمضي عربة بثلاثة من المحكوم عليهم عُلِّقت في أعناقهم ألواح بيض كتب على كل منها باللغتين الآرامية واليونانية «لصٌّ وعاصٍ». وكانت تسير وراء عربة المحكوم

---

(1) نسبة إلى قبادوقيا، إقليم يقع في تركيا. الناشر.

عليهم عربات أخرى محمَّلة بأعمدة خشبية قُطعت حديثًا وثُبتت عليها عوارض وحبال ومعاول وقِرَب وفؤوس. كما كانت هذه العربات تنقل ستة جلادين، يتبعها مباشرة، على جيادهم، قائد المائة مارك ورئيس حرس هيكل أورشليم، وذلك الشخص إياه ذو القلنسوة الذي اختلى به بيلاطس لحظة في غرفة القصر المعتمة، يليهم في مؤخرة الركب جنود انتظموا سلسلة متراصة ووراءهم نحو ألفين من الفضوليين الذين لم يُخِفهم الحر الجهنمي ورغبوا في حضور هذا المشهد الطريف.

وانضم إلى فضوليي المدينة هؤلاء، الفضوليون من الحجاج الذين سُمح لهم، دونما أي عائق، بالسير في مؤخرة الموكب. وزحف الموكب على صيحات الدعاة الحادة، الذين كانوا يرافقون الرتل ويصيحون بما صاح به بيلاطس عند الظهر، إلى الجبل الأقرع.

سمح فوج الخيالة للجميع بالصعود إلى الطبقة العليا من الربوة أما المائة الثانية فلم تسمح إلا لمن له علاقة بتنفيذ الحكم بالصعود إلى القمة. ثم وبمناورة سريعة نشرت الجمهور الزاحف حول الربوة كلها بحيث صار محصورًا بين طوق المشاة في الأعلى وطوق الخيالة في الأسفل. إلا أنه كان بامكانه أن يرى عملية الصلب من خلال السلسلة المتفرِّقة من جنود المشاة.

وهكذا، مضى على صعود الموكب على الجبل أكثر من ثلاث ساعات، وأخذت الشمس تهبط فوق الجبل الأقرع لكن الحر كان لمّا يزل شديدًا لا يُطاق، وكان الجنود في كلا الطوقين يكابدون من الحرّ ومن الملل، ويلعنون في قلوبهم اللصوص الثلاثة ويتمنون لهم بصدق موتًا سريعًا.

كان قائد الفوج قصير القامة بجبينه المبلَّل وقميصه الأبيض، الذي كَمُد لونه على ظهره من العرق، يقف في أسفل الربوة عند المنفذ الوحيد إلى القمة. وكان يمضي بين الحين والحين إلى القربة الجليدية التي في الفصيلة الأولى ويغرف منها براحتيه ماء ويشرب ويرشّ على عمامته. فإذا ما شعر ببعض الارتياح أخذ يذرع الطريق الأغبر المؤدي إلى القمة جيئة وذهابًا، وسيفه الطويل يصل إلى جزمته الجلدية المشدودة. كان يريد أن يبدي لفرسانه مثلًا على قوة الاحتمال والصبر. لكنه أذن لهم مع هذا، إشفاقًا عليهم، أن يصنعوا من رماحهم المركوزة في الأرض أهرامات وينشرون فوقها بُرَدهم البيض. وإلى تحت هذه الخيم هرب السوريون من حرّ الشمس الذي لا يرحم. كانت القرب تفرغ بسرعة، وكان الفرسان من مختلف الفصائل يتوجَّهون كل بدوره لجلب الماء من وادٍ ضيِّق في سفح الجبل حيث كانت ساقية عكرة تعيش في هذا

القيظ الجهنمي آخر أيامها تحت بضع من شجيرات التوت العجِف الشحيحة الظل. وهنا أيضًا كان يقف السائسون الذين يمسكون بأعنَّة الخيول الهادئة وهم يحاولون أن يحتموا بالظل الشحيح ويعانون من السأم.

ولا بد من القول إن ملل الجنود وشتائمهم للمحكومين شيء مفهوم. زد على ذلك أن تخوُّف الحاكم من اضطرابات قد تحدث أثناء تنفيذ الحكم في مدينة أورشليم التي يكرهها لم يتحقَّق لحسن الحظ. فما إن حانت الساعة الرابعة على بداية العملية حتى لم يبق بين طرفي الجنود، المشاة في وسط الجبل والخيالة في أسفله، إنسان واحد رغم كل التوقعات. فقد أحرقت الشمس الجمهور المحتشد بلهيبها، وأعادته صاغرًا إلى أورشليم. ولم يبقَ خلف الكتيبتين الرومانيتين على الربوة سوى كلبين لا يُعرف صاحبهما ولا لماذا أتيا إلى هنا. كانا يتمددان على الأرض وقد أردَتهما الشمس القائظة وهما يمدان لسانيهما ويلهثان ولا يعيران اهتمامًا حتى للسحالي ذات الظهور الخضرِ، المخلوقات الوحيدة التي لا تخشى الشمس والتي كانت تتقلب بين الحجارة المتلظِّية وبعض النباتات ذات الأشواك الطويلة الزاحفة على الأرض.

لم يحاول أحد اختطاف المحكومين، لا في أورشليم التي كانت تعجُّ بالقُوّات، ولا هنا على الربوة المطوَّقة. وعاد الناس إلى المدينة إذ لا شيء شائق - بالفعل - في هذه العملية، في حين بدأت في أورشليم الاستعدادات لعيد الفصح العظيم الذي يحل مساء اليوم.

وكان جنود المشاة الرومانيون في الأعلى يعانون أكثر مما يعاني رفاقهم الخيالة. إذ إن قائد المائة قاتل الجرذان أبقى جنوده وقوفًا مشرَعي الرماح ولم يسمح لهم إلا بنزع خوذاتهم وتغطية رؤوسهم بعصابات بيض مبلَّلة بالماء. أما هو فكان يروح ويجيء على مقربة من الجَلّادين عاصب الرأس بعصابة مماثلة لكنها غير مبلَّلة بل جافة، وحتى دون أن ينزع عن قميصه وجوه الأسود الفضية المعقودة عليه، ودون أن ينزع غطاءَي الساقين ولا السيف والخنجر. كانت الشمس ترشق قائد المائة بسهامها الحارقة دون أن تصيبه بأي ضرر، أما وجوه الأسود فكان يستحيل النظر إليها إذ كان بريقها الباهر يغمر العيون وكأنه بريق فضة تغلي في الشمس.

لم يكن يلوح على وجه قاتل الجرذان المشوَّه أثر لتعب أو انزعاج، بل بدا قائد المائة العملاق هذا قادرًا على أن يروح ويجيء على هذا النحو النهار كله والليل كله ثم نهارًا آخر بكامله، وباختصار بقدر ما يُطلب منه، وأن يظل يروح ويجيء هكذا واضعًا يديه على نطاقه المثقل بالأنواط النحاسية، وأن يلقي بالصرامة نفسها نظرة إلى الأعمدة

الخشبية وقربها المحكومون تارة، وإلى جنوده الضاربين طوقًا حول الربوة تارة أخرى، وأن يحذف باللامبالاة نفسها بطرف جزمته الوَبِرَة ما يقع تحت قدميه من عظام إنسانية ابيضّت مع مرور الوقت أو صوَّانًا صغيرًا.

أما الشخص ذو القلنسوة، فاقتعد كرسيًا صغيرًا بثلاث قوائم على مقربة من الأعمدة منشرح الصدر لا يأتي بحركة سوى أن ينقب الرمل بين الحين والحين بطرف عود من مللِه.

ما قلناه من أنه لم يبقَ وراء طوق الجنود أحد ليس دقيقًا تمامًا. فقد بقي هناك شخص واحد لكنه لم يكن ظاهرًا للجميع. فهو لم يتخذ له مكانًا في الجانب الذي فيه المنفذ إلى الجبل والذي كان أنسبِ مكان لمشاهدة تنفيذ الحكم، بل في الجانب الشمالي حيث لم يكن الجبل منبسطًا ومكشوفًا، بل شديد النتوءات، فيه وهدات وشقوق، وحيث كانت شجرة توت سقيمة تحاول أن تعيش في شق من هذه الأرض التي لعنتها السماء فحرمتها من الماء.

و بالضبط تحت هذه الشجيرة التي لم تكن تلقي على الأرض أي ظل، تمركز هذا المشاهد الوحيد للصلب والوحيد الذي لم يشارك فيه. وجلس على حجر من بداية العملية أي منذ ثلاث ساعات ونيِّف. أجل لم يختر لمشاهدة عملية الصلب أفضل المواقع بل أسوأها. لكنه كان يرى من موقعه، على الرغم من هذا، الأعمدة، كما كان يرى وراء طوق الجنود البقعتين البرَّاقتين على صدر قائد المائة. وكان هذا، فيما يبدو، يرضي تمامًا إنسانًا يرغب رغبة واضحة في البقاء بعيدًا عن الأنظار وعن إزعاج الآخرين له.

لكن تصرُّف هذا الإنسان منذ أربع ساعات، أي قبيل بداية العملية، كان مغايرًا تمامًا لتصرّفه الآن وكان قمينًا بلفت الأنظار إليه، ولعل هذا ما دفعه الآن إلى تغيير مسلكه والانزواء وحيدًا وبعيدًا.

إذَّاك، أي حين اجتاز الموكب الطوق على القمة، شُوهد هذا الشخص أول مرة، كانت تبدو عليه أمارات إنسان تأخَّر كثيرًا عن موعده. كان يتنفَّس بصعوبة، ولم يكن يمشي، بل يعدو إلى الرابية وهو يدفع الناس. وحين رأى أن السلسلة انغلقت أمامه كما أمام الآخرين، قام بمحاولة ساذجة للتسلُّل عبر الجنود، متظاهرًا بأنه لا يفهم صيحاتهم المغيظة، إلى مكان تنفيذ الحكم تمامًا، حيث كان المحكوم عليهم يُنزلون من العربة. وكان جزاؤه طعنة قوية برأس كليل من رمح في صدره جعلته يقفز مبتعدًا عن الجنود ويصرخ، لكن ليس من ألمه بل من يأسه. رمى الجندي الذي طعنه بنظرة غائمة ولا مبالية بأي شيء كإنسان لا يشعر إطلاقًا بالألم الجسدي.

دار يركض حول الرابية وهو يسعل ويلهث ويضع يده على صدره لعله يجد في الجانب الشمالي ثغرة في الطوق يستطيع التسلل منها. لكن الوقت كان قد فات والحلقة انغلقت تمامًا، مما اضطر الرجل الذي شوَّه الألم قسمات وجهه إلى الكف عن محاولات الوصول إلى العربات التي كانت الأعمدة قد أنزلت منها. ولم يكن واردًا على الإطلاق أن ينجح في خطته اليوم بالذات. وها هو ذا ينتبذ مكانًا قصيًا في شق أكثر أمنًا لا شأن لأحد به.

كان هذا الإنسان الأسود اللحية المتقيِّح العينين من الشمس والأرق يجلس الآن على حجر وقد تولَّاه حزن وكآبة. كان يتنهَّد تارة كاشفًا عن عباءة بُليت من كثرة التجوال واستحال لونها الأزرق إلى رمادي قذر، وعن صدر كَدَمَه الرمح يتصبَّب عليه عرق وسخ، ويرفع عينيه إلى السماء تارة أخرى في عذاب لا يُطاق ملاحقًا بهما ثلاثة نسور جيف تحوم منذ فترة طويلة في السماء في دوائر كبيرة متوقِّعة مأدبة قريبة حافلة، ويحملق تارة ثالثة في الأرض الصفراء فيرى فيها جمجمة كلب نصف محطَّمة تتواثب الجرذان حولها.

كانت عذابات الرجل المبرِّحة من القوة بحيث كان يتحدَّث إلى نفسه بين الحين والحين.

- «يا لي من غبي!». كان يغمغم وهو يهتز متمايلًا على الحجر في وَجَع نفسي يهتصره ويخمش صدره الأسمر، «غبي، امرأة معتوهة، جبان، جيفة أنا ولست إنسانًا».

ثم كان يصمت وينكِّس رأسه ثم يعود إلى نشاطه بعد أن يشرب بعض الماء الفاتر من زمزميته الخشبية فيقبض على خنجره المخبوء على صدره تحت عباءته، أو يمسك قطعة ورق الرق الملقاة أمامه على الحجر قرب عصاه الصغيرة وزجاجة الحبر الصيني.

وعلى هذه الورقة دُوِّنت العبارات التالية على عجل.

«الدقائق تمضي سراعًا. وأنا، متّى اللاوي، على الجبل الأقرع، والموت لمَّا يأتِ».

ثم:

«الشمس تميل إلى المغيب، والموت لمَّا يأتِ»

والآن أخذ متّى اللاوي يسجِّل بطرف عصاه الحاد ما يلي وقد بلغ به اليأس أشده:

«لماذا تَصبّ عليه غضبك يا رب؟ لو تبعث له بالموت».

ثم نشج نشيجًا جافًا وخمش ثانية صدره بأظافره حتى أدماه.

كان سبب قنوط اللاوي هو الإخفاق المريع الذي لحق به وبيشوع، زد على ذلك الخطأ الفادح الذي اعتقد اللاوي أنه اقترفه، فأول البارحة كان يشوع واللاوي في بيفانيا

قرب أورشليم، حيث ضافا بستانيًا مشغوفًا بتعاليم يشوع. عمل الضيفان طيلة الصباح في البستان يساعدان مضيفهما وكانا يعتزمان المضي إلى أورشليم مساء ذلك اليوم مع انتعاش الجو. إلا أن يشوع تعجَّل، لأمر ما، سفره قائلًا إن لديه في المدينة أمورًا عاجلة لا يمكن تأجيلها وغادرهما قبيل الظهر وحده. وهنا بالضبط مكمن الخطأ الأول الذي اقترفه متَّى اللاوي. لماذا، لماذا ترك يشوع يذهب وحده!؟

ولم يتمكَّن متَّى من المضي إلى أورشليم في المساء، فقد أقعده مرض مباغت ومريع. كانت القشعريرة تهز أوصاله هزًا، وجسمه ينفث نارًا، وأخذ يصرُّ أسنانه ويطلب الماء كل دقيقة. كان عاجزًا عن الإتيان بأي حركة. تهاوى على بطانية في عنبر البستاني وظلَّ متمدِّدًا حتى فجر يوم الجمعة حين زاوله المرض فجأة كما ألمَّ به. وعلى الرغم من الوهن الذي أدركه ومن الرعشة في قدميه قام وقد تقبَّض صدره إحساس مسبق غريب بالكارثة الآتية، فودَّع صاحب البيت وتوجَّه إلى أورشليم، وأدرك هناك أن إحساسه لم يخدعه. كانت المصيبة قد نزلت، وكان اللاوي واحدًا من الجمهور الذي استمع إلى الحاكم يعلن الحكم.

عندما اقتيد المحكومين إلى الجبل، خفَّ متَّى اللاوي يتبع الموكب مع جمهور الفضوليين. كان يحث الخطى على مسافة يسيرة من الطوق الذي ضربه الجنود، لعله يتمكَّن على الأقل من إفهام يشوع بشكل أو بآخر خلسة أنه، هو اللاوي، هنا معه وأنه لم يتخلَّ عنه في طريقه الأخير، وأنه يدعو الله أن يوافي الموتُ يشوع بأسرع ما يمكن. لكن يشوع الذي كان ينظر إلى البعيد، إلى حيث كانوا يسوقونه، لم يرَ اللاوي بطبيعة الحال.

وما إن قطع الموكب نصف فرسخ على الطريق حتى لمعت في رأس متَّى، الذي كان وسط الجمهور يزحمه ويدفعه قرب الطوق المضروب، فكرة بسيطة وعبقرية. وراح في الحال يصب اللعنات على نفسه لأن الفكرة لم تخطر له من قبل، لم يكن الجنود يسيرون في حلقة متراصة وكانت بينهم فجوات، وكان بإمكان المرء فيما لو أوتيَ خفة كبيرة وحَسَبَ وأحكم التقدير أن ينحني وينسل بين جنديين ويبلغ العربة وينقضّ عليها. وإذَّاك سيُنقذ يشوع من عذاباته.

تكفيه لحظة واحدة كي يهتف وهو يطعن يشوع بالسكين في ظهره: «يا يشوع، أني أنقذك وأمضي معك! أنا متَّى تلميذك الأمين الوحيد!».

ثم إذا ما أنعم الله عليه بلحظة أخرى، سيكون بإمكانه طعن نفسه وتفادي الموت على خشبة! وعلى أي حال هذه النقطة الأخيرة لم تكن تعني اللاوي جامع العُشر

السابق إلا قليلًا. لا فرق عنده على أي وجه يكون موته. كان يريد شيئًا واحدًا؛ أن يتفادى التعذيب عن يشوع الذي لم يسِء للناس في حياته أقل إساءة.

كانت الخطة في غاية البراعة والإحكام، لكن المشكلة أن اللاوي لم يكن يحمل خنجرًا، كما لم تكن معه حتى قطعة واحدة من النقود.

وفي سَورَة من الحنق على نفسه خرج اللاوي من وسط الصفوف واندفع عائدًا أدراجه إلى أورشليم. كانت فكرة واحدة محمومة تسيطر على رأسه الملتهب؛ أن يحصل على الفور، وبأي طريقة كانت، على سكين في المدينة ليعود ويلحق بالموكب.

بلغ أبواب المدينة وما إن انسلَّ في زحمة القوافل المتدافعة عندها إلى داخل السور حتى رأى على يساره دكان خبز مفتوحًا. كان يردِّد أنفاسه بصعوبة بعد أن قطع الطريق المتوهِّجة بلظى الشمس عدْوًا، لكنه تمالك نفسه ودخل الدكان برزانة بالغة وحيّا صاحبتها التي كانت تقف خلف المنضدة وطلب منها أن تنزل له من الرف الرغيف العلوي الذي لا يدري لماذا أعجبه أكثر من الأرغفة الأخرى، وما إن استدارت حتى أخذ من فوق المنضدة بصمت وسرعة شيئًا لا يمكن أن يكون في الدنيا ما هو أفضل منه؛ سكين خبز طويلة ومشحوذة كالشفرة، واندفع يعدو خارجًا. وما هي إلا عدة دقائق حتى كان على طريق يافا، لكن الموكب كان قد غاب عن الأنظار، فانطلق يعدو ثانية. وكان يجد نفسه بين الحين والحين يهوي متمرِّغًا في التراب ويظل على هذه الحال بعض الوقت ريثما يسترد أنفاسه. وكانت حاله هذه تُذهِل القادمين إلى أورشليم على بغالهم أو على أقدامهم. كان يتمرَّغ في التراب وهو يستمع إلى قلبه يدق ليس في صدره وحسب، وإنما في رأسه وفي أذنيه أيضًا. وبعد أن يسترد أنفاسه كان يهبّ واقفًا ويستأنف العدو إنما بسرعة تزداد بطئًا، وعندما رأى أخيرًا في البعيد الموكب الطويل المجلَّل بالغبار، كان هذا قد وصل السفح.

- «أوه، يا إلهي...»، قال اللاوي يئن وقد أدرك أنه تأخَّر. وبالفعل كان قد تأخَّر.

عندما مضت الساعة الرابعة على بدء تنفيذ الحكم كان عذاب اللاوي قد بلغ ذروته. واستبدّ به حنق عظيم، فقذف السكين، التي سرقها عبثًا كما اعتقد الآن، على الأرض، وداس الزمزمية بقدميه حارمًا بذلك نفسه من الماء، ونزع عمته عن رأسه وشدَّ شعر رأسه القليل وأخذ يلعن نفسه.

لعن نفسه مجمجمًا بكلمات لا معنى لها، وخار وبصق وشتم أباه وأمه اللذين ولدا أحمق مثله.

وإذا رأى أن أيمانه وشتائمه لا تفعل فعلها، وأن شيئًا في هذا القيظ لم يتغير بسببها،

أغمض عينيه وكوَّر قبضتيه اليائستين ورفعهما إلى السماء، إلى الشمس الممعنة في زحفها إلى الأسفل مطاولة الظلال ومغادرة كي تهبط في البحر المتوسط، وطلب من ربه معجزة على الفور. طلب إليه أن يبعث إلى يشوع بالموت دون إبطاء.

وفتح عينيه فتأكَّد أن شيئًا على الرابية لم يتغيَّر سوى أن البقعتين المتوهّجتين على صدر قائد المائة قد خبا وهجهما. كانت الشمس تسوط بأشعتها ظهور المحكومين المتجهي الوجوه إلى أورشليم. إذَّاك هتف اللاوي صارخًا:

- «اللعنة عليك أيها الرب!».

وأردف يصرخ بصوت مبحوح أنه أقتنع بظلم الله وأنه لا ينوي الإيمان به بعد الآن.

صاح اللاوي: - «أنت أصم! لو لم تكن أصماً لسمعتَ ندائي وقتلته للحال».

وأغمض اللاوي عينيه في انتظار نار تنقضُّ عليه وتصعقه. لكن شيئًا من هذا لم يحدث، فاستأنف دون أن يفتح عينيه يصرخ بكلام لاذع ومهين بحق السماء معبّراً عن خيبة أمله الكاملة، وعن أن هناك آلهة أخرى وديانات أخرى. نعم، ما كان إله آخر ليسمح بأن يموت إنسان كيشوع حرقًا بلهيب الشمس على خشبة، ما كان ليسمح بهذا أبدًا.

واستمر اللاوي الذي بُحّ صوته تمامًا يصرخ:

- «لقد خُدعتُ فيك! أنت إله الشر! أم أن الدخان المتصاعد من مباخر الهيكل أعمى عينيك تمامًا، ولم تعد أذناك تسمعان سوى أصوات الكهنة الجهورية! إنك لست إلهًا كلي القدرة، بل إله أسود. إني ألعنك يا إله اللصوص والقَتَلة وحاميهم وملهمهم!».

وهنا لفح شيء ما وجه العشَّار السابق، وهسهس شيء ما تحت قدميه، ثم لفحه ثانيًا. فتح عينيه فرأى أن كل شيء حوله تغيَّر. ولم يدرِ لم هذا التغيُّر: أبسبب لعناته أم لأسباب أخرى لا يدركها. كانت الشمس قد اختفت ولَمَّا تبلغ البحر الذي كانت تغرق فيه كل مساء، والغيمة الرعدية التي التهمتها ترتفع في السماء من الغرب في إصرار ووعيد. وقد أخذت حواشيها تمور بزبد أبيض وكرشها المدخن الأسود يلمع أحيانًا ببريق أصفر.

كانت الغيمة تدمدم وخيوط من النار تتساقط منها بين الحين والحين. وأعمدة الغبار ترتفع على طريق يافا وفي وادي هيون الشحيح وفوق خيم الحجاج وقد أثارتها الريح التي عصفت فجأة. وسَكَتَ اللاوي محاولًا أن يرى ما إذا كانت العاصفة الرعدية الزاحفة على أورشليم ستغيِّر شيئًا من مصير يشوع المسكين. ومن فوره، وهو يتأمَّل خيوط النار تشق الغيمة السوداء، أخذ يدعو أن تنقضّ صاعقة على خشبة يشوع. تطلَّع

اللاوي إلى السماء الصافية التي لمّا تلتهمها الغيمة السوداء والتي كانت فيها نسور الجيف تتأهّب للهرب من وجه العاصفة، وقال في نفسه إنه استعجل بشكل جنوني في إطلاق لعناته وأن الله لن يسمع دعاءه.

حوّل اللاوي نظره إلى سفح الجبل حيث كان فوج الخيالة منتشرًا وتسمّر إذ رأى التغيّرات المهمّة التي طرأت. فقد رأى بوضوح من مكانه العالي الجنود يسعون في نشاط وهم ينزعون الرماح من الأرض ويطرحون البُرد على أكتافهم، وماسكي الخيول الدّهم يقودونها من أعنّتها خببًا إلى الطريق. كان واضحًا أن الفوج يتأهب للرحيل. وحاول اللاوي، وهو يبصق ويحمي بيده وجهه من الغبار الذي يسفعه، أن يفهم ما معنى رحيل الخيّالة الآن. ورفع ناظريه إلى أعلى قليلًا فتبيّن شخصًا في بردة عسكرية حمراء يصعد في الجبل إلى مكان تنفيذ الحكم. وغمر قلب العشّار السابق برد وسلام لإحساسه بدنوّ النهاية البهيجة.

كان الرجل الذي صعد الجبل في الساعة الخامسة من بدء عذابات اللصوص قائد كتيبة وصل من أورشليم بصحبة مرافقه. وبإشارة من قاتل الجرذان انفتحت الحلقة وقدّم قائد المائة التحية للآمر. أخذ هذا قاتل الجرذان جانبًا وهمس في أذنه. قدّم قائد المائة التحية ثانية ومضى إلى فريق الجَلادين الجالسين على الحجارة عند الأعمدة الخشبية. أمّا القائد فتوجّه إلى الذي كان يجلس على الكرسي ذي الثلاث قوائم، فهبّ هذا يلقاه باحترام. أسرّ له القائد ببضع كلمات ومضيا معًا إلى الأعمدة ثم انضم إليهما قائد حرس الهيكل.

حانت من قاتل الجرذان التفاتة ازدراء إلى الخِرَق القذرة الملقاة على الأرض عند الأعمدة. هذه الخرق التي كانت إلى فترة لباس المجرمين والتي رفضها الجلادون، فنادى اثنين منهم وأمرهم قائلًا:

- «ورائي!».

كانت تتناهى من أقرب خشبة أغنية بلهاء مبحوحة. كان هيستاس المعلّق على هذه الخشبة قد فقد عقله من الذباب والشمس مع مرور الساعة الثالثة على بداية الصلب، وكان الآن يغني بصوت خفيض كلامًا عن العنب، لكنه كان يهز رأسه المغطى بعمامة أحيانًا، فكان الذباب يتطاير من على وجهه بفتور ويعود ليحط عليه.

وكان عذاب ديسماس المعلّق على الخشبة الثانية أمرّ من عذاب الاثنين الآخرين. لأنه لم يغِب عن وعيه، فكان يهز رأسه هزات متتالية ومنتظمة. إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة كيما يحك كتفه بأذنه.

وكان يشوع أسعد الثلاثة حظًا. فمنذ الساعة الأولى من بدء تنفيذ الحكم صار يُغشى عليه ثم راح في غيبوبة كاملة وقد تدلَّى رأسه الذي حُلَّت عمامته، فتجمع الذباب والقراد عليه بحيث اختفى وجهه تحت كتلة سوداء متحرِّكة. وحطَّ القراد المكتنز على حالبه وبطنه وتحت إبطيه وراح يمصُّ جسده الأصفر العاري.

وبناء على إشارة من الرجل ذي القلنسوة أخذ أحد الجلَّادين رمحًا، وجلب آخر إلى الخشبة سطلًا وإسفنجة. رفع الجلَّاد الأول الرمح ودق به يدي يشوع، الأولى ثم الثانية، المبسوطتين والمشدودتين بالحبال إلى عارضة الخشبة، فاختلج جسده بأضلاعه النافرة. مرّ الجلاد برأس رمحه على بطن يشوع. وإذَّاك رفع يشوع رأسه فتطاير الذباب في طنين، وبان وجه المعلَّق على الخشبة. وجه تورَّم من لدغات الذباب وانتفخت فيه العينان ففقد كل ملمح من ملامحه السابقة.

فتح الغانوصري جفونه ونظر إلى أسفل. كانت عيناه الصافيتان عادة زائغتين الآن.

قال له الجلَّاد: - «أيها الغانوصري».

حرَّك الغانوصري شفتيه المنتفختين وأجاب بصوت أجشّ كصوت اللصوص:

- «ماذا تريد؟ ولماذا جئتني؟».

- «اشرب!»، قال الجلاد، وارتفعت إلى شفتي يشوع على رأس رمح إسفنجة مبلَّلة بالماء. لمعت عينا يشوع بالغبطة والتصق بالإسفنجة بشفتيه يمص ماءها بنهم. وسمع من الخشبة المجاورة صوت ديسماس يقول:

- «هذا ليس عدلًا! فأنا لص مثله».

وحفَّز ديسماس كل قواه إلا أنه لم يتمكن من الإتيان بحركة، لأن يديه كانتا موثقتين إلى ثلاثة مواضع في العارضة بحلقات من الحبال. فقبض بطنه وغرز أظافره في طرفي العارضة ورأسه باتجاه خشبة يشوع. كانت عيناه تتأجَّجان بالحقد.

وغطَّت سحابة من الغبار ساحة العملية فأحلكت الدنيا، وحين انقشعت السحابة صاح قائد المائة:

- «اخرس أنت الذي على الخشبة الثانية!».

وخرس ديسماس. ورفع يشوع شفتيه عن الإسفنجة وسألهم بصوت حاول أن يكون رقيقًا ومقنعًا، لكنه لم يفلح فخرج أجشّ:

- «أعطه يشرب».

كانت الظلمة تشتد سوادًا وقد غطَّت الغيمة الرعدية المنطلقة إلى أورشليم نصف السماء. وكانت سحابات بيض متأجِّجة تندفع في مقدمة الغيمة المحمَّلة بالماء الأسود والنار.

أبرقت السماء وأرعدت فوق الرابية تمامًا. ونزع الجلَّاد الإسفنجة من الرمح.

- «مجِّد الوالي الشهم!». همس الجلاد بجلال وطعن يشوع طعنة خفيفة في قلبه، فاختلج هذا وهمس:

- «الوالي...».

وانساح الدم على بطنه وارتعش فكه الأسفل في حركة تشنجية، وتدلَّى رأسه.

وحين قصف الرعد ثانية كان الجلَّاد يقدِّم الماء لديسماس ويقول له الكلمتين السابقتين نفسهما: «مجِّد الوالي!». ويقتله.

ما إن صار الجلَّاد قرب هيستاس الذي فقد عقله، حتى أطلق هذا صرخة مذعورة، لكنه ما إن لامست الإسفنجة شفتيه حتى غمغم بشيء ما بصوت كالخوار وغرز فيها أسنانه. وما هي إلا ثوانٍ حتى كان جسمه يتدلَّى على الخشبة قدر ما تسمح به الحبال.

كان الرجل ذو القلنسوة يتبع الجلاد وقائد المائة وخلفه رئيس حرس الهيكل. توقَّف الرجل ذو القلنسوة عند الخشبة الأولى، وتأمَّل جسد يشوع المدمَّى ولمس بيده البيضاء قدمه وقال لمرافقيه:

- «لقد فارق الحياة».

وتكرَّر هذا القول عند الخشبتين الثانية والثالثة.

بعد هذا أومأ قائد الكتيبة لقائد المائة، ثم استدار يهبط التلة مع رئيس حرس الهيكل والرجل ذي القلنسوة. حلَّ ما يكاد يكون نصف ظلام. كانت البروق تشق السماء السوداء وانبثقت من جوف السماء نار وغرقت في قصفة رعد صرخة قائد المائة «فكُّوا الطوق». وهُرع الجنود يهربون سعداء من التلَّة وهم يعتمرون خوذهم. وغطَّت الظلمة أورشليم.

وفجأة انهمر مطر غزير وأدرك المئات في منتصف الطريق على الرابية. كان المطر يهطل بشكل مريع بحيث أدركت السيول الهادرة الجنود وهم يفرُّون راكضين إلى الأسفل. كان الجنود ينزلقون ويسقطون في الطين الرطب مسرعين إلى الطريق المستوي الذي تنطلق فيه الخيالة المبلَّلة حتى العظم وهي لا تكاد تبين في غشاوة الماء متجهة إلى أورشليم. وفي دقائق لم يبقَ على الرابية في هذا المزيج المدخن من العاصفة الرعدية والماء والنار إلا شخص واحد. كان هذا الشخص يصعد في الجبل

إلى الأعمدة الخشبية، وهو يهزُّ سكينه التي لم يسرقها سدى، متشبثًا تارة بما تقع عليه يداه، زاحفًا تارة أخرى على ركبتيه منزلقًا من الحوافي الناتئة. كانت العتمة القاتمة تغمره تارة، وتارة أخرى يغمره النور المهتز.

ما إن بلغ الخشبات حتى كان في الماء حتى رسغيه. نزع سترته المشبَّعة بالماء التي أضحت ثقيلة فلم يعد يستره إلا قميص، وهوى على قدمي يشوع فقطع الحبال عن ساقيه وصعد على العارضة السفلية فعانق يشوع وحرَّر يديه من قيودهما العلوية. هوى جسد يشوع العاري البليل على اللاوي وطرحه أرضًا. أراد اللاوي من فوره أن يحمل يشوع على كتفيه، لكن فكرة ما أوقفته، فترك على الأرض في الماء الجسد برأسه الملقى إلى الخلف ويديه المتباعدتين وهُرع يخوض في الطمي إلى الخشبتين الأخريين، فقطع حبالهما، وهوى الجسدان الآخران على الأرض.

ولم تمضِ بضع دقائق حتى لم يبقَ على قمة الربوة إلا هذان الجسدان وثلاثة أعمدة فارغة. وكانَ الماء يتدفَّق ويدحرج هذين الجسدين.

أما اللاوي وجسد يشوع فقد اختفيا من قمة الجبل.

## الفصل السابع عشر

# نهار مضطرب

في صباح يوم الجمعة، أي في اليوم الذي تلا تلك الحفلة اللعينة كنت ترى العاملين في «فارييتيه»؛ رئيس المحاسبين فاسيلي ستيبانوفتش لاستوتشكين، والمحاسبين الآخرين والضاربات الثلاث على الآلة الكاتبة، وقاطعتي التذاكر والسعاة والمراقبين وعاملات التنظيف؛ وباختصار كنت ترى كل مَنْ يعمل في مسرح «فارييتيه» يجلسون على حوافي النوافذ المطلّة على شادوفايا وليس في أماكنهم يزاولون أعمالهم المعتادة، وهم يتطلّعون إلى ما يجري عند جدار المسرح. كان طابور غفير من الناس تمتد مؤخرته حتى ميدان كودرينسكايا قد تجمهر في صفين. وكان يقف على رأس هذا الطابور نحو عشرين من المتاجرين بالبطاقات المعروفين جيدًا في أوساط موسكو المسرحية.

كان الاضطراب الشديد يعتري الواقفين في الطابور المنهمكين في مناقشة قصص مثيرة عن حفلة السحر الشيطاني أمس التي لم يُسمع بمثلها من قبل، الأمر الذي لفت انتباه المواطنين الآخرين المتدفقين زرافات ووحدانًا قربهم. وأوقعت هذه الروايات في قلب المحاسب فاسيلي ستيبانوفتش الذي لم يحضر حفلة الأمس بلبلة عظيمة، وروى المراقبون قصصًا ما أنزل الله بها من سلطان، منها أن بعض المواطنات خرجن على الشارع بعد انتهار الحفلة الشهيرة يركضن فيه في مظهر غير لائق وأشياء أخرى من هذا القبيل. كان فاسيلي ستيبانوفتش المتواضع والهادئ يغمز عينيه فقط وهو يستمع إلى أقاويلهم حول كل هذه الغرائب دون أن تتكوّن لديه أي فكرة عمّا يجب أن يفعل. ومع هذا كان من الضروري اتخاذ إجراء ما، وعليه هو بالذات أن يتخذ هذا الإجراء لأنه كان الآن الأقدم في فريق «فارييتيه».

ما إن قاربت الساعة العاشرة صباحًا، حتى كان طابور المتعطّشين إلى البطاقات قد انتفخ بحيث وصلت عنه إشاعات إلى الشرطة. وخفّت هذه بفصائل من المشاة

والخيالة إلى مسرح «فارييتيه» بسرعة مدهشة وأعادت إلى الطابور بعض النظام. إلا أن الحية بطول كيلومتر واحد أضحت، حتى وهي تقف في نظام، تمثل بذاتها مصدر إغراء كبير، وأوقعت في نفوس المواطنين في سادوفايا دهشة كاملة.

هذا ما كان خارج «فارييتيه»، أما داخله فكان الأمر في غاية السوء أيضًا. فمنذ الصباح الباكر أخذت الهواتف ترنّ وظلّت ترنّ دون انقطاع في مكتب ليخوديف وفي مكتب ريمسكي وفي المحاسبة وفي شباك التذاكر وفي مكتب فارينوخا. في أول الأمر ردّ فاسيلي ستيبانوفتش بكلام ما، كما ردَّت بائعة التذاكر، وجمجم المراقبون شيئًا ما في الهاتف، ثم كفّوا تمامًا عن الرد لأنه لم يكن لدى أي كان على الإطلاق ما يردُّ به على أسئلة كهذه: أين ليخوديف؟ أين فارينوخا؟ أين ريمسكي؟ في أول الأمر حاولوا التخلص بالقول «ليخوديف في شقته». ولكن الجواب كان يأتيهم من المدينة بأنهم هتفوا إلى شقته فردت الشقة بأن ليخوديف في «فارييتيه».

وهتفت سيدة مثارة وأخذت تطالب بريمسكي. فنصحوها بالاتصال بزوجته، لكن السماعة أجابت، وهي تنتحب، إنها هي زوجته وإن ريمسكي لا وجود له في أي مكان. بدا الأمر يأخذ مجرى غير معقول. وكانت عاملة النظافة قد أخبرت الجميع أنها حين حضرت إلى مكتب المدير المالي لتنظيفه رأت الباب مفتوحًا والمصابيح مشتعلة والنافذة المطلة على الحديقة محطمة والمقعد ملقى على الأرض، كما لم تجد أحدًا في المكتب.

وفي بداية الحادية عشرة اندفعت إلى داخل «فارييتيه» مدام ريمسكايا وهي تنتحب وتلوي يديها. ارتبك فاسيلي ستيبانوفتش ارتباكًا شديدًا ولم يدرِ ما ينصحها به. وفي منتصف الحادية عشرة حضرت الشرطة. وكان أول سؤال طرحته، وهو سؤال معقول تمامًا، التالي:

- «ما الذي جرى عندكم، أيها المواطنون؟ ما الأمر؟».

تراجع فريق الموظفين تاركًا فاسيلي ستيبانوفتش الشاحب والمضطرب في المقدمة. ولم يكن بد من تسمية الأشياء بأسمائها، والاعتراف بأن إدارة «فارييتيه»، ممثَّلة بمديرها العام ومديرها المالي ومديرها الإداري، قد اختفت ولا يُعرف مكانها، وأن عرِّيف الحفلات نُقل بعد حفلة أمس إلى مصحة نفسية، وأن حفلة الأمس كانت، باختصار، حفلة فضائح.

طلبوا من مدام ريمسكايا المنتحبة العودة إلى البيت بعد أن هدَّؤوا من روعها قدر ما استطاعوا. وأبدوا أكثر ما أبدوا من الاهتمام لحديث عاملة النظافة عن الحالة

التي وجدت فيها مكتب المدير المالي. وطلبوا من الموظفين التوجُّه إلى أماكنهم والانصراف إلى عملهم. وبعد قليل ظهر رجال التحقيق في مبنى «فارييتيه» يصحبهم كلب مرهف الأذنين قوي العضلات ذو عينين حادتي الذكاء ولون بلون رماد السيجارة. وسرت في موظفي «فارييتيه» همسات بأن الكلب ليس سوى توزبوبين[1] الشهير، وحقًا كان توزبوبين. وبُهت الجميع لتصرفاته، فما إن عدا إلى مكتب المدير المالي حتى هرَّ مكشِّرًا عن أنيابٍ صُفْرٍ مخيفة. ثم تمدَّد على بطنه وأخذ يزحف على النافذة المحطَّمة وقد ارتسمت في عينيه أمارات الغم والغضب في آنٍ. وفجأة، وبعد أن كبح خوفه، وثب إلى حافة النافذة، وأخذ يهر هريرًا وحشيًا وحانقًا وقد رفع سحنته الحادة إلى الأعلى. لم يكن يريد أن يغادر النافذة، كان يهرُّ وينتفض ويتحفَّز للقفز إلى أسفل.

اقتيد الكلب خارج المكتب وأُطلق في الردهة، حيث خرج منها عبر الباب الرئيسي إلى الشارع قائدًا المحقِّقين وراءه إلى موقف سيارات الأجرة. وهناك أضاع الأثر الذي كان يقتفيه. بعد هذا أُخذ توزبوبين.

أقام المحقِّقون في مكتب فارينوخا، وأخذوا يستدعون موظفي «فارييتيه» الذين شهدوا الأحداث التي جرت أثناء حفلة الأمس واحدًا بعد الآخر. وينبغي القول إنه كان على هيئة التحقيق أن تذلِّل في كل خطوة من خطواتها صعوبات غير متوقَّعة. وكان خيط الأحداث ينقطع من حينٍ لآخر بين أيديهم.

الإعلانات أُلصقت؟ نعم أُلصقت. إنما أثناء الليل أُلصقت إعلانات جديدة، والآن لا أثر حتى لواحد منها. من أين ظهر الساحر نفسه؟ لا يدري أحد. لا بد أن اتفاقًا عُقد معه إذن؟.

أجاب فاسيلي ستيبانوفتش المضطرب: - «لا بد من افتراض ذلك».

- «إذا كان هناك عقد، فلا بد أن يمر على المحاسبة، أليس كذلك؟».

- «بكل تأكيد»، أجاب فاسيلي ستيبانوفتش وهو مضطرب.

- «أين العقد إذن؟».

- «لا يوجد عقد»، أجاب كبير المحاسبين وهو يبسط ما بين يديه وقد ازداد شحوبًا وارتباكًا. وبالفعل لم يعثر في أضابير المحاسبة ولا لدى المدير المالي ولا لدى ليخودييف ولا لدى فارينوخا على أي أثر للعقد.

وما كنية هذا الساحر؟ فاسيلي ستيبانوفتش لا يعرف كنيته، فهو لم يحضر الحفلة يوم

---

(1) تترجم حرفيا إل: آس الديناري. الناشر.

أمس. والمراقبون لا يعرفون أمّا قاطعة التذاكر فقد قطّبت حاجبيها، قطّبت حاجبيها، وفكّرت وفكّرت، ثم قالت أخيرًا:

- «فو... يبدو أن اسمه فولند».

ولعله ليس فولند؟ ممكن ألا يكون فولند. ربما كان فالند.

وتبيّن في مكتب الأجانب أنهم لم يسمعوا هناك بأي ساحر اسمه فولند أو فالند.

وأعلمهم الساعي كاربوف أنه يبدو أن الساحر إياه نزل في شقة ليخوديف. وأسرعوا للتو بطبيعة الحال إلى شقة ليخودييف فلم يعثروا على أي ساحر، كما أن ليخودييف نفسه لم يكن موجودًا، والخادمة غرونيا لم تكن هي الأخرى موجودة ولا أحد يعرف أين اختفت. ورئيس الجمعية نيكانور إيفانوفتش لم يكن موجودًا، وبرولجنيف أيضًا غير موجود!

يقينًا أن ما يجري أمر يتنافى وأي منطق؛ اختفت إدارة المسرح، وأمس أُقيمت حفلة غريبة فاضحة، أما الذي أقامها والذي أوحى بها فلا يُعرف عنهما شيء.

خلال ذلك كان النهار يقترب من منتصفه، أي الوقت المفروض أن يفتح فيه شبّاك التذاكر. لكن هذا الموضوع لم يعد، بطبيعة الحال، واردًا على الإطلاق! فقد عُلّقت على أبواب «فارييتيه» قطعة ضخمة من الورق المقوّى كُتب عليها: «تلغى حفلة اليوم». وأخذ الاضطراب يسري في الطابور، بدءًا من رأسه. لكنه رغم ذلك أخذ ينفرط، ولما تمضِ ساعة تقريبًا حتى لم يبقَ منه أثر في سادوفايا. وغادرت هيئة التحقيق لتواصل عملَها في مكان آخر، وصُرف الموظفون إلا المناوبين، وأُقفلت أبواب «فارييتيه».

كان ينبغي على المحاسب فاسيلي ستيبانوفتش أن يقوم بعملين عاجلين: أولًا أن يذهب إلى لجنة العروض التمثيلية والترفيهية الخفيفة ليرفع إليها تقريرًا عمّا حدث البارحة، وثانيًا أن يمضي إلى الإدارة المالية للجنة المذكورة ليسلمها حصيلة يوم أمس أي (21711) روبلًا.

صرَّ فاسيلي ستيبانوفتش المُجدُّ والدقيق النقود في ورقة جرائد ولفَّ الرزمة بخيط مجدول ودسَّها عميقًا في حقيبته، وبوصفه موظفًا يحفظ التعليمات بشكل رائع لم يتوجَّه إلى الباص أو الترام، بل إلى موقف سيارات الأجرة.

ما إن رأى ثلاثة من السائقين هذا الراكب الذي يحثُّ الخطا إلى الموقف وهو يحمل حقيبة منتفخة، حتى انطلقوا من أمامه بسيارتهم فارغة وهم يتلفتون حولهم بعيون لا يدري لماذا كانت تقدح بالشر.

صُعق المحاسب لهذا التصرف، فوقف بعض الوقت مشدوهًا يفكِّر في ما يمكن أن يعنيه هذا.

وبعد نحو ثلاث دقائق وصلت سيارة خالية. وما إن رأى سائقها الراكب حتى لوى وجهه.

- «السيارة خالية؟» سأل فاسيلي ستيبانوفتش بعد أن سعل باستغراب.

- «أرني النقود»، أجابه السائق بغيظ دون أن يرفع بصره إليه.

وتعاظمت دهشة فاسيلي ستيبانوفتش. ومع هذا فقد شدَّ على حقيبته الثمينة تحت إبطه، وأخرج من حافظة نقوده تشيرفونتس وأراه السائق.

قال له السائق باختصار: - «لن أذهب».

- «العفو...».

ولم يمهله السائق يكمل، بل قاطعه قائلًا:

- «هل لديك من فئة الثلاثة روبلات؟».

أخرج المحاسب الذي أستبدَّ به ذهول كامل قطعتين من فئة الثلاثة روبلات وأراهما السائق.

- «اصعد»، صرخ هذا وخبط على مفتاح العداد بحيث كاد يحطمه. «هيا».

سأل المحاسب بوجل: - «هل أفهم أن ليس لديك «فراطة»؟.

- «جيبي ملآن بالفراطة!»، صاح السائق بينما انعكست في المرآة عيناه المحتقنتان بالدم، «إنها الحادثة الثالثة معي اليوم. وحدث مثلها لآخرين. يصعد معي واحد ابن كلب ويعطيني تشرفونتس، فأعيد له الباقي؛ أربعة روبلات وخمسين كوبيكا... وينزل، الوغد! وبعد خمس دقائق أنظر فإذا التشيرفونتس عبارة عن ورقة من تلك التي تُلصق على قناني نارزان!». وهنا تفوَّه السائق بكلمات بذيئة لا يصح إيرادها، «وآخر عند ساحة زوبوفسكايا. أعطاني تشيرفونتس، فأرجعت له ثلاثة روبلات ونزل. بعدها مددت يدي إلى صرة النقود فإذا بنحلة تخرج منها وتلسع إصبعي! يا له... (وهنا قذف السائق مرة أخرى بضع كلمات لا يصح إيرادها) ولا وجود للتشيرفونتس! البارحة في مسرح «فارييتيه» هذا (وهنا أيضًا كلمات بذيئة لا يصح إيرادها) أقام أحد المشعوذين الأوباش حفلة بهذه التشيرفونتسات (وهنا أيضًا كلمات من المستوى السابق).

صُعق المحاسب وانكمش على نفسه واتخذ وجهَ مَن يسمع بكلمة «فارييتيه» لأوَّل مرة، فيما يقول في نفسه: «يالها من أمور...».

بعد أن وصل المحاسب على حيث كان يجب أن يصل. ودفع الحساب للسائق بسلام دخل المبنى واندفع في الممر إلى مكتب رئيس القسم، لكنه أدرك، وهو لمَّا يزل يمضي إليه. أنه أتى في وقت غير مناسب. فقد كانت جلبة لا يدري كنهها تسود

دائرة العروض التمثيلية. ومرقت بجانب المحاسب ساعية بمنديلها المائل على قذالها وعينيها المحملقتين. هي تصيح ولا تدري لمن توجِّه صياحها:

- «غير موجود. غير موجود، غير موجود يا أعزائي! الجاكيتة والبنطال هنا، لكن لا شيء داخل الجاكيتة!».

واختفت في أحد الأبواب. وسُمعت إثرها أصوات أوانٍ تتحطَّم. وهُرع من غرفة السكرتيرة المسؤول عن القطاع الأول في اللجنة، وكان من معارف المحاسب، لكنه كان في حالة لم تمكنه من التعرُّف على المحاسب واختفى دون أثر.

بلغ المحاسب الذي هزَّه ما رأى وسمع غرفة السكرتيرة التي كانت بمثابة مدخل إلى مكتب رئيس اللجنة، وهنا صُعق تمامًا.

فقد تناهى إليه من وراء باب المكتب المغلق صوت غاضب، هو صوت بروخور بيتروفتش، رئيس اللجنة، دون شك. «أتراه يوبِّخ أحدًا ما؟»، فكَّر المحاسب المضطرب في سره والتفت فرأى شيئًا آخر: كانت تستلقي على مقعد جلدي وثير مادة ساقيها حتى وسط الغرفة تقريبًا السكرتيرة الشخصية لبروخور بيتروفتش؛ الغادة الحسناء آنا ريتشاردوفنا وهي منخرطة في نحيب لا يتوقَّف وفي يدها منديل مبتل ورأسها يميل على ظهر المقعد.

كانت ذقن آنا ريتشاردوفنا ملوَّنة كلها بأحمر الشفاه، وعلى خديها الدراقيين تنساح شآبيب سود من الطلاء الحائل اللون.

وإذ رأت آنا ريتشاردوفنا أن شخصًا ما دخل، وثبت من مقعدها واندفعت إلى المحاسب وتشبَّثت بأطراف جاكيتته وراحت تهزه وتصرخ:

- «الحمد لله! وُجِدَ على الأقل إنسان شجاع واحد! جميعهم هربوا، جميعهم خافوا! هيا بنا إليه فلست أدري ما أفعل!». وجرَّت المحاسب إلى المكتب وهي لا تزال تنتحب.

فور أن ولج المكتب، سقطت المحفظة من يده وانقلبت الأفكار في رأسه رأسًا على عقب. وينبغي القول: كان هناك ما يستحق ذلك.

كانت بذلة خالية تجلس إلى مكتب ضخم عليه دواة ضخمة وتكتب بريشة جافة غيرِ مغموسة في الحبر على ورقة. كانت البذلة معقودة بربطة عنق، ومن جيبها الأعلى يتدلَّى قلم حبر، لكنه لم يكن فوق ياقتها رقبة ولا رأس، كما لم تظهر من فتحتي الكمين أرساغ اليدين. كانت البذلة منهمكة في عملها دون أن تلاحظ تمامًا البلبلة والاضطراب السائدين حولها. وإذ سمعت البذلة أحدهم يدخل، استلقت في مقعدها إلى الوراء

قليلًا، وعلا فوق الياقة صوت بروخور بيتروفتش الأليف جدًا إلى أذن المحاسب:
- «ما الأمر؟ ألم تقرؤوا على الباب أني لا أستقبل».
زعقت السكرتيرة الحسناء وهي تلوي يديها:
- «رأيتم؟ رأيتم؟ غير موجود! غير موجود! أعيدوه. أعيدوه!».
وهنا مد أحدهم رأسه من الباب وتأوَّه وتراجع فورًا. أحسن المحاسب برعشة تسري في رجليه فجلس على طرف الكرسي، لكنه لم ينسَ أن يتناول حقيبته من الأرض. كانت آنا ريتشاردوفنا تقفز حول المحاسب وتشده من جاكيتته وتصرخ:
- «كنت دائمًا، دائمًا أوقفه حين يأخذ بالشتم مستعينًا بالشياطين. وها هم أولاء أعانوه تمامًا!». وهنا دنت الحسناء من المكتب عدوًا ونادت بصوت رقيق شابته خنة بعد البكاء:
- «بروشا[1] أين أنت؟».
- «من يكون «بروشا» هذا بالنسبة لكِ؟». استفسرت الجاكيتة بتعالٍ وهي تغوض في مقعدها أعمق فأعمق.
- «لم يعد يعرفني! لم يعد يعرفني! أتفهمون؟»، انخرطت السكرتيرة في النحيب ثانية.
- «أرجو عدم الانتحاب في المكتب»، قالت الجاكيتة المخططة السريعة الانفعال وقد أخذ الغضب يدب في صوتها، وسحبت بكمِّها رزمة جديدة من الأوراق إليها بقصد وضع قرارات عليها كما كان واضحًا تمامًا.
- «لا، لا أستطيع أن أرى هذا، لا، لا أستطيع!». صاحت آنا ريتشاردوفنا وعادت إلى غرفة السكرتيرة وانطلق المحاسب في إثرها كالرصاصة.
- «تصوَّر، كنتُ جالسة»، قالت آنا ريتشاردوفنا تروي ما جرى وهي تنتفض من الاضطراب وتتشبَّث بكم المحاسب من جديد. «فإذا بقط يدخل. قط أسود مكتنز كجاموس النهر. صحت فيه طبعًا «بس!» فخرج القط، ودخل بدلًا منه شخص بدين بسحنة تشبه سحنة القط أيضًا وقال: «ما هذا أيتها المواطنة، كيف تصرخين «بس» في وجه المراجعين؟». ومضى إلى بروخور بيتروفتش مباشرة، وأنا في إثره بطبيعة الحال أصرخ: «هل جننت؟»، لكنه. الوقح، لم يبالِ بل دخل عليه وجلس على المقعد قبالته! هكذا... بروخور بيتروفتش إنسان في غاية الطيبة لكنه عصبي. ثار! لا أنفي ذلك. إنه

(1) اسم تصغير وتدليل من «بروخور». المترجم.

إنسان عصبي، يعمل كالبغل. ثارت ثائرته: «لماذا تتسلَّل إلى هنا دون استئذان؟» وذاك الوقح، تصوَّروا، ارتمى على الكرسي وقال له وهو يبتسم: «جئت أتحدَّث إليك في أمر صغير». وثارت ثائرة بروخور بيتروفتش من جديد: «أنا مشغول». أما ذاك. تصوَّروا فقط، فقد أجابه: «لست مشغولًا بشيء...» آ؟ وهنا بالطبع نفد صبر بروخور بيتروفتش فصرخ: «ما هذا! أخرجوه، لتأخذني الشياطين!» تصوَّروا؛ ابتسم ذاك وقال: «لتأخذك الشياطين؟ لا بأس، هذا ممكن!» وهوب. قبل أن تنطق صرختي، نظرت فإذا بصاحب السحنة التي كسحنة القط قد اختفى. والجاكيتة... تجـ... تجـ... تجلس... هيي!!».
عَوَت آنا ريتشاردوفنا وقد مطَّت فمها الذي فقد كل ملامحه.

وبعد أن شيَّعت نحيبًا استردت أنفاسها لكنها أخذت تتفوَّه بأشياء غير مترابطة:

- «تكتب وتكتب! شيء يجنن! بالهاتف تتكلَّم! البذلة! جميعهم هربوا كالأرانب!».

ولم يفعل المحاسب شيئًا سوى أنه كان يقف ويرتجف. لكن القدر أنقذه، إذ دخل غرفة السكرتيرة، بمشية هادئة لأناس يؤدون عملًا، اثنان من رجال الشرطة. وما إن رأتها الحسناء حتى انخرطت في نحيب أشد وأعلى وراحت تلوِّح بيدها باتجاه باب المكتب.

- «هيا بنا نكف عن النحيب، أيتها المواطنة»، قال الشرطي الأول بهدوء. أما المحاسب فوثب من غرفة السكرتيرة. بعد أن شعر أنه أصبح إنسانًا زائدًا هنا، وفي دقيقة كان في الهواء الطلق. أحس بما يشبه مجرى هواء في رأسه، وبطنين كما في أنبوب. وفي هذا الطنين كان يتردَّد بعض من روايات المراقبين في المسرح عن قط البارحة الذي اشترك في الحفلة. «أي. ي. ي! ترى أليس هذا قطنا؟ »

ولمّا لم يخرج فاسيلي ستيبانوفتش النزيه بنتيجة من حضوره إلى اللجنة، قرَّر الذهاب إلى فرعها الكائن في زقاق فاغاتكوفسكي. ولكي يهدئ من روعه قليلًا قطع الطريق إليه على قدميه.

كان فرع المدينة للعروض التمثيلية في دار منعزلة تقشَّر طلاؤها بفعل الزمن منزوية في عمق فناء. وكان مشهورًا بأعمدة بهوه المنحوتة من الصخر الأرجواني.

لكن لم تكن الأعمدة هي التي أذهلت اليوم زوَّار الفرع، بل ما كان يجري تحتها.

كان بعض الزوَّار يقفون مبهوتين وهم يتأمَّلون شابة تجلس إلى طاولة عليها كتب خاصة بالتمثيليات وهي تبكي. كانت الشابة هي التي تقوم ببيع هذه الكتب، لكنها، في اللحظة الراهنة. لم تكن تعرض على أحد شيئًا منها، بل كانت تُعرض عن الإجابة عن الأسئلة المفعمة بالتعاطف الموجَّه إليها. في حين كان يدوِّي من فوق ومن تحت ومن

الجوانب ومن كل أقسام الفرع رنين هاتف ينطلق على الأقل من عشرين جهازًا تكاد «حناجرها» تتمزَّق.

ذرفت الفتاة قليلًا من الدمع ثم ارتعدت فجأة وصرخت بصوت هستيري:

- «مرة ثانية!». وانطلقت تغني فجأة بصوت سوبرانو راعِش:

بحر مجيد، بايكال المقدس[1]

لوَّح الساعي الذي لاح على الدرج لأحدهم بقبضته متوعِّدًا، وأنشد مع الفتاة بصوت غير رخيم:

المجد للقارب برميل الأسماك!...

وانضمت إلى صوت الساعي أصوات أخرى بعيدة، وتضخَّمت الجوقة وأخيرًا هدرت الأغنية في كل زوايا الفرع. ومن أقرب غرفة، الغرفة رقم 6 حيث قسم الحسابات والتدقيق، ظهر على غيره من الأصوات صوت من الطبقة الثُّمانِية قويٌّ ذو بحة. وكان يرافق الجوقة طقطقة متعاظمة من أجهزة الهاتف. كان الساعي يزعق على الدرج:

إيه ريح الشمال... حرِّكي الأمواج...

كانت الدموع تنهمر من عيني الفتاة وكانت تحاول العضَّ على نواجذها، لكن فمها كان ينفتح من تلقاء نفسه، وكانت تغنِّي بصوت ثماني الطبقات أعلى من الساعي:

ما زالت المسافة قليلة!

وما أذهل زوَّار الفرع الصامتين أن أعضاء الجوقة المنتشرين في أماكن مختلفة كانوا ينشدون بانسجام كبير وكأن الجوقة كلها لا ترفع طرفها عن قائد غير مرئي.

وكأن المارة في زقاق فاغانكوفسكي يتوقَّفون قرب سياج الفناء دَهشين من المرح السائد في الفرع.

ما إن بلغ المقطع الأول نهايته، حتى سكت الغناء فجأة وكأنما، مرة أخرى، بإشارة من عصا قائد الجوقة. أطلق الساعي شتيمة خافتة واختفى. وهنا انفتح الباب الرئيسي وبان فيه مواطن في معطف صيفي تتدلَّى تحته أذيال رداء أبيض ومعه شرطي.

- «تصرَّف، يا دكتور، أتوسَّل إليك»، صاحت الفتاة بصوت هيستيري.

ظهر سكرتير الفرع على الدرج وقال بصوت متلعثم وهو يتحرَّق حياءً وارتباكًا على ما يبدو:

- «يظهر، يا دكتور، أن عندنا حالة تنويم مغناطيسي جماعي... وعلى هذا فمن

---

(1) أغنية روسية قديمة من السجين الشاب الذي هرب من سجنه. المترجم.

الضروري...» ولم يكمل جملته إذ أخذ يغصُّ بكلماته، وفجأة أخذ يغني بصوت تينور:
في المنافي البعيدة...

- «أحمق!»، صرخت الفتاة لكنها لم توضِّح الشخص المقصود من شتيمتها. وأخذت بدلًا من ذلك تدندن لحنًا كأنما كان شخص ما يخرجه من فمها عنوة، وارتفع صوتها بأغنية السجين الشاب.

- «تمالك نفسك! كفَّ عن الغناء!». قال الدكتور موجهًا كلامه إلى السكرتير.

كان كل شيء يدل على أن السكرتير نفسه مستعد لبذل أي شيء على أن يتوقَّف عن الغناء، لكنه، مع هذا، لم يستطِع التوقُّف. وحمل مع الجوقة إلى أسماع المارة في الزقاق بشرى أن الوحش المفترس لم يمسّه، ورصاص القناصة لم يدركه في الأدغال.

ما إن انتهى المقطع حتى كانت الفتاة أول من ناولها الدكتور جرعة من الوليريان[1] ثم هُرع إثر السكرتير يسقي الآخرين.

- «العفو، أيتها المواطنة»، توجَّه فاسيلي ستيبانوفتش إلى الفتاة يسألها فجأة: «ألم يمر عليكم قط أسود؟».

قالت الفتاة في حنق: - «أي قط هذا؟ عندنا في الفرع حمار، حمار!»، واستطرت: «ليسمعني! سأروي لك كل شيء».

وبالفعل روت كل ما حدث وعرف من كلامها أن رئيس فرع المدينة «الذي خرَّب» العروض الترفيهية الخفيفة (على حدِّ قول الفتاة) كان يعاني من هوس تنظيم في مختلف أنواع الحلقات.

صاحت الفتاة: - «كان يضلِّل المسؤولين!.

وقد تمكَّن، خلال عام، من تنظيم حلقة دراسة عن ليرمنتوف وحلقة شطرنج ودامة، وكرة طاولة وحلقة فروسية. ومع اقتراب الصيف أخذ يهدِّد بتنظيم حلقة تجديف في المياه الحلوة، وحلقة تسلق جبال.

واليوم بالذات، في استراحة الغداء، دخل علينا...

قالت الفتاة: - «كان يتأبَّط ذراع واحد ابن كلب لا ندري من أين جاء به، شخص في سروال ذي مربعات ونظارة أنفية متصدعه و... سحنة فظيعة جدًا!».

وعلى الفور (والحديث لا زال للفتاة) قدَّمه لكل الذين كانوا يتناولون غداءهم في مطعم الفرع على أنه اختصاصي مرموق في تنظيم حلقات الغناء الجماعي.

---

(1) عقار مهدئ خفيف، مستحضر من نبتة تحمل الاسم نفسه. الناشر.

تجهَّمت وجوه متسلِّقي الجبال العتيدين، لكن رئيس الفرع أسرع على الفور يناشد الجميع عدم الاستسلام لليأس والقنوط، أمَّا الاختصاصي فأخذ يمزح وينكِّت ويؤكِّد شافعًا تأكيداته بأغلظ الأيمان أنه لن يأخذ من وقتهم للغناء إلا أقل القليل، وإن الفائدة التي سيجنونها منه، بالمناسبة، لا تقدَّر بثمن.

وبطبيعة الحال (والرواية لا تزال للفتاة) كان فانوف وكوسارتشوك. وهما يسجِّلان اسميهما في الحلقة. وهنا أيقن الموظَّفون الآخرون أن لا مفر من الغناء، وبالتالي اضطروا إلى تسجيل أسمائهم. وتقرَّر الغناء في استراحة الغداء، لأن الجميع كانوا مشغولين في الأوقات الأخرى بليرمنتوف والدامة. ورغبة من رئيس الفرع في أن يكون القدوة أعلن أنه يملك صوت تينور. ومن هنا بدأ كل شيء وكأنه حلم فظيع. فقد صرخ اختصاصي الغناء الجماعي ذو المربعات:

- «دو - مي - صول - دو!». وسحب أكثر الموجودين حياءً من وراء الخزن التي حاولوا التملُّص من الغناء بالاختفاء ورائها، وقال لكوسارتشوك أن لديه (أي لدى كوسارتشوك) حاسة سمعية لا تخطئ. وأنَّ واشتكى ورجاهم احترام قائد كورس قديم، ونقر بالشوكة الرنانة على أصابعهم وهو يتوسَّل إليهم أن ينشدوا «البحر المجيد» بصوت قوي.

ودوَّت أصواتهم. دوَّت بشكل رائع. وبالفعل كان ذو المربعات يعرف عمله حق المعرفة. وانتهينا من المقطع الأول. وهنا قال قائد الكورس يعتذر: «خارج لدقيقة!» و... اختفى. اعتقدنا أنه، بالفعل، عائد بعد دقيقة. لكن مرَّت عشر دقائق ولم يعد، وغمرت الفرحة قلوب الموظفين؛ لقد هرب.

وفجأة، لست أدري كيف، أنشدنا المقطع الثاني من تلقاء أنفسنا. وكان يقودنا كوسارتشوك. قد لا يكون لكوسارتشوك حاسة سمعية لا تخطئ، لكنه ذو صوت تينور عالٍ لطيف نوعًا ما. انتهينا من المقطع الثاني، وقائد الكورس لمَّا يعد! وأخذنا نتحرَّك عائدين إلى أماكننا، لكن ما إن جلسنا حتى أخذنا ننشد على كرهٍ منَّا. لم يعد هناك ما يوقفنا. نصمت نحو ثلاث دقائق ثم نعود إلى الإنشاد، ثم نصمت لنعود إليه! هنا ظننا أن مصيبة حلَّت بنا. أما رئيس الفرع فمن خزيه أغلق على نفسه باب مكتبه.

وهنا انقطع حديث الفتاة، إذ فقدت جرعه الوليريان مفعولها.

وبعد ربع ساعة كانت ثلاث شاحنات تقترب من السياج الذي في زقاق فاغانكوفسكي وتحمل كل موظفي الفرع وفي مقدمتهم رئيسه.

وما إن اجتازت الشاحنة الأولى البوَّابة إلى الزقاق وهي تتمايل حتى فتح الموظفون

الذين كانوا يقفون في صندوقها ممسكين بعضهم بأكتاف بعض أفواههم ودوّى الزقاق بأغنية شائعة. وتلقّفت الأغنيةَ الشاحنةُ الثانية ثم الثالثة. وهكذا انطلقت الشاحنات. وكان المارة المسرعون إلى شؤونهم يلقون على الشاحنات مجرَّد نظرة عابرة لا تشي بأي دهشة ظنًا منهم أنها رحلة إلى ضواحي المدينة. وبالفعل كانت الشاحنات تتجه إلى ضاحية المدينة، ولكن ليس في رحلة، بل إلى مستشفى البروفيسور سترافنسكي.

وبعد نصف ساعة وصل المحاسب الذي فقد صوابه تمامًا إلى القسم المالي التابع لهيئة العروض التمثيلية على أمل أن يتخلّص تمامًا من الأموال العامة التي يحملها. وبدءًا ألقى المحاسب، الذي علّمته التجربة وحنّكته، نظرة حذرة إلى القاعة المتطاولة حيث جلس الموظفون وراء ألواح زجاجية مغبّشة عليها كتابات ذهبية، فلم يكتشف فيها أي علامة من علامات القلق أو الفوضى. كان يشملها كما يفترض أي دائرة محترمة.

أدخل فاسيلي ستيبانوفتش رأسه في كوّة كُتب عليها: «الاستلام» وحيّا موظفًا يراه لأول مرة وطلب منه باحترام دفتر الإيرادات.

سأله الموظف الذي في الكوة: - «وما شأنك به؟».

بُهت المحاسب.

- «أريد أن أسلِّم. أنا من «فارييتيه»..».

- «دقيقة»، أجابه الموظف وسدَّ على الفور الثقب الذي في اللوح الزجاجي بشبكة.

«غريبة!». قال المحاسب في نفسه. وكان عجبه جد طبيعي. فلأول مرة في حياته تصادفه حالة كهذه. فمن المعروف لنا جميعًا مدى صعوبة تسلّم النقود، إذ يمكن دائمًا أن تُخلق لذلك عراقيل ومعوقات. لكنه لم تقع للمحاسب فاسيلي ستيبانوفتش على مدى ثلاثين سنة من حياته العملية حادثة واحدة امتنع فيها فرد أو شخص اعتباري عن قبض نقود منه.

وانزاحت الشبكة أخيرًا والتصق المحاسب بالكوّة من جديد.

- «هل تحمل مبلغًا كبيرًا؟». سأل الموظف.

- «واحد وعشرون ألفًا وسبعمائة وأحد عشر روبل».

- «أوه!»، أجابه الموظف بنبرة، لأمرٍ ما، ساخرة، وناوله صحيفة خضراء.

ولمّا كان المحاسب يعرف جيدًا الأصول المتّبعة فقد عبّأ الصحيفة الخضراء في طرفة عين، وأخذ يفكّ الخيط عن الرزمة، وما إن فضّها حتى زاغ بصره وخار خوار الموجوع.

وأخذت تبرق أمام عينيه قطع النقود الأجنبية سراعًا وكان فيها رزم من الدولارات الكندية والجنيهات الإنكليزية والغولدينات الهولندية واللاتات اللاتفية والكرونات الأستونية...

- «ها هو ذا واحد من نصَّابي «فارييتيه»..». سُمع صوت غاضب فوق رأس المحاسب الذي انعقد لسانه. وللحال أُلقيَ القبض على فاسيلي ستيبانوفتش.

## الفصل الثامن عشر

# الزوّار المناحيس

في الوقت الذي كان فيه المحاسب المُجدُّ ينطلق في سيارة الأجرة للعثور على البذلة التي تكتب بنفسها، كان بين النازلين من العربة الوثيرة ذات المقاعد المحجوزة رقم 9 في قطار كييف الواصل إلى موسكو راكب ذو مظهر لائق يحمل حقيبة صغيرة من جلد صناعي في يده. ولم يكن هذا الراكب سوى عم المرحوم برليوز مكسيميليان أندرييفتش بولابلافسكي. وهو اختصاصي في التخطيط الاقتصادي يعيش في كييف في شارع اينستيتوتسكايا سابقًا. وسبب قدوم مكسيميليان أندرييفتش إلى موسكو برقية تلقّاها في ساعة متأخّرة من مساء أول البارحة وهذا نصها:

«دُهستُ للتو بالترام في بتريرشيي. الدفن الجمعة الثالثة ظهرًا. أحضر. برليوز».

كان مكسيميليان أندرييفتش يعد وبحق واحدًا من أذكى أذكياء كييف. لكن من شأن برقية كهذه أن تضع حتى أذكى الأذكياء في مأزق. فحين يُبرق شخص أنه دهس، فمعنى ذلك أنه لم يُقتل. ولكن ما شأن الدفن هنا؟ أم تراه في حالة خطيرة ويتوقّع الموت؟ هذا ممكن، لكن هذه الدقة في غاية الغرابة؛ فمن أين له، مع هذا، أن يعرف أنه سيُدفن يوم الجمعة وفي الساعة الثالثة ظهرًا؟ برقية عجيبة!

لكن الأذكياء ليسو أذكياء إلا ليحلّوا الأمور المعقّدة. الأمر بسيط. وقع خطأ ونُقلت البرقية مشوهة. كلمة «أنا»[1] جاءت هنا خطأ، دون شك، من برقية أخرى. وكلمة برليوز التي جاءت في آخر البرقية كان يجب أن تكون في مطلعها. ومع هذا التصحيح يصبح معنى البرقية واضحًا وإن كان لا يزال مأساويًا.

---

(1) والمقصود بها تاء نائب الفاعل في «دهست» وموقعها في أول البرقية في نصها الروسي فيصبح النص بعد هذا التعديل: برليوز دُهس... إلخ. المترجم.

ما إن هدأت سوْرة الحزن التي انتابت زوجة مكسيميليان أندرييفتش، حتى أخذ هذا يجهِّز نفسه للسفر إلى موسكو.

وينبغي علينا هنا أن نكشف سرًا من أسرار مكسيميليان أندرييفتش لا شك في أنه حزن على ابن أخ زوجته الذي مات في شرخ شبابه. لكنه كإنسان عملي كان يدرك بطبيعة الحال أن ليس هناك ما يدعوه بشكل خاص لحضور الجنازة. ومع هذا كان مكسيميليان أندرييفتش يتعجَّل السفر إلى موسكو. ففيم الأمر إذن؟ أمر واحد؛ الشقة. شقة في موسكو؟ هذا أمر خطير. لسنا ندري السبب، لكن كييف لم تكن تعجب مكسيميليان أندرييفتش. وراحت فكرة الانتقال إلى موسكو تؤرِّقه في الفترة الأخيرة حتى صار النوم يجفو عينيه إلا لمامًا، لم تعد تبهج نفسه فيوض نهر الدنيبر[1] في الربيع والماء يغمر الجزر عند الضفة الواطئة ويمتزج بالأفق. ولم يعد يبهجه ذلك المنظر الخلَّاب الذي ينكشف أمام العين من قاعدة تمثال الأمير فلاديمير. ولم تعد تبهجه بقع نور الشمس المتراقصة في الربيع على دروب رابية فلاديمير المرصوفة بالطوب. لم يعد يريد شيئًا من هذا كله، بل بات يريد شيئًا واحدًا؛ الانتقال إلى موسكو.

ولم تسفر الإعلانات في الصحف عن الرغبة في استبدال شقة في شارع انستيوتسكايا في كييف بشقة أصغر مساحة في موسكو عن أي نتيجة. لم يكن هناك راغبون، وإذا وُجد بعضهم أحيانًا كانت شروطه على قدر مريع من انعدام الذمة.

هزَّت البرقية مكسيميليان أندرييفتش هزًا. كانت فرصة من الإثم أن يفوتها. والناس العمليون يعرفون أن مثل هذه الفرص لا تتكرَّر. وباختصار كان عليه أن يعرف كيف يرث شقة ابن أخ زوجته في سادوفايا مهما كان حجم الصعوبات. نعم، كان هذا أمرًا معقدًا. في غاية التعقيد. إنما عليه أن يتجاوز كل هذه التعقيدات. وكان مكسيميليان أندرييفتش المجرِّب المحنَّك يعرف أن أول خطوة يتحتم عليه أن يخطوها هي التالية: أن يسجِّل مهما كلَّفه الأمر، ولو مؤقتًا، ثلاثًا من غرف شقة المرحوم باسمه.

وظهر يوم الجمعة دخل مكسيميليان أندرييفتش باب الغرفة التي تستخدم مقرًا لإدارة الجمعية السكنية في البناية رقم 302 مكرَّر الكائنة في شارع سادوفايا في موسكو.

في الغرفة الضيقة التي تتدلَّى على حائطها لافتة إعلانية قديمة تمثِّل في بضع لوحات صغيرة طرق إنعاش الغرقى، كان يجلس وراء طاولة خشبية وحده تمامًا شخص متوسط العمر غير حليق ذو عينين يشيع فيهما القلق.

---

(1) نهر شهير، ينبع من مرتفعات فالادي في روسيا، ويمر عبر روسيا البيضاء وأوكرانيا ويصب في البحر الأسود. الناشر.

- «هل بوسعي مقابلة رئيس الإدارة؟». استفسر المخطِّط الاقتصادي باحترام وهو يرفع قبعته ويضع حقيبته على كرسي فارغ.

هذا السؤال البرئ. في ما بدا، أزعج الجالس لسبب ما، حتى إن تعابير وجهه تغيَّرت. فغمغم، وهو ينظر بعينيه القلقتين شزرًا، بما معناه أن الرئيس غير موجود.

سأل بوبلافسكي: - «هل هو في شقته؟ لديَّ أمر عاجل جدًا».

وأجابه الجالس ثانية بكلام غير مترابط. لكن كان بإمكان المرء أن يحزر أن الرئيس غير موجود في شقته.

- «ومتى سيحضر؟».

لم يجب الجالس بل نظر من النافذة بشيء من الكآبة.

- «آ». قال بوبلافسكي الذكي لنفسه واستفسر عن السكرتير.

احمرّ وجه الرجل الغريب الجالس وراء الطاولة من التوتر وقال بكلام غير مفهوم هذه المرة أيضًا ما معناه أن السكرتير غير موجود أيضًا... وأنه لا يعرف متى سيحضر... وأن السكرتير مريض...

قال بوبلافسكي لنفسه: «آا... ولكن لا بد أن يكون أحد في الإدارة!».

رد عليه الرجل بصوت خفيض: - «أنا».

وهنا قال بوبلافسكي بصوت مفعم بالمهابة:

- «الموضوع هو التالي: إني الوارث الوحيد لابن أخ زوجتي المرحوم برليوز الذي قُتل، كما تعرفون، في بتريرشيي، ومن واجبي حسب القانون أن أستلم تركته التي هي عبارة عن شقتنا رقم 50...».

- «لا علم لي بالموضوع، أيها الرفيق»، قاطعه الجالس بصوت يفيض بالملل.

قال له بوبلافسكي بصوت رنان: - «العفو، أنت عضو في الإدارة ومن واجبك...».

وهنا دخل الغرفة مواطن شحب وجه الجالس وراء الطاولة لرؤيته.

سأل الداخل الجالس: - «عضو الإدارة بياتناجكو؟».

- «أنا هو»، أجاب الجالس بصوت يكاد لا يسمع.

أسرَّ الداخل للجالس بشيء ما في أذنه، فنهض هذا عن كرسيه وقد بلغ به الاضطراب أشده. وفي ثوانٍ لم يبقَ في غرفة الإدارة الخالية إلا بوبلافسكي وحده.

«إيه. أي تعقيدات هذه! أكان من الواجب حقًا أن يخرجوا كلهم...». قال بوبلافسكي لنفسه في حسرة وهو يجتاز الفناء المفروش بالأسفلت حاثًا الخطا إلى الشقة رقم 50.

ما إن رنّ المخطِّط الاقتصادي جرس الباب حتى فُتح، وولج مكسيميليان أندرييفتش إلى مدخل نصف معتم. أدهشه بعض الشيء أنه لم يعرف من فتح له الباب، إذ لم يكن في المدخل إلا قط أسود هائل الحجم يجلس على كرسي.

تنحنح مكسيميليان أندرييفتش وضرب الأرض بقدميه ضربًا خفيفًا، إذَّاك فُتح باب المكتب وخرج منه كوروفييف إلى المدخل. حيَّاه مكسيميليان أندرييفتش بأدب لكن بوقار وقال له:

- «كنيتي بوبلافسكي. وأنا عم...».

ولم يتَّسع له الوقت ليكمل، فقد سحب كوروفييف من جيبه بسرعة منديلًا وسخًا ودسَّ فيه أنفه وأخذ يبكي.

- «...المرحوم برليوز...».

- «واضح، واضح»، قاطعه كوروفييف وهو ينزع المنديل عن وجهه. «ما إن لمحتك حتى حزرت أنك هو!»، وهنا أخذ يختلج من شدة بكائه ويولول: «مصيبة! مصيبة! آ! ما هذا الذي يحدث؟ آ!».

- «الترام دهسه؟». سأل بوبلافسكي همسًا.

صرخ كوروفييف وانهمرت الدموع من تحت نظارته الأنفية - «وأيُّ دهس، وأيُّ دهس! لقد شهدت الحادثة. هل تصدِّق؟! في لحظة كان رأسه يتدحرج جانبًا! ورجله اليمنى قطعتين! ورجله اليسرى قطعتين! هذا الذي أوصلتنا إليه هذه الترامات!». وإذ لم يعد بوسعه تمالك نفسه على ما يظهر، أسند جبينه إلى الحائط قرب المرآة وراح جسمه ينتفض من شدة نحيبه.

ذُهل عم برليوز ذهولًا صادقًا من تصرُّف هذا الشخص الغريب. «ويُقال أيضًا إنه لا يوجد في زمننا أناس رقيقو القلب!». قال عم برليوز في سرِّه وقد أحسَّ أن عينيه أخذتا تحكانه. إلا أن سحابة قاتمة أناخت في الوقت نفسه على قلبه، وتلوَّت في رأسه على الفور كالحية فكرة: ترى ألم يسبقه هذه الإنسان الرقيق القلب، المخلص إلى تسجيل شقة المرحوم باسمه، أو لم يحدث مثل هذا كثيرًا من قبل!

- «العفو، هل كنت صديق فقيدنا ميشا؟». سأل بوبلافسكي وهو يمسح بطرف عينه اليسرى الجافة، بينما كان يدرس باليمنى كوروفييف الذي هدَّه الحزن، لكن هذا انفجر في نحيب تعذَّر معه على بوبلافسكي أن يفهم منه سوى كلمتين اثنتين تتكرَّران «دهس... وقطعتين!». ولما شبع كوروفييف نحيبًا رفع رأسه أخيرًا عن الحائط وتمتم:

- «لا، لم أعد أحتمل! سأذهب وآخذ ثلاثمائة نقطة من الوليريان!». وأردف بعد أن أدار إلى بوبلافسكي وجهًا مبللًا كله بالدموع: «هذه هي الترامات!».

«العفو، لكن ألستَ من أبرق لي؟». سأل مكسيميليان أندرييفتش وهو يكدُّ ذهنه في جهدٍ مضنٍ لمعرفة من عساه يكون هذا البكّاء العجيب.

- «هو!». أجاب كوروفييف وأشار بإصبعه إلى القط. حملق بوبلافسكي وفي ظنه أنه أخطأ السمع.

وتابع كوروفييف وهو ينخر:

- «لا، لم أعد أحتمل... ما إن أتذكّر ما حدث: عجلة الترام التي تمشي على قدمه، العجلة الواحدة بعشر بودات[1] تقريبًا... وصوت العظم يتكسَّر! لا، لم تعد فيَّ قوة على التحمُّل. أنا ذاهب لأستلقيَ في سريري لعل النوم ينسيني نفسي قليلًا، واختفى من المدخل.

وأما القط فتململ وقفز من الكرسي وانتصب على قامتيه الخلفيتين ووضع يده على خاصرته وفغر شدقه وقال:

- «نعم، أنا الذي أرسلت البرقية. ماذا تريد؟».

شعر مكسيميليان أندرييفتش على الفور برأسه يدور ويديه ورجليه تشل، فسقطت الحقيبة من يده وجلس على الكرسي قبالة القط.

- «يبدو أني أسألك بلغة روسية»، قال القط بصوت جاف:

- «ماذا تريد؟».

لكن بوبلافسكي لم يجب.

- «هويتك!». وَقوَقَ القط ومد قائمته المنتفخة.

استل بوبلافسكي هويته من جيبه وكأنه خنجر وهو لا يعي ولا يرى شيئًا سوى الشرارتين المشتعلتين في عيني القط.

تناول القط نظارة ذات إطار أسود غليظ من الطاولة تحت المرآة ووضعها على سحنته مما جعله أكثر مهابة، وانتزع الهوية من يد بوبلافسكي التي كانت تنط نطًا.

«تُرى هل سيغمى عليَّ أم لا؟». فكّر بوبلافسكي في نفسه. ومن بعيد كان يتناهى إليه نشج كوروفييف. وكان المدخل يعبق برائحة الأثير والوليريان وبرائحة كريهة غريبة تبعث على الغثيان.

---

(1) البود وحدة وزن روسية تساوي 16.38 كيلوجرام. الناشر.

- «ما القسم الذي أصدر هذه الوثيقة؟». سأل القط وهو يحدِّق في الورقة. ولم يأته جواب.

- «القسم 412»، قال القط لنفسه وهو يمسح بقائمته على الهوية التي كان يحملها مقلوبة، أي طبعًا! أعرف هذا القسم! هناك يعطون هويَّات لكل من هب ودب! أنا، على سبيل المثال ما كنت لأعطي شخصًا مثلك هوية! ما كنت لأعطيه مهما كان الأمر! يكفي أن ألقيَ على وجهك نظرة حتى أرفض على الفور إعطاءك هوية!». ثم أردف بصوت رسمي يقول:

- «حضورك الجنازة ملغي. كلِّف نفسك العودة إلى مقر إقامتك».

وزأر باتجاه الباب: - «أزازيلو!».

هُرع إلى المدخل على صوت ندائه شخص أصهب ضئيل الحجم يعرج، يرتدي رداءً أسود ضيِّق، ويلوح وراء سيره الجلدي خنجر، له ناب أصفر وغشاوة على عينه اليسرى.

أحس بوبلافسكي أنه يكاد يختنق من قلة الهواء، فنهض عن كرسيه وتراجع وهو يضع يده على قلبه.

- «ودِّعه يا أزازيلو!». قال القط يأمره وخرج من المدخل.

وقال الداخل بصوت أخن خافت:

- «بوبلافسكي. آمل أن يكون كل شيء مفهومًا الآن!». هزَّ بوبلافسكي رأسه.

وتابع أزازيلو كلامه:

- «عد فورًا إلى كييف وابقَ هناك بلا حس ولا حركة وانزع من مخك أي فكرة عن شقة في موسكو. واضح؟».

هذا الرجل الصغير الذي بعث الرعب القاتل في قلب بوبلافسكي بنابه وخنجره وعينه العوراء لم يكن يتجاوز بطوله كتف الاقتصادي، لكنه كان يتصرَّف بقوة ومهارة ونظام.

كان أول ما فعله أنه رفع الهوية عن الأرض، وناولها مكسيميليان أندرييفتش، فأخذها هذا بيد ميتة. ثم رفع المسمَّى أزازيلو الحقيبة بيد، وفتح الباب بأخرى، وتأبَّط ذراع عم برليوز ومضى إلى بسطة الدرج. استند بوبلافسكي على الجدار. ودون أي مفتاح فتح أزازيلو الحقيبة وأخرج منها دجاجة مقلية هائلة برجل واحدة ملفوفة بجريدة تفشَّى فيها الزيت ووضعها على البسطة. ثم سحب زوجين من الملابس الداخلية وسير حلاقة وكتيِّبًا وحافظة وقذف هذا كله ما عدا الدجاجة بقدمه في دورة السلم وطارت

وراءه الحقيبة المفرغة التي سُمع دوِيُّها وهي ترتطم بالأرض وينخلع، في ما بدا من الصوت الذي دوَّى، غطاؤها.

ثم أمسك اللص الأصهب الدجاجة من رجلها وهوى بها من جانبها المفلطح بقوة مريعة على رقبة بوبلافسكي بحيث انفصل جانبها وبقيت رجلها في يد أزازيلو. كل شيء اختلط وتبلبل في بيت أوبلونسكي، كما قال بحق الكاتب المشهور ليو تولستوي[1] وهذا بالضبط ما كان سيقوله في هذه الحالة. نعم! كل شيء اختلط وتبلبل في عيني بوبلافسكي. لمعت شرارة طويلة أمام عينيه ثم استحالت أفعى بلون الحداد أطفأت للحظة نور هذا اليوم الأيَّاري، وطار بوبلافسكي يتدحرج على الدرج وهو يمسك هويته بيده. وبلغ الدورة فحطم برجله زجاج النافذة في البسطة التالية واستوى جالسًا على الدرجة. وقفزت الدجاجة التي فقدت رجليها إلى جانبه وسقطت في بئر السلم وفي طرفة عين التهم أزازيلو الذي ظل واقفًا في أعلى الدرج لحم رجل الدجاجة، ودسَّ عظمتها في جيب سترته الضيِّقة الجانبي وعاد إلى الشقة وأغلق الباب وراءه بجلبة. في هذا الوقت سُمعت في الأسفل خطوات تصعد الدرج بحذر.

عدا بوبلافسكي دورة أخرى وجلس على ديوان خشبي في البسطة والتقط أنفاسه.

توقَّف قرب بوبلافسكي رجل مسن ذو جسم مفرط في ضآلته ووجه خارق في حزنه، يرتدي بذلة حريرية قديمة ويضع قبعة قاسية من القش لها شريطة خضراء. وسأله بصوت حزين:

- «هل تسمح لي أن أسألك أيها المواطن أين الشقة رقم 50؟».

- «في الأعلى»، أجابه الرجل بالصوت الحزين نفسه، ومضى يصعد إلى الأعلى، أما بوبلافسكي فهب من مكانه وعدا يهبط الدرج.

وهنا يثور سؤال: أإلى الشرطة أسرع مكسيميليان أندرييفتش يشكو هؤلاء الأشقياء الذين اعتدوا عليه هذا الاعتداء الوحشي في وضح النهار؟ لا، أبدًا على الإطلاق؛ هذا أمر بوسعنا تأكيده بكل ثقة. أن تدخل قسم شرطة وتقول لهم إن قطًا يضع نظارة تصفَّح بطاقتي الشخصية، وإن شخصًا يلبس رداءً ضيِّقًا ويحمل خنجرًا... لا، أيها المواطنون مكسيميليان أندرييفتش كان بالفعل إنسانًا ذكيًا!

رأى مكسيميليان، وقد بات الآن في أسفل الدرج، بابًا بمحاذاة المخرج يؤدي إلى غرفة صغيرة وكان زجاج الباب مكسورًا. خبَّأ بوبلافسكي الهوية في جيبه وتلفَّت حوله علَّه يرى أشياءه المقذوفة، لكن لم يعثر لها على أثر. ودُهش بوبلافسكي نفسه لضآلة ما

---

(1) السطر الأول من رواية «آنا كارينينا» تأليف تولستوي. المترجم.

أصابه من الغم لفقدانها. فقد كانت تشغل باله الآن فكرة أخرى شائقة ومغرية وهي أن يتأكَّد بواسطة هذا الرجل مرة أخرى مما يدور في هذه الشقة الملعونة، وبالفعل: بما أن الرجل سأل عن الشقة فمعناه أنه ذاهب إليها للمرَّة الأولى. وبالتالي فهو واقع مباشرة في أيدي تلك العصابة التي اتخذت من الشقة رقم 50 وكرًا لها. وتملَّكه شعور داخلي خفي بأن هذا الرجل الصغير لا بد خارجٌ من الشقة على الفور. وبطبيعة الحال تلاشت في ذهن مكسيميليان أندرييفتش الآن أية نية في حضور أية جنازة لأي قريب، كما أنه لا زال أمامه متسع من الوقت حتى انطلاق القطار إلى كييف، التفت الاقتصادي حوله وغاص في الغرفة الصغيرة. في هذا الوقت سمع بعيدًا في الأعلى صوت باب يُصفق. «ها هو ذا دخل!»، قال بوبلافسكي في سره وقلبه يكاد يتوقَّف عن الخفقان. كانت الغرفة باردة تخيِّم فيها رائحة الفئران والأحذية. جلس مكسيميليان أندرييفتش على جذع شجرة وقرَّر الانتظار. كان الموقع الذي اتخذه مناسبًا إذ كان يرى أمامه مباشرة باب المخرج الرئيسي السادس.

إلا إنه تعيَّن على مكسيميليان أندرييفتش أن ينتظر أطول مما افترض. ولأمر ما ظل الدرج خاليًا طول هذا الوقت. كان الكييفي يسمع من مكانه كل شيء بوضوح، وأخيرًا اصطفق باب في الطابق الخامس فحبس بوبلافسكي أنفاسه. نعم، خطواته. «إنه يهبط الدرج». وفُتح باب في الطابق الأدنى. الخطوات القصيرة خفتت. صوت امرأة. صوت رجل حزين... نعم إنه صوته... نطق بكلمات من قبيل «اتركيني من أجل المسيح...»، كانت أذن بوبلافسكي تبرز من الزجاج المكسور. والتقطت هذه الأذن ضحكة نسائية. خطوات سريعة وخفيفة على الدرج؛ ولاح ظهر امرأة. خرجت هذه المرأة تحمل حقيبة مشمَّعة من مدخل البناية إلى الفناء. أما خطوات ذلك الشخص فقد استؤنفت. «غريب، إنه يعود أدراجه إلى الشقة ها هو ذا الباب فوق يُفتح! ما العمل؟ لننتظر قليلًا!».

ولم يطل الانتظار هذه المرة. صوت باب. خطوات قصيرة، الخطوات القصيرة خفتت. صرخة يائسة. مواء هرَّة، خطوات سريعة متقطعة تهبط، تهبط، تهبط!

وكوفئ بوبلافسكي على انتظاره. فقد هبط الرجلُ الحزينُ الدرجَ كالسهم وهو يرسم إشارة الصليب ويغمغم بكلام غير مفهوم، وقد طارت قبعته وتبلَّه وجهه وتخدَّشت صلعته وتبلَّل سرواله تمامًا. وأخذ يشد مقبض الباب وهو لا يدري من خوفه كيف يُفتح: أيدفعه إلى الداخل أم إلى الخارج، وأخيرًا تمكَّن من الباب وانطلق إلى نور الشمس في الفناء.

وتم لمكسيميليان أندرييفتش ما أراد: لقد تحقَّق من الشقة ومما يدور فيها، فعدا

من الغرفة الصغيرة إلى الفناء، وقد طارت من رأسه أية أفكار عن المرحوم نسيبه وعن الشقة. كان يرتعد من فكرة الخطر الذي يتهدده ويهمس ثلاث كلمات فقط:

«كل شيء مفهوم! كل شيء مفهوم!» وبعد دقائق كان الباص الكهربائي يحمل المخطط الاقتصادي إلى محطة كييف.

أما ما جرى للرجل الصغير أثناء وجود الاقتصادي في الغرفة الصغيرة فقصة من أسوأ ما يمكن تصوره. كان هذا الرجل صاحب البوفيه في «فارييتيه» وكان اسمه أندريه فوكيتش سوكوف. أثناء التحقيق الذي جرى في «فارييتيه» ظلّ أندريه فوكيتش بعيدًا عن كل ما يجري ويحدث، ولم يُلاحَظ فيه سوى أنه أصبح أشد حزنًا مما كان عامة، وأنه سأل الساعي كاربوف عن مكان نزول الساحر الزائر.

وهكذا صعد صاحب البوفيه بعد أن افترق والاقتصادي على بسطة الدرج إلى الطابق الخامس ورنَّ جرس الشقة رقم 50.

وفُتح الباب فورًا، لكن صاحب البوفيه ارتعش وتراجع قليلًا ولم يجسر على الدخول فورًا. وهذا مفهوم، فقد فتحت له الباب فتاة لا يسترها شيء سوى مئزر من الدانتيلا يشي بالغنج والدلال وقوس بيضاء على رأسها، هذا إلى خفَّين ذهبيين في قدميها، لم يكن يشوب جمال الفتاة شائبة اللهم إلا تلك الندبة الحمراء على عنقها التي قد يرى فيها البعض عيب الفتاة الوحيد.

- «تفضَّل أدخل ما دمت قرعت الجرس!». قالت الفتاة وحدَّجته بعينين خضراوين داعرتين.

تأوَّه أندريه فوكيتش وغمز عينيه وخطا إلى المدخل وهو يخلع قبعته. في هذا الوقت بالذات رن جرس الهاتف في المدخل. وضعت الخادمة القليلة الحياء رِجلًا على الكرسي ورفعتِ السماعة وقالت فيها:

- «ألو!».

لم يعرف صاحب البوفيه أين يواري عينيه. فأخذ يميل على جنبيه رافعًا رِجلًا منزلًا أخرى وهو يقول في نفسه «يا لها من خادمة! تفو! يا لها من فظاعة!». ولكي يتخلَّص من هذه الفظاعة أخذ ينظر شزرًا إلى جانبيه.

كان المدخل الكبير نصف المظلم يحوي أشياء وأثوابًا غير عادية. وهكذا كانت بردة سوداء ذات بطانة حمراء كالنار ملقية على مسند الكرسي، وشيش طويل ذو مقبض ذهبي لامع على الطاولة الصغيرة التي تحت المرآة. كما كانت ثلاثة سيوف أخرى ذات مقابض فضية تنتصب في الركن ببساطة وكأنها مظلَّات أو عكاكيز. وكانت قبعات ذات ريش من ريش النسور تتدلَّى من قرون الأيل.

قالت الخادمة في الهاتف: - «نعم، نعم؟ البارون مَيْغل؟ أسمعك. نعم! السيد الفنان في البيت اليوم. نعم سيسر برؤيتك. نعم، ضيوف... فراك أو جاكيتة سوداء. ماذا؟ نحو الثانية عشرة ليلًا». وبعد أن أنهت الخادمة حديثها، وضعت السماعة والتفتت إلى صاحب البوفيه: «ماذا تريد؟».

- «أنا بحاجة ماسة إلى مقابلة المواطن الفنان».

- «كيف؟ مقابلته شخصيًا؟».

أجاب الساقي بصوت حزين: - «نعم».

- «سأبلغه»، قالت الخادمة في تردُّد على ما بدا، وشقَّت الباب المفضي إلى مكتب المرحوم برليوز وقالت: «أيها الفارس، هناك شخص صغير يقول إنه بحاجة إلى سيدي».

تناهي منِ المكتب صوت كوروفييف المحطَّم: - «ليدخل».

- «اعبر إلى غرفة الاستقبال»، قالت الفتاة ببساطة وكأنها ترتدي ما يرتديه البشر وشقَّت طرف باب غرفة الاستقبال، وغادرت المدخل.

ما إن دخل صاحب البوفيه إلى حيث دعيَ حتى نسيَ الأمر الذي أتى من أجله لشدة ما صعقه أثاث الغرفة، كان ضوء غير مألوف يشبه ضوء الكنائس يتدفَّق من نوافذ كبيرة ذات زجاج ملوَّن (وهذه نزوة من نزوات زوجة الصائغ التي اختفت دون أثر)، وفي الموقد القديم الضخم يشتعل الحطب على الرغم من هذا اليوم الربيعي الحار. ومع هذا لم يكن الداخل يشعر بأي حرارة، بل، على العكس، كانت تنفحه رطوبة الداخل كرطوبة الأقبية. وأمام الموقد كان يجلس على جلد نمر قط أسود هائل الحجم وهو يزر عينيه بوداعة أمام النار. كما كانت هناك طاولة أخذت صاحب البوفيه الورع رعدة لدى رؤيتها: كانت الطاولة مغطَّاة بديباج كنائسي وعلى الديباج العديد من الزجاجات كان يلمع طبق بدا واضحًا للمرء للحال أنه من الذهب الخالص. وقرب الموقد كان رجل صغير أصهب يضع خنجرًا خلف سيره يشويَ قطع لحم على شيش فولاذي طويل. كان العصير يقطر على النار والدخان يخرج من المدخنة. ولم تكن غرفة الاستقبال تعبق برائحة الشواء وحسب، بل بروائح قوية نفَّاذه ومنها رائحة بخور، مما جعل صاحب البوفيه الذي عرف بمصرع برليوز ومكان إقامته من الصحف يتساءل في سره للوهلة الأولى عمَّا إذا كان هؤلاء يقيمون صلاة على نفس المرحوم، لكنه طرد هذه الفكرة من رأسه على الفور لسخافتها الجلية.

وعلى حين غرَّة سمع صاحب البوفية المصعوق صوتًا غليظًا ثقيلًا يقول له:

- «أي، فيمَ أستطيع أن أخدمك؟».

وهنا اكتشف الساقي في الظل من كان يطلبه.

كان الساحر الشيطاني متمدِّدًا على ديوان واسع واطئ تناثرت عليه المخدات. ولم يكن يستر الفنان، كما بدا للساقي، إلا ملابس تحتانية سود بالإضافة إلى خُفٍّ أسود دقيق المقدمة في قدمه.

قال الزائر بمرارة: - «أنا... أنا مدير البوفيه في مسرح «فارييتيه»...».

مدَّ الفنان يده التي كانت الأحجار الكريمة تلمع على أصابعها إلى الأمام كأنما ليسد فم الساقي وقال بحماسة كبيرة:

- «لا، لا،! ولا كلمة أخرى! لا، لن أضع شيئًا في فمي من مطعمكم، أبدًا وبأي حال من الأحوال! لقد مررت البارحة، أيها المحترم، قرب منضدة البوفيه، ولا أستطيع حتى الآن أن أنسى لحم سمك الحفش ولا جبن البرينزا[1]. يا عزيزي! جبن البرينزا لا يكون بلون أخضر، لا بد أن أحدهم غشَّكَ! المفترض في جبن البرينزا أن يكون أبيض. ثم الشاي! هذا ليس شايًا بل ماء غسيل صحون! لقد رأيت بأم عيني كيف كانت إحدى عاملاتكم المهملة القذرة تسكب في سماوركم الضخم ماءً غير مغلي من السطل، ومع هذا تابعتم سكب الشاي منه للزبائن. لا، أيها العزيز، هذا غير معقول!».

قال أندريه فوكيتش الذي أذهله هذا الهجوم الباغت: - «أعتذر عن ذلك، لكني لم آتِ في هذا الأمر، ولحم الزجر لا شأن له هنا».

- «كيف تقول لا شأن له هنا، إذا كان هذا اللحم فاسدًا!».

- «لقد أرسلوا لنا لحمًا طازجًا من الدرجة الثانية».

- «هذا هراء أيها العزيز!».

- «وأين الهراء هنا؟».

- «في طزاجة من الدرجة الثانية، هنا الهراء! الطزاجة لا تكون إلا واحدة، هي الأولى وهي الأخيرة، أما إذا كان لحم الزجر طازجًا من الدرجة الثانية فمعناه أنه لحم فاسد!».

- «اعتذر...». أخذ مدير البوفيه يعتذر ثانية وهو لا يدري كيف يتملَّص من هذا الفنان المشاكس.

أجابه الساحر الأجنبي مستغربًا: - «لا أستطيع أن أعذرك، وأي أمر آخر إذن يمكن

---

(1) نوع من الجبن الأبيض. الناشر.

أن يسوقك إلى هنا؟ إذا لم تخني الذاكرة، فقد عرفتُ في من عرفت من الأشخاص الذين تشبه مهنتك مورِّدة طعام ومشروب للجيش. كان هذا من زمن بعيد- قبل أن تولد. وعلى أي حال أنا مسرور بقدومك. أزازيلو! كرسيًا صغيرًا للسيد مدير البوفيه».

استدار الذي كان يشوي اللحم فروَّع صاحب البوفيه بأنيابه، وقدَّم له بخفَّة أحد الكراسي الداكنة المصنوعة من خشب البلوط، إذ لم يكن في الغرفة غير هذا النوع من المقاعد.

- «لك عميق شكري»، نطق صاحب البوفيه وتهالك على الكرسي المقدم له فإذا بقائمته الخلفية تفرقع من قصفة على الفور، وإذا بمدير البوفيه يشهق ويسقط فيشعر بألم حاد جرَّاء ارتطام مؤخرته بالأرض، كما يصدم في سقوطه كرسيًا آخر أمامه فيريق كأسًا ملأى بالنبيذ الأحمر على بنطاله.

وصاح الفنان:

- «أي، هل رُضضت؟؟».

ساعد أزازيلو مدير البوفيه على النهوض وقدَّم له كرسيًا آخر. لكن الساقي امتنع بصوت مفعم بالحزن عن قبول اقتراح رب البيت خَلْع سرواله وتجفيفه أمام النار. ولشعوره بالحرج وهو في قميصه الداخلي وردائه المبللين، جلس على مقعد آخر بتخوُّف وحذر.

قال الفنان: - «أحب الجلوس في المكان الواطئ، فالسقوط من مكان واطئ ليس بهذا القدر من الخطورة. أي توقفنا عند لحم الزجر إذن، يا عزيزي! الطزاجة، الطزاجة ثم الطزاجة هي التي يجب أن تكون شعار كل من يدير بوفيه، أي، ألا ترغب في تذوُّق...».

وهنا لمع في الضوء الأحمر المنبعث من الموقد شيش أمام عيني صاحب البوفيه، وضع أزازيلو قطعة لحم تنشّ في صحن ذهبي ورشَّها بعصير الليمون وقدَّم شوكة ذهبية بسنين لصاحب البوفيه.

- «شكرًا جزيلًا... أنا...».

- «لا، لا، جرِّب!».

وضع صاحب البوفية قطعة صغيرة في فمه من باب الأدب، وأدرك على الفور أنه يمضغ شيئًا طازجًا جدًا بالفعل، والأهم شيئًا لذيذًا بشكل غير عادي. لكنه كاد يختنق بقطعة اللحم المعطَّرة والغضة التي يمضغها ويسقط على الأرض ثانية. فقد اقتحم الغرفة طائر كبير داكن ومس بجناحيه صلعة مدير البوفيه، وحطَّ على رف الموقد قرب

الساعة. ولم يكن الطائر سوى بومة. «يا رب!» قال أندريه فوكيتش الذي كان عصبي المزاج كسائر أقرانه من أصحاب البوفيهات في سره، «يا لها من شقة!».

- «هل ترغب في كأس من النبيذ؟ أبيض أم أحمر؟ نبيذ أي بلد تفضّل في مثل هذه الساعة من النهار؟».

- «شكرًا جزيلًا... لا أشرب...».

- «عبثًا لا تشرب! هل ترغب في لعبة نَرْد؟ أم تفضل أنواعًا أخرى من اللعب؟ دومينو، ورق؟».

أجاب صاحب البوفيه الذي أدركه الإرهاق: - «لا ألعب».

قال الفنان معلقًا: - «أمر في غاية السوء، شيء ما لا يوحي بالخير يكمن في نفوس الرجال الذين يتحاشون الخمرة واللعب وعِشرة النساء الفاتنات وتبادل الحديث حول طاولة. ناس كهؤلاء إما مصابون بمرض عضال، أو أنهم يبغضون في سرهم من حولهم. وهناك شواذ في الحقيقة. فقد صادفت بين الذين جلسوا معي وراء الموائد العامرة سفلة عجيبين! وهكذا فأنا كلي آذان صاغية لسماع ما أتيت فيه».

- «تفضّلت البارحة وأقمت حفلة ألاعيب خفّة وشعوذة...».

صاح الساحر بدهشة: - «أنا؟ عفوك. هذا لا يليق بي!».

قال صاحب البوفيه المبهوت: العفو، ولكن حفلة السحر الشيطاني...».

- «آ، نعم، نعم! سأكشف لك سرًا يا عزيزي: أنا لستُ فنانًا على الإطلاق، بل رغبت في رؤية الموسكوفيين جماعيًا وأسهل الأمور أن تفعل ذلك في المسرح. وها هي ذي حاشيتي». وأومأ برأسه نحو القط، «إنها هي التي أقامت هذه الحفلة، أما أنا فجلست أتأمّل الموسكوفيين وحسب. لا تغيرنّ ملامح وجهك، بل قل لي ما الذي دفعك في هذه الحفلة إلى المجيء إليَّ؟».

- «تعرفون، يا سيدي، من بين ما حدث في الحفلة أنه تطايرت أوراق من السقف، وهنا خفض صاحب البوفيه صوته وتلفّت حوله في ارتباك، «وقد تخاطفها الجميع. ومن ثَمّ جاءني شاب في البوفيه وأعطاني تشيرفونتس فأعدت له ثمانية روبلات ونصفًا... ثم جاءني آخر.

- «شاب هو الآخر؟».

- «لا، كهل. ثم ثالث ورابع. وأنا أعيد لهم الباقي واليوم أخذت أدقّق حساب الخزنة، فإذا بي أرى أوراقًا عادية مقطّعة بدلًا من الأوراق النقدية. وغرمت البوفيه بمائة وتسعة روبلات».

صاح الفنان: - «أي يا يا! هل اعتقدوا فعلًا أنها أوراق نقدية حقيقية؟ من جهتي لا أظن مجرَّد ظن أنهم فعلوا ذلك عن وعي».

تلفَّت صاحب البوفيه حوله بجانب عينه في كآبة، لكنه لم ينطق بكلمة.

سأل الساحر ضيفه في قلق: أنصابون هم إذن؟ أمن المعقول أن يكون بين الموسكوفيين نصابون؟».

كان جواب صاحب البوفيه ابتسامة مرَّة بحيث أزالت كل شك: نعم، يوجد بين الموسكوفيين نصابون.

قال فولند بلهجة سخط: - «هذا شيء سافل! إنك إنسان فقير... أنت بالتأكيد إنسان فقير أليس كذلك؟».

دسَّ صاحب البوفيه رأسه بين كتفيه بحيث بدا واضحًا أنه إنسان فقير.

- «كم لك من الودائع في صندوق التوفير؟».

طُرح السؤال بنبرة تعاطف، ومع هذا لا يمكن القول إن مثل هذا السؤال كان لبقًا. وحار الساقي لا يدري ما يقول.

ردَّ من الغرفة المجاورة صوت مصرصر: - «مائتان وتسعة وأربعون ألف روبل في خسمة صناديق توفير، ومائتا قطعة ذهبية من فئة العشرة تحت البلاطة في أرض الغرفة».

بدا وكأن صاحب البوفيه لصق بكرسيه.

قال فولند لضيفه بتنازل: - «لا، هذا ليس مبلغًا بطبيعة الحال، مع أنك، بالمناسبة، لست بحاجة إليها. متى ستموت؟».

هنا لاح السخط على وجه صاحب البوفيه وأجاب:

- «هذا أمر لا يعرفه أحد، ولا يخص أحدًا».

تناهى إليه مرة أخرى الصوت الكريه نفسه من المكتب: - «كيف لا يعرفه أحد؟ أو يظنها نظرية نيوتن في المخرج ذي الحدين! سيموت خلال تسعة أشهر، في شهر شباط من العام القادم من سرطان في الكبد في مشفى جامعة موسكو الأولى، وفي الغرفة الرابعة منه».

اصْفَرَّ وجه صاحب البوفيه.

أخذ فولند يحسب وهو مستغرق في التفكير: - «تسعة أشهر، ومائتان وتسعة وأربعون ألفًا... يعني، تقريبًا سبعة وعشرون ألفًا في الشهر؟ قليل، لكنه كاف لعيشة متواضعة. ثم هناك هذه العشرات الذهبية».

تدخل الصوت إياه باعثًا القشعريرة في أوصال صاحب البوفيه: - «لن يستطيع أحد فعل شيء بهذه العشرات، فما إن يموت أندريه فوكيتش حتى يهدم البيت وتسلَّم العشرات إلى بنك الدولة».

قال الفنان يتابع كلامه: - «وأنا إلى ذلك لا أنصحك بدخول المشفى، فما جدوى الموت في غرفة مشفى على صوت أنين مرضى ميؤوس منهم وحشرجاتهم؟ أليس من الأفضل لك أن تقيم وليمة عامرة بهذه السبعة والعشرين ألفًا ثم تتناول السم وتنتقل إلى العالم الآخر على ألحان الأوتار تحف بك حسناوات نشوانات وأصدقاء صاخبون؟».

كان صاحب البوفيه يجلس دون حراك وقد بدت على وجهه علائم الشيخوخة: أحاطت عينيه حلقات قاتمة اللون، وتهدَّلت وجنتاه، وارتخى حنكه.

صاح فولند: - «لكن الخيال راح بنا بعيدًا، لنعد إلى ما كنَّا بصدده. أرني ورقتك المقطوعة».

سحب صاحب البوفيه من جيبه الرزمة بيد مرتعشة وفكَّها وتجمَّد، كانت التشيرفونتسات في قصاصة الجريدة.

قال فولند وهو يهز كتفيه: - «فعلًا، يا عزيزي، أنت لست في كامل صحتك».

نهض صاحب البوفيه عن كرسيه الصغير وهو يبتسم ابتسامة وحشية، وقال وهو يتلعثم:

- «و... و... وإذا تحوَّلت ثانية...».

قال الفنان مفكرًا: - «هم... إذَّاك عد أنت إلينا أهلًا وسهلًا! لقد سرَّنا التعرف إليكَ».

وهنا وثب كوروفييف من المكتب وتشبَّث بيد صاحب البوفيه وأخذ يهزها ويرجوه أن يبلغ الجميع، الجميع تحياته. وتحرَّك أندريه فوكيتش نحو المدخل وهو لا يعي من أمره شيئًا.

نادي كوروفييف: - «غيلا، ودِّعيه!».

ومن جديد ظهرت هذه العارية الصهباء في المدخل! التصق صاحب البوفيه بالباب وصاح: «إلى اللقاء!» ومضى كالسكران. ولمَّا هبط الدرج قليلًا جلس على إحدى الدرجات وأخرج الرزمة يتيقَّن منها؛ كانت التشيرفونتسات في مكانها.

وهنا خرجت من الشقة المطلة على هذه البسطة امرأة تحمل حقيبة يد خضراء. ابتسمت المرأة حين رأت هذا الشخص الجالس على الدرجة الذي يرنو على التشيرفونتسات بنظرات بليدة وقالت في شرود.

- «أي بناية هذه! وهذا السكران منذ الصباح. والزجاج الذي كُسر من جديد»، ثم أردفت بعد أن أمعنت النظر في الساقي تقول: - «أي أيها المواطن، ما أكثر عدد التشيرفونتسات عندك لو نتقاسمها! آ؟»".

- «دعيني بحق المسيح»، قال صاحب البوفيه مذعورًا وخبّأ النقود بسرعة وانفجرت المرأة ضاحكة.

- «اذهب إلى الشيطان، يا لك من بخيل! كنتُ أمازحك»، ومضت تهبط الدرج.

نهض صاحب البوفيه ببطء، ورفع يده يحكم وضع قبعته، لكنه سرعان ما أيقن أنها ليست على رأسه. كان أبعد ما يكون رغبة في العودة، لكنه شعر في الوقت نفسه بالأسف على قبعته. تردَّد قليلًا لكنه عاد ورن جرس الشقة:

سألته غيلا اللعينة: - «ماذا تريد أيضًا؟».

- «نسيتُ قبعتي»، همس صاحب البوفيه وهو يغرز إصبعه في صلعته. واستدارت غيلا، فبصق صاجب البوفيه في سره وأغمض عينيه. ولما فتحهما كانت غيلا تناوله القبعة وشيشًا ذا مقبض قاتم اللون.

- «ليس لي»، همس صاحب البوفيه وهو يدفع عنه الشيش ويرتدي قبعته على عجل.

قالت غيلا مندهشة: - «أأتيت إلينا دون شيش حقًا؟».

غمغم صاحب البوفيه بشيء ما، وانطلق يهبط الدرج، لكنه شعر برأسه يضايقه وبدفء زائد ينبعث من القبعة، فخلعها وأطلق صيحة خافتة وهو يقفز من خوفه. كان يمسك بيده طاقية بيريه مخملية عليها ريشة ديك بالية. ورسم إشارة الصليب، وفي اللحظة نفسها ماءت الطاقية واستحالت قطًا صغيرًا أسود وثب عائدًا على رأس أندريه فوكيتش وغرز مخالبه كلها في صلعته. أطلق صاحب البوفيه صرخة بائسة واندفع يهبط، بينما قفز القط عن رأسه وراح يصعد الدرج وثبًا.

وإذا وجد صاحب البوفيه نفسه في الهواء الطلق، مضى يركض إلى الباب الخارجي وغادر البناية رقم 302 مكرَّر المسكونة بالشياطين إلى الأبد.

أمَّا ما حدث له بعد ذلك فنعرفه معرفة اليقين: فبعد أن خرج صاحب البوفيه من الممر ألقى نظرة وحشية كمن يبحث عن شيء ما، وفي دقيقة كان على الجانب الآخر من الشارع يدخل صيدلية، وما إن نطق بهذه الكلمات: «قولي لي من فضلك...» حتى هتفت المرأة التي كانت تقف وراء المنضدة:

- «أيها المواطن، ألا ترى رأسك كله مجرَّح!...».

بعد خمس دقائق كان صاحب البوفيه كان قد ضمَّد رأسه وعرف أن كلًا من البروفيسور بيرنادسكي والبروفيسور كوزمين يعدَّان أفضل اختصاصيين في أمراض الكبد، وكان يطير من الفرح حين سأل وعرف أن أقربهما، البروفيسور كوزمين، يسكن دارًا بيضاء صغيرة لا يفصله عنها سوى بناية واحدة. وبعد نحو دقيقتين كان يدخل هذه الدار ذات البناء القديم إنما المريح جدًا. ويذكر أندريه فوكيتش أن أول ما لقيه في هذه الدار كان امرأة عجوزًا أرادت أن تأخذ منه قبعته. ولكن بما أنه تبيَّن أن لا قبعة لديه، فقد انصرفت العجوز عنه وهي تمضغ فمها الخالي من الأسنان.

وظهرت مكانها قرب مرآة وتحت قوس، كما تهيَّأ له، امرأة متوسطة العمر وقالت له على الفور أن بإمكانه أن يسجِّل اسمه للتاسع عشر من الشهر، وليس قبل هذا التاريخ. وأدرك صاحب البوفيه فورًا فيمَ خلاصه من هذا المأزق، فقد ألقى إلى ما وراء القوس، حيث كان يجلس في غرفة الانتظار ثلاثة أشخاص، نظرة انطفأ النور فيها. وهمس:

- «مصاب إصابة مميتة...».

رمقت المرأة الرأس المضمَّد في حيرة وتردَّدت قليلًا ثم قالت:

- «ما العمل...». وسمحت لصاحب البوفيه بالعبور إلى ما وراء القوس.

وفي اللحظة نفسها فتح باب في الجهة المقابلة ولمعت فيه نظارة أنفية مذهَّبة، وقالت امرأة في رداء أبيض:

- «أيها المواطنون، هذا المريض سيدخل دون دور».

وفي غمضة عين وجد نفسه في مكتب البروفيسور كوزمين ولم يكن في هذه الغرفة المتطاولة شيء مخيف، مهيب وطبِّي.

ساله البروفسير كوزمين بصوت لطيف: - «ماذا أصابك؟»، ونظر إلى رأسه المضمَّد في شيء من القلق.

- «عرفتُ لتوي من مصدر موثوق»، أجاب صاحب البوفيه وهو يسترق نظره مستوحشة إلى صورة فوتوغرافية جماعية خلف الزجاج: - «أني سأموت في شباط القادم من سرطان في الكبد. أضرع إليك أن توقف المرض».

ارتدَّ البوفيسور كوزمين، الذي كان جالسًا، إلى الوراء بغتة ملقيًا ظهره على مسند الأريكة القوطي الجلدي العالي.

- «عفوًا، لا أفهم ما تقول... هل كنت عند طبيب؟ لماذا ضُمِّد رأسك؟».

- «أي طبيب ذاك؟... لو رأيت هذا الطبيب!...». وهنا أخذت أسنانه تطقطق فجأة،

«أما رأسي فلا تهتم به، ليس له علاقة بالموضوع. دعه وشأنه فهو ليس موضوعنا. سرطان الكبد... أرجوك إيقافه».

- «لكن عفوًا، من قال لك هذا؟».

قال صاحب البوفيه يرجوه بحرارة: - «صدِّقه، فهو يعرف».

قال البروفيسور وهو يهز كتفيه ويتراجع بأريكته عن الطاولة: - «لا أفهم شيئًا، أنَّى له أن يعرف متى ستموت؟ خصوصًا أنه ليس طبيبًا!».

قال صاحب البوفيه: - «في الغرفة الرابعة».

وهنا تطلَّع البروفيسور إلى مريضه، إلى رأسه وإلى بنطاله الرطب وقال في نفسه: «هذا ما كان ينقصنا! مجنون!» وسأله:

- «هل تشرب فودكا؟».

أجاب صاحب البوفيه: - «لم أمسَّها أبدًا».

وبعد دقيقة كان يتمدَّد مجرَّدًا من ثيابه على مضجع بارد مغطًّى بالمشمَّع والبروفيسور يدلِّك له بطنه. وينبغي القول هنا إن صاحب البوفيه استرد مرحه إلى حدٍّ كبير. فقد أكَّد له البروفيسور بشكل قاطع أنه في اللحظة الراهنة على الأقل لا تُلاحظ في المريض أي علامة من علامات السرطان. ولكن بما أن الأمر كذلك... أي بما أن المريض خائف. وبما أن أحد المشعوذين روَّعه فمن الضروري إجراء كل التحليلات... كان البروفيسور يخط بسرعة على أوراق أمامه وهو يشرح لصاحب البوفيه إلى أين عليه أن يذهب، وماذا عليه أن يُحضر. وأشفع هذا كله بتقرير قصير إلى البروفيسور بوريه الاختصاصي في الأمراض الخبيثة موضِّحًا للمريض أن أعصابه في غاية الاضطراب.

- «كم تأمر يا بروفيسور؟». سأله صاحب البوفيه بصوت رقيق راعش وهو يخرج حافظة نقوده السميكة.

- «ما تشاء»، أجابه البروفيسور بصوت مقتضب وجاف.

أخرج صاحب البوفيه ثلاثين روبل ووضعها على الطاولة، ثم وضع بخفة فجأة، وكأنه يعمل بخُفِّ قط، عمودًا صغيرًا رنانًا ملفوفًا في ورقة جريدة فوق التشيرفونتسات.

- «ما هذا؟»، سأل البروفيسور كوزمين وفتل شاربه.

همس صاحب البوفيه: - «لا تأنف منها، أيها المواطن البورفيسور، أرجوك أوقف السرطان».

قال البروفيسور بشعور من الاعتزاز بالنفس: - «إليك عني بذهبك هذا، الأفضل

لك أن تهتم بأعصابك، غدًا خذ البول للتحليل. لا تكثر من شرب الشاي وكُلْ دون ملح على الإطلاق».

سأل صاحب البوفيه: - «حتى الحساء دون ملح؟».

أمره كوزمين: - «لا تملِّح شيئًا».

- «إيه»، هتف صاحب البوفيه في حزن وهو يرنو إلى البروفيسور في تأثُّر ويلم عشراته الذهبية ويتراجع إلى الباب.

كان عدد المرضى قليلًا في عيادة البروفيسور هذا المساء. ومع حلول الظلام خرج آخرهم. وألقى البروفيسور وهو يخلع رداءه، نظرة إلى حيث ترك صاحب البوفيه التشيرفونتسات فلم يرَ أثرًا لها، بل رأى مكانها ثلاث بطاقات من تلك التي تلصق على زجاجات خمر «أبراو».

- «الشيطان وحده يعلم ما هذا!» جمجم البروفيسور وهو يجر على الأرض طرف ردائه ويتحسَّس البطاقات، «إنه كما يبدو ليس مصابًا بالفصام وحسب، بل نصَّاب أيضًا. لكني لا أستطيع أن أفهم ما الذي كان يبغيه مني؟ أطلبًا لتحليل البول؟ أو! لقد سرق المعاطف!». واندفع إلى المدخل وهو لا يزال مدخلًا يده في أحد كمَّي ردائه فقط، وصرخ بصوت ثاقب من باب المدخل: - «كسينيا نيكيتشنا، انظري، هل المعاطف كلها موجودة؟».

وتبيَّن أن المعاطف كلها موجودة. لكن لمَّا عاد البروفيسور إلى طاولته وقد خلع أخيرًا رداءه. بدا وكأنما انغرزت قدماه في أرض المكتب قرب طاولته، وقد تسمَّرت عيناه على الطاولة. فحيث كانت البطاقات كان يجلس الآن قط صغير ذو سحنة بائسة يموء فوق صحن حليب.

- «ما معنى هذا كله؟؟ هذا...». وشعر بالبرودة تسري في قذاله.

هُرعت كسينيا نيكيتشنا على صرخة البروفيسور الخافتة والشاكية وهدَّأت روْعه تمامًا بقولها إن أحد المرضى لا بد هو الذي تخلَّص من هذا القط، وإن هذا يحدث كثيرًا في عيادات البروفيسورات.

وأردفت كسينيا نيكيتشنا تفسِّر الأمر:

- «فقراء على الأرجح، أما عندنا، فطبعًا...».

وأخذا يفكِّران ويخمِّنان من الذي ترك القط. وأخيرًا وقعت الشبهة على العجوز المصابة بقرحة في المعدة.

قالت كسينيا نيكيتشنا: - «هي طبعًا». ثم قالت في نفسها: «لا بد أني سأموت بين يوم وآخر، أما القط فماذا سيحل به؟».

- «والحليب هل جلبته معها أيضًا؟ والصحن؟».

- «جلبت الحليب في قارورة، وهنا سكبته في الصحن».

قال البروفيسور: - «على أي حال خذي القط والصحن معًا»، وقام بنفسه بتشييع كسينيا نيكيتشنا حتى الباب. ولما عاد كان الوضع قد تغيَّر.

سمع البروفيسور، وهو يعلِّق رداءه على المسمار، قهقهة في الفناء، تطلَّع البروفيسور وانذهل، إذ رأى سيدة لا يستر جسمها إلا قميص تجتاز الفناء ركضًا إلى الجناح المقابل. كان البروفيسور يعرف حتى اسم هذه السيدة؛ ماريا الكسندروفنا، وكان الشخص الذي يقهقه طفلًا.

قال كوزمين في ازدراء: - «ما هذا؟».

وهنا أخذ الفونوغراف يصدح وراء جدار مكتبه أي في غرفة ابنته بألحان فوكستروت[1] «هيليلويا»، كما سُمعت في اللحظة عينها زقزقة عصفور دوري خلف ظهر البروفيسور. التفت البروفيسور فرأى عصفورًا ضخمًا يقفز على طاولته.

قال البوفيسور يفكِّر في سره: «هِمْ... عليَّ أن أكون هادئًا... لقد دخل حين ابتعدتُ عن النافذة. كل شيء على ما يرام». أمر البروفيسور نفسه وقد شعر أن كل شيء ليس على ما يرام إطلاقًا، وطبعًا بسبب هذا العصفور الدوري أساسًا. وأيقن البروفيسور، بعد أن تأمَّل الدوري، أنه ليس عصفورًا دوريًا عاديًا تمامًا. كان عصفور الدوري اللعين يعرج على قائمته اليسرى ويتصنَّع بشكل ظاهر وهو يجرها مختزلًا الخطو، وبإيجاز كان يرقص الفوكستروت على أنغام الفونوغراف وكأنه سكران يقف عند مشرب. تجالف الدوري قدر ما وسعه وهو يتطلَّع إلى البروفيسور بوقاحة. كانت يد كوزمين على الهاتف، وكان على وشك أن يدير قرصه ويسأل خريجي دفعته بوريه ويسأله عمَّا يعنيه مثل هذا النوع من عصافير الدوري في سن الستين، خصوصًا إذا اقترنت بدوار في الرأس فجأة.

حطَّ عصفور الدوري أثناء ذلك على الدواة التي أتته هدية، ولوَّثها (أنا لا أمزح!)، ثم ارتفع في الهواء واسترخى فيه ثم انقض ينقر كأنما بمنقار من فولاذ زجاج الصورة الفوتوغرافية التي تمثِّل الدفعة الكاملة لخريجي الجامعة عام 94 ويحطمه شظايا ويندفع خارجًا من النافذة. غيَّر البروفيسور الرقم الذي كان ينوي أن يديره، وبدلًا من

(1) رقصة جماعية شهيرة. الناشر.

الاتصال ببوريه اتصل بمكتب العَلَقِ وقال لهم إن المتكلم هو البروفيسور كوزمين وأنه يطلب إليهم إرسال علق إليه في البيت فورًا.

علّق البروفيسور الساعة واستدار مرة أخرى، وعلى الفور أطلق صرخة، كانت تجلس إلى الطاولة امرأة تضع على رأسها خمارًا من تلك الخُمُر التي تضعها ملائكة الرحمة، وتحمل بيدها حقيبة كُتب عليها «عَلَق». وأطلق البروفيسور صرخة أخرى بعد أن حدَّق في فمها: - «كان رجاليًا، مائلًا حتى أذنيها، فيه ناب، وكانت عيناها ميتتين».

قالت الممرضة بصوت رجالي عميق: - «سآخذ النقود، فلا جدوى من بقائها هنا مرمية». وجرفت البطاقات بقائمتها التي تشبه قائمة الطائر وأخذت تذوب في الهواء.

ومرَّت ساعتان. كان البروفيسور بعدهما يجلس على سريره في غرفة نومه والعلق يتدلّى على صدغيه ووراء أذنيه وعلى عنقه. وعند قدمي كوزمين كان يجلس على لحاف حريري سميك البروفيسور بوريه الأشيب الشاربين وهو ينظر في إشفاق وتعاطف محاولًا تعزيته بالقول إن هذا كله ترَّهات. كان الليل قد غمر النافذة.

أما ما حدث بعد ذلك من أشياء غريبة في موسكو تلك الليلة، فأمر لا نعرفه ولن نسعى بالطبع إلى معرفته، لا سيما أنه آن لنا أن ننتقل إلى الجزء الثاني من هذه القصة الصادقة: فهيا بنا أيها القارئ!

# الجزء الثاني

## الفصل التاسع عشر

# مرغريتا

هيا بنا أيها القارئ! من قال لك إن لا وجود للحب الحقيقي، الصادق، الخالد على هذه الأرض؟ فليقطع لسان الكاذب الفاجِر!

اتبعني أنا، وأنا دون سواي، يا قارئي، أُرِكَ مثل هذا الحب!

لا! أخطا المعلِّم إذَّاك في المستشفى والليل يحبو إلى منتصفه، إذ قال لإيفان والمرارة تملأ قلبه أنها نسيته، هذا مستحيل، إنها لم تنسَه طبعًا.

ولنكشف في بادئ الأمر السر الذي لم يرغب المعلِّم في كشفه لإيفان، كان اسم محبوبته مرغريتا نيقولايفنا. وكان كل ما قاله المعلِّم فيها للشاعر المسكين حقيقة خالصة.

كانت محبوبته جميلة وذكية كما وصفها، زد على ذلك شيئًا آخر وهو أننا نستطيع التأكيد بثقة أن كثيرًا من النساء كنَّ على استعداد للتضحية بأي شيء على أن يستبدلن حياة مرغريتا نيقولايفنا بحياتهن، كانت مرغريتا، التي لم تُرزق ولدًا... في الثلاثين من عمرها وزوجة اختصاصي عظيم نجح إلى هذا، في التوصُّل إلى اكتشاف بالغ الخطورة بالنسبة للدولة، كان زوجها في عز شبابه، جميلًا، طيبًا، شريفًا وكان يعبد زوجته، وكانت مرغريتا نيقولايفنا وزوجها يشغلان بمفردهما كل الطابق العلوي من دار رائعة وسط حديقة في أحد الأزقة القريبة من أربات، مكان ساحر حقًا، وبوسع أي كان التيقن مما أقول فيما لو رغب في التوجه إلى هذه الحديقة، وما عليه إلا أن يراجعني، فسأعطيه العنوان وأدله على الطريق فالدار لا تزال قائمة إلى الآن.

مرغريتا نيقولايفنا لم تكن في حاجة إلى مال، مرغريتا نيقولايفنا كان في مقدورها أن تشتري كل ما يروق لها، مرغريتا نيقولايفنا كانت تصادف بين معارف زوجها أناسًا مثيرين للاهتمام فعلًا، مرغريتا نيقولايفنا لم تلمس في حياتها وابور الكاز، مرغريتا

نيقولايفنا لم تعرف ويلات العيش في شقة مشتركة، وباختصار... هل كانت سعيدة؟ لا، ولا دقيقة واحدة! فهي لم تعرف السعادة مذ تزوجت وهي في التاسعة عشر من عمرها ووجدت نفسها في هذه الدار، يا إلهي! يا إلهي! ما الذي كانت تحتاج إليه هذه المرأة؟ ما الذي كانت تحتاج إليه هذه المرأة التي كان يضطرم في عينيها دائمًا بريق غامض، ما الذي كانت تحتاج إليه هذه الساحرة المائلة العين قليلًا التي كانت تتجمَّل في الربيع آنذاك بالسنط؟ لا أعرف، لا أعرف، الظاهر أنها كانت تقول الحقيقة، فقد كانت في حاجة إليه هو، المعلِّم، لا إلى دار على الطراز القوطي، ولا إلى حديقة خاصة، ولا إلى المال، كانت تحبه، وكانت تقول الحقيقة، حتى أنا الراوي الصادق إنما المحايد ينقبض قلبي حين أفكر في ما كابدته مرغريتا حيث عادت في اليوم التالي إلى شقة المعلِّم ولمَّا تتمكن لحسنِ الحظ من التحدث إلى زوجها الذي لم يعد في الوقت المحدد، وعرفت باختفاء المعلِّم.

وفعلت مرغريتا كل شيء لتعرف عنه شيئًا، لكنها لم تتوصَّل بطبيعة الحال إلى أي نتيجة، إذا عادت إلى دارها واستأنفت حياتها السابقة هناك.

- «نعم، نعم، نعم. إنه الخطأ نفسه يتكرَّر!». كانت مرغريتا تقول لنفسها في أيام الشتاء وهي تجلس إلى الموقد وتحدِّق في النار، «لماذا تركته في تلك الليلة؟ لماذا؟ هذا جنون! لقد عدت في اليوم التالي كما وعدته، بشرف لكن الوقت كان قد فات! نعم، عدت متأخِّرة جدًا كذلك التعس «متَّى اللاوي»!

لم يكن لكلماتها هذه أي معني بطبيعة الحال، وبالفعل ما الذي كان سيتغير لو بقيت إلى جانب المعلِّم في تلك الليلة؟ هل كانت ستنقذه فعلًا؟ بودنا أن نهتف قائلين: «هذا أمر مضحك!»، لكننا لن نفعل هذا أمام امرأة وصلت حافة اليأس.

أمضت مرغريتا نيقولايفنا الشتاء كله في عذابها هذا حتى جاء الربيع، واستيقظت مرغريتا نيقولايفنا في مخدعها الذي يطل منوره على برج دارها ظهيرة ذات يوم، بل ظهيرة ذلك اليوم نفسه الذي ساده كل هذا الهرج والمرج جرَّاء ظهور الساحر الشيطاني في موسكو، أي ظهيرة يوم الجمعة الذي أعيد فيه عم برليوز إلى كييف مطرودًا، واعتقل فيه المحاسب وجرت فيه أشياء كثيرة أخرى غير معقولة وغامضة.

لم تذرف مرغريتا نيقولايفنا الدمع كما كانت تفعل كثيرًا بعد استيقاظها لأنها استيقظت يراودها إحساس مسبق بأن شيئًا ما لا بد سيحدث اليوم، ولخشيتها من أن يزاولها هذا الإحساس أخذت تقويه في نفسها وتنمِّيه.

همست مرغريتا تقول لنفسها في مهابة: - «إني واثقة، بل مؤمنة بأن شيئا ما

سيحدث!، لا يمكن إلا أن يحدث شيء، فهل كتب عليَّ الشقاء مدى الحياة؟ ولماذا؟ أعترفُ بأني كذبتِ وخدعت وعشت حياة خاصة أخفيتها عن أعين الناس، ولكن لا يجوز مع هذا أن أُعاقب بهذه القسوة، لا بد أن يحدث شيء ما حتمًا، لأنه ليس من طبيعة الأمور أن يدوم شيء ما إلى الأبد، ثم إن حلمي ينبئ بشيء لا بد حاصل، أنا متأكدة من ذلك».

هكذا كانت مرغريتا نيقولايفنا تهمس لنفسها وهي ترنو إلى الستائر الحمر المغمورة بالشمس وترتدي ملابسها في اضطراب، وتمشِّط شعرها القصير المجعَّد أمام المرآة الثلاثية.

كان الحلم الذي رأته مرغريتا هذه الليلة غير عادي فعلًا، ذلك أنها لم ترَ المعلِّم في الحلم طوال عذاباتها الشتوية، إذ كان يدعها في الليل، ولم تكن تتعذَّب إلا في ساعات النهار، وها هي ذي تراه هذه الليلة في الحلم.

رأت مرغريتا في حلمها مكانًا غريبًا، مكانًا مهجورًا، كئيبًا تظلله سماء ربيعية مبكرة غائمة، رأت هذه السماء الرمادية التي تتراكض فيها قطع الغيوم وفيها سرب صامت من الغربان، وجسرًا ملتويًا تحته ساقية يجري فيها ماء ربيعي عكر، وأشجارًا كئيبة بائسة نصف عارية وشجرة حور وحيدة، وعلى مسافة أبعد بين الأشجار ووراء جنينة؛ بناءً صغيرًا من جذوع الأشجار الله أعلم أهو مطبخ منعزل أو حمام أو غير ذلك، كل شيء حولك ميت وكئيب بحيث يغريك بشنق نفسك على الحورة التي قرب الجسر، لا نسمة، لا حركة سحابة، لا حي، مكان لا يُطاق بالنسبة لكائن حي!

وهنا، تصوَّروا، ينفتح باب هذا البناء الخشبي على مصراعيه، ويظهر هو منه، إنه بعيد إلى حدٍّ ما، لكنه مرئي بجلاء، ممزَّق الثياب لا تدري ما يلبس بالضبط، شعره مشعَّث، ذقنه غير محلوقة، عيناه مريضتان قلقتان، يومئ لها بيده، يناديها، وانطلقت إليه مرغريتا فوق النتوءات الصغير وهي تكاد تختنق في الهواء الميت، وفي هذه اللحظة أفاقت من نومها.

قالت مرغريتا تحاكم الأمور مع نفسها: «هذا الحلم لا يعني إلا أحد أمرين، فإن كان ميتًا وأومأ إليَّ فهذا معناه أنه جاء يأخذني وأني سأموت قريبًا، وهذا ممتاز لأنه سيُوضع حدٌّ لعذابي، وإن كان حيًا فهذا لا يمكن أن يعني إلا شيئًا واحدًا وهو أنه يذكِّرني بنفسه! إنه يريد أن يقول لي إننا سنلتقي من جديد، نعم، إننا سنلتقي قريبًا جدًا».

ارتدت مرغريتا ملابسها وهي ما زالت على انفعالها، وأخذت توحي لنفسها أن كل شيء، في الواقع، يسير على نحو موفَّق، وأن على الإنسان أن يعرف كيف ينتهز

هذه اللحظة الموفَّقة ويفيد منها، كان زوجها قد سافر في مهمة لمدة ثلاثة أيام كاملة، وهكذا تُركت وحيدة إلى نفسها طول هذه الأيام لن يعيقها أحد عن أن تفكر في ما يحلو لها، وعن أن تحلم في ما يروق لها، وكل هذه الغرف الخمس في الطابق العلوي من الدار، كل هذه الشقة القمينة بأن تثير الحسد في نفوس عشرات الألوف من القلوب في موسكو تحت تصرفها.

إلا أنها، وقد نالت حريتها لمدة ثلاثة أيام كاملة، لم تختَر أفضل مكان من شقتها الفاخرة، بل مضت، بعد أن تناولت الشاي إلى غرفة مظلمة دون نوافذ كانت تحتفظ فيها بحقائب وأشياء أخرى عتيقة في خزانتين كبيرتين، جلست مرغريتا القرفصاء وفتحت الدرج السفلي لأولاهما، وأخرجت من تحت كومة من القطع الحريرية الشيء الوحيد الثمين في حياتها؛ ألبومًا قديمًا من الجلد البني فيه صورة المعلِّم الفوتوغرافية ودفتر صندوق التوفير برصيد من عشرة آلاف باسمة وبتلات وردة يابسة بين صفائح من ورق السجائر وجزءًا من دفتر يحوي ملزمة كاملة مطبوعة على الآلة الكاتبة ومحترقة في طرفها السفلي.

عادت مرغريتا نيقولايفنا بهذا الكنز إلى مخدعها فثبتت الصورة على المرآة الثلاثية ومكثت نحو ساعة واضعة الدفتر الذي أفسدته النار على ركبتيها تقلِّبه وتعيد قراءة ما أمسى بعد شبوب النار فيه بلا بداية ولا نهاية. «...الظلمة الزاحفة من البحر الأبيض المتوسط غطَّت المدينة البغيضة إلى قلب الحاكم، اختفت الجسور المعلَّقة التي تصل الهيكل ببرج أنطونيو الرهيب، وانهمرت من السماء لجَّة، وغمرت الآلهة المجنحة فوق ميدان الخيل وقصر الحشمونية[1] ذا الكوى، والأسواق والخانات والأزقة وبرك الماء... غارت أورشليم المدينة العظيمة وكأن لم يكن لها وجود...».

كان بود مرغريتا متابعة القراءة، لكنه لم يكن أمامها إلا أطراف أوراق متفحمة ومهترئة.

طوت مرغريتا نيقولايفنا الدفتر وهي تمسح دموعها وأسندت مرفقيها إلى طاولة المرآة التي كانت تعكس صورتها، وجلست هكذا طويلًا لا ترفع عينها عن صورة المعلِّم، ثم جفَّت دموعها فنهضت ورتَّبت كنزها بعناية وما هي دقائق حتى كان مدفونًا تحت خرق الحرير وكان المزلاج يقفل برنين في الغرفة المظلمة.

وفيما كانت مرغريتا نيقولايفنا ترتدي معطفها في المدخل استعدادًا للخروج في

(1) نسبة إلى السلالة الحشمونية اليهودية التي حكمت فلسطين بين عامي 140 و116 قبل الميلاد. الناشر.

نزهة قصيرة، تقدَّمت منها خادمتها الحسناء ناتاشا تسألها عن الطبق الثاني الذي عليها أن تعده، ولما أتاها الجواب أن الأمر سيان، أرادت أن تسرِّي عن نفسها بعض الشيء، فانخرطت في حديث مع معلمتها وراحت تروي لها أشياء الله أعلم بها، مثال ذلك أن أحد المشعوذين عرض البارحة في أحد المسارح ملاعيب بُهِت لها الجميع وأنه وزَّع مجانًا على كل واحد من الحاضرين زجاجتين من العطر الأجنبي وجوارب، وبعد أن انتهت الحفلة خرج الجمهور إلى الشارع، وهُب!، كانوا جميعهم عراة! ارتمت مرغريتا نيقولايفنا على الكرسي الذي تحت المرأة في المدخل وراحت تقهقه، وهي تقول لها:

- «ناتاشا! كيف لا تخجلين! أنت فتاة ذكية، متعلِّمة! يتقوَّلون في الطوابير أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، وأنتِ تردِّدين تقولاتهم!».

تضرَّجت وجنتا ناتاشا بالحمرة واندفعت تعترض قائلة إنهم لم يكذبوا في ما يروونه، وأنها شخصيًا رأت اليوم في محل للمواد الغذائية في أربات مواطنة دخلت المحل وهي تنتعل خفًا، وما إن وقفت عند الصندوق تدفع حتى اختفى الخف من قدميها، وبقيت حافية ليس في قدميها إلا الجورب، تصوَّري: عيون محملقة وعلى كعبها خرق، كان الخف مسحورًا، من تلك الحفلة».

- «ومضت إلى بيتها هكذا؟».

صاحت ناتاشا ووجهها يزدادا احمرارًا من عدم تصديقها: - «نعم، هكذا مضت!، وبالإضافة إلى ذلك، يا سيدتي، لمَّت الشرطة ليلًا نحو مائة شخص، لقد خرجت النساء من هذه الحفلة إلى شارع تفيرسكايا لا تسترهن إلا سراويل قصيرة».

قالت مرغريتا نيقولايفنا: - «داريا هي التي أخبرتك بهذا كله طبعًا. لقد لاحظت من فترة طويلة أنها كذابة فظيعة».

وانتهى هذا الحديث المضحك بمفاجأة لطيفة بالنسبة إلى ناتاشا، فقد مضت مرغريتا نيقولايفنا إلى مخدعها وعادت تحمل زوجًا من الجوارب وزجاجة كولونيا، وبعد أن قالت لها إنها تريد هي الأخرى أن تريها ملعوبًا أهدتها الجوارب وزجاجة الكولونيا شافعة هديتها برجاء واحد؛ ألا تركض ناتاشا في شارع تفيرسكايا في الجوارب فقط وألا تستمع بعد اليوم إلى أقوال داريا، وتبادلت سيدة البيت وخادمتها القبلات وافترقتا.

كان الباص الكهربائي يمضي بها في أربات وهي ملقية ظهرها على مسند مقعده الطري المريح تفكِّر تارة في شؤونها وتصيخ السمع تارة أخرى إلى ما يتهامس به مواطنان يجلسان أمامها.

وكان هذان يتهامسان بأمر في غاية السخف وهما يتلفتان بين الفينة والفينة حولهما خشية أن يسمعهما احد، كان الشخص البدين اللحيم ذو العينين الخنزيريتين الجريئتين الجالس قرب النافذة يقول لجاره الصغير إنهم اضطروا إلى تغطية التابوت بغطاء اسود...

همس الرجل الصغير مبهوتًا: - «هذا غير ممكن، هذا أمر لا سابقة له... وماذا فعل جيلدييين؟».

وفي هدير الباص الكهربائي المتصل سمعت الكلمات التالية آتية من النافذة:

- «تحقيق جنائي... فضيحة.. بصراحة... شيء غامض!».

وألَّفت مرغريتا نيقولايفنا من هذه المقاطع المتناثرة شيئًا ما مترابطًا، كان الهمس بين الرجلين يدور حول سرقة رأس شخص متوفًى من التابوت صباح هذا اليوم! أما من المتوفًى فلم يذكر الرجلان اسمه، وهذا هو سر اضطراب جيلدييين وقلقه الآن، وهذا الشخصان اللذان يتهامسان في الباص الكهربائي على علاقة بالمتوفًى المسروق.

قال الصغير في قلق: - «هل يتَّسع الوقت لشراء زهور؟ قلتَ إن حرق الجثة في الثانية؟».

وأخيرًا ضاقت مرغريتا نيقولايفنا ذرعًا بالاستماع إلى هذه الثرثرة الغامضة حول الرأس المسروق من التابوت، وفرحت لأنه آن لها أن تنزل.

وبعد عدة دقائق كانت مرغريتا نيقولايفنا تجلس على أحد المقاعد عند سور الكرملين بحيث يظهر المانيج أمامها.

كانت مرغريتا نيقولايفنا تزر عينيها من الشمس الساطعة وتتذكَّر حلمها، وتتذكَّر كيف ظلَّت من عام على وجه الضبط يومًا بيوم وساعة بساعة، تجلس إلى قربه على هذا المقعد عينه، وكيف أن الحقيبة السوداء إلى جانبها الآن كما كانت إذَّاك، لكنه، هو، ليس إلى جانبها في هذا اليوم، ومع هذا كانت مرغريتا نيقولايفنا تتحدَّث إليه بفكرها: «إذا كنتَ منفيًا فلماذا لا تخبرني؟ الناس يخبرون عن حالهم، فلماذا لا تفعل؟ ألم تعد تحبني؟ لا، لا أدري لماذا لا أصدق هذا. إذن نُفيتَ ومت... أرجوك إذن أطلقني، أعد إليَّ أخيرًا حريتي كي أعيش وأتنفَّس»، وأجابت مرغريتا نفسها بالنيابة عنه: «أنتِ طليقة... أأنا الذي يقيدك؟» ثم كانت ترد عليه: «لا، ما هذا الجواب! لا، غِبْ عن ذاكرتي وسأصبح حرة».

كان الناس يمرون بمرغريتا نيقولايفنا، وحانت من أحدهم التفاتة إلى هذه المرأة الأنيقة الملبس مفتونًا بجمالها ووحدتها وأطلق سعالًا خفيفًا وجلس على طرف

المقعد الذي كانت مرغريتا نيقولايفنا تجلس عليه، استجمع الرجل شجاعته وقال:
- «طقس جميل اليوم بالتأكيد...».

ألقت عليه مرغريتا نظرة هبَّ واقفًا من تجهُّمها وغادر المكان.

قالت مرغريتا تحدِّث في نفسها ذاك الذي امتلكها: «هاك المثال، لماذا طردتُ هذا الرجل؟ الملل يتملَّكني، وليس في زير النساء هذا شيء قبيح سوى عبارته الغبية تلك «بالتأكيد»، لماذا أجلس هنا وحدي كبومة عند حائط؟ لماذا نبذتني الحياة؟».

واستبد بها الحزن ونكَّست رأسها، وهنا دفعتها في صدرها فجأة تلك الموجة الصباحية من الترقُّب والهيجان إياها. «نعم، لا بد أن يحدث شيء»، ودفعتها الموجة ثانية، وهنا أدركت أنها موجة صوتية، فمن خلال ضوضاء المدينة كانت تسمع بوضوح متزايد قرعات طبل تقترب وأصوات أبواق ناشزة قليلًا.

وكان أول من ظهر لها شرطي يمضي بخطا وئيدة على جواده أمام سياج الحديقة وخلفه ثلاثة من المشاة. ثم شاحنة تحمل موسيقيين تسير ببطء، ثم سيارة دفن جديدة مكشوفة تتحرَّك ببطء، وعليها نعش غارق كله في أكاليل الزهور، وعند زوايا الصندوق أربعة أشخاص واقفين: ثلاثة رجال وامرأة واحدة. واستطاعت مرغريتا، حتى وهي على هذه المسافة، أن تتبيَّن في وجوه الواقفين في عربة الدفن الذين كانوا يشيِّعون الفقيد إلى مثواه الأخير ذهولًا غريبًا، وكان هذا باديًا بشكل خاص على وجه المرأة التي كانت تقف في الزاوية الخلفية اليسرى، كانت وجنتا هذه المواطنة الغليظتان أصلًا تزدادان غلاظة كأنما بضغط سرٍّ مثير في داخلها، وكانت أنوار غامضة تتراقص في عينيها الصغيرتين المحمومتين المتورمتين. كان يبدو أن ما هو إلا قليل حتى ينفد صبر هذه المواطنة فتغمز باتجاه المرحوم وتقول: «هل رأيتم شيئًا مماثلًا؟ لغز مريب حقًا!» وكانت وجوه المشيعين السائرين ببطء خلف عربة الدفن، وهم نحو ثلاثمائة شخص، لا تقل ذهولًا عن وجوه أولئك الأربعة.

كانت مرغريتا تتابع الموكب بعينيها وهي تصغي إلى الطبل التركي الكئيب الذي لم يكن يخرج إلا صوتًا واحدًا «بومس، بومس، بومس، بومس» تخبو ضرباته في البعيد، وتفكر في نفسها قائلة: «أي جنازة غريبة هذه... وأي ملل يبعثه هذا الصوت! آه حقًا، إني على استعداد لأن أبيع روحي للشيطان على أن أعرف فقط أهو حي أم ميت! لو أعرف من هذا الذي يدفنون بمثل هذه الوجوه العجيبة؟».

تردَّد قربها صوت رجالي أخن قليلًا: - «برليوز ميخائيل الكسندورفتش، رئيس ماسوليت».

استدارت مرغريتا نيقولايفنا مدهوشة، فرأت على مقعدها مواطنًا لا بد أنه جلس عليه حين كانت مستغرقة في تأمل الموكب، وأرجح الظن أنها في ذهولها طرحت سؤالها الأخير بصوت مسموع.

في هذه الأثناء أخذ الموكب يتوقَّف قليلًا بين الحين والحين، إذا لا بد أن إشارات المرور كانت تعيق تحركه. - قال المواطن الغريب متابعًا: - «نعم، يا لمزاجهم العجيب، يحملون الفقيد إلى قبره، ولا يفكرون إلا في أمر واحد؛ أين اختفى رأسه!».

- «أي رأس؟»، سألت مرغريتا وهي تحدِّق في هذا الجار غير المنتظر، كان هذا الجار قصير القامة أصهب بل يكاد يكون أحمر، ذا ناب وقميص منشَّى وبذلة مخطَّطة جيدة، وخُفَّين لامعين وقبعة عالية، وربطة عنق فاقعة اللون، العجيب فقط أنه كانت تتدلَّى من الجيب العلوي لهذا المواطن حيث يضع الرجال عادة منديلًا أو قلم حبر، عظمة دجاج ملساء تمامًا.

تابع الأصهب موضحًا: - «نعم، اليوم صباحًا سُرق رأس الفقيد من تابوته في صالة غريبوبيدوف».

- «كيف يمكن لمثل هذا أن يحصل؟». سألت مرغريتا عفو الخاطر، وهي تتذكَّر في اللحظة نفسها الهمس الذي سمعته في الباص الكهربائي.

أجاب الأصهب بما يشبه الوقاحة: - «الشيطان يعرف كيف!، وأعتقد، بالمناسبة، أنه من الأفضل سؤال بيغيموت عن الأمر، لقد تمَّت السرقة ببراعة فائقة، يا للفضيحة! والأهم أن لا أحد يفهم فيمَ نفع هذا الرأس ومن يحتاج إليه».

وعلى الرغم من انشغال مرغريتا نيقولايفنا بشؤونها وشجونها أصابتها أقاويل هذا المواطن المجهول الغريبة بالدهشة.

صاحت فجأة: - «العفو، أي برليوز هذا؟ هذا في جرائد اليوم...».

- «نعم، بالضبط...».

سألت مرغريتا وكشَّرت فجأة: - «هم الأدباء أولئك الذين يسيرون خلف النعش إذن؟».

- «أي، طبعًا، الأدباء!».

- «وتعرفهم بالوجه؟».

- أجاب الأصهب: - «كلهم، حتى آخر واحد فيهم».

كان صوتها الآن خافتًا: - «قل لي، ألا يوجد بينهم الناقد لاتونسكي؟».

- «وكيف له ألا يكون بينهم؟ ها هو ذا في طرف الصف الرابع».
سألت مرغريتا وهي تزر عينيها: - «هذا الأشقر؟».
- «ذو اللون الرمادي... أترين، لقد رفع عينيه إلى السماء».
- «الذي يشبه قسًا كاثوليكيًا؟».
- «تمامًا!».
كفّت مرغريتا - وقد أخذت تتفرّس في وجه لاتونسكي - عن طرح المزيد من الأسئلة.
قال الأصهب وهو يبتسم: - «إنك، كما أرى، تبغضين لاتونسكي هذا».
أجابت مرغريتا من بين أسنانها: - «وأبغض غيره، لكن ليس في الحديث عن هذا أي متعة».
كان الموكب في هذه الأثناء يوالي سيره، وكان يتبع المشاة رتل من السيارات معظمها خالٍ.
- طبعًا، يا مرغريتا نيقولايفنا، أي متعة يمكن أن تكون في هذا!
قالت مرغريتا مندهشة: - «أتعرفني؟».
وبدلًا من أن يجيب خلع الأصهب قبعته وأمسكها بيده الممدودة، «سحنته كسحنة قطّاع الطرق تمامًا!». قالت مرغريتا في سرها وهي تحدِّق في محدِّثها ابن الشارع هذا.
قالت له مرغريتا في جفاء: - «أما أنا فلا أعرفك».
- «من أين لكِ أن تعرفيني! ومع هذا أنا مبعوث إليكِ في أمر».
شحب وجه مرغريتا وتراجعت.
- «كان عليك أن تبدأ من هذا مباشرة، لا أن تأخذ بالثرثرة بأشياء الشيطان يعلم ما هي عن الرأس المقطوع! هل تريد اعتقالي؟».
هتف الأصهب: - «لا شيء من هذا، غريبة؛ إن فتحت فمي معناه أني آتٍ لاعتقل! إنه، ببساطة، مجرَّد أمر أتيت إليك في شأنه.
- «لا أفهم شيئًا، ما هذا الأمر؟».
التفت الأصهب حوله وقال بسريه:
- «أُرسِلتُ كي أدعوكِ لزيارة أحدهم مساء هذا اليوم».
- «ماذا تهذي، ومن هذا؟».
أجاب الأصهب بلهجة تشي بخطورة ما يقول وهو يضيِّق عينيه: - «أجنبي رفيع الشأن».

واستبد بمرغريتا غضب شديد.

قالت وهي تهب واقفة لتنصرف: - «نوع جديد من القوادين ظهر، قوادين على عارضة الطريق».

- «هذا هو جزائي على هذه المهمات!»، هتف الأصهب في استياء، وغمغم في إثر مرغريتا التي كانت أولته ظهرها: - «غبية!».

- «نذل!»، ردَّت عليه دون أن تلتفت نحوه وهنا سمعت صوت الأصهب وراء ظهرها:

- »...الظلمة الزاحفة من البحر الأبيض المتوسط غطت المدينة البغيضة إلى قلب الحاكم. اختفت الجسور المعلقة التي تصل الهيكل ببرج أنطونيو الرهيب... وغارت أورشليم المدينة العظيم وكأن لم يكن لها وجود... وهكذا غوري أنت أيضًا بدفترك المحترق ووردتك اليابسة! اجلسي هنا على المقعد وحيدة واضرعي إليه فكَّ إسارك وإزاحة الكابوس عن صدرك والاختفاء من ذاكرتك تمامًا!».

عادت مرغريتا إلى مقعدها وقد ابيض وجهها والأصهب يرنو إليها مضيِّقًا عينيه.

قالت مرغريتا بصوت خافت: - لا أفقه مما يجري شيئًا... الأوراق يمكن الوصول إليها... واستراق النظر ومعرفة ما فيها... أم أن ناتاشا رُشيت؟! لكن كيف تمكَّنت من معرفة أفكاري؟»، كانت تقطيبه عذاب ترتسم على محيَّاها، وأردفت: - «قل لي، من تكون؟ ومن أي مؤسسة أنت؟».

- «يا للسآمة»، غمغم الأصهب وأردف يقول بصوت أعلى: - «العفو، سبق أن قلت لكِ إني لا أتبع أي مؤسسة، اجلسي من فضلك».

صدعت مرغريتا للأمر، لكنها سألته مرة أخرى وهي تجلس:

- «من أنت؟».

- «حسنًا، اسمي أزازيلو، مع أن اسمي لا يوحي لكِ شيئًا».

- «قل لي: من أين عرفت بالأوراق وبأفكاري؟».

قال أزازيلو بلهجة جافة: - «لن أجيب».

همست مرغريتا ضارعة: - «لكن ألا تعرف عنه شيئًا؟».

- «لنقل فرضًا إني أعرف».

- «قل لي شيئًا واحدًا، أرجوك: أحيٌّ هو؟ لا تعذبني».

أجابها أزازيلو في غير إقبال: - «أي، حي، حي».

- «يا إلهي!».

قال أزازيلو عابسًا: - «أرجوكِ، دعكِ من أي اضطراب أو صراخ».

غمغمت مرغريتا مستسلمة: - «العفو، العفو، لقد غضبت منكَ بطبيعة الحال. لكن لا بد أن توافقني على أنه حين تدعي امرأة وهي في الشارع إلى زيارة... أؤكّد لك إني امرأة دون أوهام قديمة...». وهنا ظهرت علي وجه مرغريتا ابتسامة حزينة، «لكني لم ألتقِ بأجانب إطلاقًا، كما ليس لديَّ أي رغبة في الاتصال بهم.. زد على ذلك زوجي... مأساتي أني أعيش مع إنسان لا أحبه، لكني اعتبر إفساد حياته أمرًا غير لائق، فانا لم ألق منه إلا كل خير...».

استمع أزازيلو إلى هذا الكلام المفكّك بملل ظاهر وقال لها بصرامة:

- «أرجوكِ الصمت دقيقة».

ولزمت مرغريتا الصمت مستسلمة.

- «إني أدعوكِ لزيارة أجنبي مأمون تمامًا، ولن يدري أحد بشأن هذه الزيارة، هذا أمر أستطيع أن أضمنه تمامًا».

سألته مرغريتا في استعطاف: - «ولماذا يريدني؟».

- «ستعرفين فيما بعد».

قالت مرغريتا في شرود: - «مفهوم... ينبغي أن أستسلم له».

ردّ أزازيلو على قولها بهمهمة مترفِّعة وأجاب:

- «أستطيع أن أؤكد لك أن هذا حلم أي امرأة في العالم»، وهنا لَوَت سحنة أزازيلو ضحكة، «لكني سأخيب أملك إذ أقول لكِ إن هذا لن يحدث».

- «من يكون هذا الأجنبي؟!». هتفت مرغريتا في حيرتها بصوت عالٍ جعل العابرين قرب المقعد يلتفتون إليها، «ما نفع ذهابي إليه؟».

انحنى أزازيلو وهمس في أذنها بلهجة ذات معنى:

- «النفع كبير جدًا... ستستغلين الفرصة...».

هتفت مرغريتا وقد تكوَّرت عيناها: - «ماذا؟، إذا فهمتك جيدًا فأنت تلمِّح إلى أني أستطيع معرفة شيء عنه هناك؟».

أومأ أزازيلو برأسه في صمت.

- «أنا مستعدة!»، هتفت مرغريتا بصوت قوي وأمسكت بيد أزازيلو، «مستعدة للذهاب إلى حيث تشاء!».

تنفَّس أزازيلو الصعداء وألقى ظهره على مسند المقعد مغطيًا بظهره كلمة «نورا» المحفورة على المسند بأحرف كبيرة وقال بسخرية:

- «ما أصعب النساء!»، هنا دسَّ يديه في جيبه ومدَّ رجليه بعيدًا أمامه، «لماذا أُرسِلت أنا في هذه المهمة مثلًا؟ لو أتى بيغيموت... فهو فاتن...».

قالت له وهي تبتسم ابتسامة مصطنعة متذللة: - «كف عن تضليلي وتعذيبي بألغازك هذه، إني إنسانة تعسة وأنت تستغل هذا. إني أغوص في قصة غريبة، لكنني أقسم إني لا أقدم على ما أقدم عليه إلا لأنك أغريتني بكلماتك القليلة عنه! وإني لأشعر بالدوار من كل هذه الأمور الغامضة...».

قال أزازيلو وهو يلوي شفتيه: - «لا حاجة إلى اصطناع المآسي. عليكِ أن تفهمي موقفي أنا أيضًا. صفع مدير على سحنته أو طرد رجل من بيته، أو إطلاق النار على شخص ما أو أي شيء آخر تافه من هذا القبيل هو اختصاصي المباشر، أما التحدُّث إلى نساء عاشقات فهذا فوق طاقتي. ألم تريْ أني أجهد في إقناعك من نصف ساعة كاملة. أتذهبين إذن؟».

أجابته مرغريتا نيقولايفنا ببساطة: - «نعم».

- «تفضلي إذن»، قال أزازيلو وأخرج من جيبه علبة ذهبية مدورة مدَّ بها يده إلى مرغريتا نيقولايفنا وهو يقول:

- «أخفيها بسرعة وإلَّا رآكِ المارة، ستكون لك ذات نفع، مرغريتا نيقولايفنا. لقد شخت كثيرًا من الحزن في نصف العام المنصرم هذا (غليَ دم مرغريتا لكنها لم تقل شيئًا، فيما أزازيلو يتابع) حاولي مساء اليوم في منتصف العاشرة تمامًا أن تدلِّكي وجهك وجسمك كله بهذا المرهم بعد أن تخلعي كل ملابسكِ، ثم افعلي ما تشائين، إنما لا تبتعدي عن الهاتف، في العاشرة سأتصل بك وأقول لك كل ما يلزم، ليس لك أن تهتمي بشيء، فهم سيوصلونكِ إلى حيث يجب، ولن يسببوا لكِ أي إزعاج. مفهوم؟».

لزمت مرغريتا الصمت قليلًا ثم أجابت:

- «مفهوم، هذه العلبة من الذهب الخالص، هذا واضح من ثقلها، لكن لا بأس، إني أدرك جيدًا أنهم يرسونني ويجرُّونني إلى قصة غامضة مريبة سأدفع ثمنها غاليًا.

قال أزازيلو بصوت كالفحيح: - «ما هذا، هل عدتِ ثانية؟».

- «لا، مهلًا!».

- «أعيدي المرهم».

تشبَّثت مرغريتا بالعلبة بقوة أكبر وتابعت:

- «لا، مهلًا... إني مدركة لما أقدم عليه. وإني أقدم على أي شيء بسببه، لأنه لم يعد لي في هذا العالم أي أمل. لكني أقول لك إنك ستشعر بالخجل إن أهلكتني! نعم، بالخجل! فأنا أهلك بسبب الحب!». ودقَّت على صدرها ورنت إلى الشمس.

فحَّ أزازيلو في حنق: - «أعيديه، أعيديه، وليذهب هذا كله إلى الشيطان! فليرسلوا بيغيموت!».

صاحت مرغريتا صيحة بُهت المارة لها: - «لا، لا، أنا موافقة على كل شيء، موافقة على مهزلة الدلك هذه، موافقة على الذهاب إلى حيث يرسلني الشيطان، لكني لن أعيده».

- «با!». هدر أزازيلو فجأة، وجحظت عيناه وهو يحدِّق في سور الحديقة وأخذ يشير بإصبعه إلى مكان ما.

التفتت مرغريتا إلى حيث كان أزازيلو يشير بإصبعه، فلم تقع على شيء غير مألوف، فاستدارت إذَّاك إلى أزازيلو علها تحظى بتفسير لهذه «البا» السخيفة التي أطلقها، لكنه لم يكن هناك من مفسِّر: فقد اختفى محدِّث مرغريتا نيقولايفنا الغامض، إذَّاك دسَّت مرغريتا نيقولايفنا يدها بسرعة في حقيبتها، حيث خبَّأت العلبة الصغيرة قبل صرخة أزازيلو، وتيقَّنت من وجودها في مكانها. إذَّاك هرعت خارجة من حديقة ألكسندروفسكي لا تفكر في شيء.

## الفصل العشرون

# دهان أزازيلو

كان القمر المعلَّق في كبد السماء المسائية الصافية يلوح في ليلة اكتماله من خلال أغصان القيقب. وكانت أشجار القيقب والسنط توشِّي أرض الحديقة بوشيٍ معقَّد من البقع، ونافذة المنور الثلاثية الدرفات المفتوحة إنما المسدلة الستائر تشتغل بنور الكهرباء المسعور، كانت كل المصابيح مضاءة في مخدع مرغريتا نيقولايفنا تنير الفوضى الكاملة الضاربة أطنابها في الغرفة، على السرير فوق اللحاف قمصان وجوارب وبياضات، أما الملابس الداخلية المكرمشة فكانت ملقاة على الأرض قرب علبة سجائر مسحوقة من اضطراب، وكانت الأحذية على طاولة قرب فنجان قهوة لم يُشرب كله ومنفضة يتصاعد دخانها من عقب سيجارة، وعلى مسند الكرسي يتدلّى ثوب سهرة أسود، وروائح عطور تفوح في الغرفة ممتزجة برائحة مكواة محمَّاة آتية من مكان ما...

كانت مرغريتا جالسة أمام المرآة وعلى جسدها العاري بُرنس استحمام وفي قدميها حذاء أسود من الشمواة، وأمامها إلى جانب العلبة التي أخذتها من أزازيلو سوار من الذهب فيه ساعة صغيرة، لم تكن مرغريتا نيقولايفنا ترفع عينيها عن ميناء الساعة، وكان يكاد يخيل إليها أحيانًا أن الساعة تعطّلت وأن عقربيها لا يتحرَّكان، لكن عقربي الساعة كانا يتحرَّكان وإن ببطء شديد كأنما التصقا بشيء ما، وأخيرًا (سقط العقرب الطويل على الدقيقة التاسعة والعشرين بعد التاسعة)، دق قلب مرغريتا بعنف بحيث لم تستطع تناول العلبة على الفور، لكنها تمالكت نفسها، وفتحت العلبة فرأت فيها دهانًا دسمًا ضاربًا إلى الصفرة، تفوح منه رائحة نباتات مستنقعية كما بدا لها، أخذت مرغريتا شيئًا من الدهان بطرف إصبعها ووضعته على راحتها فبلغت أنفها، بقوة أكبر، رائحة من أعشاب المستنقعات والغابات، ثم أخذت تدلّك به جبينها ووجنتيها، كان الدهان يُطلَى بيسر ثم يتبخَّر على الفور كما تراءى لمرغريتا، وبعد عدة دلكات تطلَّعت مرغريتا إلى

المرآة، فسقطت العلبة من يدها على زجاج الساعة فتشقق، أغمضت مرغريتا عينيها ثم تطلعت في المرآة ثانية وانفجرت تقهقه.

كان حاجباها المنتوفان عند الطرفين بالملقط حتى صارا كخيط رفيع قد ازدادا كثافة وارتسما قوسين أسودين متساويين فوق عينيها اللتين تألّقت خضرتهما، والتغضن العمودي الخفيف الذي يقطع أرنبة الأنف والذي ظهر إذّاك، في تشرين الأول حين اختفى المعلِّم، اختفى دون أثر، كما اختفت الظلال المائلة إلى الصفرة عند الصدغين والشبكتان الصغيرتان الظاهرتان قليلًا عند زاويتي العينين الخارجتين، وبشرة الوجنتين تشرَّبت بلون وردي منسق، والجبين بات أبيض صافيًا، وتصفيفة الشعر عند الحلّاقة انحلت.

كانت تتطلّع إلى مرغريتا ذات الثلاثين عامًا في المرآة امرأة في العشرين من عمرها ذات شعر أسود أجعد بطبيعته مكشرة عن أسنانها من قهقهة جنونية تهزها.

وما إن شبعت قهقهة حتى انسلت بقفزة واحدة من برنسها وغرفت من الدهان الدسم الطري ودلَّكت بقوة جسمها الذي سرعان ما تورَّد وأشرق، ثم وفي لحظة هدأ صدغها الذي ظل يؤلمها طول المساء بعد اللقاء في حديقة ألكسندروفسكي، كأنما أخرجت من المخ إبرة، واشتدت عضلات يديها ورجليها وفقد جسم مرغريتا وزنه.

ونطّت مرغريتا نطّة صغيرة فإذا بها تتدلّى على ارتفاع يسير فوق السجادة، ثم إذا بشيء ما يجذبها ببطء إلى الأسفل فتهبط عليها.

هتفت مرغريتا وهي ترتمي في أريكتها: - «يا للدهان! يا للدهان!».

ولم يغيرها التدليك ظاهريًا وحسب، فقد كانت تشعر الآن بالفرح يمور فيها كلها، في كل خلية من خلايا جسدها، كأن فقاعات تخز جسدها كله، أحست مرغريتا أنها تحرَّرت، تحرَّرت من كل شيء، وأدركت بوضوح تام، إلى ذلك، أنه إنما حدث لها ما أنباها به إحساسها المسبق في الصباح، وأنها تغادر الدار وحياتها السابقة إلى الأبد، إنما بقيت من حياتها السابقة تلك فكرة واحدة؛ أن عليها أن تؤدِّي واجبًا واحدًا أخيرًا قبل بداية شيء ما جديد، خارق يجذبها إلى الأعلى، إلى الفضاء الرحب، فهرعت، هي العارية التي كانت تقفز من حين إلى آخر في الهواء، من مخدعها إلى مكتب زوجها وأشعلت ضوءه واندفعت إلى طاولته، وكتبت له بقلم رصاص بخط سريع وكبير ودون أي مراجعة الرسالة التالية على ورقة انتزعتها من مفكرته:

**«سامحني وانسني بأسرع ما يمكن، إني أغادرك إلى الأبد، فلا تبحث عني لأن هذا دون جدوى، لقد أصبحتُ ساحرة بسبب حزني وبسبب المصائب التي نزلت بي، آن أواني، فالوداع، مرغريتا».**

وطارت مرغريتا بنفس اطمأنت تمامًا عائدة إلى مخدعها، وهرعت ناتاشا في إثرها تحمل كومة من الأشياء، وللحال تساقطت هذه الأشياء كلها، العلّاقة الخشبية والثوب الذي عليها، والمناديل الموشّاه بالدانتيلا، والأحذية الحريرية الزرق المرتبة فوق مشجب الأحذية وحزام الفستان، تساقطت كلها على الأرض وبسطت ناتاشا يديها الطليقتين الآن مشدوهة.

هتفت مرغريتا نيقولايفنا بصوت عالٍ مبحوح: - «جميلة، أليس كذلك؟».

همست ناتاشا وهي تنكص على عقبيها: - «كيف حدث هذا؟ كيف تفعلين هذا أنتِ يا مرغريتا نيقولايفنا؟».

- «إنه الدهان! الدهان! الدهان. أجابت مرغريتا وهي تشير إلى العلبة الذهبية المتلألئة وتنثني أمام المرآة».

نسيت ناتاشا الثوب المدعوك الملقى على الأرض، وهرعت إلى المرآة وحملقت في بقايا الدهان بعينين نهمتين محمومتين، وتمتمت شفتاها شيئًا، ثم انثنت إلى مرغريتا وقالت لها بما يشبه الإجلال:

- «الجلد! جلدك يا مرغريتا نيقولايفنا! جلدك يلمع!»، وهنا أفاقت من ذهولها فركضت إلى الثوب ترفعه وتنفضه.

صاحت مرغريتا: - «دعيه! دعيه!، ليذهب إلى الشيطان، دعي كل شيء، أو بالأحرى لا، خذيه ذكرى لكِ، خذيه ذكرى، قلت لكِ، بل خذي كل ما في الغرفة».

وكأنما فقدت ناتاشا بعض عقلها، فرَنَت بعض الوقت إلى مرغريتا دون حراك ثم تعلّقت برقبتها وأخذت تقبّلها وتصيح:

- «كأنها من الحرير! إنها تلمع! كأنها من الحرير! والحاجبان!».

صرخت مرغريتا: - «خذي كل الملابس، خذي كل العطور، جرّيها إلى صندوقك وخبّئيها هناك، إنما إياكِ والمجوهرات وإلا اتُهمتِ بالسرقة».

حزمت ناتاشا ما وقع تحت يدها من أثواب وأحذية وجوارب وملابس داخلية وغادرت المخدع ركضًا.

وفي هذا الوقت انطلقت من نافذة مفتوحة في الجانب الآخر من الزقاق ودوَّت موسيقى فالس رائع، وسُمع لهاث سيارة تقترب من الباب الخارجي.

هتفت مرغريتا وهي تصغي إلى الفالس المتدفّق إلى الزقاق: - «لا بد أن يتصل أزازيلو الآن! لا بد أن يتصل! والأجنبي مأمون، لا خطر منه، نعم، الآن أدركت أنه مأمون».

علا هدير السيارة مبتعدة عن الباب، واصطفق باب الحديقة وسُمع على بلاط الممشى وقع خطوات.

قالت مرغريتا في سرها: «إنه نيقولاي إيفانوفتش، أعرفه من خطواته، ينبغي أن أودعه وداعًا جدّ مضحك وممتع».

أزاحت مرغريتا الستائر جانبًا، وجلست على حافة النافذة جنبًا، وطوَّقت ركبتيها بيديها، فلمسها ضوء القمر في جنبها الأيمن، ثم رفعت رأسها إلى القمر واصطنعت وجهًا حالمًا وشاعريًا، دقت الخطوات مرتين أخريين ثم خفتت بغتة، تريَّثت مرغريتا قليلًا تستمتع بمرأى القمر ثم تنهَّدت من قبيل اللياقة وحوَّلت رأسها باتجاه الحديقة، وبالفعل رأت نيقولاي إيفانوفتش الذي كان يقطن الطابق السفلي من الدار نفسها، كان يجلس على مقعد، وقد غمره القمر بنوره الساطع، كان كل شيء يدل على أنه رمى نفسه على المقعد بغتة، فقد كانت نظارته الأنفية مائلة على وجهه، وحقيبته مضغوطة بين يديه.

قالت مرغريتا بصوت حزين: – «أي، مرحبًا، يا نيقولاي إيفانوفتش، مساء الخير! أعائد من الاجتماع؟».

لم يجبها نيقولاي إيفانونفتش بشيء.

وأردفت مرغريتا وهي تمعن في البروز من الشباك المطل على الحديقة:

– «أما أنا فأجلس وحيدة، ضجرة كما ترى، أتطلَّع إلى القمر وأستمع إلى الفالس».

ومرَّت مرغريتا بيدها اليسرى على صدغها تسوِّي خصلة شعرها ثم قالت في استياء:

– «هذا ليس من الأدب في شيء يا نيقولاي إيفانوفتش! فأنا امرأة أولًا وأخيرًا، وأنها لجلافة حين يكلمونك ولا تجيب!».

فجأة أطلق نيقولاي إيفانوفتش الذي كان يُرى في ضوء القمر حتى آخر زر في صدريته الرمادية وحتى آخر شعره في لحيته الصغيرة البيضاء مدبَّبة الطرف ضحكة وحشية وهبَّ واقفًا من مقعدة، وبدلًا من أن يخلع قبعته، لوَّح بحقيبته جانبًا بسبب الارتباك الذي تولَّاه في ما يظهر وثني رجليه كأنما يستعد للرقص.

تابعت مرغريتا تقول: – «آه، يا لك من شخص ممل، يا نيقولاي إيفانوفتش، وبشكل عام فقد قرفت منكم جميعًا بحيث لا أستطيع التعبير عن قرفي هذا، فأنا سعيدة بفراقكم! ألا ذهبتم إلى الشيطان!».

في هذا الوقت دوَّى الهاتف خلف ظهرها في مخدعها، فقفزت من على النافذة ناسية نيقولاي إيفانوفتش وشأنها معه وخطفت السماعة.

أتاها صوت من السماعة: - «أزازيلو».

هتفت مرغريتا: - «أيها العزيز، أيها العزيز أزازيلو!».

- «آن الأوان، طيري»، قال أزازيلو في السماعة، وكان واضحًا من صوته أنه استعذب حماسة مرغريتا الصادقة الفرحة، «وعندما تصبحين فوق الباب الخارجي، صيحي «خَفِيَّة!»، ثم طيري فوق المدينة قليلًا كي تعتادي ومن ثَمَّ اتجهي إلى الجنوب خارج المدينة، ومباشرة إلى النهر حيث ينتظرونك».

علَّقت مرغريتا السماعة، وهنا تحرَّكَ في الغرفة المجاورة شيء ما خشبي كأنما يحجل وأخذ يخبط الباب، فتحت مرغريتا الباب فإذا بالمكنسة تطير إلى داخل مخدعها تتراقص وشعراتها إلى الأعلى، كانت المكنسة تنقر على الأرض بطرفها وترفس وتندفع إلى النافذة، زعقت مرغريتا من شدة حماستها، ووثبت تمتطي المكنسة، وهنا فقط فطنت إلى أنها نسيت في هذا الهرج والمرج ارتداء ملابسها، فاندفعت إلى السرير وخطفت أول ما وقعت عليه يدها وكان قميصًا أزرق، فلوَّحت به كأنه يبرق وطارت عبر النافذة، وازدادت موسيقى الفالس فوق الحديقة عنفًا.

هبطت مرغريتا من النافذة ورأت نيقولاي إيفانوفتش على المقعد، كان يجلس، وكأنه تجمَّد في مكانه، يسترق السمع، وقد استبد به الذهول، إلى الصراخ والجلبة الآتيين من المخدع المنار في الطابق العلوي.

صاحت مرغريتا وهي تتراقص أمام نيقولاي إيفانوفتش: - «الوداع، يا نيقولاي إيفانونفتش!».

تأوَّه نيقولاي إيفانوفتش وزحف على المقعد مستندًا على يديه وراميًا حقيبته على الأرض.

- «الوداع إلى الأبد! أنا طائرة»، صاحت مرغريتا بصوت غطَّى على صوت الفالس، وهنا فطنت إلى أنها لم تعد بحاجة إلى قميصها فأطلقت قهقهة شريرة وغطَّت رأس نيقولاي إيفانوفتش به، فهوى هذا من المقعد على بلاط الممشى مبهورًا.

التفتت مرغريتا لتلقي نظرة أخيرة على الدار التي عانت فيها طويلًا العذاب، فرأت في النور المتوهِّج وجه ناتاشا الذي شوَّهت الدهشة ملامحه.

- «الوداع يا ناتاشا!»، صاحت مرغريتا وجذبت المكنسة إلى أعلى، «خفيَّة، خفيَّة»، صاحت بصوت أعلى من السابق، وراحت تطير بين أغصان القيقب التي كانت تصفع وجهها مجتازة الباب الخارجي إلى الزقاق، ودوَّت إثرها أنغام الفالس وقد جُن جنونها تمامًا.

## الفصل الحادي والعشرون

# الطيران

خفيَّة وطليقة! خفيَّة وطليقة! قطعت مرغريتا زقاقها طيرانًا وبلغت زقاقًا آخر يقطع الأول بزاوية قائمة، وفي لحظة قطعت أيضًا هذا الزقاق المرقَّع المتعرِّج الطويل الذي تقوم فيه دكان لمشتقات النفط ذات باب مائل يُباع فيها الكيروسين بالأكواز والمبيدات الحشرية بالزجاجات، وهنا أدركت أنها وإن كانت غير مرئية وطليقة تمامًا، إلا أن عليها أن تظل عاقلة ولو قليلًا حتى وهي في ذروة نشوتها، إذ كادت تتحطَّم على مصباح قديم مائل في ناصية الزقاق، لو لم تتمكن بأعجوبة من كبح جماحها، وهنا تمسَّكت مرغريتا بالمكنسة بقوة أكبر واستمرَّت تحلِّق إنما ببطء أكبر وهي تحدِّق في الأسلاك الكهربائية واليافطات المعلقة على عرض الرصيف.

كان الزقاق الثالث يفضي إلى أربات مباشرة، وهنا تعرَّفت على أسرار قيادة المكنسة تمامًا، وأدركت أن هذه تنصاع لأدنى لمسة يد أو رجل، وأن عليها، وهي تطير فوق المدينة أن تكون في غاية اليقظة وضبط النفس، هذا إلى أنه اتضح لها تمامًا، حتى وهي لمَّا تزل في الزقاق، أن المارة لا يرونها، إذ لم يرفع أي منهم رأسه ولم يصرخ: «انظر! انظر!» ولم يجفل، ولم يزعق ولم يغمَ عليه، ولم يطلق قهقهات وحشية.

كانت مرغريتا تطير ببطء شديد دون أي صوت وعلى ارتفاع قليل، على مستوى الطابق الثاني تقريبًا، لكنها، على الرغم من تحليقها البطيء، هفت هفوة بسيطة عند اتصال الزقاق بأربات المضاءة بالأنوار الباهرة فارتطمت كتفها بقرص مضاء رُسم عليه سهم، مما أغضب مرغريتا، فأوقفت المكنسة المطيعة وتنحَّت قليلًا ثم انقضَّت على القرص بغتة وحطَّمته بطرف المكنسة شظايا، وتناثرت الشظايا على الأرض في دويٍّ فجفل المارة وسُمع في مكان ما صفير، أما مرغريتا فانطلقت تقهقه بعد تصرفها العابث هذا، قالت في نفسها: - «عليَّ أن أكون أكثر حذرًا في أربات، فهنا الحابل يختلط

بالنابل بحيث لا ندري أول الأمر من آخره»، وأخذت تغطس بين الأسلاك، وتحتها تسبح أسطح الباصات الكهربائية والباصات والسيارات الصغيرة وعلى الأرصفة، كما بدا لمرغريتا من فوق، تجري أنهار من القبَّعات، وكانت تتفرَّع من هذه الأنهر سواقٍ تغور في الأشداق المضاءة للمخازن الليلية، فكَّرت مرغريتا في استياء: «أيٍ، ما هذا الخليط العجيب! لا يستطيع الإنسان أن يتحرَّك هنا»، وقطعت أربات وحلَّقت حتى مستوى الطابق الرابع وسبحت بقرب أنابيب ذات لمعان خاطف على مبنى المسرح الذي على الناصية إلى زقاق ضيق ذي بيوت شاهقة، كانت كل النوافذ في هذه البيوت مشرعة، وكانت تسمع من نوافذها موسيقى تنبعث من الراديوات، ألقت مرغريتا نظرة على أحدها من قبيل الفضول فرأت مطبخًا، فيه وابورا كاز يهدران على الفرن وقربهما تقف امرأتان تحملان ملعقتين في أيديهما، تتشاتمان.

قالت المرأة التي كانت أمامها طنجرة، يتصاعد منها البخار: - «ينبغي أن تطفئي الضوء وراءك في المرحاض، هذا ما يجب أن تعرفيه يا بيلاجيا بيتروفنا، وإلا قدمنا شكوى بإخلائك!».

أجابت المرأة الثانية: - «لا، أنتِ وحدكِ الفهيمة».

- «كلاكما فهيم»، قالت مرغريتا بصوت مرنان وهي تتهادى إلى المطبخ من خلال النافذة، التفتت المرأتان المتشاحنتان على صوتها، وتجمَّدتا في مكانهما وملعقتاهما الوسختان في أيديهما، بسطت مرغريتا يدها بحذر بينهما وأدارت عيار الوابورين وأطفأتهما، تأوَّهت المرأتان وفغرتا فاهيهما. لكن الملل كان قد أدرك مرغريتا في المطبخ فحلَّقت مغادرة إلى الزقاق.

ولفتت انتباهها في آخره كتلة ضخمة كانت عبارة عن بيت من ثمانية طوابق انتهى بناؤه على ما بدا، اتجهت مرغريتا إلى الأسفل ورأت، بعد أن حطَّت على الأرض، أن واجهة البيت مزخرفة بالمرمر الأسود، وأن أبوابه واسعة، وأنه يبدو خلف زجاجها سدارة ذات شريط ذهبي مقصَّب وأزرار بوَّاب وأنه نُقش فوق الأبواب بماء الذهب: «بيت الدراماليت»[1].

زرَّت مرغريتا عينها على الكتابة جاهدة معرفة ما تعنيه كلمة «دراماليت» هذه، تأبَّطت مرغريتا مكنستها ودخلت صادمة البوَّاب المدهوش عند الباب، فرأت على الجدار قرب المصعد الكهربائي لوحًا أسود ضخمًا نُقشت عليه بأحرف بيْض أرقام الشقق

(1) كلمة روسية تتألف من الأحرف الأولى لكلمات روسية تعني: بيت الكاتب المسرحي والأديب. المترجم.

وأسماء قاطنيها، ندَّت عن مرغريتا زعقه ضارية مخنوقة لدى قراءتها الكتابة التي تتوِّج قائمة الأسماء «بيت الكاتب المسرحي والأديب»، فارتفعت قليلًا عن الأرض وأخذت تقرأ بنهم الكُنى: خوستوف، دفوبراتسكي، كفانت، بيسكودنيكوف، لاتونسكي....

زعِقت مرغريتا: - «لاتونسكي!، لاتونسكي! نعم إنه هو! هو الذي قضى على المعلِّم».

تطلَّع البوَّاب إلى اللوح الأسود وقد جحظت عيناه، بل حتى وهو ينط من الدهشة، محاولًا فهم هذا السر العجيب: لم زعقت لائحة الأسماء فجأة؟ بينما كانت مرغريتا تندفع صاعدة الدرج وهي تردِّد في ما يشبه النشوة:

- «لاتونسكي - 84! لاتونسكي - 84!...».

ها هو ذا إلى اليسار رقم 82، وإلى اليمين 83، في الأعلى إذن، إلى اليسار 84، هنا، وها هي ذي البطاقة، «أو. لاتونسكي».

قفزت مرغريتا مترجِّلة من مكنستها فأحسَّت ببرودة لطيفة تسري في نعليها الحارتين من حجارة البسطة، ضغطت مرغريتا زر الجرس مرة وثانية، لكن أحدًا لم يفتح، وأخذت مرغريتا تضغط الزر بقوة أكبر وهي تنصت إلى الرنين المتواصل المتصاعد في شقة لاتونسكي، نعم، ينبغي على قاطن الشقة رقم 84 في الطابق الثامن أن يظل شاكرًا للمرحوم برليوز حتى آخر رمق من حياته أن رئيس الماسوليت وقع تحت عجلات الترام وأن ميعاد الجنازة حُدِّد في هذا المساء بالذات، نعم، كان الناقد لاتونسكي محظوظًا، ولقد أنقذه حسن حظه من لقاء مرغريتا التي انقلبت جنيَّه في يوم الجمعة هذا!.

لم يفتح أحد. إذَّاك اندفعت مرغريتا بكل قوتها تهبط وهي تعد الطوابق، ولمَّا وصلت إلى الأسفل مرقت إلى الخارج وأخذت تتطلَّع إلى الأعلى وتعد الطوابق وتتيقن من الأسفل أيها بالضبط نوافذ شقة لاتونسكي، إنها، ولا شك، تلك النوافذ الخمس المعتمة عند زاوية البناية في الطابق الثامن، وبعد أن تيقَّنت من الأمر ارتفعت في الجو، وما هي ثوانٍ حتى كانت تدخل من نافذة مفتوحة إلى غرفة مظلمة يشقها شريط ضيِّق مفضَّض من ضوء القمر. ودارت مرغريتا بها تتلمَّس زر الكهرباء، وما هي دقيقة حتى كانت الشقة كلها تشع بالنور، كانت المكنسة تنتصب في الزاوية، فتحت مرغريتا الباب المؤدي إلى الدرج، بعد أن تيقَّتن من خلو الشقة، لتتأكَّد من البطاقة التي على الباب، كانت البطاقة في مكانها، نعم، كانت مرغريتا حيث ينبغي أن تكون.

نعم، يُقال إن وجه الناقد لاتونسكي لا يزال يشحب حتى الآن حين يذكر ذلك

المساء الرهيب، ولا يزال هو نفسه يذكر بإجلال اسم برليوز حتى الآن، فمن ذا الذي بوسعه أن يدري بأي جريمة غامضة وفظيعة كان سينتهي هذا المساء؛ فعندما عادت مرغريتا من المطبخ كانت تحمل مطرقة ثقيلة.

كانت يداها ترتعشان من نفاد صبرها، لكن الطائرة العارية غير المرئية حاولت ضبط نفسها وتبيُّن ما تنويه، سدَّدت بعناية وهوت بالمطرقة على أصابع البيانو فدوَّت الشقة كلها بأول عواء شاكٍ، كانت الآلة الموسيقية البيتية البريئة من طراز بيكر تصرخ في عنف أصابعها تتكسَّر ووصُلُها العظمية تتطاير في كل الاتجاهات، زعق البيانو وعوى وجَشَرَ ورنّ، وبصوت كأنه طلقة مسدس تفجَّر مشد التناغم العلوي المصقول تحت ضربة المطرقة، وكان مرغريتا تنزع الأوتار وتهرسها بالمطرقة، وهي تكاد لا تستطيع سحب نفسها، وأخيرًا أدركها التعب فانكفأت ترتمي على الأريكة علها تلتقط أنفاسها.

وفي الحمام، كما في المطبخ، كان الماء يهدر بصوت مرعب «يبدو أنه أخذ يسيل على الأرض»، قالت مرغريتا في سرها، وأردفت بصوت مسموع:

- «لا وقت للجلوس».

كان تيار الماء قد أخذ يتدفَّق من المطبخ إلى الممر، نهضت مرغريتا تخبط في الماء بقدميها الحافيتين وهي تحمل الماء بالسطل من المطبخ إلى مكتب الناقد وتصبه في أدراج مكتبه، ثم اندفعت إلى مخدع الناقد، بعد أن حطَّمت أبواب الخزانة في مكتبه بمطرقتها، فحطَّمت خزانة ذات مرآة وأخرجت منها بذلة الناقد ونقعتها في الحمام، ثم أراقت على السرير المزدوج المنجَّد تنجيدًا فاخرًا في مخدعه دواة مليئة بالحبر خطفتها وهي خارجة من المكتب، كان التخريب الذي تقوم به يبعث فيها لذَّة خارقة، على أنه كان يبدو لها طول الوقت أن النتائج متواضعة، ولهذا أخذت تفعل ما يعنُّ لها دون أن تبصر، فشرعت تحطِّم زهريات الفيكوس في الغرفة التي كان فيها البيانو، ثم عادت، دون أن تكمل ما بدأته، إلى المخدع وأخذت تمزِّق ملاءات السرير بسكين المطبخ وتحطِّم الصور المزعجة، ولم تكن تشعر بتعب، بل كان العرق يتصبَّب من جسدها كله.

في هذا الوقت كانت خادمة الكاتب المسرحي كفانت تشرب الشاي في مطبخ الشقة رقم 82 الكائنة تحت شقة لاتونسكي مباشرة وهي في حيرة من أمر الضجة والجلبة فوقها، وأخيرًا رفعت رأسها إلى السقف فرأت فجأة السقف يستبدل بلونه الأبيض لونًا أزرق ميتًا، كانت البقعة تتسع على مرأى منها، وفجأة انتفخت حولها قطرات، مكثت الخادمة نحو دقيقتين دَهِشةً من هذه الظاهرة إلى أن انهمر من السقف أخيرًا

مطر حقيقي وأخذ ينقر أرض الشقة، وهنا هبَّت من مكانها ووضعت تحت خيوط الماء طستًا، لكن هذا لم يجدِها نفعًا، ذلك أن المطر امتد وأخذ يغمر موقد الغاز، والطاولة التي عليها أواني المطبخ، إذَّاك أطلقت خادمة كفانت صرخة وهرعت من شقتها تقفز الدرج، وللحال راحت رنَّات الجرس تتوالى بعنف في شقة لاتونسكي.

قالت مرغريتا: - «أخذوا يقرعون، آن لي أن أغادر»، وركبت المكنسة وهي تنصت إلى صوت نسائي يصرخ في ثقب الباب:

- «افتحوا، افتحوا! افتحي يا دوسيا! الماء ينزل من عندكم أليس كذلك! لقد غرقنا!».

ارتفعت مرغريتا مترًا وهوت بضربة على الثريًا فتحطَّم مصباحان منها وتطايرت أنواطها في كل جانب، توقَّف الصراخ في ثقب الباب وسُمع دبيب على الدرج، سبحت مرغريتا من النافذة، ولما صارت خارجها لوَّحت بالمطرقة تلويحه خفيفة وضربت بها الزجاج، نشج الزجاج وهوت شظاياه على الجدار الملبَّس بالمرمر كالشلال إلى أسفل. وتحوَّلت مرغريتا إلى النافذة التالية. كان المارة يتراكضون متفرِّقين تحتها على الرصيف، وهدرت إحدى السيارتين الواقفتين عند مدخل البناية وأقلعت، وأجهزت مرغريتا على نوافذ لاتونسكي فسبحت في الهواء إلى الشقة المجاورة، وتوالت الضربات وامتلأ الزقاق رنينًا وقعقعة، وهُرع من المدخل الأول بوَّاب، تطلع إلى الأعلى وتردد قليلًا إذ لم يدر على الفور كما يبدو ماذا عليه أن يفعل، ثم حشا فمه بصافرة وأطلق صَفْرة مسعورة، خلعت مرغريتا على صوتها آخر نافذة في الطابق الثامن بحماسة خاصة وهبطت إلى الطابق السابع وراحت تحطِّم زجاجه.

كان البوَّاب، الذي أضنته البطالة الطويلة خلف أبواب المدخل الزجاجية، يُودِعُ الصافرة كل روحه محتذيًا، إلى ذلك، حذو مرغريتا كأنما يرافقها، كان في فترات توقُّف مرغريتا، حين كانت تطير من نافذة إلى أخرى، يسحب نفسًا، ثم ينفخ وجنتيه مع كل ضربة من ضربات مرغريتا ويروح في صفير يشق هواء الليل حتى عنان السماء.

وتُوِّجت جهوده مقرونة بجهود مرغريتا المستشيطة غيظًا بنتائج واسعة، ركب الذعر البيت كله، كانت النوافذ التي لمَّا تزل سليمة تُشرع وتظهر فيها رؤوس سرعان ما تختفي، أمَّا النوافذ المفتوحة فكانت، على العكس، تنغلق، وفي البيوت المقابلة كانت تبرز في النوافذ على خلفية مضاءة أطياف أناس قاتمة تحاول أن تفهم لماذا يتكسَّر الزجاج دونما سبب في بيت «دراملیت» الجديد.

كان الناس في الزقاق يُهرعون إلى بيت «دراملیت»، أما الناس في داخله فكانوا

يدُّبون على الأدراج هاربين دونما وعي، كانت خادمة كفانت تصرخ في المهرولين على الدرج أن الماء يغرق شقتهم، وانضمَّت إليها بعد حين خادمة خوستوف من الشقة رقم 80 الواقعة تحت شقة كفانت، كان الماء في شقة خوستوف ينهمر من السقف ويتفجَّر في المطبخ والمرحاض، وأخيرًا سقطت من سقف المطبخ في شقة كفانت قطعة كبيرة من الملاط فحطمت كل الأواني الوسخة في مطبخه، وانهالت إذّاك شآبيب حقيقية من المطر من خلال الشرائح الخشبية المبللة التي تغطي السقف، إذّاك تصاعد الصراخ والصياح على درج المدخل الأول، وألقت مرغريتا نظرة على النافذة قبل الأخيرة في الطابق الرابع وهي تعبر قربها فرأت شخصًا وضع على وجهه، من ذعره، قناعًا فضربت بالمطرقة على زجاج نافذته فأجفلته واختفى من الغرفة.

وانقطع التحطيم الوحشي فجأة، هبطت مرغريتا إلى الطابق الثالث وألقت نظرة من النافذة الجانبية المسدول ستارها الرقيق القاتم، كانت الغرفة مضاءة بمصباح ضعيف ذي أباجور، وطفل في نحو الرابعة من عمره يجلس في سرير صغير مشبك الجانبين وهو يرهف السمع في ذعر، ولم يكن في الغرفة أحد من البالغين، إذ إنهم جميعًا هربوا من الشقة كما يبدو.

قال الطفل: - «يكسرون الزجاج»، ثم نادى: «ماما!».

ولم يجب أحد فقال:

- «ماما، أنا خائف».

أزاحت مرغريتا الستائر ودخلت من النافذة.

كرَّر الطفل وارتعش: - «أنا خائف».

- «لا تخف، لا تخف يا صغير»، قالت مرغريتا وهي تحاول تلطيف صوتها المجرم المبحوح من الريح، «الأطفال هم الذين كانوا يكسرون الزجاج».

سأل الطفل وهو يتوقف عن الارتعاد: - «بالنقَّافة؟».

ثنت مرغريتا على قوله: - «بالنقَّافة، بالنقَّافة. وأنت، اغف الآن!».

قال الطفل: - «إنه سيتنك، عنده نقَّافة».

- «هو طبعًا!».

رنا الطفل جانبًا في خُبث وسأل:

- «وأين أنت يا خالة؟».

أجابته مرغريتا: - «أنا غير موجودة، فأنت تراني في الحلم».

قال الطفل: - «هذا ما خمّنته».

أمرته مرغريتا: - «تمدَّد، وضعْ خدَّك على يدك وسوف أظهر لك في الحلم».

- «اظهري لي، اظهري لي»، قال الطفل موافقًا وتمدَّد من فوره ووضع يده تحت خده.

- «سأحكي لك حكاية»، قالت مرغريتا ووضعت يدها الحارة على رأسه المقصوص الشعر، «كانت تعيش في قديم الزمان خالة، لم يكن لها أولاد كما لم تشعر يومًا بالسعادة، بكت الخالة أوَّل الأمر ثم تحوَّلت إلى إنسانة شريرة...»، وصمتت مرغريتا ثم رفعت يدها عن رأس الطفل؛ كان قد غفا.

وضعت مرغريتا المطرقة على حافة النافذة برفق وانسلت محلِّقة، كان الهرج والمرج حول البيت على أشدهما، كان الناس يتراكضون على الرصيف المغطى بالزجاج المحطَّم ويتصايحون وقد لاح بينهم بعض رجال الشرطة، وبغتة قُرع جرس واندفعت من أربات سيارة إطفاء عليها سلم...

إنما لم يعد يعني مرغريتا ما يمكن أن يحدث بعد هذا، فأحكمت خط سيرها كي لا ترتطم بالأسلاك، وتشبَّثت بالمكنسة بقوة أكبر، وفي لحظة كانت تحلِّق فوق البيت المنكوب، مال الزقاق الذي تحتها على جانب وغار في الأرض، وبرز بدلًا منه تحت قدميها حشد من الأسطح تقطعها في زواياها طرقات صغيرة مشعشعة، وعلى حين غرَّة انسحبت الأسطح من تحتها جانبًا وانطمست حلقات الأنوار وامتزجت.

واندفعت مرغريتا اندفاعة أخرى فإذا بالأسطح كلها تغور في الأرض وتبدو بدلًا منها بحيرة من الأنوار الكهربائية الراعشة، وفجأة ارتفعت هذه البحيرة عموديًا ثم ظهرت فوق رأس مرغريتا، بينما تلألأ القمر تحت قدميها، أدركت مرغريتا أنها انقلبت رأسًا على عقب فاستعادت وضعها الطبيعي والتفتت فإذا بالبحيرة لا وجود لها وليس خلفها إلا هالة وردية في الأفق.

واختفت الهالة أيضًا في ثانية فرأت مرغريتا نفسها وحدها مع القمر الذي يطير إلى اليسار من فوقها، كان شعر مرغريتا قد تكوَّم كومة واحدة، وكان ضوء القمر يغسل جسدها محدثًا صوتًا كالصفير، وأدركت مرغريتا، وهي ترى صفَّين من الأنوار المتفرِّقة يندمجان في خطين ناريين متصلين ويختفيان وراءها بسرعة أنها تطير بسرعة جنونية، ودهشت كيف لا تنقطع أنفاسها.

وما هي إلا ثوانٍ حتى توهَّجت في مكان ما بعيد تحتها في سواد الأرض، بحيرة جديدة من الأنوار الكهربائية، وتكوَّمت تحت قدمي الطائرة، لكنها سرعان ما دارت كاللولب وغارت في الأرض، ومرَّت ثوانٍ أخرى فإذا بالظاهرة نفسها تتكرَّر.

صاحت مرغريتا: - «مدن! مدن!».

وبعد هذا رأت تحتها مرتين أو ثلاثًا سيوفًا في غُمد سود مكشوفة، ينعكس منها بريق خافت وأدركت أن هذه السيوف ليست سوى أنهار.

كانت مرغريتا الطائرة تدير رأسها إلى الأعلى واليسار تمتع ناظريها برؤية القمر يمرق فوقها كالمجنون متراجعًا إلى موسكو، ويقف مكانه في الوقت نفسه على نحو أدهشها بحيث كانت ترى عليه بجلاء تنينًا أو حصان بحر داكنًا غامضًا موجهًا خطمه المدبَّب إلى المدينة المهجورة.

وهنا تملَّكت مرغريتا فكرة أنها، في الواقع، عبثًا تسوق مكنستها بهذه السرعة المفرطة، فهي تحرم بهذا نفسها من تأمُّل أي شيء على مهل ومن التمتع بطيرانها، وهتف هاتف في داخلها أنهم سينتظرونها هناك إلى حيث هي طائرة، وأنه لا داعي لشعور الملل الذي تعانيه جرَّاء طيرانها على هذا الارتفاع وبهذه السرعة الجنونية.

خفضت مرغريتا رأس المكنسة المنفوش إلى الأمام بحيث ارتفع ذيلها إلى الأعلى، وخفضت سرعتها إلى حدٍّ كبير، وانحدرت بها باتجاه الأرض، بعث هذا الانزلاق الشبيه بالانزلاق على زلاجة هوائية نشوة فائقة في نفس مرغريتا، وارتفعت الأرض إلى مرغريتا فتبينت في هاتيك الكتلة السوداء، العديمة الشكل حتى الآن، كل ما فيها من أسرار ومواطن جمال في هذه الليلة المقمرة، كانت الأرض تمضي للقياها، ورائحة الغابات التي بدأت الخضرة تكسوها تهف عليها، وطارت مرغريتا فوق الضباب يكتنف مرجًا نديًا ثم فوق بركة كبيرة، كانت الضفادع تغني جوقة واحدة تحتها، وفي مكان ما في البعيد يهدر قطار لا تدري لمَ أشجاها هديره، وما هي إلا برهة حتى رأت مرغريتا قطارًا يزحف متباطئًا كأنه دودة وهو ينثر شررًا في الهواء، تجاوزت مرغريتا القطار ومرَّت فوق مرآة مائية أخرى يسبح فيها تحت قدميها قمر ثان، ثم هبطت قليلًا واستأنفت طيرانها حتى كادت قدماها تلامسان رؤوس أشجار الصنوبر الضخمة.

وانشق الهواء وراء مرغريتا عن صوت عنيف، سرعان ما أخذ يلحق بها، وشيئًا فشيئًا انضمت إلى هدير هذا الشيء المنطلق كقذيفة قهقهة نسائية مسموعة على بعد فراسخ، التفتت مرغريتا فأبصرت شيئًا أسود مركبًا يلحق بها، كان هذا الشيء يزداد وضوحًا مع اقترابه من مرغريتا، وأخيرًا لاح لها أن شخصًا ما يطير راكبًا، ثم تبينته تمامًا بعد أن أدركها وخفف سرعته، ولم يكن هذا الشخص سوى ناتاشا.

كانت ناتاشا تمتطي ظهر خنزير مخصي مكتنز يحضن بحافريه الأماميين حقيبة، ويدق بالخلفيين الهواء بعنف، وهي عارية تمامًا وشعرها المنكوش يتطاير في الهواء،

كانت نظارة الخنزير التي سقطت عن أنفه تطير إلى جانبه على سلك وهي تلمع في ضوء القمر حينًا ثم ينطفئ بريقها، وقبعته تسقط بين الحين والحين على عينيه، تفرَّست مرغريتا في الخنزير مليًا وما إن عرفت فيه نيقولاي إيفانوفتش حتى دوَّت قهقهتها فوق الغابة تختلط بقهقهة ناتاشا.

صرخت مرغريتا بصوت ثاقب: - «ناتاشا! هل طليتِ نفسك بالدهان؟».

أجابت ناتاشا وهي توقظ بزعيقها غابة الصنوبر الغافية: - «عزيزتي! يا ملكتي الفرنسية، دلَّكت صلعته أيضًا».

صرخ الخنزير بصوت باكٍ وهو ينطلق بفارسته خببًا: - «أميرتي!».

صاحت ناتاشا وهي تخب إلى جانبها: - «عزيزتي! مرغريتا نيقولايفنا!، اعترف لك إني أخذت الدهان، فنحن أيضًا نريد أن نعيش ونطير! اعذريني يا سيدتي، لكني لن أعود، لن أعود مهما يكن! آه ما أجمل هذا يا مرغريتا نيقولايفنا! لقد تقدَّم لي بعرض»، وأخذت ناتاشا تغرز إصبعها في رقبة الخنزير اللاهث في حياء، «تقدَّم لي بعرض! كيف دعوتني؟؟». صاحت ناتاشا وهي تميل على أذن الخنزير.

أنَّ الخنزير: - «معبودتي، لا أستطيع مواصلة الطيران بهذه السرعة! قد أضيِّع أوراقًا مهمَّة، ناتاليا بروكوفييفنا، إني أحتج!».

صاحت ناتاشا وهي تقهقه بوقاحة: - «اذهب إلى الشيطان أنت وأوراقك».

صرخ الخنزير ضارعًا: - «ماذا تقولين يا ناتاليا بروكوفييفنا! قد يسمعنا أحد!».

وحدَّثت ناتاشا مرغريتا وهي تطير إلى جانبها خببًا بما حدث في الدار بعد أن غادرتها مرغريتا نيقولايفنا من الباب.

اعترفت ناتاشا أنها لم تمد يدها إلى أيٍ من الأشياء التي أهدتها لها مرغريتا، بل خلعت ملابسها واندفعت إلى الدهان فدلَّكت به جسمها على الفور، فحدث لها ما حدث لسيدتها، وفيما كانت ناتاشا تقف أمام المرآة تتملَّى جمالها السحري وهي تقهقه من الفرح، فُتح الباب وظهر نيقولاي إيفانوفتش أمامها، كان مضطربًا يمسك بيديه قميص مرغريتا نيقولايفنا وقبعته وحقيبته، بهت نيقولاي إيفانوفتش لمنظر ناتاشا، لكنه تمالك نفسه بعض الشيء، وقال لها، وقد احمر وجهه احمرارًا شديدًا، إنه رأى من واجبه أن يحمل القميص شخصيًا إليَّ...

زعقت ناتاشا وهي تقهقه: - «وما الذي قاله أيضًا، الوغد! ما الذي قاله، وبما أغراني! وبأي نقود منَّاني! قال إن كلافديا بيتروفنا لن تدري بشيء، قُل لي هل أكذب؟» صرخت ناتاشا بالخنزير فما كان منه إلا أن أخذ يشيح خطمه في حياء وارتباك.

وبين الضحك والمعابثة في المخدع طلت ناتاشا نيقولاي إيفانوفتش بالدهان وفغرت فاها من الدهشة، تقلّص وجه ساكن الطابق السفلي المحترم حتى صار وجه خنزير ونمت على رجليه ويديه حوافر، نظر نيقولاي إيفانوفتش إلى نفسه في المرآة وخار خوارًا وحشيًا يائسًا، لكن الوقت كان قد فات، وفي ثوانٍ كان يطير إلى الشيطان خارج موسكو وهو ينتحب لشقائه وقد امتطت ناتاشا ظهره.

- «أطالب بإعادة هيئتي الطبيعية!»، قبع الخنزير فجأة بصوت مبحوح لا تدري أهو صوت حانق أو ضارع: «أنا لست مستعدًا للذهاب إلى اجتماع غير قانوني! ومن واجبك يا مرغريتا نيقولايفنا إيقاف خادمتك عند حدِّها».

صرخت ناتاشا وهي تفرك له أذنه: - «آه، الآن صرتُ خادمة بالنسبة لك؟ خادمة؟ قبل قليل كنت معبودتك، ألم تدعُني هكذا؟».

- «فينوس!»، أجاب الخنزير بصوت باك وهو يطير فوق ساقية تسقسق بين الحصى، وشجرة جوز اهتزت أغصانها لملامسة حوافره.

- «فينوس! فينوس!»، هتفت ناتاشا بلهجة ظفر وهي تضع يدًا على خاصرتها وتبسط الأخرى نحو القمر، «مرغريتا، يا ملكتي! توسَّلي إليهم أن يبقوني جنيَّة، سينفِّذون ما تشائين فقد أُعطيت سلطانًا!».

وجاءها جواب مرغريتا:

- «حسنًا، أعدك بذلك!».

- «شكرًا»، هتفت ناتاشا ثم صرخت فجأة بحدة وبشيء من الغم: «هي، هي! هيا هيا! أسرع!». ولكزت بكعبيها خاصرتي الخنزير المهزولتين من هذا العدو الجنوني، فوثب هذا بحيث انشق الهواء من جديد، وفي لحظة بدت ناتاشا في المقدمة نقطة سوداء سرعان ما تلاشت وذاب هدير طيرانها.

وعادت مرغريتا تطير ببطء، كما في السابق، في مكان قفر ومجهول فوق رُبى تناثرت فيها صخور ملس متفرِّقة بين أشجار صنوبر ضخمة متباعدة، كانت مرغريتا تطير وتقول لنفسها إنها الآن في مكان بعيد جدًا عن موسكو على الأرجح، لم تكن المكنسة تطير الآن فوق رؤوس أشجار الصنوبر بل بين جذوعها التي فضَّض شعاع القمر أحد جوانبها، وانزلق ظل الطائرة الرقيق على الأرض أمامها؛ كان القمر الآن يضيء ظهر مرغريتا.

شعرت مرغريتا بقرب الماء وأدركت أن الهدف قريب، انفرجت أشجار الصنوبر ودنت مرغريتا بهدوء في الجو من جرف جيري، يجري خلفه في الأسفل نهر في الظل،

كان الضباب معلقًا يتشبَّث بالشجيرات في أسفل الجرف الرأسي، على حين كانت الضفة المقابلة مستوية واطئة، وكانت تنطلق من تحت مجموعة يتيمة من الأشجار المترامية الأطراف عليها ألسنة صغيرة من نار متَّقدة، وتتراءى أطياف متحرِّكة، وبدا لمرغريتا أنها تسمع موسيقى متلهِّفة مرحة تأتيها من هناك، وفي ما يلي الضفة وعلى مد النظر لم يكن يبدو في السهل المفضَّض أثر لسكن أو أحياء.

قفزت مرغريتا من أعلى الجرف وهبطت بسرعة إلى الماء، كان الماء يغريها بعد هذا العدو الجوي، رمت مكنستها بعيدًا وعدت بكل قوتها تقفز إلى الماء، اخترق جسمها الخفيف الماء كأنه السهم وارتفع عمود من الماء حتى كاد يبلغ القمر، كان الماء دافئًا كما في حمَّام، ولفَّت مرغريتا خارجة من اللجة وسبحت في النهر وحيدة في الليل حتى الارتواء.

لم يكن يُرى أحد على مقربة من مرغريتا، إنما كان يُسمع على بعد يسير وراء الشجيرات رشاش ماء ونخير، لا بد أن أحدهم كان يسبح هناك.

خرجت مرغريتا إلى ضفة النهر، كان جسمها متورِّدًا بعد العوم ولم تكن تشعر بأي تعب، فأخذت ترقص على العشب البليل، وفجأة كفَّت عن الرقص وأرهفت السمع توجسًا، صار النخير يدنو، وبرز من وراء شجيرات الصفصاف شخص سمين عارٍ يعتمر قبعة حريرية عالية سوداء مائلة على قذاله، وقدماه في طين الطمي حتى الكعبين بحيث بدا المستحم وكأنه ينتعل حذاء أسود، وكان بإمكان المرء أن يحزر من لهاثه وحزقه أنه على درجة كبيرة من السكر، الأمر الذي أكدته، بالمناسبة، رائحة الكونياك التي أخذت تنبعث من النهر فجأة.

رأى السمين مرغريتا فتفرَّس فيها وصرخ في فرح:

- ما هذا. أهي التي أرى؟ كلودينا، أحقًا هذه أنتِ أيتها الأرملة التي لا تعرف الغم والكآبة؟ وأنتِ هنا؟». واندفع يحيِّي ويُسلِّم.

تراجعت مرغريتا وقالت بوقار:

- «إذهب إلى الشيطان، أي كلودينا أنا؟ انظر مع من تتكلَّم»، ثم فكَّرت لحظة واتبعت كلامها بشتيمة طويلة بذيئة مما جعل السمين الطائش يفيق من سكره.

هتف بصوت خافت وارتجف: - «أوي! سامحيني أيتها الملكة الكريمة مارغو! لقد أخطأت والذنب ذنب الكونياك، عليه اللعنة»، هنا خرَّ السمين على ركبته وأزاح القبعة وانحنى وتمتم كلامًا سخيفًا بالروسية المخلوطة بالفرنسية على عرس دموي لصديقة جيسار في باريس وعلى الكونياك وعلى انسحاق قلبه جرَّاء خطأ مؤسف.

قالت مرغريتا وقد رقت لهجتها: - «لو ترتدي سروالك يا ابن الكلب».

ابتسم السمين، وقد رأى أن مرغريتا غير غاضبة، ابتسامة فرح عريضة، وأنبأها أنه إنما دون سروال في اللحظة الراهنة لأنه تركه من شرود ذهنه على ضفة نهر الأينيسي حيث كان يسبح قبل قليل، وأنه سيطير من فوره إلى هناك، وأن المسافة من هنا قريبة جدًا، وأخذ يتراجع القهقرى، بعد أن سألها عطفها ورعايتها، وظلّ يتراجع حتى زلّت قدمه وسقط على ظهره في الماء، لكنه احتفظ بابتسامة الانبهار والوفاء على وجهة المطوّق بفودين صغيرين حتى وهو يسقط في الماء.

أما مرغريتا فقد أطلقت صفيرًا حادًا وامتطت صهوة المكنسة التي هُرعت إليها وانطلقت تقطع النهر إلى الضفة المقابلة المغمورة كلها بنور القمر إذ كان ظل الجبل الجيري يقصر عنها.

ما إن لامست قدم مرغريتا العشب البليل حتى دوّت الموسيقى تحت أشجار الصفصاف بقوة أكبر، وتطايرت من الشعلة حزمة الشرر مزغردة بحبور أكبر، كانت الضفادع الغليظة الوجوه تجلس في صفين تحت أغصان الصفصاف التي تناثرت عليها أقراط موبّرة لطيفة، ظاهرة في ضوء القمر، وتعزف مارشًا حماسيًا على مزامير خشبية وهي تنتفخ كأنها من مطاط، وكانت هناك حباحب متدلّية على أغصان الصفصاف أمام الموسيقيين تضيء النوتات الموسيقية، وضوء الشعلة يتأرجح على سحن الضفادع.

كان المارش يعزف على شرف مرغريتا وكان الاستقبال الذي استقبلت به من أحفل الاستقبالات، أوقفت الحوريات الشفافات رقصتهن فوق النهر، ولوّحن لمرغريتا بالأعشاب المائية وتردّدت كالأنين فوق الضفة الخالية المائلة إلى الخضرة تحياتهن المسموعة بعيدًا، ووثبت الجنيات العاريات من وراء جذوع الصفصاف واصطففن صفًا واحدًا، وأخذن يثنين ركبهن منحنيات تحية كسيدات البلاط، ووصل الشخص ذو القدمين العنزيّتين طائرًا، وانكب على يد مرغريتا ثم بسط على العشب حريرًا وسأل مرغريتا إن كانت الملكة استحمّت جيدًا بالماء وسألها إن كانت تتفضّل بالاستلقاء قليلًا وأخذ قسط من الراحة.

وفعلت مرغريتا كما أشار عليها، وحمل الشخص ذو القدمين العنزيتين كأسًا من الشمبانيا إلى مرغريتا فشربته وأحسّت بالدفء يسري في قلبها على الفور، واستفسرت مرغريتا عن مكان وجود ناتاشا فقيل لها أن ناتاشا فرغت من استحمامها وواصلت طيرانها على خنزيرها إلى موسكو كي تنبئهم بوصول مرغريتا قريبًا، وتساعدهم في إعداد الملابس لها.

ولم يعكِّر صفو مرغريتا أثناء إقامتها القصيرة تحت شجر الصفصاف، إلا حادثة صغيرة إذ دوَّى في الجو صفير وهوى في الماء جسم أسود يبدو أنه قد أخطا هدفه على نحو فاضح، وخلال لحظات كان ذلك السمين ذو الفودين الصغيرين الذي مثل ذلك المثول غير الموفَّق أمام مرغريتا على تلك الضفة يقف بين يدي مرغريتا، لقد تمكّن، في ما يبدو، من الوصول إلى نهر ينسي[1] لأنه كان الآن يرتدي الفراك، لكنه كان مبللًا من رأسه حتى أخمص قدميه، لقد خذله الكونياك ثانية: أراد أن يحط على الأرض فإذا به يسقط في الماء، لكنه لم يضيِّع ابتسامته حتى في هذا الموقف المحزن، وأفسحت مرغريتا الضاحكة المجال له كي يقبِّل يدها.

ثم أخذ الجميع يستعدون للانطلاق، أكملت الحوريات رقصهن على ضوء القمر وذبن فيه، وسأل ذو القدمين العنزيتين مرغريتا باحترام عن كيفية وصولها إلى النهر، فقال بعد أن عرف بقدومها على ظهر مكنسة:

- «أوه، لماذا فعلت هذا؟ هذا غير مريح»، وفي لحظة صنع من عودين هاتفًا مريبًا وطلب من شخص ما إن يبعث بسيارة، الأمر الذي تحقَّق بالفعل في دقيقة واحدة، فقد سقطت على الجزيرة سيارة قاتمة اللون مكشوفة، إنما لم يكن في مقعد القيادة سائق ذو مظهر عادي، بل غراب أسود طويل الأنف يضع سدارة مشمَّعة وقفازين بطرفين متسعين. أخذت الجزيرة الصغيرة تقفر، غادرت الجنيات وذبل في وهج القمر، والشعلة أرسلت آخر ذبالاتها، وابتلع الرماد الجمرات الأخيرة.

أركب ذو الفودين وذو القدمين العنزيتين مرغريتا، فاستلقت على المقعد الخلفي الواسع، هدرت السيارة ووثبت وحلَّقت حتى القمر نفسه تقريبًا، اختفت الجزيرة واختفى النهر واندفعت مرغريتا إلى موسكو.

---

(1) أحد أضخم ثلاثة أنهار في سيبيريا. الناشر.

## الفصل الثاني والعشرون

# على ضوء الشموع

كان الهدير الرتيب للسيارة المنطلقة عاليًا فوق الأرض يهدهد مرغريتا، وضوء القمر يبعث في جسدها دفئًا مخدِّرًا، أغمضت عينيها وأسلمت وجهها للريح، وهي تفكِّر في غير قليل من الحزن في تلك الضفة المجهولة من النهر التي غادرتها، والتي لن تراها بعد اليوم أبدًا كما شعرت، فقد أدركت بعد كل هذه الخوارق والمعجزات التي رأتها في هذا المساء من هو الشخص الذي ستحل في ضيافته، لكن هذا لم يفزعها، فقد انتزع أملها في التمكن من استعادة سعادتها كل خوف من قلبها، على أي حال لم يتسنَّ لمرغريتا أن تحلم طويلًا بهذه السعادة، ولسنا ندري هل ذلك لأن الغراب كان يعرف عمله جيدًا أم لأن السيارة كانت جيِّدة، إلا أن مرغريتا فتحت عينيها بعد قليل فإذا بها لا ترى تحتها ظلام الغابة بل بحيرة مرتعشة من أضواء موسكو، فك الطائر - السائق الأسود العجلة اليمنى الأمامية وهو محلِّق ثم هبط بالسيارة في مقبرة مقفرة، في منطقة دورغوميلوفو[1]، أنزل الغراب مرغريتا، التي لم تكن تسأله عن شيء، مع مكنستها قرب إحدى الشواهد وأطلق السيارة باتجاه منحدر وراء المقبرة، وفي هذا المنحدر هوت السيارة في جلجلة عظيمة وفي أسفله قضت، أدى الغراب التحية باحترام وركب العجلة وحلَّق بها مغادرًا.

وعلى الفور لاحت من خلف أحد الشواهد بُردة سوداء، ولمع ناب في ضوء القمر، وتبيَّنت مرغريتا أزازيلو، ودعاها هذا بحركة إلى ركوب المكنسة على حين وثب هو على شيش طويل وشبا بسرعة في الجو وما هي إلا ثوانٍ حتى كانا يحطَّان على مقربة من العمارة رقم 302 مكرَّر في شارع سادوفايا دون أن يلحظهما أحد.

عندما عبر الرفيقان الممر المظلم وهما يتأبَّطان المكنسة والشيش لاحظت مرغريتا

(1) منطقة تابعة لموسكو. الناشر.

شخصًا يعتمر قبعة وينتعل جزمه عالية وقد أضناه التربُّص على ما يبدو، وعلى الرغم من كل خفة خطوات أزازيلو ومرغريتا سمع الرجل الوحيد وقعها فانتفض في اضطراب دون أن يعرف من صاحب هذه الخطوات.

والتقيا بشخص ثانٍ يشبه الأول حتى الإعجاز في المدخل السادس، وتكرَّرت القصة من جديد. خطوات... التفت الرجل وقطَّب، وعندما فُتح الباب وأُغلق اندفع خلف الداخليين الخفيين، وألقى نظرة إلى الممر لكنه لم يرَ بطبيعة الحال شيئًا.

وكان الثالث، وهو نسخة دقيقة من الثاني وبالتالي من الأول، يناوب في بسْطة الطابق الثالث وهو يدخِّن سجائر ثقيلة، سعلت مرغريتا وهي تعبر قربه فوثب من مقعده كالملسوع وأخذ يتلفَّت حوله في اضطراب، ثم دنا من الدرابزين وتطلَّع إلى الأسفل، كانت مرغريتا ومرافقها قد بلغا في هذه الأثناء باب الشقة رقم 50 لكنهما لم يقرعا جرسًا بل فتح أزازيلو الباب بمفتاحه الخاص دون أي صوت.

أول ما صُعقت له مرغريتا كان الظلام الذي وجدت نفسها فيه، لم يكن يُرى في الشقة شيء وكأنها في غرفة تحت الأرض، فتشبَّثت مرغريتا دون أن تعي ببردة أزازيلو خشية أن تعثر، إنما غمز في مكان بعيد في الأعلى نور قنديل ضئيل وأخذ يقترب، ونزع أزازيلو المكنسة من تحت إبط مرغريتا فاختفت في الظلام دون أي صوت، وهنا أخذا يرقيان درجات واسعة صار يبدو لمرغريتا أن لا نهاية لها، والذي بهتت له مرغريتا هو كيف يمكن لمدخل شقة موسكوفية عادية أن يتسع لهذا الدرج غير العادي وغير المرئي الذي تحس به مع ذلك إحساسًا واضحًا، وهنا انتهى الدرج، وأدركت مرغريتا أنها تقف على بسطته، واقترب منهما الضوء فرأت مرغريتا وجه رجل طويل أسود يحمل بيده القنديل إياه وكان بإمكان أي شخص ساقه سوء طالعه للالتقاء بهذا الرجل مصادفة أن يتعرَّف إليه على الفور حتى على لسان الضوء الضئيل المنبعث من القنديل، كان هذا هو كوروفييف الذي هو نفسه فاغوت.

والحقيقة أن تغيرًا كبيرًا طرأ على مظهر كوروفييف، فلم يكن النور المتغامز ينعكس في نظارة أنفية متصدِّعة آن الأوان لأن يرميها في الزبالة من زمن طويل، بل في نظارة منفردة، متصدِّعة هي أيضًا في الحقيقة، وكان شارباه الصغيران على وجهه الوقح مبرومين مدهونين، أما سواده فيمكن تفسيره ببساطة: ذلك أنه كان في الفراك ولم يكن يبدو فيه من بياض إلا صدره.

انحنى المشعوذ أو قائد الكورس أو الساحر أو المترجم أو الشيطان لا أعلم من يكون بالفعل، وبالاختصار انحنى كوروفييف محييًا ودعا مرغريتا، وهو يبسط يده التي تحمل القنديل في حركة واسعة، أن تتبعه واختفى أزازيلو.

وقالت مرغريتا تفكر في سرها: «يا له من مساء غريب، كنت أتوقَّع كل شيء إلا هذا! أتكون الكهرباء انطفأت عندهم؟ لكن الأغرب هو مقاييس هذه الشقة! كيف يمكن لشقة موسكوفية أن تسع هذا كله؟ بكل بساطة، هذا غير ممكن».

وعلى الرغم من ضآلة الضوء المنبعث من قنديل كوروفييف، أدركت مرغريتا أنها في قاعة ضخمة فسيحة وإلى هذا ذات أعمدة ومظلمة تبدو للوهلة الأولى وكأن لا نهاية لها، توقَّف كوروفييف قرب ديوان صغير ووضع القنديل على منضدة، ودعا مرغريتا بإشارة منه إلى الجلوس على حين جلس إلى جانبها جلسة بهية؛ مرتفقًا المنضدة.

قال كوروفييف بصوت كالصرير: - «اسمحي لي أن أقدِّم نفسي، كوروفييف، يدهشك عدم وجود النور، أليس كذلك؟ من باب الاقتصاد كما فكَّرتِ طبعًا؟ لا، لا، لا. ليقطع أول جلاد نصادفه اليوم رأسي على المنضدة، وليكن واحدًا من هؤلاء الذين سيكون لهم شرف لثم ركبتيك بعد قليل، إن كان الأمر كذلك، القضية ببساطة أن السيد لا يحب نور الكهرباء، ولن نشعله إلا في آخر لحظة، إذَّاك، صدقيني، لن يشكو أحد من شُحِّه، بل أقول لكِ: ربما كان من الأفضل أن يكون النور أقل غزاره».

وقع كوروفييف من قلب مرغريتا موقعًا طيبًا، وفعلت ثرثرته المفرقعة فعل المهدِّئ في نفسها.

أجابت مرغريتا: - «لا، ما يدهشني أكثر من أي شيء آخر هو المكان الذي يتسع لهذا كله». وبسطت يدها مؤكِّدة بحركتها هذه رحابة القاعة.

ابتسم كوروفييف ابتسامة طفيفة عذبة اهتزت لها ظلال في التجاعيد التي عند أنفه فأجاب:

- «هذا من أبسط الأمور! فمن اليسير كل اليسر على من له معرفة جيدة بالبعد الخامس أن يوسِّع مكانًا ما إلى الحدِّ الذي يرغبه، وأقول لك أكثر من ذلك أيتها السيدة المحترمة: يستطيع أن يوسِّعه إلى حدود الشيطان وحده أعلم بها، وبالمناسبة»، قال كوروفييف يواصل ثرثرته، «عرفت أناسًا ليس عندهم أي فكرة عن البعد الخامس فقط، بل ليس عندهم أي فكرة عن أي شيء، ومع هذا اجترحوا المعجزات من حيث توسيع مسكنهم، وعلى سبيل المثال قيل لي إن أحد سكان المدينة استلم شقة من ثلاث غرف في «زيملينوي فال»[1]، وفي لحظة حوَّلها إلى شقة من أربع غرف بلا أي بعد خامس أو غيره من الأشياء التي تجعل المرء يفقد صوابه وذلك بأن قطع إحدى الغرف نصفين بحاجز».

---

(1) شارع شهير في الحزام الأخضر المحيط بوسط موسكو. الناشر.

«ثم بادل شقته هذه بشقتين مستقلتين في حيَّين مختلفين من موسكو: الأولى بثلاث غرف والثانية باثنتين، وهكذا أصبح عدد الغرف خمسًا كما ترين، ثم بادل شقته ذات الثلاث غرف بشقتين مستقلتين كل منهما بغرفتين وهكذا صار يملك ست غرف، كما ترين، صحيح أنها موزَّعة في فوضى كاملة على كل أنحاء موسكو لكنها ست غرف على أي حال، وكان يستعد للقيام بآخر وأروع ضرباته بأن أعلن في الجرائد عن استعداده لاستبدال شقة واحده بخمس غرف في «زيملينوي فال» بست غرف موزعة في أنحاء مختلفة من موسكو حيث توقَّف نشاطه فجأة لأسباب لا دخل له فيها، قد تكون له غرفة الآن، لكنني أجرؤ على التأكيد لك أنها ليست في موسكو، إليك مثالًا على الدهاء، وأنت تكلمينني على البعد الخامس».

ومع أن مرغريتا لم تفتح فمها بكلمة واحدة عن البعد الخامس، بل كوروفييف هو الذي كان يشرحه لها، إلا أنها أطلقت ضحكات الغبطة وهي تستمع إلى مغامرات داهية الشقق هذا، لكن كوروفييف أردف يقول:

- «والآن إلى المسألة التي تهمنا، يا مرغريتا نيقولايفنا، أنتِ امرأة ذكية جدًا وحزرتِ بالطبع من هو سيدنا».

دقّ قلب مرغريتا وأومأت برأسها.

قال كوروفييف: - «تمام، تمام، نحن أعداء أي جَمْجَمة أو غموض، إن سيدنا يقيم حفلة راقصة كل عام، هذه الحفلة تُدعى حفلة اكتمال البدر الربيعية أو حفلة المائة ملك، وما أكثر عدد الضيوف!»، هنا وضع كوروفييف يده على خده كأنما سنه تؤلمه، «على أي حال آمل أن تتأكَّدي من ذلك بنفسك، وهكذا فسيدنا، كما أدركتِ بالطبع، عازب، وفي حاجة إلى

سيدة»، هنا بسط كوروفييف يديه، «ولا بد أن توافقي على أنه دون سيدة...».

كانت مرغريتا تصغي إلى كوروفييف محاولة ألا تفوتها كلمة، على حين كانت تشعر بالبرد يدب تحت قلبها وبأمل السعادة يدير رأسها.

- «والتقليد المتَّبع يقضي أولًا بأن تحمل السيدة اسم مرغريتا حتمًا، وثانيًا أن تكون من أهل البلد، ونحن، كما ترين، نطوف البلدان، وفي الوقت الراهن نحن موجودون في موسكو، ولقد وجدنا في موسكو مائة وواحدة وعشرين مرغريتا، لكن هل تصدقين»، وهنا خبط كوروفييف على فخذه بيأس، «إن أيًا منهن لم تناسبنا، وأخيرًا لولا حظنا السعيد...».

ابتسم كوروفييف ابتسامة خفيفة معبِّرة ومال بقامته فدبَّ البرد من جديد في قلب مرغريتا.

هتف كوروفييف: - «باختصار!، باختصار شديد، هل تمانعين في أخذ هذه المهمة على عاتقك؟».

أجابت مرغريتا بحزم: - «لا أمانع».

قال كوروفييف وأردف وهو يرفع القنديل: - «انتهى! أرجو أن تتبعيني».

ومضيا بين الأعمدة، وأخيرًا وجدا نفسيهما في قاعة أخرى كانت تفوح منها، لأمر ما، رائحة ليمون قوية، وتسمع فيها هسهسات، وأحسَّت مرغريتا بشيء يمس رأسها فارتعدت. - «لا تخافي»، قال كوروفييف يهدِّئ روْعها بلهجة عذبة وهو يتأبَّط ذراعها: «إنها من ألاعيب بيغيموت التي يعدها للحفلة الراقصة لا أكثر، وبشكل عام أسمح لنفسي بأن أتجرَّأ وأنصحك، يا مرغريتا نيقولايفنا، ألا تخافي أي شيء أبدًا، هذا غير معقول. ستكون الحفلة في غاية الأبهة والروعة، لا أخفي هذا عنكِ، وسنرى أشخاصًا كان حجم سلطانهم عظيمًا، وعظيمًا جدًا في وقته، لكن يقينًا ما إن تفكري في مدى ضآلة إمكاناتهم بالمقارنة مع إمكانات من لي الشرف أن أكون أحد أفراد حاشيته حتى يبدو لكِ أمرهم مضحكًا بل أكاد أقول محزنًا، ثم إنك أنتِ نفسك تحملين دمًا ملكيًا في عروقك.

همست مرغريتا في ذعر وهي تلتصق بكوروفييف: - «ولماذا أحمل دمًا ملكيًا؟».

بقبق كوروفييف مداعبًا: - «آه، يا مليكتي، مسائل الدم أصعب المسائل في عالمنا! وإذا ما أُتيح لنا أن نسأل بعض جدات جداتنا، خصوصًا اللاتي اشتهرن بوداعتهن، لتكشَّفت لنا أسرار مذهلة يا مرغريتا نيقولايفنا المحترمة! ولن أجانب الصواب وأنا أتكلَّم في هذا أن أذكر دستة الورق المخلوطة خلطًا غريبًا، هناك أشياء تبطل فيها تمامًا الحواجز بين الفئات والطبقات وحتى الحدود بين الدول، وآية ذلك أن إحدى ملكات فرنسا التي عاشت في القرن السادس عشر كانت ستذهل أشد الذهول، فيما أعتقد، لو قِيل لها إني، بعد مرور هذه السنوات الطويلة، سأمسك بذراع حفيدة حفيدة حفيدة حفيدتها الفاتنة وأدور بها في قاعات الحفلة الراقصة في موسكو، ولكن قد وصلنا!».

وهنا نفخ قنديله فاختفى من يده، ورأت على الأرض أمامها شريط ضوء تحت باب مظلم، وطرق كوروفييف هذا الباب برفق فاضطربت مرغريتا بحيث اصطكت أسنانها وسرت القشعريرة في ظهرها، وفُتح الباب فإذا هي بغرفة غير كبيرةٌ، فيها سرير واسع من خشب البلوط عليه شراشف ومخدة قذرة مكرمَشة مكوَّمة بعضها فوق بعض، وأمام السرير طاولة من خشب البلوط ذات قوائم محفورة وعليها شمعدان ذو تعشيقات على

شكل قوائم طيور ذات مخالب، وفي هذه القوائم الذهبية السبع كانت تحترق شموع غليظة، وكانت على طاولة صغيرة بالإضافة إلى ذلك، رقعة شطرنج عليها قطع رائعة الصنع، وعلى سجادة صغيرة رثّة مقعد واطئ، كما كانت هناك طاولة ثانية عليها كأس ذهبية وشمعدان صُنعت عروقه على شكل أفاعٍ، كانت رائحة الكبريت والقطران تفوح في الغرفة، والظلال المنبعثة من الشمعدانين تتَصالب على أرضها.

وعلى الفور تبيَّنت مرغريتا بين الحاضرين أزازيلو الذي كان الآن يلبس الفراك ويقف عند مسند السرير، ولم يعد أزازيلو في زيه هذا الذي يشبه قاطع الطريق الذي ظهر لمرغريتا في حديقة ألكسندروفسكي، بل انحنى يحيِّي مرغريتا في كياسة بالغة.

وكانت تجلس على السجادة الصغيرة عند السرير ساحرة عارية، غيلا إياها، تلك التي أربكت صاحب البوفيه المحترم في «فاريتيه» ذلك الإرباك العظيم، والتي أجفلها الديك لحسن الحظ في ليلة حفلة السحر المعروفة، وهي تحرك في المقلاة شيئًا يتصاعد منه بخار كبريتي.

وبالإضافة إلى هؤلاء كان في الغرفة قط أسود هائل الحجم يجلس على كرسي عالٍ أمام طاولة الشطرنج وهو يقبض بقائمته اليمنى على حصان الشطرنج.

نهضت غيلا وانحنت محيية مرغريتا، ووثب القط من كرسيه إلى الأرض وفعل مثلها وهو يخفق بقائمته الخلفية اليمنى فسقط الحصان على الأرض وزحف القط يبحث عنه تحت السرير.

تبيَّنت مرغريتا المتجمِّدة من الخوف هذا كله بصعوبة بالغة من خلال الظلال الماكرة التي كانت الشموع ترسلها، فقد كان نظرها منشدًّا إلى السرير؛ يجلس عليه ذاك الذي كان إيفان المسكين يقنعه قبل حين في بتريرشيي برودي أن الشيطان غير موجود، غير الموجود هذا بالذات كان يجلس على السرير.

وتعلَّقت بوجه مرغريتا عينان، اليمنى تنطلق من قاعها شرارة ذهبية تنفذ إلى أعمق أعماق النفس، واليسرى فارغة وسوداء تشبه ثقب إبرة، أو تشبه فوهة بئر لا قرار لها تضجُّ بشتى أنواع الظلام والأشباح، كان وجه فولند مائلًا وزاوية فمه اليمنى مشدودة إلى أسفل، وعلى جبينه الأصلع العالي انحفرت غضون عميقة بموازاة حاجبيه المدبَّبين، وبشرة وجهه ذات سمرة كأنما لفحته الشمس وأحرقته إلى الأبد.

كان فولند متمدِّدًا على السرير لا يستر لحمه إلا قميص نوم طويل قذر ومرقَّع في كتفه اليسرى، وقد طَوِيَ رجلًا عارية تحته ومد الأخرى أمامه على المقعد، وكانت غيلا تدهن ركبة رجله السمراء هذه بدهان مدخن.

وتبيَّنت مرغريتا أيضًا على صدر فولند الأجرد المكشوف جعرانًا من حجر داكن رائع الصنع مربوطًا بسلسلة ذهبية نُقشت على ظهره كتابة، وكان ينتصب إلى جانب فولند على السرير مجسَّم غريب للكرة الأرضية على قاعدة ثقيلة، كان المجسم مضاء من أحد جانبيه وكان يبدو كأنه حي.

استمر الصمت بضع ثوان، «إنه يدرسني». قالت مرغريتا في نفسها وهي تحاول بجهد إرادي إيقاف الرعشة في قدميها.

وأخيرًا تكلَّم فولند وهو يبتسم مما جعل عينه التي تقدح الشرر وكأنْ تبدو وكأنها اشتغلت. قال:

- «أحيِّيكِ أيتها الملكة، وأرجو أن تعذريني على لباسي البيتي».

كان صوت فولند من الانخفاض بحيث بدا في بعض كلامه وكأنه يتحشرج.

تناول فولند من على السرير شيئًا طويلًا وانحنى وحرَّك الشيش تحت السرير وقال:

- «أخرج! الجولة ألغيت، قدمت إلينا ضيفة».

همس كوروفييف بقلق في إذن مرغريتا وكأنه ملقن: - «ولا بأي شكل».

قالت مرغريتا: - «ولا بأي شكل...».

همس كوروفييف مرة أخرى في أذنها: - «سيدي...».

أجابت مرغريتا بصوت خافت لكنه واضح بعد أن تمالكت نفسها: - «ولا بأي شكل، سيدي»، ثم ابتسمت وأردفت: - «أرجوك ألا توقف اللعبة، وأعتقد أن المجلات المتخصِّصة في الشطرنج ستدفع أموالًا لا بأس بها فيما لو تمكنت من نشرها».

تنحنح أزازيلو بصوت خافت محبِّذًا، بينما رنا فولند إلى مرغريتا بتمعن وقال كأنما يوجِّه ملاحظة لنفسه:

- «نعم، كوروفييف على حق! ما أغرب خلط الأوراق! الدم!».

بسط يده وأومأ إلى مرغريتا، دنت منه وهي لا تحس بالأرض تحت قدميها الحافيتين، فوضع يده الثقيلة كالحجر والساخنة في الوقت نفسه كالنار على كتف مرغريتا وشدَّها إليه وأجلسها قربه على السرير وقال:

- «بما أنكِ على هذا القدر من اللطف الساحر، ومن ناحيتي لم أكن أتوقع منكِ شيئًا آخر، اسمحي لي برفع الكلفة بيننا».

ثم انحنى ثانية على طرف السرير وصاح: - «هل ستستمر هذه المهزلة تحت السرير طويلًا؟ اخرج أيها البهلول اللعين!».

رد القط من تحت السرير بصوت مخنوق ومصطنع: - «لا أستطيع أن أعثر على الحصان، لقد نطَّ إلى مكان ما ولا ألقى أمامي إلا ضفدعة».

سأله فولند متظاهرًا بالاستياء: - «أتظن نفسك في ساحة معرض؟ لم تكن هناك أي ضفدعة تحت السرير! دع هذه الخزعبلات الرخيصة لـ «فارييتيه»، إذا لم تظهر أمامي في الحال، سنعتبرك مستسلمًا أيها الهارب اللعين!».

- «لن استسلم مهما يكن من أمر، يا سيدي!». زعق القط وهو يخرج في اللحظة ذاتها من تحت السرير قابضًا بقائمته على الحصان.

- «أقدِّم لك...». همَّ فولند يقول، لكنه قاطع نفسه وقال: «لا، لا أستطيع أن أرى هذا البهلول! انظروا إلى ما حوَّل إليه نفسه تحت السرير».

كان القط الملوَّث بالغبار يقف في هذه الأثناء على قائمتيه الخلفيتين وهو ينحني محييًا مرغريتا، كان يضع الآن على عنقه ربطة عنق بيضاء للفراك على شكل عقدة، وعلى صدره نظّاره منفردة نسائية لؤلؤية مربوطة بسير صغير، كما طلى شاربيه بالذهب.

صاح فولند: - «ماذا أرى! لماذا ذهَّبت شاربيك؟ وأي شيطان دعاك إلى وضع ربطة العنق وأنت لا ترتدي حتى سروالًا؟».

أجاب القط بوقار عظيم: - «لا يفترض في القط أن يرتدي سروالًا يا سيدي، وأخشى أن تأمرني بانتعال جزمه. القط الذي ينتعل جزمه لا يوجد إلا في الحكايات، يا سيدي. لكن هل رأيت يومًا شخصًا في حفلة راقصة دون ربطة عنق؟ ومن جهتي ليست لديَّ أية نية في أن أظهر في موقف مضحك وأعرض نفسي لشر طردة! كل منا يزيِّن نفسه بما يستطيع، واعتبر أن ما قلته ينطبق على النظارة أيضًا يا سيدي!».

- «وشارباك؟..».

أجاب القط يعترض بصوت جاف: - «لا أدري، لماذا كان بإمكان أزازيلو وكوروفييف وهما يحلقان ذقنيهما اليوم أن يرشاهما بمسحوق أبيض، وفيم هذا المسحوق أفضل من الذهبي؟ لقد رششت مسحوقًا على شاربي، هذا كل ما في الأمر! لو أني حلقت ذقني، لكانت هذه مسألة أخرى! القط الحليق؛ بشاعة ما بعدها بشاعة بالفعل، هذا أمر أنا مستعد للاعتراف به ألف مرة، لكني، بشكل عام»، وهنا ارتعش صوت القط من الاستياء، «أرى أنه توضع أمامي عراقيل لا معنى لها، وبالتالي أرى نفسي أمام مسألة خطيرة: هل أحضر الحفلة أم لا؟ ماذا تقول في هذا يا سيدي؟».

وانتفخ القط من الحيف اللاحق به بحيث بدا إنْ ما هي إلا ثانية حتى ينفجر.

قال فولند وهو يهز رأسه: - «آه، يا للماكر، يا للماكر كلَّما كان موقفه ميئوسًا منه في

جولة شطرنج، يأخذ يضلِّلنا بكلامه وكأنه أحط دجَّال على الجسر، اجلس فورًا وكف عن هذا الهذر».

وأجاب القط وهو يجلس:

- «سأجلس، لكني أعترض على قولك الأخير، فكلامي ليس هذرًا على الإطلاق كما تفضَّلت وقلت في حضرة السيدة، بل سلسلة محكمة الحلقات من القياسات المنطقية، جديرة بأن يعرف قدرها أئمة مثل سيكست أمبيركوس[1] ومرسيان كابيلا[2] وحتى أرسطو نفسه».

قال فولند: - «كش ملك بالشاه».

- «حاضر، حاضر»، ردَّ القط وأخذ يحدِّق في رقعة الشطرنج من خلال نظَّارته.

وأردف فولند موجِّهًا كلامه إلى مرغريتا:

- «وهكذا يا سيدتي أقدِّم لك حاشيتي، صاحب الحماقات هذا هو القط بيغيموت، أزازيلو وكوروفييف سبق لكِ أن تعرفتِ إليهما، وهذه خادمتي غيلا أقدمها لك، إنها فارهة ونبيهة وما من خدمة يعسر عليها تقديمها إليك».

ابتسمت غيلا الحسناء وهي تحوِّل إلى مرغريتا عينيها الخضراوين دون أن تتوقَّف عن غرف الدهان براحتها ووضْعه على ركبه فولند.

- «هذه هي حاشيتي كلها»، قال فولند منهيًا تقديمه وقطَّب حاجبيه إذ ضغطت غيلا بقوة خاصة على ركبته، «المجموعة كما ترين قليلة، مختلطة وبسيطة»، ثم صمت وأخذ يقلِّب أمامه المجسَّم المصنوع بمهارة بحيث كانت المحيطات الزرق تتحرَّك عليه والقبة على القطب تبدو حقيقية، متجمِّدة ومثلَّجة.

في هذه الأثناء كانت البلبلة تنتشر فوق رقعة الشطرنج، كان الملك الذي بلغ به الارتباك أشده يراوح بردائه الأبيض في المربع رافعًا يديه في يأس، وثلاثة من البيادق البيض المرتزقة حاملي الفؤوس المستطيلة ينظرون في حيرة إلى ضابط يلوح بسيفه الطويل ويشير إلى أمام حيث كان يرى في المربَّعين المتجاورين، الأبيض والأسود، فارسان أسودان من فرسان فولند على حصانين جامحين يحفران المربعين بحوافرهما.

وأثار اهتمام مرغريتا ودهشتها البالغين أن قطع الشطرنج كانت حيه.

رفع القط النظَّارة عن عينه ودفع مَلِكَه برفق من ظهره، فأخفى هذا وجهه بين يديه في يأس.

---

(1) طبيب وفليسوف إغريقي مات عام 160 قبل الميلاد. الناشر.

(2) كاتب عاش في الجزائر في القرن الخامس، أشهر أعماله «ساتيريكون». الناشر.

قال كوروفييف بصوت خافت ساخر: - «الأمر سيئ، أيها العزيز بيغيموت».

رد بيغيموت: - «الوضع خطير، لكنه غير ميؤوس منه إطلاقًا، زد على ذلك أني واثق تمامًا من النصر النهائي: يكفي أن نحلِّل الموقف بروية».

وراح يُجري تحليله هذا على نحو غريب إلى حدٍّ ما، وعلى وجه الضبط أخذ يفصِّل سحنًا ما ويغمز مَلِكَه.

قال كوروفييف ملاحظًا: - «لن ينفعك أي شيء».

صاح بيغيموت: - «أي، تطايرت الببغاوات كما تنبأت!».

وبالفعل سُمع في مكان ما في البعيد تصفيق أجنحة عديدة، واندفع كوروفييف وأزازيلو إلى الخارج.

- «ليأخذكم الشيطان أنتم وخزعبلات حفلاتكم الراقصة!». دمدم فولند دون أن يرفع عينيه عن المجسَّم أمامه.

ما إن اختفى كوروفييف وأزازيلو حتى اشتد غمز بيغيموت واتصل، وأخيرًا حزر الملك الأبيض ما يُراد منه، فنزع رداءه فجأة، وألقاه على المربع، وعدا هاربًا من رقعة الشطرنج، ألقى الضابط الرداء الملكي المرمي عليه، واتخذ مكان الملك وعاد كوروفييف وأزازيلو.

- «أكاذيب كالعادة»، دمدم أزازيلو وهو ينظر إلى بيغيموت شزرًا.

أجاب القط: - «تهيَّأ لي أني سمعت أصواتًا».

سأل فولند: - «أي، إلام سيستمر هذا؟ كش ملك بالشاه!».

قال القط: - «الأرجح أني أخطات السمع يا سيدي، ليس هناك شيء اسمه كش ملك بالشاه، ولا يمكن أن يكون شيء كهذا».

- «أكرِّر: كش ملك بالشاه».

رد القط بصوت مصطنع بشيء بالقلق: - «سيدي، لقد بلغ منك الإعياء أشده: ليس هناك شيء اسمه كش ملك بالشاه».

قال فولند دون أن ينظر إلى رقعة الشطرنج: - «الملك في المربع (ح - 2)».

أنَّ القط وهو يرسم علامات الذعر على سحنته: - «سيدي، الذعر يتملكني، لا وجود للملك على هذا المربع».

- «ما هذا؟». سأل فولند في ذهول وأخذ يحدِّق في الرقعة حيث كان الضابط الواقف في مربع الملك يشيح بوجهه ويغطيه بيده.

قال فولند في شرود: - «آه أيها النذل».

قال القط وهو يضم قائمتيه إلى صدره: - «سيدي! إني أحتكم مجدَّدًا إلى المنطق، إذا كان اللاعب يكشُّ الملك بالشاه بينما الملك غير موجود على رقعة الشطرنج إطلاقًا اعتبر الشاه باطلًا».

صرخ فولند بصوت رهيب: - «هل تستسلم أم لا؟».

- «اسمح لي بقليل من التفكير»، أجاب القط في استكانة، وأسند مرفقيه إلى الطاولة ودس أذنيه بين قائمتيه وأخذ يفكر، فكر القط طويلًا وقال أخيرًا: «أستسلمُ».

همس أزازيلو: - «القتل للسافل العنيد».

قال القط: - «لكني أستسلم، أستسلم، وما كنت لأستسلم إلا لأني لا أستطيع اللعب في هذا الجو من الاضطهاد الذي يخلقه الحاسدون!». ونهض فتسلَّلت قطع الشطرنج إلى علبتها.

- «حان الوقت يا غيلا»، قال فولند، وللحال اختفت غيلا من الغرفة، «لقد اشتد عليَّ ألم رجلي، وهناك فجأة هذه الحفلة الراقصة».

سألته مرغريتا بصوت خافت: - «هلا تسمح لي؟».

رنا فولند إلى مرغريتا متفحصًا وقرَّب إليها ركبته.

كان السائل الساخن كسائل بركاني يلسع يدي مرغريتا، لكن مرغريتا كانت تحاول، دون أن يتغضَّن لها وجه، ألا تسبِّب له ألمًا وهي تدلِّك ركبته.

وقال فولند دون أن يرفع عينيه عن مرغريتا:

- «يؤكِّد المقرَّبون أنه الروماتيزم، لكن يراودني شك كبير في أن ساحرة فاتنة تعرَّفتُ إليها عن كثب عام ألف وخمسمائة وواحد وسبعين في جبال بروكين في قِسم الدراسات الشيطانية هي التي تركت لي هذا الألم في ركبتي للذكرى».

قالت مرغريتا: - «آه، هل هذا معقول؟».

- «بسيطة، بعد ثلاثمائة عام أو نحو ذلك سيزول الألم، لقد نُصحتُ بتناول العديد من الأدوية، لكني لا زلت كما في القديم اتبع وسائل جدتي، لقد خلَّفَت لي العجوز النجسة جدتي أعشابًا مدهشة! وبالمناسبة قولي لي هل تتألمين من شيء؟ ترى هل تعانين من حزن يسمم لكِ حياتكِ أو من كآبة؟».

أجابت مرغريتا النبيهة: - «لا يا سيدي، لا أعاني شيئًا من هذا، والآن، أنا في ضيافتك، أشعر أني في حالة جيدة تمامًا».

قال فولند بصوت مرح دونما سبب ظاهر وأردف: - «الدم مسألة عظيمة، أرى أن مجسَّمي يثير اهتمامك».

- «طبعًا، طبعًا، فأنا لم أرَ في حياتي شيئًا كهذا».

- «إنه شيء جيد، فأنا، إذا شئتِ الصراحة، لا أحب أخبار الراديو، إذ تذيعها دائمًا فتيات يلفظن أسماء الأمكنة بطريقة غير مفهومة، بالإضافة إلى أن ثلثهن معقودات اللسان قليلًا، كأنما يتم اختيارهن هكذا عن قصد، وعلى هذا فمجسَّمي أريح وأنسب، لا سيما أنه تلزمني معرفة الأحداث بدقة، هل ترين مثلًا قطعة الأرض هذه التي يغسل المحيط جنبها؟ إنها الآن تطفح بالنار، لقد بدأت الحرب هناك، وإذا قرَّبتِ نظركِ، بإمكانكِ أن تري حتى التفاصيل الصغيرة».

انحنت مرغريتا فوق المجسَّم فرأت أن مربع الأرض اتسع وتلوَّن بألوان متعدِّدة وتحوَّل إلى ما يشبه خريطة نائتة، ثم رأت عليه شريط نهر وقربه بلدة أما البيت الذي كان بحجم الحمُّصة فقد كبر حتى صار بحجم علبة الكبريت، وفجأة ودون أي صوت تطاير سطح هذا البيت في عمود من الدخان الأسود وهوَت جدرانه بحيث لم تبقَ من العلبة ذات الطابقين إلا كومة جدّ صغيرة يتصاعد منها دخان أسود، وقرَّبت مرغريتا عينها أكثر فتبيَّنت شكلًا نسائيًا صغيرًا مطروحًا على الأرض وإلى جانبه طفل صغير مبسوط اليدين في بركة من الدم.

قال فولند وهو يبتسم: - انتهى كل شيء، لم يتسنَّ له الوقت حتى يخطئ، عمل أبادونا لا غبار عليه».

قالت مرغريتا: - «ليس بودي أن أكون إلى الجانب الذي يقف أبادونا ضده، لكنه إلى جانب من؟».

ردَّ فولند بلطف: - «بقدر ما أسترسل في الحديث معك، أزداد اقتناعًا بذكائك البالغ، وسأطمئنك على الفور، إنه نادر المثال من حيث عدم تحيزه، ولهذا فهو يتعاطف مع الجانبين المتحاربين بشكل متساوٍ، وعلى هذا تكون النتائج بالنسبة للجانبين مساوية دائمًا، أبادونا!»، نادى فولند بصوت غير عالٍ، فظهرت من الجدار على الفور هيئة شخص نحيل يضع نظارتين سوداوين، ولسبب ما أحدثت هاتان النظارتان في قلب مرغريتا تأثيرًا قويًا بحيث أطلقت صرخة خافتة ودسَّت وجهها في رجل فولند. صاح فولند: - «ألا هدأتِ، ما أشدُّ توتر أعصاب الناس في هذه الأيام!»، وربَّت بقوة على ظهر مرغريتا بحيث ندَّ عن جسدها كله رنين، «ألا ترين أنه يضع نظارات! ثم إنه لم يحدث أبدًا أن ظهر أبادونا أمام أي كان قبل الأوان ولن يحدث، ثم إني، أخيرًا، هنا، وأنتِ في ضيافتي! أردت فقط أن أريكِ!».

كان أبادونا يقف دون حراك.

- «هل من الممكن أن يخلع نظارتيه لثانية؟». سألت مرغريتا وهي تلتصق بفولند وترتعش إنما من الفضول هذه المرة.

- «هذا بالذات أمر غير ممكن»، أجاب فولند برزانة ولوَّح بيده لأبادونا الذي اختفى على الفور، «ماذا تريد أن تقول يا أزازيلو؟».

- «اسمح لي يا سيدي أن أقول لك إن عندنا غريبين: غادة حسناء، تنشج وتتوسَّل أن ندعها مع سيدتها، ومعها، وأرجو المعذرة، خنزيرها».

لاحظ فولند: - «الحسناوات يتصرَّفن تصرفات غريبة».

صاحت مرغريتا: - «إنها ناتاشا، ناتاشا».

- «حسنًا، دعها مع سيدتها، أما الخنزير، فإلى الطباخين!».

صاحت مرغريتا مذعورة: - «للذبح؟ حنانك يا سيدي، إنه نيقولاي إيفانوفتش، جارنا في الطابق السفلي، لقد حدث خطأ، فقد طلته بالدهان».

قال فولند: - «عفوك، من فكَّر في ذبحه ولماذا نذبحه؟ ليجلس مع الطباخين، هذا كل ما في الأمر! فأنا لا أستطيع، كما لا بد تدركين، السماح له بدخول قاعة الاحتفال!».

- «طبعًا...». أردف أزازيلو ثم أعلن: «منتصف الليل يقترب يا سيدي».

- «آه، حسنًا»، قال فولند ثم توجه بالكلام إلى مرغريتا يقول: «تفضلي إذن! وأشكرك سلفًا، لا تنذهلي ولا تخافي شيئًا، لا تشربي إلا الماء وإلا أصابك الاسترخاء والوهن وساءت حالك، آن الأوان!».

نهضت مرغريتا عن السجادة، وهنا برز كوروفييف في الباب فجأة.

## الفصل الثالث والعشرون

# حفلة رقص كبرى عند الشيطان

كان منتصف الليل يقترب، وكان عليهم أن يستعجلوا، ولم تكن مرغريتا ترى الأشياء، إن رأتها، إلا بشكل غائم، وتذكر مرغريتا في ما تذكر شموعًا وحوضًا من حجر كريم، ولما صارت مرغريتا في قاع هذا الحوض صبّت عليها غيلا وناتاشا التي كانت تساعدها سائلًا ساخنًا كثيفًا وأحمر، أحسّت مرغريتا بطعم مالح على شفتيها وأدركت أنهما تغسلانها بالدم، وأبدل بالرداء الدموي رداءٌ آخر كثيفًا شفّافًا ورديًا فشعرت مرغريتا، من عطر الورد، بدوار في رأسها، ثم أُلقيت مرغريتا على مخدع بلّوري وأخذت تدلّك حتى درجة اللمعان بأوراق خضر كبيرة، وهنا انسل القط وأخذ يساعدهما، جلس القرفصاء عند قدمي مرغريتا وأخذ يدلّك كعبيها وكأنه يدهن جزمة على قارعة الطريق، ولم تعد مرغريتا تذكر من الذي صنع لها من بتلات الوردة الشاحبة حذاء، ولا كيف شُدَّ هذا الحذاء تلقائيًا بإبزيم ذهبي، وجذبت قوة خفية مرغريتا ووضعتها أمام المرآة، فلمع في شعرها تاج ملكي من الماس وظهر كوروفييف من مكان ما، وعلّق على صدر مرغريتا صورة كلب بودل أسود في إطار بيضوي الشكل، مربوط بسلسلة ثقيلة، أثقلتْ هذه الزينة على مرغريتا، إذ أخذت السلسلة تعقر رقبتها وعنقها، والصورة تحني قامتها، لكن شيئًا آخر عوّض مرغريتا عن كل هذه المنغصات التي سببتها السلسة والكلب الأسود؛ الاحترام الكبير الذي أخذ كوروفييف وبيغيموت يعاملانها به.

غمغم كوروفييف عند باب الغرفة ذات الحوض: - «بسيطة، بسيطة، بسيطة! لا مفر من ذلك، لازم، لازم، لازم. واسمحي لي أيتها الملكة أن أسدي لكِ نصيحة أخيرة، ضيوفنا متنوّعون، آه ما أشد تنوعهم، لكن إياك، أيتها الملكة مارغو، وتفضيل أحدهم على الآخر! وإذا لم يعجبك أحد... أدرك جيدًا أنكِ لن تُظهري بطبيعة الحال هذا على

وجهك... لا، لا، حتى التفكير في هذا غير جائز، سيلاحظ في اللحظة عينها، عليكِ أن تحبيه، أن تحبيه أيتها الملكة، وسيعود هذا على سيدة الحفلة بأعظم النفع! وشيء آخر: لا تغفلي أحدًا حتى بابتسامة صغيرة، وإذا لم يكن لديكِ وقت لتبادل كلمة فأقلّه التفاتة طفيفة! أي شيء يحلو لكِ إلا عدم الاكتراث، فهذا يسقمهم ويضنيهم...».

وهنا خطت مرغريتا برفقة كوروفييف وبيغيموت من غرفة الحوض إلى ظلمة دامسة.

همس القط: - «أنا، أنا، أنا سأعطي الإشارة».

أجاب كوروفييف في العتمة: - «هيا».

- «الحفلة الراقصة!»، أزَّ القط أزيزًا حادًا فأطلقت مرغريتا على الفور صرخة، وأغمضت عينها عدَّة ثوانٍ، سقطت الحفلة عليها فورًا في شكل نور، ومع النور صوت ورائحة، ورأت مرغريتا، التي كان كوروفييف يتأبَّط ذراعها، نفسها في غابة استوائية، كانت الببغاوات ذات الصدور الحمر والذيول الخضر تتشبَّث بالنباتات المتسلِّقة وتنطُّ عليها وتصرخ بصوت داوٍ: «كم أنا معجبة!» لكن الغابة انتهت بسرعة، وللحال اختفى جوها الخانق الأشبه بجو الحمَّام وحلَّت محله برودة قاعة الحفلة ذات الأعمدة المصنوعة من حجر لمَّاع ضارب إلى الصُّفرة، وكانت هذه القاعة كالغابة خالية تمامًا إلا من زنوج عراة يقفون عند الأعمدة دون حراك، معصوبي الرؤوس بعصابات فضية، وغشيت وجوههم المنفعلة سمرة داكنة رمادية حين دخلت القاعة طائرة مرغريتا وحاشيتها التي انضم إليها في مكان ما أزازيلو، وهنا ترك كوروفييف ذراع مرغريتا وهمس:

- «على السوسن مباشرة!».

وانتصب أمام مرغريتا جدار غير عالٍ من السوسن الأبيض، ورأت مرغريتا خلف الجدار أنوارًا لا عدَّ لها في أباجورات صغيرة وأمامها أناس يرتدون الفراك بصدورهم البيض وأكتافهم السود، إذاك أدركت مرغريتا مصدر أصوات الحفلة، انهال عليها هدير الأبواق كما انصبَّ عليها صوت الكمانات المنطلق من تحت هذا الهدير كأنه الدم، كانت الأوركسترا المكوَّنة من نحو مائة وخمسين شخصًا تعزف البولونيز.

لمَّا رأى الشخص ذو الفراك المنتصب عاليًا أمام الاوركسترا مرغريتا شحب لونه وابتسم، وبتلويحه مفاجئة من يده أنهض الأوركسترا كلها. وظلَّت الأوركسترا، وهي واقفة، تغمر مرغريتا بالألحان دون أن تنقطع الموسيقى لحظة واحدة، وأدار الرجل المنتصب فوق الأوركسترا ظهره للعازفين ورسم انحناءة عميقة باسطًا يديه على اتساعهما فلوَّحت له مرغريتا بيدها مبتسمة.

همس كوروفييف: - «لا، هذا لا يكفي، لا يكفي، لن ينام طول الليل، اهتفي له: «أُحييك يا ملك الفالس!». وهتفت له مرغريتا بما قاله لها كوروفييف ودهشت لصوتها الملآن كصوت الجرس يعلو على عواء الأوركسترا، ارتعش الرجل من سعادته، ووضع يده اليسرى على صدره، بينما استمر يلوِّح بعصاه البيضاء للاوركسترا بيمناه.

همس كوروفييف: - «لا يكفي، لا يكفي، انظري إلى اليسار، إلى عازفي الكمان الأوائل وأومئي بحيث يحس كل واحد منهم أنك عرفته شخصيًا، فليس هنا إلا أشهر عازفي العالم، أومئي إلى هذا الذي خلف المنصة الأولى؛ إنه فييتان، هكذا، ممتاز، تابعي الآن».

سألت مرغريتا وهي تبتعد في الهواء: - «من قائد الأوركسترا؟».

صاح القط: - «يوهان شتراوس، ولأعلَّق من رقبتي في الحديقة الاستوائية على نباتات متسلقة إن عزفت في أي حفلة وفي أي وقت أوركسترا مثل هذه الأوركسترا! أنا الذي دعوته! ولاحظوا أن أحدًا منهم لم يمرض ولم يرفض».

ولم تكن في القاعة التالية أعمدة، بل ارتفعت مكانها جدران من الورود الحمر والوردية والبيض بياض الحليب من جهة، وجدار من الكاميليا اليابانية من جهة أخرى، وبين الجدران كانت الفسقيات تتدفَّق بالماء المسقسق، والشامبانيا تفور فقاعات في ثلاثة أحواض أولها بنفسجي شفَّاف، وثانيها من الياقوت الأحمر وثالثها بلَّوري، وكان زنوج في عصابات حمر قانية يغدون إلى جانبها ويملؤون بمغارفهم الفضية كؤوسًا مسطحة من الأحواض، وتبيَّن لها في جدار من الورود شق، وعلى المسرح الذي في الشق شخص بفراك أحمر له ذيل كذيل السنونو يرغي ويزبد، وأمامه يدوِّي جاز دويًا لا يطاق، وما إن رأى قائد الجاز مرغريتا حتى تقوَّس ظهره ومسَّت يداه الأرض، ثم انتصب وصاح بصوت ثاقب:

- «هلّلويا!».

وضرب على ركبته مرة، وعلى ركبته الأخرى مرة أخرى بحيث تصالبت يداه، وخطف من يدي العازف الذي على طرف صنجًا وضرب به العمود.

وجل ما رأته مرغريتا وهي تبتعد في الهواء أن قائد الجاز البارع الذي كان ينازل البولونيز[1] التي كانت تشتعل خلف ظهر مرغريتا، كان يهوي بالصنج على رؤوس عازفي الجاز، وأن هؤلاء يثنون أرجلهم في ذعر مصطَنع يبعث على الضحك.

وأخيرًا خرجوا طائرين إلى البسطة حيث كان كوروفييف قد استقبلها في الظلام

---

(1) رقصة بولندية الأصل. الناشر.

وهو حامل قنديله كما حدست، كان النور المتدفِّق من عناقيد العنب البلَّورية يعمي الآن الأبصار على هذه البسطة. كانت مرغريتا في مكان ما سرعان ما تبين لها أن تحت يدها اليسرى عمودًا واطئًا من الجمشت.

همس كوروفييف: - «بوسعك وضع يدك على العمود إذا ساءت حالتك كثيرًا».

وألقى شخص ما أسود البشرة وسادة مطرَّزة بكلب ذهبي تحت قدمي مرغريتا، فثنت ركبتها ووضعت قدمها اليمنى على الوسادة منصاعة لأيدٍ لم تتبينها. حاولت مرغريتا تفحُّص ما حولها، فرأت كوروفييف وأزازيلو منتصبين إلى جانبها في وضع استعراضي، والى جانب أزازيلو ثلاثة شبان ذكَّرها شيء ما فيهم تذكيرًا غامضًا بأبادونا، وشعرت مرغريتا ببرودة تلسع ظهرها، التفتت فرأت خمرة تتدفَّق من الجدار المرمري الذي خلفها في نشيش، وتصب في حوض متجمِّد وأحسَّت مرغريتا بشيء دافئ وكث الشعر عند قدمها اليسرى؛ كان هذا بيغيموت.

كانت مرغريتا تقف في موضع عالٍ، وكان يمتد من تحت قدميها إلى الأسفل درج ضخم فخم مفروش بالسجاد، وفي الأسفل، الذي بدا لمرغريتا بعيدًا جدًا كأنما كانت تنظر على نحو مقلوب بالمنظار، رأت غرفة البوَّابين الهائلة بموقدها الهائل الحجم الذي تستطيع شاحنة بحمولة خمسة أطنان ولوج شدقه الأسود البارد بكل يسر، كان الدرج وغرفة البوَّابين مغمورَيْن بضوء يؤلم العينين خاليين، وكانت الأبواق تتناهى إلى سمع مرغريتا من بعيد الآن، وهكذا ظلّوا دون حراك نحو الدقيقة.

سألت مرغريتا كوروفييف: - «لكن أين الضيوف؟».

- «سيحضرون أيتها الملكة، سيحضرون للحال، ولن يكونوا بالقليلين، والحق أفضِّل قطع الخشب على استقبالهم على البسطة هنا».

تلقَّف القط المهذار الكلام: - «قطع الخشب أمر يسير، أما أنا فعلى استعداد لأن أعمل جابيًا في ترام، فليس في العالم كله أسوأ من هذا العمل».

قال كوروفييف وعينه تلمع من خلال نظارته المشقَّقة: - «يجب أن يجهز كل شيء قبل الوقت، أيتها الملكة، فليس ما هو أسوأ من وضع الضيف الذي يصل قبل غيره، ويأخذ يسعى هنا وهناك وهو لا يدري ماذا يفعل، بينما تأخذ زوجته الشرعية الشريرة في تقريعه همسًا على وصولهما قبل الآخرين، أن حفلات كهذه يجب رميها في بالوعة القاذورات أيتها الملكة».

قال القط مثنيًا: - «في بالوعة القاذورات بالتحديد».

أردف كوروفييف: - «لم يبقَ حتى منتصف الليل إلا أكثر من عشر ثوانٍ، حان الافتتاح.

بدت هذه الثواني العشر طويلة جدًا لمرغريتا، ولعلتها انقضت ولم يحدث شيء، وفجأة دوّى شيء ما في الموقد الضخم في الأسفل وانسلّت منه مشنقة يتأرجح عليها جثمان نصف متفتّت، وأفلت هذا الجثمان من المشنقة وهوى على الأرض، فوثب منه للحال شخص وسيم أسود الشعر يرتدي فراكًا وينتعل حذاءً لمّاعًا، وعدا من الموقد تابوت صغير نصف متعفّن، فطار غطاؤه وخرج منه جثمان آخر، وهرول الرجل الطلعة إلى الجثمان في تأدُّب وكياسة ومد إليه يده ليتأبّطها، فاستحال الجثمان الثاني امرأة عارية حَرِكَة تنتعل حذاءً أسود وتضع ريشًا أسود على رأسها، وأسرع الاثنان، الرجل والمرأة، يصعدان الدرج.

هتف كوروفييف: - «إنهما أول القادمين، السيد جاك وزوجته، أقدِّم إليكِ أيتها الملكة واحدًا من أكثر الرجال إثارة! مزيِّف نقود عنيد، وخائن، لكنه خيمياوي[1]، لا بأس به»، وأردف كوروفييف يهمس في أذن مرغريتا، «اشتهر بأنه دس السم لعشيقة الملك، وهذا لا يحدث لأي كان! انظري ما أوسمه».

كانت مرغريتا التي شحب لونها تتطلّع إلى الأسفل فاغرة الفم وقد رأت المشنقة والتابوت يختفيان في باب جانبي من غرفة البوّابين.

- «إني أحد المعجبين بك كل الإعجاب»، صرخ القط في وجه السيد جاك الذي كان يصعد الدرج.

في هذا الوقت بدا خارجًا من الموقد في الأسفل هيكل إنساني مبتور الرأس واليد، وسقط على الأرض واستحال إلى رجل في فراك.

كانت زوجة السيد جاك تجثو الآن على ركبتها أمام مرغريتا وتقبّل ركبتها وهي شاحبة الوجه من الاضطراب.

غمغمت زوجة السيد جاك: - «أيتها الملكة».

هتف كوروفييف: - «الملكة معجبة بكِ كل الإعجاب».

قال الرجل الوسيم السيد جاك بصوت منخفض: - «أيتها الملكة...».

عوى القط: - «نحن معجبون بك كل الإعجاب».

كان الشبان مرافقو أزازيلو يدفعون الآن جانبًا السيد جاك وزوجته إلى حيث كؤوس الشامبانيا التي يمسكها الزنوج في أيديهم وهم يبتسمون ابتسامات لا حياة فيها إنما ودودة، وكان يصعد الدرج عدوًا رجل وحيد يلبس الفراك.

(1) مشتغل بالكيمياء القديمة. المترجم.

همس كوروفييف لمرغريتا: - «الكونت روبرت، لا زال مثيرًا للاهتمام كما في السابق، أرجو أن ألفت نظرك أيتها الملكة إلى أمر مضحك: نحن هنا أمام حالة عكسية: هذا الكونت كان عشيق الملكة ودسَّ السم لزوجته».

صاح بيغيموت: - «يسرنا حضورك، يا كونت».

وخرجت من الموقد الواحد إثر الآخر ثلاثة توابيت وهي تتمزَّق وتنفتح، ثم خرج في إثرها شخص ما في رداء أسود طعنه شخص تلاه خارجًا من الشدق الأسود بسكين في ظهره، وسمعت في الأسفل صرخة مكتومة، وهرول من الموقد جثمان متفسِّخ تمامًا. أغمضت مرغريتا عينيها، فإذا بيد تمتد إلى أنفها بزجاجة ملح أبيض، بدا لمرغريتا أن هذه يد ناتاشا، وأخذ الدرج يغصّ بالوافدين وعلى كل درجة من درجاته رجال بالفراك يبدون من بُعد متشابهين كل الشبه ومعهم نساء عاريات لا تتميَّز الواحدة منهنّ عن الأخرى إلا بلون الريش على رأسها ولون حذائها.

واقتربت من مرغريتا سيدة تلبس جزمة خشبية غريبة في رجلها اليسرى، تسير متعثِّرة في مشتيها، ذات عينين مسبلتين على طريقة الراهبات، نحيلة، متواضعة تربط لأمر ما عنقها بعصابة خضراء عريضة.

سألت مرغريتا آليًا: - «من هذه الخضراء؟».

همس كوروفييف: - «إنها واحدة من أعظم السيدات سحرًا وشأنًا، اسمحي لي أن أقدمها لكِ: السيدة توفانا، كانت لها شهرة خارقة في أوساط صبايا نابولي الفاتنات، وكذلك بين نساء باليرمو ولا سيما اللواتي ضقن بأزواجهن، فقد يحدث، أيتها الملكة، أن تضيق المرأة بزوجها».

- «نعم»، أجابت مرغريتا بصوت هامس وهي تبتسم في آنٍ لاثنين من أصحاب الفراكات كانا ينحنيان الواحد إثر الآخر أمامها ويقبّلان ركبتها ويدها.

- «نعم هكذا إذن...»، تمكّن كوروفييف عن الهمس لمرغريتا والصياح في الوقت نفسه لأحدهم: «يا حضرة الدوق، كأس شمبانيا! لك إعجابي! هكذا إذن كانت السيدة توفانا تتعاطف مع النساء التعسات وتبيعهن الماء في زجاجات، وكانت الزوجة تسكب من هذا الماء في حساء زوجها، فكان هذا يتناول حساءه ويشكر زوجته على لطفها وهو على خير ما يرام، والحقيقة أنه ما كانت تمر عدة ساعات حتى يشعر الزوج بعطش شديد، فيستلقي في سريره وما هو إلا يوم حتى تكون النابولونية الحسناء التي أطعمت زوجها الحساء حرَّة طليقة كنسمة الربيع».

- «وما الذي في قدمها؟». سألت مرغريتا وهي لا تنفك تقدِّم يدها للضيوف

اللاحقين بالسيدة توفانا التي تعرج، «ولماذا هذا الاخضرار في عنقها؟ أليس عنقها كامدًا؟».

- «لك إعجابي، أيها الأمير!»، هتف كوروفييف وهمس في الوقت نفسه لمرغريتا: «عنق رائع لكنها أصيبت بمكروه في السجن. ووضع في قدمها، أيتها الملكة، جزمة إسبانية[1]، أمّا الشريط فإليك السبب: عندما عرف السجّانون أن نحو خمسمائة رجل من الأزواج الذين أسيء اختيارهم غادروا نابولي وباليرمو إلى الأبد، خنقوا في سورة غضبهم السيدة توفانا في السجن».

همست توفانا كالراهبات وهي تحاول الركوع على ركبتها لكن الجزمة الإسبانية كانت تضايقها، فساعدهما كوروفييف وبيغيموت على النهوض: - «ما أسعدني أيتها الملكة السوداء أن يُتاح لي هذا الشرف الرفيع».

أجابتها مرغريتا وهي تمد يدها لآخرين: - «وأنا في غاية السرور».

كان تيار من الناس يصعد الدرج، ولم تعد مرغريتا ترى ما يجري في غرفة البوّابين، كانت ترفع يدها وتخفضها بصورة آلية وتبتسم للضيوف كاشفة بصورة رتيبة عن أسنانها. كان يخيّم على جو البسطة هدير، ومن قاعات الرقص التي غادرتها مرغريتا كانت تُسمع موسيقى وكأنها مأخوذة من صوت البحر.

لم يهمس كوروفييف، بل تكلّم بصوت عالٍ ليقينه أن أحدًا لن يسمعه في هذا الهدير،- «أمّا هذه، فامرأة مملّة، إنها تعبد حفلات الرقص ولا تزال تشكو بسبب منديلها».

والتقطت مرغريتا بعينها بين الصاعدين تلك التي أشار إليها كوروفييف، كانت امرأة شابة في نحو العشرين من عمرها ذات قوام خارق الجمال، إنما كانت عيناها قلقتين لجوجتين.

سألت مرغريتا: - «أي منديل هذا؟».

قال كوروفييف موضحًا: - «عُينت لها خادمة، وها هي ذي منذ ثلاثين سنة تضع لها المنديل على المنضدة أثناء الليل، وما إن تصحو، حتى يكون المنديل جاهزًا، ولقد أحرقته في الموقد ورمته في النهر، لكن هذا لم ينفعها».

همست مرغريتا وهي ترفع يدها وتخفضها: - «أي منديل؟».

- «المنديل ذو الكنار الأزرق، القصة أنها، حين كانت تعمل في المقهى، ناداها صاحب المقهى في المستودع، وبعد تسعة أشهر ولدت غلامًا فمضت به إلى الغابة

(1) إحدى أدوات التعذيب. المترجم.

وحَشَتْ فمه بمنديل ودفنته في التراب، وقالت في المحكمة إنه لم يكن لديها ما تطعم به وليدها».

سألت مرغريتا: - «وأين صاحب هذا المقهى؟».

صرَّ القط من تحت: - «أيتها الملكة، اسمحي لي أن أسالك ما شأن صاحب المقهى هنا؟ فهو لم يخنق الطفل في الغابة!».

غرزت مرغريتا أظافر يسراها الحادة في أذن بيغيمون، دون أن تتوقَّف عن الابتسام وتحريك يمناها، وهمست تقول له:

- «إذا سمحت لنفسك بالتدخُّل مرة أخرى في الحديث أيها الوغد...».

ماءَ بيغيموت بطريقة لا تتناسب وجو الحفلة الراقصة وقال بصوت أجشّ:

- «أيتها الملكة... ستتورَّم أذني... لماذا نفسد الحفلة بإذن متورِّمة؟.. كنت أتكلَّم قانونيًا، ومن وجهة نظر القانون فقط... سأخرس سأخرس... احسبي أني لست قطًا بل سمكة... إنما دعي أذني...».

أفلتت مرغريتا أذنه، فإذا بالعينين اللجوجتين المغمومتين أمامها.

- «إني لسعيدة، أيتها الملكة سيدة الحفل، أن أكون من المدعّين إلى الحفلة الكبرى المقامة بمناسبة اكتمال البدر».

أجابتها مرغريتا: - «وأنا مسرورة برؤيتك. مسرورة جدًا. هل تحبين الشمبانيا؟».

- «ما الذي تتفضلين بفعله أيتها الملكة»، صاح كوروفييف بصوت يائس إنما غير مسموع في أذن مرغريتا، «سيحصل توقُّف بسبب الازدحام».

- «أحبها»، قالت المرأة بضراعة، وفجأة راحت تردِّد بشكل آلي: «فريدا، فريدا، فريدا! اسمي فريدا أيتها الملكة».

قالت مرغريتا: - «اشربي اليوم حتى تسكري يا فريدا ولا تفكري في شيء».

مدت فريدا كلتا يديها إلى مرغريتا، لكن كوروفييف وبيغيموت أمسكاها برشاقة خارقة من ذراعيها وامَّحت بين الجمهور.

كان المدعوون يتدفَّقون من الأسفل صفوفًا وكأنهم يهاجمون البسطة التي تقف فيها مرغريتا، كانت الأجساد النسائية العارية تصعد بين رجال بفراكات، وكانت تغمر مرغريتا أجساد سمر وبيض وسود وبلون حب البن، وفي الشعور الصُّهب والسود والكستنائية والشقر كالكتَّان وفي انهمار الضوء كانت الأحجار الكريمة تتلألأ ويتراقص شررها، وكانت الأزرار الماسية تلمع نورًا على الصدور لكأن أحدهم رش

صفوف الرجال المهاجمة بقطرات من الضوء، كانت مرغريتا تحس في كل ثانية الآن بلمسة الشفاه على ركبتها، وتمد في كل ثانية يدها إلى الأمام للتقبيل، وقد شُد وجهها بقناع تحية جامد.

كان القط يهتف وراءها: - «لك إعجابي».

- «الماركيزة قتلت أباها وأخويها وأختيها بالسم بسبب الإرث!»، غمغم كوروفييف. «لكِ إعجاب الملكة! السيدة مينكينا، آه، ما أجملها، لكنها عصبية قليلًا، ماذا دهاها حتى أحرقت وجه خادمتها بمكواة الشعر! طبعًا، في ظروف كهذه قد يحدث ذبح! لكِ إعجاب الملكة! لحظة أيتها الملكة انتباه: الإمبراطور رودولف ساحر وخيميائي، خيميائي آخر شُنق... آه، ها هي ذي! يا للماخور الرائع الذي أقامته في ستراسبورغ! لكِ إعجابنا، الخياطة الموسكوفية، نحن جميعًا نحبها لخيالها الذي لا ينفد، كانت تدير دار أزياء وفكّرت في أمر مضحك بشكل غريب: ثقبت ثقبين صغيرين مدوَّرين في الجدار...».

سألت مرغريتا: - «وكانت السيدات يعلمن بهذا الأمر؟».

أجاب كوروفييف: - «كلهن دون استثناء كن يعرفن، لكِ إعجابي، وهذا الشاب ابن العشرين تميَّز بنزواته الغريبة منذ صباه، كان حالمًا وغريب الأطوار، ولقد أحبته إحدى الفتيات فباعها لبيت دعارة».

كان النهر يتدفَّق من الأسفل، ولم تكن تُرى لهذا النهر نهاية، إذ كان نبعه الذي هو الموقد الضخم لا ينفك يغذيه، مرت ساعة على هذا المنوال وأعقبتها ساعة أخرى، وهنا أخذت مرغريتا تلاحظ أن سلسلتها أضحت أثقل مما كانت، وأن شيئًا ما غريبًا حدث ليدها أيضًا، فقبل أن ترفعها ارتسمت على وجه مرغريتا سمات الألم. لم تعد ملاحظات كوروفييف الطريفة تسلِّي مرغريتا، وغابت الفروق بين الوجوه المنغولية الحولاء العيون والوجوه السود والبيض إذ كانت تذوب في بعضها بعضًا أحيانًا، وصار الهواء بينها لسبب ما يهتزّ ويتدفَّق. وخز ألم حاد يد مرغريتا اليمنى فجأة كأنه وخز إبرة، فأطبقت أسنانها ووضعت مرفقها على منضدة، وتناهى إليها من القاعة التي خلفها حفيف كما لو أنه صادر عن ارتطام أجنحة بجدران، فأدركت أن جحافل المدعوين التي لم يُسمع بمثلها من قبل ترقص، وبدا لمرغريتا أنه حتى الأرض المرمرية والفسيفسائية والبلَّورية في هذه القاعة الغريبة تهتزّ اهتزازات منتظمة.

لم يعد يعني مرغريتا شيء من أمر غايوس قيصر كاليغولا[1] ولا ميسالينا[2]، كما لم يعد يعنيها شيء من أمر الملوك والدوقات والفرسان والمنتحرين وداسَّات السموم والمشنوقين والقوَّادات والسجانين والمحتالين في القمار والجلادين والمخبرين والخونة والمجانين والوشاة ومفسدي الأخلاق العامة، اختلطت أسماؤهم كلها في رأسها، وذابت الوجوه كلها في جبلة واحدة ضخمة، ولم يستقر في ذاكرتها على نحو موجع إلا وجه مالوتا سكوراتوف المطوَّق فعلًا بلحية نارية. كانت رجلا مرغريتا تتقصَّفان، وكانت تخشى أن تنهمر دموعها في أي دقيقة، وكانت أفدح الآلام تلك التي كانت تعانيها من ركبتها اليمنى التي كانوا يلثمونها، فقد انتفخت وازرقّ جلدها على الرغم من أن يد ناتاشا ظهرت عدة مرات قرب هذه الركبة وهي تمسك إسفنجه وتمسحها بشيء ما زكيّ الرائحة، ومع انقضاء الساعة الثالثة تطلّعت مرغريتا إلى الأسفل بعينين غاض فيهما الأمل تمامًا واهتزت جذلى: كان سيل الضيوف ينحسر.

همس كوروفييف: - «قوانين حفلات الرقص واحدة، أيتها الملكة، الآن ستبدأ الموجة بالهبوط، أؤكد لكِ أننا في الدقائق الأخيرة من هذا العذاب، ها هي ذي جماعة من عربيدي بروكن، إنهم دائمًا آخر الواصلين، نعم، إنهم هم بالذات، مصّاصا دماء سكيران، فقط؟ آه، لا، هناك شخص أخر، لا اثنان فقط».

كان آخر المَدعوّين يصعدان الدرج.

قال كوروفييف وهو يزرّ عينه من وراء بلَّور نظارته: - «ومن هذا الجديد؟ آه، نعم، نعم، لقد زاره أزازيلو مرة، وعلى كأس من الكونياك نصحه بطريقة يتخلّص بها من شخص كان يخشى كثيرًا أن يفضحه، وكان أن نصح أحد معارفه التابعين له أن يرش جدران المكتب بالسم».

سألت مرغريتا: - «وما اسمه؟».

أجاب كوروفييف: - «آه، الحقيقة أني أنا نفسي لا أعرف حتى الآن، ينبغي أن نسأل أزازيلو».

- «ومن الذي معه؟».

- «إنه أكثر تابعيه إخلاصًا واستعدادًا لتنفيذ أوامره». صرخ كوروفييف لآخر الصاعدين: «لكما إعجابي!».

---

(1) طاغية حكم روما ومات عام 41. الناشر.

(2) زوجة الامبراطور كلوديوس الثالثة، ارتبط اسمها تاريخيا بالفحش والفجور. أعدمها زوجها عام 48 لتآمرها عليه. الناشر.

خلا الدرج، فانتظروا قليلًا من قبيل الحيطة، لكن أحدًا لم يخرج من الموقد.

وفي خلال ثانية، ودون أن تدري كيف حدث هذا، وجدت مرغريتا نفسها في تلك الغرفة إياها ذات الحوض، وهناك انخرطت فورًا في البكاء من ألم يدها ورجلها وتهالكت على الأرض، لكن غيلا وناتاشا سحبتاها من جديد إلى تحت دوش الدم وهما تواسيانها، ودلكتا جسمها من جديد فدبت فيها الحياة ثانية.

همس كوروفييف الذي ظهر فجأة إلى جانبها: - «علينا أيضًا، أيتها الملكة مارغو أن نطوف القاعات كلها كي لا يشعر الضيوف أنهم أهملوا».

وحلّقت مرغريتا خارجة من الغرفة ذات الحوض، كانت فرقة جاز مؤلفة من القرود قد جُنّ جنونها تعزف الآن في المكان الذي كانت أوركسترا ملك الفالس تعزف فيه، أي على المسرح الذي وراء السوسن، وكانت غوريلا ضخمة ذات فودين أشعثين تحمل بوقًا في يدها تقود الفرقة وهي تتراقص في تثاقل، وفي صف واحد جلس أناس من سكان الغابات ينفخون في أبواق لامعة، وقد اعتلت أكتافهم قرود شامبانزية مرحة تعزف بالهارمونيكا، وكان اثنان من قردة الهامادريلا بلبدتيهما اللتين تشبهان لبدة الأسد يعزفان على البيانو، لكن صوت البيانوهات كان يضيع في قصف وأزيز ودويّ السكسوفونات والطبول التي في قوائم الغبونات والسندريلات والقشش[1]، وعلى أرض القاعة البلّورية كانت أعداد لا تحصى من الأزواج، بدت وكأنها اندمجت بعضها في بعض، تدور في خفة ودقة تبعثان على الدهشة في اتجاه واحد كأنها جدار مرصوص مهدِّدة بسحق كل ما يعترض سبيلها، وكانت فراشات لامعة حية تغوص وتطفو فوق رؤوس الجحافل الراقصة، والزهور تتساقط متناثرة من السقف. وحيث كانت الكهرباء تنطفئ كانت تيجان الأعمدة تشتعل بآلاف مؤلفة من الحباحب ويموج الهواء بأضواء مستنقعيّة.

ثم وجدت مرغريتا نفسها في حوض هائل الأبعاد محاط بأعمدة، كان تمثال نبتون أسود عملاق يقذف من شدقه تيارًا ورديًا عريضًا، ومن الحوض تنبعث رائحة شمبانيا مخدِّرة، هنا كان يسود لهوٌ لا كلفة فيه، كانت السيدات ينزعن أحذيتهن ويناولن حقائبهن اليدوية لمرافقيهن أو الزنوج الساعين حولهن والمناشف في أيديهم وهن يتضاحكن ويقذفن بأنفسهن في الحوض وأيديهن ممدودة إلى الأمام متصايحات فتتصاعد من الحوض أعمدة من الزبد، وكان قاع الحوض البلّوري يضيء بنور سفلي يخترق كثافة الخمر فتبدو فيه الأجسام الفضية العائمة، وكن يثبن من الحوض وهن ثمِلات تمامًا، وكانت قهقهاتهن ترن وتدوّي تحت الأعمدة كما في حمّام.

---

(1) كل ما سبق أسماء لأنواع من القرود. الناشر.

ووسط هذا الهرج والمرج لم يعلق في ذاكرة مرغريتا إلا وجه نسائي ثمل تمامًا ذو عينين فارغتين من أي معني، لكنهما في فراغهما ضارعتان، وتذكَّرت كلمة واحدة: «فريدا!». أخذ رأس مرغريتا يدور من رائحة الخمر، وأرادت أن تغادر حين بدا القط في الحوض، فقرة استوقفت مرغريتا، كان بيغيموت يباشر حركات سحر عند شدق نبتون، وللحال انسحبت كتلة الشمبانيا في نشيش وجلبة من الحوض، بينما أخذ نبتون يقيء موجة ذات لون أصفر قاتم، ولم تكن تلك الموجة بالمتلألئة ولا بالراغية، وأطلقت السيدات زعيقًا وولولة:

- «كونياك!». واندفعن عن حوافي الحوض يختبئن خلف الأعمدة.

وفي ثوانٍ امتلأ الحوض، فانقلب القط في الهواء ثلاث قلبات وهوى في الكونياك المتماوج، ثم خرج منه وهو يزفر وينخز وقد ابتلَّت ربطة عنقه وضيَّع الطلاء الذهبي عن شاربيه ونظارته الأنفية، ولم يجسر على الاحتذاء ببيغيموت إلا امرأة واحدة هي الخيَّاطة المكَّارة إياها ومرافقها، وهو شاب خلاسي نكرة، فقد قذف كلاهما بنفسه في الكونياك، وهنا تأبَّط كوروفييف ذراع مرغريتا وغادرا المستحمين.

وبدا لمرغريتا أنها تطير فوق مكان رأت فيه جبالًا من المحار في برك حَجَرية هائلة، ثم طارت فوق أرض قاعة زجاجية تتقد تحتها أُتُنٌ جَهَنَّمية يسعى بينها طهاة بيض جهَنّميون. ثم رأت في مكان، وهي لما تعد تفقه شيئًا، أقبية معتمة تضيء فيها قناديل وتقدِّم فيها فتيات لحمًا ينش على جمر حامٍ، والناس يشربون أنخاباً من أكواز كبيرة، ثم رأت دببة بيضًا تعزف على الهارمونيكا وترقص رقصة كمارينسكايا على المسرح، وسمندرًا مشعوذًا لا يحترق في نار الموقد... وللمرة الثانية أخذت قواها تتلاشى.

همس لها كوروفييف مهمومًا: - «الجولة الأخيرة، وبعدها نحن طلقاء».

ووجدت مرغريتا نفسها مع كوروفييف في قاعة الرقص من جديد، إنما لم يكن أحد يرقص فيها الآن، بل كان الضيوف يتجمهرون جماعات بين الأعمدة وقد أخلوا وسط القاعة. ولم تدرِ مرغريتا من الذي ساعدها في ارتقاء منصة ظهرت في وسط هذا الخلاء، ولمَّا ارتقت المنصة سمعت، لدهشتها، الساعة تدق في مكان ما مشيرة الى منتصف الليل الذي كانت تحسب أنه فات من فترة طويلة، ومع آخر دقة من دقات ساعة لا تدري مصدرها هبط الصمت على جمهور الضيوف، إذَّاك رأت مرغريتا فولند من جديد، كان يسير في رفقة أبادونا وأزازيلو وبضعة آخرين من أشباه أبادونا، سود وفي عز الشباب، وتبيَّنت مرغريتا الآن مقابل منصتها منصة أخرى أُعدَّت لفولند، لكن هذا لم يستخدمها، وأدهش مرغريتا أن فولند كان في ظهوره العظيم الأخير في حفلة

الرقص بالمظهر نفسه الذي كان فيه في مخدعه: القميص المرقَّع القذر نفسه كان يتدلَّى على كتفيه والخف الليلي المهترئ نفسه في قدميه، كان فولند يمسك شيشًا بيده، لكنه كان يستخدم هذا الشيش المسلول بمثابة عصا يتكئ عليها. توقَّف فولند، وهو يعرج، قرب منصته، وللحال مثل أزازيلو أمامه يحمل طبقًا، ورأت مرغريتا على هذا الطبق رأسًا إنسانيًا مقطوعًا ذا أسنان أمامية مهشَّمة، كان الصمت الكامل لا يزال مطبقًا لم يقطعه إلا مرة واحدة رنين بعيد، غير مفهوم في مثل هذه الظروف، كما يحدث أحيانًا مثله في المداخل الرئيسية للبيوت.

- «ميخائيل ألكسندروفتش»، توجَّه فولند إلى الرأس بصوت خافت، فانفتحت جفون القتيل، ورأت مرغريتا على الوجه الميت، وقد سرت فيها القشعريرة، عينين حيتين ممتلئتين بالفهم والألم، «لقد تحقَّق كل شيء أليس كذلك؟»، تابع فولند وهو يرنو إلى عيني الرأس، «الرأس قطعته امرأة، والاجتماع لم يُعقد، وأنا أعيش الآن في شقتك، هذا واقع، والواقع أعند شيء في الحياة، إنما ما يهمنا الآن شيء آخر وليس هذا الواقع الذي تحقَّق، لقد كنت دائمًا داعية متحمسًا لتلك النظرية التي تقول إن الحياة في الإنسان تتوقَّف بعد قطع الرأس، وأنه (أي الإنسان) يتحوَّل إلى رماد ويعود إلى العدم، ويسرّني الآن أن أقول لك في حضرة ضيوفي، وإنْ كانوا هم أنفسهم برهانًا ماثلًا على نظرية أخرى تمامًا، إن نظريتك جديرة بالاعتبار وذكية، وبالمناسبة، كل النظريات متعادلة، وبينها نظرية تقول إن الإنسان يُعطى على قدر إيمانه، ألا فليتحقَّق ذلك! إنك تعود إلى العدم، وسيسرني أن أشرب - من الكأس التي تتحوَّل أنت إليها - نخب الوجود».

ورفع فولند شيشه، وهنا اسودَّت فروة الرأس وتقلَّصت وسقطت قطعًا قطعًا واختفت العينان، وما عتمت مرغريتا أن رأت على الطبق جمجمة ضاربة إلى الصُّفرة ذات عينين زمرّديتين وأسنانًا لؤلؤية تقف على قائمة من الذهب، وارتفع غطاء الجمجمة على مفصَّلة.

قال كوروفييف وقد لاحظ نظرة فولند المتسائلة: - «حالًا، يا سيدي، سيمثل أمامك حالًا، وإني لأسمع في صمت القبور هذا صرير حذائه المصبوغ ورنين الكأس التي وضعها على الطاولة بعد أن شرب منها الشامبانيا لآخر مرة في حياته، ها هو ذا!».

ودخل القاعة ضيف جديد وحيد متوجِّهًا إلى فولند، لم يكن الضيف الجديد يتميَّز عن الضيوف العديدين الآخرين من الرجال إلا بشيء واحد: كان الضيف الجديد يترنَّح، بالمعنى الحرفي للكلمة، من الاضطراب، الأمر الذي بدا واضحًا عليه حتى عن

بُعد، كانت نقط حمر تتوقَّد في خَدَّيه، وعيناه تتراكضان في محجريهما في قلق كامل، كان الضيف مدهوشًا، بل في غاية الدهشة وهذا أمر طبيعي تمامًا: فقد أدهشه كل شيء وفي المقام الأول بطبيعة الحال لباس فولند.

إلا أن الضيف استُقبل بلطف فائق.

- «آ، أيها البارون ميغل العزيز»، توجَّه فولند بابتسامة ودٍّ إلى الضيف الذي انعقدت عيناه فوق جبينه، ثم أردف متوجِّهًا إلى ضيوفه: «إني لسعيد بأن أقدم لكم البارون ميغل المبَجَّل الذي يعمل في لجنة التمثيليات دليلًا للأجانب ومعرِّفًا لهم بمعالم العاصمة.

وهنا جمدت مرغريتا لأنها عرفت فجأة ميغل هذا، إذ سبق لها أن صادفته عدة مرات في مسارح موسكو ومطاعمها. قالت مرغريتا في نفسها: » ماذا... أهو أيضا توفِّي؟» لكن الأمر توضَّح للحال، إذ تابع فولند ولمَّا تفارقه ابتسامة الحبور:

- «كان البارون العزيز من اللطف بحيث إنه ما إن عرف بوصولي إلى موسكو حتى اتصل بي هاتفيًا يعرض خدماته في مجال اختصاصه أي في التعريف بمعالم العاصمة، وبطبيعة الحال أسعدني أن أدعوه إليَّ».

وفي هذا الوقت رأت مرغريتا أزازيلو يناول كوروفييف الطبق الذي عليه الجمجمة.

قال فولند خافضًا صوته فجأة بشكل حميمي: - «آه، بالمناسبة يا بارون، سرت أقاويل عن حبك المفرط للمعرفة، وقيل إن حبك للمعرفة المقرون بميلك للكلام الذي لا يقل عن حبك للمعرفة شانا أخذ يلفت الانتباه، وإلى ذلك أفلتت من الألسنة الشريرة كلمة: واش وجاسوس، وفوق هذا وذاك هناك من يرى أن هذا سيؤدي بك إلى نهاية محزنة في ما لا يزيد على شهر. ولهذا، ولكي نوفِّر عليك هذا الانتظار المضني، قررنا مساعدتك مستفيدين من كونك طلبت بنفسك استضافتك، وليس لك من غاية سوى التلصّص والتنصت على كل ما يمكنك أن تتلصَّص وتتنصَّت عليه».

صار البارون أشد شحوبًا من أبادونا، الذي كان بطبيعته مفرطًا في شحوبه، ثم حدث شيء جد غريب، ظهر أبادونا أمام البارون وخلع نظارته لثانية، وفي اللحظة عينها برق شيء ما في يدي أزازيلو، وصفَّق شيء ما كأنه تصفيق كفٍّ، وأخذ البارون يسقط على ظهره، وانبجس الدم القاني من صدره وغمر قميصه المنشّى وجاكيتته، وضع كوروفييف كأسًا تحت التيار الدافق وملأها وقدَّمها إلى فولند، كان جسد البارون الذي فارقته الحياة الآن ملقى جثة هامدة على الأرض.

- «في صحتكم، أيها السادة»، قال فولند بصوت خافت، ورفع كأسه وقرب منها شفتيه.

إذَّاك حدث تحول: فقد اختفى القميص المرقَّع والحذاء المهترئ، وبدا فولند في رداء أسود وشيش من الفولاذ على فخذه، دنا فولند من مرغريتا بسرعة وقدَّم إليها الكأس وقال بنبره آمرة:

- «اشربي!».

دار رأس مرغريتا وترنَّحت، لكن الكأس باتت عند شفتيها، وهمست أصوات لم تدر أصوات من في كلتا أذنيها:

- «لا تخافي أيتها الملكة... لا تخافي أيتها الملكة، الدم غار في الأرض من وقت بعيد. وهناك، حيث سُفح، تنمو الآن عناقيد عنب».

جرعت مرغريتا جرعة دون أن تفتح عينيها، فسرى في عروقها تيار عذب وأحسَّت بطنين في أذنيها، بدا لها أنها تسمع صياح ديكة يصمّ الآذان ومارشًا يعزف في مكان ما، أخذت حشود الضيوف تفقد هيئتها، وتحلَّل أصحاب الفراكات والنساء جميعًا حتى صاروا رمادًا، وشمل التحلل أمام عيني مرغريتا القاعة التي خيَّمت عليها رائحة القبور، انهارت الأعمدة وانطفأت الأنوار وانكمش كل شيء وتلاشت الفسقيات والسوسن والكاميليا، ولم يبقَ من هذا كله إلا ما كان سابقًا غرفة الاستقبال المتواضعة التي كانت لزوجة الصائغ، وشريط من الضوء ينسَلّ من باب مفتوح قليلًا عليها، وفي هذا الباب المفتوح قليلًا دخلت مرغريتا.

## الفصل الرابع والعشرون

# انتشال المعلِّم

بدا كل شيء في مخدع فولند كما كان قبل الحفلة الراقصة. كان فولند يجلس بقميصه الداخلي على السرير، إلا أن غيلا لم تكن تدلِّك رجله، بل كانت تضع العشاء على الطاولة حيث كانوا يلعبون الشطرنج، وكان كوروفييف وأزازيلو جالسين إلى الطاولة بعد أن خلعا فراكيهما، أما القط، الذي لم يرغب في التخلِّي عن ربطة عنقه مع أن هذه استحالت خرقة في منتهى القذارة، فقد اتخذ مكانه إلى جانبهما بالطبع، اقتربت مرغريتا من الطاولة وهي تترنَّح، واستندت إليها، إذَّاك أومأ فولند إليها كما في المرة الأولى وأشار بالجلوس إلى جانبه.

سألها فولند: - «ماذا... هل أتعبوكِ كثيرًا؟».

- «أوه، لا يا سيدي»، أجابت مرغريتا إنما بصوت يكاد لا يُسمع.

- «Noblesse oblige[1]»، لاحظ القط وسكب لمرغريتا سائلًا شفَّافًا في كأس.

سألت مرغريتا بصوت ضعيف: - «أهي فودكا هذه؟».

نطَّ القط على الكرسي استياءً.

قال بصوت مبحوح: - «العفو أيتها الملكة، أأسمح لنفسي بأن أسكب فودكا لسيدة؟ إنها كحول خالصة!».

. ابتسمت مرغريتا وحاولت أن تبعد الكأس عنها.

- «اشربي دون خوف»، قال فولند، وللحال أمسكت مرغريتا الكأس بيديها، «اجلسي يا غيلا»، أمر فولند هذه وتوجَّه إلى مرغريتا يوضِّح الأمر: «ليلة اكتمال البدر ليلة عيد، وأنا أتعشى فيها مع نخبة قليلة من المقرَّبين والخدم، وهكذا اخبريني عن أحوالكِ؟ كيف سارت هذه الحفلة الراقصة المرهِقة؟».

(1) بالفرنسية في الأصل: يلزم النُبل. المترجم.

وروز كوروفييف: - «بشكل مذهل! الجميع مسحورون، عاشقون، مسحوقون، ولشد ما كان فيها من الكياسة والبراعة، ومن الفتنة والسحر!».

رفع فولند كأسه في صمت وقرع بها كأس مرغريتا فشربت هذه كأسها في استسلام وفي روعها أن أجَلَها آتٍ مع الكحول، إنما لم يحدث لها ما يُزعج، فقد سرى دفء ناعم في بطنها، ونقرها شيء ما بلطف في قذالها، وعادت إليها قواها كما لو أنها استيقظت بعد نوم طويل منشِّط، وأحست إلى ذلك بجوع شديد، واشتد أوار جوعها حين تذكَّرت أنها لم تتناول شيئًا منذ صباح الأمس وأخذت تلتهم الكافيار بنهم.

قطَّع بيغيموت قطعة أناناس ورش عليها ملحًا وفلفلًا وأكلها ثم كرع كأسا أخرى من الكحول بفتوَّة صفَّق لها الجميع.

وبعد الكأس الثانية التي شربتها مرغريتا ازدادت شموع الشمعدانات اشتعالًا وزاد لهيب النار في الموقد، لم تشعر مرغريتا بأي ثمل، كانت، وهي تقطِّع اللحم بأسنانها البيض، تتلذذ بالعصارة المنسابة منه، وتنظر في الوقت نفسه إلى بيغيموت وهو يطلي المحار بالخردل.

- «ضع فوقه قليلًا من العنب»، قالت غيلا بصوت خفيض وهي تلكز القط في جنبه.

أجاب القط: - «أرجو ألا تعلميني، لقد جلستُ إلى موائد كثيرة، لا تقلقي، جلستُ كثيرًا!».

صرَّ كوروفييف: - «آه، ما ألطف العشاء هكذا، قرب موقد، ببساطة، وعلى نطاق ضيق...».

قال القط معترضًا: - «لا، يا فاغوت، لحفلات الرقص سحرها وشأنها».

قال فولند: - «لا سحر فيها ولا شأن، وهذه الدببة الحمقاء، وهذه النمور في البار كادت تسبب لي بزئيرها صداعًا».

قال القط: - «سمعًا وطاعة يا سيدي، إذا كنت ترى أن ليس لهذه الحفلات شأن فأنا على استعداد للأخذ بهذا الرأي فورًا!».

- «انتبه!»، كان جواب فولند.

قال القط في خضوع: - «كنتُ أمزح، أما النمور فسآمر بشوائها».

قالت غيلا: - «النمور لا تؤكل».

- أتظنين ذلك؟ اسمعوا إذن، رد القط وراح يروي لهم، وقد زرّ عينيه من فرط النشوة، كيف ظل تسعة عشر يومًا يجوب الصحراء والشيء الوحيد الذي كان يقتات

به هو لحم نمرٍ قتله»، أصغى الجميع باهتمام إلى هذه القصة المسلية، وما انتهى من روايته حتى هتفَ الجميع بصوت واحد:

- «كذب!».

قال فولند: - «وأطرف ما في هذه الكذبة أنها كذب من أول حرف فيها حتى آخر حرف».

صاح القط: - «هكذا إذن؟ كذب؟»، فظن الجميع أنه سيأخذ في الاحتجاج، لكنه لم يقل إلا شيئًا واحدًا، وقاله بصوت خافت: «التاريخ سيحكم بيننا».

قالت مارغو التي دبت فيها الحيوية بعد الفودكا: - «وأنت قل لي، هل قتلت هذا البارون سابقًا رميًا بالرصاص؟».

أجاب أزازيلو: - «طبعًا، وكيف لا أقتله؟ يجب قتله حتمًا».

هتفت مرغريتا: - «كم كنتُ مضطربة! لقد حدث هذا بشكل غير متوقَّع».

- «ليس في هذا شيء غير متوقَّع»، قال أزازيلو معترضًا بينما أخذ كوروفييف يعول ويئن:

- «وكيف لا يضطرب الواحد منا؟ أنا نفسي ارتعدت فرائصي! بوم، وإذا بالبارون يسقط على جنبه!».

أضاف القط وهو يلحس ملعقة الكافيار: - «وأنا كدت أصاب بالهستيريا».

قالت مرغريتا والشرارات الذهبية المتطايرة من البلَّور تتواثب في عينيها: - «الشيء الذي لا أفهمه هو التالي: ألم يكن يُسمع من الخارج صوت الموسيقى، وبشكل عام ضوضاء هذه الحفلة وجلبتها؟».

قال كوروفييف يشرح: - «بالطبع لم يكن يُسمع أي شيء، أيتها الملكة، يجب أن ينظَّم الأمر بحيث لا يُسمع شيء، نعم يجب إعداده بدقة».

- «طبعًا، طبعًا... ولكن ذلك الشخص الذي كان على الدرج... عندما كنَّا نمرُّ مع أزازيلو... والشخص الآخر الذي كان عند المدخل الخارجي... أظن أنه كان يراقب شقتكم...».

صرخ كوروفييف: - «صحيح، صحيح! صحيح، أيتها العزيزة مرغريتا نيقولايفنا! إنك تؤكدين شكوكي، نعم، كان يراقب الشقة، أنا نفسي كدت أعتقد إنه بروفيسور ذاهل أو عاشق قابع على الدرج، لكن لا، لا، كان شيء ما يخزني في قلبي! آه! كان يراقب الشقة! والشخص الآخر الذي عند المدخل أيضًا! وذاك الذي كان واقفًا عند باب الفناء أيضًا!».

سألت مرغريتا: - «وماذا لو أتوا لاعتقالكم؟».

أجاب كوروفييف: - «سيأتون بالتأكيد، أيتها الملكة الفاتنة، بالتأكيد! قلبي ينبئني أنهم سيأتون، لكن ليس الآن، إنما في الوقت المناسب سيأتون، لكن أظن أنه لن يحدث شيء مثير».

- «آه، لشد ما اضطربتُ حين سقط هذا البارون»، قالت مرغريتا التي كانت لا تزال تعاني، على ما يبدو، من منظر القتل الذي تشاهده لأول مرة في حياتها، «لا بد أنك تسدد بشكل جيد؟».

أجاب أزازيلو: - «بشكل مناسب».

طرحت مرغريتا على أزازيلو سؤالًا غير واضح تمامًا: - «من بُعد كم خطوة؟».

أجاب أزازيلو بلهجة من يحاكم الأمور: - «هذا يتوقَّف على الهدف وعلى الأداة، أن تصيبي زجاج الناقد لاتونسكي بمطرقة غير أن تصيبيه في قلبه».

كرَّرت بصوت أصم: - «في القلب!»، صاحت مرغريتا ولسبب ما وضعت يدها على قلبها، «في القلب!».

سأل فولند وهو يطرف بعينيه باتجاه مرغريتا: - «من يكون الناقد لاتونسكي هذا؟».

أطرق أزازيلو وكوروفييف وبيغيموت رؤوسهم في ما يشي بالخجل بينما أجابته مرغريتا وقد احمرّ خَدّاها:

- «هناك ناقد بهذا الاسم، واليوم مساء خرَّبتُ شقته كلها».

- «عجبًا! ولماذا؟».

- «دمَّرَ معلّمًا، يا سيدي».

- «ولماذا كلَّفتِ نفسكِ هذا العمل؟».

- «بإذنك يا سيدي»، صاح القط مغتبطًا وهو يثب من مكانه.

غمغم أزازيلو وهو ينهض: - «اجلس أنت، أنا بنفسي سأذهب الآن...».

صاحت مرغريتا: - «لا! لا! أتوسَّل إليك يا سيدي لا داعيَ لهذا».

- «كما تشائين، كما تشائين»، أجاب فولند فعاد أزازيلو إلى مكانه.

قال كوروفييف: - «أين توقَّفنا إذن أيتها الملكة الغالية مارغو؟ آ، نعم، القلب، إنه يستطيع إصابة القلب»، وأردف وهو يمد إصبعه الطويلة نحو أزازيلو، «يستطيع، حسب الرغبة، إصابة أي من أَيْني القلب أو أي من البُطَيْنَين».

ولم تفهم مرغريتا ما قاله فورًا، ولما فهمت هتفت بدهشة:

- «لكنها محجوبة!».

صرَّ كوروفييف: - «أيتها الغالية، هنا بيت القصيد! وهنا كل النكهة! فأي شخص يستطيع أن يصيب هدفًا مكشوفًا! وأخرج كوروفييف سبعة بستوني من درج الطاولة وناولها إلى مرغريتا وطلب إليها أن تؤشِّر بظفرها على إحدى النقط. فأشَّرت مرغريتا على النقطة العليا التي في الزاوية اليمنى، ثم أخفت غيلا الورقة تحت الوسادة وصاحت:

- «جاهز!».

أخرج أزازيلو، الذي كان يجلس مُسْنِداً ظهره، مسدسًا أسود من جيب سروال فراكه، ووضع فوهته على كتفه وأطلق النار دون أن يلتفت نحو السرير مما أثار ذعرًا جذلًا في نفس مرغريتا، وأخرجت سبعة السبتوني من تحت الوسادة التي ثقبتها الرصاصة فإذا بالنقطة التي أشَّرت عليها مرغريتا مثقوبة.

- «ما كنتُ لأرغب في أن ألتقي بك وفي يدك مسدس»، قالت مرغريتا وهي ترنو إلى أزازيلو في دلال، فقد كانت تكن عاطفة خاصة لمن يؤدُّون عملًا ممتازًا.

أزَّ كوروفييف: - أيتها الملكة الغالية، أنا لا أنصح أحدًا بالالتقاء به حتى وإن لم يكن معه أي مسدس، وكلمة شرف من قائد كورس سابق أن لا أحد سيهنِّئ من يلتقي به».

كان القط يجلس مقطِّبًا حاجبيه أثناء تجربة التسديد، لكنه أعلن فجأة:

- «أتعهَّد بأن أحطِّم هذا الرقم القياسي!».

وردَّ أزازيلو بأن زمجر، لكن القط كان عنيدًا وطلب مسدسين لا مسدسًا واحدًا، أخرج أزازيلو مسدسًا ثانيًا من الجيب الخلفي الثاني لسرواله وقدَّمه مع المسدس الأول إلى هذا الدعيِّ المغرور وهو يلوي فمه في احتقار، وأشَّرَ على نقطتين، أدار القط ظهره إلى الوسادة وأخذ يستعد، وطال استعداده في حين جلست مرغريتا وقد سدّت أذنيها بإصبعيها وهي تنظر إلى البومة الغافية على رف الموقد، وأطلق القط الرصاص من كلا المسدسين فتعالى على الفور زعيق غيلا، بينما سقطت البومة قتيلة من على الموقد وتوقَّفت الساعة المحطمة، أنشبت غيلا - التي كان الدم يسيل من إحدى ذراعيها - أظافرها في شعر القط، وردَّ القط بأن تشبَّث بشعرها فإذا بهما يلتحمان حتى صارا كالكرة وأخذا يتدحرجان على الأرض، فسقطت إحدى الكؤوس عن الطاولة وتحطَّمت.

- «أبعدوا عني هذه الشيطانة المسعورة!»، أنَّ القط وهو يحاول التملُّص من غيلا التي كانت تجلس فوقه، وفرِّقوا بين المتعاركين، ثم نفخ كوروفييف على إصبع غيلا المصابة فالتأمت.

- «لا أستطيع أن أسدِّد حين يتكلَّمون قربي!»، صرخ بيغيموت وهو يجهد في إعادة خصلة ضخمة من شعره إلى مكانها على ظهره.

قال فولند وهو يبتسم لمرغريتا: - «أراهن، أنه فعل ما فعل عمدًا، فهو يسدِّد بشكل جيد».

تصالح غيلا والقط وتبادلا القبلات عربون تصالحهما، ثم أُخرجت الورقة من تحت المخدة وجرى التأكد منها فلم توجد فيها نقطة مثقوبة إلا نقطة أزازيلو.. «هذا غير ممكن»، قال القط مؤكِّدًا وهو يحدِّق في الورقة من خلال ضوء الشمعدان.

كان العشاء البهيج مستمرًا، كانت الشموع تذوب في الشمعدانات ودفء جاف عَطِرٌ ينبعث من الموقد وينشر مويجات في الغرفة، وتملَّك مرغريتا التي شبعت شعورٌ بالغبطة، كانت ترنو إلى الحلقات الزرق المنبعثة من سيجار أزازيلو تسبح باتجاه الموقد، والقط يلتقطها بطرف الشيش، ولم تكن تشعر بأي رغبة في مغادرة المكان مع أن الوقت صار في حساباتها متأخرًا، فهو يقترب من السادسة صباحًا كما تشير كل الدلائل واستغلت مرغريتا فترة صمت فتوجَّهت إلى فولند وقالت في وجل: - «لعله آن الأوان.. الوقت صار متأخرًا».

- «إلى أين أنتِ مسرعة؟»، سألها فولند بأدب، إنما بشيء من الجفاء بينما لزم الآخرون الصمت متظاهرين بالانشغال بحلقات دخان السيجار.

- «نعم، آن لي أن أذهب»، كرَّرت مرغريتا وهي مرتبكة أشد الارتباك مما رأت حولها، والتفتت كأنما تبحث عن طرحة أو بُردة، إذ أخذ عريها يضايقها فجأة، ونهضت من وراء الطاولة، فتناول فولند رداءه الرثَّ الملوَّث من على السرير وألقاه كوروفييف على كتفيها.

- «أشكرك يا سيدي»، قالت مرغريتا بصوت يكاد لا يُسمع وتطلَّعت إلى فولند في تساؤل، فردَّ هذا عليها بابتسامة مهذَّبة وغير مكترثة، وللحال أحسَّت مرغريتا بكآبة سوداء تنعقد عند قلبها، شعرت أنها خُدعت، فلم يكن أحد، على ما يبدو، يتهيَّأ لمكافأتها على كل خدماتها في الحفلة، كما لم يطلب منها أحد البقاء، والى هذا خالجها شعور واضح كل الوضوح أنه لم يعد لها مكان تذهب إليه، أحسَّت بسَورةٍ داخلية من اليأس حيث ألمَّت بخاطرها فكرة عابرة أن لا مفرّ من العودة إلى دارها، فهل عليها إذن أن تطلب بنفسها كما زيَّن لها ذلك أزازيلو في حديقة ألكسندروفسكي؟ «لا، لن أفعل مهما يكن من أمر»، قالت لنفسها.

- «أتمنى لك كل خير يا سيدي»، قالت بصوت مسموع بينما كانت تقول في نفسها: «الخروج من هنا بأي ثمن، ثم أذهب إلى النهر وأغرق نفسي فيه».

- «هلَّا جلستِ»، قال لها فولند بلهجة آمرة فجأة. تغيَّر وجه مرغريتا وجلست، «لعلَّكِ تودين قول شيء عند الوداع؟».

أجابت مرغريتا في كبرياء: - «لا، لا شيء يا سيدي، وفوق ذلك أنا على استعداد للقيام عن طيب خاطر بما يحلو لكم إذا كنتم لا زلتم في حاجة إليَّ، فأنا لم أتعب على الإطلاق، بل تسلَّيت كثيرًا في الحفلة، ولو امتدت الحفلة أكثر من ذلك، لما توانيتُ عن تقديم ركبتيّ برضا ليقبّلها آلاف المشنوقين والقتلة»، كانت مرغريتا تنظر إلى فولند كما من خلال غشاوة، وقد امتلأت عيناها بالدموع.

صرخ فولند بصوت مدوٍّ ومرعب: - «صحيح، أنتِ محقَّة تمامًا، هذا ما يجب فعله!».

- «هذا ما يجب فعله»، ردَّدت حاشية فولند كرجع الصدى، وتابع فولند يقول:

- «كنا نختبرك، لا تطلبي أبدًا أي شيء، أبدًا أي شيء، لا سيما ممن هم أقوى منك، فهم أنفسهم سيعرِضون، وهم أنفسهم سيعطون كل شيء! اجلسي أيتها المرأة العزيزة النفس!». ونزع فولند الرداء الثقيل عن مرغريتا فإذا بها جالسة إلى جانبه على السرير ثانية، تابع فولند مرقِّقًا لهجته: «وهكذا يا مارغو، ماذا تريدين لقاء قبولك أن تكوني سيدة الحفلة اليوم عندي؟ ماذا ترغبين لقاء بقاءكِ طوال هذه الحفلة عارية؟ بماذا تثمِّنين ركبتكِ؟ ما الضرر الذي لحق بكِ من ضيوفي الذين دعوتِهم الآن بالمشنوقين؟ قولي! قولي على الفور دون خجل الآن: فأنا الذي أعرض عليكِ».

دقَّ قلب مرغريتا وتنهَّدت تنهيدة عميقة وأخذت تفكِّر.

قال فولند مشجعًا: - «هيَّا، بجرأة أكبر! حرِّكي خيالك، حفِّزيه! فإن رؤية قتل هذا البارون السافل وحدها جديرة بأن يكافَأ عليها الإنسان، لا سيما إذا كان هذا الإنسان امرأة، هيَّا».

انحبست أنفاس مرغريتا، وأرادت الإفضاء له بتلك الكلمات العزيزة المكنونة في صدرها، حين شحبت فجأة وفغرت فاها وحملقت: «فريدا! فريدا!» صرخ صوت ملحاح وضارع في أذنيها، «اسمي فريدا!» فقالت مرغريتا وهي تتعثَّر في كلامها:

- «بمقدوري إذن أن أطلب شيئًا واحدًا؟».

أجاب فولند وهو يبتسم بتفهُّم: - «بل أن تأمري، تأمري يا سيدتي، أن تأمري بشيء واحد».

آه، ما كان أشدّ براعة فولند ووضوحه في تأكيده كلمَتَيْ مرغريتا نفسها «شيء واحد» وهو يكرِّرهما إثرها!

تنهّدت مرغريتا مرّة أخرى وقالت:

- «أريد أن يكفُّوا عن مناولة فريدا المنديل الذي خنقت به طفلها».

رفع القط عينيه إلى السماء، وأرسل تنهيدة صاخبة، لكنه لم يقل شيئًا، إذ ذكر، على الأرجح، أذنه التي فُركت في الحفلة الراقصة.

وهنا قال فولند وهو يبتسم:

- «بما أن إمكانية أخذك رشوة من هذه الحمقاء فريدا غير واردة إطلاقًا بطبيعة الحال، وإلا تنافى هذا وكرامتك الملكية، فإني حائر في ما عليَّ فعله، وقد لا يكون أمامي إلا أمر واحد: أن أجمع خِرَقًا، وأسدُّ بها كل شقوق مخدعي».

- «عمَّ تتحدَّث يا سيدي؟»، قالت مرغريتا مبهوتة بعد أن سمعت هذه الكلمات غير المفهومة.

تدخَّل القط في الحديث: - «أوافقك تمامًا على ما قلت يا سيدي، الخرق بالضبط»، وضرب بقائمته على الطاولة في انفعال.

- «إني أتكلَّم عن الرحمة»، قال فولند يوضِّح كلامه دون أن يرفع عينه النارية عن مرغريتا، «فهي تتسلَّل أحيانًا بشكل غير متوقَّع وبغدر من أضيق الشقوق، ولهذا أنا أتكلَّم على الخرق».

- «وأنا أيضًا أتكلَّم عن الشيء نفسه!»، هتف القط وتنحَّى عن مرغريتا تحسُّبًا لأي طارئ وقد غطَّى أذنيه الحادتين بقائمتيه المطليتين بدهان وردي اللون.

قال له فولند: - «أخرج من هنا».

أجابه القط: - «أنا لم أشرب القهوة بعدُ، فكيف أخرج؟ أمن المعقول يا سيدي أن يُفرز ندماؤك في هذه الليلة إلى صنفين؟ بعضهم في الصنف الأول وبعضهم الآخر من طزاجة من الدرجة الثانية كما عبَّر صاحب البوفيه البخيل الكئيب؟».

- «اخرس»، قال له فولند آمرًا، ثم استدار إلى مرغريتا وسألها:

- «أنتِ، كما تدل كل الدلائل، إنسانة ذات طيبة نادرة، إنسانة ذات أخلاق رفيعة أليس كذلك؟».

أجابته مرغريتا بقوة: - «لا، أعرف أنه يمكن التكلُّم معك بصراحة، وبصراحة فقط، ولهذا سأكلمك بصراحة: إني إنسانة طائشة وما رجوتك في أمر فريدا إلا لأني علَّلتها في ساعة طيش بأمل قوي، إنها تنتظر يا سيدي، وهي تؤمن بقدرتي، فإذا ظلَّت على انخداعها بي وخيبة أملها فيَّ سأجد نفسي في موقف فظيع، ولن تعرف نفسي الراحة طول حياتي، ليس في اليد حيلة، ما كان كان!».

قال فولند: - «آ، هذا مفهوم».

سألته مرغريتا بصوت خافت: - «هل ستفعل هذا إذن؟».

أجابها فولند: - «ولا بأي حال من الأحوال، المسألة أيتها الملكة العزيزة، أنه وقع هنا التباس طفيف، كل هيئة يجب أن تهتم بأمورها، وأنا لا أنكر أن إمكاناتنا عظيمة إلى حدٍّ ما، بل إنها أعظم بكثير ما يفترضه بعض ذوي النظر غير البعيد جدًا...».

القط المعتزّ، على ما يبدو بهذه الإمكانات، لم يتمالك نفسه، فقال يتدخَّل في الحديث: - «نعم، أعظم بكثير».

- «اخرس، تبًا لك»، قال له فولند، واستأنف موجِّهًا كلامه إلى مرغريتا: «أقول لكِ ببساطة: ما معنى أن أفعل شيئًا يفترض أن تفعله - كما قلتُ لكِ - هيئة أخرى؟ وبناءً عليه لن أفعل هذا بل افعليه أنتِ بنفسكِ».

- «وهل يكون لي ما أريد؟».

رمى أزازيلو مرغريتا بنظرة ساخرة من عينه الحولاء وفتل رأسه الأصهب خفية ونخر.

- «ألا فعلتِ! أف!» غمغم فولند ودوَّر المجسَّم وأخذ يتأمَّل نقطة صغيرة عليه كان مشغولًا بها أيضًا أثناء حديثه مع مرغريتا على ما يبدو.

أومأ كوروفييف: - «هيا يا فريدا!».

صرخت مرغريتا بصوت حاد: - «فريدا!».

انفتح الباب وخفَّت إلى الغرفة امرأة مشعَّثة الشعر، عارية، لها عينين مجنونتين إنما دون أي أثر من آثار السُّكر وبسطت ذراعيها لمرغريتا فقالت لها هذه بجلال:

- «لقد غُفر لكِ، لن يعطوكِ المنديل بعد اليوم».

أطلقت فريدا صرخة وخرَّت على الأرض على وجهها وانبطحت على شكل صليب أمام مرغريتا، وأومأ فولند بيده فاختفت فريدا عن الأنظار.

قالت مرغريتا ونهضت: - «أشكرك، ووداعًا».

قال فولند: - ما رأيك يا بيغيموت، لن نأخذ بتصرُّف إنسان غير عملي في ليلة عيد»، والتفت إلى مرغريتا وقال: «وعليه فهذا ليس في الحساب، فأنا لم أفعل شيئًا، ماذا تريدين لنفسك؟».

ران الصمت، ولم يقطعه إلا كوروفييف الذي همس في أذن مرغريتا:

- «أيتها الدونا الماسية، أنصحك أن تكوني أعقل هذه المرة، وإلا قد تضيع الفرصة!».

قالت مرغريتا ومسخ التشنج وجهها: - «أريد أن يُعاد إليَّ الآن، وفي هذه الثانية، عشيقي، المعلّم».

وهنا هبَّت على الغرفة ريح بحيث تراقص لهب الشموع في الشمعدانات بعنف، وانفرجت الستارة الثقيلة على النافذة، وانفتح الشباك على مصراعيه فكشف في العلاء البعيد عن بدر كامل، لكنه لم يكن بدر الصباح، بل بدر منتصف الليل، وامتد من حافة الشباك إلى الأرض منديل ضارب إلى الخضرة من ضوء الليل، وفي هذا الضوء ظهر ضيف إيفان الليلي، ذاك الذي دعا نفسه المعلّم، كان في ثياب المستشفى من رداءٍ وخفٍّ وطاقية سوداء لم تكن تفارقه أبدًا، كان وجهه غير المحلوق يرتعش مكشِّرًا، وعيناه تنظران في ذعر المجنون إلى أنوار الشموع بينما كان التيار القمري يغلي ويفور حوله.

وعرفته مرغريتا على الفور، فندَّت عنها أنَّة وضربت كفًا بكف وهُرعت إليه، قبّلته في جبينه وفي شفتيه وألصقت خدها بخده الشائك وانهمرت دموعها التي حبستها طويلًا على وجهها، ولم تنبس إلا بكلمة واحدة مكرِّرة إياها بلا معنى:

- «أنت... أنت... أنت...».

دفعها عنه قليلًا وقال بصوت عميق:

- «لا تبكي يا مارغو، لا تعذبيني، أنا مصاب بمرض خطير».

قال المعلِّم وأمسك بحافة النافذة كأنما يتحفَّز للوثوب عليها والهرب، وكشَّر عن أسنانه وهو يحدِّق في الجالسين وصرخ قائلًا: - «أنا في حالة مخيفة يا مارغو! لقد بدأت أهلوس من جديد».

كانت العبرات تخنقها، وكانت تهمس له وهي تغص بكلماتها:

- «لا، لا، لا تخف! أنا معك، أنا معك!».

ودفع كوروفييف إلى المعلِّم خلسة وبخِفّة كرسيًا، فتهالك هذا عليه، في حين ارتمت مرغريتا على ركبتيها وأسندت رأسها إلى جنب المريض وسكنت، ولم تلاحظ مرغريتا في اضطرابها أن عريها انتهى فجأة، وأنها ترتدي الآن بردة حريرية سوداء، ونكّس المريض رأسه وأخذ يحدِّق في الأرض بعينين عابستين مريضتين.

قال فولند بعد فترة صمت: - «نعم، لقد دمَّروه تمامًا»، ثم أمر كوروفييف قائلًا: «أيها الفارس، أعطِ هذا الإنسان شيئًا يشربه».

وتوسَّلت مرغريتا إلى المعلِّم بصوت راعش:

- «اشرب، اشرب، هل أنت خائف؟ لا، لا، صدِّقني: إنهم سيساعدونك».

أخذ المريض الكأس وشرب ما فيها، لكن يده ارتعشت فسقطت الكأس الفارغة وتحطّمت عند قدميه.

همس كوروفييف يقول لمرغريتا: - «هذه بشرى خير! هذه بشرى خير! انظري، بدأ يعود إلى وعيه».

وبالفعل لم تعد نظرة المريض تنضح بالوحشية والقلق كما كانت من قبل.

سأل الضيف القمري: - «أهذه أنتِ حقًا، يا مارغو؟».

أجابته مرغريتا: - «لا يكن لديك أي شك، أنا هي».

أمر فولند: - «أعطِه أيضًا!».

بعد أن أتى المريض على الكأس الثانية شعَّت عيناه بالحياة والفطنة.

قال فولند وهو يزرّ عينيه: - «تمام، الآن وضعٌ آخر، فلنتحدَّث إذن، من أنت؟».

- «أنا الآن لا أحد»، أجاب المعلّم ولوى فمه مبتسمًا.

- «من أين أنت قادم الآن؟».

أجاب القادم: - «من مستشفى المجانين، أنا مصاب بمرض نفسي».

ولم تتحمَّل مرغريتا وقع هذه الكلمات فأجهشت في البكاء ثانية، ثم مسحت دموعها وصاحت:

- «كلمات فظيعة! كلمات فظيعة! إنه معلّم يا سيدي، وأود أن ألفت نظرك إلى ذلك، أبرئه، فهو جدير بهذا».

سأل فولند القادمَ: - «هل تعرف مع من تتكلّم الآن؟ وفي حضرة من تكون؟».

أجابه المعلّم: - «أعرف. ذاك الفتى الذي اسمه إيفان بيزدومني كان جاري في مستشفى المجانين وقد حدَّثني عنك».

ردَّ فولند: - «وكيف لا، وكيف لا، كان من دواعي سروري أن التقيتُ بهذا الشاب في بتريرشيي برودي، كاد يودي بعقلي أنا وهو يبرهن لي أني غير موجود! لكن أنت هل تصدق أني أنا هو؟».

أجاب القادم: - «لابد من التصديق، لكنه سيكون أدعى للراحة كثيرًا بطبيعة الحال اعتبارك وليد الهلوسة»، وأردف على الفور يقول مستدركًا: «العفو».

أجاب فولند بأدب: - «لا بأس، إن كان هذا أدعى للراحة فاعتبرني كذلك».

قالت مرغريتا في ذعر وهي تهز المعلّم من كتفيه: - «لا، لا، أفِق إلى نفسك! إنه هو بالفعل الذي أمامك!».

وتدخَّل القط هنا أيضًا:

- «وأنا أشبه هلوسة فعلًا، لاحظوا منظري الجانبي في ضوء القمر»، وهنا انسلَّ إلى وسط العمود القمري وأراد أن يقول شيئًا، إنما طُلب إليه أن يصمت فأجاب: «حسنًا، حسنًا، سأصمت، احسبوني هلوسة صامتة»، وصمت.

سأله فولند: - «قل لي لماذا تسمِّيك مرغريتا المعلِّمَ؟».

ابتسم المعلِّم ابتسامة ساخرة وقال:

- «ضعف إنساني يغتفر، فهي تقدِّر أكثر مما ينبغي تلك الرواية التي كتبتها».

- «عمَّ تتحدث الرواية».

- «عن بيلاطس البنطي».

وهنا اهتزَّت ألسنة الشموع من جديد وتراقصت، وارتجَّت الأواني على الطاولة، وأطلق فولند ضحكة مُرعِدة، لكنها لم تُخِفْ أحدًا كما لم يُدهش لها أحد، وأخذ بيغيموت لأمر ما يصفِّق.

قال فولند وقد كفَّ عن الضحك: - «عمّ؟ عمّ؟ عمّن؟ الآن؟ هذا مذهل! ألم تجد موضوعًا آخر؟ هاتِ أُلقي نظرة، ومدَّ فولند يده باسطًا راحتها إلى الأعلى».

قال المعلِّم: - «ليس بوسعي أن أعطيكما مع الأسف، لأني أحرقتها في الموقد».

أجابه فولند: - «العفو، لا أستطيع أن أصدقك، هذا مستحيل، المخطوطات لا تحترق»، ثم التفت إلى بيغيموت وقال له: «هيا يا بيغيموت، هات الرواية».

وثب القط للحال عن الكرسي فرأى الجميع أنه كان يجلس على رزمة سميكة من المخطوطات، وقدَّم القط إلى فولند النسخة العليا منها وهو ينحني له، فيما أخذت مرغريتا رعشة، فصرخت وهي تكاد تبكي من اضطرابها:

- «ها هو ذا المخطوط! ها هو ذا!».

واندفعت إلى فولند، وأردفت في انبهار:

- «يا لك من كلِّي القدرة، يا لك من كلِّي القدرة!».

تناول فولند النسخة المقدَّمة له فقلبها ووضعها جانبًا وشخصَ ببصره إلى المعلِّم في صمت ودون ابتسامة. غشيت هذا كآبة وقلق لا يعرف كنههما، فنهض عن الكرسي وأخذ يعتصر يديه ويغمغم وهو ينتفض متوجهًا إلى البدر البعيد:

- «حتى في ضوء القمر ليلًا لا أجد الراحة، علام إقلاقي؟ أيتها الآلهة، أيتها الآلهة...».

تشبَّثت مرغريتا برداء المستشفى وانكبَّت عليه وأخذت هي أيضًا تغمغم وقد خنقتها الدموع والكآبة:

- «يا إلهي، لِمَ لمْ يسعفك الدواء؟».

همس كوروفييف وهو يتلوَّى حول المعلِّم: - «بسيطة، بسيطة، بسيطة... كأس صغيرة أخرى، وأنا أيضًا كأس من باب المشاركة».

لَمَعت الكأس وتلألأت في ضوء القمر، وأسعفته هذه الكأس، أُجلس المعلِّم في مكانه، وشاعت في وجه المريض أمارات الهدوء.

- «الآن صار كل شيء واضحًا». قال فولند ونقر المخطوط بإصبعه الطويلة.

ثنَّى القط ناسيًا وعده بأن يكون هلوسة صامتة: - «واضحًا تمامًا، الآن بات الخط الرئيسي لهذا الكتاب واضحًا لي كل الوضوح، ماذا تقول يا أزازيلو؟». أردف متوجهًا إلى أزازيلو المعتصم بالصمت.

وأجابه هذا بصوت أخنّ:

- «أقول: الأفضل لو أماتوك غرقًا».

أجابه القط: - «كن رحيمًا، يا أزازيلو، ولا توحي لسيدي بهذه الفكرة، وإلا، صدِّقني، ظهرتُ لك في مثل هذا الثوب القمري كالمعلِّم المسكين، وأومأت إليك ودعوتك أن تتبعني، فإلام ستصير يا أزازيلو؟».

تدخَّل فولند في الحديث من جديد: - «أي مرغريتا، تكلَّمي أخيرًا، قولي ماذا تريدين؟».

برقت عينا مرغريتا وتوجَّهت إلى فولند تناشده متوسِّلة:

- «هل تسمح لي أن أتهامس معه؟».

أومأ فولند برأسه، وانكبَّت مرغريتا تهمس في أذن المعلِّم شيئًا وسُمع المعلِّم يقول لها:

- «لا، فات الوقت، لم أعد أريد أي شيء في الحياة إلا أن أراكِ، لكني أنصحكِ مرة أخرى: دعيني، وإلا هلكتِ معي».

- «لا، لن أدعك». أجابته مرغريتا وتوجَّهت إلى فولند تقول: - «أرجو أن تعيدنا من جديد إلى القبو الذي في الزقاق في أربات، وأن يضيء المصباح وأن يعود كل شيء إلى ما كان عليه».

وهنا ضحك المعلِّم وضمَّ إليه رأس مرغريتا بشعره الأجعد المحلول من فترة طويلة وقال:

- «آه، لا تسمع إلى ما تقوله هذه المرأة المسكينة، يا سيدي. في هذا القبو يعيش شخص آخر من فترة طويلة، وبشكل عام لا يحدث أن يعود شيء إلى ما كان عليه»، ووضع خدَّه على رأس صديقته وعانقها وأخذ يغمغم: - «مسكينة، مسكينة...».

قال فولند: - «تقول: لا يحدث؟ هذا صحيح، لكننا سنحاول»، ونادى: «أزازيلو».

وللحال هوى من السقف على الأرض مواطن مذهول في حالة تقرب من الجنون لا يستر جسمه إلا ملابسه الداخلية. لكنه، لأمر ما، كان يحمل في يده حقيبة ويضع على رأسه قبعة، ارتعد هذا الشخص من خوفه وأقعى على الأرض.

سأل أزازيلو الساقطَ من السماء: - «موغارتش؟».

أجاب هذا وهو يرتجف: - «ألوييزي موغارتش».

سأله أزازيلو: - «أأنت الذي قدَّمت شكوى على هذا الإنسان بأنه يحتفظ في بيته بكتابات ممنوعة بعد أن قرأت مقالة لاتونسكي عن روايته؟».

ازرقَّ وجه المواطن الهابط فجأة وترقرقت عيناه بدموع الندم.

سأله أزازيلو بصوت حاول قدر الإمكان أن يكون وديًا: - «كنت تريد الانتقال إلى شقته؟».

سُمع في الغرفة فحيح قطة مغيظة، وانقضّت مرغريتا على ألوييزي موغارتش وأنشبت أظافرها في وجهه وهي تزعق:

- «خذ، خذ من الساحرة!».

وكان ارتباك.

صرخ المعلِّم بصوت موجع: - «ماذا تفعلين يا مارغو؟ لا تلطِّخي نفسك بالعار».

زمجر القط: - «أحتجُّ، هذا ليس مشينًا!».

وجذب كوروفييف مرغريتا جانبًا.

- «ألحقتُ بالشقة حمامًا»، صرخ موغارتش المدمَّى وأسنانه تصطك، وأخذ يهذي في رعب: «التكليس وحده... حمض الكبريتيك...».

قال أزازيلو محبِّذًا: - «حسنٌ أنك بنيْت للشقة حمَّامًا، فهو بحاجة إلى حمَّام!»، وصاح: «خارجًا!».

وإذا بقوة خفية تقلب موغارتش رأسًا على عقب وتمضي به من النافذة المفتوحة في مخدع فولند.

حملق المعلّم وهمس:

- «بل هذا عمل أعجب مما رواه إيفان عنه من أعمال!». وتلفَّت حوله وهو في غاية الذهول، ثم قال أخيرًا للقط: - «عفوًا أنت... حضرتك...». وتردَّد كيف يخاطب القط، أبصيغة الألفة أو الاحترام، «حضرتك الذي ركب الترام؟».

- «نعم، أنا هو»، أكد القط الذي أطربه هذا الإطراء، وأضاف: «لطيف منك أن تخاطب قطًا بمثل هذا الاحترام، فالقطط لا تُخَاطب عادة إلا بصيغة الألفة مع أنه لم يحدث أبدًا أن شرب قط كأسا مع أحد».

- «لا أدري لماذا يبدو لي أنك لست قطًّا تمامًا»، أجاب المعلِّم بتردُّد، ثم أردف مخاطبًا فولند بوجل: - «وعلى أي حال سيتعرَّضون لي في المستشفى».

- «لماذا يتعرَّضون لك!»، قال كوروفييف مطمئنًا، فإذا بأوراق وكُتيبات بين يديه، «هل هذه بطاقتك المرضية؟».

- «نعم».

قذف كوروفييف البطاقة المَرَضية في الموقد، وقال في رضا: - «لا إنسان حيث لا وثيقة، أوَليس هذا سجل مؤجِّركم؟».

- «نعم، هو».

- «مَن المسجَّل فيه، ألوييزي موغارتش؟»، ونفخ كوروفييف على صفحة قائمة القاطنين نفخة: «وهكذا لم يعد له وجود، وأرجو أن نلاحظ أنه لم يوجد من قبل قَطّ، وإذا ما استغرب المؤجِّر قل له إنه رأى ألوييزي هذا في حلمه. موغارتش؟ من يكون موغارتش هذا؟ لم يوجد أبدًا شخص بهذا الاسم». وهنا تبخَّر السجل المربوط بخيط بين يدي كوروفييف الذي أردف: «هذا السجل أصبح الآن في درج المؤجِّر».

قال المعلِّم مشدوها بدقَّة عمل كوروفييف: - «صحيح تمامًا ما قلته من أنه لا وجود للإنسان حين لا تكون هناك وثيقة، أنا الآن بالذات غير موجود لأنه ليست لديَّ وثيقة».

صرخ كوروفييف: - «العفو، ما هذه إلا هلوسة، فها هي ذي وثيقتك»، وناول مرغريتا الدفتر المحروق الأطراف والوردة اليابسة والصورة الفوتوغرافية ثم دفتر التوفير بحرص شديد وهو يقول لها: «عشرة آلاف كما أودعتِها، يا مرغريتا نيقولايفنا، نحن لا يلزمنا مال الغير».

- «لتيبس قوائمي قبل أن أمدّها إلى مال الغير». هتف القط منتفخًا في غرور وهو يرقص على الحقيبة حتى يستطيع حشْر كل نسخ الرواية المشؤومة فيهًا.

وهذه وثيقتك أيضًا، تابع كوروفييف وهو يناول مرغريتا الوثيقة، ثم التفت إلى فولند يبلغه باحترام قائلًا: - «هذا كل شيء يا سيدي!».

أجابه فولند وهو يرفع عينيه عن المجسم: - «لا، ليس كل شيء، أين تأمرين أن أبدِّد حاشيتك يا سيدتي العزيزة، أنا شخصيًا لستُ بحاجة إليها».

وهنا هرعت ناتاشا داخلة من الباب المفتوح وهي عارية كما كانت، وبسطت يديها وصاحت تقول لمرغريتا:

- «رافقتك السعادة، يا مرغريتا نيقولايفنا!»، وأومأت برأسها إلى المعلِّم ثم التفتت إلى مرغريتا ثانية تقول لها: «كنتُ أعرف كل شيء عن زياراتك له».

لاحظ القط ورفع قائمته بحركة ذات معنى: - «الخادمات يعرفن كل شيء، وإنه لمن الخطأ أن نظن أنهن عمياوات».

سألتها مرغريتا: - «ما شأنك يا ناتاشا؟ عودي إلى الدار».

- «يا روحي يا مرغريتا نيقولايفنا»، قالت ناتاشا بضراعة وخرَّت على ركبتيها، وأشارت بطرف عينيها إلى فولند: «توسَّلي إليهم كي يبقوني ساحرة، لا أريد العودة إلى الدار بعد الآن! ولا أريد أن أتزوَّج مهندسًا ولا فنيًا! السيد جاك تقدَّم مني البارحة بعرض زواج»، وهنا بسطت كفَّها المقبوضة وأرتها قطعًا نقدية ذهبية.

التفتت مرغريتا إلى فولند في نظرة متسائلة فهز هذا رأسه بالإيجاب، إذَّاك ارتمت ناتاشا على عنق مرغريتا وقبَّلتها قبلات مدوِّية وأطلقت صيحة انتصار وانطلقت في الجو من النافذة.

وظهر نيقولاي إيفانوفتش حيث كانت ناتاشا. كان قد استعاد مظهره الإنساني السابق، لكنه في غاية التجهُّم بل لعله كان على شيء من الغيظ.

قال فولند وهو ينظر إلى نيقولاي إيفانوفتش باشمئزاز: - «هاكم من أطلق سراحه بسرور بالغ، بل بسرور مفرط لشد ما هو زائد هنا».

وقال نيقولاي إيفانوفتش وهو يلقي حوله نظرات وحشية إنما بعناد شديد:

- «أرجوكم رجاء حارًا إعطائي شهادة تبيِّن مكان تمضيتي الليلة السابقة».

سأله القط بصرامة: - «لماذا؟».

قال نيقولاي إيفانوفتش بلهجة حازمة: - «كي أقدمها إلى الشرطة، وإلى زوجتي».

أجاب القط مقطبًا جبينه: - «نحن عادة لا نعطي شهادات، لكن لأجلك لا بأس، نعطيك استثناء».

ولم يكد نيقولاي إيفانوفتش يفيق من ذهوله حتى كانت غيلا العارية تجلس وراء الآلة الكاتبة والقط يملي عليها:

- «أشهد أنّ حامل هذه الوثيقة نيقولاي إيفانوفتش أمضى الليلة المذكورة في الحفلة الراقصة التي أقيمت عند الشيطان، وقد استُقدم إلى هناك كواسطة نقل... افتحي قوسًا يا غيلا! واكتبي بين القوسين «خنزير». التوقيع بيغيموت».

صأى نيقولاي إيفانوفتش: - «والتاريخ؟».

- «نحن لا نضع تواريخ، الوثيقة ذات التاريخ ستصبح لاغية»، أجاب القط ووقّع بسرعة، ثم استخرج من مكان ما خاتمًا، وحسب الأصول نفخ عليه وطبع على الوثيقة «مدفوعة الأجر» وسلّمها إلى نيقولاي إيفانوفتش، وللحال اختفى هذا دون أن يترك أثرًا، وظهر مكانه شخص آخر غير متوقّع.

- «ومن هذا أيضًا؟». سأل فولند بتأفّف وهو يحجب بيده ضوء الشموع عن عينيه.

نكّس فارينوخا رأسه وتنهّد وقال بصوت خفيض:

- «أعيدوني إلى بيتي، فأنا لا يمكنني أن أكون مصاص دماء، في تلك المرة كدت أودي وغيلا بحياة ريمسكي! أنا لست سفاحًا متعطشًا للدم، أطلقوا سراحي!».

سأل فولند عابس الوجه: - «بماذا يهذي؟ من ريمسكي هذا؟ وما هذا الهذر؟».

- «لا تكلّف نفسك عناءً يا سيدي»، قال أزازيلو وخاطب فارينوخا قائلًا: «لا داعي للوقاحة على الهاتف، لا داعي للكذب على الهاتف. مفهوم؟ تعهّد لي أنك لن تعود إلى ذلك؟».

اختلطت الأشياء في رأس فارينوخا من الفرح وأشرق وجهه، وتمتم وهو لا يعي ما يقول:

- «والله... يعني... أريد أن أقول فخامـ... بعد الغداء حالًا»، وضمّ فارينوخا يديه إلى صدره وتطلّع إلى أزازيلو في ضراعة.

- «حسناً، هيّا إلى بيتك»، أجابه هذا، وذاب فارينوخا.

أمر فولند وهو يشير إلى المعلّم ومرغريتا: - «والآن دعوني جميعكم وحدي معهما».

ونُفِّذ أمر فولند في التو واللحظة، وبعد فترة صمت توجّه فولند بالكلام إلى المعلّم:

- «هكذا إذن، تريد العودة إلى القبو في أربات؟ ومن ذا الذي سيتابع الكتابة؟ والأحلام والإلهام؟».

أجاب المعلّم: - «أحلامي ضاعت والإلهام أيضًا ضاع، لا شيء حولي يعنيني إلّاها»، ووضع من جديد يديه على رأس مرغريتا. «لقد حطموني، ولقد مللت وأريد العودة إلى القبو».

- «وروايتك؟ وبيلاطس؟».

أجاب المعلِّم: - «أمقتها روايتي هذه، فقد عانيت منها أكثر مما ينبغي».

قالت مرغريتا بصوت حزين: - «أتوسَّل إليك، لا تتكلَّم هكذا، لماذا تعذبني هكذا؟ أنت تعرف إني أودعت عملك هذا حياتي كلها». وأضافت مرغريتا متوجِّهة إلى فولند: «لا تصغِ إلى ما يقوله يا سيدي، فهو في غاية الإعياء».

قال فولند: - لكن ألا يجب أن تصوِّر شيئًا ما؟ إذا كنت انتهيت من الحاكم، فأبدأ بتصوير ألوييزي هذا على الأقل».

ابتسم المعلِّم:

- «لابشيونيكوفا لن تطبع هذا، ثم إن هذا غير شائق».

- «ومم ستعيش إذن؟ في هذه الحالة ستُضطر إلى التسوُّل».

- «عن طيب خاطر، عن طيب خاطر»، أجاب المعلِّم وجذب مرغريتا إليه وطوَّق كتفيها وأضاف: «ستعود إلى رشدها وتتخلى عني...».

قال فولند من بين أسنانه: - لا أظنّ، لا أظنّ أنّ الشخص الذي كتب قصة بيلاطس البنطي يعود إلى القبو بقصد الانزواء هناك قرب المصباح والعيش في فقر مدقع».

تنحَّت مرغريتا عن المعلِّم قليلًا وقالت بحرارة بالغة:

- «فعلتُ كل ما في وسعي، وهمست في أذنه بأشد الوعود إغراء لكنه رفضها».

ردَّ فولند: - «أعرف تمامًا ما همستِ له، لكنه ليس أشدها إغراءً»، ثم ابتسم وخاطب المعلِّم قائلًا: «دعني أقل لك إن روايتك ستحمل لك مفاجآت أخرى».

أجاب المعلِّم: - «هذا محزن جدًا».

قال فولند: - «لا، لا، هذا غير محزن، لن يحدث أي شيء مخيف، والآن يا مرغريتا نيقولايفنا كل شيء جاهز، هل لكِ طلب آخر؟».

- «ماذا تقول يا سيدي، ماذا تقول!».

- «خذي إذن مني للذكرى»، قال فولند وأخرج من تحت الوسادة حدوة فرس ذهبية صغيرة مرصَّعة بالألماس.

- «لا، لا، لا، ما الداعي!».

تساءل فولند مبتسمًا: - «أتريدين مناقشتي؟».

وضعت مرغريتا الحدوة في فوطة، إذ لم يكن لبردتها جيب، ولفّتها، وهنا راع مرغريتا أمر، فقد التفتت إلى النافذة التي كان القمر يلمع فيها وقالت:

- «الشيء الذي لا أفهمه... أننا ما زلنا في منتصف الليل مع أنه حان للصبح أن ينجلي منذ فترة طويلة!».

أجاب فولند: - «تحلو لي إطالة ليلة العيد قليلًا، حسنًا، أتمنى لكما السعادة».

مدَّت مرغريتا إلى فولند كلتا يديها في ما يشبه الدعاء لكنها لم تجرؤ على الاقتراب منه وهتفت بصوت خافت:

- «الوداع! الوداع!».

قال فولند: - «إلى اللقاء».

وخرجا، مرغريتا في بردتها السوداء والمعلِّم في ثياب المستشفى، إلى الممر الذي في شقة زوجة الصائغ حيث كانت تضيء شمعة وتنتظرهما حاشية فولند، وعندما مضيا خارجين من الممر كانت غيلا تحمل الحقيبة وفيها الرواية وثروة مرغريتا نيقولايفنا الصغيرة بينما كان القط يساعدها، وعند باب الشقة انحنى كوروفييف محييًا واختفى، بينما مضى الآخرون يشيعون مرغريتا والمعلِّم. كان الدرج خاليًا، وحين اجتازوا بسطة الطابق الثالث سُمع صوت ارتطام خفيف. لكن أحدًا لم يعره اهتمامًا، وعند باب المدخل الخارجي السادس نفخ أزازيلو نفخة قوية في الهواء، وما إن خرجوا إلى الفناء الذي لم ينفذ إليه ضوء القمر حتى، رأوا في المدخل المسقوف شخصًا يعتمر قبعة وينتعل جزمه وهو نائم نوم الأموات على ما يبدو، كما رأوا سيارة سوداء كبيرة مطفأة الأنوار تقف في مدخل البناية ومن خلال زجاجها الأمامي يلوح طيف غراب.

كانوا يتأهَّبون لصعود السيارة حين أطلقت مرغريتا في يأس صيحة خافتة:

- «يا إلهي! أضعت الحدوة!».

قال أزازيلو: - «اصعدا وانتظراني، سأعود فور تبيُّن الأمر». وعاد أدراجه.

وهاكم هذا الأمر، قبل فترة وجيزة من خروج مرغريتا والمعلِّم وتشيِّيعهما، خرجت إلى الدرج من الشقة رقم 48 الكائنة تحت شقة زوجة الصائغ امرأة يابسة العود تحمل صفيحة وحقيبة يدوية، ولم تكن تلك المرأة سوى آنوشكا، تلك التي أراقت الزيت، لسوء حظ برليوز، عند باب الحديقة يوم الأربعاء.

لم يكن أحد يعرف، ولعله لن يعرف أحد قط، ماذا كانت تشتغل هذه المرأة في موسكو، ولا مما كانت تتعيَّش. كل ما كان يُعرف عنها أنه كان بالإمكان مشاهدتها يوميًا، وهي تحمل إما صفيحة أو حقيبة يدوية، وإما صفيحة وحقيبة يدوية معًا، في دكان بيع مشتقات النفط أو في السوق أو عند البوَّابة أو على درج، إنما كانت تشاهد أغلب الأحيان في مطبخ الشقة رقم 48 حيث كانت تسكن آنوشكا هذه. وإلى هذا كله

وفوق هذا كله كان من المعروف أنه ما إن توجد آنوشكا في مكان أو تظهر فيه حتى تجلجل فيه فضيحة، زد على ذلك أنها عُرفت بين الناس باسم «الطاعون».

ولسبب ما كانت آنوشكا – الطاعون تنهض باكرًا جدًا في العادة، أما اليوم فقد أيقظها شيء ما أبكر من عادتها، في بداية الساعة الواحدة ليلًا، دار في الباب المفتاح وبرز أنف آنوشكا أولًا ثم برزت آنوشكا كلها، وما إن صفقت وراءها الباب وأخذت تتهيأ للتحرُّك إلى مكان ما، حتى انفتح الباب في البسطة العليا في دويٍّ وتدحرج شخص ما على الدرج دافعًا آنوشكا وقاذفًا بها جانبًا بحيث اصطدم قفاها بالجدار.

– «إلى أين دفع بك الشيطان في سروالك الداخلي وحده؟». وَلْوَلت آنوشكا وقد أمسكت بقفاها. لكن أجابها الرجل ذو العينين المغمضتين الذي لم يكن عليه إلا ثيابه الداخلية وقبعة وفي يده حقيبة بصوت وحشي ناعس:

– «مسخِّن الماء! حمض الكبريتيك! التكليس وحده كم كلَّف!». وصاح بعد أن استعبر: «هيَّا خارجًا!». وهنا انطلق ولكن لا ليكمل طريقه إلى الأسفل بل صاعدًا الدرج إلى حيث النافذة التي حطَّم الاقتصادي زجاجها برجله، ومن هذه النافذة طار إلى الفناء وساقاه إلى الأعلى. ونسيت آنوشكا حتى قفاها، فتأوَّهت واندفعت إلى النافذة. انبطحت على بطنها إلى البسطة وأطلَّت برأسها تتطلَّع إلى الفناء وهي تتوقَّع أن ترى على الأسفلت المضاء بمصباح الفناء الرجل ذا الحقيبة محطَّمًا ومشرفًا على الموت، لكنه لم يكن على الأسفلت في الفناء شيء من هذا إطلاقًا.

بقيَ افتراض وهو أن هذه الشخصية الغريبة والناعسة انطلقت من البيت محلِّقة كالطائر دون أن تترك أثرًا، رسمت آنوشكا إشارة الصليب وقالت في نفسها: «نعم، بالفعل الشقة رقم 50! ليس عبثًا ما يقول الناس! نعم يا لها من شقة!».

وما كادت تقول ما قالته حتى اصطفق الباب ثانية في الأعلى واندفع شخص آخر هابطًا. التصقت آنوشكا بالجدار ورأت مواطنًا محترمًا إلى حدٍّ ما، ذا لحية صغيرة لكنه ذو وجه يشبه سحنة الخنزير قليلًا في ما بدا لآنوشكا، يمرق بمحاذاتها ويغادر البناية كالأول تمامًا من النافذة دون أن ينوي هو الآخر أن يتحطَّم على الأسفلت، كانت آنوشكا قد نسيت الآن الهدف من خروجها، فجمدت في مكانها على الدرج ترسم إشارة الصليب وتتأوَّه وتحدِّث نفسها.

وبعد فترة قصيرة اندفع يهبط الدرج شخص ثالث دون لحية، ذو وجه مدوَّر حليق يرتدي قميصًا واسعًا وانسلَّ كسابقيه طائرًا من النافذة.

يجب الاعتراف لآنوشكا بأنها كانت مُحبَّة للمعرفة ولهذا قرَّرت التريُّث قليلًا لعله

تحدث خوارق جديدة، وبالفعل فُتح الباب في الطابق الأعلى من جديد. وأخذت تهبط الدرج شلَّة كاملة، إنما ليس ركضًا، بل في مشية عادية كما يسير باقي الناس، أسرعت آنوشكا تبتعد عن النافذة وتهبط الدرج إلى بابها، فتحت الباب بسرعة واختبأت خلفه، ولمعت في الشق الذي تركته آنوشكا عين تتحرَّق فضولًا.

كان يهبط الدرج بخطوات مترنِّحة شخص لم تتبيَّن بالضبط إن كان مريضًا أم لا، لكنه كان شخصًا غريبًا، شاحب اللون ذا لحية نامية يضع طاقية صغيرة سوداء ورداء غريب الشكل، تمسكه من يده بعناية سيدة في رداء أسود كما بدا لآنوشكا في نصف العتمة المخيِّمة، كانت السيدة حافية القدمين أو لعلها كانت تنتعل حذاءً شفَّافًا، ربما كان مستوردًا، وممزقًا تمامًا، تفو! ما أتفه الحذاء وما فيه بالمقارنة مع ما ترى! السيدة عارية! نعم، الرداء ملقى مباشرة على جسم عارٍ! «يا لها من شقة!» كانت نفس آنوشكا تتهلَّل منتشية مسبقًا بما ستخبر به غدًا الجيران.

وكانت تتبع السيدة المرتدية هذه الأردية الغريبة سيدة أخرى عارية تمامًا أيضاً تحمل بيدها شنطة صغيرة، وإلى جانب الشنطة يسعى قط أسود هائل الحجم، فركت آنوشكا عينيها وهي تكاد تصرخ بصوتٍ حادٍ.

وكان يسير في مؤخرة الركب شخص أجنبي ضئيل الحجم يعرج قليلًا ذو عين عوراء لا يلبس جاكيتة بل صدرية فراك بيضاء مع ربطة عنق، وجازت الجماعة كلها آنوشكا هابطة الدرج، وهنا سُمع صوت شيء يسقط على البسطة، تريَّثت آنوشكا حتى خفتت الأقدام وانسلَّت كالحية من خلف الباب، ووضعت الصفيحة عند الجدار وانبطحت على بطنها على البسطة وأخذت تبحث بيديها، فإذا بهما تقعان على فوطة فيها شيء ثقيل، وانعقدت عيناها فوق جبينها من الدهشة حين فكت الصرة، قرَّبت آنوشكا الكنز الثمين حتى عينيها تمامًا، وتوقَّدت هاتان العينان بنار ذئبية تمامًا، وعصفت الأفكار برأسها كالإعصار: «لا رأيتُ ولا عرفتُ!... إلى ابن أختي؟ أم أنشرها إلى أجزاء! الأحجار يمكن انتزاعها... وبيعها حجرًا حجرًا طورًا في سوق بيتروفكا، وطورًا في سوق سمسولنسكي... ولا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت!».

خبَّأت آنوشكا اللقية في عبها وخطفت الصفيحة وعزمت على التسلُّل ثانية إلى شقتها مؤجِّلة جولتها في المدينة، حين انتصب أمامها دون أن تدري كيف ومن أين ذلك الشخص إياه ذو الصدر الأبيض الذي لا يرتدي جاكيتة وهمس قائلًا:

- «هاتِ الحدوة والفوطة».

سألت آنوشكا التي كانت تجيد التصنُّع: - «أي حدوة وفوطة؟ ألست سكرانًا أيها المواطن؟».

وبيدين صلبتين كصلابة درابزين الباص، وبأصابع باردة كبرودته، ضغط الرجل ذو الصدر الأبيض على حلق آنوشكا دون أن ينبس بكلمة، بحيث حبس الهواء عن صدرها، وسقطت الصفيحة من يد آنوشكا على الأرض. وبعد أن حبس الأجنبي، الذي من دون جاكيتة، الهواء عن آنوشكا بعض الوقت، فكَّ أصابعه عن عنقها، فعبَّت آنوشكا بعض الهواء وابتسمت تقول:

- «آه، الحدوة، لحظة! هذه هي حدوتك إذن؟».

بعد أن تناول الأجنبي الحدوة والفوطة، أخذ ينحني محيّيًا وهو يخفق بقدميه، ويشد على يدها بقوة ويشكرها بحرارة بتعابير ذات لكنة أجنبية صارخة:

- «أشكر لكِ معروفكِ عميق الشكر يا مدام. هذه الحدوة عزيزة على نفسي كذكرى، واسمحي لي أن أقدِّم لكِ مائتي روبل لقاء احتفاظك بها». وأخرج من جيب صدريته مائتي روبل على الفور وناولها لآنوشكا.

ولم يكن من آنوشكا إلا أنها أخذت تصرخ وابتسامتها تعرض وتعرض:

- «آه، شكرًا جزيلًا! ميرسي! ميرسي!».

هبط الأجنبي الكريم قلبة الدرج بخطوة واحدة، لكنه صرخ من الأسفل قبل أن يختفي تمامًا، إنما دون لكنة هذه المرة:

- «وأنتِ أيها العجوز الشمطاء، إذا وجدتِ مرَّة أخرى شيئًا ليس لك، سلميه إلى الشرطة ولا تخبئيه في عبّكِ!».

أما آنوشكا التي أحسَّت بطنين وضوضاء في رأسها من كل هذه الأحداث التي تجري على الدرج، فقد استمرت تصرخ طويلًا بفعل القصور الذاتي: «ميرسي! ميرسي! ميرسي!». بينما لم يعد للأجنبي من أثر منذ فترة طويلة.

ولم يعد من أثر للسيارة في الفناء، فبعد أن أعاد أزازيلو هدية فولند إلى مرغريتا سألها إن كانت مرتاحة في مقعدها وودَّعها وتبادلت غيلا ومرغريتا قبلات ريانة وانحنى القط على يدها مقبِّلًا، ولوَّح المشيِّعون بأيديهم للمعلم المتهالك في مؤخرة السيارة دون حياة وحراك، كما لوَّحوا للغراب، وسبحوا للحال في الهواء معتبرين أن لا ضرورة لان يكلِّفوا أنفسهم عناء صعود الدرج، أشعل الغراب مصابيح السيارة ومضى خارجًا بها من البوَّابة مجتازًا الرجل النائم نوم الأموات في الممر، وضاعت أنوار السيارة الكبيرة السوداء وسط الأضواء الأخرى في شارع سادوفايا الساهر والصاخب.

بعد ساعة وفي قبو بيت صغير في أحد أزقة أربات، وفي الغرفة الأولى حيث كان كل شيء كما في السابق قبل تلك الليلة الخريفية المريعة من ليالي العام الماضي،

كانت مرغريتا تجلس إلى طاولة مغطّاة بسماط مخملي قرب مصباح ذي واقية وقربه آنية صغيرة من سوسن الوادي منخرطة في بكاء خافت من الصدمة والسعادة اللتين عاشتهما، كان الدفتر الذي شوّهته النار ملقى أمامها، في حين ارتفعت إلى جانبها رزمة الدفاتر السالمة، كان البيت صامتًا وفي الحجرة الصغيرة المجاورة كان المعلّم يغط في نوم عميق متمدّدًا على الديوان ومغطى بثوب المستشفى وكان تنفسه منتظمًا هادئًا.

وبعد أن ارتوت مرغريتا بكاء، أمسكت الدفاتر السالمة وراحت تبحث فيها حتى وجدت المكان الذي كانت تعيد قراءته قبل لقائها بأزازيلو عند جدار الكرملين، لم تكن مرغريتا تشعر برغبة في النوم، فأخذت تمسح على المخطوط بلطف كما يُمسح على قطة محبوبة وتقلّبه بين يديها وتتفحصه من كل جوانبه متوقّفة عند صفحة العنوان تارة، فاتحة المخطوط من آخره تارة أخرى. وفجأة دهمتها فكرة مريعة أن هذا كله سحر في سحر. وأن الدفاتر ستختفي الآن من أمام عينيها، وأنها ستجد نفسها في مخدعها في دارها وأنه لا مناص لها بعد أن تستيقظ من أن تمضي وترمي بنفسها في الماء، لكن هذا لم يكن إلا آخر فكرة مريعة تراودها، لم يكن إلا صدى الآلام الطويلة التي كابدتها، لم يختفِ شيء، وفولند الكلّي القدرة كان بالفعل كلّي القدرة، وكان بإمكان مرغريتا أن تجلس قدر ما يحلو لها حتى ولو إلى طلوع الفجر تقلّب صفحات الدفاتر وتتأمّلها وتلثمها وتعيد قراءة هذه الكلمات:

الظلمة الزاحفة من البحر الأبيض المتوسّط غطّت المدينة البغيضة إلى قلب الحاكم... نعم الظلمة...

## الفصل الخامس والعشرون

# كيف حاول الحاكم إنقاذ يهوذا الذي من قيريافا

الظلمة الزاحفة من البحر الأبيض المتوسِّط غطَّت المدينة البغيضة إلى قلب الحاكم، اختفت الجسور المعلَّقة التي تصل الهيكل ببرج أنطونيو الرهيب، وانهمرت من السماء لجَّة وغمرت الآلهة المجنحة وميدان الخيل وقصر الحشمونية ذا الكوى والأسواق والخانات والأزقة وبرك الماء... غارت أورشليم المدينة العظيمة وكأن لم يكن لها وجود، والتهمت الظلمة التي روَّعت كل حي في أورشليم وتخومها كل شيء. كانت سحابة سوداء غريبة تلك التي اندفعت من البحر في نهاية هذا اليوم، الرابع عشر من شهر نيسان الربيعي.

جثمت الغيمة ببطنها على الجبل الأقرع حيث كان الجلَّادون يطعنون المحكومين على عجل، وجثمت على الهيكل في أورشليم، وزحفت في تيارات دخانية من الربوة التي ينتصب عليها وغمرت الجزء السفلي من المدينة. كانت تتسلَّل من النوافذ وتسوق الناس من الشوارع الملتوية، لم تكن الغيمة تتعجَّل صب مائها، بل كانت تسخر بضوئها فقط، فما إن كانت هذه الكتلة الدخانية السوداء تنفث نارها، حتى كانت كتلة الهيكل العظيمة بقبتها المحرشفة اللامعة تشمخ في السماء خارجة من الظلمة الحالكة، لكن بريقها كان يخبو في لحظة ويغرق الهيكل في لجَّة الظلام من جديد، وثب الهيكل من الظلام وسقط فيه عدة مرات، وكان سقوطه يقترن في كل مرة بدويِّ الكارثة.

وكان بصيص أنوار أخرى راعشة يستنهض من اللجَّة قصر هيرودس العظيم القائم على الرابية الغربية مقابل الهيكل، فكانت التماثيل الذهبية العوراء الرهيبة ترتفع في الجو باسطة أيديها إلى السماء. لكن النار السماوية كانت تختفي من جديد، وكانت قصفات الرعد تعيد الأصنام الذهبية إلى الظلام.

انهمرت شآبيب المطر فجأة، واستحالت العاصفة الرعدية إعصارًا، وفي المكان

نفسه الذي تحدَّث فيه الحاكم والكاهن الأعظم عند الظهر قرب المقعد المرمري في الحديقة، تقصَّفت شجرة سرو كالعصا بصوت كقصف المدفع، وتطايرت الورود المقطَّعة وأوراق المنغوليا والأغصان الصغيرة والحصى مختلطة برذاذ المطر والبَرَد إلى الشرفة ذات الأعمدة. كان الإعصار يسوم الحديقة العذاب.

في هذا الوقت لم يكن تحت الأعمدة إلا شخص واحد، وكان الحاكم هو هذا الشخص.

لم يكن يجلس الآن على الأريكة. بل كان يضطجع على متكأ أمام طاولة واطئة صُفَّت عليها المأكولات ودوارق الخمر، وفي الطرف الآخر المقابل من الطاولة متكأ آخر خالٍ، وكانت تنبسط عند قدميه بركة حمراء كأنها من دم لم تُمسح آثارها، وتتناثر شظايا دورق محطّم، كان الخادم الذي يعد المائدة للحاكم قبل العاصفة قد ارتبك لسبب ما من نظرته المصوَّبة إليه واضطرب خوفًا من أن يكون أساء إلى الحاكم في أمر، فاستبد بالحاكم غضب شديد وحطَّم الدورق على الأرض المغطاة بالفسيفساء وهو يقول:

- «لماذا لا تنظر إلى وجهي حين تناولني شيئًا؟ أتكون سرقت شيئًا؟».

استحال وجه الأفريقي الأسود بلون الرماد، ولاح في عينيه رعب قاتل، فارتعد وكاد يحطِّم دورقًا ثانيًا، لكن غضب الحاكم زايله لسبب ما بسرعة كما ركبه، واندفع الأفريقي يجمع الشظايا ويمسح البركة، لكن الحاكم لوَّح بيده فهُرع العبد خارجًا وبقيت البركة.

والآن أثناء الإعصار كان الأفريقي يختبئ قرب المحراب، حيث تمثال امرأة بيضاء عارية حانية الرأس، خائفًا في آنٍ من الظهور أمام الحاكم في وقت غير مناسب ومن التخلّف عن الظهور أمامه لحظة يستدعيه.

كان الحاكم المستلقي على متكئه في نصف العتمة التي أشاعتها العاصفة الرعدية يسكب الخمر لنفسه في كأس، ويشربها في جرعات طويلة، وهو يمد يده إلى الخبز من وقت لآخر فيكسره ويبلعه قطعًا صغيرة، ويمصُّ المحار ويلوك الليمون ثم يعود إلى الشرب.

ولولا هدير الماء، ولولا زمزمات الرعد التي كانت تهدِّد، في ما بدا، باقتلاع سطح القصر، ولولا نقر البَرَد الذي كان يطرق بشدة على درجات الشرفة، كان بالإمكان سماع الحاكم يغمغم محدِّثًا نفسه. ولو أن الارتعاش المتقطِّع من نار السماء استحال ضوءًا متصلًا، لاستطاع الملاحظ أن يرى أنَّ وجه الحاكم بعينيه المحمَرَّتين من أرق

الليالي الأخيرة ومن الخمر ينم عن نفاد الصبر، وأن الحاكم لا ينظر فقط إلى الوردتين البيضاوَين الغارقتين في البركة الحمراء، بل يتحوَّل بوجهه باستمرار إلى الحديقة في مواجهة رذاذ المطر والرمل، وأنه ينتظر شخصًا ما، ينتظره بفارغ صبر.

ولم يمضِ إلا وقت يسير، حتى أخذت كثافة الغشاوة المائية تخف أمام عيني الحاكم، إذ دَبَّ الوهن في الإعصار رغم عنفه، فلم تعد الأغصان تطقطق وتتساقط، وتباعدت زمزمة الرعد والتماعات البرق، لم يعد يسبح فوق أورشليم الآن نقاب بنفسجي ذو حاشية بيضاء بل غيمة رمادية عادية متخلِّفة، كانت العاصفة الرعدية تندفع الآن باتجاه البحر الميت.

وغدا بالإمكان الآن تمييز صوت المطر وصوت الماء المندفع في الميازيب ثم على تلك الدرجات التي مضى عليها الحاكم ظهرًا لإعلان الحكم في الساحة، وأخيرًا، سُمعت سقسقة الفسقية التي كانت مخنوقة حتى الآن، وأشرقت الدنيا من جديد، وظهرت في الغشاوة الرمادية الهاربة إلى الشرق نوافذ زرق.

وهنا تناهت إلى سمع الحاكم من بعيد أصوات أبواق واهنة ووقع بضع مئات من الحوافر تشق إليه طريقها من خلال صوت المطر القليل، تحرك الحاكم لدى سماعه هذه الأصوات ودبت الحياة في وجهه. كانت الكتيبة السورية تعود أدراجها من الجبل الأقرع، وكانت تجتاز الآن، فيما يظهر من أصواتها، الساحة ذاتها التي أعلن فيها الحُكم.

وأخيرًا سمع الحاكم الخطوات التي طال انتظارها، وصعودًا متثاقلًا على الدرج المؤدي إلى الحديقة العلوية أمام الشرفة مباشرة، اشرأبَّ الحاكم بعنقه ولمعت عيناه بالفرح.

وبدا بين الأسدين المرمريَّين رأس داخل قلنسوة أولًا، ثم شخص مبلَّل تمامًا في بردة ملتصقة بجسمه، ولم يكن هذا الشخص إلا ذاك الذي تهامس والحاكم في غرفة القصر العاتمة قبل إعلان الحكم، والذي جلس على الكرسي الثلاثي القوائم أثناء تنفيذه وهو يلعِّب عصاه.

اجتاز الرجل ذو القلنسوة أرض الحديقة دون أن يتبيَّن البُرَك التي فيها، وداس الشرفة الفسيفسائية، وقال بصوت عالٍ لطيف وهو يرفع يده:

- «أمنياتي للحاكم بطول العمر والسعادة». كان القادم يتكلم باللاتينية.

صاح بيلاطس: - «أيتها الآلهة! ليس هناك من خيط واحد جاف على جسمك! أي إعصار كان؟ آ؟ أرجوك أن تدخل جناحي على الفور، وتتكرَّم بتغيير ملابسك».

نزع القادم قلنسوته عن رأس مبلّل بالماء تمامًا وشعر ملتصق بجبينه، وبعد أن رسم على وجهه الحليق ابتسامة متأدّبة أخذ يعتذر عن تغيير ملابسه مؤكدًا أن المطر لا يمكن أن يؤذيه.

- «لا أريد أن أسمع إلى شيء مما تقوله»، أجاب بيلاطس وصفّق بيديه، وبهذا استدعى خَدَمه المتوارين عنه، ثم أمرهم بالاعتناء بالقادم وتقديم طعام ساخن على الفور. ولم يلزم القادم إلى الحاكم إلا القليل من الوقت كي يجفّف شعره ويغيِّر ملابسه وحذاءه، وباختصار كي يرتِّب نفسه، وسرعان ما بدا على الشرفة في خفٍّ جافٍّ وفي بردة عسكرية جافّة قرمزية وشعر مسوًّى.

في هذا الوقت عادت الشمس إلى أورشليم، وأخذت، قبل أن تغادر وتغرق في البحر الأبيض المتوسط، ترسل أشعة الوداع إلى المدينة البغيضة إلى قلب الحاكم، وتُذهِّب درجات الشرفة. دبَّت الحياة كاملة في الفسقية وأخذت تسقسق بملء قوتها، وحطَّت الحمائم على الحصى وراحت تهدل وتتوائب فوق الأغصان المكسَّرة وتنقر شيئًا ما في الرمل الرطب. كانت البركة الحمراء قد مُسحت والشظايا رُفعت والبخار يتصاعد من اللحم على المائدة.

قال القادم وهو يدنو من الطاولة: - «كلِّي آذان صاغية لما يأمر به الحاكم».

- «لن تسمع مني شيئًا قبل أن تجلس وتتناول بعض الخمر». أجاب بيلاطس بلطف وأشار إلى المتكأ الآخر.

استلقى القادم فسكب له أحد الخدم خمرًا حمراء كثيفة، وملأ خادم آخر كأس الحاكم وهو ينحني فوق كتفه بحذر، وصرف هذا خادميه بإشارة منه، وفيما كان القادم يشرب ويأكل، كان بيلاطس يرشف الخمر ويلقي بين الحين والحين نظره إلى ضيفه بعينين نصف مغمضتين. كان الرجل الذي مَثَل بين يدي بيلاطس شخصًا في متوسط العمر ذا وجه مدوَّر لطيف وأنيق، وأنف لحيم وشعر يتعذَّر تحديد لونه، لكنه الآن قد جفَّ وبدا أشقر، وكان من الصعب على المرء تحديد جنسيته. ولعل الشيء الأساسي الذي كان يميِّز وجهه هو تعبير الطيبة الذي كانت عيناه تشوِّهانه بالمناسبة، والأصح القول ليس عينيه، بل طريقة القادم في النظر إلى محدِّثه، كان في العادة يثبِّت عينيه الصغيرتين تحت جفنين مغمضين وغريبين قليلًا كأنهما منتفخان، إذَّاك كان ينوِّر من أشعة هاتين العينين مكر لا ينم عن شر، ويجب الافتراض أن ضيف الحاكم كان ميَّالًا للفكاهة، لكنه كان أحيانًا يطرد هذه الفكاهة المشعَّة من شقَّي عينيه فيفتح جفونه على اتساعها، ويحدِّق في محدثه بغتة وبعناد كأنه يريد أن يتبيَّن بسرعة لطخة خفية على

أنف محدثة، لكن هذا لم يكن يستمر إلا لحظة، تعود جفونه بعدها لتنطبق وتضيق عن شقَّين، وتود الطيبة والفطنة الماكرة تشرقان منهما.

لم يرفض القادم كأسًا ثانيةً من الخمر، والتهم بضع محارات وذاق بعض الخضار المسلوق، وأكل قطعة لحم بلذَّة ظاهرة، وراح، بعد أن شبع، يطري الخمرة:

- «كرمة ممتازة أيها الحاكم، ألا تكون «فاليرنو»؟».

أجابه الحاكم بلطف: - «لا، إنها «تسيكوبا» عمرها ثلاثون سنة».

وضع الضيف يده على قلبه، ورفض تناول شيء آخر وأعلن أنه شبع. إذَّاك ملأ بيلاطس كأسه فتبعه ضيفه، وسكب الجليسان بعض الخمر من كأسيهما على قصعة اللحم وقال الحاكم بصوتٍ عالٍ وهو يرفع كأسه:

- «نخبنا، ونخبك أيها القيصر، يا أب الرومان يا خير الناس وأعزّهم».

وأتيا على ما في كأسيهما من الخمر، ثم رفع الأفريقيان المأكولات عن المائدة ولم يُبقيا إلا على الفواكه والدوارق، ومرة أخرى صرف الحاكم خادميه بإشارة منه وبات وحده مع ضيفه تحت الأعمدة.

قال بيلاطس بصوت خفيض: - «أي... ما الذي يمكنك أن تقوله لي عن الحالة النفسية السائدة في هذه المدينة؟».

وحوَّل بصره إلى أسفل، وراء مدرَّجات الحديقة، حيث كانت الأعمدة والأسطح المستوية المذهَّبة بأشعة الشمس الأخيرة في الرمق الأخير من توهّجها.

- «أعتقد أيها الحاكم أن الحالة في أورشليم باتت مُرضية».

- «بحيث يمكن التأكيد أن الاضطرابات لم تعد تتهددنا؟».

أجاب الضيف وهو يرنو إلى الحاكم برِقَّة: - «لا يمكن الاعتماد على شيء في هذه الدنيا اللهم إلا على جبروت قيصر العظيم».

- «ألا فلتمتعه الآلهة بالعمر المديد والسلام العام»، تابع الحاكم مؤيدًا على الفور وصمت قليلًا ثم أردف: «تعتقد إذن بإمكان سحب القوات من المدينة؟».

- «اعتقد بإمكان سحب كتيبة الصاعقة»، أجاب الضيف وأضاف: «لا بأس في أن تقوم باستعراضٍ في المدينة لدى مغادرتها».

قال الحاكمُ محبِّذًا: - «فكرة ممتازة، بعد غدٍ آمر بسحبها ثم أغادرِ أنا أيضًا، وأقسم لك بمأدبة الاثنى عشر إلهًا وبأرواح أجدادنا أني على استعداد للتخلّي عن الكثير كي أفعل هذا اليوم قبل الغد».

سأله الضيف بلطف: - «أولا يحب الحاكم أورشليم؟».

هتف الحاكم وهو يتبسم: - «حنانيك، لا يوجد على الأرض مكان أشد كآبة من هذا المكان! ناهيك عن الطبيعة! إني أمرض في كل مرة يترتب عليَّ القدوم إلى هنا، لكن هذا ليس إلا نصف المصيبة، وهذه الأعياد؛ من سحرة ومشعوذين وقطعان حجّاج... متعصِّبون متعصِّبون! وهذا المسيح الذي أخذوا يتوقَّعون مجيئه فجأة هذا العام كم كلَّفنا وحده! في كل دقيقة وأنت تتوقَّع أن تصبح شاهدًا على سفك شنيع للدماء، وطوال الوقت إعادة ترتيب القوات وقراءة الإخباريات والوشايات، ونصفها على الأقل ضدك! لا بد أن توافقني على أن هذا ممل! آه، لولا خدمة الإمبراطور».

قال الضيف موافقًا: - «نعم، الأعياد هنا ثقيلة الوطأة».

أردف بيلاطس بقوة: - «أرغب من صميم قلبي في انتهاء هذه الأعياد سريعًا، فأتمكَّن أخيرًا من العودة إلى قيصرية، هل تصدِّق أن بناء هيرودس الهذياني هذا»، ولوَّح الحاكم بيده على طول رواق الأعمدة، بحيث اتضح أنه يتكلَّم عن القصر، «هل تصدق أن هذا البناء يذهب بعقلي فعلًا، إني لا أستطيع النوم فيه، العالم لم يعرف هندسة بناء أغرب من هذه الهندسة. لكن لنعد إلى شؤوننا، أولًا برَّابان الملعون هذا لا يقلقك أمره؟».

وهنا صوَّب الضيف نظرته الخاصة إلى خد الحاكم، لكن هذا كان يرنو بعينين تفيضان بالملل إلى البعيد مقطِّبًا ومتأمِّلًا ذلك الجزء من المدينة المنبسط أمامه والمنطفئ في ساعة المغيب، وانطفأت نظرة الضيف أيضًا وانسدلت جفونه.

- «لا بد أن برَّابان أصبح الآن مأمونًا كالحمل»، قال الضيف وظهرت الغضون على وجهه المدوَّر. «إذ يصعب عليه التمرُّد الآن».

لاحظ بيلاطس مبتسمًا في سخرية: - «ألأنه أصبح جدّ مشهور؟».

- «الحاكم كعادته يدرك المسائل بدِقَّة!».

- «وعلى أي حال»، لاحظ الحاكم مهمومًا، وارتفعت إلى الأعلى إصبعه الطويلة الرقيقة بخاتمها ذي الحجر الأسود، «يترتَّب...».

- «أو، بوسع الحاكم أن يكون على يقين من أن برَّابان لن يخطو خطوة واحدة دون مراقبة ما دمت في اليهودية».

- «الآن أنا مطمئن النفس، كما أكون، بالمناسبة، مطمئنًا دائمًا حين تكون هنا».

- «الحاكم في غاية الطيبة!».

قال الحاكم: - «والآن أرجوك أن تحدِّثني عن تنفيذ الحكم».

- «وما الذي يثير اهتمام الحاكم بالضبط؟».
- «ألم تجرِ من قِبل الجمهور محاولات للتعبير عن الاستياء؟ هذا هو الشيء الرئيسي بطبيعة الحال».
أجاب الضيف: - «لا، إطلاقًا».
- «ممتاز، وأنت بنفسك تأكَّدت من حدوث الوفاة؟».
- «بوسع الحاكم أن يكون واثقًا من هذا».
- «قل لي أيضًا... هل عرضتم عليهم شرابًا قبل صلبهم؟».
- «نعم، لكنه»، وهنا أغمض الضيف عينيه، «لكنه رفض أن يشرب».
سأل بيلاطس: - «من الذي رفض؟».
هتف الضيف: - «عفوك أيها الوالي! أتراني لم أذكر اسمه؟ الغانوصري».
- «يا للمجنون!»، قال بيلاطس مكشِّرًا لسبب ما، واختلج تحت عينه اليسرى عِرق، «يموت من حروق الشمس، لماذا يرفض ما هو من حقه قانونًا، وبأي عباراتٍ رفض؟».
أجاب الضيف وهو يغمض عينيه من جديد: - «قال إنه شاكر ولا يتّهم أحدًا بقتله».
سأل بيلاطس بصوت خافت: - «يتَّهم من؟».
- «هذا ما لم يقله أيها الوالي».
- «ألم يحاول التبشير بشيءٍ ما في حضرة الجنود؟».
- «لا، أيها الوالي، كان مقلًا في كلامه هذه المرة، الشيء الوحيد الذي قاله إنه يعتبر الجبن نقيصة من أخطر النقائص الإنسانية».
سمع الضيف صوتًا متهدِّجًا بغتة: - «وما المقصود بهذا القول؟».
- «هذا ما تعذَّر فهمه، كان يتصرَّف على نحو غريب، كعهده دائمًا على أي حال».
- «وما وجه الغرابة؟».
- «كان يحاول طول الوقت أن يسترق نظرة إلى عيني هذا أو ذاك من المحيطين به، وكان يبتسم طول الوقت ابتسامة ذاهلة».
سأل الصوت المبحوح: - «وماذا هناك أيضًا؟».
- «لا شيء».
نقر الحاكم الكأس وهو يملؤها لنفسه خمرًا، وبعد أن أفرغها قال:
- «الموضوع هو التالي: على الرغم من أننا لا نستطيع أن نجد، في الوقت الراهن على الأقل، أي متعاطف معه أو أي تابع له، إلا أنه لا يجوز لنا الاطمئنان مع هذا إلى عدم وجودهم إطلاقًا».

كان الضيف يصغي باهتمام حاني الرأس، وأردف الحاكم يقول:

- «وهكذا، وتحسُّبًا لأي مفاجآت ممكنة أرجوك أن تمحو من وجه الأرض، فورًا ودون أي ضجَّة، أجساد المحكومين الثلاثة كلهم وتدفنها سرًا وفي صمت كي يختفي أي أثر لهم».

- «سمعًا وطاعة، أيها الوالي»، قال الضيف ونهض: «اسمح لي بالانطلاق فورًا نظرًا لصعوبة الأمر وخطورته».

- «لا، بل امكث قليلًا»، قال بيلاطس مستوقفًا ضيفه بإشارة منه، «هناك موضوعان آخران، الثاني أن خدماتك الجليلة في عملك الشاق هذا بوصفك رئيس الجهاز السري لدى حاكم اليهودية تتيح لي فرصة لطيفة لإبلاغ روما بالأمر».

هنا تورَّد وجه الضيف فنهض وانحنى للحاكم وهو يقول: - «جلّ ما أفعله أنني أؤدي واجبي في خدمة الإمبراطور!».

وتابع الوالي: - «بودّي، فيما لو عُرض عليك النقل من هنا مع ترقية، رفض النقل والبقاء هنا، فأنا لا أود الافتراق عنك مهما يكن وليكافئوك بأي طريقة أخرى يرونها».

- «تسعدني الخدمة تحت إمرتك أيها الوالي».

- «وهذا من دواعي سروري البالغ، والآن إلى الموضوع الثالث وهو يتعلَّق بهذا الذي اسمه... يهوذا الذي من قيريافا».

وهنا صوَّب الضيف نظرته الخاصة إلى الحاكم، وسرعان ما أطفأها كما هو مفروض.

وتابع الحاكم كلامه، وهو يخفض صوته:

- «يُقال إنه قبض مالًا، في ما يبدو، لقاء استقباله هذا الفيلسوف المجنون في بيته هذا الاستقبال الحافل».

قال رئيس الجهاز السري بصوت خافت مصحِّحًا: - «سيقبض».

- «وهل المبلغ كبير؟».

- «هذا ما لا يستطيع أحد أن يعرفه أيها الوالي».

قال الوالي معبرًا باستغرابه عن إطرائه الضيف: - «حتى أنت؟».

أجابه الضيف بهدوء: - «حتى أنا للأسف، لكني أعلم علم اليقين أنه سيستلم هذه النقود اليوم مساء، فقد استُدعيَ اليوم للحضور إلى قصر قيافا».

لاحظ الحاكم وهو يبتسم: - «آه، يا لهذا الهَرِم القيريافي الجشع، إنه هرم أليس كذلك؟».

أجاب الضيف بأدب ولطف: - «الحاكم لا يخطئ أبدًا، لكنه أخطا هذه المرة، القيريافي ليس إلا شابًا».

- «عجيب! هل تستطيع إعطائي أوصافه؟ هل هو متعصب؟».
- «لا، لا، أيها الحاكم».
- «حسن، وهل هناك شيء أخر؟».
- «وسيم جدًا».
- «وماذا أيضًا، هل لديه شهوة ما؟».
- «من الصعب أن نعرف الجميع بدقة في هذه المدينة الضخمة، أيها الوالي...».
- «لا، لا، يا أفراني! لا تقلِّل من شأن أفضالك!».
- «لديه شهوة واحدة، أيها الحاكم»، وتوقَّف الضيف هنيهة ثم أردف: «شهوة المال».
- «وماذا يعمل؟».

رفع أفراني عينيه إلى الأعلى وفكَّر قليلًا وأجاب:

- «يعمل في محل صرافة لدى أحد أقاربه».
- «حسن، حسن»، وهنا صمت الحاكم وتلفَّت حوله لعل أحدًا على الشرفة، ثم قال بصوت خافت: «الموضوع أني تلقَّيت اليوم معلومات تفيد أنه سيُذبح هذه الليلة».

وهنا لم يسدِّد الضيف نظرته إلى الحاكم وحسب، بل ثبتها عليه قليلًا ثم أجاب:

- «لقد بالغتَ في إطرائي أيها الحاكم، وفي رأيي أني لا أستحق معرفة هذه المعلومات، فهذه المعلومات ليست متوفِّرة لديَّ».

أجابه الحاكم: - «أنت جدير بأسمى المكافآت، لكن لديَّ معلومات من هذا القبيل».

- «هل لي أن أتجرَّأ وأسأل عن مصدر هذه المعلومات؟».
- «اسمح لي ألّا أقول لك شيئًا الآن، لا سيما أن هذه المعلومات عارضة وغامضة وغير موثوقة، لكن من واجبي أن أحسب لكل شيء حسابه، هذا ما تفرضه عليَّ وظيفتي، وأكثر من ذلك عليَّ أن أصدِّق إحساسي الداخلي، فهو لم يخدعني أبدًا. أما معلوماتي فتفيد بأن أحد أصدقاء الغانوصري السرّيّين الذي أسخطته خيانة هذا الصرَّاف البشعة يسعى للاتفاق مع شركائه الآخرين على قتله الليلة، أما النقود التي تسلمها هذا لقاء خيانته فسيأخذونها ويدسّونها خفية عند باب الكاهن الأعظم مع وريقة تحمل هذه الكلمات: «أعيد لك النقود الملعونة!».

لم يعد رئيس الجهاز السري يرمي الوالي بنظراته المباغتة، بل واصل الاستماع مضيِّقًا عينيه إلى ما يقوله بيلاطس، وكان بيلاطس يتابع كلامه:

- «تصوَّر، هل سيسر الكاهن الأعظم بتلقي هدية كهذه في ليلة العيد؟».

أجاب الضيف وهو يبتسم: - «لا، لن يُسَرّ وحسب، بل أرى، أيها الحاكم، أن هذا سيثير فضيحة ضخمة».

- «وأنا من رأيك، ولهذا السبب أرجوك الاهتمام بهذا الموضوع، أي اتخاذ كل الإجراءات الكفيلة بالحفاظ على حياة يهوذا الذي من قيريافا».

قال أفراني: - «سيُنفَّذ أمر الوالي، لكن بودي أن أطمئن بال مولاي، ففكرة هؤلاء الأشرار صعبة التنفيذ جدًا، تصوَّر فقط»، هنا استدار وهو يتكلَّم وأردف: «ملاحقته وطعنه ثم معرفة كمية النقود التي قبضها ثم التحايل لإعادة المال إلى قيافا، وهذا كله في ليلة واحدة؟ واليوم بالذات؟».

كرَّر بيلاطس في إصرار: - «ومع هذا سيذبحونه اليوم، أقول لك: هذا شعوري الباطني! لم يحدث أن خدعني». وهنا سرت في وجهه موجة تشنُّج، وفرك يديه قليلًا.

- «سمعًا وطاعة»، أجابه الضيف بلهجة انصياع ونهض وانتصب، وسأله بصوت صارم: «سيذبحونه إذن أيها الوالي؟».

أجابه بيلاطس: - «نعم، والأمر كله معقود على أدائك الذي هو مثار إعجاب الجميع».

سوَّى الضيف سيره الثقيل تحت البردة وقال:

- «متشرف، أتمنى لك طول العمر والسعادة».

صاح بيلاطس بصوت خافت: - «آه، كدتُ أنسى تمامًا، فأنا مدين لك!».

تولَّت الدهشة الضيف.

- «لا، لست مدينًا لي بشيء أيها الحاكم».

- «كيف؟ ألا تذكر جمهور الشحّاذين لدى دخولي أورشليم... كنت أريد إلقاء بعض النقود إليهم، ولم أكن أحمل شيئًا، فأخذت منك...».

- «أيها الحاكم، هذا أمر تافه!».

- «ومن الواجب تذكر التوافه».

وهنا استدار بيلاطس وتناول البردة الملقاة على الأريكة خلفه وأخرج من تحتها كيسًا جلديًا ومدَّ به يده إلى ضيفه فانحنى هذا وهو يتناوله وخبَّأه تحت بردته.

قال بيلاطس: - «أنا في انتظار تقريرك عن الدفن، وكذلك تقريرك عن قضيةِ يهوذا الذي من قيريافا اليوم ليلًا، أتسمعني يا أفراني، اليوم، سأصدر الأمر للحرس بإيقاظي فور حضورك، إني في الانتظار!».

- «أتشرّف». قال رئيس الجهاز السري، واستدار ومضى من الشرفة. سُمعت خشخشته وهو يعبر فوق رمل الحديقة المبلّل، ثم سُمع وقْع جزمته على المرمر بين الأسود، ثم اختفت ساقاه فجسمه وأخيرًا اختفت قلنسوته، هنا فقط رأى الحاكم أن الشمس اختفت وأن الغسق قد حلّ.

## الفصل السادس والعشرون

# الدفن

لعل الغسق هو الذي كان السبب في تغيُّر مظهر الحاكم هذا التغير الحاد، بدا وكأنه شاخ في لحظات واحدودب ظهره، ناهيك عن الاضطراب الذي أخذ يشيع في كيانه، فقد التفت مرة حوله، ولأمر ما ارتعد بعد أن ألقى نظرة على الأريكة الخالية التي كانت البردة ملقاة على مسندها، كانت ليلة العيد تقترب، وكانت أطياف المساء تلعب لعبتها، والأرجح أنه تهيَّأ للحاكم المتعب أن شخصًا ما يجلس في الأريكة الخالية، وبدَرت عن الحاكم علامة تخاذُل وخوَر: فقد نفض البردة ثم ألقاها مكانها وأخذ يعدو في الشرفة جيئة وذهابًا، وهو يفرك يديه تارة ويُهرع إلى الطاولة ويتشبَّث بالكأس تارة أخرى، أو يتوقَّف ويأخذ في التحديق في فسيفساء الأرض ببلاهة تارة ثالثة وكأنه يجهد في قراءة كتاباتٍ ما عليها.

كانت المرة الثانية التي تتولّاه فيها الكآبة هذا اليوم. كان الحاكم يفرك صدغه، الذي لم يبقَ فيه من الألم الصباحي الجهنمي إلا ذكرى كليلة موجعة قليلًا، محاولًا إدراك سبب آلامه النفسية، وسرعان ما أدرك السر، لكنه حاول خداع نفسه، كان واضحًا له كل الوضوح أنه قصَّر اليوم تقصيرًا لا سبيل إلى تداركه، وأنه يريد الآن التعويض عن تقصيره بأفعال تافهة، صغيرة، والأهم من هذا وذاك أنها أفعال متأخِّرة، وكان خداعه لنفسه يتلخَّص في محاولته الإيحاء لنفسه وإقناعها بأن أفعاله هذه، الحالية المسائية، لا تقل أهمية عن الحكم الذي نطق به صباح اليوم. لكن الحاكم لم يلقَ في محاولته إلا القليل القليل من النجاح.

توقَّف عند أحد المنعطفات بغتة وصَفَر، واستجاب لهذا الصفير المنطلق في الغسق نباح منخفض، ووثب من الحديقة إلى الشرفة، كلب ضخم مرهَف الأذنين ذو شعر رمادي وطوق ذي حلقات مذهَّبة.

نادى الحاكم بصوت واهن: - «بنغا! بنغا!».

شبَّ الكلب على قائمتيه الخلفيتين، بينما ألقى الأماميتين على كتفي صاحبه بحيث كاد يوقعه أرضًا ولحسه في خده، وجلس الحاكم على الأريكة، إذّاك أقعى الكلب عند قدمي صاحبه وهو يمد لسانه ويلهث لهاثًا متواصلًا، كانت الفرحة التي في عينيه تعني أن العاصفة الرعدية، وهي الشيء الوحيد في الدنيا الذي كان الكلب الشجاع يخافه، قد انتهت، وأنه هنا الآن من جديد، مع الشخص الذي كان هو، أي الكلب، يحبه ويحترمه ويعتبره أقوى مَن على وجه الأرض وسيد كل البشر، والذي بفضله كان الكلب يعتبر نفسه كائنًا متميزًا، رفيعًا. لكن الكلب أدرك على الفور بعد أن أقعى عند قدمي صاحبه، وحتى دون أن ينظر إليه، بل وهو يتطلع إلى الحديقة التي يهبط المساء عليها، أن مكروهًا حَلَّ بصاحبه، ولهذا غيَّر وضعه، فنهض ودار حول صاحبه ووضع قائمتيه الأماميتين ورأسه على ركبتي الحاكم ملوثًا بذلك أطراف بردته بالرمل المبلَّل. كانت تصرفات بنغا تعني، على الأرجح، أنه يواسي صاحبه، وأنه على استعداد لمواجهة المصيبة معه، وقد حاول الإعراب عن هذا المعنى بنظرته التي كان يسدِّدها من طرف خفي إليه وبإذنيه المرهفتين المنتصبتين، هكذا استقبل كلاهما، الكلب والرجل المتحابان، ليلة العيد على الشرفة.

في هذا الوقت كان ضيف الحاكم منهمكًا في سعي دائب، فبعد أن غادر المدرج العلوي للحديقة التي أمام الشرفة، هبط إلى المدرج التالي وانعطف يمينًا واتجه إلى الثكنات القائمة على أرض القصر، في هذه الثكنات بالذات كانت المائتان اللتان قدِمَتا مع الحاكم إلى أورشليم في العيد تنزلان، وكذلك الحرس السري للحاكم الذي كان تحت إمرة هذا الضيف. مكث الضيف في الثكنات بعض الوقت - لا أكثر من عشر دقائق - وبمضي هذه الدقائق العشر خرجت من فناء الثكنات ثلاث عربات محمَّلة بأدوات حفر وبرميل ماء، يرافقها خمسة عشر فارسًا في بُرُد رمادية. خرجت العربات برفقة هؤلاء الرجال من القصر عبر البوَّابة الخلفية واتجهت إلى الغرب وعبرت بابًا في سور المدينة وانطلقت في طريق فرعي إلى طريق بيت لحم أولًا، ثم مضت فيه شمالًا حتى بلغت مفترق الطرق الذي عند باب حفرون، وعنده تحرَّكت في طريق يافا، تلك التي مرّ فيها موكب المحكومين ظهرًا، في هذا الوقت كان الظلام قد أطبق، وظهر القمر في الأفق.

ما إن غادرت العربات مع مرافقيها القصر، حتى غادره ضيف الحاكم على ظهر جواد وقد ارتدى ثوبًا يونانيًا داكنًا مهترئًا، ولم يتوجَّه الضيف إلى خارج المدينة، بل

إلى داخلها، وبعد قليل كان من الممكن رؤيته يدنو من قلعة أنطونيو القائمة في الشمال إلى جوار الهيكل الكبير مباشرة، ولم يمكث الضيف في القلعة سوى وقت يسير أيضًا، بات بعده في القسم السفلي من المدينة - في شوارعها الملتوية والمتشابكة، ولم يصل الضيف إلى هنا على جواد، بل على بغل.

عثر الضيف الذي كان يعرف المدينة جيدًا على الشارع الذي يحتاجه بيسر، وكان اسمه الشارع اليوناني، إذ كانت تقوم فيه بعض الدكاكين اليونانية، ومنها واحد يتاجر بالسجاد. عند هذه الدكان بالذات أوقف الضيف بغله وترجَّل عنه وربطه إلى حلقة عند الباب. كان الدكان مغلقًا، فولج الضيف من باب صغير إلى جانب مدخل الدكان فإذا به في فناء مربع صغير محاط بعنابر، وفي الفناء انعطف الضيف عند زاوية فوجد نفسه عند شرفة حجرية لمنزل يعرِّش فيها اللبلاب، تلفَّت الضيف حوله، كان الظلام يخيِّم على المنزل كما على العنابر إذ لم يكن أحد أشعل فيها النار بعد، ونادى الضيف بصوف خفيض:

- «نيزا!».

صرَّ الباب على ندائه هذا، وظهرت على الشرفة في نصف العتمة المسائية امرأة شابة دون نقاب، انحنت المرأة فوق درابزين الشرفة وهي تحدِّق في قلق متحرِّقة لمعرفة القادم ولمَّا عرفته ابتسمت له بودٍّ، وهزَّت رأسها ولوَّحت بيدها.

سأل أفراني باليونانية بصوت خافت: - «هل أنتِ وحدك؟».

همست المرأة في الشرفة: - «وحدي، لقد غادر زوجي صباح اليوم إلى قيصرية»، وهنا حانت من المرأة التفاتة إلى الباب وأضافت هامسة: «لكن الخادمة في البيت»، وأشارت إليه بما معناه «ادخل» تلفَّت أفراني حوله ووضع قدمه على الدرجات الحجرية، وبعدها اختفى هو والمرأة داخل المنزل.

ولم يمضِ أفراني عند هذه المرأة سوى وقت جد قصير، لا أكثر من خمس دقائق على أبعد تقَدير، غادر بعده المنزل والشرفة وأسدل قلنسوته على عينيه وخرج إلى الشارع، كان الناس قد أخذوا في هذا الوقت يشعلون المصابيح في البيوت، وكان زحام ما قبل العيد لا يزال عظيمًا جدًا، وضاع أفراني على بغله في تيار الراكبين والراجلين، أما خط سيره التالي فلا يعرفه أحد.

أخذت المرأة التي ناداها أفراني باسم نيزا تغيِّر ملابسها بعد أن بقيت وحدها، وكانت إلى هذا على عجلة عظيمة من أمرها، لكنها لم تشعل مصباحها ولم تنادِ خادمتها على الرغم من الصعوبة الكبيرة التي كانت تعانيها في البحث عما تحتاجه في

الغرفة المظلمة، ولم يُسمع صوتها في البيت إلا بعد أن أخذت أهبتها ووضعت على رأسها نقابًا داكنًا.

- «إذا سأل عني أحد، قولي له إني خرجت لزيارة إينانتا».

وسُمعت دمدمة العجوز تقول في الظلمة متبرمة:

- «لزيارة إينانتا؟ آه مِن إينانتا هذه! ألم يمنعك زوجك من الذهاب إليها؟ قوَّادة صاحبتكِ هذه إينانتا! لا بد أن أخبر زوجك...».

- «كفى، كفى، كفى، اخرسي»، ردَّت نيزا وانسلَّت من البيت كالطيف، سُمع وقع خف نيزا على بلاط الفناء الحجري وأغلقت الخادمة باب الشرفة بَرِمَة وغادرت نيزا منزلها.

في هذا الوقت بالذات خرج شاب من باب بيت حقير تطل مؤخرته على الزقاق ونوافذه على الفناء ومضى في زقاق متعرِّج من أزقة المدينة السفلى يهوي بدرجاته إلى إحدى برك المدينة، كان الشاب ذا لحية صغيرة محلوقة بعناية، وشملة[1] بيضاء نظيفة تتدلَّى على كتفيه، وقميص أزرق جديد ارتداه خصيصًا للعيد تتدلَّى شراباته إلى أسفل، وصندل جديد يرسل صريرًا. كان الشاب الوسيم الأقنى الأنف الذي أخذ زينته استعدادًا للعيد الكبير يمضي بهمّة متجاوزًا السابلة المسرعين إلى مائدة العيد في بيوتهم، ونظر إلى النوافذ تضيء الواحدة إثر أخرى. كان الشاب يحث الخطى في الطريق المحاذي للسوق والمؤدي إلى قصر رئيس الكهنة قيافا القائم عند أسفل التلة التي عليها الهيكل، وكان يمكن رؤيته بعد قليل يلج بوَّابة قصر قيافا، ثم ما يلبث أن يغادره بعد فترة أخرى.

بعد زيارة القصر الذي تأجَّجت فيه المصابيح والمشاعل ودبَّت فيه حركة العيد وجلبته، مضى الشاب بنشاط أوفر وبهجة أكبر، عائدًا أدراجه إلى المدينة السفلى، وفي تلك الناحية إياها، حيث كان الشارع يندمج في ساحة السوق، أدركته في الزحام والغليان امرأة خفيفة رشيقة تسير بخطوات متراقصة وتضع نقابًا أسود يغطي عينيها، ولما حاذت هذه المرأة الشاب رفعت النقاب قليلًا فوق عينيها لحظة، وصوَّبت إلى الشاب نظرة، لكنها لم تبطئ الخطو، بل حثَّته كأنها تحاول التواري عن من كانت تتجاوزه.

لم يلاحظ الشاب هذه المرأة وحسب، لا، بل عرفها، وإذ عرفها ارتعد وتوقَّف متبِعًا

---

(1) شملة، وباللاتينية Toga. وهو رداء أبيض يُلف حول الجسم، كان الرومان يرتدونه في ذلك العصر. الناشر.

إياها نظرةُ في حيرة، واندفع من فوره يلحق بها، أدرك الشاب المرأة بعد أن كاد يرمي أرضًا عابر سبيل يحمل جرَّة في يده وناداها وهو يلهث من الانفعال:

- «نيزا!».

التفت المرأة وزرَّت عينيها، في حين ارتسمت على وجهها علامات ضيق بارد، وأجابت باليونانية:

- «آه، هذا أنتِ يا يهوذا؟ لم أعرفك على الفور، وعلى أي حال، لا بأس، هذا فأل حسن، فعندنا أن الذي لا تتعرَّف عليه يصبح غنيًا...».

وسأل يهوذا بهمس متقطِّع خشية أن يسمعه المارة، وقد أخذ قلبه ينط من الاضطراب كعصفور تحت نقاب أسود:

- «إلى أين تمضين يا نيزا؟».

- «وما يعنيك هذا؟». أجابت نيزا وهي تبطئ الخطو وترمق يهوذا بنظرة كِبَر.

إذَّاك رنَّت في صوت يهوذا نبرة طفولية وهمس في ارتباك:

- «كيف لا يعنيني؟ لقد اتفقنا... أردت أن أعرّج عليكِ، لقد قلتِ إنكِ ستمكثين في البيت طول المساء».

- «آه، لا، لا»، أجابت نيزا ومطّت شفتها السفلى بنزوة بحيث بدا ليهوذا أن وجهها، وهو أجمل وجه رآه في حياته، ازداد جمالًا، «لقد تولّاني الضجر، عندكم عيد، فماذا تريدني أن أفعل؟ الجلوس على الشرفة والاستماع إلى تنهّداتك؟ والخوف من أن تخبر الخادمة زوجي؟ لا، لا، لهذا قرَّرتُ المضي إلى الضاحية لأستمع إلى صوت العنادل».

سألها يهوذا في حيرة: - «إلى الضاحية؟ ووحدك؟».

أجابت نيزا: - «وحدي طبعًا».

رجاها يهوذا مبهور الأنفاس: - «اسمحي لي بمرافقتك»، كان مضطرب الفكر وقد نسيَ كل شيء في هذا الوجود وأخذ ينظر بعينين ضارعتين في عيني نيزا الزرقاوين اللتين بدتا الآن سوداوين.

لم تجب نيزا بكلمة وحثَّت الخطى.

- «لماذا تصمتين يا نيزا؟»، سأل يهوذا بصوتِ شاكٍ وهو يوقِّع خطْوه على خطوها.

سألت نيزا فجأة: - «ألن أشعر بالملل معك؟»، وتوقفت. وهنا بلغت البلبلة في أفكار يهوذا أشدها.ثم أضافت نيزا أخيرًا بصوت أرق: - «لا بأس، هيا بنا».

- «أين، أين؟».

- «مهلًا.. لنمضِ إلى هذا الفناء ونتفق، فأنا أخاف أن يراني أحد من المعارف فيُقال عني بعدئذ إني كنتَ مع عشيق على قارعة الطريق».

وهنا اختفى أثر نيزا ويهوذا من السوق، إذ باتا يتهامسان في زاوية أحد الأفنية المظلمة.

- «اذهب إلى بستان الزيتون»، همست نيزا تقول له وهي تسدل النقاب على عينيها وتولي ظهرها لرجل يدخل الفناء المظلم وهو يحمل سطلًا، «إلى الجثسمانية[1]، وراء نهر قدرون، أفهمت؟».

- «نعم، نعم، نعم».

أردفت نيزا: - «سأمضي أمامك، لكن إياك أن تسير خلفي، بل ابتعد عني، سأسبقك... وعندما تعبر مجرى السيل... هل تعرف أين المغارة؟».

- «أعرف، أعرف...».

- «اصعد بمحاذاة معصرة الزيتون ثم انعطف إلى المغارة، سأكون هناك، إنما إيّاك أن تمضي ورائي فورًا، اصبر وانتظر قليلًا هنا». وخرجت نيزا من الفناء وكأنها لم تتبادل مع يهوذا كلمة.

تريَّث يهوذا بعض الوقت واقفًا في مكانه وهو يحاول استجماع أفكاره المشتَّتة، وكان من بين هذه الأفكار كيف سيفسِّر غيابه عن مائدة العيد عند أهله. وقف يفكِّر في كذبة، لكنه في اضطرابه لم يجد ولم يُعِدّ شيئًا كما يجب وحملته قدماه خارج الفناء دون إرادته.

وغيَّر الآن طريقه، فلم يعد يندفع إلى المدينة السفلى، بل عاد أدراجه باتجاه قصر قيافا. كان يهوذا يرى الآن ما حوله بشكل غائم، كان العيد قد دخل المدينة، لم تعد الأنوار وحدها تلمع في نوافذ البيوت حول يهوذا، بل كانت التسابيح تُسمع فيها أيضًا، وكان آخر المتخلِّفين يستحثون حميرهم ويسوطونها ويصرخون فيها، كانت قدما يهوذا تحملانه عفويًا، فلم يلاحظ كيف مرقت إلى جانبه أبراج قلعة أنطونيو الرهيبة المغشاة بالطحلب، ولم يسمع هدير الأبواق في القلعة، ولم يُعِر الدورية الرومانية الراكبة التي ترفع مشعلًا يغمر طريقه بضوء مقلق أي انتباه.

وما إنْ اجتاز يهوذا القلعة حتى التفت ورأى شمعدانين هائلين يحمل كل منهما خمس شعلات يضيئان على علو شاهق فوق الهيكل، لكن حتى هذين الشمعدانين لم يتبيّنهما يهوذا إلا بإبهام، فقد بدا له أنه اشتعلت فوق أورشليم عشرة قناديل ذات

(1) بستان قرب القدس، فيه ينتحر يهوذا حسب رواية الإنجيل. الناشر.

مقاييس خارقة تضاهي ضوء القنديل الوحيد الذي يعلو شيئًا فشيئًا فوق أورشليم؛ القنديل القَمَري.

لكن يهوذا كان الآن في شغل شاغل عن كل ما حوله، إذ كان يندفع إلى باب الجثسمانية ليغادر المدينة بأسرع ما يمكن، وكان يبدو أنه تلوح أمامه بين ظهور المارة ووجوههم قامة متراقصة، وأنها تقوده وراءها، لكن هذا لم يكن إلا خداعًا، إذ كان يهوذا يدرك أن نيزا سبقته بمسافة كبيرة، ومرَّ يهوذا بدكاكين الصرافة وانتهى أخيرًا إلى باب الجثسمانية، لكنه اضطر مع هذا إلى التوقُّف هنا، وهو يحترق من جَزَعه ولهفته، إذ كانت تعبر البوَّابة إلى المدينة جِمال وفي إثرها الدورية السورية العسكرية التي لعنها يهوذا في سره.

لكن لكل شيء نهاية، كان يهوذا المتلهِّف خارج سور المدينة الآن. رأى يهوذا عن شماله مقبرة صغيرة نُصبت قربها بضع خيام مخطَّطة للحجاج. قطع يهوذا الطريق الأغبر المغمور بضوء القمر واندفع إلى نهر قدرون كي يقطعه. كان الماء يقرقر بهدوء تحت قدمي يهوذا. قطع يهوذا النهر قافزًا من حجر إلى حجر ووصل أخيرًا إلى الضفة حيث الجثسمانية. رأى بفرح عظيم أن الطريق هنا فوق البساتين خالية، وعلى مسافة غير بعيدة تراءت له بوَّابة بستان الزيتون نصف المحطَّمة.

بعد جوّ المدينة الخانق، أدهشت يهوذا الرائحة المخدِّرة المنبعثة من هذا الليل الربيعي، إذ كانت موجات من روائح الآس والأكاسيا تتدفَّق من مروج الجثسمانية خلال أسيجة البستان.

لم يكن أحد يحرس البوَّابة، ولم يكن أحد يقف فيها. وبعد دقائق كان يهوذا يحثُّ الخطى تحت الظلال الغامضة لأشجار الزيتون الضخمة الكثيفة الأغصان، كان الطريق يؤدِّي إلى الجبل، وكان يهوذا يصعد فيه وهو يلهث، وكان يخرج من الظلمة بين الحين والحين إلى سجاجيد قمرية موشَّاة ذكَّرته بالسجاجيد التي كان يراها في دكان زوج نيزا الغيور. وبعد قليل لاحت عن يسار يهوذا فوق المرج معصرة الزيت برحاها الثقيلة وأكوام براميل. لم يكن في البستان أحد، لقد انتهى العمل عند المغيب ولم تكن في البستان نأمة إلا أجواق العنادل تغرِّد وتصخب فوق رأس يهوذا.

كان هدف يهوذا قريبًا، وكان يعرف أنه لن يلبث أن يسمع عن يمينه في الظلام همس الماء المتساقط بخفوت في المغارة، وهذا ما حدث: سمعه، وسرت في الجوِّ بعض البرودة.

إذَّاك أبطا الخطو ونادى بصوت خفيض:

- «نيزا!».

وانسلخ عن جذع الزيتونة الضخم بدلًا من نيزا طيف رجل قصير القامة عريض المنكبين وقفز إلى وسط الطريق، ولمع شيء ما في يده وسرعان ما خبا.

ارتدَّ يهوذا إلى الخلف بعنف وصاح بصوت واهن:

- «آه!».

وسدَّ رجل آخر عليه الطريق.

وسأل الرجل الذي كان أمامه:

- «كم قبضت الآن؟ قل إذا كنت تريد الإبقاء على حياتك!».

انبعث بصيص أمل في قلب يهوذا فصاح في يأس:

- «ثلاثون تيترادراخما! ثلاثون تيترادراخما! كل ما استلمته معي هنا، ها هي ذي النقود، خذوها لكن هبوني الحياة».

وفي لحظة خطف الرجل الذي في الأمام كيس النقود من يدي يهوذا وفي اللحظة عينها لمعت وراء ظهر يهوذا سكين كالبرق وهَوَت تحت لوح عظم العاشق، أنقذف يهوذا إلى الأمام مطوحًا يديه بأصابعهما المتقلصة في الهواء، وتلقَّى الرجل الأمامي يهوذا بسكينه وغرزها حتى مقبضها في قلب يهوذا.

- «نيـ... زا...». تمتم يهوذا بصوتٍ ليس صوته العالي الصافي المألوف، بل بصوت خفيض لائم، ولم يصدر عنه بعد هذا أي صوت، فقد هوى جسده بعنف ارتجّت له الأرض.

إذَّاك ظهر على الطريق شخص ثالث، وكان هذا الشخص يرتدي بردة ذات قلنسوة.

- «لا تتلكّآ»، أمرهما الشخص الثالث، وضع القاتلان حافظة النقود مع القصاصة التي أعطاهما إياها الشخص الثالث ضمن قطعة جلد ولفَّاها بخيط، ثم دسَّ الشخص الثاني الصرة في عبه وانطلق القاتلان يغادران الطريق باتجاهين مختلفين.

وسرعان ما ابتلعتهما الظلمة بين أشجار الزيتون، أمَّا الشخص الثالث فقد جلس القرفصاء قرب القتيل، وألقى نظرة على وجهه، وفي الظلِّ بدا الوجه أبيض كوجوه الحواري وذا جمال ملهم، وخلال ثوان خلا الطريق من أي حيٍّ. كان الجسم الهامد الأنفاس ينطرح على الأرض مبسوط اليدين وبطن قدمه اليسرى يقع في رقعة مُقْمِرة بحيث كان كل سير من سيور صندله يُرى بوضوح.

في هذا الوقت كان بستان الزيتون يصدح كله بتغريد العنادل، ولا يعرف أحد

المكان الذي اتجه إليه قاتلا يهوذا، أما طريق الشخص الثالث ذي القلنسوة فمعروف، فقد انعطف عن الطريق إلى دغل من أشجار الزيتون متوجهًا إلى الجنوب. تسلّق سور البستان البعيد عن الباب الرئيسي، وعند زاويته الجنوبية بالضبط حيث كانت حجارته العلوية تتساقط. وما لبث أن صار على ضفة قدرون، فغاص في الماء وخاض فيه قليلًا، إلى أن رأى على بُعد منه طيفي حصانين وهيئة بشرية إلى جانبهما. كان الحصانان يقفان هما أيضًا في مجرى النهر، وكان الماء يتدفّق ويغسل حوافرهما. امتطى ماسك الخيل أحد الحصانين، ووثب الرجل ذو القلنسوة إلى ظهر الثاني، ومضيا الهوينا في مجرى الماء، وكانت خشخشة الحصى تُسمع تحت حوافر الحصانين، ثم خرج الفارسان من الماء إلى الضفة الأورشليمية، وسارا بخطوات وئيدة بمحاذاه سور المدينة، وهنا افترق الرجلان. عدا ماسك الخيل إلى الأمام وتوارى عن الأنظار، في حين أوقف الرجل ذو القلنسوة حصانه، وترجّل عنه في الطريق الخالية، ونزع بردته وقلبها على قفاها وأخرج من تحتها خوذه مفلطحة دون ريش ولبسها. وثب الآن إلى ظهر الحصان شخص في لباس عسكري يتدلّى سيف قصير على وركه، شد الفارس زمام الجواد الجموح فانطلق هذا خببًا يخضّ فارسه فوق ظهره خضًّا، ولم يعد الطريق الآن طويلًا، فقد اقترب الفارس من بوّابة أورشليم الجنوبية.

كان نور المشاعل القلق يتراقص ويتواثب تحت قوس البوّابة، وكان جنود الحراسة التابعون للمائة الثانية من فوج الصاعقة يجلسون على مقاعد حجرية يلعبون بالكعب، وما إن رأوا العسكري القادم حتى هبّوا واقفين فلوّح لهم العسكري بيده ودخل المدينة.

كانت المدينة مغمورة بأنوار العيد، وكانت شعلات المصابيح تتأرجح في كل النوافذ، وكانت التسابيح تتردّد من كل مكان ذائبة في جوقة واحدة غير متناسقة. وكان بإمكان الفارس وهو يتطلّع أحيانًا إلى النوافذ المطلّة على الطريق أن يرى الناس جالسين إلى مائدة العيد وقد وُضع عليها لحم الماعز وكؤوس الخمرة وسط أطباق تحوي أعشابًا مُرّة[1]. كان الفارس يجتاز في خبب غير متعجّل شوارع المدينة السفلى الخالية إلى قلعة أنطونيو وهو يَصْفِر أغنية هادئة ويرنو من آن لآخر إلى الشمعدانين ذوَيْ الأنوار الخمس التي ليس لها مثيل في العالم والتي استعرّ لهيبها فوق الهيكل، أو إلى القمر المعلّق أعلى من الشمعدانين.

لم يكن قصر هيرودس العظيم يشارك أقل مشاركة في احتفالات ليلة الفصح،

---

(1) طقس مرتبط بخروج اليهود من مصر، وبالتالي بعيد الفصح اليهودي. في سفر الخروج 12: 8 «ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويا بالنار مع فطير على أعشاب مُرّة يأكلونه». الناشر.

كانت الأنوار مضاءة في غرف القصر الإضافية المطلة على الجنوب حيث استقر ضبّاط الكتيبة الرومانية وقائد الفوج، هنا كنت تشعر ببعض الحركة والحياة، أما القسم الأمامي من القصر حيث كان ساكن القصر الأسير والوحيد الحاكم، فبدا كله، بأعمدته وتماثيله الذهبية، كأنما عميَ تحت ضوء القمر الذي كان في أوج سطوعه، هنا داخل القصر كان الظلام والصمت يسودان، ولم يكن الحاكم، كما قال لأفراني، براغب في الدخول إلى هناك، إلى الداخل. أمر بإعداد سرير له على الشرفة، في المكان نفسه الذي تناول فيه غداءه وأجرى فيه التحقيق صباحًا، استلقى الحاكم على المتكأ الذي أُعدَّ له، لكن النوم جافاه، كان القمر المكشوف يتدلّى عاليًا في السماء الصافية، ومكث الحاكم ساعات لا يرفع طرفه عنه.

في منتصف الليل تقريبًا أشفق النوم على الوالي أخيرًا، تثاءب في تشنج، ثم فك أزرار بردته وخلعها ونزع السير ذا السكين الفولاذية العريضة المغمدة، المشدود إلى قميصه ووضعه على الأريكة قرب المتكأ وخلع صندله وتمدَّد، وعلى الفور ارتقى بنغا سريره وتمدَّد إلى جانبه واضعًا رأسه إلى جانب رأس الحاكم الذي أغمض عينيه أخيرًا بعد أن وضع يده على رقبة الكلب. إذّاك فقط غفا الكلب أيضًا.

كان المتكأ غارقًا في نصف عتمة، وقد حجبه أحد الأعمدة عن القمر، إنما كان يمتد من درجات الشرفة إلى السرير شريط قمري، وما إن فقد الحاكم صلته بما يوجد حوله في الواقع، حتى تحرَّك في الطريق المنير ومضى فيه صاعدًا إلى القمر مباشرة، بل إنه انفجر ضاحكًا في نومه من السعادة لشدة ما كان كل شيء رائعًا وفريدًا في الطريق الأزرق الشفاف. كان يمضي برفقة بنغا وإلى جانبهما الفيلسوف المتشرِّد وكانا يتناقشان في أمر بالغ التعقيد والأهمية، على أن أحدًا منهما لم يكن في وسعه التغلّب على الآخر في هذا النقاش، لم يكونا يتفقان على شيء ولهذا كان حديثهما شيّقًا بوجه خاص لا ينضب معينه، وبطبيعة الحال بدا حكم الموت الذي نُفِّذ اليوم سوء فهم خالصًا، فها هو ذا الفيلسوف الذي اختلق شيئًا على هذا القدر من الخرق كقوله إن كل الناس طيبون يسير إلى جانبه وهذا يعني أنه حَيّ، وبالطبع سيكون أمرًا فظيعًا جدًا حتى مجرَّد التفكير أنه بالإمكان قتل رجل كهذا. لم يُنفَّذ أي حكم بالموت! لا، لم يُنفَّذ! هاكم سر روعة هذه الرحلة صعودًا على سلم القمر.

كان لديه من الوقت الفراغ قدر ما يحتاج، والعاصفة لن تهب إلا عند المساء والجبن واحدة من أفظع النقائص دون شك، هكذا قال يشوع الغانوصري، لا أيها الفيلسوف، إني اعترض: الجبن أفظع نقيصة.

هاك على سبيل المثال حاكم اليهودية حاليّ، وقائد الفرقة سابقًا، فهو لم يجبن إذّاك في وادي العذارى حين كاد الجرمانيون المسعورون يمزِّقون قاتل الجرذان الجبار، لكن عفوك أيها الفيلسوف! أحقًا بإمكانك الافتراض، وأنت ما عليه من ذكاء، أن حاكم اليهودية مستعد أن يقضي على مركزه ومستقبله بسبب شخص أجرم في حق القيصر؟

كان بيلاطس يئن وينشج في نومه: - «نعم، نعم».

مستعدٌ، لا شك في ذلك، في صباح هذا اليوم لمَّا يكن مستعدًا، أما الآن ليلًا، بعد أن زان كل شيء وزاده، فمستعد أن يقضي عليهما. سيُقدم على أي شيء كي ينقذ من الموت طبيبًا وحالمًا مجنونًا لم يقترف أي ذنب!

- «من الآن سنكون معًا على الدوام»، قال له في نومه الفيلسوف المشرَّد الممزَّق الثياب الذي لا يدري أحد كيف اعترض سبيل الفارس ذي الرمح الذهبي، «حيث الواحد لا بد أن يكون الآخر! ما إن يذكروني حتى يذكروك، أنا اللقيط المجهول النَسَب وأنت ابن الملك المنجِّم وابنة الطحَّان الحسناء بيلا».

وأخذ بيلاطس يرجوه في الحلم:

- «وأنت لا تنسني، بل اذكرني أنا ابن الملك المنجِّم».

وإذ ضمن بيلاطس لنفسه إيماءة موافقة من البائس السائر معه الذي من الناصرة، أخذ حاكم اليهودية الظالم يبكي ويضحك في نومه من فرحه.

كان هذا كله شيئًا جميلًا، الأمر الذي جعل استيقاظ الوالي أكثر سوءًا. زمجر بنغا على القمر، فغار الطريق الأزرق المنزلق كأنه مدحول بزبدة أمام الوالي، فتح هذا عينيه وكان أول ما فعله الوالي أنه تشبَّث بحركة مألوفة منه بطوق بنغا، ثم أخذ يبحث بعينين مريضتين عن القمر فرأى أنه مال قليلًا واكتسى غلالة من الفضة، ونوره يتساقط ضوءًا مزعجًا قلقًا متراقصًا أمام عينيه على الشرفة، كان في يد قائد المائة قاتل الجرذان مشعل متأجِّج ومسخِّم، وكان حامله يرمق بخوف وحنق الوحش الخطر المتحفز للانقضاض.

- «لا تمسَّه يا بنغا»، قال الحاكم بصوت مريض وسعل ثم أردف وهو يحمي وجهه من اللهب بيده: «وحتى في المساء وفي ضوء القمر لا أجد الراحة، أيتها الآلهة! ووظيفتك أنت أيضًا كريهة يا مارك فأنت تشوِّه الجنود...».

كان مارك يحدِّق في الحاكم دَهِشًا دهشةً عظيمةً، فثاب هذا إلى رشده، وقال كي يمحو أثر الكلمات الفارغة التي صدرت عنه بتأثير الحلم:

- «لا تزعل يا قائد المائة، أعود فأقول إن موقفي أسوأ. ماذا تريد؟».

قال مارك بهدوء: - «قدِم إليكم قائد الحرس السري».

- «ادعه، ادعه». أمر الحاكم وهو ينظِّف حلقه بسعلة وأخذ يتلمَّس صندله بقدميه الحافيتين. تراقص اللهب على الأعمدة ووقّع كعب قائد المائة على الفسيفساء. وخرج إلى الحديقة.

قال الحاكم لنفسه وهو يصرّ أسنانه: - «حتى في ضوء القمر لا أجد الراحة».

وظهر على الشرفة مكان قائد المائة رجل يرتدي قلنسوة.

- «لا تمسَّه يا بنغا». قال الحاكم بصوت خافت وشد على قفا الكلب.

وقبل أن يبدأ أفراني كلامه التفت حوله كعادته وانسحب إلى الظل ثم قال بصوت خافت بعد أن تأكَّد أن لا غريب على الشرفة سوى بنغا:

- «أرجو تقديمي إلى المحاكمة أيها الحاكم، لقد كنت على حق، فأنا لم استطِع حماية يهوذا الذي من قيريافا، فقد قُتل طعنًا بالسكاكين، أرجو تقديمي إلى المحاكمة وقبول استقالتي».

بدا لأفراني أن أربع عيون تتطلع إليه: عينا كلب وعينا ذئب.

وأخرج أفراني كيس نقود متحرشفًا من الدم المتخثر وممهورًا بختمين من تحت قميصه.

- «هذا هو الكيس الذي رماه القتلة بما فيه من نقود في بيت رئيس الكهنة خلسة، والدم الذي على هذا الكيس هو دم يهوذا الذي من قيريافا».

سأل بيلاطس وهو ينحني فوق الكيس: - «طريف، كم فيه يا ترى؟».

- «ثلاثون تيترادراخما».

لاحت على وجه الحاكم ابتسامة ساخرة وقال:

- «قليل».

لزم أفراني الصمت.

- «أين القتيل»؟

- «هذا ما لا أعرفه»، أجاب الرجل الذي لا يفارق قلنسوته أبدًا بوقار هادئ، «اليوم صباحًا نبدأ البحث».

ارتعد الحاكم وترك شريط صندله الذي تأبّى على الربط بأي شكل من الأشكال.

- «لكنك تعرف بالتأكيد أنه قُتل؟».

وتلقى الحاكم الجواب القاسي التالي على سؤاله هذا:

- «إنني أعمل في اليهودية من خمس عشرة سنة أيها الحاكم. بدأت عملي في عهد

فاليريوس غراتوس، وليس من الضروري أن أرى الجثة حتى أقول إن صاحبها قُتل، وها أنا ذا أقول لك إن من كان يدعى يهوذا الذي من مدينة قيرياڤا قُتل طعنًا بالسكين من ساعات».

قال بيلاطس: - «اعذرني يا أفراني، فأنا لم أستيقظ من نومي كما يجب، ولهذا قلت ما قلت. نومي سيء»، وهنا ابتسم الحاكم ابتسامة ساخرة، «وأرى دائمًا في نومي شعاع القمر. تصوَّر كم هذا مضحك، كأني أتنزَّه في هذا الشعاع، وهكذا بوِدّي أن أعرف تخميناتك في هذه القضية. أين تستعد للبحث عنه؟ اجلس، يا رئيس الجهاز السرّي».

انحنى أفراني ودفع الأريكة إلى مقربة من السرير وجلس مصلصلًا بسيفه.

- «استعد للبحث عنه على مقربة من معصرة الزيتون التي في بستان الجثسمانية».

- «حسن، حسن، ولماذا هناك بالذات؟».

- في تصوري أيها الوالي أن يهوذا لم يُقتل في أورشليم نفسها، ولا في مكان بعيد عنها، بل قُتل في ضاحيتها».

- «إني أعتبرك واحدًا من أبرز خبراء مهنتك، لا أعرف على أي حال كيف الحال في روما، أما في مستعمراتها فلا ندّ لك. أفصح، ما سبب تصورك هذا؟».

وقال أفراني بصوت خافت:

- «لا أستطيع أن أفترض في أي حال من الأحوال أن يكون يهوذا قد وقع في أيدي أشخاص مشبوهين داخل تخوم المدينة، ففي الشارع لا يمكن القتل خفية، إذا كان يجب استدراجه إلى قبو ما، لكن رجالي بحثوا عنه في المدينة السفلى كلها، وكان من المفروض أن يجدوه لو كان موجودًا هناك، لكنه ليس موجودًا في المدينة وهذا أمر أستطيع أن أؤكد لك صحته، ولو قُتل بعيدًا عن المدينة، لما كان لهذه الرزمة من النقود أن تُلقى في قصر رئيس الكهنة بمثل هذه السرعة، لقد قُتل على مقربة من المدينة، وقد استطاع الذين قتلوه استدراجه إلى هناك».

- «لستُ أدركُ كيف تمكنوا من ذلك».

- «نعم، أيها الحاكم، إنها أصعب مسألة في القضية كلها، حتى إني لا أعرف إنْ كنتُ سأوفَّق في حلها».

- «شيء ملغز فعلًا! إنسان مؤمن يغادر في ليلة العيد إلى خارج المدينة لسبب مجهول متخليًا عن مائدة الفصح ويُقتل هناك، من الذي استطاع أن يغريه وكيف أغراه، ألم تفعل هذا امرأة؟». سأل الحاكم فجأة كمن أشرق عليه إلهام.

وأجاب أفراني بهدوء واتزان:

- «أبدًا أيها الحاكم، هذه الإمكانية غير واردة إطلاقًا، علينا أن نفكِّر تفكيرًا منطقيًا، من له مصلحة في قتل يهوذا؟ حالمون متشرِّدون، حلقة ما لم يكن فيهم أو فيها أي نساء أصلًا. كي يتزوَّج الإنسان، أيها الحاكم، تلزمه نقود، وكي ينجب تلزمه أيضًا نقود، ولكن كي يذبح شخص ما شخصًا آخر بمساعدة امرأة تلزمه كمية ضخمة من النقود، ومثل هذه النقود لا يملكها أي متشردين، ليس للمرأة ضلع في هذه القضية أيها الحاكم، بل أقول أكثر من هذا: إن تفسيرًا كهذا للجريمة لا يمكن أن يساعد إلا في طمس آثارها وإعاقة التحقيق وإرباكي».

قال بيلاطس» - «أرى أنك على حق تمامًا يا أفراني، وأنا لم أسمح لنفسي إلا بإبداء رأيي».

- «وهو رأيٌ خاطئ للأسف، أيها الحاكم».

هتف الحاكم وهو يحدق في وجه أفراني بفضول شديد: - «ما العمل، ما العمل إذن؟».

- «أعتقد أن المسألة مسألة النقود إياها».

- «فكرة رائعة! لكن من الذي كان يمكنه أن يعرض عليه النقود مساء خارج المدينة، ومقابل أي شيء؟».

- «آه، لا أيها الحاكم، الأمر ليس على هذا النحو، لديَّ فرضية واحدة، وإذا ثبت بطلانها، فقد أعجز عن إيجاد أي تفسير آخر»، وانحنى أفراني مقتربًا من الحاكم أكثر، وهمس يقول له: «أراد يهوذا أن يخبِّئ نقوده في مكان منعزل لا يعرفه أحد سواه».

- «تفسير ذكي جدًا، هكذا جرى الأمر على ما يبدو، الآن فهمتك: لم يغرِه أشخاص، بل أفكاره هي التي أغرته، نعم، نعم، هكذا كان».

- «نعم، هكذا، كان يهوذا شكوكًا، وكان يريد إخفاء نقوده عن أعين الناس».

- «نعم، قلت إذن في الجثسمانية، أما لماذا تنوي البحث عنه هناك بالذات، فأمر أعترف أني لا أفهمه».

- «آه، أيها الحاكم، هذا أبسط ما في الأمر، لا أحد يخبِّئ نقوده على قارعة الطريق في مكان مكشوف وخاوٍ، ويهوذا لم يكن على طريق الخليل ولا على طريق العيزرية، من المفروض إذن أنه كان في مكان محمي معزول ومشجَّر، هذا في منتهى البساطة، ربما إنه لا يوجد في ضواحي أورشليم مكان كهذا إلا الجثسمانية، فهو لم يبتعد عن أورشليم كثيرًا».

- «أقنعتني تمامًا، وما العمل الآن؟».

- «سابدأ في البحث فورًا عن القتلة الذين تعقَّبوا يهوذا إلى خارج المدينة، ثم أسلِّم نفسي بعد ذلك إلى المحكمة، كما أبلغتك».

- «لماذا؟».

- «لقد غاب عن أعين حرسي في السوق مساء بعد خروجه من قصر قيافا، لست أدري كيف حصل هذا، ففي حياتي كلها لم يمر بي شيء كهذا، لقد وُضع تحت المراقبة فور انتهاء حديثنا، لكنه في منطقة السوق انتقل إلى مكان ما وهرب بطريقة غريبة بحيث اختفى أثره...».

- «حسن، لكن أُعلنُ لك أني لا أرى ما يدعو إلى تقديمك إلى المحكمة، فأنت فعلت ما في استطاعتك، ولا أحد على هذه الأرض»، وهنا لاحت ابتسامة على وجه الحاكم، «بوسعه أن يفعل أكثر مما فعلت، عاقِب المخبرين الذين أضاعوا يهوذا، لكني أحذِّرك مع هذا: لا أريد أن يكون العقاب قاسيًا على الإطلاق، فنحن، أخيرًا، فعلنا كل شيء لرعاية هذا اللئيم! آ، نسيت أن أسألك»، قال الحاكم وهو يمسح جبينه، «كيف تمكنوا من رمي النقود في قصر قيافا؟».

- «كما ترى أيها الحاكم.... الأمر ليس معقَّدًا بشكل خاص، لقد عبر المنتقمون إلى مؤخرة قصر قيافا حيث الزقاق يشرف على الفناء الخلفي ورموا النقود عبر السور».

- «مع القصاصة؟».

- «تمامًا كما افترضت أيها الحاكم، وبالمناسبة»، هنا نزع أفراني الختم عن الرزمة وأرى بيلاطس محتواها.

- «العفو، ماذا تفعل يا أفراني، لا بد أن الأختام أختام الهيكل!».

أجاب أفراني وهو يطوي الرزمة: - «ليس على الحاكم أن يشغل فكره بهذه المسألة».

سأل بيلاطس وهو يتفجَّر ضاحكًا: - «أتكون كل الأختام معك؟».

أجاب أفراني بصوت قاس لا أثر للضحك فيه: - «هذا هو الاحتمال الوحيد الممكن، ولا آخر سواه».

- «أتصوَّر ما حدث عند قيافا».

- «نعم، أيها الوالي، لقد أثار هذا اضطرابًا كبيرًا وقد استُدعيت إليهم على الفور».

حتى في نصف العتمة المخيّمة كان يرى كيف كانت عينا بيلاطس تبرقان.

- «هذا طريف، طريف...».

- «أجرؤ على الاعتراض فأقول أيها الوالي إن هذا لم يكن على شيء من الطرافة. بل إنها قضية متعبة ومملة إلى أقصى الحدود، عندما سألتهم إن لم يدفع لأحد في قصر قيافا مال، قيل لي بشكل قاطع إن هذا لم يحدث».

- «هكذا إذن؟ إذا لم يدفع لأحد منهم مال فمعناه أنه لم يدفع، وهذا ما يزيد من صعوبة القبض على القتلة».

- «صحيح تمامًا ما تقوله أيها الوالي».

- «أي أفراني، سأفضي لك بفكرة راودتني الآن فجأة: ألا يكون يهوذا هذا قد انتحر؟».

- «آه، لا أيها الحاكم»، أجاب أفراني وهو يتراجع في كرسيِّه إلى الوراء من فرط الدهشة، «العفو، لكن هذا أمر غير محتمل على الإطلاق!».

- «آه، في هذه المدينة كل شيء محتمل! وإني لمستعد على المراهنة بأن إشاعات من هذا القبيل ستنتشر في المدينة كلها في وقت جد قصير».

هنا رشق أفراني الحاكم بنظرته وفكَّر قليلًا وأجاب:

- «هذا ممكن أيها الحاكم».

لكن الحاكم، في ما بدا، لم يكن يستطيع التخلِّي عن مسألة مقتل هذا الشخص الذي من قيريافا، مع أن كل شيء صار واضحًا، فسأل بلهجة من يحلم:

- «وددت لو رأيت كيف قتلوه».

- «قُتل بمهارة فائقة، أيها الوالي»، أجاب أفراني، وهو يلقي على الحاكم نظرة مشوبة ببعض السخرية.

- «من أين لك أن تعرف هذا؟».

أجابه أفراني: - «تفضَّل وألقِ نظرة على الكيس أيها الحاكم، أؤكِّد لك أن دم يهوذا تدفَّق كالتيار، لقد تهيَّأ لي أن أرى قتلى في حياتي أيها الحاكم!».

- «لن ينهض إذن بطبيعة الحال؟».

أجاب أفراني وهو يبتسم ابتسامة فلسفية: - «لا أيها الحاكم، سينهض، عندما يُنفخ فوقه بوق المسيح الذي ينتظره الجميع هنا، أما قبل هذا فلن ينهض!».

- «كفى يا أفراني! هذه المسألة باتت واضحة، فلننتقل الآن إلى الدفن».

- «لقد دُفن المصلوبون، أيها الحاكم».

- «آه يا أفراني، تقديمك إلى المحاكمة جريمة، فأنت جدير بأسمى المكافآت، كيف تم الدفن؟».

وشرع أفراني يروي للحاكم فقال إنه في الوقت الذي كان يهتم هو شخصيًا بقضية يهوذا، بلغت وحدة الحرس السري بقيادة مساعده التلة حيث حل المساء، فلم تعثر على إحدى الجثث على قمتها.

ارتعد بيلاطس وقال بصوت مرتعش:

- «آه... كيف لم أفطن لهذا؟».

- «لا يستأهل هذا قلقك أيها الحاكم»، قال أفراني وتابع روايته، «رفع رجال الوحدة جثتي ديسماس وهيستاس اللتين فقأت الطيور الجارحة عيونهما، واندفعوا من فورهم يبحثون عن الجثة الثالثة، وسرعان ما وجدوها. أحدهم...».

قال بيلاطس بلهجة اقرب إلى التأكيد منها إلى التساؤل: - «متَّى اللاوي».

- «نعم، أيها الحاكم...».

كان متَّى اللاوي مختبئًا في مغارة على السفح الشمالي من الجبل الأقرع ينتظر إطباق الظلام، وكان معه جسد يشوع الغانوصري العاري، حيث دخل رجال الحرس المغارة وهم يرفعون المشاعل، تملّك اللاوي يأس وحنق فأخذ يصرخ أنه لم يقترف أي جريمة، وأن لأي شخص الحق، حسب القانون، أن يدفن مجرمًا نُفِّذ فيه الحكم إذا شاء، وقال متَّى اللاوي إنه لا يريد الافتراق عن هذا الجسد، كان في غاية الانفعال وكان يطلق كلامًا لا ترابط فيه، يتوسَّل تارة، ويتوعَّد ويلعن تارة أخرى...

سأل بيلاطس في تجهُّم: - «وما كان منهم إلا أن ألقوا القبض عليه؟».

أجاب أفراني بلهجة مطمئنة تمامًا: - «لا، أيها الحاكم، لا، لقد تمكَّنوا من تهدئة خاطر هذا المجنون الوقح بعد أن أوضحوا له أن الجثة ستُدفن».

هدأ اللاوي بعد أن استوعب ما قيل له، لكن أعلن أنه لن يبرح مكانه، ويرغب في المشاركة في الدفن، قال إنه لن يغادر حتى ولو يذبحونه، بل إنه عرض عليهم سكين خبز كان يحملها لهذا الغرض.

سأل بيلاطس بصوت مختنق: - «وهل طردوه؟».

- «لا، أيها الحاكم، لا، لقد سمح له مساعديّ بالمشاركة في الدفن».

سأل بيلاطس: - «أي مساعديك كان يشرف على العملية؟».

أجاب أفراني - «تولماي»، وأضاف في قلق: «أتراه اقترف خطأً؟».

أجابه بيلاطس: - «تابع، لم يحدث أي خطأ، بل على العموم أنا الّذي بدأت أتخبَّط يا أفراني، فأنا، كما يبدو، أتعامل مع شخص لا يخطئ أبدًا، وهذا الشخص هو أنت».

وضعوا متَّى اللاوي مع الجثث الثلاث في عربة، وخلال ساعتين بلغوا فجًا قفرًا إلى الشمال من أورشليم، وهناك عمل رجال الوحدة بالتناوب مدة ساعة على حفر حفرة عميقة، دفنوا فيها المصلوبين الثلاثة.

- «مجرَّدين من الثياب؟».

- «لا، أيها الحاكم، فقد أخذت الوحدة معها قمصانًا لهذا الغرض، كما وضعت في أصابع المدفونين خواتم: بحزٍّ واحد ليشوع، وبحزَّين لديسماس وبثلاثة لهيستاس، وقد أُغلقت الحفرة وطُمرت بالحجارة، وتولماي يعرف العلامة المميزة».

قال بيلاطس وهو يقطِّب جبينه: - «آه، لو كان بإمكاني أن أتوقَّع هذا! كان يلزمني أن أرى متَّى اللاوي هذا...».

- «إنه هنا، أيها الحاكم».

اتسعت حدقتا بيلاطس وتطلَّع إلى وجه أفراني بعض الوقت ثم قال ما يلي:

- «أشكرك على كل ما قمت به في هذه القضية، وأرجوك أن تبعث إليَّ بتولماي غدًا وأن تعلمه مسبقًا أني راضٍ عنه، أما أنت يا أفراني»، وهنا أخرج الحاكم من جيب زناره الملقى على الطاولة خاتمًا وناوله رئيس الحرس السري قائلًا: «فأرجو أن تتقبَّله مني للذكرى».

انحنى أفراني وتمتم:

- «إنه لشرف عظيم لي، أيها الحاكم».

- «أرجو أن تمنح الوحدة التي قامت بالدفن مكافآت، وأن تسجِّل توبيخًا بحق المخبرين الذين تركوا يهوذا يفلت من بين أيديهم، أما متَّى اللاوي فإليَّ به على الفور، فأنا بحاجة إلى تفاصيل في قضية يشوع».

- «سمعًا أيها الحاكم، ردَّ أفراني وأخذ يتراجع وينحني»، أما الحاكم فصفَّق براحته وصاح:

- «إلى هنا! قنديلًا إلى رواق الأعمدة!».

كان أفراني ينسحب إلى الحديقة حين لاحت في أيدي الخدم خلف ظهر بيلاطس الأنوار، فإذ هي ثلاثة شمعدانات توضع على الطاولة أمام الحاكم، فتراجع الليل المقمر إلى الحديقة كأنما أخذه أفراني معه، وظهر على الشرفة بدلًا من أفراني شخص غريب، صغير ونحيل، إلى جانب قائد المائة العملاق، والتقط هذا نظرة الحاكم فتراجع إلى الحديقة فورًا واختفى.

كان الحاكم يدرس الشخص القادم بعينينٍ نهمتين يغشاهما قليل من الذعر، هكذا ينظر الإنسان إلى شخص سمع عنه كثيرًا وفكّر فيه، وها هو ذا يظهر أمامه أخيرًا.

كان القادم في نحو الأربعين من العمر أسود اللون ذا ثياب ممزَّقة جفّ الوحل عليها، ينظر كالذئب شزرًا، وباختصار كان كريه المنظر، أقرب ما يكون إلى شحاذي المدينة الذين يتزاحم الكثيرون منهم على مدرَّجات الهيكل أو في أسواق القسم السفلي من المدينة، الصاخب والقذر.

استمر الصمت طويلًا، ولم يخرقه إلا التصرف الغريب لهذا المُساق إلى بيلاطس، فقد تغيَّر لون وجهه وترنَّح، ولو لم يتشبَّث بيده الوسخة بطرف الطاولة لهوى على الأرض.

سأل بيلاطس: - «ماذا دهاك؟».

- «لا شيء»، أجاب متّي اللاوي وقام بحركة من ابتلع شيئًا، فقد انتفخت رقبته النحيلة العارية الوسخة ثم تقلّصت من جديد.

كرر بيلاطس: - «ما الذي دهاك، أجب».

- «تعبان». أجاب اللاوي وتطلع إلى الأرض في تجهم.

- «اجلس». قال بيلاطس وأشار إلى الأريكة.

ألقى اللاوي على بيلاطس نظرة ارتياب، واتجه إلى الأريكة ونظر بطرف عينه في ذعر إلى مساندها الذهبية وجلس، إنما ليس على الأريكة بل على الأرض.

سأله بيلاطس: - «قل لي، لماذا لم تجلس على الأريكة».

قال اللاوي وهو يحدِّق في الأرض: - «إني وسخ، وسألوِّثها».

- «سيقدِّمون لك طعامًا الآن».

أجاب اللاوي: - «لا أريد أن آكل».

سأله بيلاطس بصوت خافت: - «لماذا الكذب؟ أنت لم تأكل طوال النهار وربما أكثر، حسنًا، لا تأكل، إني أستدعيتك لتريني السكين التي كانت معك».

- «انتزعها الجنود مني حين أُدخلت هنا»، أجاب اللاوي وأضاف في تجهُّم: «أعدها إليَّ ينبغي أن أعيدها إلى صاحبها، فأنا قد سرقتها».

- «لماذا؟».

أجاب اللاوي: - «لأقطع الحبال».

صاح الحاكم: - «مارك!»، فظهر قائد المائة تحت الأعمدة، «هاتِ السكين».

أخرج قائد المائة من أحد جرابيه المعلَّقين على زناره سكينًا قذرة لتقطيع الخبز وناولها للحاكم وانسحب.

- «ممن أخذتها؟».

- «من محل لبيع الخبز عند بوَّابة خفروف، إلى الشمال فور دخولك المدينة».

تأمَّل بيلاطس نصلها العريض وتلمَّسه بإصبعه ليرى ما إذا كان حادًا، ثم قال:

- «لا تقلق بشأن السكين، ستتم إعادتها إلى المحل، أما الآن فيهمني أمر آخر: أرني الوثيقة التي تحملها معك والتي سجِّلت فيها كلمات يشوع».

رمق اللاوي بيلاطس بنظرة كراهية وابتسم ابتسامة تفيض بالشر بحيث مسخت ملامح وجهه مسخًا.

- «تريد أن تسلبني إياها؟ وهي آخر ما أملك؟».

أجاب بيلاطس: - «لم أقل لك سلِّمها لي، بل قلتُ أرنيها».

مدَّ اللاوي يده إلى عبّه وأخرج لفافة من ورق الرق، تناولها بيلاطس وفضَّها ونشرها بين الأضواء وأخذ يدرس العلامات الحبرية القليلة الوضوح مضيِّقًا عينيه. كان بيلاطس يشعر بصعوبة في فهْم هذه السطور الملتوية فكان يزر وينحني إلى ورق الرق ويمر بيده على السطور، ونجح أخيرًا في تبيُّن أن الكتابة عبارة عن حلقة غير مترابطة من أقوال مأثورة ومن تواريخ وملاحظات حول الحياة اليومية ومقتطفات شعرية، وقرأ بيلاطس شيئًا «لا وجود للموت... البارحة أكلنا تين الربيع اللذيذ...».

كان بيلاطس يزرّ عينيه مكشِّرًا من توتره وكان يقرأ: «سنرى نهر مياه الحياة الصافي... ستنظر البشرية إلى الشمس من خلال بلَّور شفَّاف...».

وهنا ارتعش بيلاطس، فقد فكَّ في السطور الأخيرة من الرق الكلمات التالية: «لا نقيصة أكبر من الجبن».

طوى بيلاطس الرق، وناوله إل اللاوي بحركة عنيفة.

- «خذ»، قال، وأردف بعد صمت قصير: «إنك محب للكتب كما أرى، ولا معنى أن تكون، أنت الوحيد، في ثياب رثَّة تهيم دون ملجأ، عندي في قيصرية مكتبة كبيرة، وأنا على درجة كبيرة من الغنى وأريدك أن تعمل عندي، ستنظم أوراق البردي وتحفظها، ولسوف تشبع وتكتسي».

نهض اللاوي وأجاب:

- «لا، لا أريد».

سأله الحاكم وقد اكفهرّ وجهه: - «لماذا، ألا تستلطفني، أم تراك تخافني؟».
شوَّهت الابتسامة التي تفيض بالشر وجه اللاوي وقال:
- «لا، بل لأنك أنت ستخافني، فلن يسهل عليك بالمرة أن تنظر في وجهي بعد أن قتلته».
أجابه بيلاطس: - «اخرس، خذ بعض النقود».
هز اللاوي رأسه بالرفض بينما تابع الحاكم كلامه:
- «أعرف أنك تحسب نفسك تلميذًا ليشوع، لكني أقول لك إنك لم تفقه شيئًا مما علَّمك، إذ لو كان الأمر كذلك، لأخذت مني شيئًا ما بالتأكيد، واعلم أنه قال قبل موته إنه لا يتَّهم أحدًا»، هنا رفع بيلاطس إصبعه في حركة معبِّرة، وكان وجه بيلاطس يختلج، وأكمل: «ولكان هو نفسه أخذ أي شيء حتمًا. أنت قاسي القلب، أما هو فلم يكن قاسيًا. إلى أين تنوي الذهاب؟».
اقترب اللاوي من الطاولة فجأة واستند إليها بكلتا يديه وهمس للحاكم وهو يحدِّق فيه بعينين مشتعلتين:
- «اعلم أيها الوالي أني لا بد سأقتل شخصًا في أورشليم، وبودِّي أن أقول لك هذا كي تعلم أن إراقة الدماء لن تتوقَّف».
أجابه بيلاطس: - «أنا أيضًا أعرف أنها لن تتوقَّف، وكلماتك هذه لم تدهشني، أنت تريد أن تقتلني طبعًا؟».
- «لن أفلح في قتلك»، أجاب اللاوي مكشِّرًا ثم مبتسمًا، لستُ على هذه الدرجة من الغباء كي أمنِّي النفس بذلك، لكن سأقتل يهوذا الذي من قيريافا، وسأكرِّس لهذه القضية ما تبقى من حياتي».
هنا بدت الغبطة في عيني الحاكم، فأومأ إلى متَّى اللاوي بإصبعه أن يدنو منه وقال:
- «لن تفلح في هذا، فلا تشغل بالك بهذا الأمر، لقد قُتل يهوذا هذه الليلة».
وثب اللاوي متراجعًا عن الطاولة وهو يتلفَّت حوله بوحشية وصاح:
- «من الذي فعل هذا؟».
- «لا تكن غيورًا»، فرك بيلاطس يده وأجاب وهو يكشِّر «أخشى أن يكون له مؤيدون غيرك».
- «من الذي فعل هذا؟». كرَّر اللاوي في همس وأجابه بيلاطس:
- «أنا الذي فعلت هذا».

فغر اللاوي فاه، ورمى الحاكم بنظرة وحشية، فقال هذا: «ما فُعل قليل بالطبع، ومع هذا فأنا الذي فعلته»، وأضاف: «والآن هل ستأخذ شيئًا؟».

فكَّر اللاوي قليلًا، وأخذت قناته تلين، ثم قال أخيرًا:

- «مُر لي بقطعة من الرق الصافي».

ومرت ساعة من الزمن، بعدها لم يكن اللاوي في القصر، الآن لم يكن يخرق صمت السحر إلا وقع خطوات الحرس الخافتة في الحديقة، كان القمر قد بهت بسرعة، وكانت تُرى على الطرف الآخر من السماء نقطة مائلة إلى البياض هي نجمة الصبح، كانت القناديل قد انطفأت منذ فترة طويلة طويلة، وكان الحاكم مستلقيًا على متكئه، واضعًا يده تحت خده يغط في نوم لا يسمع معه صوت تنفسه، وإلى جانبه ينام بنغا.

هكذا استقبل فجر الخامس عشر من نيسان حاكم اليهودية الخامس بيلاطس البنطي.

## الفصل السابع والعشرون

# نهاية الشقة رقم 50

حين بلغت مرغريتا آخر كلمات الفصل «هكذا استقبل فجر الخامس عشر من نيسان حاكم اليهودية الخامس بيلاطس البنطي» أطل الصباح.

كانت تسمع في فناء البيت أصوات العصافير وهي تدير بين أغصان الخلاف والزيزفون حديثها الصباحي المرح والصاخب.

نهضت مرغريتا من أريكتها وتمطّت، ولم تشعر إلا الآن كم كان جسمها محطّمًا وكم كان بودّها أن تنام. ومن الجدير بالملاحظة هنا أن نفس مرغريتا كانت مطمئنة كل الاطمئنان، فأفكارها لم تكن مشوّشة ولم يكن يروّعها بتاتًا أنها أمضت الليل على نحو خارق للطبيعة. ولم تكن ذكرياتها عن الليلة التي قضتها في ضيافة الشيطان، ولا عن عودة المعلّم إليها بمعجزة لا تدري كنهها، ولا عن انبعاث الرواية من الرماد، ولا عن وجودها من جديد في مكانها السابق من القبو في الزقاق والذي طُرد منه الواشي ألويزي موغارتش، تبعث في نفسها الاضطراب. وباختصار لم يسبّب لها تعرفها بفولند أي ضرر نفسي، كان كل شيء كما لو أن هذا ما كان يجب أن يكون. مضت مرغريتا إلى الغرفة المجاورة وتيقّنت من أن المعلّم ينام نومًا عميقًا وهادئًا وأطفأت مصباح الطاولة غير اللازم وتمدّدت عند الحائط المقابل على ديوان صغير مغطّى بملاءة قديمة ممزّقة، وبعد دقيقة كانت تغط في النوم، ولم ترَ أي أحلام في ذاك الصباح، كانت الغرف في القبو صامتة، وكانت شقق البناية الأخرى كلها صامتة، وكان الهدوء على الزقاق المقفر مخيّمًا.

إنما في هذا الوقت، أي فجر يوم السبت، لم يعرف طابق كامل في إحدى المؤسسات الموسكوفية طعم النوم، كانت نوافذه المطلّة على ساحة كبيرة مفروشة بالأسفلت، تقطعها جيئة وذهابًا سيارات خاصة تنظّفها بمكانسها ببطء وأزيز تتدفّق بأنوار تخترق نور الشمس الطالعة.

كان الطابق كله مشغولًا بالتحقيق في قضية فولند، وظلّت المصابيح مضاءة في مكاتبه العشرة طوال الليل.

وتحديدًا، كانت القضية قد اتضحت من يوم أمس، من يوم الجمعة، حيث ترتّب إغلاق مسرح «فارييتيه» إثر اختفاء إدارته وعقب مختلف القبائح التي حدثت مساءً أثناء حفلة السحر الشيطاني الشهيرة، إنما القضية هنا أنه ظلّت ترِدُ إلى الطابق الساهر طوال الليل ودون توقُّف معلومات جديدة.

والآن كان على هيئة التحقيق في هذه القضية الغريبة التي تفوح منها رائحة شيطانية ظاهرة، ممزوجة بخزعبلات تنويم مغناطيسي وبجرائم جنائية واضحة تمامًا، أن تربط بين كل هذه الأحداث المتنوِّعة والمعقَّدة التي جرت في أماكن متفرِّقة من موسكو في كتلة واحدة.

وكان أركادي أبولونوفتش سيمبلياروف رئيس لجنة السمعيات أول من ترتب عليه الحضور إلى الطابق اليقظ الساهر المشعشع بالكهرباء.

ففي يوم الجمعة بعد الغداء رنَّ في شقته الكائنة في بناية قرب جسر كامني جرس الهاتف، وطلب صوت رجّالي التحدُّث إلى أركادي أبولونوفتش، أجابت زوجة أركادي أبولونوفتش التي تناولت السماعة بتجهُّم أن أركادي أبولونوفتش منحرف الصحة، وأنه استلقى ليرقد قليلًا ولا يستطيع الوصول إلى الهاتف. إلا أن أركادي أبولونوفتش اضطر مع هذا للمجيء إلى الهاتف، إذا أجاب الصوت الذي في الهاتف، ردًا على سؤال الزوجة عن المكان الذي يطلب منه أركادي أبولونوفتش، فذكر باختصار مصدر المخابرة.

- «ثانية... على الفور.... دقيقة...». تمتمت زوجة رئيس قسم السمعيات المعروفة بعجرفتها وانطلقت كالسهم إلى مخدعها تُنهِضُ أركادي أبولونوفتش من المضجع الذي كان متمدِّدًا عليه وهو يعاني عذابات جهنمية من تذكُّره حفلة الأمس وفضيحة الليل التي رافقت طرد ابنة أخيه الساراتوفية من الشقة.

والحقيقة أن أركادي أبولونوفتش صار قرب الهاتف، وهو بخُفٍّ واحد في رجله اليسرى وبملابسه الداخلية، لا في ثانية ولا حتى في دقيقة بل في ربع دقيقة وتمتم فيه:

- «نعم، هذا أنا... سامع، سامع...».

كانت زوجته التي نسيت خلال هذه اللحظات كل الجرائم البشعة المتلبّس فيها أركادي أبولونوفتش المسكين ضد الإخلاص الزوجي تمد وجهها المذعور من باب الممر وتلوِّح بالخف الآخر في الهواء وتهمس:

- «البس الخف، الخف... ستصاب رجلك بالبرد...». بينما كان يغمغم في الهاتف وهو يشيح عنها برجله الحافية ويرميها بنظرات وحشية:

- «نعم، نعم، نعم، كيف لا، فاهم... خارج حالًا».

قضى أركادي أبولونوفتش المساء كله في ذاك الطابق عينه الذي يجري فيه التحقيق، كان الحديث ثقيلًا، بل كان الحديث من أكره ما يكون، ذلك أنه اضطر إلى التحدُّث بصراحة كاملة لا عن هذه الحفلة البشعة ولا عن الخصام في لوج المسرح وحسب، وإنما، عن كل ما كان ضروريًا بالفعل: عن ميليسا أندرييفنا بوكوباتكو التي في شارع ايلوخوفسكايا، وعن ابنة أخيه التي من ساراتوف، وعن أشياء أخرى كثيرة كان الحديث فيها يسبب لأركادي أبولونوفتش آلامًا لا توصف.

ومن البديهي أن شهادة أركادي أبولونوفتش الإنسان المتحضِّر والمثقَّف الذي شهد الحفلة البشعة والذي وصف على نحو رائع، بوصفه شاهدًا ذكيًا ومختصًا، الساحر الغامض نفسه الذي يضع القناع ومساعدَيْه النذلَين، والذي تذكَّر على نحو رائع أن كنية الساحر هي فولند بالضبط، دفعت بالتحقيق خطوات مهمَّة إلى الأمام، فقد أدَّت مقارنة شهادة أركادي أبولونوفتش بشهادة أشخاص آخرين، ومنهم بعض السيدات اللواتي لحق بهن مكروه بعد الحفلة (تلك التي في ثيابها الداخلية البنفسجية والتي صعقت ريمسكي وأخريات كثيرات للأسف) والساعي كاربوف الذي أرسل إلى الشقة رقم 50 في شارع سادوفايا، أدت هذه المقارنة فورًا إلى تحديد المكان الذي يجب البحث فيه عن مصدر كل هذه المغامرات.

حضرت هيئة التحقيق إلى الشقة رقم 50 أكثر من مرة، ولم تكتفِ بمعاينتها بعناية متناهية، بل نقرت حيطانها وتفحَّصت مداخنها وبحثت فيها عن مخابئ سرية، إلا أن كل هذه الإجراءات لم تؤدِ إلى أي نتيجة، ولم تفلح الهيئة في أي من مداهماتها للشقة في العثور على أي كان، مع أنه كان مفهومًا تمامًا أن شخصًا ما موجود في الشقة على الرغم من أن كل الأشخاص المفروض أن لهم علاقة بالفنانين الأجانب الذين يحضرون إلى موسكو أكدوا بشكل حاسم وقاطع أن لا وجود في موسكو لساحر شيطاني باسم فولند ولا يمكن أن يكون له وجود.

ويقينًا فهو لم يسجِّل اسمه في أي مكان لدى وصوله، ولم يقدِّم لأحد جواز سفره أو أية أوراق أو اتفاقات أو عقود، كما أن أحدًا لم يسمع عنه شيئًا! مدير البرامج في لجنة العروض التمثيلية كيتايتسيف اقسم أغلظ الإيمان أن ستيوبا ليخودييف المختفي لم يرسل إليه أي برنامج لأي عرض لأي شخص اسمه فولند للموافقة عليه، وأن

أحدًا لم يتصل به هاتفيًا ويعلمه أي شيء بخصوص وصول فولند هذا، ولذا فهو، أي كيتايتسيف، لم يفهم ولم يعرف كيف استطاع ستيوبا أن يسمح بهذا العرض. وعندما قيل له إن أركادي أبولونوفتش رأى هذا الساحر في الحفلة ما كان من كيتايتسيف إلا أن بسط يديه ورفع عينيه إلى السماء، وكان يمكن للمرء أن يرى من عينيه ويقول بثقة إن كيتايتسيف نقي كالبلّور.

وبروخور بيتروفتش رئيس اللجنة الرئيسية للعروض نفسه...

وبالمناسبة، فقد عاد إلى بذلته فور دخول الشرطة إلى مكتبه، ما سبَّب فرحة آنا ريتشاردوفنا الجنوني، وحيرة عظيمة لرجال الشرطة الذين أزعجوا عبثًا، وبالمناسبة أيضًا: بعد أن عاد بروخور بيتروفتش إلى مكانه وإلى بذلته الرمادية المقلّمة حبَّذ تحبيذا كاملًا كل القرارات التي اعتمدتها البذلة في فترة غيابه القصير... هكذا إذن لم يكن بروخور بيتروفيتش يعرف بأي شكل من الأشكال شيئًا عن أي شخص اسمه فولند.

شيء منافٍ للعقل حقًا: آلاف المشاهدين وكل الجهاز الإداري في «فارييتيه»، وأخيرًا أركادي أبولونوفتش سيمبلياروف، وهو من أوسع الناس علمًا وثقافة، رأوا هذا الساحر كما رأوا مساعديه عليهم اللعنة ثلاثًا، ومع هذا، لا يوجد أي احتمال للعثور عليهم في أي مكان، ففيم الأمر لو سمحتم بالسؤال: هل انشقت الأرض وابتلعته فور انتهاء حفلته البشعة تلك، أم أنه لم يحضر إلى موسكو إطلاقًا كما يؤكِّد البعض؟

إذا سلَّمنا بالفرضية الأولى، يكون قد أخذ معه وهو يختفي كل إدارة «فارييتيه» دون شك، وإذا سلَّمنا بالفرضية الثانية، ألا تكون إدارة المسرح المنحوس قد اختفت من موسكو دون أثر بعد أن أقدمت على عملها الشائن (تذكَّروا النافذة المحطَّمة في المكتب وسلوك توزابوبين!).

وينبغي إنصاف رئيس هيئة التحقيق، فقد عثر على ريمسكي المختلف بسرعة مذهلة، كان يكفيهم أن يقارنوا سلوك توزابوبين قرب موقف سيارات الأجرة الذي قرب السينما ببعض التوقيت، ومنها مثلًا وقت انتهاء العرض ومتى كان بوسع ريمسكي أن يختفي بالضبط، حتى يبرقوا إلى لينينغراد، وجاءهم الجواب بعد ساعة (مع حلول مساء الجمعة) إنه عُثر على ريمسكي في الحجرة رقم 412 في فندق «أستوريا»، في الطابق الرابع إلى جوار الغرفة التي نزل فيها مدير ريبرتوار، أحد مسارح موسكو الزاهرة آنذاك، أي في تلك الحجرة إياها المفروشة بأثاث أزرق رمادي مطعم بالذهب والمتَّصلة بحمَّام رائع كما هو معروف.

وأُلقيَ القبض على ريمسكي المختبئ في خزانة الملابس في الحجرة رقم 412

في فندق «استوريا»، وتم استجوابه فورًا في لينينغراد نفسها. ثم وردت إلى موسكو برقية تفيد أن المدير المالي لـ «فاريتيه» بدا في حالة اختبال وأنه لا يجيب على الأسئلة أو لا يود الإجابة عليها بأجوبة واضحة وأنه لا يطلب إلا شيئًا واحدًا: أن يخبئوه في حجرة مصفَّحة ويقيموا عليه حراسة مسلَّحة، وجاءهم أمر موسكو برقيًا بأن يحضروا ريمسكي إلى موسكو تحت الحراسة، وهكذا غادر ريمسكي مساء الجمعة إلى موسكو بقطار الليل وتحت الحراسة المطلوبة.

وعند مساء يوم الجمعة نفسه وقعوا على آثار ليخودييف، فقد أرسلت إلى جميع المدن برقيات تسأل عن ليخودييف، وجاءهم من يالطا جواب بأن ليخودييف كان في يالطا وأنه غادرها بالطائرة إلى موسكو.

الشخص الوحيد الذي لم يُعثر له على أثر كان فارينوخا، انقطعت أخبار المدير المسرحي الشهير الذي تعرفه موسكو كلها.

وكان على هيئة التحقيق أن تهتم خلال ذلك بأحداث في أماكن أخرى من موسكو، خارج مسرح «فاريتيه». ومنها ذلك الحادث الغريب الذي جرى للموظفين الذين أنشدوا «البحر المجيد» (وبالمناسبة نجح البروفيسور سترافنسكي في ساعتين بإعادتهم إلى حالتهم الطبيعية عن طريق حُقَن تحت الجلد)، وللأشخاص الذين قدَّموا لأشخاص آخرين أو مؤسسات أشياءَ الشيطَانُ يعلم ما هي تحت اسم نقود، وكذلك مع الأشخاص الذين لحق بهم الأذى من جرَّاء ذلك.

لكن أكره هذه الحوادث، كما هو واضح طبعًا، وأفضحها وأصعبها على الحل كان حادث اختطاف رأس الأديب المرحوم برليوز من نعشه مباشرة في قاعة غريبوييدوف الذي جرى في وضح النهار.

كان يعمل في التحقيق اثنا عشر رجلًا، وكانوا يجمعون، كما لو بالصنارة، الحلقات اللعينة لهذه القضية المعقَّدة المتشعِّبة في أنحاء موسكو كلها.

أحد المحقِّقين حضر إلى مستشفى البروفيسور سترافنسكي وطلب إليه قبل كل شيء تقديم قائمة بأسماء الأشخاص الذين دخلوا مستشفاه خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، وبهذا الشكل عثر على نيكانور إيفانوفتش بوسوي، وعرِّيف الحفلات المسكين الذي قطع رأسه، وعلى أي حال كان اهتمام المحقِّق بهذين الشخصين قليلًا، إذ بات من اليسير إثبات أنهما كانا ضحية العصابة نفسها التي يرأسها هذا الساحر الغامض، لكن إيفان نيقولايفتش بيزدومني أثار اهتمام المحقِّق البالغ.

انفتح باب غرفة إيفان رقم 117 مع حلول مساء الجمعة وولجها شاب مدوَّر الوجه

هادئ رقيق الحاشية لا يشبه بتاتًا المحقِّقين، مع أنه كان واحدًا من أفضل محقِّقي موسكو، فرأى في السرير شابًا شاحب الوجه ضامره، ذا عينين يُقرأ فيهما غياب الاهتمام بما يجري حوله، عينين مصوَّبتين إلى مكان ما بعيد فوق ما يحيط بالشاب تارة، وإلى داخل الشاب نفسه تارة أخرى.

قدَّم المحقِّق نفسه بودٍّ، وقال إنه عرج على إيفان نيقولايفتش ليتحدَّثا قليلًا في ما حدث أول البارحة في بتريرشيي برودي.

ما كان أشد زهو إيفان لو حضر إليه المحقِّق قبل هذا الوقت، ولنقل ليلة الأربعاء حين حاول إيفان بحماسة وصخب أن يستمع أحد إلى قصته عن بتريرشيي برودي! وها هو ذا حلمه في المساعدة على القبض على المستشار قد تحقَّق، لم يعد بحاجة للبحث عن أحد والاتصال به، بل أتوا هم شخصيًا إليه، وبالضبط للاستماع إلى روايته عمَّا حدث يوم الأربعاء مساء.

لكن إيفان تغيَّر تغيرًا كاملًا مع الأسف خلال المدة التي انقضت على مصرع برليوز. كان مستعدًا للإجابة بطيب خاطر وبأدب عن أسئلة المحقِّق كلها، لكنك كنت تستشعر اللامبالاة في نظرة إيفان كما في نبرات صوته، إذ لم يعد مصير برليوز يعنيه.

قبل وصول المحقِّق غفا إيفان وهو مستلقٍ فمرَّت أمام عينيه بعض الرؤى، وهكذا رأى المدينة الغريبة، الغامضة، غير الموجودة، ذات الكتل المرمرية والأعمدة المتآكلة والأسطح المتوهِّجة في ضوء الشمس، وقلعة أنطونيو السوداء الكئيبة والقاسية، ذات القصر القائم على الرابية الغربية الغارق حتى السقف تقريبًا في خضرة الحديقة الاستوائية بتماثيله البرونزية المتوهِّجة في شمس المغيب فوق هذه الخضرة، ورأى المئات الرومانية المتمنطقة بدروعها تمضي عند أسوار المدينة القديمة.

وظهر أمام إيفان في غفوه شخص متجمِّد على أريكة، حليق الذقن ذو وجه أصفر مرهق، شخص في بردة بيضاء ذات بطانة حمراء يحدِّق في الحديقة الغنَّاء والغريبة بكره وغيظ. ورأى إيفان رابية صفراء، جرداء ليس فيها إلا أعمدة جرداء عليها عوارض خشبية.

أما ما حدث في بتريرشيي برودي فلم يعد يثير اهتمام الشاعر إيفان بيزدومني.

- «قل لي، يا إيفان نيقولايفتش، أنت شخصيًا كم كنت بعيدًا عن الباب الدوَّار حين هوَى برليوز تحت الترام؟».

ولأمر ما طافت بشفتي إيفان ابتسامة لا مبالية تكاد لا تُلحظ وأجاب:

- «كنت بعيدًا».

- «وذو المربعات ذاك هل كان قرب الباب الدوَّار؟».
- «لا، كان يجلس على المقعد غير بعيد منه».
- «هل تذكر جيدًا أنه لم يدنُ من الباب الدوَّار لحظة سقوط برليوز؟».
- «أذكر، لم يدنُ، كان يجلس متهالكًا على نفسه».

كانت هذه الأسئلة آخر أسئلة المحقِّق، فقد نهض بعدها ومدَّ يده إلى إيفان وتمنَّى له التماثل العاجل للشفاء وأعرب عن أمله في عودته إلى قراءة أشعاره قريبًا.

أجاب إيفان بصوت منخفض: - «لا، لن أعود إلى كتابة الشعر».

ابتسم المحقِّق بأدب، وسمح لنفسه بالإعراب عن يقينه أن الشاعر في حالة وَهَنٍ نفسي، وأن هذه الحالة سرعان ما تزول.

- «لا»، رد إيفان، ولم يكن ينظر إلى المحقِّق بل إلى البعيد، إلى السماء المنطفئة، «هذه الحالة لن تزول أبدًا، الأشعار التي كتبتها سيئة، والآن أدركت هذا».

خرج المحقِّق من عند إيفان محمَّلًا بمعلومات بالغة الأهمية، ونجح التحقيق أخيرًا عندما اتَّبع خيط الأحداث من آخره إلى أوله في الوصول إلى مصدر كل الأحداث، لم يعد المحقِّق يشك في أن هذه الأحداث بدأت من مقتل برليوز في بتريرشيي برودي. وبالطبع لم يكن إيفان ولا هذا الشخص ذو المربعات هما اللذان دفعا رئيس ماسوليت العاثر الحظ تحت عربات الترام. من الناحية المادية، الفيزيائية إن شئتم، لم يسهم أحد في سقوطه تحت العجلات، لكن المحقِّق كان على يقين أن برليوز رمى بنفسه تحت الترام (أو هوَى تحته) وهو في حالة تنويم مغناطيسي.

نعم، باتت المعلومات المتوفِّرة غزيرة، وأضحى معروفًا من يجب القبض عليه والمكان الذي يُقبض عليه فيه، لكن المشكلة أنه تعذَّر بأي شكل من الأشكال تنفيذ عملية القبض. لا بد من أن نكرِّر أن شخصًا ما كان متواجدًا في هذه الشقة الملعونة ثلاثًا، الشقة رقم 50، هذا أمر لا شك فيه إذ كانت هذه الشقة ترد أحيانًا على المخابرات الهاتفية بصوت رنان تارة، وأخنّ تارة أخرى. وكانت نافذة الشقة تفتح أحيانًا، بل أكثر من ذلك تُسمع منها أصوات فونوغراف، ومع هذا ففي كل مرة كانوا يتوجَّهون إليها، لم يكن يُعثر فيها على أي كان، ولقد داهموها أكثر من مرة، وفي أوقات مختلفة من الليل والنهار، بل أكثر من ذلك كانوا يحملون معهم شبكة وهم يبحثون في زوايا الشقة، كانت الشقة مشبوهة منذ زمن ولم تقتصر الحراسة على الطريق المؤدِّي إلى الفناء عبر الفسحة عند العتبة، بل على المدخل الخلفي، وفوق هذا وذاك وضعت حراسة على السطح قرب المداخن، نعم، كانت الشقة رقم 50 تعابثهم، ولم يكن بوسعهم فعل أي شيء.

وامتد الأمر على هذا النحو حتى منتصف ليلة الجمعة السبت حين اتجه البارون ميغل بمهابة إلى الشقة رقم 50 بصفة ضيف وهو يرتدي ثوب السهرة وحذاءً لامعًا. سُمع كيف تُرِكَ البارون يدخل الشقة، وبعد عشر دقائق بالضبط داهموا الشقة دون أي إخطار، لكنهم لم يجدوا أصحابها، وليس هذا فحسب، بل إنهم لم يعثروا أيضًا، وكان هذا أمرًا في منتهى الغرابة، على أي أثر للبارون ميغل.

وكما قلنا إذن، امتد الأمر على هذا النحو حتى فجر السبت، وهنا انضافت إلى المعطيات السابقة معطيات أخرى جديدة ومهمَّة جدًا، فقد حطَّت في مطار موسكو طائرة ركاب بستة مقاعد قادمة من القرم، نزل منها في عداد الركاب الآخرين راكب غريب، كان شابًا يعلو وجهه الشعر بوحشية، لم يغتسل من نحو ثلاثة أيام، ذا عينين ملتهبتين ومذعورتين، لا يحمل أي حقائب ويرتدي ثيابه على نحو غريب، كان يعتمر باباخا[1] ويلقي عباءة لبّاد على قميصه الليلي وينتعل خفًا جلديًا ليليًا جديدًا أزرق اشتُرِيَ حديثًا، وما إن ابتعد عن السلم الذي كانوا يهبطون منه من قمرة الطائرة حتى اقترب منه بعضهم، كانوا بانتظار هذا المواطن، وما هي إلا فترة قصيرة حتى كان مدير «فاريتيه» الذي لا يُنسى ستيبان بوغدانوفتش ليخودييف يمثل أمام لجنة التحقيق، وأفضى المدير أمامها بمعلومات جديدة بات واضحًا منها أن فولند تسلَّل إلى «فاريتيه» تحت هيئة فنَّان بعد أن نوَّم ستيوبا ليخودييف تنويمًا مغناطيسيًا ثم تمكَّن بطريقة ما أن يلقيَ بستيوبا هذا على بعد عدد، الله يعلم كم هو، من الكيلومترات من موسكو. ازدادت المعلومات إذن، لكن هذا لم يخفِّف من صعوبة القضية، بل لعلَّها زادتها صعوبة، ذلك أنه أضحى واضحًا أن التمكن من شخص كهذا يقدم على عمل كهذا الذي أصبح ستيبان بوغدانوفتش ضحيته، لن يكون بمثل هذه السهولة. وبالمناسبة وُضع ليخودييف في زنزانة أمينة بناء على طلبه، ومثل أمام لجنة التحقيق فارينوخا الذي اعتقل للحال في شقته التي عاد إليها بعد غياب مجهول استمر نحو اليومين.

وعلى الرغم من العهد الذي قطعه المدير الإداري على نفسه لأزازيلو بألا يكذب، فقد بدا أنه يكذب حقًا، وعلى أي حال يجب ألا نقسو في لومه كثيرًا، لقد حرَّم عليه أزازيلو الكذب والتجالف بالهاتف، هذا صحيح، لكن المدير الإداري يتحدَّث الآن دون مساعدة هذا الجهاز. كان إيفان سافيليفتش يصرِّح، وهو يشرد بعينيه، أنه جلس نهار الخميس في مكتبه، وشرب حتى ثمل، ثم مضى إلى مكان ما، لكن إلى أين لا

(1) غطاء رأس قوقازية من الفرو. المترجم.

يذكر، وفي مكان ما آخر شرب «ستاركا»[1]، لكن أين لا يذكر، وفي مكان آخر تمرَّغ تحت سياج ولكن أين لا يذكر أيضًا، إنما حيث قيل للمدير الإداري إنه بتصرفه الغبي والأخرق هذا يعيق التحقيق في هذه القضية المهمَّة، وإنه سيحاسَب على هذا بالطبع، بعد هذا فقط أخذ فارينوخا ينتحب، وهمس بصوت راعش، وهو يتلفَّت حوله، إنه إنما يكذب من خوفه فقط، من خشيته انتقام عصابة فولند التي وقع في يدها. وإنه يطلب، يتوسَّل، يتعطَّش أن يوضع في غرفة مصفَّحة ويُحكم الإغلاق عليه.

دمدم أحد المحققين: - «تبًّا للشيطان! لقد استهوتهم هذه الحجرة المصفحة».

قال المحقِّق الذي زار إيفان: - «لقد روَّعهم هؤلاء الأوغاد».

هدَّؤوا من روع فارينوخا قدر ما استطاعوا، وقالوا له إن باستطاعتهم أن يحموه دون أي غرفة فأتضح للحال أنه لم يشرب «ستاركا» عند السياج، وأن الذين ضربوه كانوا اثنين، أحدهم ذو ناب وأصهب والثاني بدين...

- «آه، يشبه القط؟».

- «نعم، نعم، نعم». همس المدير الإداري وهو يتجمَّد من الخوف ويتلفَّت حوله كل ثانية. وأفضى بتفاصيل أخرى عن إقامته ما يقارب اليومين في الشقة رقم 50 بصفته طُعْمًا لمصَّاص دماء، كاد يتسبَّب في مصرع المدير المالي ريمسكي...

في هذا الوقت أُدخل ريمسكي الذي أُحضر بقطار لينينغراد، إلا أن هذا الهَرِم الأشيب المرتعش من الخوف، والمختل نفسيًا، الذي كان يصعب على المرء أن يعرف فيه المدير المالي السابق. لم يرِد قول الحقيقة بأي ثمن، وأظهر بهذا الخصوص عنادًا شديدًا، فقد أكد ريمسكي أنه لَم يشاهد أي فتاة اسمها غيلا في مكتبه ليلًا، كما لم يشاهد فارينوخا، وكل ما في الأمر أنه شعر بدوار وسافر وهو في حالة فقدان الوعي إلى لينينغراد، ولا حاجة إلى القول إن المدير المالي المريض أنهى شهادته بطلب وضعه في حجرة مصفَّحة.

أُلقيَ القبض على آنوشكا حين كانت تحاول تسليم عاملة الصندوق في محلٍّ كبير في أربات ورقة من فئة العشرة دولارات، واستمع المحقِّقون باهتمام إلى قصة آنوشكا عن الناس المتطايرين من نافذة البيت الذي في سادوفايا، وعن الحدوة التي التقطتها من الأرض لتسلمها إلى الشرطة على حدِّ قولها.

سألوا آنوشكا: - «هل كانت الحدوة من الذهب ومرصَّعة بالماس فعلًا؟».

أجابت آنوشكا: - «وكأني لا أعرف الماس!».

---

(1) نوع من الفودكا. الناشر.

- «لكن هل أعطاكِ تشيرفونتسات كما تقولين؟».
- «وكأني لا أعرف التشيرفونتسات!».
- «حسنًا، في أي وقت تحوَّلت إلى دولارات؟».

صرخت آنوشكا بصوت حاد: - «لا أعرف شيئًا عن الدولارات، ولم أرَ أي دولارات، هذا حقُّنا، أُعطينا مكافأة... ونُريدُ أن نشتريَ بها قماشًا...». وهنا أخذت تهلوس أنها غير مسؤولة عن إدارة البناية التي أسكنت في الطابق الخامس قوة شريرة جعلت الحياة مستحيلة.

هنا هزَّ المحقِّق قلمه في وجه آنوشكا دليل ضيقه وضيق الآخرين الشديد بها وبهرائها وكتب لها إذنًا بالانصراف على ورقة خضراء، واختفت آنوشكا من المبنى فاستراح الجميع.

وتلاها رتل كامل من الناس ومنهم نيقولاي إيفانوفتش الذي لم يُعتقل إلا بسبب غباء زوجته الغيور التي أبلغت الشرطة عند الفجر باختفاء زوجها. ولم يُدهش نيقولاي إيفانوفتش الشرطة كثيرًا حين وضع أمامهم على الطاولة الوثيقة التهريجية بأنه أمضى الوقت في حفل راقص عند الشيطان، ولقد جانب نيقولاي إيفانوفتش الحقيقة إلى حدٍّ ما، وهو يروي لهم كيف حمل خادمة مرغريتا نيقولايفنا العارية على ظهره في الهواء إلى مكان ما بعيد على النهر لتستحم، وعمَّا سبق هذا من ظهور مرغريتا نيقولايفنا متجرِّدة من ثيابها في النافذة، وعلى سبيل المثال لم يرَ نيقولاي إيفانوفتش ضرورة لأن يذكر أنه أتى المخدع وهو يحمل قميصًا داخليًا في يده ولا أنه دعا ناتاشا بفينوس، فناتاشا حسب روايته هي التي خرجت طائرة من النافذة وامتطته وسحبته إلى خارج موسكو...

وقال:

- «كنت واقعًا تحت الضغط فاضطررت إلى الانصياع»، ثم أنهى تقوُّلاته برجاء ألا تحاط زوجته علمًا بكلمة مما قال، الأمر الذي وُعد به.

ومكَّنت شهادة نيقولاي إيفانوفتش المحقِّقين من تقرير أن مرغريتا نيقولايفنا وخادمتها ناتاشا اختفتا دون أن تتركا أثرًا، واتُخذت الإجراءات للقبض عليهما.

وهكذا اتسم صباح يوم السبت بتحقيقات لم تتوقَّف ثانية، في هذا الوقت كانت تظهر في المدينة وتنتشر إشاعات غير معقولة وكان القدر القليل من الحقيقة يوشَّى بأزهى أنواع الكذب. قيل إنه أقيمت في «فارييتيه» حفلة جرى بعدها ألفا مشاهد إلى الشارع كما ولدتهم أمهاتهم، وأنه دُوهمت مطبعة أوراق نقدية مزيفة ذات طابع

سحري في شارع سادوفايا، وأن عصابة مجهولة اختطفت خمسة من مسؤولي قطاع الترفيهيّات، وأن رجال الشرطة ألقوا القبض عليها للحال، وأشياء أخرى كثيرة مما لا نود حتى ترديده.

خلال ذلك كان الوقت يقترب من الظهر، إذّاك رن الهاتف في مكان التحقيق، وجاءت الأخبار من سادوفايا أن الشقة اللعينة أبدت من جديد علامات تدل على الحياة فيها، وقيل إن نوافذها تفتح من الداخل، وكانت تنبعث منها أصوات بيانو وغناء وأنهم رأوا قطًا أسود يجلس على حافة النافذة ويتشمّس.

وفي نحو الساعة الرابعة من هذا اليوم الحار خرجت مجموعة كبيرة من الرجال في لباس مدني من ثلاث سيارات على مسافة بعيدة بعض الشيء من البناية رقم 302 مكرَّر في شارع سادوفايا. وهنا توزَّعت المجموعة الكبيرة إلى مجموعتين صغيرتين اجتازت إحداهما ممر العمارة والفناء إلى المدخل الرئيسي السادس مباشرة، بينما فتحت الثانية بابًا صغيرًا مسمَّرًا في العادة يؤدِّي إلى المدخل الخلفي، وأخذت المجموعتان ترقيان درجين مختلفين إلى الشقة رقم 50.

في هذا الوقت كان كوروفييف وأزازيلو يجلسان في غرفة الطعام ويوشكان على الانتهاء من تناول فطورهما (وتجدر الإشارة إلى أن كوروفييف كان يرتدي لباسه العادي وليس فراك الاحتفال). وكان فولند في المخدع على عادته، أما القط فلم يكن أحد يعرف مكانه، ولكن إذا حكمنا من قرقعة الطناجر والقلل المنبعثة من المطبخ، كان بإمكاننا الافتراض أن بيغيموت هناك بالتحديد يرتكب حماقات على عادته.

- «ما هذه الخطوات على الدرج؟». سأل كوروفييف وهو يلعِّب ملعقته الصغيرة في فنجان القهوة.

- «إنهم آتون للقبض علينا»، أجاب أزازيلو وأتى على قدح من الكونياك.

كان جواب كوروفييف: - «أي، أي».

كان صاعدو الدرج الرئيسي قد بلغوا في هذه الأثناء بسطة الطابق الثالث، حيث كان اثنان من عمّال التمديدات الصحية يعالجان ماسورة التدفئة البخارية، وتبادل الصاعدون وعاملا التمديدات نظرة ذات معنى.

همس أحدهما وهو يطرق بمطرقته على الماسورة: - «جميعهم في البيت».

إذّاك شهر السائر في المقدمة من تحت معطفه مسدسًا أسود، وأخرج آخر إلى جانبه رزمة مفاتيح مشتركة، وعمومًا كان المتَّجهون إلى الشقة رقم 50 مجهَّزين كما يجب، كان في جيوب اثنين منهم شباك حريرية دقيقة سهلة النشر، وفي جيب آخر حبل ذو أنشوطة وفي جيوب سادس أقنعة من الشاش وقوارير كلوروفورم.

وفي ثانية فُتح باب الشقة رقم 50 الرئيسي وصار كل القادمين في المدخل، بينما أظهر الباب المصطك في المطبخ أن المجموعة الثانية القادمة من المدخل الخلفي وصلت في وقتها أيضًا.

في هذه المرة كان النجاح، وإن لم يكن النجاح الكامل باديًا للعيان، ففي لمح البصر انتشر الرجال في كل الغرف لكنهم لم يعثروا على أحد، إنما اكتشفوا في غرفة الطعام بقايا فطور تخلَّى عنه أصحابه للتو كما يبدو، كما رأوا فوق رفِّ المدفأة الذي في غرفة الاستقبال قطًا أسود ضخمًا يجلس قرب دورق بلَّوري ويمسك بقائمتيه وابورًا.

تأمَّل مقتحمو غرفة الاستقبال هذا القط فترة طويلة نسبيًا وهم غارقون في صمتٍ تام.

همس أحد الداخلين: - «أي.... رائع حقًا».

قال القط وهو يزوي ما بين حاجبيه بعداء: - «إني لا أعبثُ ولا أمسُّ أحدًا، بل أصلِّح الوابور، كما أعتبر من واجبي تنبيهكم إلى أن القط حيوان قديم لا يُمس».

- «عمل متقن بشكل خارق»، همس أحد الداخلين بينما قال آخر بصوت عالٍ وبوضوح:

- «أي، أيها القط الناطق الذي لا يُمس تفضَّل إلى هنا».

نُشرت الشبكة الحريرية وقُذفت في الهواء، لكن الذي ألقى بها أخطأ هدفه لدهشة الجميع التامة، ولم يعلق بها إلا الدورق الذي تحطَّم على الفور محدثًا رنينًا قويًا.

زأر القط: - «خسرتم! أورا!». وهنا وضع الوابور جانبًا واستل من خلف ظهره براوننغ وسدَّده إلى أقرب رجل واقف قربه، ومضت نار في يد الرجل قبل أن يتمكَّن القط من إطلاق ناره، ومع طلقة الماوزر[1] هوى القط من رفِّ المدفأة وقد سقط البراوننغ من يده ورمى الوابور.

- «انتهى كل شيء»، قال القط بصوت وانٍ وانطرح بفتور في بركة الدم، «ابتعدوا عني ثانية، دعوني أودِّع الأرض، آه يا صديقي أزازيلو!». أنَّ القط ودمه ينزف، «أين أنت؟»، وصوَّب إلى باب غرفة الطعام عينين منطفئتين، «لم تهبّ إلى نجدتي في معركة غير متكافئة، لقد تخليت عن بيغيموت المسكين وفضَّلت عليه كأسًا من الكونياك اللذيذ فعلًا! ولكن ما العمل، ليكن موتي وزرًا يثقل ضميرك أما أنا فأوصي لك ببراوننغي...».

- «الشبكة، الشبكة، الشبكة»، تعالت الهمسات المضطربة حول القط، لكن الشيطان وحده يعلم لماذا علقت الشبكة داخل جيب أحدهم ولم تخرج.

(1) براوننغ وماوزر: نوعان شهيران من المسدسات. الناشر.

- «الشيء الوحيد القادر على إنقاذ قط مصاب بجرح قاتل هو جرعة كاز...». قال القط وألصق فمه بالثقب المدوَّر الذي في الوابور مستغلًا ارتباك من حوله وذهولهم وروى جوفه بالكاز، وللحال توقَّف النزف تحت قائمته العلوية اليسرى، فوثب حيًا ونشيطًا والتقط وابوره ووضعه تحت إبطه وقفز عائدًا إلى رف المدفأة، وهناك أخذ يتسلَّق الجدار ممزقًا أوراقه وما هي إلا ثانيتان تقريبًا حتى كان يجلس على إفريز معدني فوق الداخلين.

وفي لحظة تشبَّثت يدان بستارة النافذة ونزعتاها مع الإفريز فتدفقت الشمس إلى الغرفة الظليلة، لكن لا القط الذي ادعى الإصابة ولا الوابور سقطا، بل تمكن القط على نحو ما أن يندفع في الهواء دون أن يتخلَّى عن الوابور ويقفز إلى ثريًا معلقة في وسط الغرفة.

تعالت الصيحات من الأسفل: - «أحضر سُلَّمًا!».

- «أدعوكم للمبارزة!». زمجر القط وهو يطير فوق رؤوسهم جيئة وذهابًا على الثريًا المتراقصة، وهنا ظهر البراونينغ من جديد في قائمته، في حين وضع الوابور بين شعاب الثريًا، وسدَّد القط وفتح عليهم النار وهو يتأرجح مثل البندول فوق رؤوس القادمين، هزَّ الدويُّ الشقةَ وتناثرت على الأرض شظايا بلَّورية من الثريًا وتصدَّعت المرآة على الموقد على شكل نجيمات وتعالى غبار الجص وتقافزت على الأرض الخراطيش الفارعة وانفجر زجاج النوافذ وأخذ الوابور الذي أصيب بطلقة ينفث كازًا، لم يعد الآن مجال للتفكير في الإمساك بالقط حيًا، فأخذ القادمون يردُّون عليه بطلقات محكمة ومسعورة يسدِّدونها من الماوزر إلى رأسه والى بطنه وإلى صدره وإلى ظهره، وألقى صوت الرصاص الذعر على الأسفلت الذي في الفناء.

لكن إطلاق الرصاص هذا لم يستمر إلا فترة جد وجيزة أخذ بعدها يهدأ شيئًا فشيئًا، والعجيب هنا أن إطلاق الرصاص هذا لم يسبب للقط ولا للقادمين أي أذى فلم يخرج أحد من المعركة مقتولًا أو حتى مجروحًا، بل خرج الجميع منها، بمن فيهم القط، سالمين تمامًا، وبغية التحقُّق من هذا الأمر تمامًا أفرغ أحد القادمين خمس رصاصات في رأس الحيوان اللعين فرد عليه القط بخفة ونشاط بمشط كامل، وكانت النتيجة كسابقتها، ولم يُحدث هذا في الرجال أي أثر. كان القط يهتز في الثريًا التي كانت تلويحاتها تتضاءل شيئًا فشيئًا وهو ينفث لأمر ما في فوهة البراونغ ويبصق على قائمته، وكانت الدهشة والذهول الكاملان ينعقدان على أوجه الرجال الواقفين تحت في صمت، فقد كانت المرة الوحيدة، إن لم تكن واحدة من المرات القلائل، التي

كان فيها تبادل الرصاص غير مُجدٍ، كان بإمكانهم الافتراض، طبعًا، بأن براوننغ القط مسدس لعبة، أما ماوزرات القادمين فلا يصح فيها هذا القول بحال من الأحوال، أمَّا أول جرح أصيب به القط، وهذا أمر من الواضح أنه لم يكن فيه مجال لأي شك، فلم يكن، كشرب الكاز، إلا خدعة وتظاهرًا حقيرًا.

وجرت محاولة أخرى للإمساك بالقط، فرمى الحبل ذا الأنشوطة لكنه علق بإحدى الشموع وانقطعت الثريًا، فأحدث سقوطها على الأرض دوِيًا هزَّ أركان البناية كلها في ما بدا، لكن هذا كله كان عبثًا في عبث، فقد انهمرت الشظايا على الحاضرين، بينما طار القط وحطَّ عاليًا تحت السقف على القسم العلوي من إطار مرآة الموقد المطلي بالذهب، لم يكن في نيته الركون إلى القرار، بل على العكس انطلق في الحديث مرة أخرى وقد شعر أنه في مكان آمن نسبيًا وقال من عليائه:

- «لا أفهم على الإطلاق أسباب معاملتي بمثل هذا العنف...».

وهنا قاطع هذا الكلام من بدايته صوت خفيض ثقيل أتى من مكان مجهول:

- «ما الذي يجري في الشقة؟ إنكم تشوِّشون على عملي».

ورد عليه صوت آخر غليظ وكريه:

- «إنه بيغيموت طبعًا، ليأخذه الشيطان».

وقال صوت ثالث مرتج:

- «سيدي، اليوم السبت، الشمس تنحدر إلى المغيب، آن الأوان».

قال القط من على المرآة: - «اعذروني، لا أستطيع متابعة حديثي معكم، آن الأوان». وقذف مسدسه البراوننغ وحطَّم لوحين من زجاج النافذة ثم رش كازًا، فاشتعل الكاز تلقائيًا وشبَّ مرسلًا موجة من اللهب ارتفعت حتى السقف.

اندلعت النار بشكل غير مألوف، بسرعة وعنف لا يُعهدان حتى في نارِ الكاز وقودها، فقد أخذ الدخان يتصاعد من ورق الجدران على الفور واحترقت ستارة النافذة المرمية على الأرض، وأخذت إطارات النوافذ المحطَّمة تحترق، وتهيَّأ القط وماء، ووثب من المرآة إلى حافة النافذة واختفى خلفها مع وابوره، ودوَّت طلقات في الخارج، كان الرجل الجالس على درج الإطفاء الحديدي الواقع على مستوى نوافذ شقة زوجة الصائغ هو الذي أطلق النار حين أخذ القط يطير من حافة نافذة إلى أخرى متوجهًا إلى ماسورة تصريف الماء الركنية في البيت المبني على شكل حرف نون (ن)، هذه الماسورة التي تسلقها إلى السطح.

وهناك أيضًا أطلق عليه النار الحرس القائمون على مراقبة المداخن ولكن دون

جدوى مع الأسف، واختفى القط في الشمس الغاربة التي كانت تغمر المدينة.

في هذا الوقت اشتعل باركيه الشقة بالنار تحت أرجل القادمين، وبدت وسط النار وفي المكان نفسه الذي تمرَّغ فيه القط بجرحه الكاذب جثة البارون السابق ميغل بذقنها المرفوعة إلى الأعلى وعينيها الزجاجيتين وهي تزداد كثافة. إنما لم تعد هناك أي إمكانية لسحبها، كان المتواجدون في غرفة الاستقبال يتراجعون إلى غرفة المكتب فالمدخل وهم يقفزون فوق ألواح الباركيه المشتعلة ويخفقون براحاتهم على أكتافهم وصدورهم الملفوحة بالدخان، بينما هُرع الذين كانوا في غرفة الطعام والمخدع هاربين عبر الممر، أما الذين كانوا في المطبخ فقد اندفعوا إلى المدخل، كانت غرفة الاستقبال قد امتلأت بالنار والدخان، لكن أحدهم تمكن من إدارة قرص الهاتف على رقم مركز الإطفاء ومن إطلاق صرخة مختصرة في السماعة:

- «سادوفايا، 302 مكرَّر».

لم يعد هناك أي مجال للإبطاء، فقد امتد اللهب إلى المدخل، وبات التنفُّس صعبًا.

ما إن تسللت من النوافذ المحطمة في الشقة المسحورة أول تيارات الدخان حتى تردَّدت في الفناء أصوات نسائية يائسة:

- «نار، نار، إننا نحترق».

وأخذ الناس في مختلف شقق البناية يصرخون في الهواتف:

- «سادوفايا! سادوفايا، 302 مكرَّر».

وفيما سُمعت في سادوفايا أصوات أجراس تروِّع القلب تطلقها سيارات حُمر طويلة تنطلق بسرعة من كل أنحاء المدينة، رأى الناس المضطربون جيئة وذهابًا في الفناء كيف طارت مع الدخان من نافذة الطابق الخامس ثلاثة أطياف رجالية كما بدا، وطيف واحد لامرأة متجرِّدة من ثيابها.

## الفصل الثامن والعشرون

# مغامرات كوروفييف وبيغيموت الأخيرة

هل وُجدت هذه الأطياف فعلًا أم أنها كانت مجرَّد تهيؤات لسكان البناية المنحوسة في سادوفايا، الذين صعقهم الخوف؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به بدقة. وإذا وُجدت هذه الأطياف فأين اتجهت من فورها؟ هذا أيضًا لا يستطيع أحد أن يعرفه. كما لا نستطيع القول أين افترقت، لكننا نعرف أنه بعد نحو ربع ساعة من اندلاع الحريق في سادوفايا ظهر مواطن طويل القامة في بزة ذات مربعات عند أبواب تورغسين الزجاجية في سوق سمولنسكي ومعه قط أسود ضخم.

فتح هذا المواطن الباب الخارجي للمحلّ وهو يتلوَّى بخفة بين المارة فإذا ببوَّاب صغير الحجم ناتئ العظام تبدو على وجهه أمارات العداء الشديد، يقطع عليه طريقه ويقول له بصوت حانق:

- «ممنوع الدخول مع القطط».

- «العفو»، أجاب الرجل الطويل بلهجة غير مبالية، ووضع يده كثيرة العقد على أذنه كمن به صمم، «تقول مع القطط؟ وأين ترى القطط؟».

جحظت عينا البوَّاب، وكان هناك بالفعل ما يدعو لذلك: إذ لم يعد يظهر أي قط عند قدمي مواطننا، بل أطل من خلف كتفه بدلًا من ذلك رجل بدين، يعتمر قبعة قوقازية ممزَّقة ذو سحنة تشبه إلى حدٍّ ما سحنة القط فعلًا، يسعى إلى المحل وبيده وابور.

ولأمر ما لم يعجب هذا الزوج من رواد المحل البوَّاب المبغِض للناس.

- «عندنا بالعملة الأجنبية فقط»، قال البوَّاب بصوت أجشّ وهو ينظر إليهما بحنق من تحت حاجبيه الرماديين الأشعثين اللذين كانا كما لو أن العثّ يتأكلهما.

- «ومن أين لك أن تعرف، أيها العزيز، أني لا أملكها»، قال الطويل وعينه تبرق

من نظارته الأنفية المحطَّمة، «هل حكمت عليَّ من بزتي؟ إيَّاك أن تفعل هذا بعد الآن أيها الحارس الغالي! فقد تخطئ، وقد يكون خطؤك جسيمًا، أعد قراءة قصة الخليفة المشهور هارون الرشيد على الأقل، لكن دعنا من هذه القصة إلى حين، فأنا أريد أن أقول لك الآن إني سأشكوك إلى المدير وسأروي له عنك أشياء بحيث تضطر بعدها إلى مغادرة مكانك بين الأبواب الزجاجية البرّاقة».

- «قد يكون وابوري مليئًا بالعملة الصعبة». تدخَّل البدين الشبيه بالقط في الحديث بحدَّة وهو يحاول أن يجتاز باب المحلّ. كان الجمهور خلفه يتدافع بالمرافق ويتذمّر، وتنحَّى البوَّاب وهو ينظر إلى هذا الزوج بحقد وشك، وصار صاحبانا كوروفييف وبيغيموت داخل المحلّ.

كان أول ما فعلاه أنهما تأملا ما حولهما، ثم أعلن كوروفييف بصوت رنان سُمع في كل أركان المحلّ بالتأكيد:

- «محل رائع! محل جيد جدًا، جدًا».

رفع جمهور المشترين عيونهم عن المباسط والتفتوا، ولأمر ما تطلَّعوا إلى المتكلِّم في انبهات على الرغم من توفّر كل الأسباب لديه لكيْل المديح للمحل.

كانت مئات من قطع القماش الهندي ذي الألوان المزركشة الزاهية تبدو في مربعات الرفوف، وتكدَّست وراءها أقمشة من القطن الكلكوتي والشاش وأجواخ الفراك، وعلى مرمى النظر أكوام كاملة من علب الأحذية. كانت بضع مواطنات يجلسن على مقاعد واطئة، وقدمهن اليمنى في حذاء مهترئ واليسرى في حذاء جديد لمَّاع مفتوح يدسن به على السجادة بوجه مهموم، ومن مكان ما وراء أحد الأركان كان يُسمع غناء وعزف ينطلقان من أجهزة الفونوغراف.

لكن كوروفييف وبيغيموت تجاوزا كل هذه الأشياء الرائعة، وتوجها مباشرة إلى قسم المواد الغذائية المتصل بقسم الحلويات، كان المكان هنا على قدر كبير من الاتساع ولم تكن المواطنات المرتديات مناديل أو قبعات صغيرة يتدافعن على المباسط كما في قسم القطن الهندي.

كان شخص قصير القامة مربع الشكل تمامًا، حليق الذقن حتى درجة ازرقاق الجلد، يضع نظارة قرنية وقبعة جديدة غير مكرمشة لها شريطة ملساء ومعطفًا ليلكيًا وقفازين أصهبين من جلد الجدي، يقف قرب المنضدة ويخور بلهجة آمرة، وكان بائع في ثوبه الأبيض النظيف وقبعته الصغيرة الزرقاء يقوم على خدمة الزّبون الليلكي، كان ينزع بسكين حادة جدًا تشبه إلى حدٍّ كبير السكين التي سرقها متَّى اللاوي، جلد سلمون وردية دسمة باكية يشبه جلد أفعى، ذا لون ضارب إلى الفضة.

وقال كوروفييف معترفًا بصوت مهيب:

- «وهذا القسم عظيم أيضًا»، ثم أشار إلى الظهر الليلكي وقال في لفتة كريمة: «وهذا الأجنبي لطيف».

أجاب بيغيموت متفكِّرًا: - «لا، يا فاغوت، لا، أنت مخطئ يا صديقي، ففي وجه هذا الجنتلمان الليلكي شيء ما ناقص في رأيي».

ارتعد الظهر الليلكي، إنما مصادفة على الأرجح، إذ لم يكن بوسع الأجنبي فهم ما يقوله كوروفييف ورفيقه بالروسية.

سأل الشاري الليلكي بلهجة صارمة وبِروسية مكسَّرة: - «جيد؟».

أجاب البائع وهو يحفر بدلال تحت جلد السمكة بنصل سكينه: - «عالمي».

قال الأجنبي بصرامة: - «جيد أحب، السيئ لا».

رد البائع بحماسة: - «طبعًا!».

وهنا ابتعد صاحبانا عن الأجنبي وسمكه إلى طرف منضدة المعجَّنات.

- «الطقس حار اليوم»، خاطب كوروفييف بائعة شابة حمراء الوجنتين، ولمَّا لم يلقَ منها جوابًا أردف مستفسرًا: «بكم الأفندي؟».

أجابت البائعة: - «بثلاثين كوبيك للكيلو».

لاحظ كوروفييف متنهدًا: - «الأسعار باهظة، إيه، إيه...». ثم فكَّر قليلًا ودعا رفيقه قائلًا: «كُل يا بيغيموت».

وضع البدين وابوره تحت إبطه وأمسك باليوسفية التي في أعلى الهرم والتهمها على الفور بقشرتها، ثم باشر بالثانية.

ركب البائعة رعب قاتل.

صاحت البائعة وقد اختفى تورّدها: - «لقد جننتم! هاتوا الثمن! الثمَن!». وسقطت ملاقط السكاكر من يدها.

قال كوروفييف بصوت أجشّ وهو يتلوّى فوق المنضدة ويغمز البائعة: - «يا روحي، يا حلوة، ليست لدينا العملة الصعبة اليوم... ما في اليد حيلة! إلا أني أقسم لكِ أننا في المرة القادمة، ولن تتعدَّى يوم الاثنين، سندفع كل ما علينا عدًا ونقدًا! نحن لسنا بعيدين من هنا، نحن في سادوفايا حيث الحريق».

وبعد أن التهم بيغيموت اليوسفية الثالثة دسَّ قائمته في بناء معقد من ألواح الشوكولاتة، وانتزع لوحًا من الأسفل فانهار البناء كله بالطبع والتهم اللوح بغلافه الذهبي.

بدا وكأن البائعين الواقفين وراء منضدة الأسماك قد تحجَّروا وسكاكينهم في أيديهم، واستدار الأجنبي الليلكي إلى اللصوص، وللحال تبيَّن أن بيغيموت ليس على صواب: فلم يكن ينقص وجه الشخص الليلكي شيء، بل على العكس كان في وجهه ما هو زائد: وجنتان متهدلتان وعينان شاردتان.

وصاحت البائعة بصوت كئيب دوَّى في أرجاء المحل كله وقد غطَّت الصُّفرة وجهها كله:

- «بالوستش! بالوستش![1]».

وأقبل الناس من قسم القطنيات على هذا الصياح، أما بيغيموت فقد ابتعد عن المعجنات المغرية وغرز قائمته في برميل كُتب عليه «سمك مقدَّد ممتاز» وسحب زوجين من الرنكة والتهمتهما وبصق ذنَبيهما.

- «بالوستش!». تكرَّر الصراخ اليائس خلف منضدة المعجنات، بينما صرخ بائع ذو لحية قصيرة مدبَّبة من وراء منضدة الأسماك:

- «ما الذي تفعله أيها الوغد؟».

في هذا الوقت كان بافل يوسفتش يُهرع إلى مكان الأحداث، كان رجلًا مهيبًا في رداء أبيض نظيف كأنه جرَّاح، يلوح من جيبه قلم رصاص، وكان رجلًا محنَّكًا على ما يبدو، فما إن رأى ذنب الرنكة الثالثة في فم بيغيموت حتى قوَّم الموقف في لحظة، وأدرك كل شيء إدراك اليقين، فلم يشأ الدخول في أي مهاترات مع هذين الوغدين بل لوَّح بيده إلى البعيد آمرًا:

- «اصْفِر!».

انطلق البوَّاب من الأبواب الزجاجية إلى ناصية سمولنسكي كالسهم، وراح يصْفِر صفيرًا منذرًا بالشؤم، بينما أخذ الجمهور يطوِّق السافلَيْن. إذَّاك تدخَّل كوروفييف.

صاح بصوت رفيع رنان: - «أيها المواطنون، ما هذا الذي يجري؟ آ؟ اسمحوا لي أن أسألكم! إنسان مسكين»، وهنا أطلق كوروفييف قدرًا من الرعشة في صوته وأشار إلى بيغيموت الذي اصطنع على الفور وجهًا بكَّاءً، «إنسان مسكين يعمل طول النهار في تصليح بوابير الكاز جاع... من أين له أن يحصل على عملة صعبة؟».

وصاح بافل يوسفتش الهادئ الرزين بطبعه يرد بقسوة:

- «دعك من هذا الهراء!». ولوَّح بيده إلى البعيد في نفاد صبرٍ هذه المرة، واشتد الصفير عند الأبواب.

---

(1) اختصار اسم بافل يوسفتش. المترجم.

لكن كوروفييف تابع كلامه غير عابئ بمداخلة بافل يوسفتش:

- «من أين؟ هذا هو السؤال الذي أطرحه عليكم جميعًا! إنسان بائس أنهكه الجوع والعطش والحر. ذاق يوسفية هذا المسكين، ماذا فيها؟ سعر هذه اليوسفية ثلاثة كوبيكات فقط. ومع هذا بدأوا يصفِرون كأنهم البلابل في غابة الربيع، ويُقلقون راحة الشرطة ويصرفونها عن عملها، أما ذاك فبإمكانه أن يفعل، آ؟»، وهنا أشار كوروفييف إلى البدين الليلكي فارتسمت على وجه هذا أمارات القلق الشديد، «من تراه يكون، آ؟ ومن أين أتى؟ ولماذا؟ ألعلنا كنا نشعر بالملل من دونه؟ ألعلنا دعوناه؟ طبعًا»، هنا لوى المرتِّل السابق فمه في استهزاء وصاح بملء شدقية، «إنه كما ترون في بزَّة ليلكية فاخرة، منتفخ من أكل السلمون ومحشوٌّ كله بالعملة الصعبة، أما أخونا، أخونا؟!».

وأخذ يولول كأنه إشبين في عرس قديم:

- «يا لعذابي، يا لشقائي، يا لتعاستي!»[1].

كل هذه الحادثة الغبية، الفظة والضارة سياسيًا على الأرجح، جعلت بافل يوسفتش ينتفض من الغضب، لكنه كان واضحًا من أعين الجمهور المتدافع حولهم أن الحادثة، على ما في ذلك من غرابة، لقيت تعاطفًا في قلوب كثيرة! وعندما وضع بيغيموت كمه القذر الممزق على عينه وهتف بصوت مأساوي:

- «شكرًا لك أيها الصديق الصدوق، لقد نصرت مظلومًا!». هنا حدثت معجزة، رجل هَرِم هادئ لائق المظهر تمامًا، يلبس ملابس فقيرة لكنها نظيفة، كان يشتري ثلاث كعكات باللوز في قسم المعجَّنات، تحوَّل إلى شخص آخر فجأة، فقد اتَّقدت عيناه بنار القتال واحمرَّت وجنتاه وقذف بكيس الكعك على الأرض وصاح بصوت طِفلي رفيع:

- «صحيح!». ثم خطف الصينية وألقى على الأرض ما عليها من بقايا الشوكولاته المنسَّقة على شكل برج ايفل الذي حطَّمه بيغيموت ولوَّح بها ونزع بيسراه القبعة عن رأس الأجنبي، وهوى بيمناه بالجانب المفلطح من الصينية على رأس الأجنبي الأصلع، ودوَّى صوت كذاك الذي يُسمع لدى إلقاء صفائح الحديد من على ظهر شاحنة على الأرض. هوى البدين على ظهره وقد ابيض وجهه وسقط في برميل الفسيخ دافعًا إلى الخارج نافورة من مرق التخليل، وهنا حدثت المعجزة الثانية، إذ صاح الشخص الليلكي وهو يسقط في البرميل بلغة روسية خالصة لا تشوبها أي لكنة:

---

(1) في الأصل يكتب بولغاكوف «أما أخونا؟! أخونا؟! هذا يجعلني مُرًّا! مُرًّا! مُرًّا» وهو تعبير يُقال في الأعراس الروسية؛ ادعاء أن الأكل مرّ، كي يقبِّل العريس العروس دون حرج، وكأنهما يخفِّفان من مرارة الطعام. ويبدو أن المترجم يوسف حلاق قرَّر التصرف في ترجمته، لصعوبة نقل هذا المعنى باستخدام الكلمات نفسها إلى العربية. الناشر.

- «يقتلونني! استدعوا الشرطة! قطّاع الطرق يقتلونني!». كأنما الصدمة هي التي جعلته يتقن بغتة لغة كان يجهلها حتى تلك اللحظة.

إذّاك توقّف صفير البوّاب، ولمعت بين جماهير المشترين المضطربة خوذتا شرطيين كانتا تقتربان، لكن بيغيموت الغدّار صب من وابوره الكاز على منضدة المعجّنات كما يُصب الماء من الطست على دكة في حمام، واشتعل الكاز من تلقاء نفسه. شبَّ اللهب إلى أعلى وامتد على طول المنضدة ملتهمًا الشرائط الورقية الجميلة على السلال الملأى بالفواكه، واندفعت البائعات هاربات من وراء المنضدة وهن يطلقن ولوَلة وزعيقًا، وما كدن يغادرن المنضدة حتى اندلعت النار في الستائر التيلية على النوافذ واشتعل الكاز على الأرض، وأطلق الجمهور صراخًا يائسًا، واندفع من قسم المعجنات متراجعًا داهسًا في طريقة بافل يوسفتش الذي لم تعد به إليهم حاجة، بينما هُرع الباعة من خلف منضدة الأسماك الواحد تلو الأخر، وسكاكينهم المشحوذة في أيديهم، باتجاه أبواب المخرج الخلفي، في حين اقتلع المواطن الليلكي نفسه من البرميل وقد تبلّل كله بمرق التخليل وانقلب على المنضدة فوق سمكة سلمون ولحق بهم. تقصف الزجاج في الأبواب البلّورية الخارجية تحت ضغط الراكنين إلى الفرار وتناثر، أما النذلان، كوروفييف والأكول بيغيموت، فقد اختفيا، لكن أين؟ هذا ما تعذّر فهمه. فيما بعد قال شهود عيان حضروا بداية الحريق في تورغسين في سمولنسكي أن الشقيين كليهما طارا واستترا تحت السقف وهناك انفجر كلاهما كبالونين من بالونات الأطفال، لكن من المشكوك فيه طبعًا أن الأمر جرى على هذا النحو بالذات، وما لا نعرفه لا نقطع فيه برأي.

إنما نعرف أن بيغيموت وكوروفييف كانا بعد دقيقة بالضبط من حادثة سمولنسكي على رصيف البولفار، وبالذات عند بيت عمة غيربوييدوف، توقّف كوروفييف عند السياج وقال:

- «عجبًا! هذا بيت الكُتّاب، تعرف يا بيغيموت لقد سمعت الكثير من الكلمات الطيبة ومن الإطراء في حق هذا البيت، انتبه إلى هذا البيت يا صديقي! مما يفرح القلب أن مجموعات كاملة من المواهب تُحضن وتنضج تحت سقفه».

- «كما الأناناس في المستنبتات الزجاجية»، قال بيغيموت وقفز فوق القاعدة الخرسانية للسياج كيما يمتّع ناظريه على نحو أفضل بالبيت العاجي اللون ذي الأعمدة.

قال كوروفييف موافقًا على قول رفيقه الذي لا يفارقه لحظة: - «صحيح تمامًا، وتغمر قلبك رهبة لذيذة حين تفكّر في أن واحدًا من أمثال صاحب «دون كيشوت» أو

«فاوست» أو فليأخذني الشيطان، «النفوس الميتة» في طريقة إلى النضوج الآن تحت سقف هذا البيت!؟».

قال بيغيموت مثنيًا: - «من المخيف التفكير في أمر كهذا».

تابع كوروفيف: - «نعم، أشياء مدهشة يمكن توقعها في مستنبتات البذور في هذا البيت الذي يضم تحت جناحه بضعة آلاف من الرجال المتحمسين، الذين عقدوا العزم على تكريس حياتهم بنكران ذات لخدمة ميلبومينا وبوليغيمينا وتاليا[1]. هل تتصوَّر الضجة الكبرى حين سيقدِّم أحدهم إلى جمهور القراء «مفتشًا عامًا» أو في أسوأ الأحوال شيئًا مثل «يفغيني أونيغين»[2] في بداية إبداعه!

ثنَّى بيغيموت على قول صاحبه مرة أخرى: - «أتصوَّر بوضوح».

- «نعم»، قال كوروفييف وأردف رافعًا إصبعه في انشغال بال: «لكن! لكن، أقول وأكرِّر: لكن هذه! لكن إذا لم تهاجم هذه النبتات الرقيقة المحضونة جرثومة ولم تنخرها في جذرها، وإذا لم تتعفَّن! وهذا ما يحدث للأناناس! أوي، أوي، أوي، وما أكثر ما يحدث هذا!».

- «بالمناسبة»، قال بيغيموت مستفسرًا وهو يحشر رأسه المدوَّر داخل ثقب في السياج المشبَّك، «ما الذي يفعلونه على الشرفة؟».

أجاب كوروفييف موضِّحًا: - «يتغذَّون، وأضيف إلى ذلك يا صديقي أنه يوجد هنا مطعم ليس سيئًا بالمرة وليس باهظًا، وأنا بالمناسبة، كأي سائح قبل استئناف رحلته، أشعر برغبة في تناول بعض المزَّة وكأس كبيرة باردة من البيرة».

أجاب بيغيموت - «وأنا أيضًا»، ومضى النذلان من فورهما على الطريق المفروش بالأسفلت تحت أشجار الزيزفون إلى شرفة المطعم الذي لم يحس بعد بالمصيبة القادمة.

كانت مواطنة شاحبة اللون تنضح بالضجر ترتدي جوارب بيضاء قصيرة وقبعة بيضاء صغيرة مذنَّبة تجلس على كرسي عند مدخل الشرفة، وفي الركن حيث فُتحت في أغصان التعريشة الخضراء فتحة للدخول، وأمامها على طاولة بسيطة من طاولات

(1) أسماء ثلاث من ربات الشعر في الأساطير اليونانية وهن على التوالي: راعية فن المأساة، وراعية الأناشيد، وراعية فن الملهاة. المترجم.

(2) دون كيشوت رواية للأسباني ثيربانتس، فاوست مسرحية للألماني جوته، النفوس الميتة والمفتش العام روايتان للروسي نيقولاي جوجول، يفغيني أونيغين رواية للروسي ألكساندر بوشكين. الناشر.

المطبخ، دفتر سميك من نوع دفتر الحسابات، كانت المرأة تسجِّل فيه لأسباب مجهولة أسماء رواد المطعم، هذه المواطنة بالذات هي التي أوقفت كوروفييف وبيغيموت.

- «أوراقكما؟». قالت وهي تتطلَّع بدهشة إلى نظارة كوروفييف الأنفية وكذلك إلى وابور بيغيموت وإلى كوعه الممزَّق.

سأل كوروفييف وهو يبدي دهشته: - «ألف معذرة، أية أوراق؟».

سألت المرأة بدورها: - «هل أنتما كاتبان؟».

أجاب كوروفييف في وقار: - «طبعًا».

كرَّرت المواطنة: - «أوراقكما؟».

وفتح كوروفييف فمه يقول لها برقه: - «يا حلوتي...».

لكنها قاطعته قائلة: - «لستُ حلوتك...».

قال كوروفييف بخيبة أمل: - «أو، ما أشد أسفي، لكن ما العمل، إن كان لا يروقك أن تكوني حلوة، ولو أن هذا أمر في غاية اللطف، فبوسعك ألا تكوني كذلك، لكن قولي لي إذن، هل من الضروري حقًا أن تطلبي من دوستويفسكي أوراقه الثبوتية لتتأكدي أنه كاتب؟ خذي أي خمس صفحات من أي رواية من رواياته وستتأكدين دون أية ثبوتيات أنكِ أمام كاتب، وأجزم أنه لم يكن يحمل أية أوراق ثبوتية! ما رأيك؟». قال كوروفييف متوجِّهًا إلى بيغيموت.

- «أراهن أن الأمر كما قلت»، أجاب بيغيموت وهو يضع الوابور إلى جانب الدفتر على الطاولة ويمسح بيده العرق عن جبينه الملوَّث بالسخام.

قالت المرأة التي أربكها كوروفييف: - «أنت لست دوستويفسكي».

أجاب كوروفييف: - «كيف لكِ أن تعرفي، كيف لكِ أن تعرفي؟».

قالت المواطنة بلهجة لا تنم عن ثقة كبيرة: - «دوستويفسكي مات».

صاح بيغيموت بحماسة: - «أحتجّ! دوستويفسكي خالد!».

قالت المواطنة: - «أوراقكما أيها المواطنان».

قال كوروفييف وهو لا ينوي الاستسلام: - «عفوًا، هذا مضحك في نهاية الأمر، ليس بثبوتياته يحدَّد الكاتب، بل بما كتب! وكيف لكِ أن تعرفي ما الأفكار التي تجول في خاطري؟ أو في هذا الرأس؟». وأشار إلى رأس بيغيموت الذي نزع على الفور قبعته كأنما لتتمكن المواطنة من معاينته على نحو أفضل.

قالت المواطنة وقد بدأت أعصابها تثور: - «دعوه يمر».

تنحّى كوروفييف وبيغيموت مخليين الطريق أمام كاتب في بذلة رمادية وقميص صيفي أبيض دون ربطة عنق، تسترخي ياقته العريضة على ياقة الجاكيتة، ويتأبّط جريدة. أومأ الكاتب برأسه للمواطنة بودٍ ورسم على الدفتر المقدَّم له خطوطًا ملتوية على الماشي وتابع طريقه إلى الشرفة.

قال كوروفييف بحزن: - «واأسفاه، لن تكون من نصيبنا كأس البيرة المثلّجة التي شد ما حلمنا بها نحن الجَوَّالين المسكينان بل من نصيبه، وضعنا مؤسف وصعب ولا أدري ما العمل».

ما كان من بيغيموت إلا أن بسط يديه في حيره مشوبة بالمرارة ووضع القبعة على رأسه المدوَّر المغطى بشعر كثيف يشبه إلى حدٍّ كبير شعر القط، وفي هذه اللحظة تردَّد فوق رأس المواطنة صوت خفيض لكنه آمر:

- «دعيهما يدخلان يا صوفيا بافلوفنا».

بُهتت المواطنة ذات الدفتر، فقد برز في خضرة التعريشة القرصان ذو الصدرية البيضاء واللحية التي تشبه الإسفين، كان يرنو إلى الصعلوكين المريبَيْن بودٍّ، بل كان إلى ذلك يوجِّه إليهما حركات من يدعوهما إلى الجلوس. كانت سلطة أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش شيئًا محسوسًا بشكل جدي في المطعم الذي يديره، ولم يكن أمام صوفيا بافلوفنا إلا أن تسأل كوروفييف بانصياع:

- «ما كنيتك؟».

أجاب هذا بأدب: - «بانايف».

سجَّلت المواطنة هذه الكنية، ورفعت إلى بيغيموت نظرة متسائلة.

- «سكابيتشيفسكي»، أزَّ بيغيموت وهو يشير لأمر ما إلى وابوره، وسجَّلت صوفيا بافلوفنا هذه الكنية أيضًا ودفعت بالدفتر إلى الزائرين كي يوقِّعا فيه. كتب كوروفييف سكابيتشيفسكي مقابل كنية بانايف في حين كتب بيغيموت بانايف مقابل كنية سكابيتشيفسكي، ولدهشة صوفيا بافلوفنا الكاملة قاد أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش ضيفيه، وهو يرسم ابتسامة فاتنة، إلى أفضل طاولة، تلك التي في آخر الطرف المقابل من الشرفة حيث أشد الظلال كثافة وحيث كانت أشعة الشمس تتلألأ جذلى في أحد شقوق التعريشة الخضراء. أما صوفيا بافلوفنا فقد ظلَّت فترة طويلة تدرس التوقيعين الغريبين اللذين وضعهما الزائران المفاجئان في الدفتر وهي ترمش بعينيها من الدهشة.

وأدهش أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش النُدُل لا أقل مما أدهش صوفيا بافلوفنا، فقد أزاح بنفسه الكرسي عن الطاولة داعيًا كوروفييف للجلوس، وغمز أحدهما وهمس

في أذن أخر، فإذا بنادلين يسعيان بين أيدي الضيفين اللذين وضع أحدهما وابوره على الأرض إلى جانب حذائه المحمرّ قليلًا، وعلى الفور اختفى من على الطاولة السماط القديم ببقعه الصفر وخفق في الهواء مخشخشًا بنشائه سماط آخر أبيض، بينما كان أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش يميل على أذن كوروفييف ويهمس له بصوت خفيض لكنه جد معبِّر:

- «ماذا أعرض عليكم؟ عندي ظهور حفش مقدَّدة متميِّزة... حصلت عليها من مؤتمر المهندسين المعماريين...».

خار كوروفييف برضى وهو يستلقي على الكرسي: - «أي... هات مزة...».

أجاب أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش بلهجة ذات معنى وهو يغمض عينيه: - «مفهوم».

وإذ رأى النادلان كيف يعامل مدير المطعم الزائرين المريبين جدًا تخليا عن كل شكوكهما وانكبّا على عملهما بجد، أحدهما قدَّم كبريتًا لبيغيموت الذي أخرج من جيبه عقب سيجارة ودسَّه في فمه، بينما أقبل الآخر كالسهم وهو يطن ببلَّورياته الخضر ويضع مع طقم المائدة أقداحًا وكؤوسًا وأكوابًا رقيقة الحوافي، ما أحلى احتساء النارزان منها تحت الظلة... لا، بل نستبق الأحداث فنقول... ما كان أحلى احتساء النارزان منها تحت ظلة شرفة غريبويدوف التي لا تُنسى.

- «أستطيع أن أقدِّم لكم فتيلة من دجاج الأحراج»، همس أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش بصوت موسيقي. وحبَّذ الضيف ذو النظارة الأنفية المتصدِّعة تحبيذًا كاملًا مقترحات قائد سفينة القرصان، ورنا إليه في عطف من خلال زجاجها العديم النفع.

و بما يتصف به كل الكُتَّاب من قوة ملاحظة، فإن كاتب المقالات بيتراكوف سوخوفي الذي كان يتناول غداءه على الطاولة المجاورة مع زوجته وكان على وشك الانتهاء من قطعة أسكالوب من لحم الخنزير، لاحظ اهتمام أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش، وأخذ منه العجب كل مأخذ. أما زوجته، وهي سيدة محترمة، فنقول إنها ببساطة غارت على القرصان من كوروفييف حتى إنها طرقت الطاولة بملعقتها... كأنما تقول: لماذا يؤخروننا هكذا... حان وقت تقديم البوظة! فما الأمر؟

إلا أن أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش وجَّه إليها ابتسامة فاتنة وأرسل إليها نادلًا، لكنه لم يبرح مكانه بين ضيفيه العزيزين. آه، ذكيًا كان أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش! وشديد الملاحظة! وربما لم يكن أقل ملاحظة من الكُتَّاب أنفسهم، لقد عرف أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش بقصة الحفلة في «فاريتيه»، وعرف أشياء كثيرة مما جرى في هذين اليومين وسمع الكثير، لكنه، بخلاف الآخرين، لم يغفل كلمة «ذو المربعات» ولا كلمة

«القط» بل احتفظ بهما في ذهنه، لقد حزر أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش على الفور من هما زائراه، وبما أنه حزر فلم يشأ الدخول معهما في مشاحنات بطبيعة الحال، أما صوفيا بافلوفنا هذه فغبية! كيف خطر لها أن تسد على هذين الاثنين طريقهما إلى الشرفة! على أي حال أنَّى لها أن تفهم!

كانت بيتراكوفا، وهي تغرز باستعلاء ملعقتها في البوظة القشدية التي أخذت تذوب، تتطلَّع بعينين لاح فيهما السخط إلى الطاولة التي أمام الرجلين اللذين يلبسان لباس البهاليل وهي تعمر شيئًا فشيئًا بالمأكولات كأنما بسحر ساحر. كانت أوراق السلطة المغسولة حتى درجة اللمعان تتدلّى من إناء فيه كافيار طازج... وما هي إلا لحظة أخرى حتى ظهر دلو فضي متعرِّق على طاولة أخرى مستقلّة دفعت إليهما خصيصًا...

ولم يسمح أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش بمغادرة الزائرَين الغامضَين إلا بعد أن تأكد من أن كل شيء تم حسب الأصول. وبعد وصول المقلاة المغطاة طائرة فوق أيدي النُدُل، وشيء ما يغمغم في داخلها، لكنه لم يغادرهما مع هذا، إلا بعد أن همس لهما:

- «العفو! دقيقة واحدة! سأشرف على الفتائل بنفسي».

وهبَّ عن الطاولة مسرعًا، واختفى في الممشى الداخلي للمطعم، ولو استطاع مراقب تتبع أعمال أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش التالية لبدت له على شيء من الغموض دون شك.

لم يتوجَّه «الريِّس» إلى المطبخ للإشراف على الفتائل بنفسه، بل إلى مستودع المطعم. فتحه بمفتاحه الخاص وأغلق على نفسه الباب وأخرج بحذر من صندوق جليد، كي لا يلوِّث كمَّه، حَفَشين كبيرين ولفهما في ورقة جريدة وربطهما بعناية بخيط ووضعهما جانبًا، ثم تأكَّد إن كان معطفه الخفيف ذو البطانة الحريرية وقبعته ما زالا في الغرفة المجاورة للمستودع، ومن ثم فقط مضى إلى المطبخ حيث كان الطباخ منهمكًا في تحضير الفتائل التي وعد بها القرصان ضيفيه.

وينبغي القول هنا إنه لم يكن في تصرفات أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش كلها شيء غريب أو ملغز، ولم يكن ليعتبرها غريبة أو ملغزة إلا مراقب سطحي، فتصرفات أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش في الأحداث الأخيرة، وخصوصًا إحساسه الداخلي الفريد هما اللذان أوحيا إلى مدير مطعم غريبوييدوف أن غداء زائريه، وإن كان فاخرًا وسخيًا، إلا أنه لن يستمر طويلًا، وهذا الإحساس الذي لم يخدع القرصان السابق أبدًا، لم يخدعه هذه المرة أيضًا.

وفيما كان كوروفييف وبيغيموت يكرعان الكأس الثانية من الفودكا الموسكوفية

الباردة الرائعة المكرَّرة مرتين، ظهر على الشرفة الصحفي في قسم الأخبار بوبا كندالوبسكي المعروف في موسكو باطلاعه المدهش على كل ما يجري وهو يتفصَّد عرقًا وتبدو على وجهه علامات الإثارة وجلس إلى بيتراكوف وزوجته. وضع بوبا حقيبته المنتفخة على الطاولة، ودس على الفور شفتيه في أذن بيتراكوف وأسرَّ له بأمور في غاية الإغراء. ولم تتمالك مدام بيتراكوفا نفسها عن الفضول، فقرَّبت هي الأخرى أذنها من شفتي بوبا المدهنتين المنفوختين، بينما كان هذا يلتفت حوله بين الفينة والفينة وهو منهمك في همس لا يفتُر، وكان بالإمكان سماع كلمات متفرِّقة من نوع:

- «أقسم لكما بشرفي! في سادوفايا، في سادوفايا»، وهنا خفض بوبا صوته أكثر من ذي قبل، «الرصاص لا يؤثر! الرصاص... الرصاص... كاز، حريق... رصاص...».

- «هؤلاء الكذابون الذين ينشرون هذه الإشاعات الفظيعة»، صَفَرت بسخط مدام بيتراكوفا بصوتها الخفيض أعلى مما يرغب بوبا، «هؤلاء يجب كشف أمرهم! لكن لا بأس، هذا ما سيكون، لا بد من أن يلزموهم حدهم! يا لها من أكاذيب ضارة».

- «أية أكاذيب هذه، يا أنتونيدا بورفيريفنا!»، هتف بوبا مغمومًا من عدم تصديق زوجة الكاتب له، وعاد يصْفِر: «أقول لكم الرصاص لا يؤثر... والآن هذا الحريق... وهم في الهواء... في الهواء»، كان بوبا يصفر دون أن يساوره أي شك في أن اللذين يتحدَّث عنهما يجلسان الآن قريبًا منه مستمتعين بصفيره، وعلى أي حال، سرعان ما انتهت هذه المتعة، فقد اندفع من الممر الداخلي للمطعم ثلاثة رجال في جزمات عالية شُدَّت خصورهم بسيور ومسدساتهم في أيديهم وصاح الذي في مقدمتهم بصوت مجلجل ومخيف:

- «لا تتحرَّكوا!». وللحال فتح ثلاثتهم النار على الشرفة مصوِّبين رصاصهم إلى رأسي كوروفييف وبيغيموت، وعلى الفور ذاب المستهدفان في الهواء، وانقض من الوابور عمود من النار على المظلة فكأن شدقًا مفغورًا ذا حواف سود ظهر في المظلة وأخذ يزحف في كل الاتجاهات، وشبَّت النار عبر المظلة حتى بلغت سطح بيت غريبوييدوف واندلعت النار فجأة في أضابير الأوراق في نافذة غرفة هيئة التحرير الواقعة في الطابق الثاني ثم انتقلت إلى الستائر، وهنا زغردت النار كأنما شخص ما يؤججها، واندفعت أعمدة داخل بيت العمَّة.

وخلال ثوانٍ، على الممرات المفروشة بالأسفلت المؤدية إلى السياج الحديدي على البولفار، حيث وصل مساء الأربعاء إيفان معلناً أول نذر المصيبة والذي لم يفهمه إذَّاك أحد، كان يندفع الكتَّاب الذين لم يفرغوا من غدائهم والنُدُل وصوفيا بافلوفنا وبوبا وبيتراكوف وزوجته.

وكان أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش الذي خرج في الوقت المناسب من المدخل الجانبي في معطفه الخفيف ذي البطانة الحريرية يقف وهو يتأبَّط جذعين من جذوع سمك الحفش. كان يقف هادئًا ثابت الجنان، لا يهرب ولا يسرع وكأنه قبطان من واجبه أن يكون آخر من يغادر سفينة تلتهمها النار.

## الفصل التاسع والعشرون

# ...وحُسِم مصير المعلِّم ومرغريتا

عند غروب الشمس وعلى سطح حجري عال يشرف على المدينة في واحدة من أجمل بنايات موسكو التي شُيِّدت منذ نحو قرن ونصف تقريبًا كان اثنان: فولند وأزازيلو، لم يكن فولند وأزازيلو من الممكن رؤيتهما من تحت، من الشارع، لأن درابزينًا عليه فسقيات جصية وزهور جبسية كانت تحجبهما عن العيون الطفيلية، لكن المدينة كانت ظاهرة لهما حتى تخومها تقريبًا.

كان فولند يجلس على كرسي متنقِّل لا مسند له مرتديًا جبَّة سوداء. وكان شيشًا طويلًا وعريضًا مغروزًا بين بلاطتين مفلوقتين من بلاط السطح على شكل عمودي بحيث تشكلت ساعة شمسية، فظل الشيش يتطاول ببطء وثبات زاحفًا على الخفين الأسودين في قدمي الشيطان، وكان فولند لا ينى يرنو إلى كتلة مترامية الأطراف من القصور والبنايات العملاقة والأكواخ الصغيرة التي قُدِّر لها أن تكون مدمَّرة، وهو منكمش على مقعده وواضع إحدى رجليه تحته وذقنه المدبَّب على قبضته. وكان أزازيلو، الذي نزع ملابسه العصرية، أي الجاكيتة والقبعة القِمعية والحذاء اللامع وارتدى السواد مثل فولند، يقف دون حراك على مقربة من سيده، وكسيّده لم يكن يرفع عينيه عن المدينة.

وقال فولند: - «يا لها من مدينة طريفة، أليس كذلك؟».

تحرَّك أزازيلو وأجاب باحترام: - «روما تعجبني أكثر يا سيدي».

أجاب فولند: - «نعم، إنها مسألة ذوق».

وبعد قليل ارتفع صوته ثانية: - «ما سبب هذا الدخان هناك، على البولفار؟».

- «هذا بيت غريبوييدوف يحترق».

- «أغلب الظن أن هذا الثنائي الذي لا يفترق، كوروفييف وبيغيموت، كانا هناك».
- «لا يوجد أيّ شك في هذا، يا سيدي».
وخيَّم الصمت من جديد، وعاد اللذان على السطح ينظران إلى الشمس كيف تتوهَّج بأشعتها الباهرة المتكسِّرة في نوافذ الطوابق العليا لهذه الكتل الضخمة المطلة على الغرب. وكانت عين فولند تتوقّد كواحدة من تلك النوافذ، مع أن فولند كان يولي الشمس الغاربة ظهره.

لكن شيئًا ما جعل فولند يحوِّل عينيه عن المدينة، ويركِّز اهتمامه على البرج الدائري الذي كان على السطح خلف ظهره، فقد خرج من جدار البرج رجل متجهِّم، أسود اللحية، ممزَّق الثياب، ملوَّث بالطين يرتدي ثوبًا يونانيًا قديمًا وينتعل صندلًا صنعه بنفسه.

هتف فولند وهو يرسل إلى الداخل نظرة سخرية: - «با! آخر ما يمكن توقعه هو وجودك هنا! في أي شأن شرَّفت أيها الضيف الذي لم ندعُه لكننا كنا ننتظره؟».

أجاب الداخل وهو ينظر شزرًا إلى فولند: - «أنا آتٍ إليكَ يا روح الشر وسيد الأطياف».

قال فولند بلهجة قاسية: - «إذا كنت قادمًا إليَّ فلماذا لم تلقِ التحية يا جامع العُشر سابقًا؟».

أجاب الداخل بوقاحة: - «لا أريد لك أن تكون في خير».

قال فولند يرد عليه وقد لوى شفتيه بابتسامة ساخرة: - «إنما ينبغي عليك الرضا بهذا والتسليم به، ما كدت تظهر على السطح حتى طالعتنا بقول سخيف، وسأقول لك ما وجه السخف فيه، إنه في نبراتِ صوتك، نطقت كلماتك وكأنك لا تعترف بالأطياف وكذلك بالشر، ألا تتكرَّم وتفكر قليلًا في الموضوع. ما شأن الخير الذي تتحدَّث عنه إذا لم يوجد الشر، وكيف كانت الأرض تبدو لو اختفت منها الأطياف؟ الأطياف تصدر كما هو معلوم عن الأشياء والناس. هناك أطياف للأشجار والكائنات الحية، ألا يكون بودِّك أن تجرِّد الكرة الأرضية مما عليها من شجر وكائنات حيّة لمجرَّد وَهْمٍ رَكِبك هو التمتع بمنظر العالم عاريًا؟ أنت غبي».

أجابه متّى اللاوي: - «لا أنوي الدخول في نقاش معك، أيها السفسطائي العتيق».
- «بل لا تستطيع مناقشتي للسبب الذي ذكرته لك: أنت غبي»، أجابه فولند وأردف يسأله: - «أي، قل لي باختصار دون أن ترهقني، لماذا حضرت؟».
- «لقد بعثني إليك».

- «وما الذي أمرك بإبلاغي إياه أيها العبد؟».

أجاب متّى اللاوي وهو يشتد غيظًا: - «لستُ عبدًا، بل أنا تلميذه».

رد فولند: - «إننا نتكلّم لغتين مختلفتين كعهدنا دائمًا، لكن الأشياء التي نتكلّم فيها لا تتغيّر بسبب ذلك، هكذا...».

قال متّى اللاوي: - «لقد قرأ كتاب المعلّم، وهو يطلب إليك أن تأخذ المعلّم معك وتمنحه الطمأنينة، فهل يصعب عليك هذا، يا روح الشر؟».

- «لا شيء يصعب عليّ، وأنت تعرف هذا جيدًا»، قال فولند وصمت قليلًا ثم أردف: «لكن لماذا لا تأخذانه إليكما... إلى النور؟».

قال اللاوي بصوت حزين: - «إنه لم يستحق النور. بل الراحة».

- «أبلغه أني فاعل ما طلب»، أجاب فولند ثم أردف وقد ومضت عينه: «إليك عنّي فورًا».

قال اللاوي يناشد فولند بصوت رنّت فيه لأول مرة نبرة توسُّل: - «ويطلب إليك أن تأخذوا معكم أيضًا تلك التي أحبّته وتعذّبت بسببه».

- «كأننا بحاجة إليك لندرك ذلك، غاغرُبْ عن وجهي».

واختفى متّى اللاوي بعد هذا، أما فولند فقد دعا إليه أزازيلو وأمره قائلًا:

- «طِرْ إليهما ورتّب كل شيء».

غادر أزازيلو السطح وبقي فولند وحيدًا، لكن وحدته لم تدم طويلًا، فقد سمع على بلاط السطح وقع أقدام وأصوات مثارة، ووقف كوروفييف وبيغيموت بين يدي فولند، لكن الوابور لم يكن الآن مع البدين، بل كان هذا محمَّلًا بأشياء أخرى، وهكذا كان يتأبّط لوحةً صغيرةً بمنظر طبيعي في إطار مذهّب ويحمل على يده لباسًا من ألبسة الطباخين نصف محترق، ويمسك بيده الأخرى سمكة سلمون كاملة، بجلدها وذنبها، وكانت تنبعث من كوروفييف وبيغيموت رائحة حريق، وكانت سحنة بيغيموت مغطّاة بالسخام وقبعته نصف محترقة.

هتف الثنائي الذي لا يتعب ولا يكل: - «سلام يا سيدنا». ولوّح بيغيموت بالسلمون.

قال فولند: - «يا لحلاوتكما!».

هتف بيغيموت بحماسة وفرح: - «تصوّر يا سيدي، اعتبروني نهّابًا!».

قال فولند وهو يتطلّع إلى اللوحة: - «إذا حكمنا عليك من الأشياء التي تحملها فأنت النهّاب بعينه».

- «هل تصدِّق يا سيدي...». شرع بيغيموت يقول بصوت يفيض بالمودة لكن فولند قاطعه قائلًا باختصار: - «لا، لا أصدِّق».

- «أقسم يا سيدي أني قمت بمحاولات بطولية لإنقاذ كل ما يمكن إنقاذه، لكن هذا كل ما أفلحتُ فيه».

- «الأفضل أن تخبرني عن سبب احتراق غريبوييدوف».

بسط كلاهما، كوروفييف وبيغيموت، يديهما في حيرة، ورفعا عيونهما إلى السماء، في حين صاح بيغيموت:

- «لستُ أفهمُ ما حدث! كنَّا جالسَيْن في دعة وبهدوء تام نمزّ...».

أكمل كوروفييف: - «وفجأة طراخ! صوت رصاص! طار صوابنا، فاندفعتُ أنا وبيغيموت راكضين إلى البولفار فإذا ببعضهم يلحق بنا ويتعقَّبنا، فاندفعنا إلى تيميريازيف[1]!».

وهنا تدخَّل بيغيموت وتابع قائلًا:

- «لكن الشعور بالواجب تغلَّب على خوفنا المخزي فعدنا!».

قال فولند: - «آه، عدتما؟ إذَّاك احترق البناء برمته».

أكَّد كوروفييف بحزن: - «برمته! برمته تمامًا يا سيدي كما تفضلت وعبَّرت بدقة، لم يبقَ منه إلا جمر».

وتابع بيغيموت: - «واندفعتُ إلى قاعة الاجتماعات - ذات الأعمدة تلك يا سيدي - حاسبًا أني سأتمكن من انتشال أشياء ثمينة، آه يا سيدي، لو كانت لي زوجة لكادت تترمَّل عشرين مرة! لكن لحسن الحظ لستُ متزوجًا يا سيدي، وأقول لكل بصراحة: إني سعيد لأني لم أتزوَّج، آه يا سيدي هل يمكن استبدال نَيْرٍ ثقيلٍ بحياة العزوبة!».

لاحظ فولند: - «بدأ الهذر والكلام السخيف مرة أخرى!».

أجاب القط: - «سامع ومتابع، أي نعم، ها هي ذي اللوحة لم أستطِع إخراج غيرها من القاعة، فقد سفعني اللهب في وجهي فعدوت إلى المستودع وأنقذت سمكة السلمون، ثم إلى المطبخ وأنقذت الفوطة، وأحسب يا سيدي أني فعلت كل ما كان بوسعي فعله، ولستُ أدري كيف أفسِّر عبارة الشك والريبة المرتسمة على وجهك.

سأل فولند: - «وما الذي فعله كوروفييف حين كنت تقوم بأعمال النهب؟».

أجاب كوروفييف وهو يشير إلى سرواله الممزَّق: - «كنتُ أساعد رجال الإطفاء يا سيدي».

---

(1) المقصود هنا تمثال تيميريازيف عالم الطبيعيات الروسي. المترجم.

- «آه، إذا كان الأمر كذلك، ينبغي بطبيعة الحال تشييد بناء جديد».

ردَّ كوروفييف: - «سيُشاد حتمًا، يا سيدي، وأجرؤ على تأكيد ذلك».

لاحظ فولند: - «حسنًا، بقيَ أن نتمنى أن يكون خيرًا من سابقه».

قال كوروفييف: - «وهذا ما سيكون، يا سيدي».

وأضاف القط: - «صدقني، أنا نبي حقيقي».

قال كوروفييف بلهجة من يقدم تقريرًا: - «على أي حال، ها نحن أولاء قد حضرنا، ونحن بانتظار تعليماتك».

نهض فولند عن كرسيه واتجه إلى الدرابزين وظل فترة طويلة وحده يتطلَّع إلى البعيد في صمت وقد أدار ظهره إلى حاشيته، ثم انسحب من حافة السطح وتهالك على كرسيه مرة أخرى.

- «لا تعليمات جديدة، لقد فعلتما ما بوسعكما، ولم تعد بي حاجة إلى خدماتكما، بوسعكما أخذ قسط من الراحة، فالعاصفة، العاصفة الأخيرة قادمة للتو وستنجز كل ما يجب إنجازه، ثم نستأنف طريقنا».

- «تمام، يا سيدي». أجاب المهرِّجان واختفيا في مكان ما خلف البرج المركزي الدائري القائم في وسط السطح.

وأخذت العاصفة التي تكلَّم فولند عنها تتجمَّع في الأفق. ارتفعت سحابة سوداء في الغرب وقطعت الشمس من منتصفها، ثم حجبتها بالكامل. شاعت البرودة على السطح، وما هي إلا فترة حتى ادْلَهَمَّ الظلام.

حجبت الظلمة القادمة من الغرب المدينة الضخمة، اختفت الجسور، واختفت القصور، كل شيء اضمحل وكأن لم يكن له أبدًا وجود، ومرق عبر السماء خيط ناري، وهزَّت المدينة ضربة، وتكرَّرت الضربة ثانية وبدأت العاصفة، ولم يعد فولند يُرى في ظلامها.

## الفصل الثلاثون

# آن الأوان! آن الأوان!

قالت مرغريتا:

- «هل تعرف، قرأت ليلة البارحة، حين غفوتَ، عن الظلام الزاحف من البحر المتوسط... وهذه التماثيل. آه، التماثيل الذهبية، إنها لسبب ما لا تدع لي دقيقة راحة، يبدو لي أن المطر سيسقط قريبًا، ألا تشعر أن الجو أخذ يميل إلى الرطوبة؟».

قال المعلِّم وهو يدخِّن ويبدد أعمدة الدخان بيده: - «هذا كله جيد ولطيف، هذه التماثيل، لها الله! الشيء الوحيد الذي لا أستطيع فهمه على الإطلاق هو ما الذي سيحل بنا!».

كان هذا الحديث يدور عند مغيب الشمس، أي بالضبط حين ظهر متَّى اللاوي لفولند على السطح. كانت نافذة القبو الصغيرة مفتوحة، ولو قُدِّر لأحد أن يلقيَ نظرة منها لأخذته الدهشة من مدى غرابة مظهر المتحدِّثَين. كانت مرغريتا قد ألقت بردة سوداء على جسدها العاري، وكان المعلِّم في ثياب المستشفى. ذلك أنه لم يكن لدى مرغريتا ما ترتديه بتاتًا، لأن كل أغراضها وملابسها بقيت في الدار، وعلى الرغم من أن دارها لم تكن تبعد كثيرًا، إلا أنه لم يكن أي مجال للكلام هنا بطبيعة الحال عن إمكانية عودة مرغريتا إلى بيتها وأخذ ملابسها، أما المعلِّم الذي وُجدت كل ملابسه في الخزانة وكأنه لم يغادر بيته، فلم يرغب، بكل بساطة، في تبديل ملابسه، بل ما انفك يعرض على مرغريتا تلك الفكرة التي أخذت عليه عقله عن قرب حدوث شيء ما في غاية السخف، والحق يقال إنه حلق ذقنه لأول مرة منذ تلك الليلة الخريفية (في المستشفى كانوا يقصون له شعر لحيته بآلة).

وكانت الغرفة أيضًا ذات منظر غريب وكان من العسير جدًا أن تفهم شيئًا في الفوضى الضاربة أطنابها فيها. كانت المخطوطات على السجادة كما كانت على الديوان، كما

كان هناك كتاب ينيخ على الأريكة وقد علا سنامه، وعلى الطاولة المستديرة أُعد غداء، وبين ألوان المزه المتعدِّدة انتصبت عدة زجاجات، أما من أين حضرت كل هذه المأكولات وكل هذه المشروبات فلم يكونا كلاهما، مرغريتا أو المعلِّم، يعلمان من أمرها شيئًا. صحوا فوجدا هذا كله على الطاولة.

شعر المعلِّم وصديقته، وقد استغرقا في نومهما حتى غروب شمس السبت، أنهما قد استعادا قوّتهما ونشاطهما تمامًا، شيء واحد فقط كان يذكرهما بمغامرات البارحة: ألم خفيف في الصدغ الأيسر أما من الناحية النفسية فقد طرأت عليهما تغيرات كبيرة جدًا، كان بوسع أي كان التأكد منها فيما لو قُدِّر له التنصُّت إلى حديثهما في شقة القبو، ولكن من أين لك أن تجد من يتنصَّت، فميزة الفناء أنه كان خاليًا على الدوام، وعند النافذة كانت أشجار الزيزفون والخلاف، التي تزداد خضرة مع كل يوم، تسكب رائحتها الربيعية الفوَّاحة فيحملها النسيم إلى القبو.

هتف المعلِّم بغتة: - «يا للشيطان! شيء يجنن!»، وأطفأ عقب سيكارته في المنفضة وعصر رأسه بين يديه، «لا، اسمعي، أنتِ إنسانه ذكية ولم تجنِّي يومًا، هل أنتِ واثقة جديًا بأننا كنا البارحة عند الشيطان؟».

أجابته مرغريتا: - «كل الثقة».

قال المعلِّم بسخرية: - «طبعًا، طبعًا، صرنا إذن مجنونين بدلًا من واحد! الزوج والزوجة!»، ورفع يديه إلى السماء وصاح: «لا، الشيطان يعلم ما هذا، الشيطان، الشيطان، الشيطان!».

وبدلًا من أن تجيبه مرغريتا، ارتمت على الديوان وراحت تقهقه وتلعِّب رجليها الحافيتين ثم هتفت: - «آه، شيء مضحك! لو أنك ترى ما تشبه!».

وبعد أن شبعت مرغريتا قهقهة، فيما كان المعلِّم يشد بخجل سرواله الداخلي المعطَى له في المستشفى، عادت مرغريتا إلى جديتها وأردفت تقول:

- «الآن قلت الحقيقة دون قصد، الشيطان يعلم هذا، والشيطان، صدقني، سيرتِّب كل شيء!»، وهنا برقت عيناها فجأة، وهبَّت واقفة وأخذت تتراقص وتصيح: «كم أنا سعيدة، كم أنا سعيدة، كم أنا سعيدة بالصفقة التي عقدتها معه! إيه، الشيطان، الشيطان! لا مفر لك من العيش مع ساحرة، يا عزيزي»، ثم انقضت على المعلِّم وطوَّقت عنقه وراحت تقبِّله في شفتيه وأنفه وخدَّيْه وخصلات شعرها الأسود غير المسوَّى تتواثب على المعلِّم، وتورِّد خدَّاه وجبينه تحت حر قبلاتها.

- «أصبحتِ بالفعل تشبهين الساحرة».

- «هذا لا أنكره. إني ساحرة وإني لجد راضية!».

- حسنًا، حسنًا، ساحرة، كما تشائين، هذا شيء رائع وفخم! لقد اختُطفت من المستشفى إذن؟ هذا أيضًا شيء لطيف جدًا، وأُعدت إلى هنا، لنفرض هذا أيضًا... ولنفرض أيضًا أنهم سيدَعوننا وشأننا، لكن قولي لي بحق كل ما هو مقدَّس، كيف سنعيش ومن أين؟ إني، إذ أقول هذا، إنما أفكر فيكِ صدقيني.

في هذه اللحظة بدا في النافذة حذاء مدبَّب والقسم السفلي من بنطال مخطَّط، ثم انثنى هذا البنطال عند الركبة وحجبت ضوءَ النهار مؤخرةٌ مكتنزةٌ.

سأل صوت ما في مكان ما فوق البنطال وخلف النافذة: - «ألوييزي، هل أنت في البيت؟».

قال المعلِّم: - «بدأتْ».

سألت مرغريتا وهي تدنو من النافذة: - «ألوييزي؟ اعتُقل البارحة، من يسأل عنه؟ وما اسمك؟».

وفي اللحظة نفسها اختفت الركبتان والمؤخرة، وسُمع باب الحديقة يصطك، وعاد كل شيء إلى سابق عهده، ارتمت مرغريتا على الديوان وراحت تقهقه بحيث طفرت الدموع من عينيها، وعندما هدأ روعها كان وجهها قد تغيَّر تغيرًا شديدًا فقالت بجد وهي تنزل عن الديوان وتدنو من ركبتي المعلِّم زحفًا وتحدِّق في عينيه وتربِّت على رأسه:

- «كم تعذَّبت، كم تعذَّبت يا عزيزي المسكين، ولا أحد يعرف بعذابك سواي! انظر في رأسك خيوط بيض وغضون دائمة عند الشفتين، يا عزيزي، يا حبيبي الوحيد لا تفكِّر في شيء... كان من قدرك أن تفكِّر كثيرًا، والآن سأفكِّر أنا عنك! وأؤكد لك، أؤكد لك أن كل شيء سيكون على خير، خير ما يرام».

- «وأنا لستُ أخشى شيئًا، يا مارغو»، أجابها المعلِّم فجأة ورفع رأسه فبدا لها مثلما كان حيث كان يكتب عمَّا لم يره أبدًا، إنما كان يعرف وجوده يقينًا، «لستُ خائفًا لأنني خَبِرت كل شيء، خوفوني أكثر مما يجب، ولم يعد هناك ما يخوفونني به، لكني أشفق عليكِ يا مارغو، هنا السر، وهنا سبب إلحاحي، ثوبي إلى رشدكِ، ما الداعي لأن تحطِّمي حياتك مع إنسان مريض وفقير؟ عودي إلى بيتكِ! إني أشفق عليكِ، ولهذا أقول لكِ ما أقول».

قالت مرغريتا في همس وهي تهز رأسها الأشعث الشعر: - «آه منك، آه منك»، آه منك أيها القليل الإيمان والبائس. بسببك بقيت طول ليلة أمس ارتجف عارية، فقدت

طبيعتي واستبدلتها بأخرى جديدة، قبعت عدة أشهر في زنزانة مظلمة وأنا لا أفكر إلا في شيء واحد؛ في العاصفة الرعدية فوق أورشليم. دموع عيني جفَّت من فرط البكاء، والآن، وقد انهمرت علينا السعادة، تطردني؟ حسنًا، سأغادرك، سأغادرك، لكن اعلم أنك إنسان قاسٍ، لقد خرَّبوك من الداخل!

تدفَّقت موجة من الحنان المر إلى قلب المعلِّم، ولسبب ما أخذ يبكي وقد دفن وجهه في شعر مرغريتا، فأخذت هذه تهمس له ودموعها تجري على خديها، وأصابعها تختلج على صدغَي المعلِّم:

- «نعم، الخيوط، الخيوط... أمام عيني رأسك يشتعل بالشيب، آه رأسك، رأسك الذي ذاق الكثير من العذاب. انظر إلى عينيك! أنها كصحراء... وكتفاك، كتفاك المثقَّلتان... لقد شوَّهوك، شوَّهوك»، بات كلام مرغريتا هنا مفكَّكًا وكانت مرغريتا تنتفض من شدة البكاء.

إذَّاك مسح المعلِّم عينيه وأنهض مرغريتا عن الأرض ونهض هو نفسه وقال بصوت حازم:

- «كفى! لقد أخجلتني، لن أسمح لنفسي أبدًا أن يعتَورها الضعف ثانية، ولن أعود إلى هذا الموضوع من جديد، كوني مطمئنة، أعرف إننا نحن الاثنين ضحيتا مرضنا النفسي الذي قد أكون أنا الذي نقل عدواه إليك... ولكن لا بأس، سنتحمَّله معًا».

قرَّبت مرغريتا شفتيها من أذن المعلِّم وهمست:

- «أقسم لك بحياتك، أقسم لك بابن المنجِّم الذي تبيَّنت سرَّه، أن كل شيء سيكون على ما يرام».

- «حسنًا، حسنًا»، ردَّ المعلِّم، ثم ابتسم وأردف: «بالطبع عندما يُسلب الناس ويُنهبون تمامًا، كما هو حالنا، فإنهم يبحثون عن الخلاص لدى قوة غيبية! لا بأس، أنا مستعد للبحث عنه هناك».

أجابت مرغريتا: - «أرأيت، أرأيت؟ عدتَ كالسابق، صرت تضحك، ليأخذك الشيطان أنت وكلماتك العلمية، غَيْبي أو غير غيبي أليس الأمر سواء؟ لقد جعتُ».

وسحبت المعلِّم من يده إلى الطاولة.

قال المعلِّم وقد عاوده هدوءه كاملًا: - «لستُ واثقًا من أن هذا الطعام لن يغور في الأرض الآن أو لن يطير من النافذة».

- «لن يطير!».

وفي هذه اللحظة بالذات سُمع في النافذة صوت أخن يقول:

- «سلام لكم».

ارتعد المعلِّم، أما مرغريتا التي اعتادت الأشياء الخارقة فقد هتفت:

- «إنه أزازيلو! آه، ما أحسن هذا وما ألطفه!»، وهمست للمعلم: «أرأيت، أرأيت؟ إنهم لا يتخلَّون عنَّا، واندفعت تفتح الباب».

صاح المعلِّم في إثرها: - «لو تدثَّرتِ بشيء على الأقل».

جاء جوابها من الممر: - «لا أهمية لذلك».

وما هي لحظة حتى كان أزازيلو ينحني ويسلِّم على المعلِّم ويقدح عينه العوراء، بينما كانت مرغريتا تهتف:

- «آه، ما أسعدني! لم أكن سعيدة في حياتي كلها كهذه اللحظة، اعذرني يا أزازيلو لأني عارية».

رجاها أزازيلو ألا تقلق مؤكدًا إنه لم يرَ نساء عاريات وحسب، بل حتى نساء سُلخ جلدهن تمامًا. وجلس إلى الطاولة بعد أن وضع في الركن الذي عند المدفأة صرَّة ملفوفة بديباج قاتم اللون.

سكبت مرغريتا لأزازيلو كونياك فشربه بإقبال، وكان المعلِّم في هذه الأثناء يقرص بين الفينة والفينة رسغ يده اليسرى تحت الطاولة دون أن يرفع عينيه عن أزازيلو، لكن هذه القرصات لم تنفعه في شيء، فلم يذب أزازيلو في الهواء، والحق يُقال إنه لم تكن هناك أي ضرورة أو حاجة لهذا، إذ لم يكن في هذا الرجل القصير القامة المائل إلى الصهبة أي شيء مخيف اللهم إلا عينه ذات الغشاوة، لكن هذا يحدث حتى دون أي وجود للسحر، وإلا ثوبه غير المألوف بعض الشيء الذي لا تدري أهو بردة أو جلباب، لكن حتى هذا يُصادَف كثيرًا إذا تمعنَّا في الأمر جيدًا، والكونياك كان يشربه بخفه، ككل الناس الطيبين، أقداحًا كاملة دون أن يمز، ومن هذا الكونياك نفسه دارت رأس المعلِّم وأخذ يفكر:

«لا، مرغريتا على حق! أمامي الآن رسول الشيطان طبعًا! أنا نفسي قبل فترة لا تتعدَّى ليلة ما قبل البارحة كنت أبرهن لإيفان أنه إنما التقى في بتريرشيي الشيطان بالذات، والآن لا أدري لماذا ذعرتُ من هذه الفكرة، وأخذتُ أثرثر عن المنوِّمين المغناطيسيين وعن الهلوسات، ولكن أي منومين هؤلاء بحق الشيطان».

وأخذ يمعن النظر في أزازيلو فتأكَّد أن شيئا ما مكرِهًا عليه، أن فكرة ما تلوح في عينه، وأنه يتريَّث في الإفضاء به، «لم يأتِ لمجرَّد الزيارة، بل حضر في مهمة ما». قال المعلِّم في سره.

ولم تخنه قوة ملاحظته.

وقال أزازيلو بعد أن شرب الكأس الثالثة التي لم تؤثِّر فيه أي تأثير:

- «يا له من قبو مريح، ليأخذني الشيطان! إنما هناك سؤال واحد يقضّ مضجعي، ما الذي يمكن أن يفعله المرء في هذا القبو؟».

أجاب المعلِّم ضاحكًا: - «هذا ما كنت أقوله».

سألت مرغريتا: - «لماذا تقلق راحتي يا أزازيلو، بشكل من الأشكال؟».

هتف أزازيلو: - «ماذا تقولين، ماذا تقولين، لم تخطر حتى ببالي فكرة إزعاجك، وأنا أيضًا أقول، بشكل من الأشكال، كدتُ أنسى، سيدي يقريكما السلام، كما أمرني بإبلاغكما دعوته للقيام معه بنزهة صغيرة، هذا إذا كنتما توافقان طبعًا، فما رأيكما؟».

لكزت مرغريتا المعلِّم برجلها تحت الطاولة.

أجاب المعلِّم وهو لا يزال يتفحَّص أزازيلو: - «بكل سرور»، بينما تابع هذا كلامه:

- «ونأمل ألا ترفض مرغريتا نيقولايفنا أيضًا دعوتنا؟».

قالت مرغريتا وراحت رجلها تمر على رجل المعلِّم مرة أخرى: - «لن أرفض بالطبع».

هتف أزازيلو: - «شيء مدهش! هذا ما أحب! واحد، اثنين وكل شيء جاهز! لا كما حدث تلك المرة في حديقة ألكسندروفسكي!».

- «آه، لا تذكِّرني يا أزازيلو! كنت غبية إذَّاك. وعلى أي حال لا يجوز أن تبالغ في لومي، فليس يلتقي الإنسان كل يوم بروح شريرة!».

قال أزازيلو مثنيًا: - «بالتأكيد، ولو حدث مثل هذا كل يوم لكان شيئًا لطيفًا».

قالت مرغريتا في اندفاع: - «أنا نفسي تعجبني السرعة، تعجبني السرعة والعري، كما من الماوزر»، صاحت مرغريتا مخاطبة المعلِّم: «واح! آه، ما أمهره في الرمي، ورقة السبعة تحت المخدة والنقطة التي تشاء...». كانت الخمر قد أخذت تدور في رأس مرغريتا مما جعل عينيها تتوقَّدان.

صاح أزازيلو وهو يلطم جبينه: - «ونسيتُ أيضًا، لقد نال منِّي التعب تمامًا، فسيدي بعث إليك بهدية». هنا كان أزازيلو يوجِّه كلامه إلى المعلِّم بالذات، «زجاجة نبيذ، وأرجو أن تلاحظ أنه النبيذ نفسه الذي كان حاكم اليهودية يشربه، نبيذ فاليرنو».

من نافلة القول أن هذا الشيء النادر أثار اهتمام كل من مرغريتا والمعلِّم، وأخرج أزازيلو من قطعة الديباج التابوتي دورقًا غطَّاه العفن تمامًا، شموا النبيذ وسكبوه في

كؤوس وأخذوا يرنون من خلاله إلى الضوء يختفي في النافذة قبيل العاصفة، ورأوا كيف كان كل شيء يتخضّب بلون الدم.

- «في صحة فولند!». هتفت مرغريتا وهي ترفع كأسها، أدنى ثلاثتهم شفاههم من كؤوسهم وجرعوا جرعة كبيرة، وللحال أخذ ضوء ما قبل العاصفة ينطفئ في عين المعلِّم واحتبست أنفاسه وأحسَّ أن نهايته قد حانت، ورأى أيضًا مرغريتا التي علت وجهها صفرة الموت تلقي رأسها على الطاولة وهي تمد إليه يديها في وهن، وسقطت مرغريتا على الأرض.

- «أيها القاتل»، صاح المعلِّم بما بقي فيه من قوة، وأراد استلال السكين من على الطاولة كي يطعن بها أزازيلو، لكن يده سقطت عاجزة عن السماط واكتسى كل ما يحيط بالمعلِّم في القبو باللون الأسود ثم اختفى تمامًا، سقط المعلِّم على ظهره، وشجَّ وهو يسقط جلدَ صدغه على ركن المكتب.

عندما سكن المسمومان، بدأ أزازيلو عمله، وكان أول ما فعله أن انطلق من النافذة، وفي لحظات كان في الدار التي كانت مرغريتا نيقولايفنا تقطنها، أراد أزازيلو الدقيق والمنظَّم دائمًا التأكُّد من أن كل شيء نُفِّذ كما يجب، وقد كان كل شيء كما ينبغي، رأى أزازيلو امرأة متجهِّمة الوجه تنتظر عودة زوجها تخرج من مخدعها، ثم يشحب لونها بغتة وتضع يدها على قلبها وتصيح بصوت عاجز:

- «ناتاشا! شخص ما... إليَّ!». وسقطت على الأرض في غرفة الاستقبال دون أن تبلغ المكتب.

- «كل شيء على ما يرام»، قال أزازيلو، وفي لحظة طار إلى جانب العاشقين الصريعين، كانت مرغريتا منطرحة على الأرض ووجهها مدفون في السجادة، قلبها أزازيلو بيديه الحديديتين كأنها دمية وأدار إليه وجهها وحدق فيه، وعلى مرأى منه أخذ وجه القتيلة المسمومة يتغيَّر، كان بالإمكان حتى في الظلام الهابط مع اقتراب العاصفة رؤية حَوَلَها السحري المؤقَّت وقساوة ملامحها وعنقها تختفي، وأشرق وجه الميتة ورقَّ أخيرًا، ولم تعد تكشيرتها تكشيرة وحش ضار، بل تكشيرة تفيض بالأنوثة والعذاب، إذَّاك باعد أزازيلو أسنانها البيض المطبقَة، وسكب في فمها بضع قطرات من النبيذ نفسه الذي سمَّمها به، تنهَّدت مرغريتا وشرعت تنهض دون مساعدة أزازيلو واستوت في مقعدها وسألت بصوت واهن:

- «لماذا يا أزازيلو، لماذا؟ ما الذي فعلته بي؟».

ورأت المعلِّم الراقد فارتعدت وهمست:

- «لم أكن أتوقع هذا.... يا للقاتل».

أجاب أزازيلو: - «لا، قلت لكِ لا، سينهض الآن، آه لماذا أنت متوترة الأعصاب هكذا!».

وصدَّقته فورًا لشدة ما كان صوت الشيطان الأصهب مقنعًا، وثبت مرغريتا قوية حية وساعدت في اسقاء الراقد الخمر. فتح هذا عينيه، وألقى نظرة متجهِّمة وكرَّر في حقد كلمته الأخيرة:

- «القاتل...».

أجاب أزازيلو: - «آه! الإهانة هي المكافأة المألوفة على العمل الجيد، أحقًا أنك أعمى؟ أبصر إذن بسرعة».

وهنا هبَّ المعلِّم واقفًا، وتطلع حوله بعينين حيتين مشرقتين وسأل:

- «ما معنى هذا الشيء الجديد؟».

- «معناه أنْ آن الأوان، أخذت العاصفة ترعد، ألا تسمع؟ الظلام يطبق والخيول تفحص الأرض بحوافرها، والحديقة الصغيرة تهتز، ودِّع القبو، ودِّعه بسرعة».

قال المعلِّم وهو يتلفَّت حوله: - «آه، فهمت، لقد قتلتنا، نحن الآن أموات... آه، ما أذكى ما فعلت وكم جاء في وقته! الآن فهمت كل شيء».

أجابه أزازيلو: - «آه، عفوك، أأنت الذي تقول هذا؟ صديقتك تدعوك المعلِّم، وأنت تفكِّر، فكيف يمكن أن تكون ميتًا؟ أيجب حقًا كي تعتبر نفسك إنسانًا حيًا أن تجلس في هذا القبو وتلبس قميص وسروال المرضى؟ هذا مضحك!».

صاح المعلِّم: - «فهمت كل ما قلته، لا تكمل! أنت محق ألف مرة».

وأخذت مرغريتا تردِّد:

- «فولند العظيم! فولند العظيم! لقد تفتَّق ذهنه عن أفضل مما تفتَّق عنه ذهني، إنما الرواية، الرواية»، راحت تصرخ للمعلم، «خذ الرواية معك أنَّى طرت».

أجابها المعلِّم: - «لا داعي لذلك، فأنا أحفظها عن ظهر قلب».

سألت مرغريتا وهي تلتصق بصدر عشيقها وتمسح الدم عن صدغه: - «لكن ألن تنس كلمة... كلمة واحدة منها؟».

أجاب المعلِّم: - «لا عليكِ، فمنذ الآن لن أنسى أي شيء أبدًا».

صاح أزازيلو: - «النار إذن! النار، منها بدأ كل شيء وبها ننهي كل شيء».

- «النار!». صرخت مرغريتا بصوت رهيب، اصطكت النافذة وقذفت الريح الستائر

جانبًا، ودوَّت في السماء قصفة رعد ممراحة قصيرة. دسَّ أزازيلو يده ذات المخالب في الموقد وسحب جمرة مدخِّنة وأضرم بها النار في السماط على الطاولة، ثم أضرم النار في رزمة صحف قديمة على الديوان ثم المخطوط فستارة النافذة، أما المعلِّم، الذي أخذته نشوة الانطلاق المقبل على ظهور الخيل، فقد قذف بكتاب من الرف على الطاولة ونتف أوراقه وألقى بها في السماط المحترق، وزغردت النار في الكتاب.

«احترقي، احترقي أيتها الحياة السابقة!».

صاحت مرغريتا: «احترق أيها العذاب!».

أخذت الغرفة تترنَّح بين الأعمدة الأرجوانية، وهُرع ثلاثة يركضون مع الدخان من خلال الأبواب ويصعدون الدرج الحجري حتى صاروا في الفناء، وكان أول ما رأوه طبَّاخة صاحب البيت تقعى على الأرض وقد تناثرت حولها رؤوس البطاطا وبضع حزيمات من البصل، كانت حالة الطباخة مفهومة، فقرب العنبر كانت ثلاثة أحصنة دهم تحمحم وتنتفض وتفجِّر الأرض تحت أقدامها، وكانت مرغريتا أول من امتطى حصانًا فتبعها أزازيلو ثم المعلِّم. أطلقت الطباخة أنينًا وأرادت رفع يدها لرسم إشارة الصليب، لكن أزازيلو صاح من فوق السرج متوعِّدًا:

- «أقطعُ يدكِ!». وصَفَر فشبَّت الجياد وانغرست في سحابة سوداء واطئة محطِّمة أغصان الزيزفون، وللحال اندفع من نافذة القبو دخان، وتناهى من أسفل صراخ ضعيف، بائس للطباخة:

- «حريق!».

كانت الجياد تمرق الآن فوق سطوح موسكو.

- «أريد إلقاء نظرة وداع على موسكو»، صاح المعلِّم مخاطبًا أزازيلو الذي كان يعدو في المقدمة، وأكل الرعد بقية جملة المعلِّم. أومأ أزازيلو برأسه وأطلق جواده خببًا، كانت تندفع باتجاه الطائرين سحابة لمَّا تنفجر بالمطر.

كانوا يحلِّقون فوق بولفار بدأت تتساقط عليه أولى قطرات المطر فرأوا أشكال الناس الصغيرة تتراكض هنا وهناك محتمية من المطر، وحلَّقوا فوق دخان هو كل ما تبقى من غريبوييدوف. وحلَّقوا فوق المدينة التي غمرها الظلام، كانت البروق تلمع فوقهم ثم أعقب البيوت بساط كبير من الخضرة، إذَّاك انهمر المطر وحوَّل الطائرين إلى ثلاث فقاعات ضخمة من الماء.

كانت مرغريتا قد خبرت الإحساس بالتحليق أمَّا المعلِّم فلا، ولهذا أخذته الدهشة من سرعة بلوغهم الهدف. بلوغهم مكان من أراد أن يودعه، لأنه لم يكن عنده من

يودِّعه سواه، وتعرَّف من فوره في زبد المطر على بناء مستشفى سترافنسكي وعلى النهر وعلى الحرش القائم على الضفة الأخرى الذي درسه جيدًا، وهبطوا فوق مرج في دغل غير بعيد من المستشفى.

- «سأنتظركما هنا»، صاح أزازيلو وهو يعقد يديه على شكل بوق، تجلوه البروق تارة ويغيب في الغشاوة الرمادية تارة أخرى، «ودِّعاه، إنما بسرعة!».

وثب المعلِّم ومرغريتا عن سرجي جواديهما وانطلقا يلوحان تارة ويختفيان تارة، كأنهما شبحان مائيان، عبر حديقة المستشفى، وما هي إلا لحظة أخرى حتى كان المعلِّم يزيح بيد معتادة شبك الشرفة في الغرفة رقم 117، تبعته مرغريتا ومضيا كلاهما إلى إيفان دون أن يراهما أو ينتبه إليهما أحد في زمزمة الرعد وعوائه، وتوقَّف المعلِّم عند السرير.

كان إيفان متمدِّدًا دون حراك كعهده آنذاك، حين راقب العاصفة في بيت استجمامه لأوَّل مرة، لكنه لم يكن يبكي كما في تلك المرة. ولمَّا حدَّق مليًا في الطيف الأسود المتسلِّل إليه من الشرفة، نهض قليلًا ومدَّ يديه وقال بفرح:

- «آ، هذا أنت، انتظرتك بفارغ صبر، وها أنت يا جاري».

وأجابه المعلِّم:

- «أنا هنا! لكني لا أستطيع أن أكون جارك بعد الآن مع الأسف، سأطير بعيدًا عنك وإلى الأبد، ولم آتِ إليك إلا لأقول لك وداعًا».

- «كنت أعرف هذا، لقد خمَّنته»، أجاب إيفان بصوت خافت ثم سأل: «هل التقيت به؟».

قال المعلِّم: - «نعم، وقد أتيت أودِّعك لأنك كنت الإنسان الوحيد الذي كلمته في الفترة الأخيرة».

أشرق وجه إيفان وقال:

- «حسن أنك أتيت إلى هنا، سأفي بوعدي، لن أكتب شعرًا بعد اليوم، شيء آخر يشغلني الآن»، وهنا ابتسم إيفان ورنا بعينيه المجنونتين إلى مكان ما بمحاذاة المعلِّم، «أريد كتابة شيء آخر، لقد فهمت أشياء كثيرة خلال إقامتي هنا».

اضطرب المعلِّم لهذه الكلمات فقال وهو يجلس على حافة السرير إلى جانب إيفان:

- «هذا جيد، هذا جيد، ستكتب تتمَّة عنه!».

توقَّدت عينا إيفان.

- «ألن تفعل ذلك بنفسك؟»، وهنا أطرق إيفان وأردف في شرود: «آه ما لي أسألك». وتحوَّل إلى الأرض بنظرة شزر وحدَّق بذعر.

- «نعم»، قال المعلِّم فبدا صوته لإيفان غريبًا ومكتومًا.

- «لن أكتب عنه الآن، فأنا مشغول بأشياء أخرى».

وقطع جلبة العاصفة صفير بعيد.

سأل المعلِّم: - «أتسمع؟».

- «إنه صوت العاصفة...».

- «لا، إنهم يدعونني، آن الأوان». قال المعلِّم موضِّحًا ونهض عن السرير.

قال إيفان يرجوه: - «تمهَّل! كلمة أخيرة، هل وجدتها؟ هل ظلَّت على إخلاصها؟».

أجاب المعلّم وأشار إلى الجدار: - «ها هي ذي». وانسلخت مرغريتا الغارقة في السواد عن الجدار الأبيض ودنت من السرير وأخذت تنظر إلى الشاب الراقد في سريره والحزن يشيع في عينيها.

- «مسكين، مسكين». همست مرغريتا في صوت غير مسموع وانحنت فوق السرير.

تمتم إيفان دون حسد، إنما بحزن وبشيءٍ من الانبهار الهادئ: - «ما أجملها، انتهى كل شيء على خير عندك، أما أنا فلا»، وفكَّر قليلًا ثم أردف في شرود: «ومن يدري، لعلّه كان خيرًا لي...».

- «خير، خير»، همست مرغريتا وازدادت انحناءً فوق الراقد على السرير، «سأقبِّل جبينك، وسيكون كل شيء عندك على خير... صدِّقني، لقد رأيتُ كل شيء وعرفتُ كل شيء».

طوَّق الشاب الراقد عنقها بيديه وقبَّلته.

- «الوداع، أيها التلميذ». قال المعلِّم بصوت لا يكاد يُسمع وأخذ يذوب في الهواء. ثم اختفى واختفت معه مرغريتا وانغلق شباك الشرفة.

ألمَّت بإيفان حالة من الاضطراب. جلس على سريره وتلفَّت حوله بجزع، بل أطلق أنينًا وأخذ يكلِّم نفسه ثم نهض. كانت العاصفة تزداد صخبًا، وهي فيما يبدو، التي بثت في نفسه القلق. والذي زاد من اضطرابه أيضًا أنه التقط بسمعه الذي ألف الهدوء المتواصل وقع خطوات مضطربة واصواتًا مكتومة خلف الباب، فنادى، وقد أنتابه توتر ورعدة:

- «براسكوفيا فيودوروفنا!».

كانت براسكوفيا فيودوروفنا تلج الغرفة وهي تتطلّع إلى إيفان في تساؤل وقلق.

- «ماذا؟ ماذا؟ العاصفة تثيرك؟ بسيطة، بسيطة... سنساعدك. سأدعو الدكتور فورًا».

- «لا، يا براسكوفيا فيودوروفنا، لا داعي لاستدعاء الدكتور»، قال إيفان بجزع وهو لا يتطلّع إلى براسكوفيا فيودوروفنا، بل يحدِّق في الجدار، «لم يحدث لي شيء غير عادي، الآن أخذت أفهم، لا تخافي»، ثم طلب إليها بود قائلًا: «الأفضل أن تقولي لي ما الذي حدث الآن هناك، في الغرفة 118؟».

كرَّرت براسكوفيا فيودوروفنا السؤال وزاغت عيناها: - «في الـ 118؟ لم يحدث هناك شيء». لكن إيفان لاحظ على الفور رنَّة الزيف في صوتها، وقال:

- «أي، يا براسكوفيا فيودوروفنا! أنتِ إنسانة جدّ مستقيمة... تحسبين أني سآخذ في الهياج! لا، يا براسكوفيا فيودوروفنا، لن يحدث هذا. الأفضل أن تقولي لي بصراحة، فأنا أشعر بكل شيء يحدث خلف الجدار».

- «مات جارك الآن»، همست براسكوفيا فيودوروفنا وقد عجزت عن مغالبة استقامتها وطيبتها، وألقت نظرة مذعورة على إيفان وقد تسربلت كلها بنور البرق. لكن شيئًا ما مقلقًا لم يحدث لإيفان، إذ اكتفى هذا برفع إصبعه في حركة ذات معنى وقال:

- «هذا ما توقَّعته! وأؤكد لك يا براسكوفيا فيودوروفنا أنه توفّي الآن في المدينة إنسان آخر. وإني لأعرف هذا الإنسان»، وهنا ابتسم إيفان ابتسامة غامضة، «إنه امرأة».

## الفصل الحادي والثلاثون

# على تلال فوروبيوف

تلاشت العاصفة وكأنها لم تكن، وامتد فوق موسكو من أقصاها إلى أقصاها قوس قزح متعدِّد الألوان على شكل قنطرة، وأخذ يشرب من نهر الموسكوفا. وتراءت في الأعالي فوق التلة ثلاثة أشباح سود بين دغلين. كان فولند وكوروفييف وبيغيموت يمتطون جيادًا دُهمًا مسرجة وهم يرنون إلى المدينة الممتدة وراء النهر بشمسها المنكسرة المتلألئة، في آلاف النوافذ الموجَّهة إلى الغرب، إلى أبراج دير ديفيتشي الكعكية الشكل.

وصرّ الهواء، وحطَّ أزازيلو مع المعلِّم ومرغريتا اللذين كانا يطيران عند ذيل بردته الأسود، حطوا على الأرض قرب مجموعة المنتظرين.

وتكلَّم فولند بعد فترة من الصمت، قال:

- «كان لا بد من إزعاجكما، يا مرغريتا نيقولايفنا ويا أيها المعلِّم، لكنكما لن تنقما عليَّ، فلست أظن أنكما ستندمان على ما فعلت. والآن هيّا بنا»، قال فولند موجِّهًا كلامه إلى المعلِّم وحده، «ودِّع المدينة. آن الأوان»، وأشار بيده المدفونة في قفاز أسود ذي طرف متسع إلى حيث كانت الشموس التي لا تُعدُّ ولا تُحصى تصهر الزجاج وراء النهر، وحيث كان الضباب والدخان والبخار المتصاعد من المدينة المحمَّاة طوال النهار يخيِّم على هذه الشموس.

قفز المعلِّم عن السرج مبتعدًا عن الجالسين وعدا إلى جرف التلة والبردة السوداء تنسحب على الأرض وراءه. وأخذ يرنو إلى المدينة. تسلَّل إلى قلبه في اللحظات الأولى حزن موجع، أعقبه بسرعة كبيرة قلق لذيذ كاضطراب غجري متنقل.

- «إلى الأبد! يجب أن أعقل هذا!». - همس المعلِّم ولحس شفتيه الجافتين المتشقِّقتين. وأخذ ينصت ويتبيَّن ما يجري في نفسه بدقة. تحوَّل قلقه إلى شعور

بالاستياء، عميق وقاتل، كما بدا له. لكن هذا الشعور لم يكن راسخًا، إذ اختفى وحلّت محله، لسبب ما، لامبالاة زهو التي هي الإحساس المسبق بالطمأنينة الدائمة.

كانت كوكبة الفرسان تنتظر المعلِّم في صمت. رأت مجموعة الفرسان كيف كان طيف المعلِّم الأسود الطويل على حافة الجرف يؤشر، فتارة يرفع رأسه كأنما يحاول إلقاء نظرة يحتضن بها المدينة كلها حتى تخومها، وتارة ينكس رأسه كأنه يتفحّص العشب الذابل الذي داسته الأقدام.

بيغيموت الذي أخذ الضجر منه كل مأخذ، قطع الصمت وقال:

- «اسمح لي يا سيدي أن أصْفِر قبل العدو مودِّعًا».

أجابه فولند: «من الممكن أن تخيف السيدة، ثم لا تنسَ أن كل أعمالك القبيحة انتهت اليوم ».

ردَّت مرغريتا التي كانت تجلس في السرج كالفارسة وهي تضع يدها على خاصرتها وتدلي ذيل ثوبها حتى الأرض: - «آه، لا، لا يا سيدي، أسمح له أن يصْفِر، فقد تملّكني الحزن قبل الانطلاق في هذا السفر البعيد. أليس صحيحًا يا سيدي أن هذا الحزن طبيعي تمامًا، حتى ولو كان الإنسان يعرف أن السعادة تنتظره في نهاية هذا الطريق؟ فليضحكنا وإلا أخاف أن ينتهي الأمر بالدموع فيفسد كل شيء قبل الرحيل!».

أومأ فولند لبيغيموت، فدبَّ فيه نشاط وحيوية كبيران، وقفز عن السرج على الأرض ووضع أصابعه في فمه، ونفخ وجنتيه وصَفَرَ. تردَّد رنين شديد في أذنَيْ مرغريتا وشبَّ جوادها على قائمتيه، وتساقطت الأغصان اليابسة من الأشجار، وأجفل سرب كامل من الغربان والعصافير وامتد عمود من الغبار إلى النهر، وشوهدت بضع قبعات تتطاير من على رؤوس ركاب مركب نهري يمرُ بمرسى. ارتعد المعلِّم من صوت الصفير لكنه لم يتلفَّت، بل أخذ يؤشر باضطراب أكبر رافعًا يده إلى السماء كأنه يتوعَّد المدينة. وتطلَّع بيغيموت إلى من حوله في خيلاء.

لاحظ كوروفييف في تسامح: - «هذا صفير، لا أماري في ذلك، إنه صفير فعلًا، لكن إذا أردنا الحقيقة دون تحيُّر، فهو متوسِّط جدًا!».

أجاب بيغيموت بوقار وهو يتأفَّف: - «لكني لستُ مرتِّلًا». ثم غمز لمرغريتا.

- «آه، دعوني أحاول بعضًا مما حفظت ذاكرتي»، قال كوروفييف وفرك يديه ونفخ على أصابعه.

علا صوت فولند الصارم من فوق جواده: - «لكن إيَّاك، أيَّاك، إيَّاك والألاعيب المضرَّة!».

- «صدقني يا سيدي»، ردَّ كوروفييف ووضع يده على قلبه، «لمجرَّد المزاح، لمجرَّد المزاح فقط...».

وهنا تمطَّى واستطال كأنه من مطَّاط، وصنع من أصابع يده اليمنى شكلًا معقدًا وفتل كأنه لولب ثم انحلَّ بغتة وصَفَرَ.

لم تسمع مرغريتا هذا الصفير، بل رأته لحظة انقذفت هي وحصانها الجامح نحو عشرات الأمتار جانبًا، وانقلعت سنديانة من جذرها، وتصدَّعت الأرض حتى النهر حولها، ونزلت طبقة هائلة من الضفة مع المرسى والمطعم في النهر. فار الماء في النهر واصطخب، وانقذف المركب النهري كله بركابه الذين لم يلحق بهم سوء إلى الضفة المقابلة الخضراء الواطئة. وانقلب عند قوائم جواد مرغريتا المحمحم غراب صغير صرعه صفير فاغوت. وأجفل هذا الصفير المعلِّم فأمسك رأسه بيديه وهُرع عائدًا إلى مرافقيه الذين كانوا بانتظاره.

قال فولند يخاطب المعلِّم من فوق جواده:

- «هل سوَّيت كل حساباتك إذن؟ هل انتهى الوداع؟».

- «نعم، انتهى»، أجاب المعلِّم وحدَّق في وجه فولند بصراحة وجرأة وقد عاد إليه هدوؤه.

إذَّاك دوَّى فوق التلال صوت فولند المخيف كأنه صوت البوق:

- «آن الأوان!!».

ودوَّى معه صفير بيغيموت وقهقهته.

اندفعت الجياد وارتفع الفرسان في الأعالي وانطلقوا خببًا. وشعرت مرغريتا أن حصانها الجامح يعضُّ الشكيمة ويشدها. فيما رفعت الريح بردة فولند ونشرتها فوق رؤوس الفرسان ثم أخذت تحجب الماء عند الغسق. وحين انزاح الحجاب الأسود جانبًا للحظة التفتت مرغريتا وهي تواصل رحلتها، ورأت أن البروج المتعدِّدة الألوان والطائرة المحلِّقة فوقها قد اختفت، كما اختفت منذ فترة طويلة المدينة نفسها التي غادرت في الأرض ولم يبقَ منها إلا الضباب.

## الفصل الثاني والثلاثون

# الغفران والمأوى الأبدي

أيتها الآلهة، أيتها الآلهة! ما أشد كآبة الأرض عند المساء! وما أحفل الضباب فوق المستنقعات بالأسرار! الذي تاه في هذا الضباب، والذي تألَّم كثيرًا قبل الموت، والذي طار فوق هذه الأرض حاملًا على كتفيه عبئًا يفوق طاقته؛ ذاك يعرف هذا، كما يعرفه المتعب، فتراه يفارق دون أسف ضباب الأرض ومستنقعاتها وأنهارها، ويسلِّم نفسه بقلب راضٍ إلى يدي الموت مدركًا أنه وحده الذي يريحه.

وحتى الجياد الدهم السحْرية تعبت فراحت تحمل فرسانها ببطء، وأخذ الليل الذي لا مفرَّ منه يلحق بها، وحتى بيغيموت الذي لا يكلّ ولا يملّ، سَكَنَ وقد أحسّ بالليل خلفه، فراح يطير صامتًا رزينًا وقد تشبَّث بمخالبه في السرج ونشر ذنبه. وأخذ الليل يغطِّي الغابات والمروج بملاءة سوداء ويشعل في المدى البعيد تحتهم أنوارًا حزينة غريبة لم يعد فيها ما يغري أو ينفع مرغريتا أو المعلِّم. وأخذ الليل يسبق كوكبة الفرسان وينزرع فوقها، وينثر في السماء المكتئبة تارة هنا وطورًا هناك نقطًا نجمية بيضًا.

كان الليل يزداد كثافة. وكان يطير إلى جانب المنطلقين، ويمسكهم من بردهم، وينزعها عن أكتافهم ويفضح خداعهم. وكلَّما كانت مرغريتا، التي تلفحُ الريحُ الباردةُ وجهها، تفتح عينيها كانت ترى هيئة المندفعين معها إلى هدفهم تتغيَّر. وعندما أخذ البدر الأرجواني يخرج إلى لقائهم من طرف الغابة، اختفت كل ألوان الخداع، وسقطت الملابس السحرية المهلهلة في المستنقع وغرقت في الضباب.

من المشكوك فيه أنه كان بوسع أحد التعرُّف إلى كوروفييف فاغوت الذي ادَّعى أنه يعمل مترجمًا لدى المستشار الغامض، الذي لا يحتاج إلى أي ترجمة، في شخص ذاك الذي كان يطير الآن إلى جانب فولند مباشرة وعن يمين صديقه المعلِّم. إذ كان يعدو الآن مكان ذاك الذي غادر تلال فوروبيوف تحت اسم كوروفييف فاغوت، وفي

ملابس سيرك ممزقة، فارس ذو لون بنفسجي غامق ووجه مفرط في تجهُّمه لا يعرف الابتسامة أبدًا وهو يصلصل بسلسلة الزمام الذهبية. كان مسندًا ذقنه إلى صدره، لا ينظر إلى القمر ولا يكترث بالأرض تحته، بل كان يفكر في شيء ما يخصه وحده، وهو طائر إلى جانب فولند.

وعلى صفير الريح سألت مرغريتا فولند بصوت خفيض:

- «لماذا تغيَّر كل هذا التغيير؟».

أجاب فولند وهو يدير إلى مرغريتا وجهه الذي اشتعلت فيه عينه بنور خافت: - «هذا الفارس مزح ذات مرّة مزحة غير موفَّقة، الكلام ذو المعنيَين، المبهم، الذي كتبه وهو يتكلَّم عن النور والظلام لم يكن جيدًا تمامًا. واضطر فارسنا، بعد هذا، إلى الاسترسال في المزاح أكثر مما حسب، لكنها اليوم ليلة تصفَّى فيها الحسابات. ولقد سدَّد الفارس حسابه وألغاه!».

وقطع الليل ذنب بيغيموت المنقوش ونزع شعره ونثره نتفًا نتفًا فوق المستنقعات. فاستحال ذلك الذي كان قطًا يسرِّي عن أمير الظلام شابًا نحيفًا. كان القطّ السابق قد استكان، وأخذ يطير دون أي صوت وقد عرَّض وجهه الفتي للضوء المنهمر من البدر.

وإلى جانب الجميع كان أزازيلو يطير وقد لمع فولاذ درعه وخوذته وكان القمر قد غيَّر وجهه أيضًا. فقد اختفى نابه القبيح غير المعقول دون أثر، وبدأ حوله مزيَّفًا، بانت عيناه متشابهتين تمامًا فارغتين وسوداوين، ووجهه أبيض وباردًا. كان أزازيلو يطير الآن بهيئته الحقيقية بوصفه جنيّ صحراء قفراء، جنيًّا قاتلًا.

لم يكن بوسع مرغريتا أن ترى نفسها، لكنها رأت جيدًا كيف تغيَّر المعلِّم. كان شعره قد أبيضّ في ضوء القمر وانعقدت ضفيرة من الخلف، وكانت الضفيرة تتطاير في الهواء. وحين كانت الريح تزيح البردة عن رجلي المعلِّم، كانت مرغريتا ترى نجيمات المهمازين على جزمته العالية يخبو نورها تارةً ويلمع تارة أخرى. وعلى غرار الجنيّ الشاب كان المعلِّم يطير دون أن يحوِّل نظره عن القمر بل كان يبتسم له كأنه شخص أليف جدًا ومحبوب، ويغمغم محدِّثًا نفسه، بفعل العادة التي اكتسبها في الغرفة رقم 118، بأشياء لم يكن من الممكن تبينها.

وأخيرًا كان فولند يطير هو الآخر في هيئته الحقيقية. وكان يصعب على مرغريتا القول على وجه اليقين مما صُنع زمام جواده، وتراءى لها أن الزمام ربما كان سلاسل قمريةً صغيرةً، وأن الجواد نفسه ليس إلا قطعة من الظلام، وأن عرف هذا الجواد سحابة سوداء ومهمازي الفارس بقع نجمية بيض.

وهكذا طاروا في صمت طويلًا إلى أن بدأت الأرض تتغيَّر تحتهم. غرقت الغابات الحزينة في ظلام الأرض وجذبت وراءها نصال الأنهر الكامدة، وظهرت في الأسفل جلاميد صخرية، ثم أخذت تلمع، بينما اسودَّت بينها هُوى لا ينفذ إليها ضوء القمر.

حطّ فولند بجواده على قمة صخرية مستوية كئيبة، ومضى الفرسان خلفه وهم يسمعون إلى جيادهم تسحق الصوان والحجارة بنعالها. كان القمر يغمر المكان بنور أخضر ساطع. وسرعان ما تبيَّنت مرغريتا في هذا الخلاء أريكة يستوي فيها طيف بشري أبيض، ولعل الجالس كان أصم أو مستغرقًا أشد الاستغراق في التفكير، إذ لم يسمع الأرض الصخرية تهتزّ تحت ثقل الجياد. ودنا الفرسان منه دون أن يزعجوه.

ومدّ القمر لمرغريتا يد العون، إذ كان ينير المكان أفضل مما يمكن أن يفعله أفضل مصباح كهربائي، فرأت أن الجالس الذي بدت عيناه عمياوين يفرك يديه فركات قصيرة، وأنه يحدِّق بهاتين العينين غير المبصرتين في قرص البدر. ورأت مرغريتا الآن كلبًا ضخمًا مرهف الأذنين أسود الشعر يتمدَّد إلى جانب الأريكة الحجرية الثقيلة التي تتلألأت فيها شرارات من ضوء القمر، وأنه كصاحبه يتطلَّع إلى البدر بقلق.

وعند قدمي الجالس تناثرت شقف دورق مكسورة. وامتدت بركة حمراء ضاربة إلى السواد لا تجف.

وأوقف الفرسان جيادهم.

وأخيرًا تكلم فولند وهو يستدير إلى المعلِّم:

- «لقد قرؤوا روايتك، ولم يقولوا فيها إلّا شيئًا واحدًا وهو أنها لم تنتهِ مع الأسف. وهكذا، فبودّي أن أريك بطلك. إنه يجلس منذ نحو ألفي عام في هذا المكان ويغطُّ في النوم، لكن حين يطلع البدر، تراه يعاني الأرق كما ترى. وهو لا يعذِّبه وحده، بل يعذِّب حارسه الأمين أيضًا؛ الكلب. وإذا كان صحيحًا أن الجبن هو أكبر نقيصة، فالكلب كما أرى، لا ذنب له، فالشيء الوحيد الذي كان الكلب الشجاع يخافه هو العواصف الرعدية. لكن ما العمل، فعلى من يحب أن يشارك من يحب مصيره!».

- «ماذا يقول؟». سألت مرغريتا، واختلج وجهها الذي كان يشيع فيه هدوء تام تحت سحابة الشفقة.

وعلا صوت فولند:

- «إنه يردِّد الشيء نفسه، يقول إنه لا يشعر براحة مع طلوع البدر أيضًا وإن منصبه رديء. هكذا يقول دائمًا حين لا يكون نائمًا، وحين ينام لا يرى إلا شيئًا واحدًا؛ طريق القمر، ويريد أن يسير فيه ويتحدَّث إلى المعتقل الغانوصري لأنه، كما يؤكِّد، لم يقل

كل ما كان يريد قوله آنذاك، منذ زمن طويل، في الرابع عشر من نيسان. لكن لأمر ما، واأسفاه، لا هو يفلح في الخروج إلى هذه الطريق ولا أحد يأتي إليه، فلا يبقى لهَ إلّا التحدُّث إلى نفسه. وبالمناسبة، لا بدّ من بعض التنويع. ولهذا تراه يضيف إلى حديثه عن البدر بعض الأحيان أن أبغض شيء إلى نفسه في هذا العالم هو خلودُه وشهرته المنقطعة النظير. ويؤكد استعداده لاستبدال مصيره بمصير المتسكع الصعلوك متّى اللاوي».

سألت مرغريتا: - «اثنا عشر ألف بدر مقابل ذلك البدر القديم؟ أليس هذا أكثر مما يجب؟».

قال فولند: - «أوَتتكرَّر قصة فريدا؟ لكن لا تشغلي بالك يا مرغريتا. فكل شيء سيكون في محلّه، وعلى هذا يقوم العالم».

- «أطلق سراحه». صرخت مرغريتا بصوت حاد بغتة كما صرخت إذّاك حين كانت جنية، فانقلع لصرختها حجر في الجبال وراح يتدحرج على الهاوية صامًا الجبال بدوِيِّه. لم يكن بوسع مرغريتا القول إن كان هذا دوِيّ سقوط أم دوِيّ ضحكة شيطانية. ومهما يكن من أمر، كان فولند يضحك وهو يتطلّع إلى مرغريتا ويقول:

- «لا داعي للصراخ في الجبال، فهو، على أي حال، قد اعتاد الانهيارات، ولن يقلق هذا راحته. ولا داعي لشفاعتك يا مرغريتا لأن ذاك الذي يصبو إلى التحدُّث إليه قد سبق واستشفع له». وهنا استدار فولند إلى المعلِّم من جديد وقال له: «حسنًا، والآن تستطيع أن تنهي روايتك بجملة واحدة!».

وكأن المعلِّم كان ينتظر هذا وهو واقف دون حراك ينظر إلى الحاكم الجالس. فعقد يديه على شكل بوق وصرخ حتى أخذ صدى صراخه يقفز على الجبال المقفرة الجرداء:

- «أنت حرٌّ! حرٌّ! إنه في انتظارك».

حوَّلت الجبال صوت المعلِّم إلى رعد، وهذا الرعد هدّمها. سقطت الجدران الصخرية اللعينة، ولم تبقَ إلا الرقعة الصغيرة التي عليها الأريكة الحجرية. واشتعلت بالأضواء فوق الهاوية السوداء، التي غارت فيها الجدران، مدينة مترامية الأطراف تهيمن عليها تماثيل متلألئة في الحديقة التي زادت خضرتها كثافة وبهاءً على مدى هذه الآلاف من البدور. وامتد على هذه الحديقة رأسًا طريق القمر الذي طال انتظار الحاكم له. وكان الكلب المرهف الأذنين أول من اندفع يعدو فيه. نهض الشخص ذو البردة البيضاء ذات البطانة التي بلون الدم عن الأريكة، وصرخ بصوت مبحوح، متقطِّع، ولم

يكن بالمستطاع تبيُّن ما إذا كان صراخه بكاءً أو ضحكًا وما الذي قاله في صراخه. جلّ ما أمكن رؤيته أنه اندفع أيضًا يعدو في طريق القمر مقتفيًا أثر حارسه الأمين.

سأل المعلِّم في انشغال بال وقد أمسك الزمام: - «وأنا أيضًا إلى هناك، في إثره؟».

أجابه فولند: - «لا، علام اقتفاء أثرٍ ما انتهى؟».

- «هل إلى هناك إذن؟». سأل المعلِّم واستدار وأشار إلى الوراء، إلى حيث نهضت في المؤخِّرة المدينة المهجورة منذ وقت قريب، بأبراج ديرها الكعكية الشكل وشمسها المتكسِّرة شظايا في الزجاج.

أجابه فولند وقد غلظ صوته وراح ينساب فوق الصخور: - «أيضًا لا، أيها المعلِّم الرومنطيقي!.. ذاك الذي كان البطل الذي اختلقته والذي أطلقت بنفسك سراحه قبل قليل متحرِّقًا إلى رؤيته، قرأ روايتك». وهنا التفت فولند إلى مرغريتا وخاطبها قائلًا: «لا يمكن للمرء إلا أن يصدِّق، يا مرغريتا نيقولايفنا، أنكِ حاولتِ أن تختلقي للمعلم أفضل مستقبل ممكن، لكن لعلّ ما أعرضه عليكما، وما استشفع لكما - لكما بالذات - يشوع فيه، يكون أفضل. دعوهما وشأنهما»، قال فولند وهو يميل على سرج المعلِّم من على سرجه ويشير باتجاه الحاكم المغذّ في السير، «تعالوا لا نعيقهما، فقد يتفقان على شيء ما في نهاية الأمر». وهنا لوَّح فولند بيده باتجاه أورشليم فانطفأت.

- «وهناك أيضًا»، قال فولند وأشار إلى المؤخرة، «ماذا بوسعك أن تفعل في القبو؟»، وهنا انطفأت الشمس المتكسِّرة في الزجاج. وأردف فولند يقول بصوت مقنع ورقيق: «لماذا تريد العودة أيها المعلِّم الغارق في الرومنطيقية، ألا تريد حقًا أن تتنزه مع صديقتك في النهار تحت أشجار الكرز التي بدأت تزهر، وتستمع في المساء إلى موسيقى شوبرت؟ ألا تستحلي حقًا الكتابة بريشه على أنوار الشموع؟ أوَلا تريد حقًا أن تجلس كفاوست فوق وعاء تقطير[1] على أمل أن تتمكن من تكوين إنسان جديد؟ إلى هناك، إلى هناك. هناك ينتظركما بيت وخادم هَرِم، الشموع اشتعلت وعمَّا قليل ستنطفئ، لأنكما ستستقبلان الفجر فورًا. في هذا الطريق، أيها المعلِّم، في هذا الطريق. الوداع! آن لي أن أنصرف».

- «الوداع!». ردّ عليه كل من المعلِّم ومرغريتا بصرخة واحدة، إذَّاك اندفع فولند الأسود إلى الهاوية، وهو لا يتبين أي طريق أمامه، وهوت إثره حاشيته في جلبةٍ ودويٍّ. وغارت الصخور والساحة الصغيرة وطريق القمر وأورشليم من حولهما، كما غارت الجياد الدهم. ورأى المعلِّم ومرغريتا الفجر الموعود، وقد بزغ للحال بعد بدر منتصف

---

(1) وعاء كروي متصل بأنبوب ملتو لأسفل، يستخدم لتقطير السوائل في معامل الكيمياء. الناشر.

الليلِ. سار المعلِّم مع صديقته في سنا أشعة الصباح الأولي عبر جسر صخري صغير مغطى بالطحلب. قطع العاشقان المخلصان الجسر وخلّفاه وراءهما ثم مضيا في طريق رملي.

- «أنصِت إلى السكون»، قالت مرغريتا للمعلم، وكان الرمل يخشخش تحت قدميها الحافيتين، «انصت واستمتع بما لم تُعطه في الحياة: الهدوء. أنظر، ها هو ذا بيتك الأبدي الذي كوفئت به، وإني لأرى نافذته التي كنوافذ بيوت البندقية وداليته المعرَّشة حتى السطح. ها هو ذا بيتك. ها هو ذا بيتك الأبدي. اعرف أنه سيأتي إليك في المساء من تحبهم، ومن تهتم بهم ومن لا يعكّر عليك صفوك. سيعزفون لك، وسيغنون لك، وسترى كم هو ساطع الضوء في الغرفة حين تُشعل الشموع. وستغفو بعد أن تعتمر طاقيتك المتسخة التي لا تفارقك. ستنام والبسمة على شفتيك. وسيشد النوم من عزيمتك، فتأخذ في التفكير بحكمة. ولن يعود بمقدورك أن تطردني، لأني أنا التي سأحرس نومك».

هكذا كانت مرغريتا تتكلّم وهي ماضية مع المعلّم إلى بيتهما الأبدي. وبدا للمعلم أن كلماتها كانت تنساب كما كانت الساقية التي خلّفاها وراءهما تكركر وتهمس، وأخذت ذاكرة المعلِّم، ذاكرته المضطربة المثلومة، تخبو شيئًا فشيئًا، أحدهم أطلق سراح المعلِّم كما أطلق هو نفسه، قبل قليل، سراح البطل الذي خلقه، وهذا البطل غار في الهاوية، غاب دون رجعة ابن الملك المنجِّم، حاكم اليهودية الخامس الظالم الفارس بيلاطس البنطي الذي غُفر له صبيحة يوم الأحد.

# خاتمة

ومع هذا، فما الذي حدث في موسكو بعد أن غادر فولند العاصمة عند غروب شمس السبت مختفيًا مع حاشيته من تلال فوروبيوف؟

لا حاجة إلى القول إنه سرت في العاصمة كلها لفترة طويلة همهمات ولغط مزعج بإشاعات من أغرب ما يمكن، وأن هذه الإشاعات امتدت بسرعة فائقة إلى الريف، دانيه وقاصيه، لكن مجرَّد تكرار هذه الإشاعات يثير في النفس القرف.

وقد سمع كاتب هذه السطور الصادقة شخصيًا وهو يتوجَّه بالقطار إلى فيودوسيا قصة عن خروج ألفي شخص من المسرح في موسكو عراة بالمعني الحرفي للكلمة، وعن تفرُّقهم إلى بيوتهم بسيارات الأجرة وهم في هذا المظهر.

كانت همسة «قوة شريرة...» تُسمع في الطوابير الواقفة أمام دكاكين اللبن وفي الحافلات الكهربائية والمخازن والشقق والمطابخ والقطارات، قطارات الضواحي وقطارات المسافات البعيدة، وفي المحطات كبيرها وصغيرها، وفي المصايف، وعلى البلاجات.

ومن البديهي أن أكثر الناس تطورًا وثقافة لم يشاركوا أي مشاركة في هذه الحكايات عن القوة الشريرة التي زارت موسكو، بل إنهم كانوا يسخرون من رواتها ويحاولون ردَّهم إلى جادة العقل. لكن الواقع يظلّ رغم كل شيء واقعًا كما يُقال. وإنكاره دون تقديم أي تفسير أمر غير جائز على الإطلاق. لقد كان أحدهم في العاصمة، والفحم المتبقي من غريبوييدوف وأشياء أخرى كثيرة أبلغ تأكيد.

وأخذ الناس المثقفون والواعون بوجهه نظر التحقيق: لقد عملت في العاصمة عصابة من المنوِّمين المغناطيسيين والمنجِّمين الذين يملكون ناصية فنَّهم ببراعة فائقة.

واتُخذت، بطبيعة الحال، الإجراءات الفورية والمشدَّدة للقبض على العصابة في موسكو كما في خارجها، لكن الإجراءات لم تؤدِّ إلى إي نتيجة للأسف الشديد. فقد اختفى ذاك الذي كان يدعو نفسه فولند مع كل أعوانه، ولم يعد إلى موسكو بعد هذا،

ولم يظهر في أي مكان آخر، ولم يأتِ بما يوحي بوجوده، فكان من الطبيعي تمامًا أن تظهر فرضية تقول بهروبه خارج البلاد، لكن حتى هناك لم يظهر ما يشير إلى وجوده.

استمر التحقيق في قضية فولند طويلًا، فالقضية، على أي وجه قلَّبتها، مريعة! فهناك قتلى، ناهيك عن أربعة بيوت محروقة ومئات من الذين انتهوا إلى الجنون. عدا عن أن اثنين من القتلى يمكن القول يقينًا إنهما من ضحاياه وهما: برليوز وذاك الموظف السيئ الحظ في مكتب تعريف الأجانب بمعالم موسكو، البارون السابق ميغل، نعم، هذان قُتِلا. لا شك في ذلك، وقد وجدت عظام البارون المتشيطة في الشقة رقم 50 في شارع سادوفايا بعد إخماد الحريق. نعم، كانت هناك ضحايا، وهذه الضحايا تستدعي التحقيق.

إنما كانت هناك ضحايا أخرى، ولكن بعد أن غادر فولند العاصمة، وكانت القطط السود، على ما في هذا من دواعي الأسى، الضحايا هذه المرة.

فقد قُتل بالرصاص، أو أُبيد بطريقة أو بأخرى، نحو مائة من هذه الحيوانات المسالمة المخلصة للإنسان والنافعة له في أماكن مختلفة من البلاد. وأحضر نحو خمسة عشر قطًا، وأحيانًا في هيئة مشوَّهة تمامًا، إلى أقسام الشرطة في مدن مختلفة. وعلى سبيل المثال أحضر أحد المواطنين في أرمافير إلى قسم الشرطة واحدًا من هذه الحيوانات البريئة وقد أوثق قائمتيه الأماميتين.

تربَّص مواطننا لهذا القط لحظة كان هذا بمنظره المتلصِّص (ماذا باليد إذا كان للقط هذا المنظر؟ هذا ليس سببه أن القطط سيئة، بل السبب إنها تخاف أن تُلحِق بها الكائنات الأقوى منها، الكلاب أو الناس. ضررًا أو إهانة، وهذه وذاك ليسا بالأمر العسير، لكن لا فخر في هذا، أؤكد لكم. نعم لا فخر على الإطلاق)، إذن لحظة كان القط بمنظره المتلصِّص يتحفَّز للانطلاق نحو مربِّي الحمام.

ارتمى المواطن على القط وأخذ يغمغم بسخرية ووعيد وهو ينزع ربطة عنقه ليقيده.

- «ها، ها شرَّفت إلينا في أرمافير الآن إذن، أيها السيد المنوِّم؟ لكننا هنا لا نخاف منك! أي لا تتظاهر بالبكم. نحن نعرف من تكون!».

واقتاد المواطنُ القطَّ إلى الشرطة. كان يجرُّ الحيوان المسكين من قائمتيه الأماميتين المربوطتين بربطة عنق خضراء، وهو يُعمِل فيه رفسات خفيفة كي يجعل القط يمشي على قائمتيه الخلفيتين.

- «أي أنت»، كان المواطن يصرخ مواكبًا بصفير الأطفال حوله، «أي أنت، دعك من التباله! لن يجديك هذا نفعًا! تفضل أمشِ كما يمشي الناس!».

كان القط الأسود يدير في ما حوله عينين ناطقتين بالعذاب، إذ لم يكن بوسعه، وهو المحروم من نعمة النطق، الدفاع عن نفسه بكلمة. وإذا كان الحيوان المسكين مدينًا لأحدٍ بخلاصه فللشرطة أولًا ولصاحبته وهي أرملة عجوز محترمة ثانيًا. فما إن أحضر القطُّ إلى قسم الشرطة حتى أيقنوا هناك أن رائحة سبيرتو قوية جدًا تفوح من المواطن، مما أدَّى بهم إلى الشك في شهادته والطعن فيها فورًا. في هذه الأثناء كانت العجوز التي عرفت من جيرانها بأمر قطها تندفع راكضة إلى القسم وتصل في الوقت المناسب. وصفت العجوز قِطّها بأفضل الأوصاف وأوضحت أنها تعرفه منذ خمس سنوات، حين كان لا يزال قطًا صغيرًا، وأنها واثقة منه وثوقها من نفسها، وبيَّنت أنه لم يأتِ في حياته عملًا سيئًا وأنه لم يسافر إلى موسكو أبدًا. فهو لم يغادر أرمافير منذ أن وُلد فيها وترعرع وتعلَّم اصطياد الفئران.

حُلَّ رباط القط وأعيد إلى صاحبته. ولكن بعد أن ذاق مرارة الألم، وعرف عمليًا ما معنى الخطأ والافتراء.

وبالإضافة إلى القطط لحق الأذى ببعض الناس. فقد جرت عدة اعتقالات. ومن بين الذين اعتقلوا لفترة قصيرة: في لينينغراد، المواطنان فولمان وفولبير. وفي ساراتوف وكييف وخاركوف، ثلاثة يحملون كنية فولودين. وفي قازان فولوخ، وفي بينزا، ولأسباب مجهولة تمامًا، المرشح في العلوم الكيميائية فينتشينكفتش... إلّا أن هذا كان هائل القامة أسود الشعر وذا بشرة سمراء غامقة.

وبالإضافة إلى هذا وقع في أيدي الشرطة وفي أماكن مختلفة تسعة بكنية كوروفين وأربعة بكنية كوروفكين، واثنان بكنية كارافايف.

وفي محطة بيلغورود أُخرج أحد المواطنين مكبَّلًا من قطار سيفاستوبول. وكان هذا المواطن قد خطر له أن يسليَ الركاب ببعض ألعاب الشعوذة بالورق.

وفي ياروسلافل، وفي فترة الغداء تمامًا، ظهر في أحد المطاعم مواطن يحمل وابور كاز كان قد أخذه للتو من محل التصليح. فما إن رآه البوابان حتى تركا مكانيهما في المشجب. وأطلقا ساقيهما للريح، وانطلق وراءهما كل روَّاد المطعم وعمَّاله هاربين. وخلال ذلك اختفى عند عاملة الصندوق كل الإيراد على نحو ملغز.

وحدثت أشياء أخرى كثيرة يتعذَّر تذكرها كلها، نعم، كانت هناك بلبلة عظيمة في العقول والأفكار والخواطر.

وعلينا هنا أن نعود مرة ثانية وثالثة فنقول كلمة حقٍّ في التحقيق. فقد اتخذ كل ما يجب اتخاذه ليس للقبض على المجرمين وحسب، بل لتفسير وجلاء كل ما اقترفوه.

وقد تم تفسير كل شيء، ولا مجال أمامنا إلّا الاعتراف بأن هذه التفسيرات معقولة ولا يمكن دحضها.

فقد أثبت ممثلو التحقيق والأطباء النفسيون الخبيرون أن أعضاء هذه العصابة المجرمة، أو ربما أحد أعضائها (والاشتباه انصبَّ هنا على كوروفييف في الدرجة الأولى) كانوا منوِّمين مغناطيسيين ذوي قدرة غير معهودة. فبإمكانهم إظهار أنفسهم حيث لا يوجدون أصلًا وفي مواقع وهمية ومتنقِّلة. وبالإضافة إلى ذلك كان بإمكانهم الإيحاء بيسر إلى الأشخاص الذين يحتكون بهم أن بعض الأشياء أو الأشخاص توجد في مكان ليست موجودة فيه أو لم توجد فيه بالفعل، وبالعكس كانوا يبعدون من مجال الرؤية الأشياء أو الأشخاص الموجودين في مجال الرؤية هذا فعلًا.

في ضوء هذه التفسيرات بات كلِ شيء مفهومًا على وجه اليقين، بما في ذلك حتى مناعة القطّ ضد الرصاص حين أطلقت عليه النار في الشقة رقم 50 لدى محاولة اعتقاله، هذه المناعة التي أثارت العقول والخواطر أكثر من غيرها والتي بدت عَصيّة على التفسير.

لم يوجد أي قط على الثريَّا بطبيعة الحال، ولم يفكر أحد بتبادل إطلاق النار معه، بل كانوا يطلقون النار في الفراغ، في حين كان بإمكان كوروفييف، الذي أوهمهم أن القط يفتعل أشياء وأشياء على الثريَّا، أن يوجد بكل سهولة خلف مطلقي النار وهو يستهزئ ويسخر ويستمع بقدرته الهائلة، إنما المستخدمة استخدامًا إجراميًا، على الإيحاء. وهو نفسه بطبيعة الحال الذي صبّ بنزيناً في الشقة وأضرم فيها النار.

وستيوبا ليخودييف لم يطِر بطبيعة الحال إلى أي يالطا، فحتّى كوروفييف لا يستطيع لعب مثل هذا الملعوب، ولم يرسل أي برقيات من هناك. فهو بعد أن أغميَ عليه في شقة زوجة الصائغ مذعورًا من لعبة كوروفييف الذي أراه قطًا يمسك فطرًا مخللًا بالشوكة، ظلَّ فيها إلى أن ألبسه كوروفييف على سبيل السخرية طاقية لبّاد وأرسله إلى مطار موسكو بعد أن أوحى مسبقًا لمحققي المباحث الجنائية، الذين كانوا في انتظاره، أن ستيوبا سينزل من الطائرة القادمة من سيفاستوبول.

والحق يُقال إن مباحث يالطا الجنائية أكَّدت أنها استقبلت ستيوبا حافي القدمين وأرسلت برقيات إلى موسكو بشأن ستيوبا، لكنه لم يعثر بين أوراق القضايا على أي نسخة من هذه البرقيات، مما حملهم على الانتهاء إلى نتيجة مؤسفة، لكنها تدحض، وهي أن عصابة المنومين المغناطيسيين تملك قدرة التنويم على مسافات بعيدة جدًا. وليس تنويم أفراد متفرِّقين وحسب بل مجموعات كاملة من الناس. وفي هذه الحالة بوسع المجرمين إيصال أكثر الناس توازنًا وأشدهم بنية نفسية إلى حافة الجنون.

فهل بقيَ، بعد هذا، من داعٍ لقول شيء في ألاعيب تافهة كدستة الورق في جيب شخص غريب في صالة المسرح والثياب النسائية المختلفة أو القبعة التي تموء وأشياء أخرى من هذا القبيل! مثل هذه الألاعيب يمكن لأي منوِّم مغناطيسي ممتهن ذي قدرة متوسطة القيام بها فوق أي مسرح، بما في ذلك الملعوب البسيط عن الرأس المقطوع لعرِّيف الحفلة. والقط الناطق هو أيضًا لغو خالص. فلتقديم قطّ كهذا أمام الناس يكفي الإلمام بالأسس الأولى لفن التكلّم من البطن، ومن الصعب أن تجد أحدًا يشك في أن مهارة كوروفييف تتعدّى هذه الأسس كثيرًا.

نعم، القضية هنا ليست قضية دستات الورق والرسائل المزيَّفة في حقيبة نيكانور إيفانوفتش. فهذه كلها أمور تافهة. القضية هي أنه، هو كوروفييف، الذي ساق برليوز إلى موت أكيد تحت عجلات الترام، وهو الذي دفع بالشاعر المسكين إيفان بيزدومني إلى الجنون، وهو الذي جعله يحلم ويرى في أحلامه المريعة أورشليم القديمة والجبل الأقرع المكتوي بأشعة الشمس وعليه المصلوبون الثلاثة. إنه هو وعصابته الذين حملوا مرغريتا نيقولايفنا وخادمتها ناتاشا على الاختفاء من موسكو. وبالمناسبة، عمل رجال التحقيق باهتمام زائد على حلِّ هذا اللغز. إذ كان المطلوب جلاء ما إذا كانت عصابة القتلة ومضرمي النيران هي التي اختطفت هاتين المرأتين أم أنهما هربتا مع هذه العصابة المجرمة برضاهما. وقرَّرت لجنة التحقيق بعد الرجوع إلى شهادة نيقولاي إيفانوفتش غير المعقولة والمتناقضة، وبعد الأخذ بعين الاعتبار رسالة مرغريتا نيقولايفنا الغريبة والجنونية التي تركتها لزوجها والتي تخبره فيها أنها ذاهبة لتصبح جنية، وبعد الأخذ بعين الاعتبار ترك ناتاشا ملابسها في مكانها، قرَّرت اللجنة بعد هذه الاعتبارات كلها أن سيدة البيت وخادمتها نُوِّمتا أولًا كما نُوِّم كثيرون غيرهما، واختُطفتا بعد ذلك. وراودت المحقِّقين فكرة، ولعلَّها كانت صائبة تمامًا، وهي أن المجرمين فُتنوا بجمال المرأتين.

أما الذي بقيَ مغلقًا على التحقيق فهو الدافع الذي حمل العصابة على خطف المريض النفسي الذي يسمِّي نفسه المعلِّم من مستشفى الأمراض النفسية. هذا الأمر لم يفلح التحقيق في جلائه، كما لم يفلح في الوصول إلى اسم المريض المخطوف، وهكذا اختفى المعلِّم إلى الأبد تحت هذا الاسم الذي لا يعني شيئًا: «الرقم 118 من الجناح الأول».

وهكذا انجلى كل شيء تقريبًا، وانتهى التحقيق كما ينتهي كل شيء عمومًا.

ومضت أعوام، وأخذ المواطنون ينسون فولند وكوروفييف والآخرين، وحدثت تغيرات كثيرة في حياة أولئك الذين عانوا من فولند وأعوانه. ومهما يكن من تفاهة هذه التغيرات وعدم أهميتها إلّا أن الإشارة إليها أمر واجب.

جورج بينغالسكي مثلًا رقد ثلاثة أشهر في المستشفى ثم خرج منها معافى، لكنه اضطر لترك العمل في «فارييتيه» في عزّ الموسم حين كان الجمهور يتدافع تدافعًا للحصول على بطاقات، فذكرى السحر الشيطاني وفضحه لا زالت حية. فترك بينغالسكي «فارييتيه» لأنه أدرك أن الظهور مساء كل يوم أمام ألفي شخص لا بد أن يتعرَّفوا إليه حتمًا. والتعرُّض دائمًا لأسئلتهم الساخرة عن حالته إن كانت أفضل برأس أم من دون رأس أمر موجع أكثر مما ينبغي.

وبالإضافة إلى ذلك فقد عرِّيف الحفل قدرًا كبيرًا من مَرَحه وهو شرط ضروري ولازم جدًا في مهنته. وبقيت لديه عادة كريهة ومضنية هي الوقوع في حالة من القلق عند اكتمال البدر ربيع كل عام، والإمساك برقبته بغتة والتلفت حوله في ذعر، والانخراط في البكاء. كانت هذه النوبات تمرّ، ومع هذا كان يتعذَّر عليه مع وجودها ممارسة عمله السابق، فتقاعد وأخذ يعيش من مدخراته التي يُفترض فيها، في حسابه المتواضع، أن تكفيه خمسة عشر عامًا.

ترك العمل إذن ولم يعد يلتقي بفارينوخا الذي اكتسب شهرة ومحبة واسعتين، حتى بين المديرين الإداريين للمسارح، لعطفه وأدبه الخارقين. فطالبو البطاقات المجانية على سبيل المثال لم يكونوا يدعونه إلّا «أبانا المحسن». وفي أي وقت كان يرنّ فيه الهاتف في «فارييتيه»، كان يسمع في السمَّاعة صوت رخيم إنما حزين يردُّ دائمًا: «نعم»، وكان الصوت نفسه سرعان ما يردّ على من يطلب إليه استدعاء فارينوخا على الهاتف بقوله: «أنا في الخدمة». ولكن بالمقابل كم عانى إيفان سافيليفتش من أدبه الجمّ هذا!

أما ستيوبا ليخوديف فلم يعد أمامه مجال للتحدُّث بالهاتف في «فارييتيه». إذ نُقل فور خروجه من المستشفى الذي أمضى فيه ثمانية أيام إلى روستوف حيث عُيِّن مدير محلّ كبير للمواد الغذائية. وهناك إشاعات تقول إنه كفَّ عن تناول «البورتفين» ولم يعد يشرب إلّا الفودكا المنقوعة في براعم عنب الثعلب مما أكسبه صحة وبدانة. ويقال أنه أضحى صموتًا، متجنبًا للنساء.

ولم يعد طرد ستيبان بوغدانوفتش من «فارييتيه» على ريمسكي بالفرحة التي كان يحلم بها بقوة طوال سنوات. فبعد المستشفى وكيسلوفودسك قدَّم المدير المالي، الذي دبَّت الشيخوخة في أوصاله وأخذ رأسه يهتزّ، استقالته من «فارييتيه». والطريف أن زوجة ريمسكي هي التي حملت كتاب استقالته إلى «فارييتيه». إذ إن غريغوري دانيلوفتش لم يجد في نفسه القوة على الذهاب حتى في وضح النهار إلى البناية التي رأى فيها زجاج النافذة المتصدِّع المغمور بضوء القمر واليد الطويلة المتسللة إلى المزلاج السفلي.

التحق المدير المالي بمسرح العرائس في زاموسكفاريتشي بعد اعتزاله العمل في «فاريتيه». وفي هذا المسرح لم يعد ريمسكي مضطرًا للتصادم مع أركادي أبولونوفتش سيمبلياروف الموقَّر بشأن السمعيات. فقد نقل هذا على الفور إلى بريانسك وعُيِّن مديرًا لنقطة تحضير الفِطْر. والآن يأكل الموسكوفيون الفطور المملَّحة والفطور البيض المخلَّلة ولا يملَّون من إطرائها والإعراب عن سرورهم البالغ بنقل سيمبلياروف. القصة قديمة إنما يمكننا القول إن شؤون السمعيات لم تستقم بين يدي أركادي أبولونوفتش على الرغم من كل محاولاته تحسينها، فقد ظلَّت على ما كانت عليه.

ومن الأشخاص الذين قطعوا صلتهم بالمسرح، إضافة إلى أركادي أبولونوفتش، ينبغي أن نذكر اسم نيكانور إيفانوفتش بوسوي، مع أن هذا لم يكن يربطه بالمسرح إلّا حبه للبطاقات المجانية. لم يعد نيكانور إيفانوفتش يتردَّد على أي مسرح سواء بغير المَجّان أو بالمَجّان بل صارت ملامحه تتغيَّر عند أي حديث عن المسرح. وكره نيكانور إيفانوفتش بالإضافة إلى المسرح، وبدرجة ليست أقل بل أكبر، الشاعر بوشكين والفنان الموهوب سافا بوتابوفتش كوراليسوف. وبلغ من كرهه هذا الأخير أنه حين رأى في العام الماضي في الصحيفة إعلانًا مجلَّلًا بالسواد ينعي الفنان الذي قضى في أوج عطائه بنوبة قلبية، احمرَّ وجهه حتى كاد يلحق بسافا بوتابوفتش وجأر: «هذا ما يستحقه!». زد على ذلك أن نيكانور إيفانوفتش الذي أيقظ موت الفنان المشهور في نفسه الكثير والكثير من الذكريات الأليمة، جلس ذلك المساء وحده برفقة البدر الذي كان ينير سادوفايا يشرب، وشرب حتى تعتعه السكر. ومع كل كأس كانت تتطاول أمامه سلسلة ملعونة من أوجه بغيضة، وكان في هذه السلسلة دونتشيل سيرغي غيراردوفتش والحسناء اللعوب إيدا غيركولانوفا، وذاك الأصهب صاحب إوزّات المصارعة، وكانافكين نيقولاي الصريح.

وهؤلاء ماذا حدث لهم يا ترى؟ العفو، لم يحدث لهم شيء على الإطلاق، ولا يمكن أن يحدث لهم شيء، لأنه لم يكن لهم وجود في الحقيقة، كما لم يكن وجود للفنان اللطيف عرِّيف الحفلات ولا للمسرح نفسه ولا للحيزبون البخيلة عمَّة بوروخوفينكوف التي تركت العملة الأجنبية تتعفن في القبو، ناهيك عن الأبواق الذهبية والطهاة الوقحين. هذا كله رآه نيكانور إيفانوفتش في الحلم بتأثير كوروفييف الرجيم. الشخص الوحيد الحيّ الذي طار إلى نيكانور إيفانوفتش في الحلم كان الفنان سافا بوتابوفتش بالذات، ولم يقتحم على نيكانور إيفانوفتش حلمه إلّا لأنه انغرز في ذاكرته بفضل برامجه المتعدِّدة بالراديو. هذا ما وُجد فعلًا، أما الآخرون فلم يوجدوا إطلاقًا.

ولعلَّ ألوييزي موغاريتش لم يكن له وجود هو الآخر؟ أوه، لا! هذا لم يكن موجودًا، بل لا يزال حيًا حتى الآن، وفي المنصب الذي تخلّى عنه ريمسكي بالذات، أي في منصب المدير المالي لـ «فارييتيه».

أيقن ألوييزي، بعد أن صحا بعد نحو أربع وعشرين ساعة من زيارته، أنه نسيَ ارتداء سرواله حين غادر موسكو لسبب ما في حالة من الاختبال، لكنه لم يدرك بالمقابل السبب الذي دعاه لسرقة دفتر المشتركين العائد لصاحب البيت والذي كان عديم الفائدة له. دفع ألوييزي مبلغًا ضخمًا من المال إلى مضيف القطار، وأخذ منه بنطالًا عتيقًا وملوَّثًا وعاد أدراجه من فياتكا. لكنه لم يجد بيت صاحب الدار مع الأسف. فقد التهمت النيران البيت القديم بكاملة. لكن ألوييزي كان على قدر عظيم من روح المبادرة فما هما إلا أسبوعان حتى كان يقطن غرفة رائعة في زقاق بروسوف. وما هي إلّا بضعة أشهر حتى كان يجلس في مكتب ريمسكي. وكما عانى ريمسكي من ستيبان، عانى فارينوخا الآن من ألوييزي. والآن لا يحلم إيفان سافيليفتش إلا بطرده بعيدًا عن «فارييتيه»، لأنه، كما يهمس فارينوخا أحيانًا في مجالسه الخاصة: «لم يصادف في حياته نذلًا كألوييزي هذا، وأنه يتوقَّع من ألوييزي هذا فعل أي شيء».

لكن لعلَّ المدير الإداري كان صاحب هوى. إذ لم يسجِّل على ألوييزي أية أمور غامضة، بل لم تسجَّل عليه أية أمور اللهم إلّا تعيينه شخصًا آخر مكان مدير البوفيه سوكوف. أما أندريه فوكيتش سوكوف هذا فقد توفيَ من سرطان الكبد في مستشفى تابع لجامعة موسكو بعد نحو تسعة أشهر من ظهور فولند في موسكو...

نعم، مرَّت عدة سنوات، وخبت الأحداث الموصوفة في هذا الكتاب بأمانة وصدق، وانطفأت في الذاكرة، إنما ليس عند الجميع. لا، ليس عند الجميع.

ففي كل عام، ما إن يهلّ بدر العيد الربيعي حتى يظهر تحت أشجار الزيزفون في بتريرشيي برودي شخص في الثلاثين من عمره أو يزيد قليلًا؛ شخص ضارب إلى الصهبة ذو عينين خضراوين وملابس متواضعة. إنه الأستاذ في معهد التاريخ والفلسفة البروفيسور إيفان نيقولايفتش بونيريف.

ما إن يبلغ أشجار الزيزفون حتى يجلس تحتها، ودائمًا على المقعد نفسه الذي جلس عليه في ذلك المساء الذي رأى فيه برليوز، الذي نسيه الجميع من فترة بعيدة، لآخر مرَّة في حياته البدر المتساقط قطعًا.

كان البدرُ، الأبيض اللون في أول المساء، الذهبي اللون في آخره، الذي تراءى على صحنه ما يشبه تنينًا داكنا، يسبح فوق الشاعر السابق إيفان نيقولايفتش ويقف في الوقت نفسه في مكانه نفسه في عليائه لا يبرحه.

إيفان نيقولايفتش على علم بكل ما جرى، إنه يعرف كل شيء ويفهم كل شيء... يعرف أنه كان في شبابه ضحية منوِّمين مغناطيسيين مجرمين، وقد عُولج وشفيَ، لكنه يعرف أيضًا أنه لا يستطيع السيطرة على شيء ما وهذا الشيء هو البدر عند اكتماله في الربيع. فما إن يبدأ القمر يقترب من اكتماله، وما إن يأخذ الكوكب الذي تدلّى في وقت ما فوق الشمعدانين بخمس شعلات ينمو ويطفح ذهبًا، يغدو إيفان نيقولايفتش قلقًلا متوترًا، يفقد شهيته ورغبته في النوم، ويأخذ في انتظار اكتمال البدر، وما إن يكتمل البدر حتى لا يعود في وسع شيء في الوجود إمساكه في بيته. فيخرج مع المساء ويتوجَّه إلى بتريرشيي برودي.

وهنا يأخذ إيفان نيقولايفتش، وهو جالس في مقعده، يحدِّث نفسه بصوت عالٍ ويدخِّن ويزرّ عينيه باتجاه البدر تارة، وباتجاه الباب الدوّار الذي لازال يذكره جيدًا تارة أخرى.

ويمضي إيفان نيقولايفتش ساعة أو ساعتين على هذا النحو. ثم يخلع نفسه من مكانه ويمضي دائمًا في الخط نفسه عبر سبيريدونوفكا إلى أزقة أرباب بعينين فارغتين غير مبصرتين.

ويجتاز محل بيع الكاز ثم ينعطف حيث يتدلّى مصباح الغاز القديم المائل، وينسلّ خفية إلى السور المشبَّك الذي يرى خلفه حديقة كثيفة لكنها لم تكتسِ بعدُ بزهو الربيع، وفي الحديقة يرى دارًا قوطية يلوِّنها البدر من جانبها الذي يبرزَ منه المنور بنافذته الثلاثية الدرف، بينما يغرق جانبها الآخر في الظلام.

لا يعرف البروفيسور ما الذي يشده إلى السور، ومن الذي يقطن هذه الدار، لكنه يعرف أن لا جدوى من مغالبة نفسه عند اكتمال البدر. ويعرف، إلى ذلك، أنه سيرى في الحديقة خلف السور الشيء نفسه.

سيرى كهلًا وقورًا ملتحيًا يضع نظارة أنفية، ذا ملامح تشبه ملامح الخنزير شبهًا طفيفًا جالسًا على مقعد. وإيفان نيقولايفتش يجد دائمًا ساكن الدار هذا في الوضع الحالم نفسه، وهو يسمِّر نظره على القمر. ويعرف إيفان نيقولايفتش أن الجالس سيحوِّل عينيه، بعد أن تتمليا من منظر القمر، إلى نوافذ المنور لا محالة، وسيسمِّرهما عليها كأنه يتوقَّع أن تنفتح على مصاريعها ويظهر على حافة النافذة شيء ما خارق.

ويعرف إيفان نيقولايفتش ما الذي سيحدث بعد هذا عن ظهر قلب. وهنا لا بد من الإمعان في الاختفاء خلف السور إذ إن الجالس سيأخذ في هزِّ رأسه بقلق واضطراب ومحاولة التقاط شيء ما في الهواء بعينيه الزائغتين، ورسم ابتسامة مبهورة بالتأكيد،

ثم سيضرب كفًا بكف فجأة بشيء من الكآبة اللذيذة وسيغمغم ببساطة وبصوت عالٍ قليلًا:

- «فينوس! فينوس!.. آه، يا لي من غبي!...».

ويأخذ إيفان نيقولايفتش يهمس وهو يختبئ وراء السور دون أن يحوِّل عينه الملتهبتين عن الغريب الغامض:

«أيتها الآلهة!، أيتها الآلهة! هاكم ضحية أخرى من ضحايا البدر... نعم، ضحية أخرى مثلي».

وسيتابع الجالس كلامه:

«يا لي من غبي! لماذا لم أطِر معها؟ لماذا خفت، أنا الحمار العتيق! حصلت على ورقة! تحمَّل الآن أيها المغفّل العتيق!!».

ويستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن تصطفق النافذة في الجانب المظلم من الدار ويظهر فيها شيء ما ضارب إلى البياض ويتردَّد صوت نسائي مزعج:

«أين أنت يا نيقولاي إيفانوفتش؟ ما معنى نزواتك هذه؟ أتريد الإصابة بالملاريا؟ تعال اشرب الشاي!».

وهنا سيصحو الجالس طبعًا وسيجيب بصوت كاذب:

- «أردت تنشُّقَ بعض الهواء، يا روحي! الهواء هنا رائع!».

وسينهض من مقعدة وسيلوِّح بقبضته خلسة باتجاه النافذة المنغلقة في الأسفل متوعِّدًا ويمضي جارًا قدميه إلى بيته.

- «يكذب، إنه يكذب! أيتها الآلهة ما أكذبه!». يغمغم إيفان نيقولايفتش وهو يبتعد عن السور، «ليس الهواء هو الذي يشده إلى الحديقة، بل إنه يرى شيئًا ما على البدر في ليلة اكتماله الربيعية، وفي جوّ الحديقة، في العلوّ، أنا مستعدّ لأن أدفع غاليًا ثمن النفاذ إلى سرّه ومعرفة أية فينوس تلك التي ضيَّعها ويطوِّح الآن بيديه عبثًا في الهواء للإمساك بها!».

ويعود البروفيسور إلى بيته وقد بلغ به المرض أشده. تتظاهر زوجته بأنها لا تلاحظ حالته وتستحثه للإيواء إلى فراشه. أما هي فلا تأوي إلى فراشها بل تجلس قرب مصباح وكتابها في يدها، وتأخذ تتأمله بعينين تفيضان بالمرارة. إنها تعرف أن إيفان نيقولايفتش سيصحو عند الفجر مطلقًا صرخة أليمة، وسيأخذ في البكاء والتقلّب على جنبيه. ولهذا ترى على السماط أمامها تحت المصباح محقنة جاهزة وأمبولة مملوءة بسائل بلون الشاي الكثيف.

وتشعر المرأة المسكينة المرتبطة بالمصاب بهذا المرض الخطير أنها حرة الآن وبوسعها الاستسلام للنوم دون خوف. فإيفان نيقولايفتش سينام الآن حتى الصباح بوجه تعلوه السعادة وسيرى في نومه أحلامًا لا تعرف كنهها، لكنها أحلام سامية وسعيدة.

والذي يوقظ العالِم ويوصله إلى إطلاق الصراخ البائس في ليلة اكتمال البدر شيء واحد لا يتغيّر. فهو يرى سفاحًا غير طبيعي لا أنف له يطعن برمحه، وهو ينطّ ويطلق صوتًا مدوِّيًا، هيستاس المعلَّق إلى خشبة والفاقد الصواب في قلبه. ولكن لم يكن السفاح مرعبًا قدر ما كانت الإضاءة غير الطبيعية في الحلم الناتجة عن غيمة تغلي وتفور وتهوي على الأرض كما يحدث أوقات الكوارث العالمية فقط.

بعد الإبرة يتبدَّل كل شيء أمام النائم. يمتد من السرير على النافذة طريق قمري عريض، وينتصب في هذا الطريق شخص في بردة بيضاء ذات بطانة بلون الدم ويأخذ في المضي إلى القمر. ويمضي إلى جنبه شاب ذو ثوب ممزَّق ووجه مشوَّه... السائران يتحدَّثان بحماسة، يتناقشان ويريدان الاتفاق على شيء ما.

ويقول ذاك الذي يرتدي البردة وهو يحوِّل إلى رفيق دربه وجهًا متغطرسًا:

- «أيتها الآلهة، أيتها الآلهة، يا لها من ميتة سمِجة! لكن قل لي من فضلك»، وهنا يتحوَّل وجهه من الغطرسة إلى الضراعة، «لكنه لم يكن شيء من هذا، أليس كذلك؟ قل لي. أتوسَّل إليك، لم يكن شيء من هذا، أليس كذلك؟».

يجيبه رفيق دربه بصوت مبحوح: - «طبعًا، لم يكن شيء من هذا، إن هذه إلّا تهيؤات».

يرجوه لابس البردة في استعطاف: - «وتستطيع أن تقسم لي على هذا؟».

يجيبه رفيق دربه: - «أقسم لك». ولأمرٍ ما تبتسم عيناه.

- «لستُ بحاجة إلى أكثر من هذا!». يصرخ لابس البردة بصوت متقطِّع ويغذّ الخطو صعودًا إلى القمر جاذبًا رفيقه، يتبعهما كلب هائل مرهف الأذنين هادئ ومهيب.

إذَّاك يأخذ درب القمر في الفوران والغليان ويتدفَّق منه نهر قمري يفيض على جانبيه. القمر يصخب ويلعب، القمر يرقص ويتشاقى. إذَّاك تتشكَّل في التيار امرأة خارقة الجمَال تمسك بيد شخص نامي اللحية يتلفَّت حوله مذعورًا وتقوده إلى إيفَان. يتعرَّف عليه إيفان على الفور إنه الرقم 118، زائره الليلي، ويمدّ إيفان نيقولايفتش إليه في الحلم يديه، ويسأله بحماسة:

- «بهذا انتهى الأمر؟».

يجيب الرقم 118: - «نعم، بهذا انتهى الأمر يا تلميذي». أما المرأة فتدنو من إيفان وتقول له:

- «طبعًا، بهذا. كل شيء انتهى، وكل شيء ينتهي... سأقبّلك في جبينك وسيكون كل شيء عندك كما يجب أن يكون».

وتنحني المرأة فوق إيفان وتقبّل جبينه. وينهض إيفان إليها ويحدِّق في عينيها. لكنها تتراجع وتغادره مع رفيق دربها باتجاه القمر.

إذَّاك يأخذ القمر في الهيجان: يصب تيارات الضوء على إيفان مباشرة ويرش الضوء في كل الاتجاهات، ويبدأ في الغرفة فيضان قمري. يهتز الضوء ويعلو شيئًا فشيئًا ويغرق السرير. إذَّاك فقط يغفو إيفان نيقولايفتش بوجه تغمره السعادة.

ويصحو في الصباح صموتًا، إنما في كامل هدوئه وعافيته. ذاكرته المثلومة تهدأ وتستكين. وحتى اكتمال البدر التالي لن يزعج البروفيسور أحد، لا قاتل هيستاس الأجدع[1]، ولا حاكم اليهودية الخامس الظالم الفارس بيلاطس البنطي.

1929 - 1940

(1) الأجدع: مَن عوقب بقطع أنفه. الناشر.

# ملاحظات

ليس المقصود بهذه الملاحظات أن تكون مرهقة للقارئ، حيث لم يتم إدراج الأسماء التي يمكن الوصول إليها بسهولة عن طريق المصادر المفتوحة مثل الانترنت. وكان التأكيد فقط إمَّا على الإشارات الصعبة - تحديدًا الروسية منها - أو على المعلومات التي من الممكن أن توضِّح للقارئ بعض الفقرات الفرعية في الرواية. ومع أن بعض ملاحظاتي هنا جديدة، إلا أنني أدين بالفضل إلى هوامش وملاحظات كل الطبعات الروسية السابقة، ولكل دارسي بولغاكوف أيضًا، كما أدين بالشكر أيضًا إلى ماري آن سزبورلوك، وجوزيف بلاسيك لمساعدتهما في ما يتعلَّق البحث والتحرير.

إلنديا بروفير[1]

**الفصل الأول:**

**التصدير**: قام بولغاكوف بدمج العديد من العناصر الفاوستية (نسبة إلى فاوست) في هذه الرواية، إلا أن استخدامه لهذه العناصر كان دائمًا غير مباشر. يُلاحظ أن العديد منها مستوحاة من أوبرا فاوست للموسيقي الفرنسي شارل غونو، عوضًا عن قصيدة غوته.

**لا تتحدثوا أبدًا إلى أغراب**: هذه ليست واحدة من حكم الأمومة، إنها إشارة مهمَّة تصف حالة الخوف من الغرباء التي شاعت في الحقبة السوفيتية. ذلك أنه خلال تلك الفترة كان الحديث إلى الغرباء، خصوصًا الأجانب منهم، يمكن أن يودي بالمرء إلى الاعتقال، حيث يتم التعامل معك - ومعهم أيضًا - كجواسيس لقوى أجنبية..

**المقطع الأول**: أعاد بولغاكوف كتابة افتتاحية روايته مرَّات عديدة. استُخدمت النسخ

---

(1) كاتبة ومترجمة أمريكية، درَّست الأدب الروسي في جامعتي ميتشيجان وولاية واين، مشهورة بدراسة أعمال بولغاكوف. الناشر.

المختلفة للافتتاحية في طبعات روسية سابقة (بناءً على المسودة التي طبعتها أرملته إيلينا سيرجييفنا بولغاكوف).

**بتريرشي برودي:** موقع حقيقي في قلب موسكو القديمة. وبالإضافة إلى أن بولغاكوف قضى فيه وقتًا طويلًا عندما قَدِم إلى موسكو، فإن لهذا الموقع أهمية مزدوجة في الرواية، فقد سمِّيَ بذلك تكريمًا لبطريرك كنسية الروس الأرثوذكس. إن معظم الأماكن التي يصفها بولغاكوف في هذه الرواية يمكن أن نجدها في موسكو الحديثة (على الرغم من أن الكثير من أسماء الشوارع قد تم تغييره) مما يمكن أن يؤدي إلى وجود صناعة كاملة تقدِّم جولات سياحية للأماكن التي يذكرها بولغاكوف. وعلى كل حال، فإن المؤلف أحيانًا يقوم بتغيير أسماء الشوارع بما يناسبه، ويغيِّر مواقع الأبنية أيضًا، وقد أدى هذا إلى تحيُّر بعض النقاد الذين يريدون أن تكون طبوغرافية الأماكن دقيقة تمامًا. يمزج بولغاكوف عن سابق وعيٍ بين موسكو عشرينات وثلاثينات القرن الماضي.

**ميخائيل ألكسندروفتش:** الأسماء الرسمية الروسية تكتبُ بالطريقة التالية: الاسم الأول، ثم اسم الأب، ثم اسم العائلة. عندما تكون صيغة الكلام رسمية جدًا يُستخدم الاسم الأول ثم اسم العائلة. يُلاحظ أن الأحرف الأولى لاسم برليوز تطابق مثيلاتها في اسم بولغاكوف.

**ماسوليت:** رأى بولغاكوف أن ولع السوفييت بالاختصارات مضحك جدًا، وقام بابتداع العديد من الاختصارات الغريبة وغير المعقولة خلال كتاباته، على الرغم من أن أسمائها الحقيقة غريبة بما فيه الكفاية.

**بيزدومني:** هذا الاسم يعني حرفيًا «المشرَّد» وهو يذكِّرنا بسلسلة كاملة من الأسماء المستعارة تبدأ من مكسيم غوركي «المُرّ» وتنتهي عند ديميان بيدني «الفقير». بيدني كان أكثر قربًا إلى بيزدومني بسبب أعماله اللادينية الفجة، كما في «العهد الجديد من دون عيوب من المبشِّر ديميان» الصادرة عام 1925. على الرغم من أن البعض سعى إلى الربط بين شخصيات تاريخية وأبطال الرواية. إلا أن القليل قال إن الشخصيات الأساسية مرتبطة بشخصيات تاريخية فعلًا. إن شخصيات بولغاكوف تميل إلى أن تكون مزيجًا من مصادر عديدة، وفي بعض الأحيان مجرَّدة بشكل متعمَّد (شخصية المعلِّم تعتبر مثالًا جيدًا لهذا). بينما نجد أنّ الشخصيات الثانوية غالبًا ما تكون مأخوذة من شخصية واحدة.

**قصيدة طويلة مناوئة للدين:** السخرية في هذا المقطع السردي بالتحديد تتعلَّق بأنه

في عقدَيْ العشرينات والثلاثينيات من القرن الماضي في روسيا، وتحت اسم الشيوعية، كانت هناك حملة إعلامية واسعة لتشويه كل المعتقدات الدينية. وفي معظم المجالات كانت هذه الحملة ناجحة. لقد بدا الإيمان في العالم الفكري الماركسي شيئًا عتيقًا ورجعيًا، مسموح به فقط للطبقة القروية غير المتعلّمة. ومن الطبيعي جدًا أن يقوم المحرِّر بطلب قصيدة حول هذ الموضوع في وقت عيد الفصح، كانت هذه إحدى الطرق التي تعاملت بها البروباغندا مع استمرار احتفال الناس بالأعياد الدينية.

وملاحظات برليوز حول موضوع يسوع قريبة إلى حدٍّ ما من الأراء التي ردَّدها الصحفيين في ذلك الوقت، والذين نشروا أعمالًا في دورياتٍ مثل «الملحد» و«رجل دون إله». وعلى الرغم من أن بعض الشخصيات الحقيقية تم اقتراحها كنموذج أصلي لشخصية برليوز (سُمِّيَ تيمنًا بالمؤلف الموسيقي هيكتور برليوز الذي قام بتأليف الكثير من الأعمال ذات الصدى الواسع، من ضمنها السيمفونية الرابعة، ولعنة فاوست) فإن شخصيته تبدو كتجميع لعددٍ من المجانين السوفيتيين المشهورين، بمن فيهم الصحفي الشهير ميخائيل كولتسوف. سيلاحظ القارئ المهتم أن برليوز ما هو إلا محاكاة ساخرة للمسيح. ولديه، ضمن أشياء أخرى، إثنا عشر تلميذًا يجلسون حول طاولة في الماسوليت ينتظرونه... إلخ.

حين يناقش برليوز أساطير الآلهة، ويستعرض معرفته الواسعة بذكر عدد من آلهة الثقافات القديمة من أوزيريس المصري إلى ويتسليبوسلي الأزتيكي، فهو يقف على أرض صلبة طبقًا لمعايير المدرسة الأسطورية عندما يتحدَّث عن حياة يسوع. وعندما يعود إلى المصادر التاريخية فهو عادة يخطئ، ويترك بولغاكوف للقارئ مهمَّة اكتشاف ذلك. على سبيل المثال؛ الإشارة إلى المسيح لدى المؤرِّخ تاسيتوس لم يعتبرها كل الباحثين زائفة في ذلك الوقت. وإذا تذكَّرنا الصراع بين المدرسة التاريخية (التي ترى أن المسيح موجود فعلًا) والمدرسة الأسطورية (التي ترى أنه «ولدُ عذراء»، أو «أسطورة أخرى للخلق»... إلخ) والذي كان دائرًا بين حلقات الدراسة المسيحية بدءًا من القرن الثامن عشر وصاعدًا. سنجد أن ذلك الصراع متغلغلٌ في الرواية ومدمج في موضوع أكبر: ماذا يحدث حين تُجبر ثقافة بأكملها على إنكار الاعتقاد بوجود الله، لكنها تلتقي بالشيطان مجسَّدًا؟

برهان كانط: طرح الفيلسوف كانط ثلاث اثباتات لوجود الله ونقضهم بعد ذلك، وجاء بإثبات جديد لا يقنع الشيطان ولا حتى مواطن من موسكو في الثلاثينات.

وإثباته يقول إن فكرة الله تُطرح من أجل «الإرادة الأخلاقية». وهنا فإن بولغاكوف إمَّا يمزح، أو أنه لا يحصي بشكل صحيح. وفولند يذكر خمسة إثباتات مما يجعل إثبات كانط هو السادس، والإثبات الخاص بفولند هو السابع. إن هذه المناقشة بأكملها بل كل هذا الفصل هو قلب البنية الثيماتية والفلسفية للرواية.

**شتراوس:** هو ديفيد شتراوس (1808 - 1874)، باحث ألماني، ارتبط اسمه بأبحاثه عن الإنجيل، استفاد بولغاكوف من كتابه «حياة يسوع» في روايته هذه. ينتمي شتراوس إلى المدرسة التاريخية، التي تحاول أن تفصل بين الوقائع التاريخية والعناصر الأسطورية في الأناجيل.

**سولوفكي:** هو اسم مستعار لسجن مشهور في جنوب روسيا في جزر سولوفيتسكي في البحر الأبيض. وقد كان مشهورًا في الأساس بسبب الدير الموجود فيه، ولكن في عشرينات القرن الماضي تم إنشاء سجن مشهور ومرعب في المكان نفسه، وأصبح اختزالًا لأسوأ مصير يمكن أن يواجهه المرء. هناك مستوى آخر لهذه الإحالة يمكن أن يتلاءم مع النص الخفي للرواية؛ كان للدير تاريخ دموي في روسيا القديمة، ففي وقت إصلاحات الطقوس الكنسية في القرن السادس عشر، رفض الرهبان التابعين لهذا الدير أن يقبلوا التغيُّرات التي كانت ستجعل الكنيسة الروسية متلائمة مع عادات العبادة الأرثوذكسية اليونانية (سمِّيَ هؤلاء بالمؤمنين القدماء) وقد تم ذبح الرهبان بقسوة بعد حصار دام عشر سنوات.

**ويأخذ أهلك الأقربون بالكذب عليك:** قارئ الأدب الروسي سوف يرى في هذه الجملة البسيطة - عن فقدان السيطرة والموت - تناصًا مع قصة تولستوي «موت إيفان إيليش».

**عضو في الكومسومول:** منظمة الشباب التابعة للحزب الشيوعي. إن الفتاة العضو في منظمة كومسومول ستكون بريئة القلب وحسنة الدوافع. كأنها فتاة الكشافة السياسية، وهذا ما دعى برليوز إلى الاعتقاد بأن فولند يمزح.

**نعم، ألماني إن شئت...:** واحدة من الموتيفات العديدة في هذا الفصل والتي تشير إلى أسطورة فاوست. إن كلًا من قصيدة غوته وأوبرا غونو مستخدمتان كمصادر للحظات الفاوسية، وكتفاصيل لإضافة إشارات تقول إن فولند هو مفيستوفيليس (الروح الشريرة التي باع فاوست روحه لها)؛ مثلًا: العصا الموجود على رأسها شكل كلب، والمثلث الموجود على علبة السجائر، وعرض فولند لماركات مختلفة من السجائر، والعديد من الأشياء الأخرى كلها مرتبطة بالمصادر الفاوستية المختلفة.

اسم فولند مهم في هذا الصدد، يوضِّح بولغاكوف غايته في اللغة الروسية حيث لا يجعل الاسم يبدأ بحرف (ف) كما في المصدر الألماني (فولند، هو أحد أسماء الشيطان، ومستخدم عند غوته) ولكن الاسم يبدأ بحرفW الروماني، بالاضافة إلى أن W عندما تُقلب رأسًا على عقب تصبح M. وهو أول حرف من اسم المعلِّم بالروسية.

**هربرت أفريلاكسكي**: اسم البابا سيلفستر الثاني، الذي تولى في الفترة من عام 999 وحتى 1003 وكان باحثًا ودارسًا مهمًا في عصره. في بداية حكمه اعتُقد أنه يتبع المانوية (ديانة ثَنَوية قديمة) بناءً على مضمون رسائله. انتشرت شائعة تخص البابا ولها علاقة باهتمامات بولغاكوف: بعد وفاة البابا قِيل إنه كان يستحضر الأرواح، فبما أن علمه كان واسعًا جدًا، أعتقد الجهلة أن الشيطان قد لعب دورًا في ما يتعلّق باستحضاره الأرواح.

## الفصل الثاني

أول فصل يرد فيه ذكر بيلاطس، كما سيرد ذكره في فصول أخرى، سنسميها «فصول بيلاطس».

**نيسان**: الشهر الأول في السنة اليهودية (السابع في السنة الميلادية) في التقويم القمري اليهودي، وتقابله تقريبًا نهاية شهر مارس وجزء من أبريل.

**أيتها الآلهة، أيتها الآلهة**: هذه اللازمة الخطابية مأخوذة من أوبرا عايدة لفيردي، وهي لازمة أثيرة عند بولغاكوف استخدمها في كثير من أعماله، وترد في أكثر من موقع مفصلي في الرواية، كما تم استخدامها من قِبل شخصيات مختلفة على أنها إشارة أكيدة على وجود صلة خفية بينهم. في الأوبرا تنادي عايدة الآلهة لكي تساعدها في المقطع المسمَّى «Numi, pieta»، كما تناشد بعض الشخصيات الأخرى الآلهة بالطريقة نفسها.

**المجمع الكبير**: أي السندريون، استخدم بولغاكوف عمدًا الصيغة اليونانية غير التقليدية بدلًا من الصيغة الروسية السوفيتية، لما يُعرف عادة في اللغة الإنكليزية Sanhedrin (مجلس المحكمة الأعلى في القدس القديمة). قام المؤلف على امتداد هذه الفصول بنزع الألفة، أو عرض هذه المواد بطريقة غير تقليدية للقارئ الروسي، مع الاحتفاظ بصيغة مألوفة لها. فلو كان اليوناني مألوفًا، فإنه يستخدم الآرامي أو اللاتيني، إلخ. وبما أن القدس كانت في وقت المسيح مدينة متعدِّدة

اللغات (فاليهود الذين أصبحوا هيللينيين تكلَّموا اليونانية، والسكان المحليون تكلَّموا الآرامية، والحكّام الرومان تكلموا اللاتينية)، هذا المزج بين اللغات مبرَّر حتَّى ضمن حوار واحد. ومن الجدير بالذكر أن الشخصية الرئيسية الوحيدة التي أُعطيَ مرادف عبري لاسمه هو يشوع الغانوصري، ويسمَّى إيزوس في التوراة الروسية. وثمَّة اسم آخر تمَّت كتابته بطريقة مختلفة: ليفي ماتيفي (وترجمه يوسف حلاق للعربية: متَّى اللاوي) وهو شكل روسي لا علاقة له بالإنجيل للتلميذ السابع للمسيح: متَّى.

بغض النظر عن جهود بولغاكوف ليكون - أو ليبدو - دقيقًا، فإن هناك بالضرورة أخطاء متفرِّقة، أو بعض مواضع لم تُفهم بشكل صائب، مثل ذكر بوَّابة لم تكن قد بُنيت بعدُ في زمن الحكاية... إلخ، ونظرًا لتعقيدات وتعدُّد المصادر فإن بولغاكوف، وباعتباره هاوٍ غير محترف ولا يعرف سوى القليل جدًا عن تلك اللغات، فإنه قد قام بعمل مميَّز وملحوظ.

قاتل الجرذان: الترجمة الروسية (والعربية ليوسف حلاق) الذكية لبولغاكوف للمصطلح اللاتيني muricidus، والذي يشير إلى مساوئ أو فساد الجندي الجبان.

كتيبة: يستخدم بولغاكوف الكلمة اللاتينية التي ترادف «كتيبة» لكن يكتبها بأحرف روسية. كان بولغاكوف حريصًا على استخدام مصطلحات رومانية دقيقة في كل ما يتعلَّق بأجزاء الجيش، خلال فصول بيلاطس.

إن مصطلح «فوج» الذي سنصادفه لاحقًا يشير إلى أفراد الجيش الذين يمتطون الجياد، ويتراوح عدد أفراد الفوج بين 500 و1000 فرد. وهؤلاء كانوا مقسَّمين بدورهم إلى 24 أو 16 كتيبة، وهذه الوحدات سُمِّيت عادة أسماءً تشير إلى مصدر بلد المجندين، أو الإمبراطور أو اللواء الذي أنشأها. وأحيانًا سُمِّيت على شرف أسلحتهم. الراجلون كانوا منظمين إلى فريق من عشرة راجلين، والعشر فرق تكوِّن مائة. أغلب المجندين الذين تم وصفهم بدقة في فصول بيلاطس هم المجندون الذين جاؤوا من خارج إيطاليا ويحملون أسلحة خفيفة فقط، ومع الوقت فقدوا طباعهم المحلية، ولكن في هذه الحقبة كانوا مهمين للسيطرة على الإمبراطورية. كانت رتبهم تقسَّم إلى قائد عام وقائد مائتين ويأتي في الرتبة الأدنى منهم قائد المائة. كان لدى بولغاكوف الذين أمضى وقتًا قصيرًا في الجيش (في صفٍّ أكثر من جانب) خلال الحرب الأهلية إعجاب خاص بالخيالة.

أديستافيزو: يترجم حرفيًا إلى «وادي العذارى». هذه إشارة إلى موقع المعركة الشهيرة

بين القائد الروماني جيرمانيكوس، وقائد القبائل الألمانية أرمينيوس في عام 16 ميلادية.

**وعلى هذا الرأس الأصلع كان إكليل ذهبي:** الرجل المسن في كابري، الذي كان يظهر لبيلاطس عندما كان يستمع إلى الكاتب يتلو التهمة الثانية هو الإمبراطور ثيبيريوس، وهو الذي عانى من مرض الجذام وفق أحد مصادر بولغاكوف. هذا الجزء الصغير له صلة قوية بقصة حول الموت في البحر (مذكورة أيضًا في رواية بولغاكوف الأولى). ورواية بونين المعنونة «الرجل من سان فرانسيسكو» تتضمَّن أيضًا إشارة إلى كابري وتايبيريس. الرؤوس مهمَّة في الرواية كلها حيث يرد فيها مشهد مهم لقطع رأس. وفي الفكر الأبوكوليبسي كانت الرأس ترمز إلى روما ذاتها.

**يهوذا القيريافي:** خلافًا لاسم يهوذا المعروف «الاسخريوطي» فإن بولغاكوف يستعين بالكاتب الفرنسي إرنست رينان، ويأخذ منه هذا الاسم «القيريافي».

**وأشعل القناديل:** وفقًا للقانون اليهودي، يجب أن يكون فخ المجرمين مضاءً بشكل جيِّد لتجنُّب القبض على الشخص الخاطئ. ومن هنا نرى أن بولغاكوف يشير إلى معنى ضمني في فهم بيلاطس لشخصية يهوذا الحقيقية، ومعرفته بمن حثَّه على ما فعل.

**ديسماس، هيستاس:** هذه الأسماء مذكورة في المصدر التاريخي غير الديني (غير الانجيلي) والمسمَّى «العهد الجديد لنيكوديمس» Apocryphal New Testament of Nicodemus الذي استعان به بولغاكوف، بالإضافة إلى المصادر التاريخية الأخرى.

**برَّابان:** يستخدم بولغاكوف هذا الاسم بدلًا من فرافانVaravan الواردة في الإنجيل الروسي. وعلى الأغلب فإن رينان هو المصدر أيضًا. والاسم يعني ببساطة «ابن الأب»، إشارة لرمز المخلِّص. في هذا الجزء من الرواية، برَّابان ويشوع يتم اعتبارهما من قِبل أتباعهما أنهما رمزين للمخلِّص، ويجب على السلطة أن تقرِّر ببساطة من هو الأكثر خطورة.

**الفارس ذو الرمح الذهبي:** بيلاطس عضو في طبقة الفرسان ordo equester وعادة يكون الحاكم (البريفكتوس praefectus وهو لقب يستخدم غالبًا للإشارة إلى حاكم منطقة إدارية، كان لصاحبه أهمية كبيرة) من هذه الطبقة، الكلمة التي استخدمها بولغاكوف يمكن أن تُترجم حرفيًا إلى: راكب الخيل أو الخيَّال أو الفارس، وتدل على الانتماء إلى مجموعة نخبوية. رمز الخيَّال أو الفارس نراه في

كثير من أعمال بولغاكوف، ومن الواضح أن له أبعادًا في سيرته الذاتية. بالاضافة إلى الصلة الواضحة بفرسان رؤيا يوحنا الأربعة.

**بركة سليمان... العلامة الإمبراطورية:** هذه جروح قديمة يتذكَّرها الغريمان. الحوار بين بيلاطس والكاهن الأعظم مليء بالإشارات إلى معارك بين اليهود والحكومة الرومانية. يصف كلٌ من فيلو السكندري، وفلافيوس جوزيزوف، وهما اثنين من أهم مصادر بولغاكوف، هذه الحادثة التي توضح بجلاء عدم مراعاة بيلاطس للتقاليد الدينية المحلية، والتمرُّد المقصود والمتعمَّد، الذي يمكن للحاكم أن يقمعه بعنف شديد. يُذكر أن اليهود اعترضوا على العلامة الإمبراطورية التي يحملها الجنود وهم يدخلون القدس، باعتبارها ضد اعتقاداتهم الدينية، وفي النهاية تمَّت إزالتها. أما في ما يتعلّق ببركة سليمان، فقد قام بيلاطس ببناء مجارٍ مائية مرتفعة، كي تنقل المياه من البركة إلى المدينة بطول 37 كيلومتر، واستولى بيلاطس على أملاك المعبد لكي يقوم بدفع تكاليف هذا المجرى المائي. وبالطبع اعترض الكهنة على ما فعل، واشتعلت انتفاضة هائلة وتم قمعها من قبل جنود بيلاطس بقسوة وعنف.

**الساعة العاشرة صباحًا:** عبارة غامضة، بما أننا نعرف أنها الساعة الثانية عشرة ظهرًا من خلال عبارات أخرى، أجرى بولغاكوف تعديلات بسيطة نسبيًا من نسخة إلى نسخة، وبالتالي لا نظن أنه سيخطئ خطأً كهذا في عبارة مهمَّة وتختم فصلًا. وفي كل نسخ هذا الفصل كان الحكم سيُعلن في وقت الظهيرة والشمس تضرب على رأس بيلاطس وما بدأ في الساعة العاشرة بالفعل كان استجواب يشوع.

## الفصل الثالث:

**المتروبول:** فندق رائع، يقع في وسط موسكو، أنشئ بين عامي 1899 و1907. وبعد تجديده اعتاد الأجانب رفيعو المستوى على الإقامة فيه.

**والشيطان أيضًا غير موجود؟:** ثيمة مانوية تظهر جذورها سابقًا، وتتكرَّر هنا بشكل حرفي: إذا لم يكن ثمَّة إله، فلا شيطان أيضًا. ولكن، كما يظهر للقارئ الآن، فإن برليوز الملحد قد أمضى بعض الوقت مع الشيطان.

**ومرة أخرى... لاح القمر:** تتكرَّر الثيمات المتعلِّقة بالشمس والقمر في مواضع عديدة في الرواية، حيث تتم معاقبة بعض الشخصيات بواسطة القمر وبعضها الآخر بواسطة الشمس. هذه واحدة من الموتيفات التي تتكرَّر بشكل موسيقي في سياقات مختلفة، مثل الورود، والرؤوس المقطوعة، والسكاكين، واللون الأسود والأحمر والأصفر.

**الفصل الرابع:**

**الثلاثي**: فولند، والمرتِّل، والقط، يشكلون الثالوث غير المقدَّس. وإيفان على وشك أن يتمِ تعميده في نهر موسكو (في الموقع نفسه الذي شُيدت فيه كنيسة يسوع المخلِّص) يتبع ذلك نسخة إيفان الخاصة من درب الآلام (كما حدث للمسيح). ترد هنا الكثير من التفاصيل التي تحيل إلى أحداث من العهد الجديد، أحداث لم تُذكر في فصول بيلاطس، والتي تأخذ شكلًا فكاهيًا في الفصول المتعلِّقة بموسكو والتي سوف تستمر كذلك.

**البناية رقم 13**: مزحة خاصة، كان بولغاكوف وزوجته الأولى يعيشان في شقة تشاركية بائسة في بناء يحمل الرقم 13. الكثير من الشخصيات بمن فيهم أنوشكا التي أراقت زيت عباد الشمس، تأتي من هذه الفترة من حياة بولغاكوف. وفي محاولة لحل أزمة السكن، كانت الشقق التشاركية حلًا جحيميًا. في تلك الشقق، عاشت ست أو سبع عائلات وأحيانًا أكثر، تتشارك استخدام الحمامات والمطابخ، ما أدى غالبًا إلى صدامات شخصية بسبب الخلفيات والعادات المختلفة لهؤلاء الأشخاص الذين أُجبروا على العيش معًا.

**الأوركسترا التي تملأ كل مكان**: في ذلك الوقت كانت كل الشقق في موسكو تستقبل إرسال موجة الراديو نفسها. الموسيقى - وتحديدًا الأوبرا - التي أحبَّها بولغاكوف، ستلعب دورًا هامًا في هذه الرواية، غالبًا لإظهار أفعال كوميدية وتافهة. والأوبرا مرتبطة برسم أبعاد الشخصية عن طريق صوتها، فمثلًا يظهر صوت فولند الجهير في سياقات غريبة وأحيانًا دون ذكر اسمه، بينما تظهر الطيبة بوضوح في بحَّة صوت يشوع.

**الفصل الخامس:**

**غريبوييدوف**: هو اسم البناء الذي يضم جمعية الكُتَّاب، وهو إشارة واضحة لـ (harzen house) الذي كان في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي مقرّ العديد من الجمعيات الأدبية. وكان يضم مطعمًا جميلًا استدعى هجاء ماياكوفسكي في قصيدة تحمل الاسم نفسهHarzen House. ألكسندر هارزن كان أديبًا وسياسيًا شهيرًا ومهمًّا في القرن الماضي، كما كان ألكسندر غريبوييدوف. ولكن كان لبولغاكوف أسبابًا أخرى لذكر الأخير.

**بيريليغينو**: هو موقع خارج موسكو خاص بالنخبة الثقافية. وقريب من موقع نهر كليازما.

أمفروسي: اسم غريب جدًا، وطريف إلى حدٍّ ما، كما معظم الأسماء في هذا الفصل.
على الجانب الآخر، اسم إيرونيم بويريخين الأوَّل ليس غريبًا على اللغة الروسية فحسب، ولكن اسمه الأخير أيضًا يتضمَّن جذرًا يعني التململ.

الأدباء الاثنا عشر: اثنا عشر أديبًا يتجادلون حول من سيحصل على مكان في المنتجع الصيفي للكُتَّاب. إحالة مقابل العشاء الأخير، حيث كان النقاش يدور حول من سيلعب دورًا مهمًّا في المملكة القادمة.

هلّلويا: أغنية يستخدمها بولغاكوف في مواضع كثيرة في الرواية، وعادة كلازمة افتتاحية. وهو يشير هنا لأغنية فينسينت يومانس «هلّلويا» والتي انتشرت في روسيا عام 1928. وهذا مثال آخر على الموتيفات الدينية التقليدية التي تتحوَّل إلى محاكاة ساخرة. «هلّلويا» هنا تعني شيئًا مختلفًا تمامًا عن سياق الكلمة التقليدي المعروف: المجد للرب.

رقص غلوخاريوف: هذه الفقرة ذات صلة - إلى حدٍّ كبير -بالمؤلف غوغول (كما في لمسات كثيرة في الرواية). قائمة الأسماء والتوصيفات تعطي انطباعًا أن هناك المئات من الناس يرقصون، معظم هذه الأسماء لديها دلالات مضحكة. كلمة غلوخاريوف تعني منحوتة خشبية على هيئة دجاجة. دراغونسكي: وحدة من خيَّالة الجيش. تشيردكتشي: العلية أو السقيفة، بافيانوف: السعدان، بوغروخولسكي: المهرطق، سلادكي: الحلو، شبيتشكين: الكبريت، بوزدياك: المشاكس.

أيوهان من كرونشتات: القس الأكبر أيوهان من كرونشتات (1829 - 1908) كان مبشِّرًا شهيرًا، وقِيل إنه كان يقوم بالمعجزات أيضًا.

زوبروفكا: وهي فودكا بولندية مضافٌ إليها الأعشاب.

روخين: اسم ذو دلالة سلبية، جذر الكلمة يفيد التصادم والسقوط.

## الفصل السادس:

المحطِّم: كلمة مفتاحية سياسية، تعني الشخص الذي يعمل ضد النظام، ويقوم بتحطيم الأدوات والمعدات. وهي كلمة لا تختلف عن «المخرِّب» التي تعني الشخص الذي يسبِّب الخراب ولو بشكل سلبي كونه لا يعمل. في ذلك الوقت في روسيا انتشرت تعبيرات شهيرة مثل «عدو الشعب» و«الكولاك» (وتعني الفلاح الغني). وكان مطلوبًا من المواطنين الشرفاء أن يبحثوا عن تلك النماذج، وإبلاغ السلطات عنهم، الأمر الذي كان ينتهي في بعض الأحيان إلى إلقاء القبض عليهم.

**رفرفي! واخفقي!**: أغنية مديح للشعارات السوفييتية.

**الرجل الحديدي**: إشارة إلى تمثال ألكسندر بوشكين في ميدان بوشكين. والحديث هنا عن شاعر من الدرجة الثانية، اشتهر بالحسد، هو إلى حدٍّ ما يجمع بين شخصيات عديدة. ولكن من الواضح أن المقصود هنا الإشارة إلى ماياكوفسكي شاعر الثورة، بينما هو ينظر إلى التمثال ويطيل التأمُّل لماذا أصبح بوشكين مشهورًا. (العاصفة كالديجور» بيت من قصيدة شهيرة لبوشكين، كان بولغاكوف يحبها كثيرًا). ثمَّة صلة بين قصيدة ماياكوفسكي «يوبيل» 1924 التي يراجع فيها ماياكوفسكي آراءه السلبية السابقة في بوشكين الشاعر الكبير. وبرغم أن بولغاكوف وماياكوفسكي كانت لديهما آراء متضاربة حول الثقافة الروسية، تشير كل الدلائل إلى أن بولغاكوف كان يعتقد أن ماياكوفسكي - الذي كان يعرفه شخصيًا - شاعر حقيقي، على العكس من روخين. كانت ثقافة روخين بدائية لدرجة أنه أشار إلى الرجل الذي قتل بوشكين في معركة عام 1837 بوصفه «حارس من الجيش الأبيض». وهي عبارة تفيد الإساءة في ذلك الوقت، فهي تشير إلى الذين حاربوا من أجل الملكية في الحرب الأهلية الروسية، وتنطبق هذه العبارة على بولغاكوف، الذي كان لفترة قصيرة إلى جانب البيض بعد الثورة. ماياكوفسكي الذي انتحرعام 1930 (وأثَّر انتحاره كثيرا على بولغاكوف) قد أشار سابقًا إلى بولغاكوف باستهزاء وسخرية في مسرحيته «البَقّ» ويبدو أن ذلك كان تصفية للحساب بينهما.

## الفصل السابع:

**ليخودييف**: كلمة مشتقة من اسم قديم يعني «فاعل الشر». ستيوبا وأعراض ما بعد السُّكر الخاصة به، توازي في دلالتها حالة الدولة. وهناك أيضًا صلة بينها وبين شخصية ستيفا أوبلونسكي في رواية تولستوي «أنا كارنينا».

**بناية من ستة طوابق على شكل حرف النون (ن) في شارع سادوفايا**: حدَّد بولغاكوف موقع الشقة المشؤومة، في المبنى الذي عاش فيه خلال سنوات حياته المبكرة البائسة في موسكو. عندما عاش هو وزوجته في شقة من شقق المساكن الشعبية مع مجموعة متنوعة من العائلات. حياته في هذا المبنى ألهمته أكثر شخصياته سلبية.

**أخذ الناس يختفون**: على الرغم من أن القارئ العادي قد لا يهتم لذلك، لكن الاختفاء والاستجواب والخطف والعقاب، أفعال تُمارس باستمرار في هذا العمل، (قام بولغاكوف بترحيل كل ذلك إلى فصول بيلاطس)، كل هذه الممارسات تعكس

ملامح الحياة اليومية المعروفة في روسيا الثلاثينات. يخلط بولغاكوف عامدًا التفاصيل والبيئات العامة للعقدين، وذلك لأنه بدأ كتابة الرواية عام 1928 واستمر يكتبها في الثلاثينات. أصبح الاعتقال منتشرًا بشكل كبير بين الأشخاص الذين يعرفهم أو الذين سمع عنهم، وبعد قتل كيروف (عضو مهم في الحزب الشيوعي) في عام 1934 والذي أثار فوضى «الانتقام» (بعض الأدلة تشير إلى أن ستالين جعل قائد لينينجراد المشهور يقوم بقتل نفسه). لم ينجُ أصدقاء بولغاكوف أيضًا، وقد كان من الشائع أن يحتفظ المرء بحقيبة مجهَّزة مسبقًا في حالة طرق أحدهم الباب في منتصف الليل. الراوي هنا يظهر سذاجة مذهلة، حينما يربط اختفاء الناس بالشعوذة والسحر. فمثل هذه الأحداث كانت مريبة، دون أي ذكر للسحر، بما أنه لم تكن هناك أسباب منطقية تبرِّر القبض على أحدهم.

**بيراميدون:** اسم الماركة المسجَّلة لأمينوبايرين، دواء سيستخدم كالأسبرين لاحقًا.

**وها أنا ذا:** أولى الكلمات التي نطقتها شخصية مفيستوفيليس في اللبريتو الروسي في أوبرا فاوست للمؤلف غونو.

**رأى على مقبض الباب ختمًا هائلًا بالشمع الأحمر:** وذلك كي لا تُمسّ أي من الموجودات قبل دخول المباحث. ستيوبا يفترض أن برليوز قد تم القبض عليه.

**أزازيلو، أو عزازيل:** شيطان الصحراء القاحلة أو طقوس الفدية، وفق الكثير مما ذُكر في العهد القديم. ويمثِّل الشيطان في قصيدة الفردوس المفقود لجون ميلتون، وهو ذو صلة - بشكل أكبر هنا - بالملاك الساقط الذي علَّم الرجال السحر، والنساء التزيُّن.

## الفصل الثامن:

**دكتور سترافنسكي:** اسم موسيقي آخر للموسيقي إيغور سترافنسكي.

**إيفان:** على مدى هذا الفصل يبدو إيفان أكثر وأكثر شبهًا بالشخصية الفولكلورية إيفانوشكا، الذي يبدو أبلهًا ولكن يتَّضح أنه على حق دائمًا.

**يوجد أحيانًا بين المثقفين أيضًا أناس أذكياء:** بوصفه شاعر بروليتاريا، تم تدريب بيزدومني ليعتقد أن المثقفين لا قيمه لهم. كان هذا موضوعًا هامًا بالنسبة لبولغاكوف، الذي قضى وقتًا طويلًا يدافع عن طبقته.

**الفصل التاسع:**

**نيكانور إيفانوفتش بوسوي:** كلمة بوسوي تعني الحافي، وهذا يدل على الطابع الفلاحي لهذه الشخصية، هذه الشخصية وبيئتها مستشقّة من تجربة بولغاكوف في موسكو ومساكنها الشعبية في أوائل العشرينيات. بالنسبة لبولغاكوف، أزمة السكن في موسكو كانت أزمة أخلاقية في حد ذاتها. فقد أمضى الناس سنوات يحاولون العثور على شقة في مكان جيِّد، أو أخذوا يبحثون في صفحة الوفيات لكي يعثروا على شخص ميِّت للتو، كي يتمكنوا من الإقامة في شقته الخالية. بوسوي هو رئيس مجلس إدارة لجنة المبنى وذلك يعني أنه المسؤول عن كل التغيُّرات الأساسية داخل المبنى، رغم أن هؤلاء الرؤساء يُفترضُ أن يكونوا منتخَبين من قِبل قاطني المبنى، لكنهم أصبحوا طغاة دائمين؛ يدخلون الشقق دون إذن ويحدِّدون عدد الأفراد الذين يعيشون في الشقة الواحدة، وكيف تتم الصيانة، وإذا ما كانت الرُّشَى مطلوبة لإتمام الصيانة.

**اليوم قد لا أكون شخصًا رسميًا، بينما غدًا أكونه:** عبارة تعبِّر عن واقع منتصف الثلاثينيات حين يتم استبدال معظم درجات موظفي الحكومة الرفيعة منها والمنخفضة، عند صعود أو انخفاض النفوذ السياسي لمن يحميهم. وقد خسر الكثير منهم حرِّياتهم أيضًا.

**كوروفييف:** هذه الشخصية لها روابط أدبية عديدة، فهو يرتدي ملابس الشيطان الرثَّة، الذي يقوم بتعذيب إيفان في رواية الإخوة كارامازوف لدوستويفسكي، وبالتأكيد يشترك معه في أداء الشخصية ذات الود الزائف والمبالَغ فيه. ذُكر عن بولغاكوف أن هذا التزلُّف الزائد كان صفة بغيضة ومكروهة بالنسبة له. اسم كوروفييف الآخر في الرواية هو فاغوت (آلة الباسون الموسيقية) وهذه إشارة موسيقية بالروسية، ولكن الكلمة ذاتها بالفرنسية والإيطالية تعني أيضًا شخصًا أبله أو متحايل. تم تعريف هذه الشخصية بعد ذلك بوصفها قائد الكورال، ما يستدعي إلى الذهن شخصية أدبية أخرى؛ كابلمايستر كرايسلر Kapelmeister Kreisler للمؤلف الألماني الكلاسيكي هوفمان، وعلى الرغم من أن شخصية كاتِر مور Kater Murr للمؤلف الألماني ذاته، هي أحد مصادر شخصية القط المتكلِّم بيغيموت (بالروسية تعني فرس النهر)، إلا أن بولغاكوف نفسه كان محاطًا بالحيوانات أثناء زواجه الثاني من مُحبَّة الحيوانات ليوبوف زيلوسكايا، وكان مراقبًا للحيوانات بشكل عام (انظر رواية قلب كلب لبولغاكوف).

**تسجيل اسم الأجنبي مؤقتًا بين أسماء قاطني البناية**: بسبب أزمة السكن، والحاجة إلى السيطرة على الهجرة من الريف إلى المدينة، كان لدى روسيا قوانين حاسمة تتعلق بالسكن في المدن والتحرُّك ضمن المدينة بشكل عام، وهذا كان مطبَّقًا أكثر على الأجانب الذين كانوا مراقَبين بشكل أكبر طوال الوقت، وكان بوسوي هنا يقوم بمخاطرة كبيرة،إذ إنه لم يأخذ إذنًا من الأمن.

**الفصل العاشر:**

**فارينوخا**: الكلمة مأخوذة من اسم مشروب كحولي،عبارة عن فودكا بنكهة التوت.

...**أيتها الصخور، يا ملجئي**...: هذا سطر من «الملجأ»، ألحان فرانز شوبرت وكلمات لودفيك ريلستاب، من آخر مجموعة غنائية للموسيقار الرومنسي، المجموعة اسمها (أغنية البجعة)، مثَّل شوبرت أهمية كبيرة عند بولغاكوف.

**الفصل الثاني عشر:**

**جورج بينغالسكي**: اسم ساخر أيضًا يوحي - ضمن أشياء أخرى - بنمر بنغالي. بالروسية الاسم الأول متفرنس، حيث كُتب «جورج» بدلًا من الاسم الروسي «جورجي»، بينغالسكي أيضًا شخصية في رواية روسية شهيرة وهي «الشيطان التافه» لسولوغوب. هذه الشخصية ترمز لنمط يثيرسخط بولغاكوف حين يزور ملاهٍ شهيرة (الملاهي التي يوجد فيها أجانب يؤدون أعمال سحرية) وهي شخصية عرِّيف الحفلة، الذي كان رقيبًا سياسيًا أكثر من كونه فنانًا، وكان موجودًا ليحافظ على الطابع المدرسي للاحتفالية ككل.

**بيغيموت**: الاسم العبري للوحش في سفر أيوب (الذي يبدو أنه الاسم المسموع خطأ لاسم فرس النهر بالمصرية القديمة)، والاسم موجود في قوائم حامل كأس الشيطان، والواردة في كثير من المصادر المعتمَدة للسحر. هناك اسم آخر هو الأصح على الأغلب، في فاوست لغوته، يتحوَّل كلب بودل (مفيستوفيليس متنكرًا) إلى فرس نهر في اللحظة نفسها التي يترجم فيها فاوست مقطعًا من الإنجيل.

**رئيس لجنة السمعيات**: مؤسسة مختَلَقة، ربما كانت موجودة حقًا في سنوات التحكُّم البيروقراطي في المسرح، حين كان الكثير موظفين في وظائف لا ضرورة لها

**لويزا**: تشير إلى دور لويزا ميللر في مسرحية شيللر «الخيانة والحب».

**كلمات هذا المارش الغامضة نصف العمياء**: الكلمات من فودفيل (الفودفيل مقطوعة

موسيقية صغيرة تُعزف على المسرح بعد أو قبل الفقرات الرئيسية) نُشر عام 1839، ثم أعيد نشره عام 1937، تحت اسم Lev Gurych Sinichkin or a Provincial Debutante.

**الفصل الثالث عشر:**

**ظهور البطل:** يشدِّد بولغاكوف على أنه واعٍ تمامًا لغرابة ظهور البطل الرئيسي للرواية بعد أكثر من ثلثها، حتى الآن لم نحسِم بسهولة إن كان إيفان أو فولند هو البطل الحقيقي. بعض أبعاد شخصية المعلِّم بولغاكوفية جدًا: طلبه الدائم للهدوء، عدم إعجابه ببعض النقَّاد، (كلهم يحملون أسماء تشير إلى نقاد حقيقيين) إذ يتم الهجوم عليه في الصحف لعمل لم يُنشر كاملًا. على الرغم من ذلك كان بولغاكوف مختلفًا عن المعلِّم. لم يكن سلبيًا مثله، وعلى عكس المعلِّم تمتَّع بولغاكوف بحسٍّ دعابة. ثمَّة تفاصيل محدَّدة عن المعلِّم (مثل حالته العقلية، وحَرقه لروايته) تستدعي للذهن ليس فقط بولغاكوف ولكن أيضًا كاتبه المفضل غوغول، وفي نسخ مبكِّرة مختلفة من المعلِّم ومرغريتا، كانت الإشارة لغوغول أكثر وضوحًا، لكن في النسخة المتأخرة لم يظهر لغوغول سوى أثر بسيط.

**أوبرا فاوست:** أوبرا فاوست للموسيقي الفرنسي غونو، هي إحدى الأعمال المفضَّلة لدى بولغاكوف، وكانت عنصرًا أساسيًا في روايته الأولى «الجندي الأبيض»، إن رواية المعلِّم ومرغريتا ذات بنية روائية مماثلة لبنية الأوبرا عمومًا، لذلك فعمل غونو هنا أقرب للرواية من قصيدة غوته.

**أنا المعلِّم:** يمكن أن تُترجم هذه العبارة: «أنا معلمٌ». هنا تحمل العبارة معنيين؛ معلمٌ لا تلميذ، وأيضًا معلمٌ أي مدرِّسٌ وفنّان.

**أصحاب حق البناء:** طبقة خاصة جدًا من الناس وُجدت بعد السياسة الاقتصادية الجديدة في العام 1921. أشخاص معيَّنين محظوظين تم السماح لهم ببناء إنشاءات صغيرة ومحدودة، وبأن يصبحوا مُلَّاك هذه الأبنية. لم تدُم هذه الحالة لفترة طويلة جدًا بسبب الانتهاكات من قبل المغامرين، ولأن الحزب الشيوعي أراد استعادة سيطرته. أبدى بولغاكوف رأيًا سلبيًا بخصوص المنتفعين من السياسية الاقتصادية الجديدة، في الصحافة وفي أعماله الفنية. جدير بالذكر أن بولغاكوف نفسه قام بتأجير شقة من أحد هؤلاء الأشخاص.

**مغسلة:** يشدِّد المعلِّم باعتزاز على هذه النقطة، ذلك لأن المغاسل والأحواض

والحمامات والمطابخ في المساكن الشبيعة كانت مشتركة، وفي هذا الجزء من الحكاية يعلن المعلِّم أنه كان يستطيع استخدام المغسلة وحده.

**زهورًا صُفرًا بشعة تبعث على القلق**: mimosa، هناك حبكة لونية واضحة في الرواية، أساسها الألوان الأحمر والأزرق والأبيض، بينما أزهار مرغريتا هنا رمزٌ للبؤس، الأزرق الغامق هو لون بيت المجانين، وأيضًا لون الخيانة. يظهر اللون الأصفر مرة أخرى لكن على خلفية سوداء؛ حرف M أو «م» المشغول بحرير أصفر على طاقية المعلِّم السوداء التي ارتداها في المستشفى. في نظام بولغاكوف الرمزي أفضل الورود هي ذات اللون الأحمر. (وهي أيضًا مهمَّة في فاوست لغوته، وفي لعنة فاوست للموسيقار برليوز). والورود الحمراء ترمز للجمال الخالد. وعلى كل حال فإن بطانة بردة بيلاطس وبركة النبيذ عند رجليه لونهما أحمر بلون الدم، ولهما دلالة عكسية.

**تفيرسكايا**: الشارع الرئيسي الذي يؤدي إلى منطقة الكرملين، كان يسمَّى شارع غوركي لمدة طويلة أثناء الحقبة السوفيتية، والآن استعاد اسم تفيرسكايا. وعلى الرغم من أن الكثير من المباني الشهيرة في الرواية مبانٍ حقيقية في موسكو (على سبيل المثال المطعم المذكور في هذا القسم هو مطعم براغ) إلا أن بولغاكوف يغيِّر الوقائع الجغرافية حين يحتاج إلى ذلك، كما فعل في فصول بيلاطس. يهدف بولغاكوف إلى إظهار الحدث وكأنه حقيقي وإن لم يهتم بالدقة. وهذه نقطة يجب أن نتذكرها كل الوقت.

**زوجتي سرًا**: روسيو القرن العشرين يصفون أي شريك حياة جاد بأنه زوج أو زوجة، حتى لو لم يكن زواجهما قانونيًا، والفكرة أن الطابع الجدي للعلاقة مفهوم بسبب هذا الوصف. مرغريتا متزوجة قانونيًا من شخص آخر، ولكنها تُعتبر أكثر من زوجة بالنسبة للمعلم.

**رواية عن موضوع غريب**: ثمَّة صلات عديدة بسيرة بولغاكوف الذاتية في هذا الموضع. رواية بولغاكوف الأولى «الجندي الأبيض» نُشرت في دورية عام 1925 ولم يقرأها حينها سوى مجموعات أدبية مختلفة، ورأت أن من الصعوبة نشر عمل عن موضوع غريب كهذا. وعلى كل حال، لم يبدأ الهجوم الحقيقي على بولغاكوف إلا عندما حوَّل الرواية إلى مسرحية وعُرضت في مسرح موسكو الفني تحت اسم «أيام آل توربين». وفعلًا لا يوجد شيء أكثر غرابة من موضوع هذه الرواية؛ مصير عائلة تؤيِّد المَلَكية أثناء الحرب الأهلية. الهجوم في هذا الجزء من المعلِّم ومرغريتا مماثل

لهجوم النقّاد على مسرحيات بولغاكوف. وعلى الأخص مسرحية «موليير» التي مُنعت بعدما عُرضت مرات قليلة عام 1936.

**أرمان:** أعطى بولغاكوف الناقد المعروف «أفيرباخ» اسمًا زرادشتيًا يعني «الروح الشريرة».

**قال شيئًا عن خيوط مطر مائلة وعن اليأس:** صفة الميلان المضافة إلى المطر هنا لفتت نظر النقّاد الروس الذين يرون في هذا الجزء إشارة إلى قصيدة ماياكوفسكي «نحو البيت». وفي القصيدة يُعلن أنه يود أن يُفهم من قِبل بلده، أمّا إذا لم يُفهم فإنه سيمر مثل خيط المطر المائل. وتعبير «شيئًا عن» يشير إلى معنى خفي.

**أذكر، لا زلتُ أذكر:** نص يانوفسكايا يحذف هذه الفقرة بوصفها لم تكن جزءًا من النسخة النهائية ولكن من دون هذه الفقرة فإن المعلّم سيُهاجم بسبب عمل لم يُنشر، لاحقًا في هذا الفصل (في النسخة التي اعتمدتها يانوفسكايا) ذُكر أن مرغريتا تطلب سماح المعلّم لأنها نصحته بنشر فقرة من الرواية، وهكذا يتّضح أننا بحاجة إلى هذه الفقرة لكي يكون لكلام مرغريتا معنى. جدير بالذكر أن الفقرة ترد في نص ساكيانتس. من المستحيل أن نعرف أي نسخة كان سيختارها بولغاكوف لو لم يكن قلقًا من تدخل الرقابة. ورغم أنه من الممكن نظريًا مهاجمة عمل لم يتم نشره فإن تجربة بولغاكوف تضمّنت الهجوم على عمل نُشر بشكل جزئي (الجندي الأبيض)، وعلى المسرحيات قبل عرضها للعموم.

**المؤمن القديم المجاهد:** انظر إلى ملاحظة سولوفكي في الفصل الأول. وكإبن أستاذ لاهوت كان لدى بولغاكوف معرفة بهؤلاء الذين استمروا – وحتى تحت حكم السلطة السوفيتية – في تمردهم على تغيير الطقوس الكنسية الذي بدأ عام 1653، الإصلاحات التي بدأت بالممارسات الدينية جعلتهم يجأرون بالشكوى من المسيح الدجال ونهاية العالم. فبالنسبة لهم، الإيمان الحقيقي كان مرتبطًا بالتأكيد بأشكال العبادة الصحيحة.

**أيام خريفية كئيبة... هذا فصل مثلًا لا يمكن أن يُنشر:** هذه الفقرات الثلاث موجودة في نص ساكيانتس لكنها غير موجودة في نص يانوفسكايا، قرأت يانوفسكايا نسخًا عديدة من الرواية وقرّرت أن هذا الجزء لا ينتمي إلى النسخة الأخيرة، ولكني أشعر أن هذا الوصف للجار الخائن أساسي وعلى الأغلب انصاع بولغاكوف لرقابته الذاتيه وحذفه. ليس من عادة بولغاكوف أن يقدّم معلومات قليلة عن محنة المعلّم. إن التوقيت هنا ذو دلالة بالنسبة للقراء الروس، لأن الخريف والربيع كانا فصلي

تزايد الاعتقالات، حين كانت الحكومة تحاول أن تلفت نظر الشعب بعيدًا عن فشل النظام الاقتصادي والزراعي.

**ألوييزي موغاريتش:** كلمة ألوييزي غريبة على الأذن الروسية، وموغاريتش هو اسم ساخر زائف يحمل معنى تقديم رشوة، أو مشروب على سبيل الرشوة، للشخص الذي يقدِّم تسهيلات في صفقات الأعمال.

**وأخذت أحرقها:** بولغاكوف نفسه فعل ذلك بعدد من مسوداته عام 1930، عندما كان فعليًا ممنوعًا من عرض مسرحياته. الكثير من تفاصيل قلق المعلِّم هي من سيرة بولغاكوف الذاتية. على سبيل المثال، أصيب بولغاكوف في منتصف الثلاثينات برهاب الازدحام وتم علاجه بطرق مختلفة.

**في منتصف كانون الثاني:** تم اعتقال السيد بشكل لا يدعو إلى الشك، ودليلنا تفصيلة أن معطفه مقطَّع الأزرار (من عادات السوفييت في ذلك الوقت أن يقوموا بقطع كل أزرار ملابس سجنائهم). وهي عبارة توازي «قرع الأبواب» عند الغرب، أو عبارة «زوَّار الفجر» عند العرب (الناشر). يبدو أن المعلِّم احتُجز فقط لمدة ثلاث شهور ثم تم إرساله إلى العيادة. النسخ المختلفة تشير إلى أن بولغاكوف كان ينوي أن يظل المعلِّم مختفيًا لمدة سنة وشهرين، على أن يقضي جزءًا من تلك المدة في العيادة. يبدو أن بولغاكوف كان يحاول عرقلة الرقابة بمدة الثلاثة أشهر الناقصة، ولكن كانت هناك حالات يتم احتجاز الناس فيها لمدة قصيرة.

## الفصل الرابع عشر:

**كوَّة النافذة العليا:** فتحة تقع أعلى معظم النوافذ في روسيا، تُفتح شتاءً لتمرِّر القليل من الهواء.

## الفصل الخامس عشر:

**عملة أجنبية:** امتلاك مواطن لعملة أجنبية دون ترخيص كان جريمة في ذلك الوقت. الدولة كانت تفضِّل أن تستولي على كل العملة الصعبة لنفسها من خلال محال مخصَّصة لذلك تدعى Torgsins. هذه المحال تعاملت أيضًا مع الذهب والفضة والأحجار الكريمة.

**حلم:** في الأغلب، هذا الحلم مبني على واقعة ما، أحد أصدقاء بولغاكوف تم القبض عليه أثناء جولة اعتقالات عشوائية في بدايات الثلاثينات، مقصود بها استئصال هؤلاء الذين أخفوا الذهب والمجوهرات. وعادة ما يتم حبس مجموعة كبيرة من

الناس داخل غرفة واسعة ثم يعطونهم طعامًا مالحًا لكي يأكلوه ثم يمنعون عنهم الماء ودخول الحمام، وسرعان ما كانوا يعترفون بمعلومات عن الأشياء القيِّمة التي يخفونها، وطبعًا الاعتقال والسجن كان مصير هؤلاء عديمي الحظ الذين تم القبض عليهم.

**يتعامل بالعملة الأجنبية**: مشتقة من كلمة روسية تعني ببساطة: العملة. ولكن وتحت الحكم السوفيتي كانت تعني - بالإضافة إلى العملة الصعبة - العملات الذهبية القيصرية حيث كان يجب تحويلها، بمعدل تحويل منخفض، إلى العملة السوفيتية. نُظِّمت حملات في الجرائد تحث المواطنين الشرفاء على كشف المتعاملين بالعملة الأجنبية.

**بوشكين**: عادة يذكر بولغاكوف بوشكين في أعماله، وهذه القصيدة التي تتحدَّث عن شخص بخيل مناسبة جدًا. استخدام الشعر هنا هو أيضا محدَّد زمنيًا بالعام 1937 حيث كان الاحتفال بمئوية وفاة بوشكين، حينها كانت البلاد تعجّ باحتفالات أدبية.

## الفصل السادس عشر:

**بوَّابة الخليل**: واحدة من مفارقات تاريخية عديدة، هذه البوَّابة لم تكن قد بُنيت بعد.

**متَّى اللاوي**: لقد جمع بولغاكوف شخصيتين من إنجيلَين.. في إنجيل متى وإنجيل لوقا هذه الشخصية تُدعى «متَّى» وفي إنجيل مرقص تُدعى «لاوي». وعلى الرغم من أن هذه الفصول تستخدم المصادر التاريخية، يفضَّل أن نأخذ بعين الاعتبار أن بولغاكوف يدمج هذه العناصر بحرية، وكل ذلك تحت اسم ما يمكن اعتباره حقيقة أسمى، وبالتأكيد بهدف إشعار القارئ أن الحدث حقيقي.

**سكين خبز طويلة ومشحوذة كالشفرة**: السكاكين مهمَّة في الكثير من أعمال بولغاكوف، وعادة تظهر سكينة فنلندية تُستخدم لطعن شخص من الخلف، والفعل كله يُحكى كمجاز ما. والسكين هنا خاصة بتقطيع الخبز، ربما لأن الخبز في التراث المسيحي يمثِّل جسد المسيح.

**وغطَّت الظلمة أورشليم**: ورد في الإنجيل أن موت المسيح كان مصحوبًا بزلزال وظلام.

## الفصل السابع عشر:

**مكتب الأجانب**: هذا الاسم هو خليط لاسمين حقيقيين، أحدهما من 1920 مكتب

خدمة الأجانب، والثاني من Intourist 1929 وتُترجم إلى سائح أجنبي، هذان المكتبان كانا يعملان كمكاتب سياحية ومكاتب للتجسُّس في الوقت نفسه.

**زقاق فاغاتكوفسكي**: الكثير من المواضع الجغرافية من البعد الموسكوفي للرواية لها صلة عند هؤلاء الذين يعرفون المدينة جيدًا. لم يُذكر في هذه الهوامش سوى القليل من تلك الصلات، وهذه بالذات تستحق الذكر. فاغاتكوفسكي مرتبط بمكان تجمُّع المهرِّجين والأشخاص الذين يعملون في الترفيه، وأيضًا مرتبط بالمقبرة التي بُنيت خلال جائحة الطاعون عام 1771.

**ليرمنتوف**: كاتب وشاعر رومانسي مشهور من القرن التاسع عشر، أشهر رواياته: «بطل من هذا الزمان».

## الفصل الثامن عشر:

**القسم 412**: رقم مبالغ فيه جدًا. مسألة جواز السفر كانت مسألة خطيرة. وبعد فترة من عدم وجود جوازات السفر الداخلية، تم فرضها مرة أخرى في العام 1932. الحركة من مدينة إلى أخرى كانت منظَّمة بهذه الطريقة. لم يُعطَ للفلاحين مثل هذه الجوازات لكي لا يتركوا المزارع التعاونية المنتشرة في روسيا في ذلك الوقت.

**بحق المسيح**: الذكر الوحيد للمسيح في الرواية على لسان أحد الأبطال، خلافًا لعشرات المرات الذي ذُكر فيها الشيطان بشكل عفوي وعرضي...

**طازج من الدرجة الثانية**: هذه العبارة المتناقضة تم استخدامها شعبيًا فور نشر الرواية.

**كوزمين**: كُتب هذا الجزء بالكامل في الشهور الأخيرة قبل موت بولغاكوف. وهو ما يمكن أن نلاحظه بسهولة في الحوار حول كيف من المفترض أن يموت المرء مسمومًا. قام طبيب يُدعى كوزمين (حقيقي هذه المرة) بعلاج بولغاكوف، ومن الواضح أنه لم يكن معجبًا به كثيرًا، إذا لاحظنا انتقام بولغاكوف الساخر في نهاية الفصل.

## الفصل التاسع عشر:

**مرغريتا**: رغم أن هذه الشخصية يمكن أن تستدعي للذهن شخصية جريتشن لفاوست (كان اسمها الحقيقي مرغريت) والتي لم تكن بريئة. كذلك فإن اسم مرغريتا مقتبس من اسم مرغريت دو فالوا (1553 - 1615) التي كان زواجها من هنري الرابع شرارة مذبحة سان بارتيليمي (هي كاثوليكية وهو من أتباع الكنيسة الإصلاحية

الفرنسية). الملكة الفرنسية أيضًا عُرفت باسم مارغو وكانت بطلة رواية ألكسندر دوما، وأيضًا هناك بطلة أوبرا هوغونوتي للموسيقار ميربير، وهي أوبرا أحبَّها بولغاكوف كثيرًا منذ طفولته. في رواية دوما وفي نسخة الرسائل ومذكرات الملكة مارغو التي قرأها بولغاكوف، تظهر الملكة جريئة وعاطفية. في السرديات التاريخية يُقال إنها كانت شجاعة وعاطفية أثناء المذبحة. الملكة وصديقتها المقرَّبة اجتمعتا في المصائب. وتم قطع رأسَيْ عشيقيهما بتهمة التآمر على الملك. يستخدم دوما في روايته الأسطورة التي تقول إنهما اشترتا رأسي عشيقيهما وقامتا بتحنيطهما للحفاظ عليهما، وبالتأكيد كان لدى بطلة بولغاكوف أشياء مشتركة مع مرغريت دو فالوا. بطلته تشبه أيضًا زوجتي بولغاكوف الأخيرتين. الزوجة الأولى «تاتيانا لابا» التي شاركته كل مآسي حياته المبكِّرة، ولا يوجد لها انعكاس هنا (إلا إذا كانت الشخصية التي لم يستطِع المعلِّم أن يتذكَّر اسمها)؛ الزوجة الثانية «ليوبوفا بيلوزيرسكايا» كانت قد هاجرت وعادت مرَّة أخرى بعد مغامرات كثيرة، وكانت ذات شخصية جريئة وتحب المخاطرة، والزوجة الثالثة «إيرينا سيرجينا بولغاكوف» كانت بطبعها مضيافة وكانت مخلصة لعمل بولغاكوف الإبداعي كما كانت مرغريتا مخلصة للمعلم.

**بناءً صغيرًا من جذوعِ الأشجار**: بالنسبة للقارئ الروسي من الواضح أن بولغاكوف يصف وجود المعلِّم في مخيَّم أو في المنفى، على الرغم من أنه كان حريصًا على أن يصوِّر ما يحدث على أنه حلم.

**أبيع روحي للشيطان**: اللحظة الفاوستية الخاصة بالمساومة، ولكن هذه المرة الشخص الذي يقول هذه الكلمات المصيرية امرأة. وبالطبع دوافع فاوست مختلفة تمامًا عن مرغريتا.

**هل تريد اعتقالي؟**: عبارة بمثابة علامة تاريخية لروسيا في ذلك الوقت. سؤال مرغريتا يبدو رد فعل طبيعيًا للروس في ذلك الوقت. وعلى الرغم من أنها لم تفعل أي شيء خاطئ إلا أنها مستعدة لأن يتم القبض عليها.

**الفصل العشرون:**

**دهان أزازيلو**: بما أن أزازيلو هو الملاك الساقط الذي علَّم النساء تزيين وجوههن، فإنه من المنطقي أن يكون هو وليس بيغيموت من يتعامل مع مرغريتا في هذا الوقت.

## الفصل الحادي والعشرون:

**دكان لمشتقات النفط:** كانت محلات النفط في تلك الأيام تبيع الكيروسين (لتنظيف الملابس في المنزل) والكحول لمختلف أنواع المصابيح والولاعات، وأيضًا الصابون والكبريت.. إلخ. وعندما توفَّر الغاز والكهرباء لكل الشقق، ولم تعد تلك المحلات موجودة.

**كلودينا، أحقًا هذه أنتِ أيتها الأرملة التي لا تعرف الغمّ والكآبة؟:** كلودينا في الأغلب مرتبطة بمرغريت دو فالوا... فالمساعِدة الشخصية للملكة كان اسمها كلودين، كونتيسة تورنون.

**عرس دموي لصديقة جيسار في باريس:** كان جيسار محرِّر مذكرات مرغريت دو فالوا في القرن التاسع عشر. العرس الدموي هو مذبحة سان بارتيليمي.

**أحفل الاستقبالات:** ثمَّة شعور غوغولي في هذا الجزء الذي تتجسَّد فيه رحلة مرغريتا، حيث تحوَّل الرجل إلى خنزير بينما المزاج العام مرح ورمادي. يصف بولغاكوف بشكل نظري اجتماعًا للساحرات، لكن بأسلوب كوميدي أكثر مما هو خطير. إن الكثير من العناصر هنا تشير إلى العمل الموسيقي «لعنة فاوست» للملحن برليوز. حيث نسمع «رقصة السلف» بعد أن تغنِّي شخصية مفيستولفيس «ها هي الورود». حينما يكون فاوست نائمًا على ضفاف نهر إلبا.

## الفصل الثاني والعشرون:

**إحدى ملكات فرنسا التي عاشت في القرن السادس عشر كانت ستذهل أشد الذهول:** مرغريت دو فالوا كانت ستُذهل بالتأكيد، حيث يُقال إنها لم تنجب. رغم أن بولغاكوف قد يقصد هنا الكاتبة الفرنسية مرغريت نافار (1492 - 1549) مؤلفة الهيبتا ميرون. الاستخدام الدائم لصيغة التصغير «مارغو» يجعلنا نظن أن بولغاكوف يتحدَّث عن مرغريت دو فالوا.

**وفي هذه القوائم الذهبية السبع:** تفصيلة إنجيلية أدخلت إلى البعد الموسكوفي للرواية. هذا شمعدان يهودي.

**جعرانًا من حجر داكن رائع الصنع:** تميمة مصرية شهيرة، كانت ترمز في مصر القديمة إلى الشر الذي يؤدِّي إلى الخير.

**الألم في ركبتي:** إشارة فاوستية لاجتماع الساحرات على قمة «بروكن»، وهو الموقع الذي تحدَّث عنه الجزء الأول من قصيدة غوته والمسمَّى: Walpurgisnacht.

بالإضافة إلى ذلك، يرجع التراث الشعبي عرج الشيطان لسقوطه من السماء.

**اتبع وسائل جدتي:** لعب على الكلمات. في اللغة الروسية ثمَّة تعبير سلبي: جدَّة الشيطان.

**لقد بدأت الحرب هناك:** على الأغلب هذه إشارة للحرب الأهلية الأسبانية التي بدأت عام 1936.

**أبادونا:** «المدمِّر»، الاسم العبري لملاك ورد في رؤيا يوحنا. وباليونانية «أبوليون» وهو ملاك الحفرة التي لا قاع لها.

## الفصل الثالث والعشرون:

**صورة كلب بودل أسود في إطار بيضوي الشكل، مربوط بسلسلة ثقيلة:** إشارة فاوستية أخرى، مفستوفوليس يأخذ شكل الكلب في وقت ما، لكن هذا أيضًا صورة إنجيلية يتم قلبها، على عكس يشوع، فإن مرغريتا تمشي في درب الآلام مع شيء ثقيل معلَّق حول رقبتها.

**ورأت مرغريتا، التي كان كوروفييف يتأبَّط ذراعها، نفسها في غابة استوائية:** التفاصيل المبهرة لمشهد حفل الرقص الذي يبدو أنه صورة حديثة لاجتماع الساحرات، أيضًا يبدو نسخة من مشاهد حفلات الرقص الكلاسيكية التي نراها في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر. مصدر المشهد حياة بولغاكوف؛ فقد حضر بولغاكوف وزوجته حفلًا راقصًا في السفارة الأمريكية، وهذا بالنسبة للحياة اليومية في ثلاثينات القرن العشرين في موسكو شيء مذهل حقًا، في هذه الحفلة سنرى دببة وطيور وموسيقى ترفيهية، وكميات مهولة من الأكل والشرب وأيضًا مخبرين معروفين.

**السيد جاك:** مثل الكثير من ضيوف حفلات الرقص الذين يكونون عادة مشاغبين موثَّقين مثل مسمِّمي العصور الوسطى، أو يقعون في خانة شخصيات الخيميائيين الغامضة، هذه الشخصية لها أصل تاريخي. جاك كور كان جامعًا للتبرعات للملك الفرنسي تشارلز السابع (1403 - 1461)، وبعد مسيرة مهنية ناجحة قيل إنه كان خيميائيًا ومزوِّرًا وخائنًا، وقيل إنه قام بتسميم عشيقة الملك أغنس سوريل والتي ماتت فعليًا من الدوسنتاريا.

**الكونت روبرت:** روبرت دودلي ليكستر، عشيق الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنكلترا وهو متَّهم بأنه قد سمَّم زوجته.

**السيدة توفانا:** سجينة أسطورية. أكوا توفانا، أحد أسماء سُم شهير كان مستخدمًا في

القرن التاسع عشر في جنوب إيطاليا، هذه طائفة من المسمِّمين (ثمَّة كثيرات حملن الاسم نفسه) وُجدت في صقلية ونابولي. أشهرهن كانت السيدة توفانا، التي كانت مسؤولة عن مئات القتلى. كان السم يوضع في زجاجات معينة عليها صورة قديس وتباع في الأسواق بوصفها أدوات تجميل، كان يُعتقد حينها أن الزرنيخ (يعتقد البعض أنه الأفيون وليس الزرنيخ) مفيد للبشرة. الزوجات اللاتي عرفن محتوى هذه الزجاجات كن يستخدمنها كسم والنتيجة كانت عبارة عن موجة من تسميم الأزواج بيد الزوجات.

**وحَشَتْ فمه بمنديل**: هذه الشخصية تدمج ما بين ملامح من «غريتشن» عند غوته مع ملهماتها الواقعيات مثل «سوزانا براند» التي اتُّهمت بقتل طفلها، وأيضًا ثمَّة مزحة، لأن اسم الشخصية هنا «فريدا» والبعض يرى صلة بالمريضة الحقيقية «فريدا كيللر» التي وصفها عالم النفس السويسري «فوريل» في كتاب «أسئلة جنسية».

**الماركيزة**: الماركيزة دو برنفيلليرز، تم قطع رأسها عام 1676 لأنها قامت بدسّ السم لأبيها، عندما سجن عشيقها في سجن الباستيل، أقام العشيق صداقات مع باقي المساجين، للتعرُّف على السموم وخاصة تلك التي يصعب ملاحقة آثارها. وقد قامت بتسميم والدها ثم أخويها الاثنين وبالتالي ورثت كل شيء لكن الأطباء في النهاية استطاعوا التعرُّف على آثار السم وتم القبض عليها.

**السيدة مينكينا**: شخصية شهيرة في التاريخ الروسي، كانت مفضَّلة للكونت أراتشيف وكانت معروفة بمعاملتها السادية للخدم، وقُتلت عام 1825 في ظروف غامضة.

**الإمبراطور رودولف**: رودولف الثاني (1552 - 1612) كان من سلالة دولسفرج الألمانية، وكان مهتمًّا بالفنون والعلوم أكثر من اهتمامه بحكم إمبراطوريته، ويُقال إنه كان خيميائيًا في الأغلب لأن سكرتيره الخاص كان خيميائيًا.

**الخيَّاطة الموسكوفية**: إشارة داخلية لبطلة مسرحية بولغاكوف المسمَّاة «شقة زويا».

**مالوتا سكوراتوف**: اسم الشهرة لغريغوري سكوراتوف بيركورسكي، وكان سيئ الصيت والسمعة، وكان مقرَّبًا من إيفان الرهيب: الإمبراطور الروسي، الذي كان اسمه مرتبطًا بالإرهاب الذي قامت به عناصر الأمن التابعة لإيفان.

**بروكين**: إشارة فاوستية سحرية، هذه أعلى نقطة في جبال الهاردز في ألمانيا، وتبدو كذلك بسبب خدعة بصرية، عندما تكون الشمس منخفضة والظلال الضخمة تنعكس على الضباب في المنطقة، ويعتبر الفولكلور المحلي أن المنطقة سحرية. كانت أعمال السحر تُمارس لوقت طويل، بعد إدخال المسيحية، في يوم اجتماع

الساحرات والذي يصادف 30 أبريل. ولأن مشهد حفلة الرقص في حدٍّ ذاته كان صدى لتلك الاحتفاليات، فلهذه الاستعارة أبعاد كثيرة.

**أن يرش جدران المكتب بالسم**: هذه إشارة معاصرة. رئيس البوليس السري السوفيتي خلال حكم ستالين كان يُدعى «جنريخ ياغودا»، تم تدريبه ككيميائي وصيدلي مع التركيز على السموم. وبعد إطلاق أول محاكمات التفتيش العامة، سقط من نعيم ستالين، وتم اتهامه بمحاولة قتل خلفه يزهوف (الذي تطوَّر في عهده الإرهاب الأكبر) برش جدران مكتبه بالغاز السام. وسكرتيره ب. بولانوف، كان متهمًا أيضًا. المحاكمة التي كانت فيها اتهامات خطيرة بدأت عام 1938 في شهر مارس، وقرأ عنها بولغاكوف في الجرائد.

**ورأت مرغريتا على هذا الطبق رأسًا إنسانيًا مقطوعًا**: إشارة إنجيلية في غير موضعها، هذه قصة سالومي ويوحنا المعمدان الذي قُدِّمت رأسه على طبق. هنا ذروة الإشارات للرؤوس المقطوعة. إن تحوُّل هذه الرأس إلى جمجمة تتناسب مع تصويرات أخرى لهذه الثيمة، تحديدًا للجمجمة المرسومة على علم أرتشيبالد أرتشيبالدوفتش. كل هذا يمكن أن يكون مرتبطًا بجزئية أسطورة الصليب من إنجيل نكوديموس التي تروي قصة جمجمة آدم، الجمجمة الكبيرة التي تصبح الجلجثة ذاتها (الجلجثة هو مكان صلب المسيح حسب الإنجيل).

**إن الإنسان يُعطى على قدر إيمانه**: نسخة من السطور الموجودة في إنجيل متَّى.

**البارون ميغل**: برغم أن الإشارات إلى نماذج من الحياة الواقعية تحظى عادة باهتمام محدود من القراء غير الروس، إلا أن هذه الحالة استثنائية. عندما بدأ بولغاكوف الذهاب إلى تجمعات السفارة الأمريكية (وبدأ الدبلوماسيون الأمريكيون زيارته في البيت) صادف عميلًا أمنيًا من أحد فروع البوليس السري يدعى ب. ب. شتايجر، ومعروف باسم البارون شتايجر. وهذا العميل كان يتم استخدامه من قبل البوليس السري تحديدًا للتعامل مع سفراء أمريكا، بالاضافة إلى الأجانب المهمِّين الذين كان لديهم صلات بأشهر المسارح الروسية مثل مسرح الفن. وهناك حادثة واحدة على الأقل، كان فيها بولغاكوف وزوجته مجبرين على مغادرة السفارة الأمريكية مع البارون شتايجر على الرغم من أنهما عاشا في مكان بعيد عن محل سكنه. وعلى الرغم من أن بولغاكوف كتب مشهد إعدام واحد، فقد كتب التاريخ مشهدًا آخر؛ اعتقل البارون شتايجر عام 1937، ثم قُتل.

**وهناك، حيث سُفح، تنمو الآن عناقيد عنب**: هذا قلب للتناول في المسيحية، حيث

يتحوَّل النبيذ إلى دم المسيح، وربما إشارة أخرى إلى أسطورة الصليب التي تتضمَّن تفسير أن شجرة آدم (التي وجدت جمجمة آدم تحت جذرها) قد أصبحت صليب المسيح، فعندما نزف المسيح انساب دمه على الجلجثة وعلى جمجمة آدم. ما حرَّر آدم من خطيئة عقْده صفقةً مع الشيطان لكي يبقى في الأرض ليعمل فيها بعد طرده من الفردوس.

## الفصل الرابع والعشرون:

**المخطوطات لا تحترق**: عبارة دخلت التاريخ الأدبي الروسي، فولند هنا يتحدَّث عن خلود العمل الإبداعي. وربما بمعنى أنه سيُنشر عاجلًا أو آجلًا، وربما يذهب العمل الإبداعي إلى كاتب جديد ويصير إلهامًا من عالم آخر. ولكن رغم هذه العبارة كان بولغاكوف يعلم جيدًا أن المخطوطات تُحرق فعليًا، وقد قام عام 1930 بحرق بعض من مخطوطاته الشخصية ومن ضمنها المسودة الأولى لرواية عن الشيطان، فعل ذلك حين فقد الإيمان بمستقبله.

**صاعدًا الدرج**: يوجد تناقض هنا؛ طار موغاريتش، في مشهد سابقٍ، مباشرة من شباك فولند. يوجد بعض التناقضات النصية خصوصًا في المواد التي أُضيفت مباشرة قبل موت بولغاكوف. قصة موغاريتش بأكملها كانت إضافة متأخِّرة.

## الفصل الخامس والعشرون:

**ألا تكون «فاليرنو»**: نبيذ فاليرنو مذكور في الأدب اللاتيني الكلاسيكي، كان لونه كهرماني وليسٍ أحمر، ومن الواضح أن بولغاكوف اعتقد أن هذا النبيذ لونه أحمر وبعد ذلك تعلَّم شيئًا آخر وذكر تسيكوبا الذي هو نوع آخر من النبيذ (لونه أحمر بالفعل)، لكنه لم يُجرِ هذا التعديل في كل أجزاء الرواية. انظر الفصل 30.

**نخبنا، ونخبك أيها القيصر**: هذا النخب رغم كونه صحيح تاريخيًا في هذا الموضع، إلا أنه كان معروفًا وقت كتابة الرواية أيضًا. وبشكل عام، الكثير من الأشياء التقليدية في روسيا الثلاثينات مُرحَّلة إلى فصول بيلاطس: الاستجوابِ والضرب والتعامل مع طرفين متناقضين في السياسة والتخابر والتحريض. وكما ذُكر سابقا فإن الجزء الموسكوفي من الرواية يتضمَّن محاكات ساخرة عديدة.

**عرضتم عليهم شرابًا قبل صلبهم؟**: ثمَّة تقليلد يهودي يقضي بأن يتم إعطاء الشخص المدان نبيذاً فيه بعض الأعشاب المهدِّئة لتخفيف آلامه. وفق بيلاطس، هذا الشراب كان من المفترض أن يتم إعطاؤه إلى الرجال قبل شنقهم، وهذا لا يرد في الرواية

أصلًا. لقد رأينا في الفصل السادس عشر أن يشوع قد أُعطيَ اسنفجة مشبَّعة بالماء. لكن ليس لدينا معلومات عن أي شيء آخر. على الرغم من أن الفكرة قامت على أن متَّى كان موجودًا طوال عملية الاعدام، بعيدًا لكن على مسافة يستطيع معها أن يرى. أفراني شخص غامض جدًا، وهو مثل فولند يسيطر على مجموعة عنيفة، وقد يكون كاذبًا في هذا الفصل. وعلى الرغم من أنه ينفِّذ تعليمات بيلاطس، فإن وصف تعبيراته أثناء المقابلة كانت تدل على أن حقيقة ما حدث ليست كما رواه. على سبيل المثال، قبل إجابته عن ما إذا تم إعطاء يشوع شرابًا قبل الشنق، يتناسى أفراني نقطة مهمَّة، ويعذِّب بيلاطس بإهمال ذكر اسم يشوع. ويحذف أيضًا واقعة أن آخر كلمة قالها يشوع كانت «الوالي...». بولغاكوف هنا يستحضر جزءًا كبيرًا من خبرته كمسرحي، والتعليمات المسرحية متألقة مثل الكلمات نفسها.

**الجُبن**: إذا نظرنا لهذه الكلمة في سياق كل أعمال المؤلف، فهذه حقًا ثيمة بولغاكوفية، نراها في قصصه الأولى وأغلب مسرحياته وكذلك في آخر رواياته. الكلمة الروسية هنا هي «مالودوشي» والتي تعني حرفيًا خائر القلب وفاقد الشجاعة. لاحقًا، يستخدم بيلاطس كلمة محدَّدة وهي «تروسوست» والتي تعني الجبن.

**أنه سيُذبح هذه الليلة**: كما الكثير من شخصيات الطغاة في أعمال بولغاكوف (أنظر إلى مسرحيات الأيام الأخيرة، ومسرحية موليير) بيلاطس يعطي الأوامر بشكل غير مباشر. يبدأ بيلاطس هنا خلق أسطورة يشوع لأسبابه الشخصية، فهو يتمنَّى من جانب، بشكل ما، أن يُغفر له الإعدام الظالم ليشوع، ومن جانب آخر يتأكَّد أن قيافا سيتورَّط في مشاكل نتيجة موت يشوع.

**الفصل السادس والعشرون:**

**بنغا**: مزحة داخلية أيضًا، زوجة بولغوكوف الثانية «ليوبوف»، كان اسمها المستعار «ليو بنغا». وكانت هي الشخص الذي أدخل الحيوانات إلى حياة بولغاكوف.

**نيزا**: لقاء نيزا بيهوذا موازٍ للقاء المعلِّم بمرغريتا، الذي يوازي أيضًا لقاء فاوست بجرتشن في الشارع. هناك الكثير من المتوازيات ما بين الجزء الموسكوفي وفصول بيلاطس؛ مثل أنظمة الألوان، والطقس (خصوصًا وصف الشمس والقمر في لحظات حاسمة)، والبشاعات المعمارية، والمعلِّمين والتلامذة، والإطار الزمني نفسه، وبالطبع السلطة الطاغية الخفية عن نظر الجمهور.

**بستان الزيتون**: عبارة أخرى تفيد: الجشمانية. وفي إنجيل مرقص وإنجيل متَّى:

«جثسيماني».وطبقًا للأناجيل هو البستان الذي صلى فيه المسيح صلاته الأخيرة قبل أن يقبّله يهوذا ليسلّمه للجنود الرومان.

**شمعدانين هائلين يحمل كل منهما خمس شعلات:** تفصيلة دقيقة تاريخيًا، وجدها بولغاكوف مرسومة في كتاب «حياة المسيح» للكاتب الإنجليزي فريديرك فرار.

**من الآن سنكون معًا على الدوام:** عندما يقول يشوع هذا الكلام لبيلاطس في حلم الأخير، فهو يعبّر عن الفكر الموجود في إنجيل نيقوديموس: بيلاطس مرتبط بالمسيح إلى الأبد.

**أنا ابن الملك المنجّم:** هناك الكثير من المصادر التي تؤكّد هذا النسب، إحداها هي قصيدة بيلاطس التي كُتبت باللاتينية وتُرجمت إلى الروسية ضمن مجموعات من الكتابات الدينية غير الإنجيلية من الأدب اللاتيني في العصر الوسيط. هناك أيضًا عمل روسي من القرن الخامس عشر؛ «رحلة إلى فلورنسا» يتضمّن أسطورة عن بيلاطس ذُكرت في أوربا في ذلك العهد وتؤكّد ذلك النسب. لأن بيلاطس هو أحد الشخصيات القليلة الموثّقة جيدًا في الدراما المركزية في العهد الجديد، فمن المثير والطبيعي أن يستفيد بولغاكوف من الكتابات الدينية التي لا تعتبر جزءًا من الإنجيل، وذات الطابع الفولكلوري في هذه الحقبة الزمنية. معلومات بولغاكوف عن بيلاطس مصدرها الرئيسي فريدرك فيرار، كان اليهود يرون أن بيلاطس «متزمّت وبلا رحمة وعنيد». بيلاطس التاريخي كان حاكم اليهودية من 26 وحتى 36 ميلادية. وتاريخيًا، تعتبر إدانته للمسيح تنازلًا لليهود. غضب حاكم سوريا بعد أن اشتكاه السامريين، وأعاده تيبيروس إلى روما لكنه وصل بعد انتحار الإمبراطور. الكتابات الدينية التي لا تعتبر جزءًا من الإنجيل تقول إنه قد تناول السم، وهذه موتيفة يستخدمها بولغاكوف. بعض السلطات المسيحية شعرت أنه «مسيحي في ضميره». (انظر كتاب «Apologeticus» من تأليف «Tertullian») هناك العديد من الكتابات الدينية غير الإنجيلية التي كُتبت عنه.

**فاليريوس غراتوس:** الحاكم السابق لبيلاطس.

**ألا يكون يهوذا هذا قد انتحر:** كل الجمل في هذا الحوار ساخرة. اتفق بيلاطس وأفراني على سرد الأكاذيب. لكن هذه الجملة أشد سخرية، نعرف أن العهد الجديد يروي كيف انتحر يهوذا.

**لا وجود للموت... تين الربيع اللذيذ... مياه الحياة... بلّور شفّاف:** هذه الكلمات من المفترض أنها نسخة من لوغيا، وهي كلمات من المفترض أن المسيح قالها ووردت

في الإنجيل. هذه العبارات كانت صدى لأجزاء معروفة في العهد الجديد (المسيح يذكر شجرة التين التي لا تثمر) ورؤيا يوحنا. يحوي سفر رؤيا يوحنا رسالة تدمير، لكن الاستنتاج النهائي أنه سيكون ثمَّة سلام في العصر القادم: «وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم، والموت لا يكون فيما بعد، ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد، لأن الأمور الأولى قد مضت». وعلى كل حال، فإنه من المهم أن نضع في الاعتبار أن يشوع صرَّح بأنه لم يقل يومًا أغلب ما هو مكتوب في مخطوطة متَّى.

**الفصل السابع والعشرون:**

**بناية قرب جسر كامني:** إشارة مستترة إلى ما يسمَّى «بيت القادة». الذي تم بناءه في هذه المنطقة في أوائل الثلاثينات.

**الفصل الثامن والعشرون:**

**تورغسين:** كانت الدولة تهدف إلى أخذ العملة الصعبة من الزوَّار الأجانب ومن المواطنين على حد سواء، كانت لدى الدولة محلات متخصِّصة لعرض أشياء يصعب الحصول عليها بدءًا من الملابس وحتى الطعام. وهذه المحلات كانت لا تقبل سوى العملة الأجنبية. سُمح لأي شخص بالدخول إلى محال تورغسين، على عكس محلات الـ «بيريوزكا» التي وُجدت في نهاية الحقبة السوفييتية. لكن بالتأكيد لا يسمح الحرس الموجودون على البوَّابة بدخول شخص لا يوحي مظهره بامتلاك عملات أجنبية. اضطر بولغاكوف إلى استخدام هذه المؤسَّسة، حين اشترى قماشاً لخياطة ملابس العشاء لحفل الرقص في السفارة الأمريكية.

**هارون الرشيد:** بولغاكوف هنا يفكِّر في هارون الرشيد الأسطوري، وليس الخليفة العباسي، أحد شخصيات ألف ليلة وليلة، ففي هذه القصة يتنكَّر الخليفة كشحَّاذ ويدور في بغداد ومعه رفاق متعدِّدين، شاعر وموسيقي وقاتل مأجور. ثم يدعو مواطنين عاديين لايعرفون أنه السلطان إلى مجلسه.

**بانايف، سكابيتشيفسكي:** هما كاتبان من القرن التاسع عشر. بانايف (1812 – 1862) كتب قصصًا اجتماعية عاطفية، وسكابيتشيفسكي (1838 – 1910) كان ناقدًا وإعلاميًا.

**الفصل التاسع والعشرون:**

**واحدة من أجمل بنايات موسكو:** يمكن تمييزها بسهولة، إنها منزل باشكوف،

وهو قصر بُني عام 1780 تقريبًا، وكانت حقًا إحدى أجمل بنايات موسكو. قام بولغاكوف بزيارتها عام 1920 تقريبًا عندما ضمَّت البناية متحف رومیانتسيف، وهي الآن إحدى بنايات مكتبة روسيا القومية المعروفة سابقًا بمكتبة لينين. كان للبناية-القصر موضع متميِّز في وسط موسكو، ومشهد المدينة من على سطحها كان مبهرًا. هذا الموضع في الرواية أوبرالي جدًا، فيه موتيفات فاجنرية؛ أحصنة سوداء وخيَّالة وسيوف، وصوت فولند الجهير، كل هذه الموتيفات تملأ فصول الكتاب الأخيرة.

**جبَّة سوداء**: حدَّد بولغاكوف اختيار ملابس فولند بدقة عجيبة، فهذا النوع من الرداء يلبسه عادة الكهنة العلمانيون في الكنيسة الكاثوليكية.

**والأكواخ الصغيرة التي قُدِّر لها أن تكون مدمَّرة**: حين كان بولغاكوف يكتب، كانت هذه المنطقة قد تم هدم مبانيها (ومن ضمنها كاتدرائية المسيح المخلِّص) كان من المفترض أن تتم إعادة بنائها من أجل ترك مساحة لتشييد «قصر السوفييت»، لكن في النهاية لم يتم بناءه.

**روما تعجبني أكثر يا سيدي**: أزازيلو يفكِّر في شيء محدَّد هنا، فهو نادرًا ما يتكلَّم ولكن حين يفعل يكون كلامه مهمًا. كان من المفترض أن تكون موسكو روما الثالثة، وفقا لتوقعات روسية قديمة، لكن هذا لا يبدو أنه كافٍ لتبرير تعليق أزازيلو. سيكون الموضوع أكثر وضوحًا لو كانت هناك مقارنة أخرى بين روما وموسكو. ثمَّة حدث آخر متعلِّق بروما يبدو أنه الصلة بين المدينتين، وهو حريق روما الشهير في عهد نيرون عام 64 ميلادي. في الأصل، كان بولغاكوف يخطِّط لحرق موسكو بالكامل في نهاية الرواية، لكنه عدل عن خطته واكتفى بحرق بعض أجزاء في روسيا فقط.

**إنه لم يستحق النور، بل الراحة**: هذا تصريح هام جدًا، حتى في المسوّدات السابقة، لم يكن من المفترض أن يُذهب بالمعلِّم إلى النور. هناك العديد من النظريات حول هذا الموضوع لكن أكثرها إقناعًا هو أن المعلِّم فقد الإيمان بنفسه بشكل كامل، وهذه خطيئة كبيرة في نظر مؤلف فاوست على سبيل المثال، فهو يرى أن السعي يمثِّل كل شيء. في الكوميديا الإلهية لدانتي كان القمر، وهو موضوع مبهر بالنسبة للمعلم، هو مكان هؤلاء الذين تركوا نذورهم أو عهودهم غير محقَّقة ربما نتيجة لضغوط خارجية لم يتمكنوا من مقاومتها. من السهل أن نحسم أن المعلِّم لم يحقِّق تعهّده في أن يصبح كاتبًا وأن يستكمل العمل. يؤكِّد دانتي أن القمر هو مسكن هؤلاء الذين لم ينجزوا مهامهم بعد أن تمَّت إزالة الضغوط الخارجية.

**الفصل الثلاثون:**

**آن الأوان! آن الأوان!**: إشارة أخرى إلى بوشكين في قصيدة: «آن أوان الرحيل يا صديقي، آن الأوان» 1834. هذه القصيدة القصيرة تتضمَّن بيتًا عن وجود السلام والحرية فقط في الموت.

**سلام لكم**: عنصر إنجيلي آخر مستعار. هذه الكلمات موجودة في إنجيل لوقا 24:36 حين تحدَّث المسيح الذي قام إلى التلامذة، وهي مناسبة هنا بما أنه ستحدث قيامة بشكل ما.

**يتخضَّب بلون الدم**: كما قيل سابقًا، فإن النبيذ «فاليرنو» كان لونه كهرمانيًا. كان مخطط بولغاكوف أن يغير ذلك إلى نبيذ تسيكوبا الأحمر لكنه لم يقم بذلك.

**وأنت تفكِّر**: إحالة على ديكارت «أنا أفكر إذن أنا موجود».

**إشارة الصليب.. أقطعُ يدك!**: هنا، وعلى عكس فصول بيلاطس، الصفة الروسية من كلمة صليب، وهي كلمة تم الابتعاد عنها سابقًا. وهنا أيضًا الصدام المباشر الوحيد ما بين الشيطاني والمسيحي. من الممكن أن يكون من المقصود إخبارنا أن المسيحي يحاول أن يؤدي عملًا معينًا فيقوم أزازيلو بإيقافه بالكلام.

**الوداع، أيها التلميذ**: التوازي ما بين يشوع ومتى اللاوي واضح هنا.

**الفصل الحادي والثلاثون:**

**تلال فوروبيوف**: مكان مشهور جدًا في الأدب الروسي، ورد ذكره في أعمال كثيرة أشهرها مذكرات ألكسندر هرتزل (1812-1870). في عام 1935 تغيَّر اسم هذه التلال إلى تلال لينين. هذا الموقع لديه إطلالة رائعة على موسكو.

**الفصل الثاني والثلاثون:**

**أيتها الآلهة، أيتها الآلهة! ما أشد كآبة الأرض عند المساء!**: كُتبت هذه الفقرة بعدما علم بولغاكوف أنه سيموت من تصلُّب الكلى، المرض نفسه الذي قتل أباه في السن نفسها. نهاية هذه الفقرة كالتالي «مدركًا أنه وحده...». ومن الواضح أن بولغاكوف قد تعمَّد ترك الجملة مبتورة أثناء إملائه هذا الجزء على زوجته. بينما استخدمت النسخ السابقة إضافة إلينا سيرجييفا: «الذي يريحه» (وكذلك استخدمها يوسف حلاق). هذا القسم يذكِّرنا بنهاية أوبرا عايدة حين يغني الحبيبان دويتو «وداعًا أيتها الأرض» عندما يقترب الموت.

هذا الفارس مزح ذات مرّة مزحة غير موفَّقة: ثمّة إشارة للعبة الظلام والنور، الموجودة في تصدير هذه الرواية.

**قطًّا يسرٍّي:** من الممكن أن تكون شخصية تيل يورنشبيغل مصدر إلهام شخصية بيغيموت، تيل يورنشبيغل بطل القصيدة السيمفونية لريتشارد شتراوس ورواية تشارلز ديكوستر التي تحمل الاسم نفسه والتي كانت شهيرة جدًا في روسيا. تيل كان مهرِّجًا فلمنكيًا أسطوريًا، يخلِّف الخراب والدمار أينما ذهب. بداية في الأسواق ثم مع الكهنة والمعلِّمين، وفي النهاية يتم قطع رأسه.

**وظهرت في الأسفل جلاميد صخرية:** يبدو أن منفى بيلاطس كان جبل بيلاطس في سويسرا، المكان الذي يضعه فيه أحد المصادر غير الإنجيلية والذي يسمَّى «موت بيلاطس». وبالاعتماد على الأسطورة قام الرومان بحرق بيلاطس في وسط هذه الجبال، وفي يوم الجمعة العظيمة (الذي تم فيه صلب المسيح) من كل سنة، يقوم الشيطان برفع جثمان بيلاطس خارج القبر ويضعه على عرش من حجر حيث يقوم بيلاطس بغسل يديه (حركة رمزية لتبرئة نفسه من ذنب قتل المسيح).

**اثنا عشر ألف بدر:** من الواضح أن هذا خطأ. ارتفع أكثر من 24000 قمر خلال الألفي سنة.

**المعلِّم الرومنطيقي:** هذه نقطة مهمة. على الرغم من أن بولغاكوف كتب الرواية في زمن انتصار وطغيان الواقعية الاشتراكية، لكنه، كما المعلِّم، شعر بنفسه متأثرًا بشكل أكبر بالكتّاب الرومانسيين في القرن التاسع عشر مثل غوغول وهوفمان وغيرهما. بالطبع هناك أنوع كثيرة من الرومانسية، ولكن بالحكم على أعمال بولغاكوف فإنه من الواضح أن الإيمان بقيمة رؤية الفنان الفردية هي شيء أساسي ومهم. لقد شعر بولغاكوف أنه كان يقرأ عن نفسه في المقال الذي كان يتحدَّث عن هوفمان، وكان المقال يتضمَّن بعض هذه الأفكار: إن الفنان الحقيقي محكوم عليه بالوحدة، والفن لا حول له ولا قوة في مواجهة الواقع الذي هو تدمير للفن، والفنان ليس جزءًا من العالم العادي أو التقليدي، والوضوح والسلام ضروريان للإبداع. في هذا المقال نفسه عن هوفمان قام بولغاكوف بوضع خط تحت فقرة مضمونها أن الإنسان المبدع مقيَّد باحتمالين اثنين: اذا اعترف بالواقع فإنه سيصبح معزولًا عن المحيط الثقافي، وإذا لم يعترف فإنه سيموت مبكرًا أو سيصير مجنونًا. لكن بولغاكوف يعاني في هذه الرواية كي يقدِّم العمل الفني كوحي ينزل على الفنان الملهِم (المعلِّم). يقول إنه «حزر» كل شيء، ولم يخترع كل شيء. إننا هنا نتعامل

مع الفكرة القديمة القائلة إن الفنان هو أداة للوحي الإلهي.

**وتستمع في المساء إلى موسيقى شوبرت:** رغم أن هذا المؤلف الموسيقي الرومانسي الذي مات في سن صغيرة قام بتلحين أكثر من قصيدة لغوته (ومن ضمنها أغنية من فاوست)، فهو ذو أهمية مضاعفة بالنسبة لبولغاكوف. إن شوبرت مثل بولغاكوف قد عانى من الهزيمة الدائمة في حياته كملحّن، وكان مكتئبًا بشكل كبير لأسباب شخصية أيضًا، وقد أنتج ألحانًا جميلة موسومة بالتلقائية والفرح، ولكن الحزن والانتحار والموت أصبحت جميعًا من مواضيعه المعتادة، وشوبرت كما بولغاكوف عمل حتى مماته، ولم يتم الكشف عن مواهبه الموسيقية إلا بعد وفاته بمدة طويلة. لدينا الكثير من الأسباب للاعتقاد بأن بولغاكوف وجد أن مصيره مشابه لمصير شوبرت الفني والشخصي على السواء.

**اندفع فولند الأسود إلى الهاوية:** هذه العبارة توازي رحلة الجحيم، التي هي ذروة «لعنة فاوست»، للموسيقي هكتور برليوز.

**صبيحة يوم الأحد:** أحد عيد القيامة. إن المعلِّم ومرغريتا - مثل فاوست والكوميديا الإلهية - هي رواية عيد القيامة. القيامة أقدم وأقدس يوم في التقويم المسيحي، ومثل الفصح اليهودي يحدَّد على أساس حسابات في التقويم الشمسي والقمري. ولأن الحسابات كانت تُجرى بطرق مختلفة في أوقات مختلفة، فإنه من الصعب أن نقول إن بولغاكوف كان يقصد فعلًا أن أحداث بيلاطس جرت في توقيت أحداث موسكو نفسها. وبالتأكيد فإن أيام الأسبوع هي نفسها من الأربعاء وحتى صبيحة الأحد. نص يانوفسكايا يوجد فيه خطأ هنا، ربما حدث أثناء تصحيح الكتاب: في هذا العمل، وخصوصًا في فصول بيلاطس كان بولغاكوف حريصًا على أن يبتعد عن كلمات مثل «صليب، قيامة.. إلخ» وبهذا فإن من الواضح أن النص الروسي مخطئ. إن نص يانوفسكايا يقول إن بيلاطس قد غُفر له في صبيحة القيامة. الفرق بين كلمتي «الأحد» و«قيامة» بالروسية حرف واحد فقط، كان المؤلف طوال الوقت حريصًا على العلامات الزمنية في أحداث الرواية. مما يجعل الإشارة إلى الأحد منطقية، لا يوجد سبب يدعونا إلى التفكير أن بولغاكوف يقدِّم فجأة إشارات دينية كان يبتعد عنها بإصرار وجهد حتى هذه اللحظة.

**الخاتمة:**

ومع هذا، فما الذي حدث في موسكو بعد أن غادر فولند: الراوي الذي يغيب أحيانًا عن

الرواية عاد هنا لينتقم، ويردِّد أصداء رواة مشاهير من القرن التاسع عشر، خصوصًا دوستويفسكي وغوغول. النسخة الأخيرة من الخاتمة تمَّت كتابتها قبيل موت بولغاكوف وتم إلحاقها بالصفحة الأخيرة من أوراق المسودة المجمَّعة. اعترض الكثيرون على المفارقة الأسلوبية القوية هنا وتساءلوا عمَّا سيفعل بولغاكوف إن كان على قيد الحياة؛ هل كان سيتركها أو سيتخلَّص منها. ولأن الخاتمة ترفع إجمالي عدد الفصول إلى الرقم 33 الذي يحمل معنى (عمر المسيح عند موته) فإن من الغالب جدًا أن بولغاكوف كان سيبقي عليه. وفجأة، توسِّع الخاتمة النطاق الزمني للرواية، فقد مضى نحو ثماني سنوات قياسًا لعمر إيفان في هذا الفصل وهو أهم الأبطال في هذا الفصل. يجب أن تعود الرواية إلى بدايتها حيث نجد إيفان، فهو الشخص الوحيد الذي من الممكن أن يتعلَّم شيئًا مهمًا من حكاية المعلِّم ومرغريتا.

**الناس المثقفون**: هذا الاستخدام لكلمة «المثقفون» يرادف «الناس المتعلمون» وليس بالضرورة أن تكون لها أي علاقة بالثقافة الحقيقية. والمقصود بها هو التمييز بين الطبقة المتوسطة وفئة الجاهلين البائسة.

**فقد قُتل بالرصاص... نحو مائة**: برغم أن الحديث يدور هنا عن القطط فمن الصعب أن لا نرى إشارة سياسة أيضًا، بولغاكوف يكتب في وقت التطهير الأعظم (وهي سلسلة من حملات القمع والاضطهاد السياسي في الاتحاد السوفيتي دبَّرها ونفذها جوزيف ستالين بين عامي 1936 و1938).

**مرغريتا... الاختفاء من موسكو**: قد يكون ثمَّة خطأ، عرف القارئ مسبقًا أن مرغريتا ماتت جرَّاء سكتة قلبية في شقتها.

**لم يحدث لهم شيء على الإطلاق**: بولغاكوف يذكِّر القارئ بخبث أن هناك أجزاء من الرواية لم تحدث! هذا مشروع ساخر بعمق.

**معهد التاريخ والفلسفة**: في الواقع لم نجد مثل هذه المؤسسة، لكن إذا وُجدت فإن إيفان هو الشخص المناسب للعمل فيها، لأن فصول بيلاطس وقصة المعلِّم تنتميان لهذين المجالين (التاريخ والفلسفة).

**بونيريف**: الذكر الثاني فقط لاسم العائلة الحقيقي لإيفان، وله صلة بالهبوط والانهزام.

**إيفان نيقولايفتش على علم بكل ما جرى، إنه يعرف كل شيء ويفهم كل شيء**: ربما هذه إشارة إلى أنه تلميذ فاشل... تقبَّل إيفان التفسيرات العقلانية التي قدَّمها له العالم وبسبب هذه التفسيرات فإنه لن يصبح فنانًا قط.

**الفارس بيلاطس البنطي**: إن نص ساكيانتس فيه اختلافات بسيطة في العبارات ما بين

نهاية الفصل 32 والخاتمة، والفرق الرئيسي هو أن كلمة «البنطي» مكتوبة بشكل مختلف، إن لهذا أهمية كبيرة؛ إذا كانت النهايات مختلفة في نسخ الرواية، فمن الصعب الاعتقاد أن بولغاكوف لم يتذكَّر عبارة أساسية كهذه. لذلك يبدو أن نهاية الفصل 32 بالتحديد هي النهاية الحقيقية للرواية. تقول يانوفسكايا إن نص بولغاكوف النهائي انتهى بتغيير في كلمة «البنطي»، ولكن أرملة المؤلف إيلينا سيرجييفنا أدخلت التغيير الذي جعل الخاتمة والفصل 32 ينتهيان بكلمات متطابقة. لأسباب كثيرة، من المنطقي أن الفصل 32 هو نهاية عمل المعلِّم، وأن الخاتمة هي نهاية عمل بولغاكوف. هذه النقطة، مثل الكثير من الفروق النصية، يجب أن تُترك دون حسم كيفما كُتب اسم «بيلاطس».

تصميم الغلاف نجاح طاهر



# المعلم ومرغريتا

## ميخائيل بولغاكوف

من فاوست، ومن المسيح في مواجهة بيلاطس، ومن متّى ويهوذا، وكانط، وتولستوي، وغوغول وغيرهم، يستمد بولغاكوف رؤيته في مواجهة تلك الأيام الشديدة الوطأة على الناس في الاتحاد السوفياتي، التي انتشرت فيها الاتهامات بالعمالة، وكراهية الأجانب، والشك في كل شخص، والتعرُّض للاعتقال لأدنى سبب، وحيث تعيش عدة عائلات في شقة واحدة، ويسعى الناس عن طريق التزلّف والخداع لتحسين أوضاعهم.. إنه يواجه بروح هزلية ساخرة ذلك الجنون الشيطاني وتلك الأوضاع السوريالية. - **دار التنوير**.

* رواية باهرة محلّقة؛ إنها انصهار عجيب لعناصر شديدة الاختلاف... كأنها مقطوعة موسيقية يعزفها الأرغن والناي والمزمار معاً، في حين يشعل شخص ما مفرقعات بين أقدام العازفين - **نيويورك تايمز**.

* هي حقاً واحدة من أعظم الروايات الروسية في هذا القرن [العشرين] - **نيويورك بوك ريفيو**.

* كتاب مؤثر تأمّلي غامض بهيج إلى أقصى حد - **شيكاغو تريبيون**.

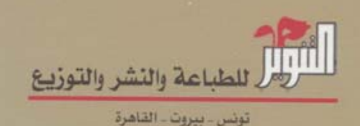
* رفيعة، فكاهية، واسعة الخيال... بجدارة تحتل مكانها ضمن التراث الغوغولي العظيم في ميدان القص الهجائي - **نيوزويك**.

* جَذَلٌ جامحٌ سورياليّ... رواية لامعة فضّاحة متألّقة - **جويس كارول أوتس**.

* متلألئة، ساحرة، هزلية، شديدة العمق، محيّرة أحياناً... عمل هجائي سياسي اجتماعي وافر الغنى يحرر القارئ ويقدم مثلاً سياسياً أخلاقياً بالغ العمق... قطعة من براعة الأداء ضمن تحفة فنية بطولية حقاً؛ إنها مهرجان للخيال - **من مقدمة سيمون فرانكلين**.



ISBN 978-977-6483-15-6



التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
تونس - بيروت - القاهرة